

دَعْوَةُ الْحَقِّ

مُحَاضِرَاتٌ

سَمَّاهاً الْعُلَمَاءُ الشَّيخَ سُلَيْمَانَ الْمَدائِنِيَّ

معالم التحريف في الثقافة الإسلامية

الاجتهاد في الأحوال الشخصية

سلطة الحكم في الإسلام

سيرة طواعيت العراق

الحرب العراقية

الشعائر الحسينية

مناصب الفقيه

مفهوم الوحدة

الديمقراطية

دعوة الحق

الإشاعة

القومية

الفننة

التوبة

الحرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا

يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسِطٍ

كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

دعوة الحق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ سورة الرعد - الآية 14



محاضرات وكلمات:

سماحة العلامة الشيخ سليمان (قده)

نجل المقدس العلامة الشيخ محمد علي المدني (قده)

الناشر:

مكتبة المدني للمعلومات

جدحفص - مملكة البحرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

وبعد..... فإننا في هذا التقديم لا نريد أن نعرّف بسماحة العلامة الشيخ سليمان المدني فهو في سماء العلم نجم لا يخفى، ولا نظن أننا بكلمات نعرضها يمكن أن نوفيه حقه، ولكننا نريد أن نعرّف بهذه المحاضرات التي جمعناها في هذا الكتاب، وأول ما نريد أن نؤكدده هو أن هذه المجموعة من المحاضرات لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من محاضراته القيّمة، بعد أن فُقدَ كثير منها وضاع معها علم غزير، وبعضها الآخر عبارة عن بحوث طويلة لم نجعلها في هذا الكتاب برجاء أن نتمكن من نشر تلك البحوث مستقلة أو ضمن مجموعة بحوث طويلة؛ مثل بحوثه في الأخلاق، وبحثه المطوّل في علامات ظهور الإمام المنتظر عند أهل الكتاب، وبحثه في فلسفة الأحلام وعلاقتها بالتشريع، وبحثه في علم الحديث المقارن الذي قارن فيه بين صحيح البخاري وكتاب الكافي للكليني، وبحثه في الشخصية الدولية للإسلام، وبحثه في دستور الدولة الإسلامية، وقد ضمّنه دراسة تحليلية لدستور الجمهورية الإسلامية وكلها بحوث رائدة لم يُسبق إلى تناولها، وكذلك دروسه في الفقه وبحثه في القضاء، ودروسه في الفلسفة والعقائد.

وأما هذا المجموع فإنه يضم مجموعة من المحاضرات والكلمات تصل إلى ستين، ألقاها سماحته على مدى خمس وثلاثين سنة في مناسبات مختلفة ولأغراض متعددة؛ فمنها ما كان محاضرة في موسم ثقافي؛ مثل محاضرة القومية والإسلام، ومحاضرة معالم التحريف في الفكر الإسلامي، ومنها ما كان محاضرة منفردة؛ مثل محاضراته عن الاجتهاد في الأحوال الشخصية، ومنها ما كان ضمن محاضراته في شهر رمضان التي كانت تستغرق الشهر الكريم كله مثل محاضراته عن نظام الحكم في الإسلام؛ التي هي حلقة في بحث طويل عن دستور الدولة الإسلامية، وبعضها كلمات ألقيت في مناسبات مختلفة.

ولعلّ أهم ما تتميز به هذه المجموعة من المحاضرات من المميزات الكثيرة ما يلي:

1. التنوع والثراء:

فهي تشتمل على محاضرات في الفقه والثقافة والعقائد والأخلاق والسياسة والتاريخ مع المحافظة على مستوى العطاء المتميز الذي تتسم به، وتكشف عن الثقافة الموسوعية لسماحة الشيخ يرحمه الله ومتابعته لكل جديد في العلم مع قتله القديم دراسة وبحثاً، وأنه يضرب في كل فن ويغوص في كل بحر.

2. السهولة والعمق:

ذلك أن هذه المحاضرات يمكن أن يقال عنها بحق إنها من السهل الممتع، فهي على سهولة العرض فيها وقرب المطالب ووضوح اللغة تتميز بالعمق وتحافظ على تماسك المادة العلمية، موفقة بين ما يقتضيه الخطاب العام والابتعاد عن الابتسار والسطحية، فهي كما وصفوا البلاغة في مثل هذا المقام بأنها مما تفهمه العامة وترتضيه الخاصة.

3. الأصالة والابتكار:

فهذه المحاضرات تتناول في كثير من الأحيان الموضوعات التي تطفح على الساحة الفكرية والثقافية والسياسية، أو تلك المسائل التي يدور حولها الجدل والتي يشتغل بها الناس وذلك في عموم محاضراته كما هو الحال في سلسلة المحاضرات التي تناولت الدستور الإسلامي إبان وضع الدستور الإيراني بعد الثورة، وكذلك محاضرات الأحلام التي كان الغرض منها محاربة بدعة السفارة وادعاء ورود التشريعات الدينية إلى الناس عن طريق الأحلام والأوهام والخرافات.

إلا أن هذه المحاضرات على الرغم من تناولها للموضوعات الجديدة إلا أنها لا تنقصها الأصالة والثبات والاتصال الوثيق بالثقافة الإسلامية الأصيلة المعتمدة على الكتاب والسنة وعلى البحث فيهما، وعرض الحلول المتميزة بالابتكار والأصالة للكثير من المشكلات الشرعية والثقافية

والفلسفية موظفا في ذلك علمه الغزير وتراثه الممتد عبر آبائه وأجداده والسلف الصالح من علماء بلدته وعلماء البحرين الذين تَمَرَّسوا في مواجهة المشكلات الشرعية الخاصة والعامة ومنهجهم الأصيل في الدفاع عن الدين.

4. الجرأة والمرونة:

كثيرا ما تعرض هذه المحاضرات والكلمات آراء في غاية الجرأة بسبب ما تصدع به من مخالفة التيار العام، والتصريح بنقد المجتمع أو الدولة، ونقد المخالفين والموافقين عند الاختلاف معهم، ومع ذلك فإن فيها تمسكاً بالمناقشة العلمية والخضوع للدليل والدعوة إلى الحوار الحر ونبذ العصبية والتجاوز عن الجزئيات والاهتمام بالكليات والدعوة إلى الالتقاء على كلمة سواء تكشف عن سعة الأفق واحتمال الخلاف إلى أبعد الحدود، وبذل على ذلك محاضراته في الموضوعات الخلافية في المؤسسات التي كانت تتبنى خلاف رأيه.

5. قوة الحجة:

إذ يتميز أسلوب الشيخ رحمه الله بأنه أسلوب جدلي قائم على مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل، كما يتميز بقوة الحجة والعارضة.

6. الطرافة والإمتاع:

يتميز أسلوب الشيخ بسلاسة العرض وحسن التقديم.

7. المسؤولية:

كان الشيخ رحمه الله يلتزم بأولويات مبدئية لا يحيد عنها ولا يساوم عليها، منها الالتزام بالمفاهيم الدينية الأصيلة، وتقديم القضايا العقيدية على كل الأولويات، والسعي إلى حمايتها من كل الخلافات والأباطيل والبدع، والدعوة إلى الالتزام بالحكم الشرعي وتقديمه على كل مصلحة

عارضة أو غرض سياسي أو اجتماعي، والالتزام بأن وظيفة العالم الأولى - كما أكد هو ذلك في كثير من الخطب والمحاضرات- هي حماية العقيدة وتبليغ الحكم الشرعي وتعليم الأخلاق الإسلامية انطلاقاً من آية الإنذار، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾¹، والالتزام بالإخلاص في التبليغ والإنذار من غير مداهنة ولا مداجاة، والاهتمام في التبليغ بالدائرة الأقرب فالأقرب، انطلاقاً من الأحاديث الواردة عن أهل البيت التي تحدد دور العلماء في أنهم الكافلون لأيتام آل محمد المحافظون عليهم من الضلال.

وسيجد القارئ في هذه المحاضرات نبرات الاهتمام والحرقة الواضحة تكشف عن الهم الذي يحمله قائلها، والشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع.

وإننا إذ ننشر هذه المحاضرات نود أن نشير هنا إلى أنه قد تم التصرف فيها تصرفاً طفيفاً لا يزيد على استبدال بعض الكلمات الفصيحة بالدارجة أو تغيير ما يقتضيه تحويل الكلام من الشفاهية إلى الكتابة ومن الخصوصية إلى العموم، ونسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسنات شيخنا رحمه الله وأن يجعل له بكل حرف نورا، وأن يجعل ذلك برا منا به وعرفانا بحقه كفاء ما أدب وعلم، ونسأله الله له الدرجات العليا في صحبة أحبائه محمد وآل بيته الكرام. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الناشر

¹ سورة التوبة: من الآية 122

﴿ الباب الأول ﴾

الثقافة الإسلامية العامة

الاجتهاد في الأحوال الشخصية *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عنوان هذه المحاضرة مألوف في أيامنا لا في لغة الصحافة وحسب، بل في لغة رجال القانون أيضاً، لكنه جمل غير متناسقة في نظر رجال الفقه الإسلامي، والقضاء الشرعي؛ فلفظ الاجتهاد مصطلح إسلامي أصيل، بينما مصطلح الأحوال الشخصية مصطلح دخيل على الفقه والقضاء في هذه البلاد.

والعنوان بهذه الصياغة المزدوجة إنما يدل على الازدواجية الحضارية التي ابتليت بها أمتنا نتيجة لهيمنة الفكر الغربي والثقافة الغربية على مجتمعاتنا، وخاصة في مجال التشريع والحقوق. إن ما يطلق عليه لفظ الأحوال الشخصية ليست شخصية في حقيقتها، وإنما أحوال اجتماعية بكل ما لهذه الكلمة من معنى في اللغة العربية. إنها علاقة إنسان بإنسان أو بأكثر من إنسان، فكيف نجيز لانفسنا ان نطلق عليها اسم الأحوال الشخصية؟!

لو كانت هذه الأحوال شخصية لما شغلتم أنفسكم بها أنتم يا حملة القانون والتشريع، فهل بلغكم أن أحداً اقام دعوى على آخر لأن هويته جمع الطوابع؟ أو جمع علب الكبريت الفارغة؟ أو لأنه أصر على الاستحمام بالماء البارد في عز الشتاء؟ أو لأنه يفضل أكل السمك المقلي على الدجاج؟!

أرجو أن لا تستغربوا من هذه الامثلة الشاذة. ذلك أن مثل هذه الأمور وفي هذه الحدود الضيقة يمكن أن تسمى بالأحوال الشخصية، مع إمكانية أن تخرج من الإطار الشخصي لو توسع الفرد في أساليب استعمالها.

العلاقات الأسرية ليست أحوالاً شخصية، بل علاقات اجتماعية معقدة، وذات حساسية شديدة، وتأثير خطير في البنية الاجتماعية بكل ما تشتمل عليه من مظاهر لغوية وفكرية وتنظيمات مالية وسياسية.

الصبغة الاجتماعية ألصق بالأحوال الأسرية من النظم الاقتصادية والمالية، والحكم فيها أخطر من الحكم في المسائل المالية.

صياغة العنوان إذاً تدل على تشوش الفكر القانوني بمفهومات ليست من أصل واحد، وهذا أمر ملاحظ على كل النظم القانونية في البلاد العربية والإسلامية في أيامنا هذه. ويكفي للتدليل على هذه الظاهرة ما يصدر من المحاكم من أحكام بالفوائد الربوية في الاقطار العربية مع أن الشريعة الإسلامية تمثل النظام العام فيها إن لم ينص دستورها على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للأحكام.

ولكن مالنا ومناقشة صياغة العنوان مادمناً جميعاً نعلم أو نعرف معناه، وإنما السؤال المطروح لماذا اختيار هذا العنوان بالذات؟

إن من يتابع ما ينشر في صحف هذه الأيام من أخبار الندوات التي تقام بين الفينة والفينة، والمقابلات التي لا تفتأ مع رجال القضاء والتشريع، والتركيز على أحكام معينة مما يصدر من المحاكم الخاصة بأمور الأسرة، يجده كله يصب في بوتقة واحدة، هي بوتقة الداعين إلى تقنين الأنظمة الفقهية التي تتعلق بالأحوال الأسرية. وهذا العنوان يوحي بالسؤال عن مدى سعة الاجتهاد الممكن في هذه النظم الفقهية والقواعد الشرعية، ولاشك أن التقنين يعني وقف الاجتهاد، فهل لي أن أفهم بأنه إجابة على دعوة المطالبة بالتقنين بدعوة مضادة مؤدّاهها التوسع في الاجتهاد في الأحوال الأسرية؟!

ومهما يكن القصد من العنوان، فالذي ينبغي أن أبينه هو معنى الاجتهاد ومدى جوازه في الشريعة الإسلامية، وهل هو قابل للتخصص بأن يكون اجتهاداً في باب من الفقه دون باب، ثم ما

إمكانية التوسع في الاجتهاد في مثل أحوال الأسرة التي اهتم بها الإسلام اهتماماً بالغاً وورد فيها كثير من الآيات القرآنية، وأصدر فيها الرسول صلى الله عليه وآله كثيراً من الأحكام والفتاوى. ما هو الاجتهاد؟

عُرّف الاجتهاد قديماً بأنه النظر والرأي في المسائل الدينية¹. ويعزى بدايته إلى خلافة عمر بن الخطاب [رض]، بل تنسب إليه ذاته اجتهادات في مسائل كثيرة²، وكانت هذه بداية انشطار علماء الأمة إلى مدارس مختلفة في التشريع، وفي مدارك الفقه، وأصوله.

وكان الشيعة أسلاف الإمامية في مقدمة الرافضيين لإقحام النظر العقلي في مجال التشريع، والداعين إلى التزام النص ممثلاً في آيات القرآن الكريم والسنة النبوية وما يصدر عن أئمة أهل البيت من أحكام. ويكفي في تسجيل موقف الشيعة في تلك الحقبة ما ورد عن علي عليه السلام من ذم صريح لإعمال القضاة الأدلة العقلية في الأحكام. يقول عليه السلام: "أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء له؛ فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟ أم أنزل ديناً تاماً فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه؟ والله سبحانه يقول: "ما فرطنا في الكتاب من شيء وفيه تبيان لكل شيء"³. ويقول في ذم أصحاب الرأي: "ورجل قمش جهلاً، مُوضِعٌ في جهال الأمة، عاد في إغباش الفتنة، عم بما في عقد الهدنة، قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، بكر فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماء آجن، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضياً، ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فان نزلت عليه إحدى المبهمات أعد لها حشواً من رأيه، ثم قطع به فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت". إلى أن يقول في آخر الكلام: "لم يعض على العلم بضرس قاطع، يذر الروايات كذر الريح الهشيم"⁴. بل بلغ من موقف علي عليه السلام تجاه أصحاب الرأي والنظر العقلي أنه حذر من اتباعهم فيما توصلوا إليه من أحكام، ويظهر ذلك جلياً في قوله: "إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع يخالف فيها

¹ انظر القاضي النعمان بن محمد: أصول المذاهب ص 203.

² انظر عبد الحسين شرف الدين: النص والاجتهاد.

³ الشريف الرضي: نهج البلاغة الخطبة رقم 18.

⁴ الشريف الرضي: نهج البلاغة الخطبة رقم 17.

كتاب الله، يتولى فيها رجال رجالاً¹. والتزم الأئمة من ذرية علي عليه السلام هذا الموقف، ودافعوا عنه دون هواده، فعن الإمام الصادق في جواب أبي بصير وقد قال له: "ترد علينا أشياء ليس نعرفها في كتاب ولا سنة أفننظر فيها؟ فقال عليه السلام: لا، أما إنك إن أصبت لم تؤجر وإن أخطأت كذبت على الله"². وقال الإمام المنتظر [عجل الله فرجه] وهو يحدد لهم من يترافعون عنده في الخصومات: "انظروا إلى رجل منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فاجعلوه عليكم قاضياً"³.

ولم يغفل الإمام الثاني عشر وهو يُعَيَّن لشيئته من ترجع إليه أثناء الغيبة من أن يحصر ذلك في رواية الحديث؛ يقول عجل الله تعالى فرجه في التوقيع الصادر لإسحاق بن يعقوب عن طريق محمد بن عثمان العمري: "وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله".

موقف الشيعة منذ البداية كان رفضاً لإقحام النظر العقلي، وإعمال المعايير والقيم العقلية في الفقه والقضاء.

وقد ورث الإمامية هذا الموقف من آباءهم وأصروا عليه - عدا الزيدية والكيسانية - مع اختلاف فرقهم من إسماعيلية وواقفية وقطعية، أو غير ذلك من الفرق. وقد كان فقهم يتميز بأنه فقه المحافظة على النص والابتعاد عن الرأي والاجتهاد، وكانت هذه هي شهرتهم بين فرق المسلمين، وخاصة أصحاب الكلام، ومؤرخي الفرق، وحتى قال الأشعري: "وقالت الروافض بأجمعها بنفي اجتهاد الرأي في الأحكام وإنكاره"⁴ وتظهر المصادر الإمامية - خاصة عند التي ألفت في فترة القرون الثلاثة الأولى - أن الإمامية يرفضون الاجتهاد بهذا المعنى رفضاً كلياً وباتاً. وإذا جئنا إلى أواخر القرن الثالث، وطيلة القرن الرابع، لم نلاحظ أي تغيير في موقف الإمامية من هذه المسألة، بل نجد أنه انضم إليهم أتباع الإمام مالك وأتباع الشافعي وأحمد⁵، وإن

¹ نهج البلاغة: خطبة رقم 50.

² الدرر النجفية ص 150.

³ السيد عباس جمال الدين: التقليد للأئمة المعصومين ص 41.

⁴ مقالات الإسلاميين ج 1 ص 119.

⁵ الشهرستاني: الملل والنحل ج 1 ص 361.

لم يصلوا إلى الحد الذي بلغه الإمامية من نبذ الاجتهاد، فقد اعتمد الشافعي على القياس في مسائل كثيرة، كما يفتي مالك في بعض المسائل بالاستحسان، وعرف عنه عمله بالاستصلاح. بينما بقي الإمامية مصرين على نبذ كل ذلك، بل منع الاجتهاد العقلي في الدين من أساسه.

يقول الشيخ الطوسي في عدة الأصول في باب الرد على من قال باجتهاد النبي صلى الله عليه وآله: "إن هذه المسألة تسقط على أصولنا، لأننا قد بينا أن الاجتهاد والقياس لا يجوز استعمالها في الشرع، وإذا ثبت ذلك، فلا يجوز للنبي ولا لأحد من رعيته حاضراً كان أو غائباً، لا حال حياته ولا بعد وفاته استعمال ذلك على حال"¹. ويقول في مقدمة كتاب المبسوط في وصف الأئمة: "ولم يكلهم إلى الآراء المضلة، والمقاييس المبطلّة، والاجتهادات المخزية، بل جعل أقوالهم الحجة، وأفعالهم القدوة"².

خلاصة القول، أن الإمامية كانوا يرفضون النظر العقلي في استنباط الأحكام والقضاء تبعاً لموقف أئمتهم، بل يجمدون في الغالب على نصوص الرواية خوفاً من أن يقعوا بسبب التأويل في الاجتهاد³. ولا أريد في هذا الموقف أن أتبع ظاهرة الإنكار أو الاستنكار لمحاولة إقحام الأدلة العقلية في مقام استنباط الأحكام الشرعية الفرعية أو في مقام الحكم والقضاء في مختلف العصور، إذ إن هذه المحاضرة لم تعمل من أجل التأريخ لهذه الظاهرة، ولكني أقول: إن التيار العام للفقهاء الإمامية خاصة الاثني عشري يرفض الاعتماد على الاجتهادات العقلية في الفقه والقضاء حتى يومنا هذا، ويكفي للتدليل على ذلك أن كبار دعاة التحرر في البحث العلمي من مراجع الإمامية يبعدون عن أنفسهم تهمة العمل بالأدلة العقلية، أو الاجتهاد بالرأي في الأحكام الشرعية.

ف نجد السيد الشهيد محمد باقر الصدر يعترف وهو في مقام الرد على نفاة الاجتهاد والتشنيع عليهم بـ"أن مدرسة اهل البيت كانت تحارب الاتجاه العقلي المتطرف"⁴، بل اضطر بعد أن ألف هذا الكتاب أن يبعد عن نفسه تهمة العمل بالدليل العقلي، وإن كان يقول بجواز إعماله، فقال في

¹ انظر سليمان المدني: الاجتهاد والتقليد ص 17.

² الشيخ الطوسي: المبسوط في الفقه ج 1 ص 1.

³ انظر الشيخ الطوسي: المبسوط ج 1 ص 2.

⁴ المعالم الجديدة للأصول ص 40.

مقدمة كتابه الفتاوى الواضحة تحت عنوان [الاجتهاد والتقليد مبدآن مستمران] ما نصه: "ولما كانت مصادر الشريعة محفوظة إلى يومنا هذا في الكتاب الكريم كاملاً بدون نقصان وعدد كبير من أحاديث السنة الشريفة، فمن الطبيعي أن يستمر الاجتهاد كتخصص علمي في فهم تلك المصادر واستخراج الأحكام الشرعية منها"¹.

ويقول تحت عنوان مصادر التشريع: "ونرى من الضروري أن نشير أخيراً إلى مصادر التشريع التي اعتمدها بصورة رئيسية في استنباط هذه الفتاوى الواضحة، وهي كما ذكرنا في مستهل الحديث، عبارة عن الكتاب الكريم والسنة الشريفة، عن طريق الثقة المتورعين في النقل، مهما كان مذهبهم، أما القياس والاستحسان ونحوهما فلا نرى مسوغاً شرعياً للاعتماد عليها. وأما ما يسمى بالدليل العقلي الذي اختلف المجتهدون والمحدثون في أنه هل يسوغ العمل به أو لا، فنحن وإن كنا نؤمن بأنه يسوغ العمل به، ولكننا لم نجد حكماً واحداً يتوقف إثباته على الدليل العقلي بهذا المعنى، بل كل ما يثبت بالدليل العقلي فهو ثابت في نفس الوقت بكتاب أو سنة" إلى أن يقول: "وهكذا كان المصدران الوحيدان هما الكتاب والسنة"².

وما ذلك إلا لقوة هيمنة عملية الرفض لمصدر غير الكتاب والسنة. تلك العملية التي ابتدأها علي عليه السلام من أول يوم بزغت فيه نزعة الاجتهاد العقلي في الإسلام، وبقي تيارها قوياً جارفاً في فقه الإمامية.

ويقول أستاذنا السيد أبو القاسم الخوئي - وهو في مقام الكلام عن الاجتهاد - "إنه قد عرف الاجتهاد في الاصطلاح باستفراغ الوسع في تحصيل الظن بالحكم الشرعي، ولكن لا يهمننا تحقيق مفهومه، فإنه بعنوانه لم يقع موضوعاً لشيء من الأحكام الآتية في لسان الأدلة كما سنتسمع إن شاء الله تعالى؛ على أن التعريف المزبور باطل من أصله". ويتابع كلامه في هذا الصدد حتى يقول: "ولعل التعريف المذكور أوجب استيحاش الأخباري من جواز الاجتهاد وعدّه من البدع

¹ الفتاوى الواضحة ص92.

² الفتاوى الواضحة ص98.

والمحرمات، فالصحيح أن يعرف باستفراغ الوسع في تحصيل الحجة على الحكم الشرعي أو تعيين الوظيفة عند عدم الوصول إليها¹.

ولو تمعنا في هذا التعريف لوجدناه محاولة للشمول أكثر منه تعريفاً حقيقياً للاجتهاد. وذلك أولاً: لأن الاجتهاد عند المتأخرين من فقهاء الإمامية الاثني عشرية ملكة علمية، تُمكن صاحبها من استنباط الحكم وليس عملية فعلية².

وثانياً: أن الرفض لم يكن لخصوص الأدلة العقلية الظنية حتى يزول الاستيحاش بمجرد استبعاد لفظ الظن من التعريف. على أن التعريف لا يستبعد الأدلة الظنية، بل يتستر عليها فإن من يعمل بالأدلة الظنية لا يدعي أي منا قيام الحجة عنده على جواز إعمالها في الشريعة. بل لا يرضى فقيه أن يقال إنه يعمل بما لم تقم عليه الحجة. ومن أجل ذلك لم يتمكن أستاذنا من إزالة الاستيحاش من نفوس الرافضين لإعمال الدليل العقلي في الأحكام الشرعية، فإن استفراغ الوسع واجب خلقي عند الجميع، يقتضيه الإخلاص للعلم والحيطة للدين.

وفي مقام الإجابة على سؤال فيما إذا كان قد اعتمد في فتوى من فتاواه على دليل العقل، أجاب مُدَّ ظله: "لا شك أن الأحكام الشرعية مجعولة طبق المصالح والمفاسد الواقعية، وليست مجعولة جزافاً، إلا أن عقولنا القاصرة لما لم يسعها أن تدرك تلك المقتضيات، ودين الله لا يصاب بالعقول، فلأجله يجب علينا أن نتعبد بالأدلة الشرعية السمعية من الكتاب والسنة"³.

والخلاصة: أن عملية الاجتهاد عند الإمامية - وخاصة الاثني عشرية - تجري في حدود فهم النص الشرعي ودراسته لاستخراج الحكم منه، وقد لازمت هذه الصفة الشيعة منذ بداية تاريخهم، فحدود الاجتهاد عندهم - من حيث وسائله وأدواته - لا شك أضيق من حدوده عند غيرهم من المدارس الفقهية الإسلامية، والتي تسوغ إعمال المعايير العقلية بصورة أو بأخرى.

لكن ذلك لا يعني أن هناك مسائل يستطيع الفقيه غير الإمامي أن يتكلم فيها ويعجز الفقيه الإمامي عن خوضها وبحثها. وذلك لأن الشيعة اهتموا منذ بداية تاريخهم بتدوين أحاديث الرسول

¹ فخر الدين الزنجاني: جواهر الأصول ج5 ص76- وعلاء الدين بحر العلوم: مصابيح الأصول ص434.

² أنظر محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن ص563.

³ محمد جواد الشهابي وعبد الواحد البحار: مسائل وردود ص5.

صلى الله عليه وآله وأحكامه وأقضيته، وكذلك أحاديث الأئمة من أهل البيت، ويكفي أن نعرف بأن الصحابة الملازمين لعلي ألفوا كتباً من أقوال الرسول صلى الله عليه وآله، وأقوال أمير المؤمنين، ومنهم على سبيل المثال: أبو رافع مولى علي عليه السلام، وسليم بن قيس الهلالي، بينما لم يهتم سائر المسلمين بهذه العملية إلا بعد عصور متمادية، بسبب ما اعتقدوه من نهي النبي صلى الله عليه وآله عن كتابتها¹. فمن أجل ذلك صار عند الشيعة ثروة كبيرة من الروايات. وثانياً: أن الفقيه الشيعي لا يلزم نفسه بصحة جميع ما في كتاب معين، أو عدم صحة جميع ما في كتاب معين، أو يقتصر على رواية من يتفق معه في الاعتقاد، بل هو يبحث عن الخبر الصحيح في أي مصدر من مصادر الإسلام، فإذا ما توافرت له شرائط الصحة عمل به، بغض النظر عن مذهب الراوي وعقيدته². ومن أجل ذلك فما من مسألة تكلم فيها القائلون بالاجتهاد العقلي إلا وتكلم فيها الشيعة الإمامية، لأنها كما يقول الشيخ الطوسي منصوصة في أخبارنا تلويحاً أو تصريحاً³، وقد مرت بك مقالة الشهيد السيد محمد باقر الصدر - وهو من القائلين بتسوية استعمال العقل في الاستدلال على المسائل الشرعية -، "أنه ما من مسألة يمكن إثباتها بدليل العقل إلا وهي مذكورة في الكتاب أو السنة".

الاجتهاد والقضايا الأسرية:

إن المبدأ العام عند الشيعة الإمامية أن منصب القضاء لا يتولاه إلا من يكون قد حصلت عنده ملكة الاستنباط، أي القدرة على الاجتهاد في الأحكام الشرعية بالحدود التي ذكرناها سابقاً. ولكن لا يشترط فيه أن يكون من الدرجة الأولى أو الثانية من الفقهاء، بل يكفي أن يكون قادراً على ترجيح أدلة الأقوال المختلفة، وبعضهم اشترط أن يكون قد مارس عملية الاستنباط فعلاً، وأنه استنبط عدداً من الأحكام معتداً به. والأصل في ذلك ما رواه عن الإمام الصادق عليه السلام "انظروا إلى رجل منكم قد عرف شيئاً من أحكامنا فاجعلوه قاضياً عليكم، فإنني رضيت به قاضياً"،

¹ انظر محمود أبو رية: أضواء على السنة النبوية ص 19-30.

² انظر محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقهاء المقارن ص 218- وكذلك محمد باقر الصدر: الفتاوى الواضحة ص 18.

³ الشيخ محمد بن الحسن الطوسي: المبسوط في الفقه ص 2.

باعتبار أن لفظ [شيء] يفيد الجزئية، فيكفي فيه أن يكون قد استتبط عدداً من الأحكام ليصح له أن يتولى القضاء. نعم، وقع الخلاف في قاضي التحكيم، وهو الشخص الذي يختاره المتداعون ليحكم في قضيتهم من دون أن يكون منصوباً للقضاء، هل يشترط فيه أن يكون واجداً لشرائط القضاء كملا بما في ذلك ملكة الاجتهاد؟ أم يختلف في هذه الناحية عن قاضي الأصل، أي المنصوب؟ ويذهب كثير من الفقهاء ومنهم الشهيديان في اللمعة والروضة إلى اشتراط الاجتهاد فيه¹. مع اتفاقهم في غير هذه الصورة على عدم جواز اعتماد القاضي على فتاوى الفقهاء في إصدار الأحكام إلا أن يترجح عنده الدليل عليها، ولا فرق في ذلك بين فتوى الحي و الميت. بل لا تتفعه تولية الفقيه الحي له².

لكن الذي جرى عليه أكثر المعاصرين إجازة تولي القضاء لمن لم يكن واجداً لملكة الاستتباط، مع تصريحهم في كتبهم الاستدلالية والعملية باشتراط الاجتهاد في القاضي، بل يذهب أكثرهم إلى أن الحق المأخوذ بحكم غير واجد الشرائط لا يكون حقاً، وإنما يأكله صاحبه سحتاً، وإن اختلفوا في هل أنه تختص الحرمة بالدين أو تشمل التقاضي في الأعيان؟ نعم، نُقل عن ابن فهد أنه في حال عدم توافر واجد الشرائط -المعبر عنه بألسنتهم بالحكم الشرعي- فإنه يجوز للعدل من المؤمنين القيام ببعض الأمور الحسبية مثل النظر في شئون الأيتام والأوقاف وما إليها، لا تولي الأحكام³.

ولعل أول من أجاز ذلك في رسالته - حسب ما أعرف - هو السيد كاظم اليزدي قدس سره في كتاب [العروة الوثقى]. وربما كان الداعي لذلك مقام الضرورة من تيسير أمور الناس في موضع لا يوجد به جامع الشرائط.

غير أن بعض الأساتذة قد أجاب عن سؤال كنت قد وجهته له في مجلس البحث بأن القضاء من مناصب الفقيه، فله أن يباشره بنفسه، وله أن ينيب فيه عنه⁴، وهو جواب غريب في

¹ محمد بن مكي العاملي: الروضة البهية ج 1 ص 274.

² الشيخ يوسف البحراني: الدرر النجفية ص 49-51.

³ انظر الدرر النجفية ص 50.

⁴ هو العلامة الجليل آية الله الشيخ محمد طاهر آل الشيخ راضي.

بابه، إذ نصوا في باب النيابة على أن القضاء لا تدخله النيابة. إضافة إلى ما ذكره صاحب الحقائق من أن كون القضاء من مناصب الفقيه، بأن له أن يباشره في زمن الغيبة، فعندئذ إن كان المُجاز ممن اجتمعت فيه الشرائط فليس له حاجة في هذه الإنابة أو الإجازة، وإن لم يكن متصفاً بها لم تنفعه¹. نعم لو قلنا بولاية الفقيه فإن ذلك يمكن أن يصح لاقتضائها جواز تولي الفقيه لمناصب إمام الأصل، لكن كثيراً من الإجازات التي صدرت في هذا الشأن صدرت ممن لا يقول بولاية الفقيه.

وينبغي أن يلاحظ هنا أن لفظ القضاء عند الفقهاء الشيعة لا يختص بالنظر في أمور الأسرة، أو ما اصطلح عليه بالأحوال الشخصية عند الوضعيين، بل القاضي له أن يحكم في كل المنازعات المالية والأسرية وغيرها.

فهذا التخصص في القضاء لم تعرفه البلاد الإسلامية إلا منذ قرنين على الأكثر، أي بفعل الدول المستعمرة التي سيطرت على البلاد العربية والإسلامية، ورأت أن مصالحها لا تستقيم مع بقاء القضاء في أيدي رجال الفقه الإسلامي، مع عدم إمكانية أن تتدخل في الشؤون الدينية والأسرية، ففصلت هذه الموضوعات في محاكم خاصة أطلق عليها اسم المحاكم الشرعية. وفي بعض البلاد التي تمكنت من الهيمنة عليها هيمنة تامة قننت هذه الموضوعات باسم قانون الأحوال الشخصية، مع أنها استتت ما هو ألصق بالشخصية مثل إثبات الهوية، وإثبات الأهلية من هذه المحاكم حتى لا تتضرر سياساتها، التي تريد إمضاءها على المسلمين، بل أخرجت ما هو أشد التصاقاً بالشخص وهو عملية إثبات الميلاد أو اختيار الاسم من سلطة المحاكم الشرعية.

فالاجتهاد إذاً شرط في القضاء، إن في خصوص الأمور الأسرية أو غيرها، لكن ذلك لا يعني أن القاضي يعمل برأيه من دون استناد إلى دليل شرعي معتبر.

ومجال الأمور الأسرية أضيق دائرة من غيرها في عملية الاجتهاد الحر - لو تم لنا أن نقول بجوازه شرعاً والخروج بنتائج لم يكن الفقه طيلة هذه القرون قد تكلم عليها -، وذلك لكثرة

¹ الدرر النجفية ص 50 - 51.

الآيات والروايات الواردة في تنظيم الأسرة وتعيين حقوق الزوجين والأبناء والأبوين وسائر القرابة، وواجبات كل طرف تجاه الآخر. اللهم إلا أن نجيز لأنفسنا الاجتهاد حتى في مقابل النص.

نعم في المسائل التي يقع فيها الاختلاف بين الفقهاء أو بين الفقه والقضاء يمكن للقاضي أن يرجح مذهباً على مذهب إذا قام عنده دليل على ترجيحه. وفي مثل هذه الحالة لا يخضع القاضي لسلطة المحكمة التي تكون أرفع درجة من محكمته، فالقاعدة في الفقه الإمامي أن الحكم إذا صدر ممن له إصداره لا يجوز نقضه إلا مع تبين بطلانه، والمقصود ببطلانه بطلان الدليل الذي اعتمد عليه ذلك الحكم، وفي مثل الحالة التي نتكلم عليها تكون المسألة اجتهادية محضة، ولا يصح الحكم ببطلان الدليل لمجرد أن يخالف اجتهاد ذلك القاضي الذي ترفع إليه القضية بعد الحكم فيها من قاضي آخر.

الأسئلة:

- **الدكتور عباس نتو:** أرجو أن لا يستشف من حديثكم الكريم أن هناك تعارضاً وتنافياً أساسياً بين الدين والعقل.. إن المقولة المأثورة عن الإمام عليه السلام عن القرآن بأن له ستين وجهاً. هل من وسيلة لاستنباط أكثر من وجهين إلا بالعقل؟

- **الشيخ سليمان المدني:** عندما نقول إن الشيعة يرفضون عملية الاجتهاد العقلي في استنباط الأحكام فإننا لا نعني بذلك أنهم يقولون بالتنافي بين الدين والعقل، أو أنهم يرفضون العقل في كل المجالات، ولكن الفرق كبير بين مجال استنباط الأحكام الفرعية الجزئية وهو أمر ينصب على أفعال المكلفين الجزئية وبين مجال استعمال الأدوات العقلية والمنطقية.

على أن العقل الذي يتنازع حوله المحدثون والمجتهدون ليس هو ما يفهمه أكثر الناس، ولكنهم يقصدون بذلك العقل العملي. والعقل العملي يرتكز على معنى الحسن والقبح وهذه مسألة كلامية قد اختلفت فيها المدارس الكلامية الإسلامية اختلافاً شديداً، والشيعة الإمامية يقولون إن العقل له قدرة إدراك الحسن والقبح في الأشياء، وأن إدراكه لحسن الأشياء وقبحها لا يتوقف على بيان

الشرع، ولكن السؤال المطروح هنا كل ما أدركه العقل حكم به الشرع؟ طبعاً من أجاب بنعم قال بجواز الاستدلال العقلي على الأحكام الشرعية الفرعية، ومن قال لا لم يجز إجراء الاستدلال بالعقل في الأحكام الشرعية.

العقل حجة الرحمن على عباده وآيات القرآن صريحة ناطقة وكررت ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾¹، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾²، وأما أن يكون الفهم اللغوي بالعقل فهذا أمر بديهي، وإذا كان هذا هو معنى العقل فما من أحد إلا ويقول بالعقل، وعندما تقول إن فهم الآيات القرآنية يكون بالعقل فعندئذ لا يوجد حكم لا يحتاج إلى استعمال العقل، حتى الفهم اللغوي للقرآن، فالقرآن آياته تختلف، فمنها الآيات المحكمات، وهي التي لا تتحمل إلا وجهاً واحداً مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾³، ومنها ما هو ظاهر ليس محكماً، بل يحتمل أكثر من وجه... ولا شك أن فهم أو ترجيح هذا الوجه على هذا الوجه يحتاج إلى قرائن على الفقيه والمفسر أن يُجهد نفسه في تحصيلها قبل أن يفتي بالوجه الذي يرجحه في الآية. ومنه آيات متشابهات، لا يجوز البناء على ما يفهم منها إلا من نص آخر، والذي يتعلق بالأحكام الشرعية الفرعية من الكتاب خمسمائة آية لا غير، وليس كل آيات القرآن تتعلق بمقام استنباط الأحكام الفرعية، ثم إن هذا كما يجري في الكتاب يجري أيضاً في السنة المطهرة، ففيها العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، إلى غير ذلك، وكلها لا بد من ترجيح بعضها على بعض بقرائن من اللغة، أو من الثابت من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام حتى يُعمل بهذه الرواية أو لا يعمل، وربما كانت للروايات معارضات. روايات أخرى تعارضها ولو في ظاهر الفهم وبدايته.

على الفقيه أيضاً أن يحاول الجمع بينها بقدر المستطاع، فإذا عجز ذهب إلى باب المرجحات في ترجيح هذه الرواية على أخرى، وهذا لا بد أن يكون الإنسان فيه عاقلاً، ولكنها ليست عملية عقلية.

¹ يس: من الآية 68
² الرعد: من الآية 19
³ الاخلاص: 1

- سؤال: ما هو حكم القاضي الفاقد للبصر؟

- جواب: اختلفوا فيه، فمنهم من قال إنه يلزم أن يكون سليم البصر، وأن يكون قادراً على تمييز الخصمين، ومنهم من قال يكفي أن يميزهما بالصوت، وكاتبه سوف يقوم بتدوين كلام الطرفين وأسمائهما.. ولا شك أن الصفة الغالبة على فقه الإمامية اشتراط أن يكون القاضي سليم البصر، فلو كان فقيهاً متضلعا ولكنه فاقد البصر فلا يصح أن ينصب قاضياً.

- سؤال: هل يجوز لدى الشيعة الإمامية تنصيب المرأة منصب القضاء؟

- جواب: طبعاً لا.. ففي قول الصادق: (انظروا إلى رجل منكم قد روى حديثنا ونظر في أحكامنا وعرف حلالنا وحرامنا) انظروا إلى رجل منكم عرف شيئاً من قضايانا، فاشتراط الرجولة في القاضي، وهو يمنع من أن تحتل المرأة منصب القضاء.

- سؤال: لم يتحدث فضيلة الشيخ عن الإجماع ورأيه فيه؟

- جواب: لم أكن أتكلم عن أصول الفقه وبيان ما هو حجة وما هو ليس بحجة حتى أتكلم عن الإجماع. ولم أترك الإجماع فقط، بل تركت كثيراً مما يتنازع عليه في أصول الفقه، وكلامي كان عن الاجتهاد في الرأي فقط، باعتبار أنه أول تعريف للاجتهاد، وذلك عند الشيعة فقط، لأنه لا يمكنني أن أتابعه في بقية المدارس، وسوف يتابعه الأخ الشيخ عبد اللطيف في محاضراته ويبين لكم رأي المدارس الأخرى.

- سؤال: إن مصادر التشريع أربعة ((الكتاب، السنة، الاجماع، العقل)) فما قولكم فيها؟

- جواب: إذا كنت تقصد ما يبحث في الأصول فلماذا الحصر بأربعة؟ ما يُبحث في الأصول مصادر كثيرة. فكل ما قال عنه فقيه من الفقهاء أنه حجة بُحث في الاصول ونوقش، منها القياس، ومنها الاستحسان، وغيرها.. وإن كنت تقصد ما يقول به علماء الشيعة، فإن مصادر التشريع أربعة، وإن كان غالبية علماء الشيعة لا يقولون بالأربعة، فمنهم من يقول بثلاثة، فأما أن يضع العقل وأما أن يضع الإجماع، ومنهم من يقول غير ذلك، بل إن علم الأصول يبحث كل ما يحتمل حجيته، فأما أن يثبت عند ذلك الأصولي حجته أو ينفيها.

- سؤال: هل يشترط لإيقاع التطلق للضرر أن يكون القاضي الناظر في الدعوى مجتهداً؟ وهل يتوفر ذلك بالنسبة للقضاء البحريني الجعفري؟ وإذا كان الجواب بنعم فما ذنب المرأة الجعفرية؟

- جواب: قلنا إنه يشترط الاجتهاد في القضاء سواءً في حالة الحكم بالتطبيق أو بالنفقة أو بالرجوع الى زوجها، فالقاضي أساساً عند الشيعة يشترط فيه أن يكون قادراً على الاجتهاد. أما أنه ما ذنب المرأة الجعفرية أن القاضي إذا ترجح عنده وجود الضرر وثبت فان مبدأ التطلق جار والقاضي لن يتوقف عن التطلق، ولكن إذا كان ما تدعيه المرأة من ضرر كان في نظر القاضي الناظر في الدعوى أنه ضرر نشأ من الطرفين لا من طرف واحد، أو أن هذا الضرر ليس مما يسوغ الطلاق، فعندئذ لن يقدم على عملية الطلاق للضرر، وطبعاً هذا يرجع إلى تقدير القاضي. وأنا اعرف أن هناك حالات متعقدة ليست حالات ضرر، ربما حالة كراهة.. مثلاً امرأة تتزوج شخصاً ثم تكرهه، فتتقدم إلى القضاء بطلب الفراق، وهذه المسألة اختلف فيها الفقهاء والقضاة، ليس الآن ولكن منذ أكثر من ثلاثة قرون، فنجد أن كتب الفقه في البحرين كلها تأخذ على القضاء بعدم مبادرته بالاستجابة لطلب المرأة الطلاق بسبب الكراهة. ومن شاء فليرجع إلى الجزء 24-25 من الحدائق الناضرة وغيره من كتب الفقه، وهو يتكلم عن العلماء المتولين للقضاء ويقول إنه شاهدتهم لا يستجيبون للمرأة في هذا الأمر، وانتقدهم، وهناك فقهاء آخرون انتقدوا القضاء في البحرين أيضاً، ويبدو أن القضاء بقي مصراً على نظريته التي كانت مطبقة، وهي إلى اليوم لم تتغير.

- سؤال: ما هو موقف القضاء البحريني من شهادة المرأة؟ وما هو الدليل على عدم توريث الزوجة في العقارات؟

- جواب: بالنسبة للشيعة الإمامية، فإن شهادة المرأة مقبولة في الأموال بحسب ما نص عليه القرآن من أن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، وبما قامت عليه السنة بشرط توفر العدالة - وكذلك في معظم الموارد التي تؤول للمال، كالوصية وأمثالها-. وتقبل شهادة النساء منفردات في المواضع التي لا يطلع عليها الرجال، كإثبات الولادة والاستهلال حينها.

والشيعة يقولون إن شهادة المرأة تقبل منفردة في الأهلة، ولا تقبل كجزء من بيعة في الأهلة، ولكن لو كان إثبات الهلال بالشياع لكانت المرأة أيضا تقبل شهادتها في إتمام الشياع وفي إيجاده، وتقبل شهادة المرأة في إثبات النسب إذا كان قد ثبت بالإشاعة لا في ما قد ثبت بالبيعة..

وأما عدم توريتها من الأرض لا من العقار، فلأن الشيعة حملوا الآيات التي وردت في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾¹، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَكَدٌ فَلَهُنَّ الثُّنُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾²، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَكَدٌ﴾³، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَكَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾⁴، إلى غيرها. حملو [ما] هنا على أنها

نكرة محضة، وليست اسما موصولا، واستدلوا على ذلك بأن اللغة العربية تقتضي أن يكون العائد على الاسم الموصول -إذا كان مجرورا- مجرورا أيضا، وبنفس الحرف الذي جر به الاسم الموصول، والعائد هنا كله غير مجرور، فلا يمكن جعل [ما] موصولة، وإنما هي نكرة محضة، كقولك مررت بما معجب بك، وعلى هذا ف[ما] تفيد الجزئية، ولا فرق في ذلك بين [ما] التي في آية توريث النساء أو [ما] التي في آية توريث الرجال، فلا بد للرجوع إلى الروايات والسنة في تفصيل هذه النكرة المحضة من أي شيء ترث ومن أي شيء يرث الرجل، ومن أي شيء لا ترث، ومن أي شيء يرث الرجل، ومن أي شيء لا يرث، ولذلك اختلف الفقهاء في هذه المسألة اختلافاً كبيراً، فمنهم من قال إن كان لها ولد ترث من الأرض عينا، وإن لم يكن لها ولد ترث من الأرض قيمة، ومنهم من قال في كلا الحالين ترث من الأرض قيمة لا عينا، والقول المشهور بينهم بسبب كثرة الروايات الواردة أن المرأة لا ترث من رقبة الأرض، فلذلك كان القضاء في معظم الأقطار الشيعية ومنذ أقدم الأزمان لا يورث المرأة من رقبة الأرض.

- سؤال: ما هو رأي فضيلتكم في نظام القضاء الموحد وكيفية تطبيقه في المحاكم الشرعية في

البحرين بمذهبيها؟

¹ النساء: من الآية 33

² النساء: من الآية 12

³ النساء: من الآية 12

⁴ النساء: من الآية 12

- **جواب:** لا شك أن المذاهب الإسلامية تختلف في بعض الجزئيات والفروع، وهذا لا يقتصر على الشيعة والمالكية، أو الشيعة والشافعية، أو الشيعة والأحناف، أو الشيعة والحنابلة، بل حتى المذاهب الأربعة تختلف في بعض الجزئيات. والإشكال هنا ليس في وجود محكمة أو محكمتين، فما دامت هناك جزئيات يختلف فيها، ومادامت هذه المسائل تتعلق بأقدس الأمور عند الإنسان، ومنه الزواج والطلاق والنكاح عموماً، ومنه يكون النسل، فلماذا لا يطبق على كل إنسان ما يعتقد أنه حكم الله في حقه؟ ولذلك نجد أن أحكام الأسرة عند الفقهاء المسلمين جعلوها أكثر ابتعاداً عن الاجتهاد وعن إعطاء الرأي، وقربوها من العبادات، وبعدها من المعاملات، ولذلك كان لها قدسيته وحساسيتها في نظر المسلمين عموماً، ولا فرق بين المحكمتين، فإلى حد الآن والله الحمد لا يوجد تعارض بين المحكمتين، بل كثير من التعاون في القضايا التي تنظر هنا أو هناك.

- **سؤال:** لوحظ كثرة الشكاوى التي ترد إلينا من نساء متضررات وأيضاً الرجال يتهمون القضاة بأنهم لا يحكمون لا بالكتاب ولا السنة وإنما بحسب أهوائهم الشخصية، ما قولك في ذلك، وهل قانون الأحوال الشخصية يعارض الشريعة؟

- **جواب:** قديماً قال الشاعر:

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدل.

فلا إشكال أن من يخرج من المحكمة محكوماً عليه ويجد صدرًا رحباً في مثل جريدتكم الكريمة التي تنشر الشكاوى قبل أن تراجع المحكمة فسوف يذهب إليكم. وكأن الحرمة لهذا الذي لجأ إلى الصحيفة أكبر من حرمة القاضي الذي أهين.. ثانياً: إن القاضي لا يحكم بمجرد هواه، لأنه لا يوجد قاضٍ واحد في المحكمة وإنما توجد هيئة، ولو عرفت الأخت هذه الهيئة التي تكون في المحكمة لعرفت أنهم في الغالب لا يتفقون على شيء إلا بعد اللتيا والتي، فكيف تقول إنهم يحكمون بأهوائهم؟! ثم بعد ذلك فإن من لا يعجبه حكم المحكمة الأولى له اللجوء إلى محكمة الاستئناف، وهي أيضاً تعتمد على هيئة لا فرد، والمحامون أنفسهم يعلمون بأن القضاة قلما يتفقون على حكم واحد إلا بعد الأخذ والرد والمداولات، فكيف يتهمون بأنهم يحكمون بأهوائهم؟ وأما قانون

الأحوال الشخصية فنحن نرفضه لا لاسمه فقط ولكن لأن وزارات التقنين في الدول الإسلامية لا تعتمد على الفقهاء المسلمين وإنما تعتمد على الفقهاء الوضعيين. ووضع النص ولو بصورة يرتضيها الشرع يعرض حياة الأسرة أن تحكم بحكم الكفر غداً، ولهذا نحن نرفض التقنين.

- سؤال: الاجتهاد هل هو مقتصر على بعض المراتب الدينية أو يشمل كل ذي ثقافة عامة ودراسة شاملة؟

- جواب: عندما نقول إن زيداً طبيباً لمجرد أنه قرأ المجالات الطبية والكتب الطبية العامة فهذا أمر لا نجد فيه من الصحة شيئاً. لكن الطبيب هو من تخصص في علم الطب، وأفنى زهرة شبابه فيه. علم الفقه علم تخصصي دقيق، يعتمد على علوم كثيرة، وإذا كان يكفي الطبيب أن يحصل على شهادة الطب بدراسة ست سنوات، فإنه لا يتمكن أحد أن يحصل على درجة الاجتهاد في مثل هذه الفترة إلا ان يكون نادرة النوادير لكثرة ما يحتاج من علوم يتقدمها، وجهد يلاحظ عليه، ومن فكر يقدمه في سبيل تخصصه.

- سؤال: محكمة التمييز في القضاء المدني، فهل هناك إمكانية إنشاء مثل هذه المحكمة بالنسبة للقضاء الشرعي؟

- جواب: إذا كان القضاء سيبقى بهذا الترتيب فهناك ما يمنع، لأن المفروض أن يكون القاضي في المحكمة الأعلى درجة أكثر كفاءة، لأنه سيحكم على ما يصدر من المحكمة الأدنى درجة، وبموجب نظام القضاء المعمول به في البحرين يكون الترفيع بموجب الأقدمية، وهذا نظام معيب، وإذا كان يصلح في وزارات الدولة المدنية فهو لا يصلح في مجال القضاء الشرعي، نعم إذا كانت الدولة توطن نفسها على جعل نظام الترفيع يتم بموجب الكفاءة وجلب الأعضاء من خارج القضاء، ولو من خارج البلد لهذه المحكمة، فعندئذ لا يكون هناك مانع مطلقاً، أما إذا كان يزحف إليها زحفاً فسوف تكون محكمة ثالثة، وليست محكمة تمييز.

- سؤال: هل يجوز إجبار المرأة على الرجوع إلى زوجها بالشرطة؟

- **جواب:** إذا نشزت المرأة تسقط حقوقها، وأحياناً يرى القاضي أن بقاءها ناشزة قد يسبب أضراراً خلقية لها أو لزوجها، فيلزمها بالرجوع الى الزوج كفاً لهذه الأضرار، وأما لو لم يحتمل القاضي ذلك فإنه يحكم عليها بالنشوز فقط، وهذا ما جرت عليه المحاكم، وأحياناً أهل الزوجة يطلبون من القاضي أخذها بالقوة إلى بيت زوجها، وقد طلب مني أكثر من شخص ذلك، وقلت لهم كيف أرسل شرطة إلى بيتكم؟ فردوا بأنه لا يمكن ستر هذه المرأة إلا بهذه الطريقة، ونحن موافقون، وحصل ذلك في قضايا كثيرة.

- **سؤال:** ما رأيك في وجود الحكمين؟

- **جواب:** الحكمان يكونان من خارج المحكمة. يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَابْتَغُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾¹، فالحكمان ليس هما القاضيان، بل بعثهما هي محاولة من القاضي للصلح بأن يعمد رجلاً من قرابة الزوج ورجلاً من قرابة المرأة فينظران في شأن هذه المرأة وزوجها فيتوصلان إلى أمر يصلح شأن الزوجين؛ أما الطلاق وأما الوفاق.

لكن الذي ثبت بالتجربة أن الحكمين في الغالب يكونان شراً من الخصمين، فالعاطفة تلعب بهما، وبضيع كل منهما مصلحة قريبه بسبب عصبية ضد الطرف الآخر. وعندني ملاحظة على كثير من الخصومات التي تجري في المحاكم، هو أن تشدد هذه الخصومات يكون بسبب العصبية، فإما أن يتعصب الزوج أن لا تغلبه الزوجة وإما أن تتعصب الزوجة أن لا يغلبها الزوج، ولو أن الناس ذهبوا إلى القضاء بنفوس طيبة في طلب ما هو حق لهم لحت كثير من المشاكل. ولكن المرأة وقد عششت إذاعات وصحف ومجلات - كلها تحمل الفكر الغربي - في رأسها وأوحت لها أن لها حقوقاً كثيرة في الواقع لم يجعلها الله في كتابه ولا في سنته، والحال أنها لو نظرت كيف جعل لها الإسلام كرامة عالية لنبتت عنها كل ما في الغرب، ولو قارنت بين حقوق المرأة ومستواها الاجتماعي في بلاد الإسلام وما هي عليه في الغرب لوجدت أن الإسلام قد رفع شأن المرأة إلى مستوى لم تصل اليه المرأة الغربية بعد، ومثال ذلك أموال المرأة. فأموال المرأة

¹ النساء: من الآية 35

الغربية تابعة للزوج من حين عقد الزواج، أما عندنا فتبقى أموال المرأة باسمها الخاص، ولها حق التصرف فيها من دون أخذ رأي الزوج، وعندما تتوظف المرأة في عمل عندنا فإن لها أجر الرجل الذكر. والغرب إلى اليوم لا يعطي المرأة ذلك.. إضافة إلى أن المرأة تفتقد حتى اسمها بالزواج في بلاد الغرب، ومعنى ذلك ان شخصيتها تندمج في شخصية الزوج، إلى غيرها من الأمثلة.

لكن نجد أن المرأة تنتشبت بالإسلام إذا كانت تريد حقاً وتخالفه في كل سلوكها من ألفه إلى يائه؛ فهل يصح منها أن تخرج معلنة الحرب على القرآن الكريم بسفورها؟ وهل يصح من هذه المرأة أن ترضى بعمل تقدم فيه الخمر في فندق أو طائرة؟

مقدم المحاضرة... [[أعتقد أن في الأمثلة الأخيرة نراها تنطبق على النساء الأجنيات

أكثر من البحرينيات.. أليس كذلك؟!]]

كثير من البحرينيات يعملن ذلك، واليوم قرأت في الصحف المحلية مقالاً يشيد بأن المرأة اقتحمت مجال الفندقة!! وكأنها اخترعت صاروخاً ترد به العدوان!! وإنما هي اقتحمت مجال تقديم الخمر، فهل تستطيع عاملة فندقة أن ترفض تقديم خمر؟ وكيف ترضى امرأة شريفة لنفسها العمل في فندق وهذا هو حال الفندق؟ نرضى لأخواتنا ونسائنا أن يقتحن مجال العلم الرحب وفي كل مجال يشرف هذه الأمة.

- سؤال: ما هو مفهوم العدالة في مبدأ تعدد الزوجات؟ وهل يجوز لشخص يبلغ راتبه 150 ديناراً أن يتزوج من امرأة ثانية؟

- جواب: أما أنه يجوز؛ فبضرورة الدين يجوز، وأما معنى العدالة فقد حددها الفقهاء تبعاً للأدلة الشرعية بأنها العدالة في الإنفاق والمعاملات وحتى الابتسام، لا في الميل القلبي وقوله تعالى: ﴿وَكُنْ تَسْتَبِيحُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾¹، يعني الميل القلبي لا في الأشياء الأخرى فإنه لا يمكن للرجل أن يعدل، إن مبدأ التعدد رحمة من ربك، أيها الأخ السائل، وبالمرة، فإن الرجل إذا منع من زوجة ثانية فسوف يتحايل على القانون والنظام، وسوف يوجد له خلية، وها نحن نرى البلاد التي تمنع

¹ النساء: من الآية 129

شرائعها تعدد الزوجات تفشى فيها وجود الخليلات، خذ إليك بلاد الغرب كله، وبلاد الشرق كله، بالإضافة إلى كثرة ما فيها ممن لا يُعرف آباؤهم ولا أصولهم، أخبرني على من وقع الظلم هنا؟ أليس على المرأة؟ الرجل الذي يعاشر المرأة كخليفة ويعاشرها كزوجة ولكنها لا تحصل على حقوق الزوجة، وهي تتجب منه أبناء يسميهم قانون تلك البلاد الجاهلة أبناء طبيعيين، لكن لا يوفر لهم القانون حقوق الأبوة، فعلى من وقع الضيم؟ أعلى المرأة أم على الرجل؟ أليس أصلح للمرأة والمجتمع ككل أن يجيز لهذا الرجل الزواج بأكثر من امرأة؟ أنت أيها الأخ هل راجعت دائرة الإحصاء في البحرين لتعرف عدد النساء والرجال في هذا الجيل؟ فلو أعطينا لكل رجل امرأة واحدة فكم عدد العانسات اللاتي لن يحظين بالزوج إلى آخر أعمارهن؟ فماذا ستفعل فيهن؟! قلنا إننا سوف نوظفنهم وسوف يكسبن، ويعشن، أتظن أن حاجة الإنسان هي فقط حاجة مادية؟ فماذا سنفعل لو لم نبح تعدد الزوجات؟

علاقة الديمقراطية بالإسلام*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين. في أعقاب كلامنا في ليلة السبت ورد من ضمن الأسئلة سؤال يسأل عن علاقة الديمقراطية بالإسلام، وكنا في مرة سابقة قد تكلمنا عن النظام الديمقراطي، كما تكلمنا في ليلة السبت عن أن الديمقراطية هي إفراز للتفاعل الاجتماعي الذي جرى في القارة الأوروبية أو في القسم الغربي بالأخص من القارة الأوروبية والصراع الذي دار بين الأباطرة وبين رؤساء الإقطاع وبين ملوك الطوائف من جهة وبين الأباطرة والكنيسة من جهة ثانية وبين المثقفين والكنيسة من جهة ثالثة، وحتى يتبين لنا ما هو موقع الديمقراطية بالنسبة إلينا من ناحية مبدئية لابد أن نعود ونتكلم و نفصل القول من جديد وإن كان مكرورا.

فنقول: إنه بعد أن دكت مدافع محمد الفاتح العثماني القسطنطينية وبعد استيلائه عليها وخروج كثير من فلاسفة القسطنطينية وعلمائها إلى روما وإلى غيرها من مدن أوروبا كان ذلك إيذانا للأوروبيين بالنتيجة من سبات طويل وعميق عاشوا فيه، وبدأ عندهم عصر عرف بعصر التنوير أقبل فيه الأوروبيون على دراسة العلم من جديد وعلى تلمس ذاتهم تلمسا جديدا.

في ذلك الوقت كان المجتمع الأوروبي يخضع لنظام إقطاعي، والنظام الإقطاعي هو أن تكون منطقة واسعة بكاملها بكل ما فيها من مزارع، ومن مدن، ومن قرى ومن عليها وما عليها من حيوان وإنسان تكون ملكا لشخص واحد يتصرف فيها كيف يشاء، فله أن يقتل من يشاء أن يقتله، وأن يهجر من يريد أن يهجره، وله أن يتصرف في كل شيء على تلك الأرض.

كانت أوروبا كلها مقسمة إلى إقطاعيات، وهذه الإقطاعيات أو رؤساء المقاطعات أو ملوك المقاطعات يخضعون لملك أكبر منهم يسمى الإمبراطور، وتنظمهم دولة واحدة عرفت عندنا نحن الشرقيين بالإمبراطورية الرومانية الغربية تميزا لها عن إمبراطورية الروم الشرقية والتي نسميها في

* في 7 رمضان 1416 هـ المصادف 28 / 1 / 1996م بجامع جدحفص

كتب التاريخ عادة ببيزنطة، وكانت عاصمتها القسطنطينية والتي فتحت أخيرا عن طريق الدولة العثمانية، ويسقطها انتهى عهد الإمبراطورية الرومية الشرقية وبقيت الإمبراطورية الرومية الغربية، والأباطرة الذين يحكمون هذه الأرض أو القارة الأوروبية كانوا يخضعون أيضا لبابا الفاتيكان، والناس عبيد للإقطاعيين، والإقطاعيون تابعون للإمبراطور، والإمبراطور تابع للبابا الموجود في كنيسة الفاتيكان، والحاكم المطلق في أوروبا كان هو بابا الفاتيكان، وقد بدأ الأباطرة يتمردون على البابا منذ الحروب الصليبية، ووجدوا في ذلك فرصة أن يستقل كل واحد منهم بقطعة من الأرض، ونشأت هنالك الدول القومية في أوروبا فصارت هذه تسمى فرنسا، وتلك تسمى بريطانيا وهنا مثلا تسمى بروسيا وهنا روسيا وهنا جرمانيا وهنا سلوفاكيا إلى غير ذلك من الدول القومية، وصار في كل دولة قومية إمبراطور غير الإمبراطور الذي يكون في الدولة القومية الأخرى، وبذلك فقدت روما سلطتها المهيمنة على أوروبا كلها.

ولما ابتدأ عصر التنوير نشأت جامعات عصرية جديدة لا تخضع للفاتيكان، وأصبحت العلوم التي تدرس في هذه الجامعات غير مراقبة من سلطة البابا، وأخذت تظهر نظريات فلسفية ونظريات اجتماعية جديدة لم تكن معروفة عند الأوروبيين من قبل؛ أخذت كتب العلماء المسلمين تترجم وتباع في السوق السوداء سرا ليشتريها الدارسون والمثقفون ويطلعوا عليها، طبعا وهذا أوجد هزة معينة أو هزة شديدة في المجتمع الأوروبي بصورة عامة وإن كان في شدته، وفي حدته، وفي خفته تفاوت بين منطقة وأخرى.

ثم أخذت الصناعات الجديدة تظهر، وبعد أن كان المصنع يتكون من آلات تدار باليد ويستطيع أفراد كثيرون أن يؤسسوا دورا للصناعة فإنه بعد اكتشاف قوة البخار أصبحت المصانع الفردية الصغيرة لا تستطيع أن تقاوم المصانع التي تدار بالبخار، لأن التكلفة تكون أكثر، فلا تستطيع أن تجاريها في بيع السلعة في السوق فاضمحت الصناعات اليدوية الصغيرة وحلت محلها الصناعات البخارية الكبيرة، والصناعات البخارية الكبيرة تحتاج إلى عمال كثيرين، وهذا طبعا يتنافى وقضية الإقطاع، فالإقطاعي قد لا يسمح لسكان مقاطعته بترك العمل في مزارعه والانضمام إلى هذه المصانع، فصار أصحاب الأموال والتجار ينظرون إلى الإقطاعي بعين ضيقة

شزراء، ولا بد أن يضعوا الخطط لتحطيم نفوذ الإقطاعيين؛ أي نفوذ الأمراء المتحكمين في الإقطاع، وابتدأ الصراع بين أصحاب الأموال وبين الإقطاعيين، وحتى يتغلب أصحاب الأموال على الإقطاعيين لابد من استعداد الأباطرة عليهم، وربط مصلحة الأباطرة بأصحاب الأموال بدلا من أن ترتبط مصالحهم بأصحاب الإقطاع، ولا إشكال في أن دخل الصناعة أكثر ربحا من دخل الزراعة.

وهكذا صار الصراع على أشده بين الإقطاعيين وبين الملوك والأباطرة، وأدى ذلك إلى تفتيت الإقطاع في أوروبا، وأخذ المجتمع يتحول من مجتمع زراعي مستقر؛ تعيش الأسرة الواحدة فيه متضامنة عاملة في الأرض التي تحت يديها إلى أسرة متفككة يعمل أبنائها في حرف مختلفة. في المجتمع القديم كان الابن لابد أن يتعلم مهنة الأب، فلما جاء عصر النهضة الصناعية كان لابد أن توجد مدارس صناعية، فصار ليس من الضروري أن الابن يتعلم مهنة الأب، ولم يعد ابن الأستاذ أستاذا، ولا ابن النجار نجارا ولا ابن الفلاح فلاحا، واتجه كل إنسان إلى عمل مختلف، وإلى مهن مختلفة يختلط فيها بأقوام آخرين لم يكن يعرفهم، وليس له أي رابطة بهم، وحدث تلاقح أفكار، وتغير نمط التفكير، وتغيرت أنماط النظرة إلى الأمور، وأصبح الابن يرى الشيء بعين لا يراها به أبوه، ولا يقره على النظر إليها أخوه، وحصل تفتت في المجتمع الأوروبي، وانقسم الناس إلى طبقات؛ طبقة عمال، وطبقة أرباب عمل، وطبقة تجار، إلى غير ذلك من الطبقات المختلفة، والرابطة بين أبناء الطبقة الواحدة لم يعد إلا الاشتراك في المصلحة الواحدة. هذا أدى طبعا إلى صراع كبير بين الذين يعملون في المصانع وبين من يملكون تلك المصانع، فمصلحة من يعمل في المصنع مختلفة تماما عن مصلحة من يملك المصنع، وأصبح الصراع عندهم صراعا طبقياً مريرا، ولا إشكال في أن مصلحة الملوك والأباطرة كانت مرتبطة بمصلحة أصحاب رؤوس الأموال؛ أي أنها كانت مرتبطة بمصلحة أرباب العمل، فعندئذ أصبحت الملوك والأباطرة تتدخل في حماية أصحاب رؤوس الأموال وأصحاب أرباب العمل، وحصل الصراع هناك، وظهرت نظريات جديدة ذكرنا منها في محاضرة سابقة نظرية الحقوق الطبيعية، ونظرية العقد الاجتماعي،

وهناك نظريات أخرى ظهرت في علم الاجتماع بصورة عامة، وفي علم الاجتماع السياسي بصورة خاصة.

وانقسمت أوروبا، أو جرى الصراع في أوروبا على ناحيتين: في ألمانيا مثلا كان الصراع حول قدسية الدولة القومية أو عدم قدسية الدولة القومية، فهيجل يرى أن الدولة القومية مقدسة، ولا يجوز المساس بها، وهيجل هذا هو الذي أوجد منطق الجدل أو المنطق الجدلي المعروف بالديالكتيك، وهو طبعا فيلسوف قومي مثالي متعصب. وفيورباخ وهو أيضا من مفكري ألمانيا، لم يكن همه إلا أن يرسي الفلسفة المادية على أسس رصينة، وجاء مدعيا بأن المادة هي أصل الأشياء، وجاء كارل ماركس اليهودي فجمع بين الديالكتيكية الهيجلية الجدلية والمادية التي جاء بها فيورباخ ليخرج لنا الديالكتيكية المادية.

ومنذ ذلك الوقت أصبح الصراع في أوروبا على نحوين، صراع في شرق أوروبا يقوم على أساس نظرية وجدلية معينة، وصراع في غرب أوروبا يقوم بدون التفات إلى نظرية مادية أو غير مادية، ولا يهمه أن يصلي الإنسان أو لا يصلي، ولا يهمه أن يكون الإنسان مؤمنا أو لا يكون، وإنما الذي يهمه هو أن تنتصر هذه الطبقة أو تلك الطبقة، والجوهر الذي يجمع الجهتين من أوروبا شيء واحد؛ هو أن هذا الصراع سواء كان على نحو الرأسمالي الغربي أو على نحو الديالكتيك الماركسي في شرق أوروبا هو أن كلا من الصراعين جاء تنظيره وتأطيره وفلسفته على أساس لا علاقة له بالدين.

طبعا في أوروبا الغربية أفرز الصراع الديمقراطية، وفي أوروبا الشرقية أفرز الصراع دكتاتورية البروليتاريا، ولا يهمنا أن تكون هذه صحيحة أو تلك صحيحة أو هذه خطأ أو تلك خطأ، بل نحن من الناحية المبدئية نعتقد أن كلا النظريتين باطلة ويجب أن تمحق، إنما نقول إن جوهر الصراع في أوروبا كلها سواء في القسم الغربي منها أو في القسم الشرقي منها لم يجعل للدين اعتبارًا في هذا الصراع أو في هذا التنظيم.

بعض المدرسين في البحرين مع الأسف يقول لطلابهم: إن الناس في أوروبا تركوا الدين لأن علماء الدين ساندوا الأباطرة والملوك ضد الفقراء والعمال وضد حقوق الناس، وهذا في الحقيقة تزوير على التاريخ الأوروبي، وتشويش لأذهان الطلاب، وذلك إنما يدل على جهل هذا المدرس بالدين المسيحي من أساسه، فالدين المسيحي لم يأت لتنظيم الدنيا مطلقاً، بل كل الأناجيل الموجودة تقول: [أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله]، فمعنى ذلك أنها تجعل الله شريكاً هو قيصر، وأن له الحق؛ هذا هو الذي جعل الدولة المسيحية من أول يوم تكون السياسة فيها لا علاقة لها بالدين مطلقاً.

ففي بيزنطة كانت السياسة لا علاقة لها بالدين، والدين لا علاقة له بالسياسة، بل إن من يقرأ تاريخ الدولة البيزنطية يجد أن هناك صراعاً كثيراً في كثير من الأحيان بين الكهنوت الذي يمثل الكنيسة وبين الإمبراطور، وكثيراً ما كان الإمبراطور يعتدي على أملاك الكنيسة وأوقافها، ويبتز منها كل مدخراتها، خاصة في أوقات الحروب والأزمات.

وإذا رجعنا أيضاً إلى أوروبا وإلى روما الغربية وإلى الصراع الذي جرى بين بابا الفاتيكان والأباطرة في أوروبا نجد أن الصراع في كثير من الأحيان كان يدور بين البابا والأباطرة، وأن الأباطرة طالما اعتدوا على أملاك الكنيسة وأوقافها ومدخراتها، وإن ظهور المذاهب الحديثة في الكنيسة مثل البروتستانت إنما جاء بتشجيع من الأباطرة لشق الجماهير عن الكنيسة، ولذلك انتشرت هذه في الأماكن البعيدة عن الكنيسة كسويسرا وألمانيا وبريطانيا.

فالصراع الذي جرى في أوروبا والذي أفرز الديمقراطية من الجهة الغربية ودكتاتورية البروليتاريا من الجهة الشرقية لم يكن له علاقة بالديانة المسيحية، بل إن الدين المسيحي يعترف وفي الأيام الأولى من تحريفه على يد بولس بأنه لا دخل له في الحكم، ولا دخل له في السياسة، وأن العملة لها وجهين، وجهاً لله ووجهاً لقيصر، فأعط ما لقيصر لقيصر، وأعط ما لله لله، ولم تكن الديانة في أوروبا أكثر من علاقات بين الإنسان وربه، ولم تكن تتدخل في تنظيم شيء من أمور الحياة في ما عدا عقد الزواج والطلاق، وفي ما عدا الزواج لا دخل للكنيسة في تنظيم شيء من

أمر الدنيا، وهي إذا كانت تمارس حكماً فإنما تمارس حكماً بناء على ما كان يسير على الإقطاع في أوروبا، لكنها لا تدعي أن هناك حكماً شرعياً في كل موضوع، وفي كل حدث، وفي كل واقعة تسعى الكنيسة إلى تطبيقه، ولذلك فإن الصراع كان في الحقيقة بين رجال الكنيسة وبين العلماء المتتورين وبين الفلاسفة؛ سواء منهم الموحدين الذين لا يقولون بمقولة الكنيسة في التثليث أو الملحدون الذين ينكرون وجود الله، باعتبار أن ذلك له تعلق بالعبادة؛ لا أنه جرى هناك صراع بين الناس وبين الكنيسة من هذه الجهة؛ أي من جهة السياسة والتنظيم السياسي.

فالديمقراطية الغربية أو دكتاتورية البروليتاريا وإن كانت الثانية تحارب الدين والأولى تعترف بالدين لكن لم يكن الدين داخلاً في تكوينها، وقد قلنا في ليلة السبت بأن أوروبا الغربية لم تلجأ إلى الديمقراطية باعتبارها قاضياً عادلاً يفصل بين المحق والمبطل، وإنما لجأت إلى الديمقراطية تخفيفاً لحدة الصراع الدائم، لجأت إلى الديمقراطية لا لتحكم في الموضوع المعلق وإنما لتستبدل وسائل الصراع، فبدلاً من أن يكون الصراع بالسيف أو بالرصاص أو بالمدفع يكون بالورقة الملقاة في الصندوق، ومثل الإنجليز واضح في هذا المجال: [الورقة أفضل من الرصاص] أو [الورقة بدلاً من الرصاص].

فالديمقراطية إذن ليست حلاً وإنما هي تطوير لطريقة الحرب، فبدلاً من أن تكون الحرب بين أصحاب المصالح المختلفة بالسيف أو بالرصاص تكون الحرب بين أصحاب هذه المصالح بالورق، وأوروبا ذاتها وهي التي أوجدت الديمقراطية، وهي التي أفرزت الديمقراطية لا تدعي أن الديمقراطية حل وإيجاد للإنصاف، وإيجاد للعدالة، وتحقيق للحق، وكل ما هناك أنها تعطي للأغلبية حق التصرف في مصير الأقلية. لماذا؟ لأنه لو تحاربت الأغلبية والأقلية بالسيف فلا إشكال في أن النصر سيكون للأغلبية، ولو تحاربت الأغلبية بالرصاص والمدفع، فلا إشكال في أنه سيكون النصر للأغلبية، فإذن بدلاً من أن تستهلك الدماء فلتنكح المعركة بأوراق الانتخابات، وعندئذ تتغلب أو تنتصر الأغلبية على الأقلية وبدون إراقة دماء من الطرفين.

لكن لا يعني ذلك أن هذا هو الحق وهذا هو العدل، فليس الحق دائما مع الأغلبية ومع الأكثرية، وليس الباطل دائما مع الأقلية، إن أصحاب الديمقراطية لا يدعون أن هذا هو الحق، وأن ما تحكم به الأغلبية هو الحق، لا، ولكن يقولون إن الأغلبية إذا لم يسمح لها بإجراء حكمها بهذه الطريقة فإنها ستجري حكمها بالسيف أو الرصاص، وعندئذ تكون خسارة من الطرفين، فلتتغلب عن طريق الأوراق، ولتحكم مدة من الزمن ثم ننظر إن كانت الغالبية مع هذا الحكم أو مع غيره. فإذن هذا هو حقيقة الديمقراطية.

طبعا دكتاتورية البروليتاريا ما كان لنا من حاجة في أن نتكلم عليها لولا أن كثيرا من الناس أجاز لنفسه أن يقبل أتباعها في البحرين في حركة تدعي الإسلامية.

ودكتاتورية البروليتاريا تقوم على نكران الدين مطلقا، وأنه أفيون الشعوب، وتقول إن الحق ليس إلا للطبقة العاملة، وأنه لا حق إلا للطبقة العاملة، وأنه لا يجوز أن تعطى الحرية لأعداء الشعب، ومن هم أعداء الشعب؟ من يختلف مع حملة النظرية الماركسية لا حرية له ولذلك هم يصرحون بأنها دكتاتورية، ولكنهم يقولون بأنها دكتاتورية البروليتاريا أي العمال، دكتاتورية العمال، والعمال من يمثلهم؟ الحزب، والحزب من يقوده؟ الأمين العام، وعندئذ يعود الإمبراطور الذي جاء دستوره لإزالته، ويعود القيصر التي قامت الثورة البلشفية للإطاحة به في صورة جديدة تسمى الأمين العام للحزب الشيوعي، وتكون الدكتاتورية في الحقيقة هي دكتاتورية الأمين العام للحزب الشيوعي، ولكنه يغطي نفسه بالعمال، ويسميا دكتاتورية البروليتاريا، هذا هو معدل نظرية الجانب الشرقي من أوروبا.

ما هو موقف الإسلام من النظرية الغربية؟

طبعا لا علاقة للإسلام بالديمقراطية الغربية قط، أولا أنها إفرازات أمم لم تدن بالإسلام، وإنما هي صراعات بين أقوام لا علاقة لهم بالإسلام، والإسلام أيضا يختلف عن المسيحية تماما؛

مائة بالمائة، من هذه الجهة، فالمسيحية تقول: [أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله]، الإسلام يقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾¹، فإذن ليس ثمة شيء خارج عن ملك الله.

المسيحية بصورتها الراهنة تعترف بحكم القيصر، والإسلام يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾²، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾³، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾⁴، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁵.

إذن لا علاقة للإسلام بالديمقراطية الغربية مطلقاً، والأمم الإسلامية يجب أن تقيم مجتمعاتها، والأمم الإسلامية يجب أن تقيم أوضاعها على نهج الله، وعلى تشريعات الله، إذا كنت أدعي لنفسي أنني إسلامي ثم أطالب بإقامة المجتمع على النهج الشرعي حينئذ لا يوجد تناقض بين عقيدتي وبين ما أدعو إليه، ولا يوجد تناقض بين ما أعتقده وبين ما أدعو إليه، ولكن إذا كنت أدعي أنني إسلامي وأدعو إلى الديمقراطية الغربية فهناك تناقض كبير بين ما أدعيه من الإسلامية وبين ما أدعو إليه من الديمقراطية الغربية، أولاً لأن هذا يضطرنني للتسليم بأنه يجوز لكل الناس الذين يكونون معي في الوطن سواء كانوا مسلمين أو كانوا غير مسلمين أن يسهموا في عملية التشريع ووضع الأحكام التي تطبق على المسلمين في البلد، وهل هناك علمانية أشد من هذه العلمانية؟ وهل هناك فصل بين الدين والسياسة أشد من هذا الفصل؟ فعندما أدعو إلى ذلك أكون قد ناقضت نفسي، وأكون قد ناقضت ما أدعيه من أنني إسلامي، فكما أن الليبرالي يدعو إلى الديمقراطية، فالإسلامي لا بد أن يدعو إلى الإسلام لا إلى الديمقراطية، ويدعو إلى تطبيق أحكام الله لا إلى فسح المجال أمام كل الناس بمن فيهم من لا يؤمن بالله أن يشرع للذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

¹ النور: من الآية 42

² النساء: 65

³ المائدة: من الآية 44

⁴ المائدة: من الآية 47

⁵ المائدة: من الآية 45

إن في ذلك تناقضا كبيرا في الموقف، ويمكنكم أن تقرؤوا في هذا الصدد ما كتبه الإمام الخميني قدس سره في هذا الموضوع، أي ما كتبه عن الديمقراطية الغربية، وما كتبه غيره من العلماء المعاصرين مثل السيد محمد حسين فضل الله ومثل السيد الحريري وغيرهم حتى تعرفوا حقيقة الموقف الشرعي الذي ينبغي اتخاذه في هذا الصدد، وأن الإسلامي الذي يدعي الإسلامية ثم يدعو إلى الديمقراطية إنما هو يناقض نفسه، ويناقض دعواه؛ لأن هذا أولا يقتضي التحول من الإسلامية التي تقول: لا يوجد فصل بين الدين والدولة ولا بين الدين والسياسة إلى العلمانية التي تتادي بالفصل بين الدين والدولة وبين الدين والسياسة.

نعم لو كنت في مجتمع لا أستطيع أن أمنع هذا المجتمع بأن يأمر بالديمقراطية الغربية فعندئذ قد أشارك، ولا مانع أن أرشح نفسي وأدخل لا إيمانا مني بهذه الديمقراطية، ولكن لإيقاف ما أتمكن من إيقافه، من شرورها فقط وليس إيمانا بها.

إذن السؤال الذي طالما تكرر: ما هي علاقة الديمقراطية بالإسلام؟ أعتقد أن هذا يكفي في بيان هذه العلاقة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سؤال: ماذا تعني كلمة الفاتيكان؟

جواب: الفاتيكان مدينة داخل مدينة روما، وذلك أنه بعد أن اشتد الصراع بين إمبراطور الروم وبين البابا تقرر بين جميع ملوك أوروبا أن تؤخذ مدينة وهي جزء من مدينة روما وتُسور بسور يكون للبابا سلطان الحكم فيها، ويعترف بها ملوك أوروبا كدولة مستقلة يحكمها البابا، كما أن لهم دولهم المستقلة التي يحكمونها، لأن البابا كان يدعي أنه له الحكم من الله سبحانه وتعالى على جميع الملوك وعلى جميع الرؤساء، فانفقوا بعد ذلك على أن يخصصوا له قطعة من الأرض يحكمها وهذه القطعة سميت بالفاتيكان، وإلى اليوم تسمى بالفاتيكان.

سؤال: نحن اليوم نرى تدخل الباباوات في السياسة والأحاديث السياسية فهل معنى ذلك أنهم لم يلتزموا بمسيحيتهم؟

جواب: التدخل من الباباوات في السياسة ليس من اليوم ولكنه كان من الأيام الأولى، ولكنهم لا يوجد عندهم منهج شرعي للحكم، يدعون أنه منهج من الله سبحانه وتعالى ويطالبون الناس بالالتزام به، وإنما هم يتدخلون في السياسة كما يعمل في السياسة أي إنسان آخر قد لا يكون مؤمنا بالله، وهذا فرق بينهم وبين العالم المسلم إذا تدخل في السياسة أو إذا عمل في السياسة، فهو إنما يتدخل ويعمل من جهة أنه يدعي أن الشريعة الإسلامية جاءت لتحكم الناس على الأرض، وأن على جميع بني الإنسان أن يطبقوا أحكام الله، فرق بين هذا التدخل وبين هذه الدعوى وبين ذاك التدخل، على أن البابا اليوم يعد رئيس دولة هي دولة الفاتيكان.

سؤال: ماذا لو قال أحد إنني أطالب بالديمقراطية بوصفها أفضل ما يوجد من النظريات إذا لم يقبل الناس تطبيق الإسلام، وأنها أفضل من لا شيء يطبق؟

جواب: أعتقد أن هذا السؤال فيه مغالطة، تارة تكون في بلد غير مسلمين كما لو كنت في الصين، أو في الهند أو في تايلاند أو في أوروبا مثلا، وباعتبار أن غالبية الناس هناك ليسوا مسلمين فأنت لا تستطيع أن تطالبهم بالالتزام بأحكام الله، ولأجل أن تتمكن أنت أن تلقي ببعض أفكارك وآرائك في القانون تطالب بالديمقراطية، وبين أن تطالب في بلد كل سكانه من المسلمين؛ فعليك أن تجهر بالحقيقة وتقول أيها الناس اتقوا الله والتزموا بأحكامه، وإن لم تفعلوا فاستعدوا لعذابه وعقابه، لا أنك تقول إنني أدعو للديمقراطية في بلاد الإسلام، هذه الدعوة إنما تريد أن تفتح بها بابا للشيوعيين والليبراليين، وأن يتمكنوا من الوصول إلى كراسي أي مجلس يوجد، فيدلوا بأفكارهم في التشريعات التي تطبق على المسلمين، وهذا في حقيقته إنما هو تناقض، فالمسلم واجبه أن يدعو إلى الإسلام، وأن ينبه الناس إلى وجوب الالتزام بالإسلام وأنهم إذا لم يلتزموا بالإسلام فإن عليهم الاستعداد لأمر

الله سواء أنزل عليهم غضبه في الدنيا أو أخرهم إلى عذاب الآخرة، هذا هو واجب المسلم، لا أن يدعو إلى نظرية كافرة في بلاد المسلمين.

سؤال: ألا يجوز إشراك جميع الفصائل الوطنية في اتخاذ القرار؟ وإذا تعذر اتخاذ القرار من جانب الدينيين واختلافهم؟

جواب: أنا لا أفهم الفصائل الوطنية، أنا عندي المواطن هو المسلم فقط، أما من ولد من مسلمين ثم لم يؤمن بالإسلام فحكمهم في الشريعة باتفاق الفقهاء هو القتل، وإذا أعلن التوبة نعطيهِ فرصة لقضاء ما فاتته من صلاة وصيام ثم يقتل أيضا حدا، فكيف إذا كان هذا هو الحكم الشرعي باتفاق العلماء والفقهاء كيف أقول إنه يجوز له أن يشارك في القرار وأنا لا أجزئ له أن يشارك في الحياة. الشيء الثاني أن اختلاف الدينيين ليس بأكثر من اختلاف الليبراليين مع بعضهم البعض أو مثلا الرأسماليين أو الشيوعيين أو غيرهم.

أيها الأخ الكريم واجبك يا أخي في بلاد المسلمين أن تقول للمسلمين أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، أيها الناس فيئوا إلى الله، التزموا بأحكامه، طبقوا شرائعه قبل أن يأتيكم يوم من الله لا مرد له، هذا هو واجب المسلم أن يدعو إلى الله، أن يدعو إلى الالتزام بأحكام الله، لا أن ينادي بنظريات كافرة ويأتي بمفاهيم باطلة مثل الفصائل الوطنية. لقد كان رأي أصحاب النظرية الديمقراطية أن الدين لله والوطن للجميع، أما نحن فنقول: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾¹. فالوطن لله ولا يبقى عليه إلا من آمن بالله.

سؤال: إذا كانت الديمقراطية لا يجوز المطالبة بها فما هي المطالبة الصحيحة الشرعية؟

¹ الأعراف: من الآية 128

جواب: المطالبة الصحيحة هي أن تدعو إلى تطبيق أحكام الله، وتدع عنك المفاهيم والعنوانات الباطلة التي اخترعها البشر والتي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾¹.

سؤال: ما الفرق بين العلمانية والليبرالية؟

جواب: الليبرالية معناها الانفتاح على جميع النظريات ولا يميز بين نظرية ونظرية، وإنما يقول إن ما تريده الأكثرية يجب أن يوصل إليه بدون النظر إلى مصدره، وإلى صحته إلى غير ذلك، هذا هو الذي قامت عليه الديمقراطية الغربية.

والعلمانية في الحقيقة مصطلح جاؤا به لأنهم في ذلك الوقت كانوا يقولون فلان كنسي وفلان علماني، فلما تغلب جانب العلمانيين على الكنيسة ارتبطت الثورة الفرنسية بهم، وارتبطت أيضا أمور الديمقراطية في بريطانيا بهم كأنما تشابكت المفاهيم، وأطلق على كل من يدعو هذه الدعوة بلفظ علماني، ولكن ليس كل من تطلق عليه اللفظة علماني، لأنه قد لا يكون له ربط بالعلم مطلقا كالشيوعيين مثلا، فهؤلاء ليسوا علمانيين، هؤلاء ملحدون؛ لأن النظرية الماركسية لا ربط لها بالعلم مطلقا، ولا يقرها أساس العلم البشري، وأن جميع أساسات العلم البشري تقوم من البحث عن السبب، وأنه لا شيء يقع من دون سبب، والحال أن النظرية الماركسية تقول بأن الكون لم يكن له سبب ولم يكن له موجد ولم يكن له أصل.

سؤال: لو كانت الديمقراطية والدعوة إليها نتيجتها سيطرة الإسلاميين واستلامهم زمام التشريع والأمر فهل ذلك يعارض مبادئ الإسلام؟

جواب: القضية قضية مبدأ وليست قضية مرحلة، فمثلا لو جاءت دولة غير مسلمة لا سمح الله واحتلت دولة أو أرضا من بلاد المسلمين، فإن هذه الدولة حتى تستطيع أن تتدخل في التشريع

¹ النجم: من الآية 23

ماذا تعمل؟ أول شيء تصدر قوانين، وهي في أول الأمر طبعا لن تصدر قوانين منافية للإسلام، لماذا؟ لأنها تخاف أن يحصل الهيجان، فقد تصدر قوانين حين يقرأها الفرد العادي يراها قوانين ممتازة، وكلها مطابقة لروح الإسلام، فهذه القوانين يُعمل بها سنتين، أو ثلاث، أو أربع، أو خمس، وعندئذ تعلن تلك الدولة أن القانون يحتاج إلى تعديل، إجراء بعض التعديلات، ولا تعدل القانون كله، بل تعدل مادة، أو مادتين وفي كل مرة تعدل مادة أو مادتين، وبعد ثلاثين، أو أربعين سنة لا يبقى من ذلك القانون الذي كان مطابقا لروح الإسلام شيء، ويتحول كله إلى قانون كفر.

وهذا هو الذي يجعلنا هنا في البحرين نرفض تقنين الشريعة؛ لأنه حينما تقنن الشريعة سنصل إلى نفس النتيجة التي وصلت إليها بلاد أخرى، كمصر والعراق، والمغرب وغيرها، وكلها كانت في البداية قننت الشريعة، ثم جرت التعديلات على تلك التقنينات وأصبحت القوانين كلها لا علاقة لها بالشريعة، عندما أَدْعُو إلى الديمقراطية فمعنى ذلك أنني آمنت بنظام لا علاقة له بديني، ويتعارض مع دعوتي الإسلامية، وعندما أَدْعُو إلى الديمقراطية ولو لسيطرتي أنا في مرحلة من المراحل فهذه أوقات قصيرة، وأكون قد خنت مبدئي وأنتي سمحت بأن يأتي غيري أيضا ويسيطر على الأمور، أنا اليوم معي الجماهير، وبعد خمس سنوات من يضمن أن تبقى معي الجماهير، ألا ترى أن الجماهير يمكن تغييرها بمجرد إشاعة، وقد أثبتت هذه الأزمة مدى تأثير الناس بالإشاعات الباطلة والكاذبة، ومدى تشبثهم بها، ومدى تصديقهم لها، واندفاعهم معها، وتحطيمهم حتى لأنفسهم ومقدساتهم وعلمائهم بناء عليها.

المسلم يلزمه أن يدعو إلى الإسلام، لا أن يدعو إلى الديمقراطية أو إلى دكتاتورية البروليتاريا أو إلى أي مبدأ آخر من المبادئ أو نظرية أخرى من النظريات، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾¹، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾².

¹ يوسف: 108

² النحل: من الآية 125

واجب المسلم هو الدعوة إلى الله بين غير المسلمين، فكيف يجوز له أن يدعو إلى تنظيمات وإلى نظريات وإلى مبادئ خارجة عن الإسلام بين المسلمين، ليس قول الإنسان إنني أدعو إلى الديمقراطية حتى يتسنى لي أن أسيطر على الأمور إلا سذاجة وقصر نظر.

سؤال: هل يفهم من العرض المتقدم أن الديمقراطية بالمنهج الذي ظهرت به وأسلوب تعامل الناس بها قد أضحت ديناً يدار به أم أنها مجرد تنظيم للصراع الاجتماعي؟

جواب: هذا السؤال ينبع من عقلية أوروبية خالصة مع الأسف أيها الأخ، والرجاء قبل كل شيء أن تتظف عقليتك فليس في الإسلام دين يدار به ونظام يدار به الصراع، أولاً يجب أن تفهم نظرية الإسلام في هذا المجال.

أوروبا قامت على نظرية البقاء للأقوى، وهذا يعني أن كل شيء يكون بالصراع، يقولون إن الفلاح يصارع الأرض، ويعزقها بفأسه ويضربها بقوة فهو يصارعها ويتغلب عليها ويجعلها تراباً ناعماً، يضع فيها البذرة، والبذرة تصارع الأملاح، والفلاح يصارع البذرة والأملاح، وتخرج الشجرة، وتصارع الأرض، وتخرج الثمرة، ويعود الفلاح يصارع الشجرة، وكذلك المجتمع طبقات تتضارب به مصالحهم، فلذلك يتصارعون.

النظرية الإسلامية ما قامت على أساس الصراع، وإنما قامت على أساس التآخي والمحبة والتآلف والتعاون، فالفلاح لا يصارع الأرض، وإنما هو يعينها ويتساعد معها ليجعلها قادرة على استيعاب البذرة، والأرض لا تصارع البذرة، والبذرة لا تصارع الأرض، وإنما الأرض تساعد الحبة، وتربيها، وتعطيها الحرارة اللازمة حتى تنفتح تلك البذرة، تتلقى الجذيرات بحب وبوئام، وبرحمة، وتغذيها، والفلاح أيضاً يساعد الأرض، و يساعد البذرة بالسقي، وبالتسميد وهكذا تقوم الحياة على التعاون لا على التصارع.

الزوج والزوجة يتعاونان في تكوين الخلية الأسرية، والبويضة والحيومن يتعاونان في تكوين الإنسان. المسلمون يتكافلون مع بعضهم البعض، والمؤمنون إخوة فهم يتراحمون مع بعضهم البعض، المؤمنون يتعاونون؛ الغني يشد أزر الفقير، والقوي يشد أزر الضعيف، والفقير أيضاً

يتعاون مع الغني، وهكذا يسير المجتمع بتعاون، وبمحببة ويتآلف لا بصراع، فنظام الطبقات يا أخي غير معترف به في شريعة الإسلام.

هذا الذي تسميه صراعا أو تسميه نظاما، أي نظام يجب أن يؤخذ من وحي الله، من القرآن أو من السنة المطهرة، حتى يكون تطبيقا وتنفيذا لحكم الله.

فالدعوة إلى الديمقراطية دعوة إلى نظام لا يأتي من وحي الله، بل يتعارض مع وحي الله، ويقوم أيضا على أساس نظرية الصراع ونظرية التحارب والتعارك، نحن نقول: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" ولا نقول يتصارعون. فنظرية الصراع التي ذكرناها في الفلسفات الأوروبية وخروج الأنظمة الديمقراطية في الغرب أو أنظمة دكتاتورية البروليتاريا في الشرق قلنا إنه لا يمكن الجمع بينها وبين الإسلام بجهة من الجهات، والدعوة إليها إنما هو حرب ضد الإسلام من جميع الجهات.

سؤال: ما يجري في إيران من الانتخابات لاختيار رئيس الجمهورية أو أعضاء مجلس الشورى، ماذا تسمى هذه العملية؟

جواب: هناك خلط عند الأخ السائل، ليس معنى الحياة النيابية أن تكون ديمقراطية، وليس معنى الدول والشعوب والمجتمعات التي تنظم أنفسها على أساس جمهوري أن تكون بالضرورة ديمقراطية، ولو ذهبت أنت ووجهت سؤال إلى دولة الجمهورية الإسلامية في إيران هل أن دولة الجمهورية ديمقراطية؟ لقالوا لك لا، نحن لسنا ديمقراطيين ولا نوؤمن بالديمقراطية، فالأخ عنده اشتباه في مفهوم الديمقراطية.

ليس معنى الديمقراطية أنها الانتخابات أو الجمهورية، وليس معنى الجمهورية أو الانتخابات أو المجالس النيابية أن تكون بالضرورة ديمقراطية.

الديمقراطية نظرية معينة لها أسسها، ولها فلسفتها، ولها أفكارها التي تقوم عليها، فمثلا في النظام الديمقراطي لو رأيت إنسانا يشرب خمرا لكنه لم يضر أحدا، لا يعيره أحد بالاً، لأنه في نظر

النظام لم يرتكب جرماً، فليس لك حق عليه، في إيران لو وقعوا على إنسان يشرب خمراً لجلدوه ثمانين جلدة، فإذن فرق بين الديمقراطية وبين الحياة النيابية.

الحياة النيابية إذا كانت على وفق الشريعة الإسلامية فجميع المسلمين سيؤيدونها، لكن إذا جاءت وفق النظرية الغربية فإننا لا نستطيع أن نؤيدها، ولا ندعو إليها، ولكن إذا صارت على رغم أنوفنا، سأشارك فيها، أشارك فيها حتى أَدفع ما أستطيع دفعه من المفاصد، لا للإيمان بها والاعتراف بها، ولكن ليس معنى ذلك أن الانتخابات هي الديمقراطية، وليس كل انتخابات ديمقراطية، وليس كل ديمقراطية تأتي بالجمهورية، بريطانيا ملكية لكنها ديمقراطية. هولندا لا تزال ملكية لكنها ديمقراطية، وكثير من الملكيات ديمقراطيات، وهناك جمهوريات ليس فيها ديمقراطية، مثل بعض الجمهوريات العربية والإسلامية.

الإسلام والقومية *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين. والسلام عليكم أيها الأخوة المؤمنون جميعاً ورحمة الله وبركاته.

من الحقائق الثابتة عند أبناء البشر، والمرتكزة في أذهانهم ارتكازاً لا يقبل التشكيك هو أنهم جميعاً ينتمون إلى أبٍ واحد وأمٍ واحدة. هذه الحقيقة لا يختلف حولها الموحدون والملحدون، ولا تتضارب فيها آراء أتباع الأنبياء وأتباع الفلاسفة، وحتى أولئك الذين يقولون بنظرية التطور [الدارويني] لم يحدثونا في يومٍ من الأيام عن أصول متعددة لبني البشر، ولم يحاولوا - كما جرت عاداتهم - أن يستدلوا بهياكل حيوانات أخرى ولو كان من قبيل القرود العالية على أنها تمثل أصولاً متعددة لأبناء الإنسان؛ فأبناء الإنسان إذن كلهم يعودون إلى أبٍ واحد وأمٍ واحدة. هذه الحقيقة لا يدور حولها جدلٌ عند الناس.

كيف إذن نشأت عندهم أفكار القومية والعنصرية والإقليمية؟! وجعلتهم يتفاخرون ويتضاربون - ربما - بالسيف والمدفع في سبيلها.

لا شك أن تطاول الأحقاد على بني البشر أنساهم تذكر وشائج الرحم الأولى، وأنساهم تذكر صلة الأخوة بينهم وجعلهم يتشبثون بأجدادٍ وآباء هم أقرب إليهم من آدم عليه السلام، حتى لو اضطروا في ذلك إلى خلق أبٍ وهمي، أو جدٍ خرافي ينسبون أنفسهم إليه، وربما كان لتضارب مصالح بعض الحكام وبعض الزعماء دخل كبيرٌ في ذلك.

في القرون السالفة قبل الإسلام، كانت الدنيا بأسرها - إلا في حقب قليلة - تعيش حياة الحرب وحياة الخصام بين الفئات المختلفة من بني البشر على معانٍ تافهةٍ من أهمها معنى العنصرية، والدول التي كانت تقوم وتشاد إنما كانت تشاد وتؤسس على معنى العنصرية. فالفراغة

* محاضرة في آذار 1981م في جمعية التوعية الإسلامية

كانوا يعتقدون بأن سائر الشعوب، وسائر أمم الأرض، كلهم أقل درجةً من المصريين، ولا مانع لديهم من قتل من يسمونهم بالآسيويين، ولا مانع لديهم من إشادة الأهرام بسخرة أولئك الذين يسوقهم النصيب إلى دخول مصر ممن لم يكونوا من أهلها، على أن الحياة نفسها عندهم لم تكن على قدم المساواة بين أبناء القبيلة الواحدة، ولا شك أن الفراعنة يرون أن السلالة التي نزلوا منها أكثر رقياً وأعظم قدسيةً من سائر السلالات المصرية، وأن دمهم النقي الطاهر هو الذي يجعل لهم الحق في سياسة البلاد وحكمها. والآشوريون والكلدانيون والسومريون كل أولئك الأقوام لم يهدأوا لحظة في تاريخ حياتهم - بل في تاريخ دولهم التي قد تستمر قروناً - عن الحرب و سفك الدماء مع الأقوام الآخرين بدون هدفٍ سامٍ، وبدون مصلحةٍ تعود إلى البشرية، وإنما من أجل فرض سيطرة عنصرٍ على عنصر. والفرس أنفسهم كانوا يعتقدون أنهم أفضل شعوب الأرض، فالأكاسرة أفضل بني الإنسان. وهكذا الرومان واليونان، وجميع هذه الدول ليس لها من معنى وليس لها من هدف وليس لها من أساس تعتمد عليه في تبرير وجودها إلا أنها تنبثق من عنصرٍ يدعى أنه يفوق سائر بني البشر رقياً وتقدماً وطيبةً وطهراً.

حتى أتباع بعض الأديان عملوا على تحريف الكتب المقدسة التي أنزلها الله سبحانه على رسله ليعطوها معنى قومياً أو عنصرياً. فاليهود حرفوا التوراة، وادعوا لأنفسهم أنهم شعب الله المختار وأن جميع البشر إنما خلقوا ليكونوا عبيداً لأبناء إسحاق عليه السلام، وأن كل ما عند الناس فهو لهم مباح، وإذا كانوا يعترفون بنوع من الاستقلالية لبني عمهم بني إسماعيل عليه السلام - كما تقول التوراة: "وأما أنت يا إسماعيل فيدك على إخوتك ويد إخوتك عليك" - فلأنهم يعرفون أن بني إسماعيل أيضاً لن يخضعوا لهم. والنصارى أو مؤلفو الأناجيل حاولوا أيضاً أن يصبغوا الديانة - التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على السيد المسيح - صبغةً قوميةً عنصرية تتحصر في شعبٍ واحد، - كما في الإنجيل - "إنما أرسلت لخراف إسرائيل الضالة"، على ما في لفظ إنما من الحصر.

هكذا كانت الدنيا قبل نزول الدعوة الإسلامية على يد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. وجاء الإسلام فدعى إلى نبذ العصبية العنصرية، وذكر الناس بأنهم جميعاً خلقوا من شيء واحد، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ قَبَّارِكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٣﴾﴾¹. إذا فجميع الناس - لا فرق بين من يدعى الشرف لنفسه ومن يدعى الرفعة لنفسه وبين من يعترف لذلك الآخر أنه أشرف منه - كلهم جاءوا في الخلق من هذا الطريق، كلهم جاءوا من الأرض ومن الماء، وكلهم كانوا في صلب أبٍ واحد وأمٍ واحدة.

إذاً لا معنى لكل ما يدعى من تفوق عنصر على عنصر لأنه في الحقيقة لا يوجد إلا عنصر واحد هو عنصر التراب ممتزجاً بالماء، وجاء الإسلام بمبادئ أساسية لنبذ العنصرية و دعوة الناس إلى الوحدة كافة، فهم من حيث الخلقة من أصل واحد، وهم من حيث الوجود على الأرض جاءوا كلهم بطريق واحد، من أب واحد وأم واحدة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾²، فالناس كلهم أبيضهم وأسودهم، قويهم وضعيفهم، متعلمهم وجاهلهم، كلهم يرجعون إلى آدم وحواء، وهذا هو سبب وجودهم على الأرض، ودعا إلى عبادة رب واحد، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿١٠٢﴾﴾³، واحد لا شريك له، فليس هناك إذن أرباب متفرقة حتى يحتاج بنو البشر إلى التفرق بسبب تفرق الآلهة، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾⁴، فهو تعالى لا شريك له ولا شبيهه ولا نظير ولا معين في خلقه، وأنزل شريعة واحدة هي شريعة الإسلام، ومنذ أول يوم نزل فيه البشر إلى الأرض صاحبتهم هذه الشريعة، ومشت معهم نبياً بعد نبي ووصياً بعد وصي، حتى جاء دور نبينا محمد صلى الله عليه وآله، ولم يتوقف سير هذه الدعوة لحظة

¹ المؤمنون: 12-14

² الحجرات: 13

³ البقرة: من الآية 255

⁴ الإخلاص

واحدة، ولم تتخلف عن مواكبة البشرية آنأ ما، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾¹، هذا الاختلاف في الدين إنما نشأ عند أتباعه بغياً بينهم وتعصباً على الحق وعناداً عليه، فهو سبحانه أنزل شريعة واحدة لا تتغير في أساسها، ولا تتبدل في أصولها وإن اقتضت ضرورات الأزمان وضرورات الأحوال أن ينسخ حكم جزئي أو يشرع حكم فرعي، هذه الدعوة هي في الحقيقة دعوة عالمية أممية وليست دعوة عنصرية أو قومية، والأمة التي قامت على أساس من هذه الدعوة ليست أمة قومية عنصرية، فالعرب الذين حملوا مشعل الإسلام إلى بقية شعوب الأرض وسائر أبناء الإنسان ليسوا إلا بداية لتكوين هذه الأمة، والشريعة الإسلامية ليست شريعة قومية خاصة بالعرب ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾²، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾³، فالآيات القرآنية كلها تؤكد على أن هذه الدعوة هي دعوة لكل بني الإنسان، وإذا كان رسولها الأعظم قد اختاره الله من بين العرب فلا شك أن في ذلك تكريماً لهم إن اتبعوه، لكن ذلك لا يعني أن تكون رسالته رسالة عربية أو رسالة قومية عنصرية، ولا يعني أن الأمة التي قامت على أساس من هذه الدعوة هي أمة عربية أو أمة عنصرية، والدليل على ذلك واضح في تاريخ الإسلام نفسه، ففي بداية الفتح لم نجد العرب يدعون لأنفسهم بأنهم أفضل من سائر المسلمين، ولم نجد قادة الإسلام وحملته، النبي صلى الله عليه وآله والخلفاء الراشدين من بعده يدعون أن العرب أفضل من غير العرب، بل قامت الأمة الإسلامية بخليط من الناس، فهناك صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، وغيرهم كثير ممن ليسوا بعرب، كلهم ساروا على مسار الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، لا فرق بينهم ولا اختلاف ولا تبجح بالآباء ولا بالأنساب، ومضت الأمة في مسيرتها هذه حتى ابتدأت تتحرف عن جادة الصواب، وحتى أخذ التحلل يدب إلى أوصال المنظمة الإسلامية بفضل قيام حكومات الواقع التي أدت إلى تعطيل أجزاء كبيرة من الشريعة الإسلامية، هذا التحلل الذي دب في صفوف الأمة الإسلامية

¹ البقرة: من الآية 213

² الانبياء: 107

³ ص: 87

أفقدتها وعبها الحقيقي برسالة الله التي كلفها بحملها، وأخذت تبتعد عن تطبيق تعاليمه سبحانه وتعالى في حياتها يوماً بعد يوم، فأصبح فيها ظالم ومظلوم، وأصبح فيها قوي وضعيف، وأصبح فيها مُسْتَضْعَفٌ ومُسْتَضْعَفٌ، فابتدأت الأفكار الجاهلية تعود إلى أذهان المسلمين من جديد، وبرزت في أيام بني العباس الأولى، أو في الدولة الأولى لبني العباس قضية الشعوبية والقبائلية، مزدك وماني وزرادشت وغيرهم من سائر الملاحدة، استغلوا ضعف الأمة، واستغلوا تخلي الأمة عن جزء كبير من تعاليم دينها لبيثوا بين الناس الفرقة، وليدعوا إلى العصبية، فقامت قائمة الشعوبية، على أن كل شعوب الأرض أفضل من العرب، وهذه الدعوة الضالة لم تعالج أيضاً بالطريق الشرعي، وإنما قوبلت بدعوى ضلال أخرى هي أن العرب أفضل من سائر الشعوب، ففتنة الشعوبية والقبائلية في الحقيقة دفعت الناس إلى المعاني العنصرية أو إلى الفكر العنصري من جديد، وأشعلت بين المسلمين ناراً بقي أوارها أكثر من قرنين، وأخذ كل مسلم يعادي المسلم الآخر لأنه تركي أو لأنه ديلمي أو لأنه فارسي أو غير ذلك، كما يعادي هذا الشعب ذلك الشعب من شعوب الإسلام، ومنذ ذلك الوقت، أي منذ قيام فتنة الشعوبية والقبائلية ونيران العنصرية لم تخدم في نفوس أتباع الإسلام جهلاً منهم بتعاليم دينهم أو تحلاً من الانقياد إليه، وجاءت دولة الأتراك المعروفة بالدولة العثمانية لتزيد في الطنبور نغمة، تفرق بين الناس، وتفرق بين السكان، فالأتراك سادة الأمة، يصل المواطن إلى مستوى معين في الدولة ثم يقف لأنه ليس بتركي، الأمر الذي جعل الدول الأخرى تستغله، وتستفيد منه كما سنرى في نهاية المطاف من هذه المحاضرة.

هذا بالنسبة إلى القومية في الشرق، الشرق الأدنى والشرق الأوسط، أما في أوروبا فبعد سقوط الدولة الرومانية وسيطرة الكنيسة البابوية على مقاليد الحكم في أوروبا، لم تكن هناك أفكار قومية بين الأوروبيين، وإنما انبعثت الأفكار القومية عند الشعوب الأوروبية حين تمكن النورمانديون من إعلان عصيانهم للبابا، وتأسيسهم دولة بريطانيا مستقلة عن سلطان الكنيسة، ثم جاءت الثورة الصناعية الكبرى التي أدت إلى ظهور دول ومجتمعات إقليمية، وأدت مصالح الزعماء ومصالح الأباطرة والملوك إلى إعلان العصيان على البابا واستقلال كل واحد منهم بصقع

من أصقاع المسيحية ليحكمه، وعندئذ ظهرت الدولة الإقليمية أو الدولة القومية في القارة الأوروبية، هذه الثورة في الواقع لم تمهد للأوروبيين قيام الدولة القومية وإنما أوصلتهم إلى درجات كبيرة من التقدم الصناعي والقوة المادية بحيث طمعوا في إسقاط الدولة العثمانية، فماذا يستغلون؟ استغلوا الظلم العثماني والتمييز العثماني بين الشعوب الإسلامية ليزكوا نار الفتنة بين الأتراك وبين العرب، وبين الأتراك وبين الأفريقيين، وبين الأتراك وبين المسلمين الأوروبيين أيضاً، ونشروا الأفكار القومية بين الشباب والمتقنين على أساس أن هذا الظلم إنما نشأ وإنما وجد بسبب الاتحاد مع الأتراك في دولة واحدة، ولا بد أن يكون لكل شعب من شعوب الإسلام منظمته الخاصة، وأن تكون له قيادته العليا المستقلة، وأنه لا مانع أن يتعاون مع غيره من شعوب الإسلام، وأن يتعاون مع سواه من دول المسلمين ولكن لا يتحد معها في قيادة، ولا يندمج معها في منظمة.

هذه الفكرة الجديدة للقومية انتشرت بين أبناء المسلمين، وجعلها الاستعمار سيفاً ليحارب به الأفكار الإسلامية التي تدعو إلى رفع ظلم العثمانيين وإلى التوحيد بين صفوف أبناء الأمة، ولقد اتفق الشرق والغرب على استغلال هذا السلاح، فالمعسكر الغربي استغل فكرة القومية لغرضين: إسقاط الدولة العثمانية، والحيلولة بين الشعوب الإسلامية وبين الانتماء إلى المعسكر الشرقي بعد قيام الشيوعية، ولينين نفسه وقد كان يطمع في أصقاع كثيرة من البلاد الإسلامية ويخشى أيضاً من قيام وحدة إسلامية كبرى، تحرر الشعوب الإسلامية الخاضعة للاستعمار الروسي أكد في وصاياه على أنه يتبنى بالنسبة للأقطار المتخلفة تشجيع الأفكار القومية، وإنما يقصد بالأقطار المتخلفة أقطار الشرق الأوسط والأدنى.

فكرة القومية إذن في العصر الحديث عندما وجدت بين المسلمين إنما وجدت بدفع من الاستعمار الغربي بكلا شقيه، واستمر الأمر أو استمر الصراع بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية، وكانت الشعوب الإسلامية هي أدوات اللعب في هذه الحرب حتى سقطت الدولة العثمانية بانتهاء الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الدولة العثمانية وقيام دولة أتاتورك وسيطرة

حزب الدونما اليهودي على تركيا، تمكنت كل الأقاليم الخاضعة للدولة العثمانية من أن تكون لها منظماتها السياسية الخاصة بها، أما معظم الشعوب فقد خضعت لاستعمار بريطاني أو فرنسي.

وفي هذه الفترة جاء أيضاً جماعة من العرب يدعون إلى الفكرة القومية باعتبارها سلاحاً موجهاً ضد الاستعمار الغربي، فالاستقلال هو مطلب قومي مهم، وعندما يطلق كلمة الاستقلال في مفهوم ذلك الجيل فإنه لا يعني أكثر من خروج الجيوش الأجنبية عن الأرض، ولا يعني أكثر من أن يتسلم جماعة منهم زمام السلطة في الإقليم، أو في القطر، الاستقلال عندهم ليس كما نفهمه اليوم أنه استقلال في الفكر وفي السياسة وفي الإدارة والعمل، ورأت الدول الاستعمارية أنها لن تتمكن من البقاء بجيوشها طويلاً فوق أراضي المسلمين، فرأت أن تسلم هذا الفريق قيادات الأمة في جميع الأقطار التي استعمرتها، التي احتلتها، فوجدت الدول العربية الحديثة، على أن الاستعمار وهو يخشى أيضاً أن ينقلب سلاح العنصرية ضده بأن يتحد العرب جميعاً أو يتحد الهنود جميعاً، أو يتحد سكان أفريقيا الإسلامية جميعاً، أوجد أوضاعاً مختلفة في كل إقليم على حدة، الأوضاع القانونية، والاقتصادية والإدارية تختلف بين دولة عربية وأخرى وتكون سداً منيعاً وعائقاً كبيراً من أن يقوم حتى شبه اتحاد بينهما، إضافة إلى تشجيع أصحاب النزوات - الذين في نفوسهم شهوة الحكم - إلى التنافس والتصارع على حكم كل إقليم، ووجد التناقض - وأركز أنا على البلاد العربية لأن ما عشناه من أوضاع بين دول القوميين أنفسهم وما عايناه بأعيننا يكفي للاستنتاج عنه ونكون أكثر دراية به من درايتنا بأقطار أفريقيا أو الهند أو جنوب شرق آسيا أو غيرها من البلدان، كان الصراع أيضاً على أشده بين دول القوميين، بين الحكومات التي يتزعمها المنادون بالقومية، مما أدى أيضاً إلى أن تتبلبل أفكار الجماهير وتقترب شيئاً فشيئاً من الوعي على ذاتها والتعرف على حقيقة هذه اللعبة، وهكذا ظهرت فئات جديدة تطالب بالوحدة الإسلامية وتدعو إلى العودة إلى الحياة الإسلامية، ونبذ الأفكار الجاهلية والعنصرية، وهنا لا بد للقوميين من أن يحاولوا إثبات فكرتهم وأن يتشبهوا باليهود أيضاً في تحريف نصوص الكتاب، وفي تفسير التاريخ الإسلامي، فظهرت كتب جديدة تدعو إلى الاشتراكية العالمية والقومية العربية، وعلى الرغم

ما بين العنوانين من تناقض، إلا أن المطالع في المكتبات لا يعدم وجود كثير من المؤلفات تحمل هذا العنوان، إذ لا علاقة للقومية بالاشتراكية، فالاشتراكية نظام اقتصادي، والقومية دعوة لا علاقة لها بالاقتصاد، ولا فرق بين الدولة القومية أن يكون نظامها رأسمالياً أو اشتراكياً أو شيوعياً أو غير ذلك من الأنظمة، وعلى الرغم من كل ذلك وجدت عناوين من هذا القبيل، ليس الغرض منها الاشتراكية، وإنما الغرض منها إيجاد تفسير جديد للحياة والإسلام يبيث في أذهان الناشئة، فالتاريخ البشري عند هؤلاء يقوم على أساس اقتصادي، وأن هذا التاريخ مر على مراحل، إحدى هذه المراحل هو الإسلام، وأن الأمة العربية هي أمة عريقة وقديمة موهلة في القدم وأنها هي التي تصنع الرسائل للأرض، وأنها أمة لا تتفك دائماً عن رسالة، وأن الإسلام هو أيضاً رسالة عربية نتجت عن الذات العربية في مرحلة معينة من الزمن، وأن محمداً صلى الله عليه وآله، الذي دعا إلى الإسلام، كان عبقرياً من عباقرة الأمة العربية، وحامل مشعل رسالتها، وإن كان محمد صلى الله عليه وآله في زمانه كل العرب، فينبغي أن يكون كل العرب اليوم محمداً، ويمضي هؤلاء الكتاب في تحريف التاريخ الإسلامي حتى يقول الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه [الجزور التاريخية للقومية العربية] - على ما أتذكر - [إن التوحيد الذي دعا إليه الإسلام لا علاقة له بالتوحيد اليهودي أو المسيحي، لا علاقة له بالتوحيد اليهودي الذي يحظى ببعض الرعاية الفارسية، ولا علاقة له بالتوحيد المسيحي الذي تحميه الدولة الرومانية، وإنما كان توحيداً يعود إلى التوحيد السامي القديم].

هذا وأعتقد أن كذب مثل هذا الادعاء واضح لمن يكتفي بقراءة سورة البقرة من القرآن، فالنقاش والحوار الذي يجريه القرآن الكريم مع بني إسرائيل ومع أهل الكتاب جميعاً بما فيهم النصارى، كله واضح يدل على أن الإسلام يدعي بأن أصول تلك الأديان كانت أصولاً حقيقية، وأن التحريف إنما دخل من حملة الكتاب بغياً بينهم، ولست أفهم إلى اليوم ماذا يعنيه الدكتور الدوري من التوحيد السامي القديم، فليست هناك دعوة دينية تعرف بالسامية، هناك دعوة عنصرية تعرف بالسامية ولكن لا توجد هناك دعوة دينية تعرف بالسامية. لقد كرر القرآن الكريم قصة

موسى عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام في كثير من المواضع، وحاوَر اليهود ووصفهم بأنهم يغفلون في دينهم، وأنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وأنهم لو جاءوا بالتوراة الحقيقية التي أنزلها الله على عبده موسى، لوجدوا فيها ما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وآله، وعلى الرغم من وصف القرآن نفسه بأنه كتاب مصدق لما معكم، أي مؤكِّد ومؤيِّد لما معكم من التوراة والإنجيل، يأتي هذا الرجل ويدعي أنه لا علاقة بين التوحيد الذي دعا إليه الإسلام والتوحيد الذي دعت إليه الأديان والشرائع غير العربية كشرعية عيسى أو شريعة موسى عليهما السلام، ويبرر ذلك، وهو لا يستطيع أن يصل إلى هذا المستوى وربما كان احترامه لنفسه أكثر من غيره من الكتاب، يبرر وجود الدولة القومية بأن القرآن الكريم لم يفترض أن يكون المسلمون كلهم دولة واحدة، وإنما افترض أن يكونوا دولاً متعددة، على أن تتعاون هذه الدول فيما بينها، وأن الإسلام لم يفترض أن يكون المسلمون كلهم أمة واحدة ومجتمعاً واحداً وإنما مجتمعات مختلفة وأما مختلفة، على أن تتعاون فيما بينها.

ويقول [الدكتور محمد ياقوت] في كتابه القيم الذي عمله في القانون الدولي، إن النص القرآني يفترض قيام جماعات إسلامية ذات قيادات مستقلة ومنظمات خاصة، كيف يأتي بالآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلَا الَّتِي بُغِيَ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ¹، فيقول إن هذا النص إنما دعا إلى منظمة عالمية إسلامية تكون بمثابة جامعة للدول الإسلامية، أو جامعة للشعوب الإسلامية، ولم يدع المسلمين إلى وحدة حقيقية واحدة، أو اتحاد فيدرالي أو غير ذلك، لأنه افترض قيام الحرب بين الجماعات الإسلامية، وهذا يعني أن الإسلام يفترض وجود مجموعات مسلحة في ضمن الأمة الإسلامية، ووجود المجموعات المسلحة يقتضي قيام الدول الخاصة.

مسكين هذا الرجل لأنه عندما أراد أن يتكلم على هذه الآية الكريمة، لم يلاحظ الظرف التاريخي والواقع التشريعي للمسلمين، فأولاً إن المسلمين في بداية الأمر لم تكن لديهم جيوش من

¹ الحجرات: من الآية 9

المرتزة تأخذ أجراً شهرياً، فالأمة بأسرها كانت مسلحة، لا يخلو إنسان من وجود السيف والرمح في بيته، ويندر أن يخلو منهما في ذلك الوقت، على أن المعاني العشائرية، لم تكن قد اندثرت في بداية الدعوة النبوية، ولا مانع من أن تشب حربٌ وفتنة بين عشيرتين أو قبيلتين أو فئتين وكل منهما مسلح، وكاد هذا أن يقع حتى في زمن الرسول صلى الله عليه وآله عندما قامت الفتنة بين المهاجرين والأنصار، وتناخى كل منهما بعشيرته ونسبه وامتشقوا السيوف، هذا هو الواقع التاريخي في البداية، وكذلك لم يلاحظ هذا الرجل الواقع التشريعي للآية على ما ينبغي، ومن أجل ذلك هو يفترض الفرض ثم يحمله هذه الآية، على أن الآية من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾¹، كافية لأن تبين له المعنى من الآية التي حاول الاستدلال بها أو إقحامها في مجال بحثه، فهذه الآية يفهم منها ثلاثة أمور:

الأمر الأول أن أساس الحياة البشرية هي قيام الأسرة ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾²، ولا شك أن الذكر بما هو ذكر يختلف في تكوينه البيولوجي وفي بعض خصائصه المميزة عن الأنثى، بما هي أنثى، هذا الاختلاف في الحقيقة بين الذكر والأنثى هو الدافع الأساسي لاستمرار الحياة، وللتعاون في الحياة على تكوين الأسرة وإنجاب الأطفال وتربيتهم، هذا الاختلاف لم يستدع من البشر أن يتنازح الرجل والمرأة أو يتضاربا أو يتفارقا أو أن يرفضوا الاجتماع والتعاون بينهما.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ أيضاً السكنى في مكان معين وفي ضمن مجموعة معينة أجيالا متعاقبة تكسب الساكنين خصائص إقليمية وخصائص فكرية، وخصائص ربما حتى جسمية، وحتى في اللون، حتى في اللسان تميزه عن خصائص الفئة الأخرى، هذه الخصائص الإقليمية أو الفكرية أو حتى الجسمية هي أيضاً بافتراقها عن الأقوام الآخرين مدعاة للتعاون من أجل إقامة الحياة على هذه الأرض، مدعاة للتعرف، فكما أن الاختلاف بين الذكر والأنثى هو

¹ الحجرات: من الآية 13
² الحجرات: من الآية 13

السبب الرئيسي في استمرار الحياة الزوجية وتكوين الأسرة فكذلك هذا التمايز الذي يحصل بين سكان الأرض من بني الإنسان، ينبغي أن يكون هو الدافع لاستمرار الحياة التعاونية واستمرار الوحدة الحقيقية بين بني الإنسان.

﴿تَعَارَفُوا إِنْ كَرَّمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَوْكُمْ﴾¹، ليس هناك مقياس يقوم على أساس مكاني أو

على أساس من اللون، أو من اللغة أو من غير ذلك، وإنما مقياس التفاضل بينكم ينبغي أن يكون هو التقوى.

فإن هذه الآية لو كان قد لاحظها كما ينبغي أن يلاحظها لعرف أن تلك الآية لا تفترض وجود دول متعددة، على أنني أستغرب من أمثال هؤلاء الكتاب الذين يأتون بمثل هذه الآراء وهم بمنظر ومسمع من المسلمين ومما كتبه المسلمون طوال هذه الأجيال، إذ لم يدعُ أي مذهب ولا أي مفكر من مفكري الإسلام على رغم تباينهم وعلى رغم الاختلاف والتضارب بينهم بل على رغم التطاحن الذي حصل بين الفرق والمذاهب الفكرية والفئات الاجتماعية بين المسلمين، لم يأت عالم كلامي أو فقيه أو غير ذلك من أي فئة ليُدعي أن الإسلام لم يفرض على أمته مجتمعاً عالمياً واحداً، وإنما أجاز لهم التفرق والتشتت وعلى أساس عنصري.

الواقع أن هؤلاء الكتاب إنما يخدمون فكرة واحدة، هي محاولة تزوير الوعي الإسلامي الذي حصل في أعقاب الحرب العالمية الثانية، الوعي الذي انبثق بين شباب المسلمين للتمسك والبحث ذاتهم وللتطلع إلى واقعهم، وإلى محاولة النهوض بأمته، وهذا أمر لا يعجب الاستعمار الغربي بشقيه، فجاء هؤلاء لخدموا هذا الاستعمار الغربي بشقيه، ومن أجل ذلك يختلفون في الدعوة القومية، فمنهم من يرى أن الوحدة القومية ينبغي أن تكون هي الوحدة النهائية التي لا تقسمها كفاصم، ومنهم من يرى أن الوحدة القومية هي تمهيد للوحدة العالمية في نطاق الثورة العالمية أو الاشتراكية، وهذا ما يذهب إليه ميشيل عفلق في كتابه "في سبيل البعث"، فإذاً حتى الفكرة القومية عند ميشيل عفلق في الواقع هي فكرة مرحلية من أجل الوصول إلى الاشتراكية الماركسية والقيام بدولة أممية.

¹ الحجرات: من الآية 13

لكن ظني أن هذه الدعوات، وهذه الأفكار أصبحت اليوم تعرض كما تعرض المتاحف الأثرية، فالشباب الإسلامي تقدم عليها أجيالاً من الفكر سنين كثيرة، أصبح التباعد بين أصحاب هذا الفكر وبين الجيل الجديد في الأمة الإسلامية، خاصة في البلاد العربية كبيراً.

وفي إيران أيضاً وبعد الحرب العالمية الأولى جاء الإنجليز برضا شاه ليكون حاكماً وداعياً إلى قيام القومية الفارسية محاولاً إحياء اللغة الفهلوية، معاقباً من يستعمل لفظاً من اللغة العربية، وما هو الهدف من هذه الدعوة التي قام بها رضا شاه؟، إيران لم تبطل بالاحتلال بجيش أجنبي كما ابتليت به بعض الشعوب الإسلامية حتى يمكن أن نبرر ذلك أو نفسر ذلك بأنه كان يريد أن يحارب الاستعمار على أساس من المعنى القومي، فالواقع أن رضا شاه لم يكن يقصد إلا وضع الحواجز النفسية بالإضافة إلى الحواجز المصطنعة التي جعلتها الفرقة الجاهلية بين سائر الشعوب، جاء هذا الرجل ليضع الحواجز النفسية بين الشعوب الإيرانية وسائر الشعوب الإسلامية، وبذلك يعزل جزء كبير وقوي وغني جداً من الأمة الإسلامية عن أن يكون فعالاً ومتعاوناً مع سائر الشعوب المحيطة به. وعلى هذا المنوال أيضاً سار ابنه حتى أعلن في النهاية ما يسمى بالثورة البيضاء والتي تخالف في نصوصها الصريحة، التعاليم الأساسية والعقائد الضرورية للشريعة الإسلامية.

الفكر القومي إذن وجد في المنطقة بأسرها بدءاً بأتاتورك، وانتهاءً برضا خان مروراً بالقوميين العرب في معظم مدارسهم الفكرية إنما هو لتزوير الوعي الإسلامي الذي حصل للأجيال الإسلامية بين الحربين وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. ولكن كما قلت أصبح أيضاً الفكر القومي الفارسي بفضل الوعي أيضاً للجيل الإسلامي الجديد في إيران، كما أصبح هذا الفكر العنصري بفضل وعي الجيل العربي الجديد كله أموراً أثرية تقرأ في التاريخ ويقال حصل كذا وجاء شخص اسمه كذا كما نقرأ الآن عن الشعوبية والقبلية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأسئلة:

سؤال: مما أرسله المفكرون الإسلاميون وغيرهم تطور الفكر البشري، وهذا ما يثبته تاريخ الشعوب، والسؤال: ما هي العلاقة بين تطور الفكر والنزعات الوطنية أو الإقليمية والقومية والأممية؟ وما هو مستقبل هذه الدعوات في ضوء التطور الفكري؟

جواب: بسم الله الرحمن الرحيم، أعتقد أن جوانب من هذا السؤال قد مر جوابها في المحاضرة، إن تطور الفكر أو تاريخ الفكر البشري يسير بمعزل عن هذه الدعوات، فالدعوات القومية أو العنصرية. لا تعد تطوراً فكرياً، وإنما انتكاسة نحو الأجيال الماضية، ورجوع إلى عهد الفراعنة، وعهد بخت نصر ونمرود وأمثالهم، ممن كانوا يحاربون من أجل أهداف عنصرية، وأهداف قبلية، وأما بالنسبة للأممية، فإذا كان معناها الوحدة البشرية، وإذا كان المقصود بلفظ الأممية الوحدة البشرية، فهي دعوة طبيعية، فالإنسان أخو الإنسان هو وإياه من أب واحد وأم واحدة، وأصل واحد، ولا بد أن يحنّ الإنسان إلى رحمه، وأما إذا كان لها معنى آخر، فأيضاً تعود إلى معنى جاهلي.

سؤال: هل الاختلاف في فهم الاستقلال بين إنسان أمس وإنسان اليوم ناتج عن الاختلاف في وضوح الرؤية الإسلامية؟ فيكون الإنسان المسلم اليوم أكثر فهماً للإسلام من سلفه؟

جواب: الاختلاف في فهم معنى الاستقلال يرجع إلى ظروف موضوعية، ليس كل أهل جيل أمس يعتقدون أو يفهمون الاستقلال بفهم مغاير لما نفهمه اليوم وإنما قلنا فئة اجتماعية معينة كانت ترى أن الاستقلال هو خروج الجيوش الأجنبية الرابضة على الأرض وتسلم زمام السلطة من قبلهم هم لا من قبل غيرهم أيضاً ولا أكثر من ذلك، ومن أجل هذا نجدهم لم يعملوا شيئاً تجاه القوانين والتشريعات التي فرضها المستعمر في تلك الأقطار وإنما أبقوها وساروا عليها وطوروها من خلال منبعها الأصيل وهو الفقه اللاتيني أو الفقه الفرنسي.

سؤال: ألا تعتقد أن مثقفي القوميين العرب أو الذين نادوا بالقومية العربية وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية أكثرهم مسيحيون ومشكوك في أصل الفكرة التي ينادون بها؟

جواب: لاشك أن في هؤلاء الكتاب كثيراً من المسيحيين ولكنهم يسكنون في بلد إسلامي ويعيشون بين ظهراي شعب إسلامي، وهم لم يختلفوا أيضاً عن القوميين الذين يعتقدون الديانة الإسلامية في شيء، لا في الأفكار التي طرحوها ولا في الأمور التي دعوا إليها، على أن هناك أيضاً من الكتاب المسيحيين من دعا للوحدة العربية لتكون أساساً لوحدة إسلامية مثل أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب ومثل الدكتور بطرس بطرس غالي قبل أن يكون وزيراً أو عندما كان شاباً كانت أطروحته في الدكتوراه معنونة أيضاً بعنوان جامعة الشعوب الإسلامية، وهو يدعو فيها لقيام جامعة الشعوب الإسلامية، فإذاً عندما نتكلم عن الأفكار أو عندما نتكلم عن هذه الأفكار المصطرعة لا يمكننا أن نميز في مجال ضيق مثل مجال المحاضرة بين أن يكون الكاتب من أبوين مسلمين أو من أب مسيحي أو غير ذلك، المهم أنه يكتب ويعيش ويتحرك ويفكر من خلال عقلية كانت سائدة عند كثير من ذلك الجيل.

سؤال: فضيلة الشيخ، يدعي القوميون العرب أن للعرب تاريخاً مشتركاً قبل الإسلام وبعده فما رأيكم في ذلك؟ ألا تعتقد أن الأمويين أول من دعا إلى القومية العربية؟

جواب: لاشك أن للعرب تاريخاً مشتركاً قبل الإسلام، ولاشك أن للعرب تاريخاً مشتركاً بعد الإسلام، ولكن وجود تاريخ مشترك قبل الإسلام وتاريخ مشترك بعد الإسلام لا يستدعي أن ينزلوا عن بقية الشعوب الإسلامية أو أن يكونوا منغلقيين على ذاتهم، وأما بالنسبة للأمويين فهم بدون شك عنصر يوافيهم أحد في ذلك، بل قال في العقد الفريد إن ملوك بني أمية كانوا يرسلون أبنائهم ليعيشوا في البادية وقال في العقد الفريد أن بني أمية رأوا أن الإسلام قد قضى على دولة الشعر وأنه أقام مكانها دولة الخطابة فعملوا على تشجيع الشعر والشعراء لأنه يحفظ ديوان الجاهلية، ولاشك أن صاحب العقد الفريد أموي النسب وليس أموي الولاء.

سؤال: سماحة الشيخ، ذكرتم في محاضرتكم القيمة كلمة الشعوب الإيرانية بدل الشعب الإيراني فهل الشعب يفرّق حسب الاتجاه والعقيدة أم بوحدة اللغة؟

جواب: قلت ذلك لأنني أتكلم في معرض الكلام عن القوميات أو عن الفئات، وإلا فأنا لا أعتقد أن هناك شعوباً أو أمماً إسلامية أو مجتمعات إسلامية، أنا أعتقد أن هناك شعباً إسلامياً واحداً وأمة إسلامية واحدة وإذا قلت مثلاً العرب أو الفرس أو الروم أو غير ذلك كما أقول مثلاً أهل الدراز أو أهل جدحفص أو أهل المنامة يعني أن تمييزي هنا ليس للتفرقة فإنما هو للتحديد.

سؤال: هل أن جمال عبد الناصر هو الذي حرك النعرات القومية العربية بعد أن اندثرت بعد الحرب العالمية الثانية؟

جواب: كلا، فهو لم يكن سبّاقاً في مثل ذلك؛ لكن عبد الناصر رأى أيضاً أن يسير في التيار القومي لأنه قد ابتدئ في ذلك الوقت نعمة جديدة وهي الادعاء بأن المصريين أمة منفصلة لا علاقة لها بالأمة العربية أو غيرها، وظهرت كتابات كثيرة في مجلات مصر في عام التسعة والأربعين والخمسين والواحد والخمسين والاثنتين والخمسين؛ ومن أهمها مجلة الهلال وأمثالها تتكلم عن الأمة المصرية، وحتى أن أحد القوميين وهو ساطع الحصري ألف كتاباً بعنوان [هل نحن مصريون أم عرب أم مسلمون] وألف كتاباً آخر بعنوان [العروبة أولاً] وكله دفاع عن فكرة أن المصريين أمة خاصة هي ليست الأمة العربية وليست جزءاً من الأمة العربية وكان تياراً ضعيفاً. والتيار الثاني في مصر الذي كان قويا والذي كان عبدالناصر يستطيع أن يعتمد عليه في ذلك الوقت وخاصة وهو يريد أن يضرب الإخوان المسلمين وينحيهم عن ساحة العمل الاجتماعي العام رأى أن يتوكأ على القوميين.

سؤال: ما هو الفرق بين الشعبوية والقومية من فضلك؟

جواب: الشعبوية حركة عنصرية في وقت معين وظرف معين وزمان معين، بينما معنى القومية أوسع، و قد يشمل القومية إذا أخذناها بالمعنى العنصري الذي قلناه والذي ناقشناه وحاورناه، فهو

قد ينطبق عليها ولكنه يزيد، فمثلا الإنسان الذي لا علاقة له بالادعاء بأن جميع شعوب الأرض أفضل من العرب لا علاقة له بالشعبوية أيضاً لأنه لا يكون شعوبيا حتى يدعي هذه الدعوى؛ كما أن العربي حتى لو كان عربيا إذا لم يدع بأن العرب أفضل من كل الشعوب لا يسمى قبائليا في تلك الفترة، فإذا هي فكرة عنصرية، الشعبوية فكرة عنصرية في ظرف معين وزمن معين.

سؤال: هل هناك دور حقيقي للماسونية العالمية في ترويج الأفكار القومية لشعوب الشرق الأوسط؟

جواب: هناك دور حقيقي للصهيونية في ترويج الفكر القومي العنصري في الشرق الأوسط في الزمن الأخير، فنحن نعرف أن حزب [الدونما] التركي كله يتألف من فئة يهودية أظهرت الاسلام كان أحدها والد جمال أتاتورك، وأنها عملت على أن تفصل بين الشعوب الإسلامية وأن تدعو إلى العنصرية، وأن هذا الحزب عندما سيطر على الحياة في تركيا أمر حتى بنقل القرآن الكريم من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، ومنع لبس الثوب العربي والعممة أو غير ذلك إمعاناً في إيجاد الحواجز بين الشعب التركي وسائر الشعوب الإسلامية، وهناك صورة تجمع بين ثلاثة من أقطاب العنصرية وهم أتاتورك ورضا خان وموسوليني يوقعون على ورقة، الله العالم ماذا تحتوي تلك الورقة التي أخذت لهم الصورة يوقعونها جميعاً، والجميع معروفون بعنصرتهم، فإذن اليهودية أو اليهودية العالمية في الحقيقة هي التي لها الدور الكبير في ترويج الأفكار العنصرية بين الشعوب الإسلامية، خاصة وأنها كانت تتوي وتزعم اغتصاب فلسطين؛ فلا بد إذن من تحويل مسألة فلسطين إلى أضيق مجال يمكن، فلو أمكن نقل مسألة فلسطين من كونها مسألة عربية إلى كونها مسألة شامية لفعلا، ولكن حيث لا يمكنهم ذلك ويتعذر عليهم أن يقنعوا بقية العرب بالتخلي عن قضية فلسطين باعتبارها مسألة شامية، عملوا على تضيق رقعة المسألة وجعلوها مسألة عربية، بالإضافة إلى أنهم لا يمكنهم السيطرة على سائر الأقطار الإسلامية وهي أقطار شاسعة ومترامية الأطراف وفيها مفكرون كبار، وفيها أيضاً من يعمل مخلصاً للدين، إذا لم يجزؤونها إلى دويلات صغيرة يمكن السيطرة على كل دولة منها على حدة.

سؤال: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾¹، السؤال: ماذا يعني هذا الجعل هل هو جعل تشريعي أم جعل تكويني؟

جواب: لا شك أن هذا جعل تكويني وليس تشريعياً، التشريع هو التعاون، أما كونهم يختلفون في اللغة أو اللون أو غير ذلك أو كونه من هذا الشعب أو تلك القبيلة، فليس بالتشريع وإنما بالجعل التكويني، وأن يتعاونوا وأن يجعلوا التقوى مقياساً لهم في التفاضل، هذا هو الأمر التشريعي، وتكملة الآية الكريمة... ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾².

سؤال: إننا نفهم والله أعلم إمكان قيام كيانات سياسية متعددة وليس شرطاً قيام كيان إسلامي موحد، تذوب فيه كل الحدود والحواجز، على أن اختيار إحدى السبيلين وحدة الكيان السياسي أو تعدد الكيانات أمر يقرره الأمر المعاش ساعة التفكير في الخيار، وأعتقد أن هذا الأمر أشار إليه سماحة السيد فضل الله في الموسم السابق.

جواب: تارة نتكلم عن الحكم في ظرف معين، وأخرى نتكلم عنه في عنوانه الأولي، فبالنسبة للحكم الشرعي في هذه الحواجز التي تفصل بين المسلم والمسلم، هذه الحواجز ليست شرعية، ولم يضعها الشارع المقدس، ولم يعترف بها، وأحب أن أقول للسائل أو أسأله سؤالاً واحداً، الإسلام يقرر أن الأرض المفتوحة عنوة، إذا كانت عامرة وقت الفتح، فهي ملك للمسلمين، الذين حاربوا من أجل فتحها والذين لم يحاربوا، والذين كانوا موجودين وقت الفتح والذين لم يولدوا بعد؟ إذن فكل مسلم جعل له الشارع المقدس حقاً في كل أرض فتحت عنوة بالسيف، ولو جئت إلى رقعة البلاد الإسلامية، لتستخرج منها الأماكن التي لا ينطبق عليها حكم الفتح تجد في الأيام القديمة المدينة المنورة والبحرين، والآن تضاف إليها أندونيسيا وماليزيا، أما بقية الرقعة الإسلامية فكلها فتحت بالسيف، وما كان عامراً منها وقت الفتح، أنا وأنت لنا حقٌّ فيه، كما للساكين هنا أيضاً حق، فبأي مبرر يمنع الإنسان أن لا يذهب إلى هناك وذلك المسلم لا يأتي إلى هنا، هذا بالنسبة للمواضع العامرة، وأيضاً الإسلام لما جعل النبي صلى الله عليه وآله حاكماً على البشر، ألزم المسلمين

¹ الحجرات: من الآية 13
² الحجرات: من الآية 13

جميعاً باختلاف لغاتهم وباختلاف أقاليمهم أن يخضعوا لحكومته، وأن يسلموا إليه، فإذا كان هذا ثابتاً للرسول صلى الله عليه وآله فهو أيضاً ثابتاً لخلفائه الراشدين، ويجب أن تكون القيادة الإسلامية العليا قيادةً واحدةً لكل المسلمين، هذا بالنسبة للحكم بعنوانه الأولي، ولكن قد توجد هناك ظروف معينة يكون المسلمون بسببها غير قادرين على إيجاد الوحدة وأنهم يضطرون إلى إبقاء هذه الحواجز التي وضعها الاستعمار، وهنا في هذه الحالة عليهم على الأقل أن يقيموا التعاون بينهم، والتراحم، وأن يعملوا بما أمر الله سبحانه وتعالى به، حيث قال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾¹، ينبغي إذاً أن يكون هناك تعاون، وتراحم بين المسلمين حتى في حالة وجود هذه الظروف القاهرة.

¹ محمد: 22

سلطة الحكم في الإسلام*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قلنا في معرض الكلام إن هناك سؤالاً يثور، وهو هل أن الإسلام جاء بدولة أو أنه نزل من أجل تشكيل دولة؟ وهل أن نبيه صلى الله عليه وآله حينما تولى أمور الجماعة المسلمة في المدينة تولاها باعتباره نبياً؟ أم باعتباره زعيماً وقائداً سياسياً؟ ولعلنا نضرب صفحاً عن الإجابة عن هذين السؤالين في الوقت الحاضر بعد أن كنا قد أجبنا عنهما في بحث الشخصية الدولية في وقت سابق اختصاراً للجهود من الضياع في الكلام عن الموضوع الذي نحن بصدده، إذ من الأجدى أن ندخل في موضوع المبادئ العامة للدستور الإسلامي مباشرة.

ولنتكلم أولاً عن الدولة؛ مفهوم الدولة ومفهوم السيادة، وقد قلنا إن المعيار الموضوعي للدولة هو السيادة، فلا يزال تعريف الدولة بأنها حكومة ذات سيادة أي أن لها السلطان على الرعايا التابعين لها في الداخل ولها حق تمثيلهم في الخارج. فما هو المعيار الموضوعي لمعنى السيادة في الإسلام؟

هناك مبادئ ثلاثة تشكل هذا الموضوع في الشريعة الإسلامية، وتجمل هذه المبادئ الثلاثة آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَمْرًا أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾¹، فهذه الآية إذا أردنا أن نتعمق في تحليلها تحليلاً قانونياً نجدها تتكلم عن ثلاثة مبادئ:

المبدأ الأول: وينص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾²، فالحاكمية المطلقة إذن هي لله سبحانه وتعالى وليست للأمة، وليست للسلطان، وليست لمن يتولى المنصب الإلهي في الأرض؛ الحاكمية المطلقة هي له سبحانه وتعالى، والحاكمية هنا معناها حق التشريع فلا مشرع سواه، وكل

* هذه المحاضرة هي جزء من بحث طويل في دستور الدولة الإسلامية ضمن محاضرات شهر رمضان لعام 1980م إلا أننا لم نعثر منها إلا على هذا الشريط ونرجو أن ينشر البحث كاملاً في المستقبل.

¹ يوسف: من الآية 40

² يوسف: من الآية 40

نظامٍ أو كل أمرٍ يصدر عن غيره وعمّن هو سواه فهو تشريع باطل ونظام باطل؛ فالسلطة التشريعية إذن منحصرّة بالله سبحانه وتعالى بموجب النظرية الإسلامية، وليس لبشرٍ مهما كان ذلك البشر نبياً كان أو خليفةً أو إماماً أو زعيماً أو عالماً أن يدعي أنّ له حق التشريع، أو أنه يضع الأحكام والنظم للجماعة الإسلامية، هذه الحاكمية المطلقة تعني أن ما ينفذ هو إرادة الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يجوز أن تكون هناك إرادة في مقابل إرادته، ولا تشريع في مقابل تشريعه، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾¹.

فإذن لا بد من التسليم بأن الحاكمية هي لله، وليست لنبي ولا لوصي نبي ولا لخليفة ولا لإمام ولا لزعيم أو قائد أو أياً كان، ليس له أن يأتي بشيء من عنده في هذا المجال، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾²، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّتُورُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾³، ويصف رسوله صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾⁴، ويقول عنه سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۖ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾⁵.

إذن المبدأ الأول في التكليف الدستوري لقيام الدولة الإسلامية اختصاص الحاكمية المطلقة لله سبحانه وتعالى، ويظهر وجه هذه الحاكمية كما قلنا ظهوراً بليغاً في التشريع، والكتاب الذي أنزل هو المظهر الأول للوحي الإلهي الذي يمثل الحاكمية المطلقة لله، والمصدر الثاني هو الوحي غير المنزل بطريقة التحدي وهو ما نسميه بالسنة؛ أي هي قول النبي صلى الله عليه وآله أو فعله أو تقريره، وإنما ننسبه إلى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحياً إما بطريق الإلهام أو بطريق الملك، لكنه نزل لا على وجه التحدي ليكون قرآناً، نزل المعنى وحياً وصاغه الرسول صلى الله عليه وآله وبعبارة الخاصة، وننظر نحن أيضاً خصوص الشيعة إلى الروايات الثابتة - الأقوال الثابتة -

¹ الأحزاب: من الآية 36

² الأنعام: من الآية 93

³ النحل: من الآية 116

⁴ النجم: 3-4

⁵ الحاقة: 44-47

لأئمتنا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بنفس هذا المعيار فهم تلقوا المعنى عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله، وعبروا عنها بنفس عباراتهم الخاصة بما يقتضيه فهم السائلين والمستجوبين.

إن ليس هناك تشريع يقابل تشريع الله، وليس هناك حكم يقابل حكم الله، وعندما نقول مثلاً في بعض الأوقات إن الحكم للأمة أو حكم للشعب فنحن لا نقصد المعنى الديمقراطي الحديث من لفظة حكم الشعب، ذلك أن حكم الشعب؛ في الديمقراطيات الحديثة يعني أن الشعب هو مصدر السلطات كلها، فهو مصدر الحكم، أي مصدر التشريع، ومصدر التنفيذ، ومصدر المراقبة. وفي التصور الإسلامي هذا أمر غير جائز، فليس للأمة حق التشريع، كما لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله ولا لخلفائه حق التشريع وعندما نقول حكم الشعب فإننا نطلقه في مقابلة حكم الفرد، فكأنما هو نفي للدكتاتورية فقط، لا إيجاد شريك لله سبحانه وتعالى، كما أقول ملكي في مقابل أنه ليس ملك زيد وعمرو لا أنه في مقابل ملكية الله سبحانه وتعالى، فكذاك عندما نقول مثلاً حكم الشعب أو حكم الأمة، فلا نقصد به أن الأمة لها حق الحاكمية، وعندما نقول مثلاً حكم الرسول صلى الله عليه وآله، فإنما نريد أن ننسبه إلى موضع التبليغ، لا أننا نريد أن نجعل للرسول صلى الله عليه وآله أو لأحد من خلفائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين حق الحاكمية في مقابل حاكمية الله سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾¹، والارتباط بين الأمة وبين الحاكم هو ارتباط العبودية، ﴿أَمَرَآلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾²، وهذا هو المقصود بمفهوم الدين، يقول الشيخ محمد أمين زين الدين في كتابه [الإسلام ينايحه مناهاجه غاياته] في صدد تعريف الدين: "إنه بمفهومه ارتباط عبودية بين الإنسان وأنا أنقل عنه هنا بالمعنى ولا أنقل نصاً وإنما أنقل المعنى المؤدي إنه ارتباط عبودية بين الإنسان وخالقه" بهذا القدر.

فالدين المقصود هنا في هذه الآية هو هذا الخضوع، وهو هذا التسليم، وهو هذا الارتباط بالعبودية للخالق، فالله سبحانه وتعالى باعتباره موجداً للأرض التي هي قاعدة الخلافة، وباعتباره

¹ يوسف: من الآية 67
² يوسف: من الآية 40

موجدا للإنسان الذي هو الخليفة، يرتبط به الإنسان ارتباطاً تكوينياً، وباعتباره أيضاً مشرعاً ومنظماً للحياة فوق هذا الكوكب للإنسان، يرتبط به الإنسان أيضاً ارتباطاً تشريعياً، هذا الارتباط التكويني لا يحتاج إلى نص عليه ذلك أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يفر منه، فهو لا يجري بموجب إرادة البشر أن يخضعوا له أو ألا يخضعوا له، فلو أراد شخص من الناس أن يقول أنا لا أريد أن أكون من ناحية تكوينية مخلوقاً لله فإنه لا يستطيع أن يغير هذه الصفة مطلقاً، ولكن الإرادة البشرية إنما تختبر في الخضوع للإرادة التشريعية، فالإنسان بوصفه كائناً متوسطاً أو جامعاً بين صفات الحيوانية الأرضية وبين الصفات الملائكية يكون هو كائناً ذا إرادة، وبهذه الإرادة يستطيع أن يطابق الإرادة الإلهية فيكون مطيعاً، ويكون خاضعاً، فيكون قد تلبس بمعنى العبودية، ويستطيع أيضاً بهذه الإرادة أن يناقض الإرادة الإلهية فيكون عاصياً، ويكون منشقاً عن معنى العبادة، وعن مفهوم الارتباط العبادي الذي تفرضه هذه الآية التي نحن بصدد تحليلها، وهذا التشريع السماوي، التشريع الإلهي، إنما تكون الغاية منه هو حفظ المصالح الأساسية للبشر.

فواجب الجماعة الإسلامية في تطبيق عبوديتها وارتباطها بالمشرع الأعلى، للحاكم الأعلى، هو اتباع أوامره، والاجتناب عن نواهيه، ومعنى ذلك إقامة أحكامه سبحانه وتعالى في الداخل، والدعوة إلى سبيله في الخارج، فالأمة إذن الأمة المرتبطة، ونحن لا نقول الشعب كما في التعبير الوضعي ونقول الأمة هنا لأنه المفهوم القرآني؛ لأنه ليس شعباً محددًا بإقليم كما في معيار الدولة بالمفهوم الوضعي حتى نطلق عليه اسم شعب، ولذلك لا بد من إطلاق لفظ الأمة، فالأمة هنا إنما تقوم بواجب تطبيق هذه التشريعات في الداخل والدعوة إلى سبيل المبدأ في الخارج، هذا هو مفهوم العبودية الحقة، من دون نظر أو من دون ملاحظة أن هذه التشريعات الإلهية تنافي مصالحها الآنية أو تتفق مع مصالحها الآنية الملحة، ولا شك أن التشريعات الإلهية إذا طبقت على الحياة فإنها سوف تحقق المصالح الذاتية والجوهرية والحقيقية للجماعة البشرية، فالله يقول: ﴿وَمَا أَمْرُسُكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾¹، وكون هذه التشريعات رحمة، يعني أنها سوف تحقق المصالح الجوهرية المطلقة

¹ الانبياء: 107

التي تحتاجها الجماعة البشرية ككل فوق هذا الكوكب، ولكن ليس من حق الأمة أن تعطل حكماً من أحكامه تعالى بحجة أن المصالح الوقتية الملحة لا تسمح بتطبيقه، ومن أجل ذلك وصف سبحانه وتعالى أولئك الذين يخرجون عن هذا المجال بثلاثة أوصاف، فأطلق عليهم عنوان الكفر تارة، وعنوان الفسق ثانية، وعنوان الظلم تارة ثالثة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾¹، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾²، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾³.

فصفة الكفر إنما تكشف عن أن الإرادة اتجهت إلى مخالفة الإرادة الإلهية، وعن عدم إيمان خالص بها، فعندما تتجه الإرادة، إرادة الأمة، أو إرادة القيم على الأمة إلى مخالفة الإرادة الإلهية عن قصد بعدم صلاحية الإرادة الإلهية في هذا الموضوع، أو في هذا الظرف، تكون المسألة مسألة كفر، خروج عن الارتباط العبادي بين الحاكم المطلق سبحانه وتعالى وبين الأمة، أما في الحالة الثانية، حالة الزيغان عن الإرادة الإلهية ومخالفتها بسبب النظر إلى المصالح الآنية الوقتية للأمة، والتضحية بالمبدأ على حساب حاجة وقتية وليست جوهرية فهو إنما يكشف عن فسق وانحراف، ولكنه ليس انحرافاً مبدئياً؛ ولذلك أطلق عليه سبحانه وتعالى عنوان الفسق، وإن كان الفسق في كثير من آيات القرآن يرادف معنى الكفر؛ لأن الفسق في اللغة العربية معناه الميل عن الطريق، والفسق في اللغة العربية هو المنحرف، سواء كان هذا الانحراف انحرافاً بعيداً أو انحرافاً قريباً.

إن في كثير من آيات القرآن يكون مفهوم الفسق ومفهوم الكفر واحداً، إلا أنه لما كان الموضوع واحداً مع تعدد الصفات ففي هذه الآيات الثلاث [ومن لم يحكم بما أنزل الله]، الموضوع واحد هو عدم تطبيق حكم الله سبحانه وتعالى مع اختلاف الأوصاف يكشف عن أنه سبحانه وتعالى لا يريد في هذا المقام أن يعبر عن الكفر بالفسق، وإنما يريد انحرافاً لا يصل إلى حد عدم الإيمان بالمبدأ، وأما في الآية الثالثة فهي أكثر وضوحاً حيث أنه سبحانه وتعالى وصف عدم

¹ المائدة: من الآية 44

² المائدة: من الآية 47

³ المائدة: من الآية 45

الحكم بما أنزل بصفة الظلم، ذلك لأن الذي انحرف عن تطبيق حكم الله في تلك الواقعة أو في ذلك الظرف فهو إنما من أجل جلب مصلحة خاصة له، أو خاصة لفئة معينة، دون فئة أخرى، فإذن لا بد من أجل تحقيق الارتباط العبادي بين الحاكم المطلق وبين الأمة أن يكون هناك تضحية بمصالحها المؤقتة، وبمصالحها الآنية في سبيل المبدأ، في سبيل تطبيق ما أنزل الله سبحانه وتعالى، ذلك أن الله سبحانه أخذ على المؤمنين به أن يضحوا في سبيله بكل ما يملكون من أموال، ومن نفوس، ومن غير ذلك، فكيف لا يضحون في سبيله بمصالحهم الوقتية والآنية؟!

إذن لا يمكن الاحتجاج بتعطيل حكم من أحكام الله سبحانه وتعالى بحجة منافاته للمصلحة الوقتية، ذلك أن المصلحة الآنية في ضمن تحقيق المصالح الجوهرية للجماعة الإنسانية، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾¹، أي أن هذا الارتباط العبادي والتسليم بحاكمية الله المطلقة هو الدين، والدين بمفهومه اللغوي له عدة معانٍ، الدين بمعنى السلطان، والدين بمعنى المُلْك، والدين بمعنى الحكم، والدين بمعنى القهر، والدين بمعنى الغلبة، والدين بمعنى الأمر.

ونحن إذا أردنا أن نصنف هذه المعاني يمكننا أن نضعها في مجموعتين رئيسيتين يكون لكل مجموعة من هاتين المجموعتين معنى عاما يشملها، فالسلطان والمُلْك والحكم بمعنى واحد هو معنى الحاكمية، فبعد أن نص سبحانه وتعالى في صدر الآية بقوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾²، فلا يمكننا أن نفهم أن لفظة الدين في ذيل الآية تقصد غير هذا الاتجاه من معنى الدين، فلا بد إذن أن ينحصر فهمنا في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾³، في أن الدين بمعنى القهر والغلبة والأمر، والدين بمعنى القهر وبمعنى الغلبة وبمعنى الأمر يعطي معنى واحداً هو معنى الشريعة الحاكمة، أو المبدأ الحاكم، أو المبدأ السيد، خاصة وأنه وصف ذلك الدين بأنه القَيِّم: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾⁴، ومعنى القيم المهيمن.

¹ يوسف: من الآية 40

² يوسف: من الآية 40

³ يوسف: من الآية 40

⁴ يوسف: من الآية 40

فإن السيادة هنا ليست لبشر، السيادة في الأمة الإسلامية ليست لبشر، فلا تكون لرئيس الدولة ولا تكون للأمة، لا تكون لرئيس الجماعة، ولا تكون لنفس الجماعة كما في الفقه الوضعي، وإنما السيادة تكون للمبدأ، والمبدأ هو الشريعة المنزلة من قبل الله سبحانه وتعالى المتصلة به، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾¹ أي بمعنى الدين المهيمن، الدين السيد، الذي له النفوذ، وله الغلبة، وله القهر، وله الأمر، وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الشريعة بالسيادة تارة أخرى في أول سورة الكهف حيث قال سبحانه وتعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾²، ﴿قِيمًا لِيَنْذِرَ بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾³، أي مهيمنا وسيدا وليس لأحد أن يخرج عن غلبته وعن قهره وأن يخرج عن سلطانه وعن حكمه، فالسيادة هنا تكون لله سبحانه وتعالى، أولا وبالذات ولشريعته المنزلة على عباده ثانيا وبالعرض بعد اتصاف كونها نازلة من الحاكم المطلق الذي له الحكم وله الأمر وله الملك.

فمعيار السيادة إذن هنا يختلف عن معيار السيادة في مفهوم شرّاح القانون الوضعي من أن يكون في البداية كان لشخص واحد هو الذي تكون له السلطة أو تكون له السلطنة، ثم بعد تهذيب هذا الأمر أصبحت السيادة للأمة أو للشعب الذي هو مصدر كل السلطات، بمعنى أنه أصبحت السيادة للدولة بعد أن كانت لشخص الحاكم، ففي المفهوم الإسلامي الحاكم البشري ليست له صفة السيادة بما أنه حاكم بشري، فإن السيادة والقيمومة على الأمة هو للمبدأ، والمبدأ كما قلنا هو الشريعة المنزلة من قبل الله سبحانه وتعالى، إذن ما هو دور الأمة؟ أليس لها دور موضوعي في إنشاء الدولة الإسلامية؟ الأمة لها السلطان، والسلطان هنا بمعنى الجهة التنفيذية الساهرة والعين المراقبة على تنفيذ أمر الله؛ فتعرف المفسد من المصلح في أنه ينفذ أمر الله أو يحول دون تنفيذ أوامر الله، ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾⁴.

¹ يوسف: من الآية 40

² الكهف: 1

³ الكهف: من الآية 2

⁴ البقرة: 205

فمعرفة المفسد من المصلح لا تكون بما يوجد من إنجازات ظاهرية مؤقتة، وإنما بالتزامه وخضوعه لسيادة المبدأ، أو خروجه وعدم اعترافه بسيادة المبدأ، والأمة هنا تكون هي المحاسبة وهي المراقبة لخلفائها وحكامها، تقومهم إذا اعوجوا وتهديهم إذا ضلوا، وتراقبهم حتى لا ينحرفوا عن المبدأ ويأتوا بأحكام من عند أنفسهم تفسد على الأمة غاياتها.

وواجب الأمة في هذا الحال هو واجب تنفيذي، أي أنها تسهر ليل نهار على تطبيق أحكام الله في الداخل، وتحمل مشعل الهدى الرسالي إلى ما حولها من الأمم، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾¹.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

¹ البقرة: من الآية 143

سلطة الحكم في الإسلام (2)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم إلى قيام يوم الدين.

قلنا إن السيادة في المقولة الدستورية في الإسلام هي للمبدأ، بناء على قوله تعالى: ﴿إِنَّ

الْحُكْمَ لِلَّهِ آمْرًا أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ¹﴾، والدين في حقيقته وفي واقعه هو التزام نفساني بين الرب وبين المربوب، بين السيد وبين العبد، يقول في هذا الصدد الشيخ محمد أمين زين الدين في كتاب الإسلام يبايعه: "بأنه لا بد في الدين من اعتبار طرفين، طرف الربوبية الغالبة القاهرة، وطرف العبودية المقهورة والمغلوبة، فلا بد إذن من الالتزام بالقهر وبالغلبة لله سبحانه وتعالى".

هذا الالتزام بالقهر والغلبة يحصل أيضا في سائر المقولات الدستورية، إلا أنه التزام غير فطري، التزام غير طبيعي، فالمواطن في دولة غير إسلامية أو المواطن - بتعبير أصح - في دولة غير إسلامية، أيضا يلتزم بحق القهر، وبحق الغلبة، وبحق الربوبية للسلطة، إلا أن هذا الالتزام هو التزام غير فطري، لأنه اعتراف بالربوبية إلى شخص من جنس المُعترف ونوعه، وأنه لا يختلف عنه في شيء، إلا أنه استطاع أن يصل إلى موضع السلطان، ومركز القوة، ومكان إملاء الأمر وإنفاذ الإرادة، إما عن طريق جماعته أو حزبه أو بأي وسيلة من الوسائل.

فالالتزام إذن في المقولات الدستورية الأخرى موجود، كما أنه موجود في المقولة الدستورية الإسلامية، إلا أنه في سائر المقولات الدستورية التزام غير فطري، ولذلك لا يحمل ضماناً لتنفيذه، بل يبقى العبد وتبقى الرعية ويبقى المربوب يتربص بذلك الرب، بذلك السيد كافة الفرص، فإذا ما حانت له الفرصة انقض عليه وأنزله من سلطانه ليحتل مكانه، وسبب ذلك أن هذا الالتزام بين السيد وبين المسود هو التزام لا تمليه فطرة الإنسان ولا يقبل به وجدانه، ولا يؤمن به ضميره، بعكس الالتزام في المقولة الدستورية الإسلامية، فإنه التزام لله سبحانه وتعالى بالربوبية، هذا الالتزام

¹ يوسف: من الآية 40

من العبد بأن الله سبحانه عليه حق الربوبية والسيادة، وأن له القهر وأن له الغلبة، هذا الالتزام يحمل ضمان تنفيذه الطوعي.

فإن هذه فائدة أو هذه مقولة تبتني عليها الحياة المطمئنة المستقرة في المجتمع، بعكس الالتزام في سائر القوانين الأخرى، وهذا معنى وصف الدين بأنه القيم، أي المهيمن على النفس، المسيطر على العقل، الغالب على الشعور، القاهر للإنسان بالإذعان، وبالالتزام بموجب الإرادة الإلهية في سره وفي علنه، وأما في حين انفراده وفي حين اختلاطه بغيره، لا يوجد إذن ضمان كهذا الضمان، ولا يوجد استقرار في حياة سياسية كهذا الاستقرار الذي تعطيه المقولة الإسلامية، "كلكم مسؤول عن رعيته".

فإن الجميع، كل مواطن، وكل فرد من أفراد المجتمع يشعر أنه مسؤول عن تنفيذ الإسلام وعن تطبيق أحكامه، ذلك لأن هذا الإسلام ولأن هذه الشريعة تمثل إرادة السيد المطلق سبحانه وتعالى، تمثل أمره، الذي أذعن له بالعبودية، وأقر له بالغلبة والقهر على عباده، واعترف له بالحكمة، وأنه إنما يريد من وراء هذه الشريعة تحقيق المصلحة العامة لبني الإنسان.

فعبقيدة التوحيد إذن هي الالتزام الفطري بين الإنسان وبين الله سبحانه وتعالى، فعبقيدة التوحيد إذن هي صمام الأمان للاستقرار في الحياة الاجتماعية، وعبقيدة التوحيد هي الكيان الداخلي للإنسان الذي يحمي حياته من العبودية لغير الله، ذلك أن معنى العبودية لله هي التحرر من الأغيار، فهو لا يخضع لصاحب السلطان، ولا يدين بالعبودية لصاحب المنصب، ولا يعترف بالسيادة لمن بيده القدرة والقوة على التنفيذ، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾¹ في جواب السحرة لفرعون، فالسحرة عندما أنسوا برد التوحيد، وأنسوا برد الإيمان بالله سبحانه، وأن له السيادة المطلقة عليهم وعلى الكون وعلى صاحب القوة والسلطان الذي هو فرعون تحرروا من عبوديته، وتحرروا من عبوديته كإنسان صاحب سلطة يستطيع أن يقضي هذه الحياة الدنيا، ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ

¹ طه: من الآية 72

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا¹، ذلك أنه لا سلطان لك على الروح، ولا سلطان لك على الدار الآخرة، وإنما تقضي هذه الحياة، ونحن نعلم مسبقاً أننا إن آمننا بالله أو كفرنا، دناً له بالعبودية أو تمردنا أنها فترة محدودة مؤقتة تنتهي، فبعد أن آمننا بالحياة الأخرى وبعد أن آمننا بالسيد المطلق الذي هو السيد الحقيقي الفاهر فوق عباده لا نبالي طالَت هذه الفترة أم قصرت، ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ²﴾، إذن الدين القيم، أي الدين المهيمن، الدين السيد، يحرر الإنسان من العبودية للأغيار، ويجعله يعيش في حالة الحرية، يشعره بأنه حر، وأنه لا يوجد عليه إلا سيد واحد ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يتمكن أحد من الإضرار به، كما لا يتمكن أحد من منفعة إلا بإذن ذلك السيد، إلا بأن يسمح ذلك السيد ولو عن طريق الإرادة التكوينية بحصول ضرر عليه أو منفعة له، لو اجتمع الخلق على أن ينفعوك بما لم ينفعك به الله ما نفعوك، ولو اجتمع الخلق على أن يضروك بما لم يأذن به الله ما ضروك³، إذن هو الضار، وهو النافع، وهو الخالق، وهو الرب، وهو السيد، وهو المشرع.

هذا الالتزام إذن هو التزام فطري، يعيش في داخل الإنسان، يعيش في وجدانه وفي قلبه، فهو لا يستطيع أن يتخلص منه في خلوته، ولا يستطيع أن يتخلص منه في انفراده، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ رَابِعُهُمْ³﴾، مهما كان الإنسان منفرداً فإله معه، ﴿وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ⁴﴾، بخلاف الالتزام غير الفطري في المقولات الدستورية الوضعية، فباعتبار أن هذا الالتزام التزام غير طبيعي، والالتزام غير فطري، أن يدين إنسان لإنسان آخر بالعبودية والسيادة، نجد أن الأنظمة الوضعية لا تحمل ضمانات تنفيذها، ومن أجل ذلك هي لا تستطيع أن تتسلط على العبد، وعلى الرعية في مقام الانفراد، ولا تستطيع أن تحاسبه على ما يفعل في بيته، ولا تستطيع أن تعاقبه على ما يقوم به في خلواته، هذا إذن التزام غير فطري بل هو منافٍ للفطرة.

¹ طه: من الآية 72

² طه: من الآية 72

³ المجادلة: من الآية 7

⁴ ق: من الآية 16

الدولة في المقولة الإسلامية هي الكيان الذي يحمي الحرية للعبد، ويحمي الحرية للفرد المسلم في الخارج، أما الكيان الحقيقي الذي يحمي حرته في كينونيتها، وفي وجودها، وفي واقعها النفسي، فهو نفس عقيدة التوحيد، ونفس الإذعان لله سبحانه وتعالى بالربوبية والسيادة، فإن نخلص من البحث إلى أنه في هذه المقولة الإسلامية هناك ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى أن الفرد والمجتمع يتحرر من العبودية للأغيار، حيث يعيش حالة الحرية الحقيقية.

الفائدة الثانية كون السيادة لله سبحانه وتعالى وأنها ليست لبشر من نوع المسود، وأن القهر والغلبة والسلطان ليس لفرد من نوع المرهوب والمقهور والمغلوب، وهو الالتزام الفطري، تضفي على الحياة السياسية الاستقرار والثبات، وتفرغ المجتمع للبناء، وتفرغ المجتمع للعمل الصالح، وبعبارة أخرى هذا الالتزام فيما إذا كان التزاماً وضعياً وليس فطرياً، فإن الفرد أو المجتمع يبقى في حالة تربية دائم بصاحب السلطان متى يستطيع أن يتغلب عليه فيطرحه عن سيادته وعن موضع سلطانه، ليكون هو في موضعه.

الأمر الثاني الفرق الجوهرى أيضاً بين هذه المقولة الإسلامية وبين مقولة السيادة في النظام الوضعى، فنجد في المقولة الإسلامية أن السيد مطلع على كل تصرفات عبده سواء ما ظهر منها وما بطن، ما كان بالمشاركة مع الغير أو ما كان في داخل بيته، ما أنبأت عنه حركات جسمه وقلبات لسانه، وما أضمره في داخل نفسه، ﴿وَعَلَّمَ مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾¹، بعكس النظام الوضعى، فإنه لا يتسلط المشرع ولا يتسلط السيد إلا على الأفعال الخارجية التي تحصل في المجتمع في وضوح النهار، وأما ما يرتكبه العبد في بيته، ما يضمره في نفسه، فلا سلطة له عليه وبالتالي تكون القوانين قهرية لا تمتلك الضمانات على تنفيذها إلا تنفيذاً ظاهرياً بالقهر والغلبة.

وصلى الله على محمد وآل محمد.

¹ ق: من الآية 16

سلطة الحكم في الإسلام (3)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

المقولة الثالثة التي طرحناها هي أن السلطان يكون للأمة، ويتجلى ذلك من اعتبار الأمة قاعدة شرعية لبيعة رئيس الدولة الإسلامية، ويتجلى ذلك أيضاً من اعتبار الأمة مسؤولة عن التنفيذ، تنفيذ الأحكام، ويتجلى ثالثة في كون الأمة هي مناط التكليف بالأحكام، فلا بد أن نتكلم عن هذه الوجوه التي يتجلى فيها سلطان الأمة بشيء من التفصيل.

اعتبرت الشريعة بيعة الأمة لولي الأمر كالمركز العام في الحياة الإسلامية، وهذه البيعة تكون على نحوين، فهي تارة تكون بيعة انقياد، وتارة تكون بيعة اختيار، وبسبب أن الشريعة اعتبرت البيعة لولي الأمر من قبل الأمة ظن بعض الباحثين بأن الشريعة قد جعلت السيادة للأمة، وأن في الدستور الإسلامي تكون السيادة للأمة، ومن هؤلاء الباحثين [خلاف]، الذي قال بأن السيادة في الدستور الإسلامي تكون للأمة، وتبعه أيضاً الدكتور [محمد ليلي] في كتابه [النظم السياسية] حيث صرح بأن السيادة في الإسلام تكون للأمة.

وقد بينا فيما مر بأن السيادة شيء والسلطان شيء آخر، وأنه لا ربط للسلطان بالسيادة في مفهوم الإسلام، وأن السيادة إنما تكون للمبدأ المهيم، وللقوي القهار سبحانه وتعالى. إذن لكي نتفهم مركز البيعة لا بد من دراسة البيعة التي حصلت في صدر الإسلام ونحل عناصرها.

فالببيعة حصلت ثلاث مرات:

البيعة الأولى وهي التي أطلق عليها بيعة النساء، وهذه البيعة لا تتضمن أكثر من إعلان الإنسان إيمانه بالله ورسوله، والتزامه بأحكام الله وأنه لن يتعدى حدود الله إذ ورد فيها بأنه لا يزني، ولا يقتل، ولا يظلم، ولا يشرب خمرًا، إلى غير ذلك من المناهي. وسميت هذه البيعة بيعة النساء لأن الغالب الذين أخذ عليهم البيعة فيها كانوا من النساء.

وإذا حللنا مضمون هذه البيعة نجدها أنها انقياد من الأمة؛ أي من المبايعين بالسيادة لله سبحانه وتعالى، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾¹، إلى آخر ما ورد من نص ورد في تلك البيعة، فإذن يبايعن على أنهن يؤمنن بالله ولا يشركن به، الإيمان بالله اعتراف منهن بالسيادة وبالغلبة وبالقهر وبالسلطان لله سبحانه وتعالى، -السلطان بمعنى الملك بمعنى الحكم وإلا سوف يأتي أن للسلطان معنى آخر قلنا أنه يكون للأمة-.

البيعة الثانية هي بيعة الرضوان أو بيعة الحرب وهذه البيعة أيضا ورد فيها كما في كثير من الروايات بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله على حرب الأسود والأحمر، على أن نطيع الله ورسوله في يسرنا وعسرنا وفي نهضتنا وفي حالة تخاذلنا أو عدم قدرتنا. فالبيعة هنا أيضا إذعان من المؤمنين من المبايعين لله ولرسوله بالطاعة والانقياد والتسليم، فهي في مضمونها أيضا تسليم بالسيادة لله سبحانه وتعالى، وانقياد تام لأوامره.

البيعة الثالثة وهي البيعة التي حصلت بعد الفتح، وهذه البيعة بايع فيها المسلمون كافة على أنه ليس لهم من الأمر مع الله ومع رسوله شيء، وهي أيضا تتضمن الاعتراف بحق السيادة والمولوية لله سبحانه وتعالى، وللرسول صلى الله عليه وآله باعتباره نائبا عن الله سبحانه وتعالى في الحكم.

هذا بالنسبة للبيعات التي لم تتضمنها وثائق مكتوبة في حين البيعة. على أننا إذا رجعنا إلى الوثيقة الأولى التي قامت على أساسها الدولة الإسلامية الأولى، وهي في الحقيقة تمثل أول وثيقة دستورية لدولة النبي صلى الله عليه وآله، وإن سميت في التاريخ باسم الوثيقة وهذا هو الاسم الصحيح، ولا يزال في الدول الأخرى يطلق عليها اسم وثيقة الحقوق، يطلق على الدستور اسم وثيقة الحقوق. هذه الوثيقة نصت في المادة الثانية على أن الأمر والنهي لرسول الله صلى الله عليه وآله - بعد أن نصت في المادة الأولى على أن المهاجرين والأنصار

¹ الممتحنة: من الآية 12

أمة دون سائر الناس - نصت في المادة الثانية على أنهم يؤمنون بالله وبرسوله وأن طاعتهم وموالاتهم لله ولرسوله، ونصت أيضا في البند الثاني والعشرين منها كما هي مروية في سيرة ابن هشام على أنهم يطيعون من ولي عليهم كائناً من كان.

فهذه البيعة والتي هي البيعة الوحيدة المدونة في وثيقة موقعة من قبل المتبايعين، تضمن أيضاً الاعتراف بحق الربوبية وبحق السيادة لله سبحانه وتعالى وللرسول صلى الله عليه وآله باعتباره نائباً عن الله سبحانه وتعالى في تبليغ التشريع النازل منه وفي الإشراف على التبليغ.

هذه البيعات في مضمونها ليست على نحو الاختيار على رئيس الدولة، ولذلك أثرنا أن نطلق عليها اسم بيعة الانقياد أو بيعة الإذعان، والأصح أن يطلق عليها بيعة الإذعان، فالمبايعين يذعنون ويسلمون بأنهم لا يملكون حق السيادة وأنه مولى عليهم، وأنهم مسؤدون ومربوبون لله سبحانه وتعالى، ممثلون لأمره، مذعنون بأن النبي صلى الله عليه وآله هو النائب عن الحاكم الأعلى، عن الحاكم المطلق سبحانه وتعالى في تبليغ التشريع والإشراف على تنفيذ هذه الأحكام.

أيضا إذا جننا إلى بيعة الغدير نجدها بيعة إذعان وليست بيعة اختيار، فأمر النبي صلى الله عليه وآله بعد أن أخذ يؤكد في الأسئلة والأجوبة الموجهة إلى القوم: ألسنت أولى بكم من أنفسكم؟ وإجابتهم بالإيجاب على هذا السؤال وإعلانه صلى الله عليه وآله أن من كنت مولاه فعلي مولاه، أي من كنت سيده فعلي سيده يثبت أن هذه البيعة بيعة إذعان.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

معالم التحريف في الثقافة الإسلامية *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ونبينا خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأعوذ بالله سبحانه وتعالى من الهذر في المقال كما أعوذ به من الانحصار في العي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

موضوع المحاضرة هو معالم التحريف في الثقافة الإسلامية، والتحريف في اللغة له معان متعددة، والذي يهمنا أن نأخذ منها ثلاثة معان، هي التي وردت في الكتاب المجيد والسنة المطهرة، فالمعنى الأول من معنى التحريف هو تغيير الحكم عما كان عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾¹، أي يغيرون أحكام الله سبحانه وتعالى من بعد أن شرعها وحدد مجالات تطبيقها، كما فعل اليهود حيث إنهم جعلوا حد الزنا أربعين جلدة بدل الرجم، وجعلوا حكم القتل العمد دية بدل القود، فكثرت فيهم الزنا وكثرت فيهم القتل، والمعنى الثاني من معنى التحريف هو تغيير الأمر عن الوجه الذي يقصد به، وتغيير الكلام عن الأهداف التي يراد التوصل بها من خلاله، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾²، أي أنهم يستمعون الوحي الذي أنزل على الأنبياء، ولكنهم بعد أن يعقلوا ذلك الوحي يحرفونه إلى جهات لم تكن مقصودة، والمعنى الثالث من معاني التحريف هو التجاوز عن الحق والارتفاع فيه إلى درجة لم يأذن بها الله سبحانه وتعالى، وذلك كفعل الغلاة والمتعصبين الذين يغلون في أديانهم ويتعصبون لمقالاتهم، وهذا ورد في الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وآله: "ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين". فهذه المعاني الثلاثة للتحريف هي التي وردت في الكتاب المجيد والسنة المطهرة، وبالنسبة لعصرنا الحاضر وجد نوع رابع من التحريف قد يكون داخلا في المعنى الثاني من معاني التحريف، إلا أنه لما كانت مصاديقه ومسائله تختلف عن المصاديق والمسائل التي كانت مبحوثة

* محاضرة في عام 1980م في جمعية التوعية الإسلامية

¹ المائدة: من الآية 41

² البقرة: من الآية 75

تحت هذا المعنى ناسب أيضاً أن نخصص لها عنواناً خاصاً ذلك هو تحريف المفهومات، وعليه فسوف أتكلم على هذه المعاني الأربعة للتحريف كل واحد منها في فقرة معينة.

[المعنى الأول التحريف في الأحكام] بمعنى تغيير الأحكام، كأن يكون في الشريعة أمر حلال فيحرمه الناس، أو يكون في الشريعة أمر حرام فيحلونه، أو واجب فيدعون إزالة الإلزام عنه، أو بعكس ذلك أن يكون أمراً مندوباً فيدعون أنه واجب وأنه لازم، والتحريف يختلف عن النسخ في الأحكام، فإن النسخ أيضاً هو تغيير للحكم وتغيير لطبيعة الحكم، لكن الفرق هو أن هذا التغيير إذا صدر من صاحب الشريعة أي من الرسول الذي جاء بالشرعية، يسمى نسخاً، وأما إذا صدر - بعد انتهاء أمد التشريع - من أفراد الأمة فإنه يسمى تحريفاً، هذا النوع من التحريف وقع كثيراً بين المسلمين، وأضرب بعض الأمثلة من الأحكام التي غيرت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله؛ مثال ذلك حكم المتعة، والمتعة لها أحكام سواء في النكاح أو في مناسك الحج، ولا شك أن متعة النكاح فيها آية محكمة من كتاب الله هي قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾¹، هذه الآية حيث إنه لا يوجد في موضوعها آية أخرى يحتمل فيها أن تعارضها، تسمى آية محكمة، لأن الحكم من خلالها يكون قطعياً، هذا لو احتاج الناس للاستدلال على الحكم، أما وأن الحكم قد طبق وعمل به مدة حياة الرسول صلى الله عليه وآله فلا يحتاج أيضاً في الاستلال على جواز هذا النوع من النكاح حتى إلى هذه الآية؛ لأن فعل الناس لهذا النكاح وإقرار الرسول صلى الله عليه وآله لهم حتى اختاره الله إلى جواره من دون ردع ومن دون نهى يكشف عن أن هذا حكم سماوي قطعي، هذا الحكم بَدَل بعد ذلك وادعى أقوام من المسلمين بأن حكم المتعة في النساء قد رفع، وفي البداية لم يدع من طلب إلى الناس تغيير الحكم أن ذلك حصل من الرسول صلى الله عليه وآله، ولكن في الأزمان المتأخرة وجد أيضاً من يصر على تبرير مثل هذا الفعل، فاختلف أحاديث روجها في هذا الباب، هذه الأحاديث لو نظرنا فيها لوجدناها أحاديث آحاد، يعني أنها لم تبلغ حد التواتر، فهي لا تزيد

¹ النساء: من الآية 24

على ست أو سبع روايات مع تضارب بينها، وعلى الرغم من التضارب الموجود بين هذه الروايات مع غض النظر عنه ومع غض النظر عن سائر العُقَد التي توجب ضعف هذه الروايات والعمل به لو سلمنا صحتها متناً وسنداً وجميع ذلك فإنه لا يصح أن ينسخ بها حكم كتابي؛ لأن إجماع الأمة الإسلامية قائم على أن القرآن لا ينسخ بالخبر الواحد إذ لو فتحنا على أنفسنا باب نسخ الكتاب بالخبر الواحد لاستطاع الدساسون والمبطلون أن ينسخوا جميع أحكام القرآن بأحاديث يضعونها ويضعون لها إسناداً صحيحاً، ومن أجل ذلك اتفقت كلمة فقهاء المسلمين على أن القرآن لا يصح نسخه بالخبر الواحد، إضافة إلى ذلك فإن هذا النسخ الذي يدعى قد ورد في متعة النساء ومتعة الحج فلا معنى للموافقة في متعة النساء وعدم الموافقة في متعة الحج، فإن متعة الحج جائزة بإجماع المسلمين إلى اليوم، غاية ما هناك أن بعضهم يرى أنها فرض البعيد والآخر يرى أنها أفضل الفرضين للبعيد، وآخر يرى أنها تساوي القرآن أو تساوي الأفراد، أو أنها فرد مفضول، على أي حال ناحية الجواز الفعلي إلى هذا القدر متوفر عليه الإجماع، فإذا صح النسخ فإن مدعي النسخ أو الذي طلب إبطال الحكم طلب إبطال الحكم في الموضوعين، ولم يطلب إبطال الحكم في موضع واحد فكيف يطاع في أمر ويعصى في الجانب الآخر. ومن هذه الأمور أيضاً إقرار الطلاق البدعي، فالطلاق يقسمه الفقهاء إلى نوعين؛ طلاق السنة وطلاق البدعة، فطلاق السنة الواجد للشرائط المذكورة في آية الطلاق في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ¹، وهذه الآية قد بينت أن الطلاق يجب أن يستقبل به العدة، فلو وقع الطلاق في ظرف لا يمكن أن يستقبل به العدة، كما لو كان في حالة الحيض مثلاً أو في حالة الاشتباه أو فقد سائر الشرائط فإنه يكون لاغياً ولا يعتبر طلاقاً، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله أخذ الناس يستعجلون في أمر الطلاق فيطلقون من دون شاهدين، أو يطلقون في حالات الحيض، أو يطلقون وهم في حالة غضب، إلى غير ذلك، فقال عمر بن الخطاب [رض]: "إن الناس قد استعجلوا في هذا الأمر وأرى أن ألزمهم بما ألزموا به أنفسهم" فألزم كل من طلق وإن كان طلاقه

¹ الطلاق: من الآية 1

بدعياً أي غير مطابق للسنة بطلاقه لأنه استعجل. نحن نقول إن عمر بن الخطاب [رض] قد اجتهد في هذه المسألة فأدى اجتهاده إلى ذلك، لكن الاجتهاد إذا كان مخالفاً لدليل قطعي لا يصح لسائر الأمة أن تتبع إنساناً فيه، هو معذور عند الله إذا فرضنا أنه نظر فاجتهد بإخلاص نية وطبق اجتهاده، لكن اتباع الأمة وإصرارها على اتباع هذا النوع من الطلاق يكون تغييراً للحكم المقطوع به من الآية الكريمة، وهذا أيضاً نوعٌ من التحريف الواقع في الأحكام. وكذلك إحداث الجماعة في صلاة النافلة، فالمعروف أنه لا جماعة في نافلة، ولا تزال كافة المذاهب تلتزم بأنه لا جماعة في سائر النوافل، ومع ذلك فإن نوافل شهر رمضان لا تزال تصلى جماعة، فإذا كان حديث "لا جماعة في نافلة" حديثاً مقطوعاً به من حيث الصدور، واضحاً من حيث الدلالة، يكون إيجاد الجماعة في النافلة تغييراً لوضع تلك النافلة لأن الله أرادها فرادى ونحن قلنا لا بد أن نؤديها إليك جماعة، هذا أيضاً نوعٌ من التحريف في الأحكام. وكذلك رفع الإلزام عن حكم القصر والإفطار في السفر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا¹، فشرع سبحانه القصر في الصلاة في موضعين، في حالة الحرب لأنه حالة قيام المعركة وقد لا يستطيع المسلمون أو قد لا يوجد الظرف الكافي أن يؤدي المسلمون صلاتهم تامة، فشرع الله سبحانه وتعالى لهم القصر، والحالة الثانية حالة السفر.

والتعبير هنا بـ"لا جناح عليكم"، تعبير "لا جناح" في اللغة العربية لا يستفاد منه إلا اللزوم، وليس كما قيل أنه جاء لرفع احتمال الحظر؛ لأنه لو جاء لرفع احتمال الحظر والمنع لكان واقعاً لا يفيد الإلزام، ولكن هذا التعبير في اللغة العربية لا يستفيد منه العرب إلا الإلزام، ومن أجل ذلك فهم الناس كافة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا²، فهُمُوا من ذلك وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، وأنه ركن من أركان

¹ النساء: 101

² البقرة: من الآية 158

الحج والعمرة، ولو كان هذا التعبير في اللغة العربية لمجرد رفع احتمال الحظر، أو لرفع توهم الحظر لكان ينبغي ألا يفهم الإلزام في الآيتين، فلا معنى إذاً أن يدعي إنساناً بأنه يفهم الإلزام في تلك الآية من تعبير لا جناح عليه، ولا يفهم الإلزام في الآية الثانية من تعبير لا جناح عليكم، فإن التعبير واحد في الآيتين. فإذا فهم الإلزام من تعبير لا جناح عليكم، ثم رخصنا لتترك القصر والإفطار في السفر بحجة أن الدنيا قد تغيرت وأن هذه كانت رخصة بسبب مشقة السفر على الناقة والبغل والحمار بخلاف اليوم فإن السفر يكون في الطائرات والسيارات والبواخر المريحة هذا في الحقيقة أحط من قياس السنة لأنه قياس الكتاب المجيد، فإن الله سبحانه ما أناط ذلك في كتابه بوعثاء السفر ولا بإرهاقه وإنما أمر بالإفطار ويقصر الصلاة في حال السفر، سيان في ذلك أن يكون السفر شاقاً أو يكون السفر غير شاق، وسواء في ذلك أن يكون السفر بعيداً أو يكون السفر قريباً، فإذا غيرنا الحكم ورفعنا الإلزام وأجزنا إتمام الصلاة والصوم في السفر أيضاً كنا قد غيرنا وضعاً قرآنيّاً عما كان عليه، وهذا أيضاً نوع من التحريف في الأحكام، وفي الواقع أن هذا النوع كثير، ولو أراد الإنسان أن يتتبع موارده في كتب الفقه المختلفة فإنه يحتاج إلى وقت طويل وإلى أن يسود صفحات كثيرة.

النوع الثاني من معاني التحريف هو الميل بالكلام عن المقصد الذي من أجله صيغ، وهذا النوع أيضاً من التحريف لم يختص باليهود، بل وقع أيضاً بين المسلمين، ووقع كثيراً بين أرباب الفرق والمذاهب، وأولت آيات قاطعة وأحاديث ساطعة من أجل صرفها عن معناها الذي من أجله قد نزلت أو قيلت، فمسألة عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ هذه المسألة ادعى قوم أن الأنبياء ليسوا معصومين، ومن أجل إثبات هذه الدعوى أولت كثير من الآيات ووُضعت كثير من الروايات، منها قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾¹، وواضح من الآية أن الذي نسي ذكر ربه هو ذلك الذي ظنه يوسف عليه السلام ناجياً منهما لأن الضمير في قوله [فأنساه] يعود إلى كاف الخطاب الموجود في الجملة السابقة

¹ يوسف: من الآية 42

[اذكرني عند ربك] لأنه أقرب الموارد إليه، والضمير في اللغة العربية يعود إلى أقرب الموارد إليه، ولكن من أجل أن يُثبت بأن الأنبياء يسهون مال كثير من المفسرين مع الأسف إلى أن ينسبوا قوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ إلى يوسف عليه السلام، وهذا ميل بالكلام عما قُصد به، وفيه دالتان: الدلالة الأولى تسلط الشيطان على أنبياء الله مع أن الشيطان في عهده مع الله استثنى عباده المُخلصين، فقال كما قال الله سبحانه وتعالى حكاية عنه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾¹، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾²، ومع ذلك فهذا التفسير يستوجب أن الشيطان يتسلط على أنبياء الله، والدلالة الثانية أن النبي ينسى كما ينسى أي إنسان عادي بدليل، ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾³، وهذا في الحقيقة ميل بالكلام عن الوجهة التي قُصد بها، فهو أيضاً تحريف بالمعنى الثاني، وأيضاً في سورة يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمِئُّ بِعَمَّتِكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾⁴، استدلت بعض المفسرين على أن اخوة يوسف أنبياء بهذه الآية وأن الاجتناب لآل يعقوب وأن أولاده الصليبيين هم آله، ولا تتصرف كلمة الآل أو الأهل إلا على الأولاد الصليبيين دون أن تتصرف إلى الأحفاد أو الاتباع أو أبناء الاخوة أو غيرهم، وعندئذ يكون اخوة يوسف أنبياء، ومعلوم أن الله سبحانه قص في كتابه المجيد من فعلهم بيوسف وعصيانهم ومحاولتهم قتل نبي، وحسدهم، وكذبهم إلى غير ذلك ما قص، فإذن يكون الأنبياء غير معصومين مع أن الله سبحانه قد بين بأن لفظة أهل وآل لا تكون للأولاد وإنما تكون لمن اتبع، قال سبحانه في سورة نوح حكاية عن نبيه نوح عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ أَيْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾⁵، لأن الله وعده أن ينجيه وأهله أو وآله فلما رفض أحد أبنائه أن يصعد معه في السفينة لعدم إيمانه بدعوة أبيه وعدم إيمانه بنبوته، وخاف نوح على ابنه الغرق سأل الله سبحانه في ذلك

¹ الحجر: 40

² الاسراء: من الآية 65

³ يوسف: من الآية 42

⁴ يوسف: من الآية 6

⁵ هود: من الآية 45

فقال: ﴿إِنَّ أَيْنِي مِنْ أَهْلِي﴾¹ يعني داخل فيمن وعدتني بنجاتهم، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾²، فالله سبحانه في هذه الآية نفى أن تنطبق كلمة أهل أو آل على خصوص الأولاد بل أنها قد لا تنطبق على الأولاد مطلقاً فيما إذا لم يكونوا على الأمر الذي يكون عليه آبائهم، ومن عجيب المفارقات أن هذا القائل وهذا المفسر الذي أراد أن يستدل بلفظة الآل على نبوة أولاد يعقوب من أجل أن يُثبت المعاصي للأنبياء ويدعي عدم عصمتهم جاء في آية أخرى فأنكر أن تكون لفظة الأهل ولفظة الآل خاصة بالأبناء، ففي تفسير سورة الأحزاب نفس المفسر عندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾³، نفى بشدة أن تكون لفظة الأهل خاصة بالأبناء والأولاد أو الأقارب أو الأتباع، وإنه يدخل فيها الزوجات والأعمام والأخوال وغيرهم إلى غير ذلك، وفي كلا الموردين تحريف؛ لأن الغرض أن اللفظ يفهم من سياق الجملة مع ما يحتف بها من القرائن، ولا يمكن أخذ اللفظ مجرداً عن سياق الجملة التي هو فيها، فهناك أصر على أن الآل تنحصر في الأبناء، فإذن: ﴿وَسَمِعْتَهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾⁴، يعني أبناء يعقوب الأحد عشر الباقين، وإذن صاروا أنبياء مع ما ارتكبوا من الكبائر، فلا يلزم إذن عصمة الأنبياء، بل وُضعت أحاديث في هذا المجال، فتبرع أناس أن يضعوا أحاديث في هذا المجال كثيرة يَصِمُونَ بها الأنبياء بأفعال وبأمر لا يرضى أحد أن يُوصف بها، مثلما قيل أن النبي صلى الله عليه وآله صلى بالناس الظهر ركعتين ثم دخل منزله وبقي ما شاء الله ثم خرج لغرض فقام إليه ذو اليمين أو ذو الشمالين وهو شخص نسميه نحن ذو الشهادتين فقال له يا رسول الله أقصرت الصلاة أم تبدلت؟ فقال وكيف؟ قال صليت بنا الظهر ركعتين فصلى بهم ركعتين أخريين، وهنا ليس فقط أن النبي صلى الله عليه وآله سها، ولكن هذا الفصل البعيد بين ركعتين وركعتين من الذهاب والمجيء الذي يستلزم الانحراف عن القبلة خاصة وأن من

¹ هود: من الآية 45

² هود: من الآية 46

³ الأحزاب: من الآية 33

⁴ يوسف: من الآية 6

يرى المسجد النبوي ويرى بيوت النبي صلى الله عليه وآله يفهم أن الدخول فيها يستلزم الانحراف عن القبلة يقيناً، مع العمل المنافي الكثير، كل ذلك لا يُبطل الركعتين السابقتين؟! وأنه يصح البناء عليهما والإتيان بركعتين متممتين فقط، دع عنك السهو ولكن كل ذلك ألا يؤثر في الصلاة. وأيضاً مثلما روى أحدهم عن موسى بن عمران عليه السلام من أن ملك الموت تمثل له بصورة رجل وأخبره أنه جاء لقبض روحه، وأنه رسول من الله سبحانه وتعالى لقبض روحه، فقام لملك الموت ولطمه على عينه فاعورت، وهو إلى الآن أعور، لماذا؟ ليثبت أن الأنبياء يغضبون، وطبعاً ضرب رسول من رسل الله سبحانه وتعالى معصية كبيرة، إذا قال له أنا رسول الله إليك وأنا ملك الموت وعرفه، يقوم ويضربه ويعيب عينه! أصلاً ضرب رسول من رسل الله كبيرة من الكبائر، يعني أنه في هذا المجال أيضاً كما وقع تحريف لآيات في القرآن وميل بها عن مقاصدها، وكذلك وُضعت أحاديث لصرف الحق عن أهله مثلما حصل من التأويل في حديث الغدير، كلام واضح، رجل يقف في الصحراء على غير ماء ولا كلاً، في وقت الظهيرة وينادي مناديه في المتقدمين ارجعوا فيرجعون، وينتظر المتأخرين حتى يصلوا، ويأمر بإقامة منبر، ويخطب خطبة طويلة - تستغرق في إلقائها - لو أقيمت اليوم لاستغرقت ساعة أو ما يزيد على الساعة ثم بعدها يوجه أسئلة كثيرة، ألم أبلغكم رسالات ربي؟ ألم أنصح لكم؟ ألم أجاهد بين ظهرانيكم؟ ألم تُكسر رباعيتي؟ كل ذلك يُجاب بلى، أأنت أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا بلى، من كنت مولاه فهذا علي مولاه، قرائن واضحة صريحة لا يُعقل أن يعملها إنسان عبثاً، ثم يأتي من يقول بأن معنى الحديث: من كانت لي نصرته بالولاء فنصرته لعلي بالولاء، هذا القول لا يحتاج كل هذا العناء من الوقوف في الصحراء، ورد المتقدم وانتظار المتأخر، والسؤال أأنت أولى بكم استناداً أو تنبيهاً للأذهان لقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾¹، حتى يقول لهم من كانت نصرته بالولاء، يعني من كان عبداً لي فأعتقته وصار من مواليّ فهو مولى لعلي، فهل كان الرسول صلى الله عليه وآله يريد أن يحجب الولاء عن فاطمة عليها السلام لأنها الوارثة، فهل كان الرسول صلى الله عليه وآله يريد أن يُزيل

¹ الأحزاب: من الآية 6

حكم الإرث؟ إن الولاء يُورث كما تورث سائر الأشياء، فالنصرة هنا لو كان للرسول صلى الله عليه وآله عبد أعتقه وصار بينهما ولاء يكون الولاء لفاطمة، فهذا الصرف صرف الحديث عن معناه أو عن سياقه وعن وجهته إلى مثل هذا المعنى في الحقيقة هو نوع من التحريف، وميل بالكلام عن مواضعه، على أنه كما يقول ابن ميثم في شرح نهج البلاغة أن لفظة الولي لا يفهمها العرب إلا بمعنى الأولى، حتى لو قلنا النصر، حتى لو قلنا من كانت نصرتي عليه واجبة بالولاء فنصرته لعلي واجبة يكون بمعنى أولى، يعني من كنت أولى بنصرته فعلي أولى بنصرته، ابن ميثم يقول إن العرب ما كانوا يفهمون معنى الولي إلا بمعنى أولى، والولاء كما يكون بالعتق يكون الولاء أيضاً بالنبوة حتى لو أخذنا بمعنى النصر، وآخرون يقولون النصر بـابن العم، فأراد أن يبين للناس أن علياً عليه السلام ابن عمي، ونصرتي له من جهة انه ابن عمي، ونصرتي لي من جهة كونه ابن عمي، هذا طبعاً كله ميل بالكلام عن مقصده، فيكون تحريفاً من النوع الثاني، فوُضعت أحاديث في هذا الشأن، ولم يقتصر الكلام على تأويل الأحاديث، حتى ورد -كما روى كثير من المؤرخين- أن معاوية بن أبي سفيان في أيامه أصدر أمراً إلى جميع عماله أن انظروا كل فضيلة لعلي فضعوا مثلها لعثمان، فمضى الناس يتبرعون بذلك، فلا يسمعون بذكر فضيلة أو منقبة لعلي إلا ووضعوها مثلها لعثمان، حتى صار ذلك العمل موضع التندر وموضع الاستهزاء، فكتب إلى عماله أن الناس قد ملوا الحديث في عثمان فانظروا إلى كل منقبة لعلي فضعوا مثلها لأحد الصحابة، لماذا؟ حتى تضيع كل القرائن الموجودة في الكلام والتي تمنع عن قبول هذا التأويل وهذا التحريف، فوُضعت أحاديث كثيرة، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله لم يسد باب علي وُجد أنه ما سد باب أبي بكر، والإمام علي عليه وآله تصدق بالخاتم فنزلت آية، فوضعت ألف رواية لأكثر من عشرين صحابي تصدقوا بخواتم، إلى ما شاء الله، من ينظر في كتب السياسة والآثار والأخبار يجد من هذا النوع أحاديث كثيرة، كل ذلك من أجل إثبات وصرف معنى هذا الحديث عن المقصد الذي يُقصد به.

النوع الثالث - ولا داعي للإطالة في هذا الباب - من التأويل هو تأويل الغالين وتحريف الغالين، ومعنى الغلو هو أن يرتفع الإنسان ويتجاوز الحدود المعقولة والمشروعة فيما يدين الله به؛ كأن يرفع إنساناً من مرتبة الإنسانية ويدعي أنه رب، أو يرفع إنساناً عادياً فينسب إليه العصمة وينفي عنه الخطأ، أو يقول قولاً ليس ضرورياً من الدين وإنما هو فتوى مستنبطة ثم يكفر من خالفه فيها، ويحكم بشركه ومروقه من الدين، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله: "تحريف الغالين" وهذا النوع أيضاً موجود عند المسلمين بجميع فرقهم، وربما إذا كان النوعان قد تخلو منهما فرقة دون فرقة فهذا النوع الثالث لا يكاد يسلم منه من المؤمنين إلا من عصم الله سبحانه وتعالى، فلا تكاد فئة من فئات المسلمين لا تباشر هذا النوع من التحريف، اجتهد أحدهم فأدى اجتهاده إلى أن زيارة القبور حرام، فحكم بأن كل من يزور القبور كافر مشرك يعبد الأصنام، وأنه لو لم يعتبر هذا القبر صنماً لما زاره، هذا مع النصوص الواضحة باستحباب زيارة المقابر، وأنها تذكر الآخرة، ولو فرضنا بأنك لا تأخذ بتلك النصوص وتلك الروايات ولم تثبت لديك صحتها وثبتت لديك صحة نصوص تنهى عن ذلك لكنها على أي حال مسألة خلافية، ومسألة اجتهادية، كيف يجوز أن تُكفر المسلمين وأن تحكم بشركهم لأنهم يخالفونك في الاجتهاد، ويخالفونك في الفتوى، وأن من اجتهد واستنبط فقد أباح لغيره أن يخالفه، تجد مثلاً بعض فرق المسلمين تقول إن الإمامة والخلافة ليست من أصول الدين، وأنها من فروع الدين، فبطبيعة الحال أن الشيء إذا كان من الفروع فالخلاف فيه لا يؤدي إلى الكفر، وإنما الذي يؤدي إلى الكفر هو الخلاف في الأصول، وليس الخلاف في الفروع، وبعض فرق المسلمين تقول إن الإمامة ليست من أصول الدين ولكن لو أعلن مسلم بأنه مثلاً لا يؤمن بإمامة زيد من الناس من الذين صاروا خلفاء، لا يؤمن بإمامة معاوية ولا يؤمن بإمامة الإمام علي عليه السلام ولا يؤمن بإمامة عمر ولا يؤمن مثلاً بإمامة هارون الرشيد يحكمون بكفره، إذا كانت المسألة من أصول الدين فهذا المنطق صحيح أن تحكم بكفر من يخالفك فيها، وأما إذا كانت المسألة من فروع الدين فكيف تحكم بكفر مسلم يخالفك في حكم فرعي؟ هذا نوع من الغلو، هذا نوع من العصبية والتعصب، أيضاً الذين

ينفون العصمة عن الأنبياء يحكمون بإهدار دم من ينسب مثلاً ما ينافي العدالة أو ما ينافي العصمة لأي صحابي، فإذا كنت أنت تنسب إلى الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه تنسب إليهم أموراً تنافي العدالة فضلاً عن العصمة فكيف تحكم بإهدار دم من قال بأن زيدا من الناس فعل كذا، فيكون الأنبياء غير معصومين ومن ليس بنبي معصوم! هذا نوع من الغلو والتعصب، وكثير من الناس - وهذا حتى كثير من الشيعة يعيشونه - أن من يخالف أي فتوى مثلاً تجد من يلتزم بتلك الفتوى رأساً يفسقه أو يكفره، وإن كان يتبع في ذلك الخلاف عالماً آخر أو فقيهاً آخر، هذا أيضاً نوع من العصبية لا يجوز في الشريعة، مادامت المسألة خلافية بين العلماء، وماداموا يختلفون فيها، ومنهم من يرى هذا الرأي ومنهم من يرى رأياً مخالفاً كيف يجوز لإنسان أن يقول إن زيدا مشرك أو أن يقول من لم يعمل بذلك فهو كافر أو هو فاسق، أو من لم يعتقد هذا الفرع فهو مشرك أو كافر! هذا نوع من الغلو والتحريف، تحريف الغلو والتعصب ينشأ من عصبية، ومما يؤسف له أن هذا النوع من التحريف فاش في كثير من الناس لا أحاشي فيها فرقة حتى الشيعة، حتى نحن أيضاً نمثلئ ومملوئين بهذا، ولا يسلم منه إلا من عصم الله سبحانه، هذه هي الأنواع الثلاثة من التحريف التي ورد ذكرها علناً وصراحة في الكتاب والسنة.

في هذا الزمان أيضاً وجدت مصاديق ولا أقول نوع جديد أو معنى جديد من التحريف، لأن اللغة لا تتحمل معنى رابعاً أكثر للمعاني الثلاثة التي ذكرتها، ولكن حصلت مصاديق جديدة للتحريف يمكن أن نسميها بتحريف المفهومات، هذا التحريف يزاوله أعداء الإسلام من أجل تشويه الفكر، أو فكر شباب المسلمين لصرفهم عن الطرق الصحيحة، والاعتقادات الصحيحة، مثال ذلك أن يأخذ بعض الكتاب قول العلماء - بل هو الواقع يعني الحكم الإسلامي - بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان - شمولية الإسلام وخلوده - وهذا مفهوم إسلامي أصيل يأخذه بعضهم فيملؤه معنى لا إسلامياً وهو أن الإسلام مادام صالحاً لكل زمان ومكان، ومادام شمولياً إذن هو مرن ومطاط، وهذا في الحقيقة قصد سيئ، إذ يُراد أن يُجبر الإسلام على قبول الحضارة والمشاكل والبدع التي لا تنشأ من الإسلام. فبدلاً من أن يطور الناس حياتهم، ويكيفوها بموجب المفاهيم

الإسلامية، يخضعون المفاهيم الإسلامية للردائل حتى تستوعبها، أي يريدون إلزامها باستيعاب الردائل ومنافيات الشريعة كلها، بحجة التمدن واختلاف العصر والمقتضيات الجديدة، إلى غير ذلك من العناوين البراقة، ومثال ذلك ما أفتى به بعضهم من جواز أن تظهر الفتيات عاريات على السواحل إذا كان ذلك يؤدي إلى ازدهار الاقتصاد، وقس عليه من هذه الفتاوى الكثيرة التي تحاول جاهدة في تحريف الفكر الإسلامي عن طريق تحريف المفهومات الإسلامية، وبعض الناس مثلاً وهو إما عن وعي أو بدون وعي يحاول أيضاً تغيير مفهومات أخرى. أو رجل ميكيافلي يعني يرى أن الغاية تبرر الوسطة، فأى واسطة تريد أن تسلكها للوصول إلى الغاية فهذا أمر جائز، ولو صرح الناس بمفهومه لما اتبعوه، ولكي يسبغ على هذا المفهوم صبغة إسلامية يقول لنا أنتم مشتبهون، أنا لا أقول بهذه النظرية وإنما ورد في الشرع أن الأهم يقدم على المهم، فلسنا الآن في صدد تقويم سلوك الشباب، وإنما في صدد تكوين الدولة، وبعد ذلك يأتي تقويم الشباب، تكوين الدولة أهم، وتقويم الشباب مهم، إذن يقدم عليه، من أين جئت بأنه أهم؟ وأي دولة وأي مجتمع تبنيه أنت على شباب فاسد، يشرب الخمر، ويدخل الحانات؟، ويسير على السواحل بنسائه عاريات؟، ويرقص ويفجر؟ هذا تلبيس للقاعدة الميكافيلية لباساً إسلامياً، ولا شك أن إعطاء هذا المفهوم الإسلامي الشريف هذا المحتوى الباطل هو تحريف لهذا المفهوم الإسلامي، قاعدة التزام عند الفقهاء بين المهم والأهم وبين الموسع والمضيق، فمثلاً لو كان حريق يشتعل، وأنا أريد أن أصلي ولا يوجد أناس كافين لإطفاء الحريق، أيهما أولى أن أقدم، هنا يأتي مفهوم التزام بين الأهم والمهم، ومثال آخر، طفل سقط في البحر وأنا أريد أن أذهب إلى زيد لأوفيه حقه من الدين الذي عليّ لأن وقته قد حان، فأيهما يأتي الحكم الشرعي في تقديمه، النزول للبحر وإخراج الطفل أو دفع المال إلى زيد؟ تأتي هنا قضية الأهم والمهم، وكذلك مثلاً لو كان عليّ دين وأنا أريد السفر للحج، والدين مؤقت، فأيهما أقدم؟ هل أذهب إلى الحج وبعد رجوعي أتصل بصاحب الدين وأدفع له دينه؟ أم أبادر إلى دفع الدين وإن فانتتي القافلة، هذا يأتي بين الموسع والمضيق، أما أن نأخذ هذا المفهوم الإسلامي ونعطيه محتوى لا إسلامياً فهذا أيضاً نوع من التحريف، ولا شك

أننا في راحة كبيرة مما عدا النوعين الأخيرين من أنواع التحريف، يعني التحريف الناشئ من التعصب والتحريف الناشئ من الغلو والارتفاع لأننا في الحقيقة كلنا نباشره، ولا يسلم منه إلا الأوحدي، وهذا أيضاً يجب أن نربي أنفسنا على عدم مباشرته، فمادام الإنسان يتبع عالماً من العلماء وأنا أتبع عالماً آخر فلا يصح لي أن أفسقه ولا أن أكفره ولا أن أقول إنه على حد الشرك بالله، وأيضاً لو اختلف عالم مع عالم لا ينبغي لذلك العالم أن يقول على أنه على حد الشرك بالله، وأنه فسق، وأنه كفر؛ لمجرد أنه يختلف معه في قضية أو في مسألة خلافية يدور البحث فيها عند العلماء، وهذا للأسف كلنا نباشره.

وعلينا أيضاً أن نحترس من أولئك الذين يريدون أن يعطوا المفهومات الإسلامية محتوى غير إسلامي؛ لأن هؤلاء خطرون على الأمة الإسلامية، وخطرين على الجسم الإسلامي، وإذا فسق الإنسان وأراد أن يبرر فسقه بمثل ذلك فعلينا أن نعرف أنه غير إسلامي، وأنه إنما يريد تشويه الإسلام، وتحريف الإسلام، هذا ما يحضرنى من الكلام، عن معنى التحريف وأرجو من الاخوة العذر من التقصير في هذه المحاضرة، إذ لم أستوف الموضوع حقه، وذلك لأسباب منها أنني لم يكن في حسابي أن ألقى في هذه الليلة، فأخذت نفسي في كتابتها بالتأني ولذلك لم أكتبها للآن، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سؤال: في التحريف الثالث الذي كما تقول أنه لم يسلم منه أحد حتى نحن الشيعة فلو تفضلت بذكر أمثلة مما وقع من الشيعة قبال غيرهم أي غير الشيعة.....

جواب: في الحقيقة لم يحصل هذا قبال غير الشيعة، ولكنه حصل بين الشيعة بعضهم البعض. وهذا مما يؤسف له، فنحن نشاهد كثيراً ما يفسق الإنسان أخاه لمجرد أنه يختلف معه في عمل، أو يختلف معه في اتباع مقلد أو غير ذلك، وهذا ما أعنيه، وهذا الذي أقول إنه ينبغي أن نتجنبه.

سؤال: نحن اليوم نعيش جميع ما ذكرتم من التحريفات وخصوصا المعنى الأخير للتحريف، فكيف يمكننا التصدي لرواد هذا النوع من التحريف؟

جواب: يمكننا التصدي لرواد هذا النوع من التحريف عن طريقين، الطريق الأول: أن نزيد من ثقافتنا واطلاعنا على الكتب الإسلامية الأصيلة حتى لا تتلبس علينا المفهومات، والثانية بكشف من يحاول أن يقوم بهذا النوع من التحريف في أوساط الشباب، وبتفهم الشباب والكشف لهم عن المغالطات التي يقوم بها، وكشفه حتى يعزل ولا يستطيع أن يبيث سمومه بين الناس.

سؤال: بم تفسرون ذكر بعض المؤرخين لروايات في فضل أهل البيت عليهم السلام في كتبهم مع أنها تناقض معتقداتهم؟

جواب: في الواقع أنه ليس كل المؤرخين قد زالوا عملية التحريف من هذا النوع، فهناك أيضاً المنصفون من المؤرخين، وبعض المؤرخين يذكر هذا النوع من الروايات لأنها لكثرتها واشتهارها وتواترها لا يمكنه أن يتغاضى عنها كليةً في كتابه، وقسم ثالث من المؤرخين يذكر هذه الروايات لأنه يعتمد على ما علق في أذهان الناس من شبه حول تأويلها وتحريفها عن وجهتها .

سؤال: كيف يمكن إثبات عصمة آدم أبي البشر عليه السلام في حين أنه أخطأ خطأ فادحاً وأطاع إبليس وعصى ربه ؟

جواب: العصيان إنما يكون بعد صدور الأمر على نحو التكليف، وأما إذا لم يكن هناك تكليف فلا يسمى ذلك عصياناً، ولو سمي عصياناً يكون مجازاً، ولا شك أن هذه المخالفة التي قام بها آدم قام بها في دار غير دار التكليف وهي الجنة، والتكليف إنما هو في الأرض، وعندئذ نقول إن معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾¹ أنه ترك الأولى، كان المفروض أن لا يأكل فيخرج ولكنه أكل فخرج، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ

¹ طه: من الآية 121

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُخْزَنُونَ¹، فالهدى إذا بمعنى التكليف إنما أنزل بعد الهبوط إلى الأرض، فلا يسمى ذلك عصياناً لأنه لم يكن في دار التكليف، والمفروض من إثبات العصيان له أن نجد له معصية هنا على الأرض وبعد هبوطه، فإذا ثبت أن له معصية فقد عصى، وإذا لم تثبت له معصية على الأرض فكيف نقول إنه عصى؟

سؤال: في هذه الأيام نسمع ونشاهد ضجة كبرى يقودها أطفال ومنحرفون يدعون بأنهم غيارى على الدين ويحطمون من سمعة كل العلماء الباقين وهم يتخذون من اسم أحدهم رمزاً فما هو موقفكم من هؤلاء؟

جواب: طبعاً الموقف واضح بأنه لا يصح التفريق بين المسلمين، ولا يجوز أيضاً قذف أي مسلم - عالماً كان أو غير عالم - أن يقذف بتهمة أو يغتاب في مجلس من دون حق، بل يكون العالم أولى بذلك لأن تحطيم سمعته في الحقيقة تحطيمٌ لسمعة الصف وليس تحطيماً لسمعته الخاصة، وكان المفروض على من يسمع إنساناً يغتاب مسلماً أو عالماً أو ينتقص عالماً أن يوقفه عند حده ويزجره في ذلك المجلس، فإذا لم يتمكن وأصر أهل المجلس على ذلك فعليه أن ينسحب، لأن النبي صلى الله عليه وآله يقول: "سامع الغيبة كالمغتاب" يعني هما سيان في الأثم.

سؤال: أرجو أن تبين لنا أثر أنواع التحريف التي ذكرتموها على واقعنا المعاش الآن.

جواب: لا شك أن الأثر واضح؛ فالمسلمون يعيشون تمزقاً ويعيشون ضياعاً ويعيشون فرقةً ويعيشون انحرافاً وانحلالاً وابتعاداً عن الدين، وهذا كله ناشئ من أنواع التحريف التي ذكرناها بجميع أنواعها الأربعة، وهذا هو أثره على حياتنا وواقعنا المعاش.

سؤال: أسلمة العصر وعصرنة الإسلام، موقفان لكل منهما أنصاره. أرجو أن تجلو فضليتك لنا حقيقة هذين الموقفين.

¹ البقرة: 38

جواب: الكاتب أو السائل قد استعمل تعبيرات عصرية منافية للغة أصلاً لأنها لا تأتي من باب النحت ولا من باب الاشتقاق، ومعلوم أن إيجاد تعبير جديد في اللغة العربية يعتمد إما على النحت أو الاشتقاق، وهذا ليس من الاشتقاق ولا النحت ، فهو تعبير خطأ لكن المعنى مفهوم. أما أن نعصرن الإسلام كما يقول ونستعمل أسلوبه يعني نجعل الإسلام عصرياً فالإسلام ليس ملكنا، وليس إرثنا نلبسه ما نشاء من الثياب وننزع عنه ما نشاء من الثياب، إن الإسلام دينٌ أنزله الله لم يتبع في إنزاله هوى عباده ولا آراءهم ولا قصور عقولهم.

معالم التحريف (2)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نعود فنتابع موضوعنا، معالم التحريف الفكري في الثقافة الإسلامية، ونتابعه في ما أسميناه بتحريف المفهومات في العصر الحاضر، لأننا أوجزنا القول فيه في ليلة سابقة، وقد قلنا إن العصر الحاضر جاءت للمسلمين فيه تيارات فكرية من الخارج سببت حصول تحريف في كثير من المفهومات الإسلامية مما أدى إلى تشويش أفكار كثير من الناس، ولعل أهم هذه المفاهيم التي تحرفت على الإطلاق هو مفهوم الدين، فالدين كما يفهم من النصوص الواردة في القرآن المجيد أنه مبدأ، ومعنى المبدأ عقيدة ينبثق منها نظام، فهو إن يشمل الإنسان عقلاً ونفساً وحياتاً وموتاً، ولا يختص بجانب دون جانب، وهذا هو المعنى الذي يفهمه المسلمون من مفهوم الدين، فهم لا يفهمون الدين على أنه خاص بالأمر الاعتقادية أو بالأمر العبادية، أو بمناسبات الزواج أو بحالات الموت، وإنما يفهمون الدين على أنه مجموعة من الاعتقادات تنبثق عنها وعن الإيمان بها تنظيمات تنظم حياة الإنسان حتى تنزله قبره، ثم أيضاً تحدد له طريقه وتوضح له مصيره بعد أن يموت.

في أوروبا مرّ الدين بأدوار مختلفة، واكتسب معاني أخرى، على أن المفهوم العام في أوروبا وخاصة بعد سقوط دولة الكنسية وقيام النهضة الحديثة في أوروبا انصبغ مفهوم الدين بصيغة خاصة هو قصره على الاعتقادات والطقوس العبادية، بل إن بعض ألفاظ لغات أوروبا لا يمكن أن يفهم منها شمول اللفظة - لفظة الدين - لما يشمل العبادات، كاللغة الإنجليزية، فاللفظة الإنجليزية لمفهوم الدين لا تزيد على معنى الاعتقادات، وبذلك تكون حتى الطقوس العبادية غير مشمولة لهذه اللفظة في اللغة الانجليزية، هذا المفهوم للدين في أوروبا حصل نتيجة لحياة سياسية واجتماعية معينة، على أن كثيرا من رجال أوروبا في الوقت الحاضر يميل إلى أن الدين لا يحتاج حتى إلى

الاعتقاد، ف[راسل] مثلاً وهو فيلسوف إنجليزي معاصر يرى أن الدين لا يحتاج في قيامه وفي وجوده وفي بقاءه وفي استمراره إلى الإيمان بالله الذي هو أهم الركائز التي يبنى عليها مفهوم الدين، ففي كتابه الذي يسميه [لماذا أنا مادي] يقول إن الدين لا يحتاج إلى الإيمان بالله فإن الصلاة ذاتها تتضمن حسناً عقلياً بالإضافة إلى كونها عملاً أخلاقياً، ومشاركة اجتماعية، فلا داعي لأن أجشم نفسي عناء البرهنة وإثبات وجود الله حتى أذهب إلى الكنيسة أو أن أؤدي الصلاة، بل بإمكانني أن أؤدي الصلاة بناء على حسنها الذاتي من كونها عملاً أخلاقياً ومشاركة اجتماعية حتى إذا لم يثبت وجود الله، إلى هذا الحد صار مفهوم الدين عند الأوربيين، هذه النظرة بدون شك لا تتلاءم ومفهوم الدين عند المسلمين، إلا أن الاتصال غير المنظم الذي حصل في القرن الماضي والقرن الحاضر بين الأمة الإسلامية والشعوب الغربية سبب أيضاً تحريف مفهوم الدين عند المسلمين، ولم تكن عملية التحريف عملية عفوية، وإنما كانت عملاً مقصوداً وهادفاً، فمن جانب حملت المفاهيم الغربية والدعوة إلى الحضارة الغربية، ومن أجل ذلك نجد أن هذا المفهوم قد حرّف على أساسين متباينين، الأساس الأول الذي حرّف على أساسه مفهوم الدين عند المسلمين في بداية الأمر هو محاولة الفصل بين المواضيع الحياتية بين ما هو ديني وما هو ليس ديني، وظهر مفهوم [الدين لله والوطن للجميع] بكل أبعاده بين الشعوب الإسلامية، كما ظهر مفهوم أنه لا علاقة للدين بالسياسة، وهذا لاشك قصداً واضحاً لتحريف مفهوم الدين في أذهان المسلمين، وعلى أساس من هذا التحريف بنيت الأوضاع والنظم والحكومات، ونتج عن ذلك وجود مجموعة كبيرة من القوانين الوضعية في باب المعاملات وفي باب الحدود والجنايات بعمومها، بل في كثير من البلاد الإسلامية سرى تطبيق هذا المفهوم الجديد على الحياة بإخراج موارد كثيرة من باب الأحوال الشخصية والمدنية من حظيرة الدين لأن يحكم بقوانين وضعية، فعلاقة النسب في تونس مثلاً لا تنظمها الشريعة الإسلامية وإنما ينظمها قانون وضعي، والطلاق والزواج في إيران إلى ما قبل الثورة كان ينظمها قانون وضعي ولا تنظمها الشريعة الإسلامية، ومن أجل ذلك وجدت قيود على الزواج يفترضها القانون ولا يوجد لها الشارع المقدس، بأن يدفع الرجل تأميناً معيناً من

المال يودع في البنوك لمصلحة الزوجة عندما يحصل سوء التفاهم، وكذلك رفع إيقاع الطلاق من يد الزوج ومن يد الزوجة وجعله في يد القاضي إن شاء طلق حتى ولو كان الزوجان يريدان الإبقاء على العلاقة الزوجية، وإن شاء لم يطلق حتى ولو كان الزوجان يصران على الفراق، وكذلك في تونس والمغرب ومصر وسائر البلاد الإسلامية، كثير من الأحوال الشخصية والأحوال المدنية أيضاً خرجت عن حظيرة تنظيم الشارع، بالإضافة إلى الموارد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الأخرى، هذا الذي حصل إنما كان مبنياً على تحريف مفهوم الدين من أنه لا علاقة للدين بالعمل الاجتماعي وأن الدين إنما يختص بالطقوس العبادية وبأحوال الموت، والسعي الحثيث لإبعاد سائر جوانب الحياة عن حظيرته وذلك عن طريق الفصل بين الدين والسياسة، وتحويل المجتمع إلى سلطتين، سلطة زمنية وسلطة دينية على نحو ما يجري في بلاد أوروبا، التيار الثاني أيضاً الذي وفد من الغرب وتدخل أيضاً في مفهوم الدين في البلاد الإسلامية هي المذاهب الاجتماعية التي نشأت في أوروبا نتيجة للثورة الصناعية، ولا شك أن المذاهب الاجتماعية التي نشأت في أوروبا نتيجة للثورة الصناعية، تنتظم أيضاً في قناتين، قناة المذاهب الفردية، وقناة مذاهب التضامن الاجتماعي، ونجد هنا أن دعاة المذهب الفردي قد ركزوا كثيراً أيضاً في أن يشرحوا للمسلمين بأن دينهم يتفق مع المذهب الرأسمالي في الاقتصاد والمذهب الديموقراطي الغربي، أو مذهب الديموقراطية السياسية في الاجتماع وذلك بالتركيز على ما يوجد في الشريعة الإسلامية من نصوص تبين فيها حقوق الفرد تجاه المجتمع، وإنما كان الدافع لهم هو أنهم يصرون على إظهار، أو على التركيز على الفرد على حساب المجتمع، ومحاولة قسر تلك النصوص حتى يتسنى صبغ الدين بالصبغة الرأسمالية، فمثلاً نأخذ الآية الكريمة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾¹، يحاول دعاة هذا المبدأ بأن يجعلوها أنه من كرامة الفرد في الإسلام ألا يكون مجبراً على الالتزام بسلوك معين، بل هو حر، وأنه عندما يطبق هذا السلوك أو ذلك، يجب أن يكون عن اقتناع، ولا يقسر على شيء من ذلك، فمثلاً زيد يشرب الخمر، مالي وله، إنه حر في ذلك، لأنه لم يقتنع حتى الآن بالإقلاع عنه،

¹ البقرة: من الآية 256

وأنه لا إكراه في الدين، ولا شك أن هذا المفهوم من الآية مفهوم خاطئ، فالآية إنما تتكلم في حرية الاعتقاد ولا تتكلم في حرية السلوك، بمعنى أن الإنسان إذا بلغ راشداً، فهو حر في أن يؤمن بالله أو لا يؤمن حسب قناعاته البرهانية، ولكنه إذا آمن بالله سبحانه ترتبت عليه أحكام المؤمنين، فالإنسان مثلاً حر في أن يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وآله ونبوة سائر الأنبياء عليهم السلام وكذلك سائر العقائد الإسلامية، أو أنه لا يؤمن، فهو لا يجبر على ذلك بحد السيف إذا لم يكن متولداً من مسلمين أبداً، كالمسيحي مثلاً أو اليهودي أو الوثني أو غير ذلك، وإنما يجب إقامة البرهان له، ولا يقسر على ذلك قسراً، ولا علاقة للآية بالسلوك العملي، فإذا رضي الإنسان، أي إنسان بهذا الدين وجب عليه أن يقوم بجميع مقتضيات هذا الدين في سلوكه العملي، وإذا لم يقم بهذا السلوك فهو منحرف، وتقام عليه الحدود، وتقام عليه التعزيرات، وحتى لو ولد من مسلمين، فالمفروض فيه أن يكون مسلماً ولذلك يُحدّ الخارج عن الدين حد الارتداد، ولا يعفيه قوله إنني لم أقتنع؛ لأن هذا إنما يأتي فيما إذا لم يكن متولداً عن مسلمين.

دعاة هذا المبدأ حاولوا تفسير حتى هذه الآية للاستفادة منها على إعطاء الحرية صبغة رأسمالية معينة حتى يتسنى لهم إقامة المؤسسات الرأسمالية المالية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وهم في ذلك يحاولون تبرير هذه العملية بطريقة علمية، فكتب كبير من دعاة هذا المبدأ يقول في كتابه الذي يسميه [العلم والديموقراطية والإسلام]، يقول هذا الكاتب "إن العلم لا يستطيع أن يبقى في مجال البحث عن الأمور الكلية معتمداً على الاستنباط الرياضي، ذلك أن مجال الاستنباط الرياضي، لا يصلح إلا للبحث عن الأمور الكلية، ولكن العلم إنما يعتني بالأمور الجزئية التي لا يمكن التوصل إليها إلا عن طريق التجربة وطريق الاستقراء، والعلم إنما يركز على الأمور الجزئية ولا يركز على الأمور الكلية"، وبعد أن ينتهي من إثبات هذه المقدمة، ينتقل أيضاً ليقرر بأن الدين الحق هو الذي يعتني بالفرد وليس بالمجتمع، ذلك أن المبدأ الذي يعتني بالمجتمع ولا يهتم بالفرد إنما هو مبدأ لا يعتمد العلم أسلوباً وطريقاً في الحياة، ثم يخلص إلى القول "والإسلام لما كان ديناً

يعتمد العلم ولا يعتمد الاستنباط لذلك نراه يركز على الفرد، ويحاول دائماً أن يوجد الروح الخلاقة المبدعة عند الفرد عن طريق إعطائه الحرية التامة، وعن طريق رفع قيمته"، والدعوى في أصلها وهو أن الإسلام يعطي الفرد الحرية والكرامة ويبعث فيه الروح الخلاقة هو أمر صحيح، ولكن بهذه الصورة التي يراد منها صبغ الإسلام بصبغة مذهب لم يتولد من الإسلام، وإنما هو مذهب اجتماعي معين، نشأ في بلاد أخرى، هو هدف مغرض، ذلك أن الإسلام لا يحاول أن يرفع الفرد على المجتمع، ولا يحاول أن يعطي الفرد قيمته على حساب المجتمع، وإنما هو دائماً يوازن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، ويضع الحدود الكفيلة بحماية كلا المصلحتين، القناة الثانية التي حاولت أيضاً أن تصبغ مفهوم الدين عند الأمة الإسلامية بمفهوم غربي هم دعاة الاشتراكية، أو كما نسميهم دعاة مذاهب التضامن الاجتماعي، هؤلاء أيضاً عكسوا المفهوم على أولئك، وادعوا أن الإسلام دين عقلي وليس ديناً يعتمد على خوارق الطبيعة والمعجزات كما كان الأمر في الأديان السابقة من اليهودية والمسيحية، فالدين الإسلامي جاء بعد تطور البشرية، ومن أجل ذلك اعتمد في ثبوت نفسه وفي أصلحيته وجدارته على العقل، ولم يعتمد على المعجزات وخوارق الطبيعة، وطالما نادى القرآن على لسان الأنبياء، «أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ»، «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ»¹، «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ»²، فهو إذن لم يثبت للأنبياء قوة المعجزة ولا خرق الطبيعة، وإنما اعتمد في اثبات الدين على التدليل العقلي، والغريب العجيب أن كاتباً كبيراً من دعاة الاشتراكية أراد أن يدلل على ذلك في كتابه بحديث في أصله مختلق، فزاده هو اختلاقاً، يقول في كتابه "ولقد حدث مرة أن مات ولد للنبي في مكة، فصادف ذلك اليوم يوم كسوف الشمس، فخاف الوثنيون من هذه الظاهرة وظنوا أنها خارقة طبيعية، وأن محمداً سوف يخسف بهم، فسارعوا ليؤمنوا بسببها، ولكن الجواب جاء حاسماً من محمد، إن الشمس لم تتكسف معجزة وخرقاً، وإنما هي ظاهرة طبيعية، وأنه يجب أن لا تسلموا إلا عن طريق العقل" هكذا يكتب بكل صلافة مع أنه لو راجع كتب الحديث التي روت هذه الرواية، لوجد أن هذه الرواية إنما وردت في المدينة، على

¹ الكهف: من الآية 110
² آل عمران: من الآية 144

الرغم من أن هذه الرواية أصلها غير صحيح بالمرّة، ولكن الذين وضعوا هذه الرواية وضعوها على أساس أن الحادثة حصلت يوم وفاة إبراهيم عليه السلام، وأن ذلك كان بالمدينة وليس في مكة حتى يتراكم الوثنيون للإسلام بناء عليها، هذا التيار أول عمل عمله هو محاولة تحويل الإسلام إلى مبدأ فلسفي بدل أن يكون ديناً سماوياً، فنفي الخوارق والمعجزات في إثبات النبوة وهو في حقيقته إنما يقصد به تحويل الدين الإسلامي إلى مذهب فلسفي كسائر المذاهب الفلسفية التي يصح أن يؤخذ به وألا يؤخذ به، ويبقى الناس أحراراً في ذلك، ثم يمضي هذا الكاتب والذي يسمى [همايون كبير] في استدلالاته على أن الإسلام لم يجعل قيمة للفرد مطلقاً، ولا يركز أيضاً على الاستدلال الجزئي وإنما على الاستدلال الكلي، ومن أجل ذلك رأى بأن الحياة الحرة الكريمة التي يجب أن يعيشها المجتمع ويتساووا فيها في الديمقراطية الشعبية لا يمكن أن تكون إلا بعد إزالة الفوارق بين الطبقات، حتى ينتهي صراع الطبقات، ومن أجل ذلك ركز على توزيع التركات في نظام الإرث وعلى الزكاة في أرباح الكسب، وكأن هذا الكاتب يريد أن يوحي بأن الإسلام هو ذاته المذهب الاشتراكي الذي يدعو إليه، ولا أريد هنا أن أشرح كل أبعاد نظريته وهي تقع في كتاب ضخم، هذه تيارات جاءت لتحريف مفهوم الدين وإعطائه صبغات معينة، فتارة يكون الدين عندهم تماماً مذهباً رأسمالياً في الاقتصاد والأخلاق والاجتماع، وتارة أخرى يصير مذهباً اشتراكياً قائماً على الديمقراطية الاجتماعية، وأنه لا قيمة للديموقراطية السياسية ما لم يتحقق تكافؤ بين فئات المجتمع، وعندئذ فالمراد هنا إنما هو الديمقراطية الاجتماعية، والتيار الثالث طبعاً هو التيار الفلسفي الذي حاول أن يشكك في الأسس الإيمانية التي يرتكز عليها مفهوم الدين عند المسلمين، فمحاولة زعزعة العقائد في أذهان المسلمين والتشكيك مثلاً في وجود الله سبحانه، أو التشكيك في عصمة الأنبياء، أو التشكيك في كون القرآن كتاباً سماوياً، وأنه لم يكن من وضع بشر، أو أن الدين كان مرحلة من مراحل النمو والتطور البشري، وأنها قد انتهت، كل ذلك إنما كان لتحريف مفهوم الدين في أذهان المسلمين، وإبعاده عن الحياة العملية للأمة، حتى يتسنى للمبادئ الوافدة

والأفكار الأخرى التي تخدم الاستغلال الأجنبي من أن تتمكن من إقامة مؤسساتها المالية والاجتماعية والسياسية في ربوع المسلمين.

ومن المفاهيم التي حُرِّفت أيضاً، مفهوم المساواة في القرآن الكريم، وهذا المفهوم أيضاً حُرِّفَ عن طريق المذهبين، مذهب الفرد والمذهب الاجتماعي، فالذين كانوا ينادون بالحرية السياسية للفرد، يقولون ما هي قيمة الإنسان أن يعيش في مجتمع لا يشارك في قراره أو لا يشارك في سير أموره وتسيير دفته، وما قيمة المال بالنسبة إليه أو شعب البطن، إذا كان فاقداً لهذه الحرية، وهم يرون أن الإسلام قد أعطى للفرد الحرية في وضع القرارات وفي صياغتها وفي عملها، وربما ضربوا مثلاً بأمور حدثت في التاريخ الإسلامي كالبيعة مثلاً، ويرى هؤلاء بأن المسلمين بدفع من دينهم، تركوا نبيهم ملقى لم يغسل، وسارعوا إلى صنع القرار للقيادة العليا في المجتمع، وكذلك يؤخذ من مثال الشورى دليلاً على تثبيت هذا القرار، بينما لو تفحصنا كتب الكتاب من الجهة الأخرى لوجدناهم أيضاً يحاولون أن يساهموا في تحريف مفهوم المساواة في الإسلام، فأولئك أيضاً يقولون ماذا يصنع الإنسان في حرية لا يكون فيها متكافئاً مع غيره في القوة الاقتصادية وفي القيمة الاجتماعية، وينفون عن الإسلام أيضاً أنه يرضى بتلك الحرية الفردية في دنيا السياسة أو دنيا الاجتماع، بل يرون بأن المجتمع في حد ذاته هو الذي يستطيع أن يحقق صلاحية الفرد، ولا شك أن الإشكال الكبير على الديمقراطية الغربية لا بد أن يورد في مثل هذه الكتب وهو أن صوت الفرد لا أثر له، وإنما أثره بانضمام أصوات أخرى وعندئذ تفقد الديمقراطية معناها؛ لأن الفرد يعود خاضعاً لرأي الأغلبية، فإذا لا قيمة مطلقاً للحرية الفردية في السياسة، وإنما القيمة كل القيمة في الديمقراطية التي يتولاها المجتمع عن طريق مؤسساته وقياداته، ولا شك أن كلا المفهومين خطأ، فالإسلام في هذه الناحية لا يذهب هذا المنحى، ولا يميل إلى ذلك المنحى، ولا شك أن الفرد في ضمن قيادة حكيمة يكون راضياً بالعمل الذي يقوم به، يكون عاملاً خلاقاً منتجاً، ومشاركاً في تنفيذ القرار، وموحياً للقيادة بنوعية القرار الذي ينبغي أن تتخذه، فليس هناك ترجيح لجانب الفرد على جانب المجتمع، ولا ترجيح لجانب المجتمع على حساب الفرد، وأن

المساواة إنما هي مساواة في الحقوق والواجبات، فجميع الناس سواسية أمام الله، وأمام الشريعة، ولا قيمة مطلقاً للفرد في هذا الدين بسبب العامل الاقتصادي أو بسبب النسب أو بسبب غيره من الأسباب الدنيوية، وإنما القيمة للفرد في هذا الدين إنما هي بالتقوى وبالطاعة وبالانقياد لله والإخلاص له والعمل له، والعمل من أجله ومن أجل عبادته، ولم يقصد الإسلام في هذه المساواة أن تكون مساواة بين الأفراد في جميع الأشياء، إذ لا يمكن تحقيق ذلك حتى في البلاد التي تحكمها المذاهب الفرديّة، كما أن الإسلام وهو يرجح المصلحة العامة في غالب الأحيان على المصالح الخاصة التي تكون للأفراد، وذلك لأن هذه المصالح الخاصة لا يمكن أن تكفل، ولا يمكن أن تحقق وأن تحمي وتصلح إلا عن طريق المصلحة العامة، وأنه لا بد من التضحية بالمصلحة الخاصة إذا كان لا يمكن صيانة المصلحة العامة إلا بالتضحية بها، وأيضاً لا يميل إلى ترجيح جانب المجتمع على جانب الفرد، بحيث يجعله قنأً وخادماً للمجتمع دون أن يحقق ذاتيته، ذلك لأن الإنسان -أي إنسان- هو في حقيقته نسخة خاصة من جهة، ونسخة عامة مشتركة مع غيرها من النسخ في جهة أخرى، والإنسان لا يستطيع بحكم فطرته إلا أن يعيش متعاوناً مع غيره في إيجاد القوت والملبس والمسكن والأمن وغير ذلك من احتياجات الحياة، ولكنه في نفس الوقت يملك أحاسيس وأفكاراً وشعوراً ينفرد به عن غيره، وحتى لو وجد شعور عام بين أفراد كثيرة، كشعور الفرح أو كالشعور بالحزن وكالشعور بالرضى وكالشعور بالغضب فإن كل فرد من هؤلاء له لونه الخاص بالنسبة إلى ذلك الشعور العام، وله طعمه الخاص عنده، فالإنسان إذن كما أنه لا يتمكن إلا أن يعيش ضمن مجتمع، فكذلك له ذاتيته الخاصة، وإن المبدأ الذي يقوم على أساس التضحية بمصالح المجتمع أو بمصالح هذه الذاتية، هو ليس بمبدأ عادل في تحقيق العدالة الاجتماعية أو تحقيق سائر مناحي الحياة.

بقي أن أعود على بدء في الكلام عن دور العمل الإسلامي وقد تكلمت قليلاً عنه في الليلة الماضية، ما هو مفهوم معنى العمل، وما هو الفرق بينه وبين النظر، يعني ما هو الفارق المائز بين الفكر والعمل، ولا شك أن الإجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر السهل، ولنضرب مثلاً أن

اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو عشرة يتناقشون في مسألة ما من المسائل الاجتماعية، فمثل هذا النقاش لا نسميه عملاً، وإنما هو مجرد تفكير، لكن خطبة تلقى على عشرة آلاف شخص فتثير حماسهم يسمى عملاً، نعم لو جرى هذا النقاش في اتحاد طلبة أو جمعية أو في قاعة كبيرة، فهو أمر متوسط بين العمل وبين الفكر، هكذا حاول بعضهم أن يميز بين الفكر وبين العمل، والواقع أن هذا التمييز عليه مآخذ كثيرة، بعضهم يدعو أيضاً إلى عدم التفرقة بين الفكر وبين العمل، والحقيقة أنه لا يمكن أن نفهم المائز بين ما هو فكر وبين ما هو عمل إلا إذا قلنا بأن الأمور النظرية هي أمور فكرية وأنه في حالة تطبيقها على الحياة والسلوك يسمى ذلك عملاً، فمفهوم العمل إذاً هو تطبيق النظرية على السلوك وعلى السير والجري العملي، إذا أخذنا ذلك وجعلناه أساساً وأردنا بناء عليه أن نفهم طبيعة العمل الإسلامي وما يتطلبه من حيث الغايات والوسائل، وقد قلنا في ليلة سابقة إن بعض الناس ينادي بعدم الاعتناء بالوسيلة وإنما المهم هو تحقيق الغاية، وهذا في نظرنا، أو في نظر الكثير طريق مغلوط، خاصة في العمل الاجتماعي، ولا أريد هنا أن أتكلم عليه من الناحية الشرعية، فلا شك أن الوسيلة إذا كانت حراماً، حتى لو كانت الغاية واجبة، تتقلب بالعنوان الثانوي إلى غاية محرمة، لأنه لا يطاع الله من حيث يعصى، وإنما سأتكلم عليها أيضاً أو على خطئها من الناحية الاجتماعية، ذلك أن العمل الاجتماعي يختلف تماماً عن سائر الأعمال، والغايات الاجتماعية التي يراد تحقيقها ليست كذلك في مجال الغايات المادية والعلمية الأخرى، فنضرب المثال السابق الذي ضربناه من أن هدفنا في الوقت الحاضر أن نقيم مجتمعاً إسلامياً، ولذلك لا يجب أن نركز تركيزاً تاماً على التربية الروحية والفكرية والسلوكية للأفراد، وأنا يجوز لنا أن نتجاوز ذلك من أجل تحقيق هذا المجتمع، هذا المنطق مغلوط من الوجهة الاجتماعية، ذلك أن هؤلاء الأفراد الذين نريد أن نكون بهم المجتمع هم في الحقيقة هم المادة الاجتماعية، وأن الصورة الإسلامية التي نريد أن نعطيها للمجتمع سيكونون هم ضمن إطارها، وفرق بعيد بين الصورة التي تنطبق على الخشب بعد تكوينه كرسيّاً أو طاولةً، وبين الصورة التي سوف يتخذها المجتمع، فالخشب أو الحديد أو أي مادة أخرى، هي مواد جامدة لا

تستطيع أن تؤثر في الصورة بعد تركيبها به، بخلاف المجتمع، فالمجتمع تتكون مادته من البشر، من الناس، والناس ليسوا مادة جامدة، وإنما هي مادة متحركة، مادة متفاعلة، فعندئذ إذا لم تكن هذه المادة متجانسة مع هيئة المجتمع فلا بد أن هذه المادة بتفاعلها الذي لا يتلاءم مع تلك الصورة والهيئة الاجتماعية أن تفجر تلك الصورة في يوم ما، وهذا ما حدث في سالف الأيام، وهذا هو السر الذي أوصلنا على ما نحن عليه اليوم، لا بأس أن أضرب مثلاً طويئياً، لو أقيم مجتمع شيوعي، على أنقاض مجتمع رأس مالي، وأشرف القوام عليه ولنفرضها الدولة ولو كان ذلك ينافي المفهوم الشيوعي، لأن الشيوعية معناها لا توجد دولة، أشرفت الدولة عليه بالحديد والنار، وبكل أنواع القسر، إلا أن الأفراد وهم الغالبية، وغالبيتهم العظمى لا تعتنق هذه الفكرة ولا تحافظ عليها ولا تمتثلها في سلوكها، سوف تعمل للتخلص من هذا الإطار الذي يتنافى مع نفسياتها، إنما في يوم أو في سنة أو في مائة سنة، وعندئذ لا يعود الاستقرار والهدوء مخيماً على ذلك المجتمع، وسبب ذلك هو العلاقة العنادية بين هيئة المجتمع وصورته، وبين مادة ذلك المجتمع، بخلاف ما لو فرضنا أن شعباً ما أو فئة ما اقتنعت بفكرة ولتكن الشيوعية، وأقامت مجتمعها على أساس هذا الاقتناع، فإنه عندئذ لا يكون هناك تفاعل اجتماعي مضاد لتلك الصورة الاجتماعية، وكذلك لو أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً صحيحاً، بمادة بشرية ليست إسلامية صحيحة، وإنما هي تحمل نفسية مزدوجة بين الإيمان بالإسلام كفكر، والتشرب بالانحراف السلوكي، أي مخالفة الإسلام؛ مما يسمى في مفهوم الفقهاء الفسق، فلا شك أن هذا الانحراف في السلوك والذي سيكون التفاعل الاجتماعي بين فئات المجتمع وبين أفراده مبنياً عليه، أو على الأقل ستكون هذه الأمور أو هذا الانحراف دخليلاً في التفاعل ولو على نحو القسر، لا بد أن يؤثر في الهيئة الاجتماعية، فإذا تضخم هذا التفاعل الاجتماعي كم سوف يتمطط الغطاء الذي يحمي الصورة؟ سيتمطط إلى حد محدود ثم ينفق، وعندئذ تزول الهيئة الاجتماعية وهذا ما حصل، فالمسلمون الأوائل، لم يكونوا جميعاً مقتنعين بالإسلام، ولذلك بقي الانحراف السلوكي قائماً بينهم، وأخذت الصورة تتمطط، وأخذت الصورة في كل يوم ترق وترق وترق، حتى زالت الصورة الظاهرية للمجتمع الإسلامي،

وعادت مجتمعاً لا يمكن إعطاؤه لونا معيناً، أو صبغة معينة، أو صفة معينة أو اسماً معيناً، لا نستطيع أن نقول عن مجتمعنا في الوقت الحاضر إنه مجتمع إسلامي، ولا نستطيع أيضاً أن نقول عنه إنه مجتمع كافر، وكذلك لا نستطيع أن نصفه بأنه أي صورة اجتماعية معينة ليست له، السر في ذلك هو الازدواجية الموجودة في المادة التي يتكون منها هذا المجتمع، فليس المهم إذا هو تكوين الصورة الاجتماعية، حتى نعتبرها غاية الغايات، أننا نسعى لإقامتها حتى ولو كانت بمادة لا تلائمها مطلقاً، لا نستطيع أن نقيم مثلاً سريراً من القطن ونقول سوف أنام عليه، أو نقيم سريراً من الخوص ونقول سوف أنيم عليه رجلاً وزنه 60 كيلو، لا يمكن ذلك، لأنه لا يتحمل مثل هذا الضغط، كذلك الصورة الاجتماعية تتحمل ضغطاً إلى حد معين، فإذا زاد ذلك الضغط الناتج من تفاعل المادة الاجتماعية على الصورة، فلا بد أن تنكسر الصورة ولا بد أن تزول، فلا يمكن إذاً أن يكون العمل جارياً وأن يكون النظر هو إقامة مجتمع إسلامي بغض النظر عن المادة التي سوف تكونه، لأننا في الحقيقة نقض غايتنا، إن الكلام عن الغاية، يستلزم الكلام عن الوسيلة، كما أن أي شيء يمس الوسيلة، يمس الغاية في ذات الوقت، فالغاية والوسيلة متلازمتان، ويخطئ ثم يخطئ ثم يخطئ من يقول إنني سوف أقيم مجتمعاً علمياً يتكون من جهلة، لا بد إذاً للعمل أن يجري على أساس الملء الروحي والملء الخلقي والملء الفكري بالإسلام، فإذا وجدت المادة الإسلامية الحقيقية فسوف يتحقق المجتمع الإسلامي الحقيقي عن طريق لزوم النتيجة للمقدمات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سؤال: فضيلة الشيخ لو سمحتم أن تبيينوا لنا مفهوم الحرية في كل من الإسلام والرأسمالية والاشتراكية؟

جواب: أعتقد بأن شرح مفهوم الحرية في هذه المبادئ الثلاثة يستلزم وقتاً طويلاً، وإن كان المقصود بالإيجاز فأعتقد أنه مر شرح ذلك أو شرح بعضه في أثناء المحاضرة، والخلاصة أن الحرية التي تدعو إليها الرأسمالية تتباين عن الحرية التي يدعو إليها الإسلام وذلك لأن الرأسمالية

إنما تريد حرية الفرد في السلوك والاعتقاد وفي الكلام بغض النظر عن المبدأ الذي يقوم عليه المجتمع؛ ولذلك يقول بعضهم إن من حسنات الديمقراطية أن صدرها يتسع لمعارضيتها ما لم يصل إلى حد الهدم، فالمبدأ الفردي إنما يدعو لحرية الفرد وتخليصه من القيود والضوابط الدينية والاجتماعية والخلقية وغيرها، وهو يرى أن النظرة الخلقية والنظرة الدينية والمصلحة الاجتماعية إنما تحمى وتسان عن طريق إعطاء هذه الأفراد الحرية، بينما في المجتمعات الاشتراكية أو في المذاهب الاشتراكية يرون بأن الحرية هنا هي فقط حرية المجتمع، وأما الفرد فليست له حرية؛ لا في الاعتقاد ولا في السلوك، وخصوصاً في السلوك الاقتصادي والإنتاج، ولا حتى في الاعتقاد الديني لأنه لا يجوز له أن يعبر عما يخالف النظرية العامة لذلك المجتمع، ولا يخالف أيضاً النواحي العقائدية التي تنبني عليها النظرية الاجتماعية، وأن الحرية هي حرية للمجتمع بأسره ممثلة في قياداته، وأما هو فليس له حرية، أما الفرد بحد ذاته فليس له حرية إلا في حدود الاختيارات الضيقة كاختيار نوع المهنة أو نوع العمل هذا إذا لم تقتض أصلاً مصلحة المجتمع بتوجيهه لاختيار مهنة معينة أو لإنتاج سلعة معينة، وأما لو اقتضت المصلحة بأن يوجه الفرد حتى بالنسبة إلى ذلك فإنه يفقد حرية.

سؤال: لقد انتشر الآن بين أفراد المجتمع ويسبب من يسمون أنفسهم بالعاملين للإسلام أن العمل ليس كما ذكرتم وأنه لابد أن يتعرض الفرد لجميع أنواع المعارضة كالسجن والتشريد وما شاكل ذلك، وإذا لم يقترن العمل بذلك فليس عملاً إسلامياً. فما هو رأي فضيلتكم في ذلك؟

سؤال مشابه أيضاً: هناك من يرى أن إصلاح المجتمع يجب أن يكون عن طريق التغيير الجذري، وهناك من يرى أن ذلك يكون عن طريق الترميمات الإصلاحية لبعض الأعمال المنحرفة. فأين يجد الإسلام مكانه من هذا الأمر؟

جواب: لابد أن يكون العمل متجهاً إلى التغيير الجذري وهو بناء الأفراد على أسس إسلامية وملء نفسياتهم وعقلياتهم روحياً وعقائدياً، وتدريبهم أيضاً على السلوك السوي، وانتشالهم من

مهاوي الإنزلاقات التي يتعرضون لها، هذا بالنسبة للشق الخاص بالسؤال الثاني. أما بالنسبة للشق الأول فأنا لا أريد أن أتعرض إلى فئة دون أخرى ولكني أقول إن العمل الإسلامي يجب أن يكون وأن يقوم على أساس شرعي صحيح، وأن يكون في حدود الموازين الشرعية وفي أطرها، وفي إطار الإسلام تماماً، وأن يكون نابعاً من الحكمة والتبصر في الدين، فإذا جرى العمل على أساس ذلك وتعرض الإنسان بسبب جريه الإسلامي على أساس من ذلك سواء لسجن أو تشريد أو ضرب فإن عليه أن يتحملة صابراً، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يعتبر عاملاً إلا إذا سجن أو قتل أو غير ذلك، هذا شيء غلط، وأيضاً التطرف والعمل بدون بصيرة أو حكمة والخروج على الموازين الشرعية كل ذلك يسبب أضراراً للمسلم حتى في دينه وعقيدته، وليس مطلوباً منه أن يخرج عن الموازين الشرعية حتى يتحمل الضرر ويقال عنه أنه مجاهد؛ لأنه عندئذ إنما يعمل من أجل السمعة وهذا ليس عملاً إسلامياً.

أسئلة ثلاثة تنفق في الهدف:

الأول: ما هي الأساليب التي يجب اتباعها لدعم النتيجة المنسجمة مع المقدمات في المجتمع الإسلامي؟

الثاني: ما هي الحلول التي تراها ليكون المجتمع الإسلامي متكاملًا في جميع الجوانب؟

الثالث: لقد ذكرتم فضيلتكم أنه لا توجد الآن في مجتمعنا الإسلامي صورة موحدة حيث توجد الازدواجية فكيف يمكن إرشاد المجتمع؟ وبأي وسيلة؟

جواب: الوسيلة في ذلك هو التنقيف العام والتنقيف الخاص، فلا بد أن يتنقف الإنسان المسلم ثقافة إسلامية، وعندما نقول ثقافة نستعملها بمعنيين: معناها الفكري ومعناها السلوكي، عليه أن يتنقف فكره إسلامياً أي يهذه إسلامياً لتكون نظرته إلى الحياة نظرة إسلامية، وعليه أيضاً أن يتنقف سلوكه أي يهذه بتدريب نفسه على العمل الإسلامي، وكذلك أن يقوم هو بمساعدة غيره على هذا الأساس، فإذا استطعنا أن ننقف المجتمع وأن نملاه بالثقافة الإسلامية فعندئذ سوف يتحقق وجود

المجتمع الإسلامي الذي يأخذ صبغة إسلامية، وهذا هو السبيل إلى العمل الإسلامي في الوقت الحاضر.

سؤال: تقولون إن المجتمع الإسلامي يجب أن يقوم على أسس فكرية وعاطفية، ولكن ما رأيكم فيمن يدعو إلى إثارة العاطفة الدينية لإقامة المجتمع الإسلامي وبعد ذلك يبدأ دور نشر الفكر الإسلامي؟

جواب: الإيمان الذي يراد من المسلم ليس إيماناً عقلياً كإيمان الفلاسفة، والإيمان الذي يراد من المسلم يجب أن لا يكون مبنياً على العاطفة فيكون كالشمعة الضئيلة في مهب الريح ما أسرع أن تنطفئ؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف قوماً فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَبَتْهُ قَلْبًا عَلَىٰ وَجْهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾¹، التطرف العاطفي دون أن يكون ذلك بدفع من عقيدة راسخة هو تماماً كالذبالة المشعة في الصحراء ما أسرع أن تطفئها الرياح الهوج العاصفة؛ لأن العاطفة تتغير دائماً بالأفعال الصادرة عن الإنسان وليس لها ثبوت، إنما تمليها الميول وتمليها النزوات وغير ذلك، أما الأمور المبنية على التبصر والتعقل والحكمة مع الاعتقاد الراسخ فهي التي تثبت ولا تزول وتتحمل ما يرد عليها من فتنة وغير فتنة، والمطلوب من المسلم أن يكون كالجبال الرواسي، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت عقيدته مألثة له عقلاً وعاطفة، على أن تكون عاطفته تبعاً لعقله لا أن يكون عقله تبعاً لعاطفته.

سؤال: هل شعار الدين لله والوطن للجميع شعار يتنافى والتعاليم الإسلامية؟ نرجوا التوضيح.

جواب: بينا ذلك في المحاضرة، وقلنا إنه مفهوم غريب عن الدين وأن هذا المفهوم نشأ من صراع الدعاة إلى قيام الحركات الجديدة في أوروبا مع الكنيسة ومن أجل ذلك وُجد مفهوم الدين لله والوطن للجميع حتى يحددوا سلطة الكنيسة من التدخل في أمورهم العامة، وكانوا قد اعتمدوا على

¹ الحج: من الآية 11

فقرة موجودة في أحد الأناجيل الأربعة: [اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله]، فمعناه أنهم استفادوا من هذه الفقرة بأن الإنجيل ذاته يقسم الأمور إلى سلطتين زمنية ودينية، وأن السلطة الزمنية يختص بها القيصر الذي هو عبارة عن الحاكم، وأن السلطة الدينية يختص بها رجال الدين، وهذا المفهوم بطبيعة الحال لا يتفق ومفهوم الدين في الإسلام فإن الله سبحانه وتعالى هو مالك الأرض والسماء وهو الذي أنزل الدين، فليس هناك وطن للإنسان ودين لله، وليس هناك ناحية من نواحي الحياة لم ينظمها الدين حتى نحتاج أن نقول: الدين لله والوطن للجميع، ثم ما هو مفهوم الوطن؟ مفهوم الوطن مفهوم غامض يمكن أن يُفسر بأشكال مختلفة، ماذا لو فسرنا الوطن بمعنى الجنة؟ وقلنا قوله صلى الله عليه وآله: "حب الأوطان من الإيمان يعني حب الجنة من الإيمان"، - فيندفع الإنسان للعمل - هذا تفسير صحيح أيضاً للوطن، الوطن لا يجب أن يكون هو الإقليم أو هو جهة ما من الأرض، بل أي جهة من الأرض يمكن أن تُسمى وطناً للإنسان، سواءً كان فيها أو لا يكون فيها، فأصلاً لفظ الوطن هو مفهوم غامض فكيف يُمكن أن نُدخله قسماً للدين مع أن مفهوم الدين مفهوم واضح في أذهان المسلمين.

سؤال: ما رأيك في من يريد من الإسلام العقائد، ومن الرأسمالية الديمقراطية، ومن الشيوعية الجانب الاقتصادي؟

جواب: ﴿أَقْتُمُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ﴾¹، هذا مثله كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ونحن نريد من المسلم أن يؤمن بالكتاب كله وأن يؤمن بالإسلام كله، وإلا فهو ليس بإسلامي، بل إذا أخذ هذه الدعوى عن اعتقاد وحاول نشرها بين الناس فنعتبره ضالاً ومُضلاً.

سؤال: معظم البلدان الإسلامية في الوقت الحاضر تفصل الدين عن الدولة، فما دور المسلمين تجاه ذلك في نظر الإسلام؟

¹ البقرة: من الآية 85

جواب: معظم البلدان الإسلامية لا تزال تسيطر عليها مبادئ وافدة من خارج الحدود الإسلامية، والرجال القوامون في البلاد الإسلامية كلهم أو على الأقل 99% منهم قد تتفقوا ثقافة غير إسلامية، وهم يعملون ويُدبرون أعمالهم من خلال هذه الثقافة غير الإسلامية التي تشبَعوا بها في الجامعات الغربية، سواء التي في بلاد الغرب أو الجامعات الغربية التي أُنشئت في بلاد المسلمين وصُرِفَ عليها من أموال المسلمين، وواجب المسلمين هو تنقيف المجتمع وتنقيف الشعب وتنقيف أنفسهم بأن هذه الفكرة خطأ، وأن يدرسوا الإسلام ويعرفوا ما هو، وأن يكون لديهم منقون وقادة يفهمون الإسلام ويقدرّون على تفهيمه.

سؤال: هل الماركسية تنفي وجود الدولة مطلقاً؟ وهل هنالك فرق بين الدولة والحكومة؟

جواب: طبعاً هذا السؤال لا يدخل في اختصاص المحاضرة لأن المحاضرة عن الإسلام، ولكن لا مانع أن أُجيب السائل على ذلك، وهو أن الماركسية قسّمت التطور الاجتماعي إلى مراحل، يبدأ بصورة الملكية المشاعة ثم بملكية القبيلة ثم بالملكية الفردية وتتطور الملكية الفردية من المرحلة الزراعية البدائية إلى مرحلة الإقطاع إلى المرحلة التجارية ثم المرحلة الرأسمالية، وبعد المرحلة الرأسمالية تأتي مرحلة الاشتراكية وبعد المرحلة الاشتراكية سوف تأتي كما يقولون المرحلة الشيوعية، وفي المرحلة الشيوعية يستغني البشر عن وجود دولة أو حكومة تدير شؤونهم، هذا هو شرح المراحل التي يراها الماركسيون.

سؤال: قلت إن المناقشة الاجتماعية لم تعد عملاً، حتى لو كانت المناقشة في إقناع شخص أو أكثر في قضية إسلامية؟

جواب: لم أقل ذلك على أساس أن يكون رأياً مُمثلاً وإنما ذكرته في معرض الكلام نظراً لأن هناك من حاول أن يفرق بين النظر والعمل بذلك، وقلت إن هذا لا يخلو من مأخذ كثيرة، وأن الفرق بين

الفكر وبين العمل هو الفرق بين ما هو نظري وما هو عملي، ولم أقل أنه إذا كانت المناقشة في الدين من أجل الوصول إلى معرفة الحق ليست عملاً، بل هي من أجل الأعمال.

سؤال: هل يصح أن يطلق على الإسلام بأنه اشتراكي بغض النظر عن المذهب الاشتراكي الموجود حالياً؟

جواب: كلا، لأنك لا تملك الإسلام حتى تسميه بما تشاء، الله سبحانه هو الذي أنزل الدين وسماه إسلاماً، ومن اخترع فلسفةً له أن يسمي فلسفته بما يشاء، ولكنك لا تستطيع أن تسمي الاشتراكية مسيحية، بل لا يرضى الاشتراكيون أن تقول ذلك، ولا يرضى المسيحيون، وكذلك لا يرضى الإسلام ولا المسلمون بأن تسمي الإسلام اشتراكية، وإن اتفق مع الاشتراكية في بعض المسائل، كما لا نرضى أن تسميه رأسمالية وإن اتفق مع الرأسمالية في بعض المسائل، ذلك أنه يتوصل إلى هذه النتيجة من غير نظر أو التفات أو اهتمام بما تقوله الاشتراكية أو الرأسمالية، وإنما هو مبدأ معين بذاته، بل يعتبر أن تسميته بذلك من باب التحريف أيضاً ومحاولة لتمرير أفكار غير إسلامية.

سؤال: من المفاهيم التي حرّفت مفهوم [القيادة]، ويودي لو سلطتم قليلاً من الضوء على هذا التحريف.....

جواب: أعتقد أن مفهوم القيادة لم يحرف، وإنما حرّفت العلاقة بين القيادة والقاعدة، وهذا لو أردنا الكلام فيه لكان احتاج إلى محاضرة خاصة.

سؤال: لقد ذكرتم عن تكوين الفرد عقائدياً وروحياً، ولكن لم تذكروا عن تكوين الفرد من كل الجوانب ونضيف على ذلك ثورياً.....

سؤال: هل توجد للفرد حرية في الرأي العام؟

جواب: لا أستطيع فهم معنى كلمة الثورية إذا جردت بنفسها، وإنما الذي يهمني أن يكون الإنسان أو الفرد إسلامياً عاملاً للإسلام، سمّه إن شئت ثورياً أو [فورياً]، أو متراخياً أو متكاسلاً أو تقديمياً أو رجعياً، المهم أن يكون معتقفاً للدين عاملاً لأجله بقدر طاقته، فهذا أسميه إنساناً إسلامياً عاملاً سواء كان في نظر بعض الناس ثورياً أم لم يكن، أما لو كان متطرفاً يصرخ آناء الليل وأطراف النهار بالعمل له وهو لا يحاول العمل الجاد الحقيقي من بناء نفسه وبناء من يحوطونه على أساس من الإسلام فهذا مسلم غير رزين وغير عاقل.

سؤال: من هم جماعة أو مبدأ لا إكراه في الدين كما ذكرتم في المحاضرة؟

جواب: طبعاً هم أصحاب المذهب الفردي المعروفين حالياً بالرأسماليين.

سؤال: متى يرتبط الدين بالسياسة؟

جواب: لا توجد حدود فاصلة بين الدين والسياسة.

الفتنة (1) *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين،
والسلام عليكم أيها الأخوة المؤمنون جميعاً ورحمة الله وبركاته:
يكثر الشباب هذه الأيام من التساؤل عن فتن آخر الزمان وكيف يُهتدى في ظلماتها؟
وكيف ينجى من ربقتها إذا كانت جميع الأشياء متشابهة؟

إن المنهاج في النجاة من الفتن واحد، سواء كانت هي فتن آخر الزمان أو الفتن التي مرت
في الأزمان المتقدمة، فمنذ أن نزل آدم وإبليس وحواء على ظهر هذا الكوكب وبعضهم عدوٌ
لبعض أخذ إبليس يبث الفتن ويزرع المشكلات في وجه دولة آدم، وفي وجه النبوة التي تتمثل فيها،
والشبه التي تبتدئ وتسبب قيام الفتنة وتنتشر بعدها في الأفكار بسبب اضطرام الفتنة لا تختلف
في ذلك الزمان عن هذا الزمان . بتلبس الباطل بلباس الحق، وتلبس للرأي بلباس الحكم
الشرعي، وتلبس للهوى بلباس العقيدة الشرعية، والعقيدة الإلهية. وعندئذٍ إذا تطاول الزمان ربما
ينسى الحق ولا يوجد إلا حقٌ ديث فيه الباطل أو باطلٌ ديث فيه الحق، يقول أمير المؤمنين
صلوات الله وسلامه عليه: "ولو أنَّ الحقَّ خلصَ لما اختلفَ عليه اثنان، ولو أنَّ الباطلَ خلصَ لما
اتبعه اثنان، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان ويخرجان إلى الناس".

فالفتنة إذاً في الحقيقة ما هي إلا مزجٌ بين الحقِّ والباطل، وذلك أن إبليس وهو يعرف أنه
لا يستطيع أن يجرد كل الناس عن فطرتهم، لا بد له من حرف هذه الفطرة وتشبيه الأمر عليها،
ونضرب مثلاً بفتنة من الفتن في الأزمان السابقة، هي فتنة قوم موسى والعجل، فالسامري الذي
أخرج لهم العجل شخصٌ معروفٌ في المجتمع الإسرائيلي، وليس غريباً على بني إسرائيل، أخرج
لهم العجل، والعجل مصنوعٌ من ذهب، وصغيرهم وكبيرهم يعرف مادة الذهب، ويعرف أن هذا
العجل إنما هو من عملٍ إنساني، وغاية ما هناك أن له خواراً، أي أن له صوتاً، وقال لهم هذا

* في 5 رمضان 1417هـ المصادف 1997/1/14م بجامع جدحفص

إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه يعبدونه وهم يلمسونه بأيديهم ذهباً جامداً، وعندما نهاهم أو ذكرهم هارون قالوا له: لا، بل سنظل عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى وأنكروا كل فضلٍ لهارون، بل كادوا أن يقتلوه عندما قال لهم إن هذا مخلوقٌ مثلكم وليس رباً وليس إلهاً وليس خالقاً.

فتنة العرب وقد كانوا يتبعون الأنبياء ويتبعون إبراهيم وإسماعيل، وما هو إلا أن يذهب عمرو بن لُحَى إلى الشام بعد دخول الروم إليها فيجد الروم يزينون دمشق بالتمائيل فيعجبه أن تزين الكعبة بالتمائيل، فلماذا تكون دمشق مزينة ولا تكون الكعبة موضع القدس وموضع الطهارة مزينة؟ فاشترى تمثالاً ويبدو أنه كان على عجلٍ من أمره لم ينتظر النحات حتى يتمه فاشتراه قبل أن تتحت له اليدان وقبل أن توضع له العينان وذهب وعمل له يدين من الذهب واشترى ياقوتتين ووضعهما في التجويفين اللذين هما في مكان العين فجاء به ووضع على الكعبة معجباً بما صنع، وهو يظن أنه يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بذلك العمل، وكان نتيجة ذلك أن يتبارى سادة مكة وأثريائها وأولياؤها بشراء التماثيل يزرعونها على الصفا، وعلى المروة، وحول الكعبة، ويأتي العرب إلى مكة فينظرون شيئاً جديداً، إذاً فلماذا لا يكون لنا نصيبٌ في تزيين الكعبة، فتشترى كل قبيلة تمثالاً لتتصبه على الكعبة، ويدعون أنهم إنما يريدون أن يزينوا الكعبة، ولكن الذي حدث بعد ذلك هو أن الأحفاد قالوا إن هذه التماثيل هي تماثيل لآلهة آبائنا فسجدوا لها وعبدوها، وأصروا، وهم يلمسونها أحجاراً جامدةً لا تضر ولا تنفع ولا تدفع ولكنهم أصروا، واشتعلت الفتنة في بني إسماعيل وأتباع إبراهيم بحيث تحولوا من التوحيد إلى الشرك ولم يقبلوا نصيحة ناصح.

فالفتن دائماً تبدأ بشيء يعجب العامة، ويعجب الناس ثم يلبس ذلك الإعجاب بلباس الدين. فالأمم الغربية المعاصرة كانت أمماً مسيحية، ولا أقول إنها كانت على صواب وهي تتعبد على هذه الطريقة المحرفة من المسيحية؛ لأن الطريقة التي كانت موجودة وما تزال عند المسيحيين إنما هي طريقةٌ وضعيَّةٌ ابتدَعها رجلٌ اسمه بولس، وليست هي من المسيح عليه السلام، وليست هي من كتاب موسى عليه السلام، ولكن مع كل ذلك كان لهم تعلقٌ بالله، وكان لهم انتسابٌ إلى الله. فهم عندما كانوا يحكمون ما هو معروفٌ من رهبانهم ومن قساوستهم فهم يعتقدون أنَّهم يحكمون بما أنزل الله إلى الأنبياء، ولكن بسبب رغبة كثيرٍ من الناس وبالخصوص رجال الإقطاع وما تولد من

أموالٍ ضخمة عند بعض الناس بسبب الثورة الصناعية أصبح هؤلاء يطالبون بأن يكون لهم نصيبٌ في الحكم، وكيف يكون لهم نصيبٌ في الحكم والسلطة مقتسمةً بين فئتين، فئة الأباطرة من جهة، وفئة الكنسيين من جهةٍ ثانية، فلا بد إذاً من إيجاد وسيلة تساعدهم على الوصول إلى كراسي الحكم، فما هي هذه الوسيلة؟ هي أن تفصل بين الدين والدولة، وأن تفصل بين الدين والحياة الاجتماعية، فالدين ما هو إلا علاقةٌ بين الله والفرد، والإنسان حر في الطريقة التي يريد أن يتعبد بها لربه، وهو حر في أن يعبد الله، أولاً يعبد الله، يريد أن يؤمن بالله، أو لا يريد أن يؤمن بالله، هو حر في كل ذلك، ولكن علاقة الإنسان بالإنسان لا بد أن تنظم عن طريق قانون يرضى به هذا الإنسان وذلك الإنسان، لأنَّ التعايش في مجتمع هو عبارة عن تعاقد، أنتازل لك به عن كثيرٍ من حرياتك مقابل أن تحصل مني على أشياء، وهذا ما كانوا يسمونه بنظرية العقد الاجتماعي، ومن طريق نظرية العقد الاجتماعي تولدت أنظمة حكمٍ مختلفة كلها تسمى في الوقت الحاضر بالنظم الديمقراطية.

ولم يكن في ذلك الوقت من هدفٍ لها إلا أن يصل رجال المال ورجال الإقطاع إلى أن يكون لهم نفوذ في الحكم وأن لا يبقى هذا النفوذ خاصاً بالأباطرة ورجال الكنيسة، وهذه فتنةٌ من الفتن، ولكن لا يوجد عند رجال الكنيسة من مخرجٍ من هذه الفتنة، وذلك لأن الإنجيل الذي يعتمدونه ليس هو الإنجيل الحقيقي. فالإنجيل الذي يعتمدونه نفسه يقول: [أعط ما لله الله وما لقيصر لقيصر]. والمسيح بزعمهم في الإنجيل عندما سأله رجل عن العلاقة بين الله سبحانه وتعالى وعن العلاقة بين الدين والدنيا أخرج درهماً رومانياً وقال صورة من على هذا الدرهم؟ فقال له السائل: صورة قيصر. قال: إذاً أعط ما لقيصر لقيصر وما لله الله.

فإذا كان الإنجيل الذي يحمله أهل الكنيسة هو نفسه يفصل؛ أو يجعل هناك حيزاً ويجعل هناك حداً محدوداً تقف به حقوق الله وتبدأ منه حقوق القيصر، فإنه يكون كلام رجال المال والإقطاعيين في أنه لا بد من الفصل بين الدين وبين الحياة الاجتماعية كلاماً دينياً صحيحاً شرعياً لا غبار عليه، وأنَّ رجال الكنيسة الذين يعارضون هذا الكلام هم يعارضون الإنجيل ذاته. وهذه هي الفتنة، وليست الفتنة في أنهم يقولون لا نريد حكم الشرع وإنما نريد أن نضع الأحكام

لأنفسنا لأن هذا كلام صريح، ولكن تلبس هذا المطلب بأنه ناتج من نفس الشريعة، هذه هي مواضع الفتنة.

إن الفتن التي مرت بالمسلمين طيلة هذه السنين من حين وفاة النبي صلى الله عليه وآله - بل وحتى في حياته كانت تحصل هناك فتناً يقضى عليها في مهدها - ولكن اشتعلت الفتنة بعد وفاته صلى الله عليه وآله، ويكفي أن نذكر بأنه ترك ثلاثة أيام لم يأت الصحابة الكرام للصلاة عليه ودفنه، وكانوا مشغولين في التضارب والتهاresh على هذه الدنيا، هذه طبعاً أول الفتن بل هي أم الفتن.

وما تزال المشاكل التي يعيشها الإنسان المسلم المعاصر وانقسام الأمة الإسلامية إلى مذاهب مختلفة ناتج عن هذه الفتنة، فتنة المسارعة إلى التهاresh على التسلط على رقاب الأمة بحجة حماية الدين، وكأن النبي صلى الله عليه وآله ترك الأمة من دون حماية، وترك الشريعة من دون حام. وما تزال الأمة تحمل هذا الاعتقاد.

وتأتي الفتن، وفي كل جيل تمر الفتن. ففي إيران مثلاً مرت بهم فتنة المشروطة والمستبدة، فعدد الفقهاء الذين علقوا على المشانق بسببها يزيد على أربعمئة فقيه، بين الطرفين، بين أتباع المشروطة وأتباع المستبدة، وكل منهم يعتقد أنه إنما يحمي الإسلام، ويدافع عن الإسلام، ويدافع عن خط أهل البيت، ويحمي مذهب أهل البيت، وإنما أضرب مثلاً بإيران لأنهم شيعة مثلاً، ووقعوا في فتنة استمرت سنين كثيرة، وكان نتيجة الفتنة أن يتسلط على الجميع رجلٌ غير شيعي وهو رضا شاه، رجلٌ من الإسماعيلية الآخانية، يتسلط على إيران ويقتل الطرفين ويذل الطرفين، يذل أهل المستبدة ويذل أهل المشروطة. فهذه فتنة ألبست أيضاً بلباس الدين، وكتب فيها الفقهاء وكانت الأضاحي فيها كثيرٌ من الفقهاء.

ومن الفتن العامة التي مرت فتنة الشيوعية في العراق، وهي فتنة باسم الفلاح والعامل والمستضعف، وأنهم يطالبون بحقوق الفلاحين والعمال والمستضعفين، ولكن في نفس الوقت يقتلون علماء الدين، وفي نفس الوقت يقتلون الأبرياء، بل وحتى بقروا بطون الحوامل، وقتلوا الأطفال في

المهد. والنتيجة أن كثيراً من الناس ينضم للحزب الشيوعي أو الأحزاب الشيوعية المختلفة، ويسيرون في ركابها بحجة الدفاع عن العمال والفلاحين والمستضعفين. وكانت النتيجة أيضاً أن يأتي بعد ذلك حزب البعث الذي يحرق الأخضر واليابس، ويهلك الحرث والنسل بحجة إنقاذ البلاد من الشيوعية، وإرجاع هويتها العربية، وتطبيق العدالة الاجتماعية بما يسمى بالاشتراكية وليس الشيوعية؛ وينساق كثير من الناس أيضاً في هذه الفتنة، ولا يبقى بيت في العراق من أوله إلى آخره إلا وعلى الأقل فيه بعثي أو بعثيان يحملان أخبار أصحاب البيت إلى الحزب، ولا يبالي أن يشنق أخوه أو أن يقتل أو أن يعذب؛ لأنه يعتقد خارجاً على الهوية العربية، وأنه إما نصير للرجعية التي تريد أن تكون عقبةً في طريق تقدم المجتمع العربي ولحاقه بالركب العالمي الصاعد، وإما أنه سائر في ركاب الشيوعيين؛ فإذا لا يهم أن يضحى به وأن يقتل.

والفتنة الموجودة في مصر، وأول ما ابتدأت بفكرة الخوارج، ففكرة أهل التكفير والهجرة هي إحياء لفكرة الخوارج، وهي تكفير جميع حكام المسلمين واعتبار كل المجتمع كافراً ما لم يتبرأ من هؤلاء الحكام ويثور عليهم، وبالتالي لا مانع من حرق الأموال وإتلافها، وإتلاف الأنفس وإعمال كل شيء.

ولا أريد أن أمضي في سرد الفتن هنا وهناك، ولكنني أقول إن الفتنة التي شبت نيرانها في البحرين وما نزال نعيشها هي أيضاً فتنة حالكة يلبس فيها الباطل لباس الحق، ويظهر فيها المطالبة بالحكم الوضعي وكأنه مطالبة بتطبيق الإسلام والقرآن.

وفتن آخر الزمان القادمة لن تكون مختلفةً في جوهرها، حسب ما في الروايات عن هذه الفتن التي نعيشها وعاشها آباؤنا وأجدادنا، فالصرخة مثلاً، صرخة إبليس وصرخة جبرئيل، تشبه على الناس، فما هو المخرج؟ كل شيء تجده متشابهاً، هناك ثورات، وهناك أناس يخرجون ويدعون باسم الإمام عليه السلام، فيهم المحق وفيهم المبطل، فمن هو المحق ومن هو المبطل؟

فهل يترك الله سبحانه وتعالى الناس بدون مخرج وبدون نور يهتدون به حتى يتخلصوا من هذه الشبه؟ لا، إن الله سبحانه كما في الأزمان السابقة وكما في الأزمان الحاضرة وكذلك في

الأزمان المستقبلية لن يترك الناس من دون إقامة الحجة عليهم وإيجاد الدليل على طريق النجاة، وعندئذٍ يهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيٍّ عن بينة.

والتفكير في فتن آخر الزمان ليس فيه نتيجة عملية، بل ينبغي أن نفكر في ما نعيش من الفتن، فما هو الطريق الذي ينبغي للمسلم وللمؤمن أن يسلكه حتى ينجو من برائن ومن قيود هذه الفتنة؟ طبعاً ليس بإمكانني بيان كل شيء، ربما ليس خوفاً من أعداء الشيعة بل ربما يكون خوفاً من الشيعة أنفسهم، ولكنني أقول إن الطريق واضح لمن أراد، فالعقائد الإسلامية الحقيقية مضى على تكريسها وبيانها وتوضيحها وتدوينها ألف وأربعمائة سنة وكلها تقول إنه يجب الاعتقاد بأن حق التشريع لله وحده وليس لبشرٍ أياً كان ذلك البشر، وتحت أيِّ عنوانٍ أن يدَّعي أن له حق التشريع، فمن ادعى أن له حق التشريع فإنه يعرف أنه واقعٌ في الفتنة، ويجب اجتنابه والابتعاد عنه؛ سواء لبس هذه الدعوة لباساً دينياً أو تركها عاريةً واضحة، سواء أكان ذلك بحجة تنظيم حياة المسلمين أو كان بحجة الدفاع عن المستضعفين أو كان بحجة اشراك الشعب في تقرير مصيره، أياً كانت الحجج فإن أي جماعةٍ وأي شخصٍ يدعو إلى منهجٍ تشريعيٍّ غير القرآن وغير سنة محمدٍ صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام يعرف أنه ينبغي للمؤمن تجنب طريقه وعدم الانسياق معه، لئسَّ ما يدعو إليه ما شاء، يسميها ديموقراطية، أو يسميها اشتراكية، أو يسميها أي شيء من هذه الأسماء، المهم أنه إذا كان مؤدَّى دعوته أن للإنسان غير المعصوم أن يشرع مهما كان ذلك الإنسان غير المعصوم فهو يجانب ما يعتقد المسلمون ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾¹، وهذا منهجٌ واضح.

ولا إشكال أن هناك فروعاً أو هناك جهات أخرى، فالذي ينساق في منهجٍ من مناهج الفتنة لا يستطيع أن يلتزم بالحكم الشرعي في كل موقف، لماذا؟ لأنَّ غرضه ليس الله حتى يلتزم بالحكم الشرعي في كل موقف، ومادام غرضه أن يكون مشرعاً، أو ما دام غرضه أن يكون له دخالةٌ في القرار السياسي، وما دام غرضه أن يكون له كرسيٌّ في مجلس يحكم من طريقه على الناس، فلا

¹ يوسف: من الآية 40

شك أن الالتزام بالحكم الشرعي في جميع المواقف يفوت عليه غرضه، فهو لا يتمكن أن يلتزم بالحكم الشرعي في كل المواقف، وأضرب لكم مثلاً كنت قد ذكرته يوم أمس في من لا يريد إلا الله وفي من لا يهمله الله إلا إذا كان التلبس بالدعوة إلى الله يحقق له الغاية، أضرب مثلاً بمسلم بن عقيل؛ مسلم بن عقيل رحمه الله كان في الكوفة وقد بايعه للحسين أكثر من ثمانية عشر ألفاً، وطبعاً هؤلاء الذين بايعوه ليسوا شيعةً، ولكن الغالبية العظمى منهم من سائر المسلمين الذين يرون علياً خليفةً رابعاً ولا يرونه إماماً معصوماً، وجاء عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، وفعل ما فعل، وتفرق الأنصار عن مسلم عليه السلام، ويأتي هاني بن عروة ويقول لمسلم هذا ابن مرجانة سيزورني فاجلس في هذه الحجرة وإذا استقر به المقام فاخرج علينا واضرب عنقه بالسيف وأرح الناس منه، ولا إشكال في أنّ مسلماً بحسب النظر البشري العادي وليس حسب العلم الواقعي وما سيفعله الله ولكن بل بحسب النظر البشري العادي أنه لو قتل ابن زيادٍ لكانت الكوفة تعود للحسين عليه السلام. ويأتي ابن زياد ويجلس ولا يخرج مسلم، ويبقى هاني ابن عروة يتمثل بالأبيات الشعرية وغيرها ويشير له بها؛ ولكن مسلماً لم يخرج لضرب عنق ابن زياد، ويفطن ابن زياد إلى ما هو مدبر فيخرج مسرعاً، ويقول هاني لمسلم لمَ لم تخرج فتريح الناس منه فإنك لو قتلته لقتلت كافراً، فما كان جواب مسلم إلا أن قال: إِنَّ الإِيمَانَ قَيْدُ الْفِتْكَ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "الإيمان قيد الفتك"، ومسلم يعلم أنّ ابن زياد لن يتركه، وأنه سيبحث عنه، وعندما يظفر به سيقنتله، ولكن مسلماً يرضى أن يموت دون أن يخالف قولاً للنبي صلى الله عليه وآله، ودون أن يخالف الله سبحانه وتعالى، لأنه ليس لمسلم أيّ هدفٍ وراء إغضاب الله سبحانه وتعالى.

وأضرب مثلاً ثانياً بمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، الذي أعلن أبوه للناس أنّ ابني هو المهدي المنتظر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله؛ لأن النبي قال: "يواطي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي" وهذا محمد وأنا عبد الله يعني محمد بن عبد الله، والنبي صلى الله عليه وآله اسمه محمد بن عبد الله، ويعقدون اجتماعاً في المدينة حضره بنو الحسن وحضره بنو العباس وحضره كثيرٌ غيرهم، ورفض بنو الحسين الحضور في ذلك الاجتماع، وحضره من أولاد الحسين

فقط زيد بن علي، وقرروا أن تكون الإمامة لمن ارتضاه هؤلاء الجماعة المجتمعون أن يكون إماماً، وأن تكون الدعوة إلى المرضي من هؤلاء المجتمعين، وأخرجوا مفهوم الرضا من آل محمد، أي الرضا من هؤلاء الجماعة الذين اتفقوا على العمل السياسي، وقرروا أن يكون الشخص الأول هو زيد ثم ابنه يحيى ثم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، وذهب زيدٌ لسبيله وذهب ابنه يحيى لسبيله وجاءت النوبة لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، ويصادف أنه يتمكن من الخروج في المدينة المنورة وأن يسيطر عليها وأن يحكمها، فكان أول مشروعٍ جاء به هذا الرجل لأهل المدينة المنورة هو أن أرسل إلى جعفر بن محمد الصادق وزج به في السجن، لماذا؟ لأنه يراه عائقاً له في حكمه، يراه عقبةً له من أن يقبله الناس إماماً، وليس همه الله، ولكن همه أن يكون خليفةً وإماماً، فإما أن يبائع جعفرٌ وإما أن يزجَّ به في السجن، ثم بعد ذلك ينظر في أمره، وزجَّ بجعفر بن محمد الصادق في السجن-أي محمد بن عبد بن الحسن-، فهو ثار للدعوة إلى الرضا من آل محمد، وبهذا العنوان، ولكن من لا يكون الله سبحانه وتعالى هو قصده لا يستطيع أن يلتزم بالحكم الشرعي في جميع مواقفه.

وكذلك في زماننا مثلاً، نجد الدعوة المعلنة هي الدفاع عن المستضعفين وعن الفقراء، وأيضاً لأنَّ الشيعة ليس لهم أي دور في القرار السياسي، ونحن نريد لهم دوراً في القرار السياسي، ولا يمكن إيجاد ذلك لهم إلا عن طريق الدعوة إلى الديمقراطية، ولكن لا مانع من حرق بيت الشيعي، ولا مانع من تهديد الشيعي، ولا مانع من العمل على مقاطعة خطيب شيعي، أو التشويه على عالم شيعي، مع العلم بأنَّ كل هذه الأعمال يعرف الجميع بأنها من الكبائر في الشريعة الإسلامية، ولكن ما لم يكن القصد لله فإنه لا يمكن الالتزام بالحكم الشرعي في جميع المواقف.

فاذاً المنهج موجود خاصّةً في أيّامنا الحاضرة، وهو أن ينظر للدعوة في حقيقتها، هل هي دعوةٌ لتحكيم الشرع الإسلامي أو لتحكيم الرجال؟ وهل يلتزم أصحاب أيّ دعوةٍ بالحكم الشرعي في جميع مواقفهم أو لا مانع من تجاوز الحكم الشرعي وتحريف المفهومات الإسلامية من أجل الوصول إلى الغرض؟ يكفي لكل إنسان مهما كان بسيطاً أن ينظر هاتين النقطتين في أيّ دعوة،

وفي أيّ زمان، وفي أيّ بلد، وفي أيّ مكان، دون أن ينساق مع عاطفته ليعرف الصادق على الله والكاذب عليه، المحق والمضل. يقول علي عليه السلام: "وإنما بدء وقوع الفتن أحكام تبتدع وآراء تتبع يوالي فيها رجال رجالاً".

فعندما يتقابل الشيعيان بسيفيهما كما في لبنان، هل هناك دعوة حق؟ لو كانت الدعوة دعوة حق ما أجاز صاحبها لنفسه أن يريق دم الشيعي بيده، فإذاً ليست الدعوة دعوة حق، ولو كانت دعوة حق لكان أول ما يفعل هو أن يصون دم من يشاركه في العقيدة، وأن يصون كرامة من يشاركه في العقيدة، وأن يصون عرض من يشاركه في العقيدة؛ مهما بلغ الخلاف والاختلاف بينهما في الرأي والسياسة والاجتماع. أمّا حين لا يحصل ذلك فيعرف أنّ الدعوة ليست دعوة حق، وعندما تكون الدعوة أيضاً كما في بعض البلدان وفي البحرين دعوة ليست إلى تطبيق الإسلام وإنما إلى تطبيق منهج غير الإسلام يعرف أيضاً أنّها ليست دعوة حق، وأنّ الغرض منها لا الفقراء ولا المستضعفون ولا الشيعة ولا غير ذلك وإنّما الغرض منها الوصول إلى أن يكون له صوتٌ في القرار السياسي.

وصلى الله على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

سؤال: ظهرت فتنة المستبدة والمشروطة في إيران وقد كان لكل جانبٍ منها فقيه، فكيف يستطيع العامي أن يميز في مثل هذه الحالة؟

جواب: اسمحوا لي وأنا أجيب على هذا السؤال أن أذكر كلمةً لشخصٍ من شخصيات الشيعة مهما كان الأمر سواءً كنا نرتضيه أو لا نرتضيه، يقول: لقد ضل أهل السنة بتقديسهم الخلفاء والصحابة وضل أهل الشيعة بتقديسهم الفقهاء والمجتهدين، وهذه الكلمة للشيخ أحمد بن زين الدين الإحسائي، فمهما كان الفقيه يجب أن نعلم بأنّه غير معصوم، وأنّه يُلبس عليه كما يلبس على غيره، فالفقيه إذا أفتى، وإذا أجاز قتل الفقيه المخالف له في الرأي السياسي أو الديني فماذا تريد أن أقول عنه؟

أمّا العامة طبعاً فتضطرب الأمور عليهم أكثر مما لو لم يكن في الفتنة فقهاء وعلماء، ولا إشكال أنّ هذه المحرقة كما ذكرت أنّها تسببت في أن أربعمئة فقيه من الطرفين علّقوا على المشانق.

سؤال: يوجد الاختلاف بين الفقهاء في أحداث البحرين، فبعضهم يحرمها كالشيخ زين الدين، حفظه الله، وبعضهم يؤيدها ويدعمها كالشيخ مكارم الشيرازي وأدري قمي ويوسف صانعي وغيرهم، فما هو الحل في مثل هذه الحالة؟

جواب: ماذا قال هؤلاء المؤيدون حتى نعرف أنهم حقاً ملبّس عليهم أو غير ملبّس؟ حبذا لو أنّ السائل ذكر النص الذي قاله هؤلاء الفقهاء، وربما لبّس عليهم وقيل لهم إنّها دعوة إلى الإسلام، وعندئذ لا بد أن تؤيّد، ولكن أنت تعلم أنّها ليست دعوة إلى الإسلام؛ وتعلم مثلاً أنّ المكارمي أو صانعي أو غيره ممن قال إنهم يدعون إلى الإسلام؛ تعرف من هذا التعبير الموجود في الورقة أنّه ملبّس عليه وأنّه لا يعرف عما يجري في البحرين شيئاً، بخلاف مثلاً الشيخ زين الدين الذي تصله الأخبار من قنوات مختلفة، ولا تصله الأخبار من قناة واحدة كالفقهاء الأفاضل الذين ذكرتهم، والدليل على ذلك ما هو موجود في كلام مكارم الشيرازي بأنّهم يدعون إلى الإسلام، هل أنت تعرف أنّ هذه دعوة إلى الإسلام أو إلى البرلمان.

سؤال: وإن لم تكن في شكل فتوى وإنما الظاهر كلام تأييد؟

جواب: حتى لو كان كلام تأييد، يظهر أنّ الرجل لبّس عليه، قيل له إنّ جماعة يدعون إلى الإسلام فقتلوا واستهدفوا وحاربهم من حاربهم، ولذلك كتب: أنّهم يدعون إلى الإسلام، ولكن لو صدقه وأخبره بالحقيقة، وهذا دليل واضح لك أيّها الأخ على بطلان هذه الدعوى وهو أنّ صاحبها لا يلتزم بالحكم الشرعي في كل المواقف؛ فإنّ الحكم الشرعي أن يصدق الفقيه ولا يغشه، ولا يقول له إنّهم يدعون إلى الإسلام، وإنما يبين له أنهم يريدون إيجاد البرلمان بالطريقة الغربية المذكورة في دستور البحرين؛ وأن يدفع له نسخة من دستور البحرين حتى يطّلع عليها، وعندئذ يعطيه التأييد أو المعارضة، والإفتاء بالمضي أو التوقف أو غير ذلك، وأما أن يقول له: ما تقول فيما يحصل في

البحرين وأن العلماء يدعون إلى تطبيق الإسلام؛ فلا إشكال في أن هذا الرجل إذا كان لا يعلم بأن هذا السائل قد خالف الحكم الشرعي وكذب عليه لا إشكال أنه سيؤيد، بل تكون إذاً هذه الفتوى دليلاً واضحاً لك للنجاة من هذه الفتنة، لا أنها سبب في إيجاد الارتباك.

سؤال: كيف يميز الشخص بين صيحة إبليس وصيحة جبرئيل (ع) في آخر الزمان؟

جواب: كيف يميز الإنسان المؤمن بين صيحة إبليس في دعوته إلى آل بني سفيان وصيحة جبرئيل بقية الله خير لكم، مهما تكن الحال فإن صيحة إبليس لا تشته بصيحة جبرئيل، لأن صيحة جبرئيل في أول الليل وصيحة إبليس في آخر الليل ويكفي هذا للتمييز، على أن صيحة جبرئيل من السماء و صيحة إبليس من الأرض.

سؤال: ما هو بيان المخرج من الفتن بشيء من الوضوح؟

جواب: إذا لم يكن النظر في جوهر الدعوة، وهل أنه دعوة إلى الله أو دعوة إلى شيء آخر منها واطحاً فالأمر مشكل تبيينه، يقولون بيان الواضحات من أشكال المشكلات.

سؤال: ما هي نصيحتكم إلى أصحاب الحركات التي تقوم في الوقت الحاضر حيث إننا مثلاً نرى أن الإخوان المسلمين في مصر قد طالبوا بإقامة دم نصر أبو زيد لأنه تكلم على الرسول (ص)؟ وهذا عكس ما نراه في البحرين من أنهم يدعون الناشئة للتعاون مع الملحدين بالدين من الشيوعيين وغيرهم . فما هي النصيحة بصورة عامة لأصحاب هذه الحركات؟

جواب: أصحاب الحركات لا نصيحة لهم عندي لأنهم لا يسمعون، ومن لا يسمع لا تقدم له النصيحة، وإنما النصيحة إلى الشباب، وإلى الناس الذين يريدون أن يعرفوا ما هو المخرج من الفتنة، أقول إن دعوتهم للتعاون مع الشيوعيين دليل على الانحراف عن الشريعة، وهذا يكفي، وليس الإخوان المسلمين حجة، نعم من انتقد الرسول فحكمه أن يقتل، إذا انتقده على نحو يؤدي ذلك إلى كونه غير معصوم أو يؤدي ذلك إلى تكذيبه في رسالته؛ فهذا يحكم بكفره ويقتل، أما لو قال مثلاً أن النبي (ص) كان دائماً يحب أن يمازح بعض الناس وأنا لا أرغب في من يريد أن

يمازح، فهذا لا يحكم بكفره وإنما يؤدب تأديباً بسيطاً لأنه لم ينتقد النبي مثلاً في شيء يؤدي إلى عدم عصمته بحيث يحتمل كذبه على الله أو يكذبه في شيء مما بلغه من أحكام الله، وأما لو كان الانتقاد مما يؤدي إلى نفي العصمة عنه أو يؤدي إلى تكذيبه في شيء مما جاء به عن ربه فلا إشكال في أنه يكون حكمه الشرعي هو القتل، فضلاً عن التفريق بينه وبين زوجته.

ولكن أخطأ الإخوان المسلمون حتى لو ثبت عليه ما نسب إليه في طلبهم التفريق بين أبي زيد وزوجته، فهل كانت زوجته على رأيه، وعلى ما يقول، أم كانت تخالفه وتراه قد خرج عن الإسلام؟ إن كانت تخالفه وترى أنه خرج عن الإسلام فرفع الدعوى عليه والمطالبة بالتفريق بينها وبينه فيه جدوى وهو صحيح، وإن كانت الزوجة على نفس ما يعتقد زوجها فهي مثله خارجة عن الإسلام فلماذا يطلب التفريق بينهما؟

سؤال: المتتبع لعلامات الظهور وفتن آخر الزمان يكاد يشعر بالحيرة أمامها، لا سيما إذا خفيت الدلائل الزمنية على حدوث أمرٍ ما قبل الظهور المبارك في وقت أن النظام العالمي القائم والشرق الأوسط منه بالخصوص يتجه نحو تثبيت دعائم السلام والاستقرار لا الحرب والقتل مما يجعل النظر في أمر هذه الدلائل غير ذي مصداقية، أرجو التوضيح.

جواب: أطلب من السائل أن يرجع إلى المحاضرات التي تكلمنا فيها عن خروج صاحب الزمان صلوات الله وسلامه عليه في عدة سنوات مختلفة، وفي كل سنة كنا نتكلم عن باب.

سؤال: في تقييم الفتن والخروج منها اتباع لأسس عامة، ولكن أين الدور المحوري للفقهاء للخروج من الفتن؟

جواب: الفقهاء دورهم هو بيان الحكم الشرعي، وأما الفتن فلا يستطيع الفقهاء ولا العلماء ولا المفكرون ولا الفلاسفة إنقاذ الناس منها، وإنما ينحصر دور جميع رجال الفكر والعلم في بيان أوجه الحقيقة بعباراتٍ مختلفة وطرق مختلفة لعل الناس يدركون ذلك وينتبهوا، وأحياناً لا ينتبه الناس أيضاً إلا بهزة فكرية عظيمة أخرى تجعلهم يدركون أنهم على خطأ.

سؤال: يدعي البعض أن ما يحدث من تجاوزاتٍ شرعية في الفتنة التي نعيشها اليوم ما هو إلا حوادث جانبية تحصل في كل حركة، حتى حركة المعصوم، وينبغي على العلماء تجاوز هذه الأخطاء الجانبية والتركيز على معاناة الشعب.

جواب: أولاً التعبير بهذه التجاوزات بأنها تجاوزات جانبية في حد ذاته إهمالٌ للحقيقة الدينية، فنحن إذا قلنا إن إتلاف أموال المؤمنين تجاوز جانبي فإننا نكون قد تجاوزنا الحكم الشرعي وتجاوزنا الحقيقة الشرعية، ومع ذلك فإن الشيء المتكرر والذي يكون ديدنا واحداً من أول يومٍ انبعثت فيه الحركة إلى اليوم لم يتغير ولم يتبدل يكون هو جوهر الحركة وحقيقتها، فكيف نعتبره شيئاً جانبياً، وأما حركة المعصوم فلا نرضى أن تصفها أنت بأنها يحصل فيها مثل ذلك حتى من جهةٍ جانبية.

سؤال: الظاهر تحرككم في مواجهة هذا التيار والقضاء على مقدمات الفتنة، فهل يختلف الموضوع عن كون المواجهة أمرٌ بالمعروف أو نهْيٌ عن المنكر.

جواب: لا، أحياناً يكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتشترط فيه الشروط الخاصة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأحياناً يكون من باب إظهار العلم في وقت الفتنة؛ لأنه عندما تضطرم الفتن إذا سكت العلماء عن إظهار العلم فعندئذٍ لا يوجد للضعيف طريقة يهتدي بها للخروج من الفتنة، ويكون الإجهار بالرأي واجباً شرعياً لا يجوز تجاوزه، ولا يكون من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلقاً، وإنما من باب بيان الجادة للخروج عن الفتنة، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله: "إذا اضطرمت الفتن فعلى العالم أن يظهر علمه وإلا فعليه لعنة الله"، أتظن أن النبي صلى الله عليه وآله يلعن إنساناً لم يتوفر له شروط الواجب الشرعي للقيام به كعلمه بعدم التأثير، فالإجهار بالرأي إقامةٌ للحجة لله على الناس حتى لا يقولوا لم يأت أحدٌ فيبين لنا ما نتقيه.

وصلى الله على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

الفتنة (2) *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين والسلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته.

إتماما لما مضى من حديث عن الفتن، نقول الفتنة في أصل اللغة واضح أنها الاختبار والامتحان، والفتن تعتبر امتحانا من جهة، ومن جهة أيضا هي ابتلاء. فعادة يكون الحدث الذي يشكل الفتنة كما ذكرنا سابقا مشتبهها تماما أو متشابهها تماما بين الحق والباطل، وعادة تنزلق في الفتنة أرجل شخصيات يكون لها موقع قدسي في القلوب، وتكون هذه الشخصيات موضع احترام من نطاق واسع من أبناء ذلك المجتمع تنزلق بالفتنة، وعندئذ تزيد الشبهة التي تلون والتي تغطي الحقيقة عن أفكار غالبية الناس.

وفي الأمم السابقة نجد أن الذين يقودون الفتن هم كبار شخصيات ذلك المجتمع كقوم موسى مثلا، فالذين قادوا فتنة العجل مثلا ليسوا بأناس عاديين في نظر بني إسرائيل، كانوا من كبراء القوم، ومن أجلّة الذين يعتبرون قد آمنوا برسالة موسى عليه السلام، انزلقوا في فتنة العجل وقادوا تلك الفتنة وصاروا ألسن دفاع عن [الحق]، وكذلك في المجتمع المسيحي. وكيف حدث أن انحرف هذا المجتمع عن إيمانه على الرغم من أن عدد أفراد المؤمنين في ذلك الوقت كانوا قلة، ولم تمض السنين الكثيرة حتى يتناول العهد على الذين آمنوا بعباسي بن مريم، إذ لم تزد المدة عن الستين إلى خمس وستين سنة عندما ألغي العمل بالشريعة بين المسيحيين، وعندما حرف الإنجيل عند المسيحيين، لقد قاد بولس تلك الفتنة، وبولس في الحقيقة لم يكن مؤمنا بالمسيح في حياة المسيح، ولم يكن قد آمن على أيدي حواربي المسيح، وقد كانوا موجودين هناك، كان بولس من أشد الذين حاربوا السيد المسيح، وحاربوا المؤمنين بالسيد المسيح لمدة خمسين سنة أو أربعين سنة على الأقل، ولكنه في الأيام الأخيرة يرى أن حرب هؤلاء، وأن تقتيلهم، وتشريدهم، واستضعافهم،

* في 12 رمضان 1417هـ المصادف 1997/1/21م بجامع جدحفص

لن يؤدي إلى استئصال الإيمان من نفوسهم، فماذا يفعل بولس؟ هذه الفكرة تراوده وهو في كل يوم يقتل كثيرا ممن آمن من بني إسرائيل بالسيد المسيح.

ويأخذ بولس من الحاكم الروماني إذناً بالذهاب إلى دمشق لاستئصال المؤمنين فيها بالسيد المسيح، ولا تزال تلك الفكرة تراوده. كيف يمكن استئصال فكرة الإيمان بالسيد المسيح وتغييرها؟ وفي الطريق وهو ذاهب إلى دمشق تأتيه الفكرة المناسبة، فلماذا لا يدعي النبوة؟ ولماذا لا ينزل عليه الروح القدس وتكون مؤدى نبوته هو التبشير بالسيد المسيح، وحث الناس على الإيمان به، وبالتالي يلتف حوله المؤمنون بالسيد المسيح، ويستطيع أن يغير معالم هذا الدين في نفوس البشر، أليس هذا أجدى عليه وأسهل عليه من تتبعهم وقتلهم واستئصالهم، وربما اغتالوه في يوم من الأيام، القتل الروحي أسهل كثيرا من الاستئصال البدني، فيعمى الرجل -لا يرى- يصرخ في القافلة لقد جاءه الملاك جبرائيل وضربه على عينيه وأنه لا يرى شيئا، فيقاد في القافلة إلى أن يدخل دمشق ولا يذهب إلى الحاكم الروماني ليسلم إليه المؤمنين بالسيد المسيح لقتلهم، يبقى لأنه أصبح لا يرى، أصبح أعمى.

وفي اليوم الثالث تفتح عيناه لأن الملاك جبرائيل نزل عليه مرة أخرى ومسح عينيه وقال له إن الله اختاره ليكون نبيا، وأن عليه أن يدعو إلى الإيمان بالسيد المسيح، لأن السيد المسيح هو ابن الله، وأن عليه أن يكرس نفسه لهذه الدعوة. وبدلا من أن يمارس عملية القتل الجسماني للمسيحيين يرجع إلى بيت المقدس كما يسميها اليهود إلى أورشليم، داعيا إلى الإيمان بالسيد المسيح بأنه ابن الله، ويأمر بحذف اسم موسى عليه السلام من الخطب، ومن المواقع التي يجب فيها ذكر الأنبياء، ويوقف الختان، ويقول لا داعي للعمل بالشرعية لأن الله أنزل الشريعة امتحاناً وابتلاء لبني إسرائيل، وأن ابنه . السيد المسيح . قد جاء وأنقذهم من هذا الابتلاء وهذا الامتحان، ولا داعي إذن للعمل بأحكام الشريعة مطلقا، وإنما الناموس أنزل لعنة لنا، أي أن الشريعة إنما أنزلت لعنةً وانتقاماً من بني إسرائيل لعصيائهم، وأما قضية الحلال والحرام فليس هناك حلال ولا حرام بل كل شيء طيب للطيبين، ويجتمع من تبقى من تلاميذ السيد المسيح وحوارييه ينادون بولس لهذا

التكريس، ولمناقشته في هذا التكريس، ولمناقشته في إلغاء الشريعة، ولمناقشته في قضية الشرك بالله سبحانه وتعالى. فماذا يقول لهم؟ إن كنتم أنبياء الختان فأنا نبي الغرلة.

وهكذا يتغير الدين المسيحي، ويبقى المؤمنون الذين لا يتمكن هو من إقناعهم، المؤمنون الحقيقيون، الذين أدركوا السيد المسيح وسمعوا كلامه، فكيف يتخلص منهم؟ وأمر بسيط أن يتخلص منهم بأن يثير بني إسرائيل على المؤمنين بالسيد المسيح، وإذا ثاروا يقول لهم اخرجوا من المسجد إلى الجبال، اخرجوا من المسجد إلى البراري قبل أن يدرككم هؤلاء اليهود فيقتلوكم، وعلى الرغم من أن السيد المسيح أمرهم بأن لا يخرجوا من المسجد حتى لو قتلوا فيه، ولكنه لشدة الإرهاب الذي عمله خرج هؤلاء القوم خوفا وهربوا إلى الجبال وإلى البراري، فأدركهم الرومان من جهة وبنو إسرائيل من جهة، وأبادوا من أبادوا منهم، ومن تبقى لا يعرف مصيره، واستمرَّ القتل في تلاميذ المسيح و حواريه ولم يبق منهم إلا برنابا الذي أصر عليه بولس أن يسافر معه إلى روما، وفي جزيرة قبرص افتقد برنابا ولم يعرف كيف مات، هل هو قتل أو هو مات.

وفتنة بولس طبعا لو لم يدخل فيها كثير ممن أدرك السيد المسيح، وعصوه بسذاجتهم لما أمكن إقناع المؤمنين بالسيد المسيح بها، ولكن كثيرا ممن أدرك السيد المسيح وآمن به في حياته ويظنه كثير من الناس قديسا انخدعوا بهذه الحيلة، وغالبية الناس الذين يغترون بالمظاهر فتحصل القدسية في أنفسهم لشخصيات لمجرد أنه أدرك فلان أو لمجرد أنه صاحب فلان، أو لمجرد أنه يلتقي بفلان، أو عاش مع فلان، فهذا تحصل القدسية له في النفوس، وعندئذ فما يتبعه هذا الرجل وما يقوله لا يُشك في أحقيته فينزلقون في طريق الفتنة.

الفتنة التي حصلت في الإسلام أيضا كلها من هذا القبيل، فالصحابا مثلا هم موضع التقديس والتقدير والثقة عند جميع المسلمين، بل لا تزال الغالبية من المسلمين لا ترضى بالنظر حتى في أصل عدالة الصحابي، وترى أنه يجب التسليم بعدالته وفهمه وفقهه ومعرفته للدين ومن دون نقاش إلى اليوم، وعندما يتخذ الصحابي موقفا فهذا الموقف يكون لا غبار عليه عند كثير من الناس، والحمد لله أن تعريف الصحابي صار واسعا وفضافضا حتى شمل الطلقاء وأبناء الطلقاء،

وحتى شمل أولئك الذين حاربوا النبي والإسلام، وخاضوا المعارك ضده من بداية الدعوة إلى يوم الفتح، وحتى أولئك بجرة قلم اضمحلت الرواسب الجاهلية في أنفسهم، وأصبحوا قرآناً يمشي على الأرض، وبجرة قلم أصبح أبو سفيان وهو الذي يحمل راية الشرك وهو الذي يؤلب على الرسول صلى الله عليه وآله كل قبائل العرب وهو الذي يتحالف مع اليهود على قتله وعلى محاربتة، مع كل ذلك أصبح أبو سفيان صحابياً لا يجوز حتى التشكيك في عدالته، فضلا عن التشكيك في فهمه للدين ومعرفته له.

وقد كان خالد بن الوليد سيف الشرك وحامي هبل، وبجرة قلم أصبح سيف الله لأنه حارب في اليرموك، ولأنه حارب في القادسية، كل شيء قد تبدل في جرة قلم.

وعندما يتخذ هؤلاء الرجال موقفاً يكون عند كثير أو عند غالبية المسلمين هو الحق الذي لا يصح التشكيك فيه، ويكون هذا الموقف الذي يتخذه هؤلاء الرجال غشاة على عقول الناس، ويجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، ولا شك أنه ما منا شخص إلا التقى في حياته بشخص أو أكثر وهو يبرر ارتكاب عمله المحرم أو ارتكابه للعمل المستهجن لأن زيدا من الناس يفعله، وأن العالم الفلاني يفعله، والعالم الفلاني يقوله، ولا إشكال في أن هذه تكون شبهة وينزلق كثير في طريق الفتنة بسبب هذه الشبهة.

ولا تظنوا أن الشيعة أفضل من غير الشيعة في هذا الطريق، وإذا كان علي عليه السلام، وإذا كان الأئمة عليهم السلام قد ربوا من آمن بهم على أن لا يجعلوا لأحد غير من عصم الله عصمة، وعلى ألا يتخذوا دون المعصوم رجلاً يصدقونه في كل ما قال ولا يحتملون فيه الخطأ إلا أنه على الرغم من كل ذلك فإن عقلية الإنسان الشيعي لا تزال تحمل أسباب الفتنة، وهي الوثوق التام في الرجال، وفي الشخصيات الدينية إلى حد لا يحتمل فيه الخطأ، ومادام فلان هو الذي يقول ذلك فهذا لا بد أن يكون هو الحق، ومادام زيد يتخذ هذا الموقف فهذا الموقف هو الحق، ويتحول الدين وتتحول الشريعة إلى أنها تؤخذ من مواقف زيد أو عمرو، ومن أعمال بكر أو خالد.

فالشريعة، إذا كانوا قد نجوا من تقديس الخلفاء و تقديس الصحابة فإنهم قد وقعوا في تقديس الفقهاء والمجتهدين، بل وقعوا في تقديس العلماء بجميع مراتبهم، وأصبح العلماء عند تابعيهم لا يصح احتمال الخطأ فيهم. ولا يصح عرض مواقفهم وكلماتهم على الشريعة ذاتها، فينظر هل هي مطابقة فتقبل؟ أو هي مخالفة فينبه هذا الإنسان على أنك قد خالفت الشريعة وأن عليك تعديل موقفك؟

طبعاً كثير من الناس يقع في الفتن بسبب تقديسه للعلماء، وبسبب تقديسه للفقهاء، وبسبب تقديسه للمجتهدين.

والفتنة كما قلنا أسبابها هو ما يشبه على العقل بين الحق وبين الباطل، وما هو الحق وما هو الباطل؟ في محاضرة الأسبوع الماضي وفي آخر سؤال رجل يقول إنه حائر وذلك بسبب اختلاف فتاوى الفقهاء فمنهم من يؤيد ما يحدث في البحرين ومنهم من يراه حراماً. وهذه الحيرة عند أختنا لا تزال تعتبر صحة، لأن غير الصحيح أن ينظر ماذا يرغب في نفسه فإذا حصل ما يؤيد ذلك من الفقهاء اتبعه وقال هذا هو الحق، فإذا كان يؤيد في نفسه ما كان يجري فما كان يجري هو الحق وقد أيده فلان، وإذا كان هو نفسه مخالفاً لما يجري فإن هذا الأمر حرام وقد أعلن ذلك فلان، من دون النظر؛ فقله أنه يحتار هذا دليل صحة، و أن عقله لا يزال يفكر وأنه لا يزال قادراً على تقليب نظره لمعرفة الحق من الباطل، معناه أنه لا يزال قادراً على الخروج من الفتنة، هذا مثل من الأمثال، والذي يجعل هذا الأخ أو غيره يحتار في هذا الموضوع لأنه يتعجب في نفسه كيف يختلف العلماء في هذا الموضوع، أو الذي يجعل هذا الإنسان ينساق انسياقاً تاماً لمجرد وجود كلمة تقال عن هذا الموضوع طبعاً هو الوثوق في العلماء، وعندئذ لا ينظر إلى هذا العالم ومدى اتصاله بالبلد، ومدى معرفته بما يجري، ومدى تطبيق كلمته أو كلماته على ما يجري، وهل أن كلماته تطابق ما هو الواقع وما هو الجاري.

هناك بعض المنشورات التي وردت وتحدث عما يدور في البحرين وتقول إنهم جماعة يطالبون بتطبيق الإسلام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، طبعاً عندما أقرأها في ورقة هذا

العالم ماذا أعرف؟ ماذا يتبين لي؟ ما يتبين هو أن هذا العالم لا يعلم بما يجري في البحرين، وأن الذي قد سأله قد غشه، لأنني أنا أعيش في البحرين، فما يتكلم عنه هذا العالم من أن القوم يطالبون بتطبيق الإسلام أعلم أنا عدم صحته، وإنما هم يطالبون بتفعيل الدستور، وإعادة المجلس الوطني، ولا يطالبون بتطبيق الإسلام. وهم لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر لأنهم رأوا وسمعوا كل ما يجري على المؤمنين من حرق أموال ومن إتلاف ومن تفريق ومن غير ذلك، ولم يحصل أي شجب من أي إنسان منهم، ولا تزال المنكرات جارية في كل مكان ولا يزالون يبررون ويؤولون لهذه المنكرات الجارية في كل مكان.

فإذن عندما يقول أحد العلماء البعيدين عن البلد إن هؤلاء القوم يدعون إلى تطبيق الإسلام ويأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر؛ أعلم أنه على أحسن الفروض لم يطلع على ما يجري في البلد، وأن الذي سأله قد غشه. هذا على أحسن حال، وإذا كنت أريد أن أبقى ثقتي في ذلك العالم مثلاً؛ ولأنه من كلماته يظهر أن ما يقوله ليس ما هو جاري، ولكن إذا كان هوى النفس مع ما يجري فإنك تجد أن الإنسان يندفع اندفاعاً تاماً مع ما يجري، لماذا؟ لأن للهوى هيمنة وسيطرة مما يجعله يريد مجرد المبرر ومجرد المعذر حتى ينزلق الإنسان في الفتنة.

خذ لك مثلاً علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه، نرى أنه لا يختلف اثنان من المسلمين على روايات قالها النبي صلى الله عليه وآله في علي؛ منها حديث الدار والإنذار، وآخرها حديث الغدير مثلاً، ولا يختلف اثنان من المسلمين على صحة هذه الروايات، وهذه الروايات مؤداها باللغة العربية أنها تجعل علياً هو الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه الوصي الأول، وأنه القائم مقامه؛ ولكن الغالبية من المسلمين إلى اليوم لا يقولون ولا يعترفون لعلي عليه السلام بهذا الحق، لماذا؟ لأن الصحابة أبوا على علي عليه السلام أن يأتي أول القوم في هذا المنصب، ولو تمكنوا أن لا يأتي أبداً لفلوا، ففعل الصحابة - كما قلنا والنظر إلى الصحابة وإلى عدم جواز مناقشة مواقفهم أو كلماتهم أو أعمالهم - باعتبار أنهم الحجة على الخلق بعد

رسول الله صلى الله عليه وآله كما يدعون لهم، أبوا على علي ذلك، ولو كان هذا الأمر حقاً لعلي لما أبوا عليه، وهكذا تشكلت الفتنة.

هل صحيح أنه لمجرد أن هؤلاء القوم اتخذوا هذا الموقف أبى الناس على علي ذلك؟ ربما يكون هذا صحيحاً في زماننا ولكن في زمان الصحابة ليس كل هذا صحيحاً؛ لأن علياً عليه السلام ومن معه من الصحابة أيضاً صحابة، وإنما لوجود الضغائن، ووجود الأحقاد، على علي من جهة وعدم الرغبة النفسية الحقيقية في مجيء علي إلى المنصب من جهة أخرى توجد المبرر، وتوجد الرغبة الشديدة في أن لا يأتي، وتقبل كل معذر وكل مبرر لعدم مجيء علي عليه السلام.

فالفتنة إذاً حتى يكون السبب الخارجي الذي قلنا إنه يكون سبباً للشبهة وسبباً للغشاة على العقل لا بد أن يرافقه هوى النفس، ولو لم يوجد هناك هوى النفس لا تتكون الغشاة، فالسبب الخارجي ليس سبباً كافياً للانزلاق إلا مع اجتماعه بالسبب النفسي وهي الرغبة النفسية، وهي الهوى في ذلك الذي يستدعي قبول هذا المبرر وذلك المعذر من دون نظرٍ إلى مدى قوته وضعفه. فإذاً لكي يتجنب الإنسان الفتنة عليه أولاً أن يتجنب الهوى، وما يخالف نفسه. وما لم يخالف رغبته في ذلك، فلا يمكنه التوصل والنظر إلى دليل الحق حتى يتوب، ولذلك تجد أن من يتربى في بيت وفي مجتمع يشب مؤمناً بقيم ذلك البيت وقيم ذلك المجتمع، ولا يناقش نفسه في صحة تلك القيم، فالنصراني يكون ابنه نصرانياً لأنه يولد بين أبوين نصرانيين، ويعيش في مجتمع نصراني، ولا يلتقي إلا بالنصارى، وتكون هذه العقائد التي يحملها ليست مجرد عقائد تربطه بالله، ولكنها أيضاً عقائد تربطه بأهله، وتربطه بمجتمعه، فتكون عزيزةً عليه، وهو مستعدٌ لتأييدها بأي مبررٍ وبأي معذر، واليهودي كذلك، والمسلم السني كذلك، والمسلم الشيعي كذلك، فإذاً [الململة] أي لولم تكن هناك الرغبة للفكرة ولو لم يكن هناك حب لهذه الفكرة المعينة فإن السبب الخارجي لا يجعل الشبهة تامة بحيث تستحوذ على العقل وتمنعه عن التفكير.

وأنا أذكر قضية أو قصة رأيتها في يومٍ من الأيام، فقد جاءني أحد المسيحيين وهو [هولندي] ليسلم، فسألته لماذا؟ ما الذي جعلك تشك في إيمانك بالعقائد المسيحية حتى تحصل

عندك هذه الرغبة؟ وما الذي جعل عندك القناعة بالعقائد الإسلامية حتى تأتي لتغير دينك أو تتخلى عن العقائد المسيحية إلى العقائد الإسلامية؟ فقال إنه عندما كان صغيراً كان يذهب مع أمه إلى الكنيسة ويسمع الخطبة يوم الأحد، وعندما يخرج تقول له أمه يا بني لا تصدق هذا، هذا رجلٌ كذاب، وفي كل أسبوع عند خروجها من الكنيسة تقول لولدها لا تصدق هذا الرجل القس فإنه رجلٌ كذاب وهذا رجلٌ يستهزئ بالناس، ويتحدث إليهم حديثاً كاذباً، فأصبح عنده شك كبير في رجال الكنيسة، وعندما يجمعون المال للكنيسة، تدفع الأم كما يدفع سائر المسيحيين ولكنها تقول لابنها انظر يا بني إنهم يجمعون المال ويأكلونه هم أنفسهم ولا يدفعون للكنيسة شيئاً ولا يعطون الفقراء شيئاً.

على أي حال فإن هذا الرجل نشأ صغيراً وأمّه في كل يومٍ تزرع الشك في نفسه في القسيسة الذين يقومون في كنيسة قريتهم، وعندما أكمل المدرسة الثانوية أخذ إجبارياً إلى الجيش ورمي به في أندونيسيا وبقي في أندونيسيا خمس سنوات، فصارت هناك الثورة الأندونيسية وجاء الأندونيسيون مشياً على الأقدام وبدون أسلحة ليحتلوا القاعدة الهولندية هناك، وكان هو يأبى أن يضرب هؤلاء القوم لأن أمه أيضاً علمته عدم احترام هذه الدولة، وقالت إن الدولة دائماً لا تؤيد أو لا تعمل في صالح الفقراء، ولا في صالح الناس الذين هم في حاجة، وعندما حوكم وسئل لماذا لم تضرب وقد أمرت بالضرب؟ قال: لأنهم لم يأتوا إلى بلادي، أنتم نقلتموني إلى بلادهم وهذه بلادهم، وهم أحق بها، ولا أريد أن أضرب قوماً أنا جئت إلى بلادهم وهم لا يريدوني فأنا أخرج. لماذا أبقى في بلادهم وهم لا يريدوني أن أبقى فيها؟ فزج به في السجن خمس سنوات.

وفي السجن سمع عن الإسلام ولكنه لم يقرأ عنه في السجن، وهو في السجن تكونت له قناعة بأن الله سبحانه وتعالى لا يريد من البشر أن يتحاربوا وأن يتضاربوا وأن يترفع بعضهم على بعض، وأن يتكبر بعضهم على بعض وإنما يريد منهم أن يكونوا إخوة، وأن يكونوا متحابين، فالدين الحقيقي هو الدين الذي يأمر أتباعه بالأخوة وليس الذي يأمر أتباعه بالحرب وبالقتال.

وبعد خروجه من السجن ذهب ليدرس الهندسة البحرية، ودرس الهندسة في السفن وطرق صناعتها وتركيبها وجاء ليعمل في البحرين في هذه المهنة، وفي البحرين قال إن الإسلام هو الحق، لماذا؟ لأنه وجد طبقات جميع الذين يعملون في الشركة يأكلون على مائدة واحدة، ولا فرق بين رئيس ومرؤوس، ويمثلون الأخوة الإنسانية بتمام معانيها، ولا بد أن هذا ناشئ من دينهم، ودينهم طبعاً هو دين الأخوة، وبالتالي فالإسلام هو دين الحق لأنه دين الأخوة، ودخل إلى السوق واشترى بعض الكتب باللغة الإنجليزية، وفعلاً وجد فيها أن الإسلام يحث على الأخوة، وأن [المؤمنون أخوة]، لذلك فهذا المقياس هو الذي جعله يقبل عقائد الدين الإسلامي.

ولو أردنا أن نحلل هذا الدخول في الإسلام نجد أولاً وجود التشكيكات التي كانت أمه تقولها له في علماء الدين الذين يأتون إلى قريتهم، والشيء الثاني هو نظره وتحليله للمجتمع الأوروبي، وأن كل إنسان يعيش بنفسه ولا يكثر في الآخرين، وهذان الأمران جعلاه يكفر ويشمئز من العقائد التي كان عليها، وعندما يسمع بالإسلام وهو لا يعرف عن الإسلام شيئاً ثم يضع لنفسه مقياساً وهو مقياس الأخوة فإنه عندما يجده في الإسلام يقبله بسرعة، وطبعاً لو لم تكن أمه قد شكته في علماء الدين لكان قد ذهب إليهم وعرض عليهم ما يحصل له من الشبه بالنسبة للعقائد المسيحية ومدى ارتباطه بالمجتمع الأوروبي ومدى تفاعل المجتمع الأوروبي مع العقائد المسيحية.

فاذاً لا بد أن يكون هناك هوى، ولا بد أن تكون هناك رغبة نفسية، حتى يكون السبب الخارجي كافياً للاندفاع في ذلك الطريق، طريق الحق، أو الإنزلاق في طريق الفتنة.

وما جرى في البحرين أيضاً كانت له مقدمات، أولها التشكيك في العلماء الموجودين ومحاولة إبعاد الناس والشباب عنهم بكل وسيلة من الوسائل، وقد عملت الأحزاب الشيوعية على هذه الفكرة من أواسط الخمسينات، واشتد عملها في الستينات وبداية السبعينات، وعندما ابتدأت الصحوة الإسلامية ابتدأت هذه الصحوة أيضاً بطريقةٍ محرفة، فكان أول شيء يقال في مجتمعات الشباب والمسائل التي تطرح بين الشباب هي شخصيات العلماء ومدى صدقها وعدم صدقها، ومدى ارتباطها بالدين وعدمها من جهة، وزعزعة الأسس الثابتة التي كانت تتبني عليها الانتماءات

في المجتمع بطرح مسائل التقليد والتشكيك في مقام التقليد الذي كان سائداً في البحرين، وتحويل قضية التقليد إلى إعلانات تجارية، والاندفاع الكلي في ذلك. كل ذلك أدى إلى قبول أفكارٍ وإلى الدخول في انتماءاتٍ حزبية وغير ذلك بسهولة، ولو لم تحصل هذه الأمور وبسبب حصول هذه التشكيكات يبقى الشاب في رغبةٍ جامحةٍ لمن يخرج من تلك الدوامة الفكرية التي كان يعيشها ويقبل أي مبررٍ وأي معذرٍ خارجي في السير والاتجاه في هذا الطريق أو هذا الطريق سواء كان طريق الحق أو طريق الفتنة، فأهل البدعة اندفعوا وقبلوا مبرر الأحلام لأنهم كانوا يعيشون في أنفسهم نفس هذا التبلبل ونفس هذا التملل، وبمجرد أن وجدوا ذريعةً تتقدم من مثل هذه الشكوك قبلوها ولم يناقشوا مدى حجيتها من الناحية الشرعية أو غير ذلك، وكذلك أصحاب الفتنة إنما انجرفوا في مجال الفتنة لأنه كان هناك هوى، وكانت هناك رغبةً وكان هناك في المجتمع من يعمل منذ أربعين سنة أو تزيد على إبعاد الناس عن العلماء، والناس ما كانوا يردعون عن ذلك، والعلماء أنفسهم كانوا مشغولين في التطاحن بعضهم مع بعض.

في الأيام الأخيرة نرى كثيراً من العلماء أو العلماء كلهم سلموا مقاليد الأمور ليد شبابٍ جددٍ جاءوا من جامعاتٍ غير دينية، ولم يدرسوا الدين بالطريقة المتوارثة، هذا متخرجٌ من كلية الهندسة، وهذا متخرجٌ من كلية الطب وهذا متخرجٌ من كلياتٍ مختلفة، فأصبحوا هم الذين يمسكون زمام التعليم الديني وزمام توجيه الشباب، والعلماء تخلوا عن القيام بهذا الواجب وقبلوا أن يقوم به غيرهم، وقسم من العلماء أهمل المجتمع تماماً وأهمل الشباب إهمالاً كاملاً، وأصبح عمله إما الجلوس في بيته أو القيام بالواجبات الاجتماعية من زيارة الفواتح وتهنئة المتزوجين، فلا تفوته فاتحة في البحرين من أولها إلى آخرها إلا ويذهب إليها ولا يفوته متزوجٌ إلا ويذهب ويبارك له، ولكن لا يدري ماذا يحصل حتى في قريته التي يسكن فيها، وما يأتي فيها من أفكار جديدة، وما يجد فيها من أمور، فيسمع عن الأشياء ولا يحللها أو لا يبالي بنتائجها، فكان لا بد أن نصل إلى هذه النتيجة التي وصلنا إليها.

فإذاً لو لم تكن هناك الرغبة، ولو لم تكن هناك الأشياء النفسية التي كانت تأز في نفوس الشباب وكانت تجعل الململة وتجعل البلبلة وتجعل الشبه في مواقف العلماء، في أمثال العلماء، لما وصلنا إلى هذه النتيجة، فإذاً لا يكفي أن يكون هناك سببٌ خارجي للانزلاق في الفتنة، بل لا بد أن يكون هناك أيضاً سببٌ نفسي يرافق هذا السبب الخارجي، ولكي ننجو من الفتنة لابد من محاسبة النفس، ولابد من تحليل النفس، ولابد من معرفة ما هو هوى وما هو فطرة، حتى يمكننا أن نتجنب تأثير الأسباب الخارجية فينا.

وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين.

سؤال: ما رأي سماحة الشيخ في القول بأن الظروف التي عاشها الأئمة عليهم السلام من بعد الحسين عليه السلام تختلف عن الظروف التي نعيشها اليوم وبالتالي فلا يجوز قياسها على ما يجري في هذه الأيام؟

جواب: بسم الله الرحمن الرحيم، النقطة الغربية في السؤال هي استبعاد الأزمنة التي عاشها الأئمة بعد الحسين، وهل أن الظروف التي عاشها الأئمة قبل الحسين موافقة تماماً ومطابقة لما نعيشه اليوم حتى يخصص هذا الكلام بظروف الأئمة الذين جاءوا بعد الحسين عليهم السلام أم أن هناك مقصداً يراد التوصل إليه وهو رفع سيرة تسعة أئمة من أن يكونوا موضع اقتداء، وإلا فإنه لا الظروف التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام تكون مشابهة لظروفنا ولا الظروف التي عاشها الحسن ولا الظروف التي عاشها الحسين، بل ربما الظروف التي عاشها الأئمة بعد الحسين هي أقرب كثيراً من الظروف التي عاشها علي والحسن والحسين عليه السلام، كيف؟

عليّ عليه السلام عاش في أيام أبي بكر وعمر، وقد كانا على الأقل يقولان إنهما يعملان على تطبيق الإسلام إلا في مسائل قليلة اجتهدا فيها. وكذلك كان وضع الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام، وأما الأئمة الذين جاءوا بعد الإمام الحسين فقد عاشوا في دولٍ تحكّمها ملوكٌ وأباطرة لا تريد أن يذكر لها الإسلام، وإنما تريد أن تذكر لها شهواتها وأتباعها كما هو الحال

اليوم، و الدول أيام علي، وأيام الحسن، وأيام الحسين لم تكن فيها جيوش مرتزقة منظمة برواتب معينة، ولم تكن فيها قوات أمن مرتبة ومنظمة ومرتزة تأخذ أجراً شهرياً أبداً، هذه الأمور، والجيش المنظم، وقوات الشرطة المنظمة، والعسس، وغير ذلك، كلها خرجت وتكونت كدولة مدنية لا علاقة لها بالدين إلا في الاسم كلها في عهود الأئمة الذين جاءوا بعد الحسين عليه السلام. فإذا عهود الأئمة الذين جاءوا بعد الحسين عليه السلام وظروفهم هي أكثر تشابهاً مع ظروفنا وحياتنا، فعلي بن الحسين عليه السلام كان يعيش في دولة يزيد ودولة مروان ودولة عبد الملك بن مروان، دول كانت تعيش على جيش منظم وشرطة منظمة وقوات أمن منظمة، والباقر عليه السلام كان يعيش في ظل دولة وجدت فيها معظم الدوائر ومعظم الدواوين التي كانت تشرف على حياة المواطنين وتقيدها بأنظمتها، والصادق عليه السلام ظرفه أيضاً كذلك، وكذلك الرضا وغيره من الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بخلاف علي عليه السلام، فإنه حتى في أيامه لم يكن الجيش جيشاً منظماً يأخذ أجراً شهرياً ويعمل طيلة السنة، ولم تكن قوات الشرطة، المعروفة في زمنه بشرطة الخميس، لم تكن أيضاً قوات منظمة تأخذ أجراً شهرياً وتلتزم بأوامر معينة، وبالطبع فإن ظروف علي بن الحسين عليه السلام والأئمة من بعده إلى ظروف الحسن العسكري عليه السلام أقرب لزماننا في تنظيمات المجتمع من الظروف التي عاشها الحسين عليه السلام أو علي عليه السلام أو الحسن عليه السلام، فلماذا يا ترى يقول السؤال بأن ظروف الأئمة الذين جاءوا بعد الحسين عليه السلام لا تتشابه والظروف التي نعيشها، وبالتالي فسيرتهم لا تنطبق على حياتنا، هل هناك هدف من استبعاد سيرة تسعة أئمة معصومين ورميها في البحر؟ وما هو هذا الهدف؟ حبذا لو كتب لي السائل عن هذا.

سؤال: سماحة الشيخ، أنتم تضعون اللوم في الفتنة على الناس فقط، لماذا لا تضعون اللوم على أولئك الناس الذين لا يتقون الله ويقولون للناس، فالناس يتبعونهم من باب [قلدها عالم وإطلع سالم].

جواب: أنا لم أضع اللوم على فئة من فئات المجتمع دون فئة، ولا على شريحة دون شريحة، ولم أخص قوماً دون قوم، بل تكلمت عن العلماء وتقصيرهم في واجبهم، وعن سكوتهم وسكوت المؤمنين عن الشيوعيين لمدة عقود وهم يبيثون فتنهم وأفكارهم؛ لا يرد عليهم، وعن سكوت الناس والمؤمنين عن فتنة الحزبيين، وقد مضى عليها على الأقل عقدان من الزمن وهم يبيثون فتنهم وأفكارهم في المجتمع؛ ولا يردون عليهم. وأنا لا أخص فئة دون فئة ولا شريحة دون شريحة، وإنما أحل، لماذا تكون هناك فتنة؟ تكون هناك فتنة لوجود سببين، سبب خارجي وسبب نفسي داخلي، ولو لم يوجد هذان السببان لا تكون الفتنة مسيطرة على نفس ذلك الإنسان، ولذلك عندما ينتبه إلى نفسه تزول تلك الفتنة، ويتنبه إلى مواضع الخطأ، ومواضع الهفوات، ولذلك يقول علي عليه الصلاة والسلام: "الفتنة إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت".

سؤال: ما هو السبيل الآن للخروج من هذه الفتنة؟ وما هو الدور الذي يمكن أن يلعبه الشباب في ذلك؟

جواب: لا سبيل إلا بالتوعية، أن يقوم الشباب بتوعية بعضهم بعضاً إلى عدم تطابق ما يجري مع أي هدف سواء كان هدفاً سياسياً أو هدفاً اجتماعياً أو هدفاً دينياً، وأن ما يجري يعود بالضرر على المجتمع عامة، وعلى الشيعة خاصة بحيث يؤخرهم عشرات السنين عما وصلوا إليه من جراء تمزيق صفوفهم، ومن جراء تفريق كلمتهم، ومن جراء بث العداوات والخصومات في أنفسهم على بعضهم البعض، وأيضاً من جراء إعطاء طابع عام عن كل شيعي بأنه مخرب وأنه فوضوي، وأنه إرهابي، وأنه يرضى ببيع البلاد لمجرد أنه يحب الحاكم أو يبغضه.

سؤال: شيخنا الفاضل، هناك باب لم تطرقوه إلى الآن، وهو الوصول لفكر الفقهاء والعلماء خارج البحرين وبيان الموقف السليم والأحداث الحقيقية في البحرين، فهل هناك تخطيطاً أو برنامجاً لهذه الخطوة؟

جواب: في الحقيقة لا يوجد برنامج ولا تخطيط لهذه الخطوة، لأننا أولاً لا نريد أن نخرج العلماء في الخارج بهذه الأمور، فقسم منهم يعيش في دول، تلك الدول لها مواقف معينة لو اتخذ العالم فيها موقفاً مخالفاً عن موقف الدولة لربما يتضرر، وبعض الفقهاء لا علاقة له بأحد في البحرين ولا يتأثر أحد بكلامهم في البحرين؛ قالوا أو لم يقولوا، وفقهاء النجف وقد عرفوا بما يجري في البحرين اتخذوا موقفاً، ولا إشكال أنهم أقرب الناس إلى البحرين، ومعرفة ما فيها ومعرفة الناس بهم، وهذا يكفي ويكون حجة على الناس لمن أراد حجة من الفقهاء.

سؤال: قد يقول قائل لماذا يكثر سماحة الشيخ من ضرب الأمثلة في محاضراته في الأمم السابقة كأمة موسى وعيسى مثلاً؟

جواب: أكثر من ضرب الأمثلة بالأمم السابقة لأننا من الناحية الدينية مرتبطون، يقول النبي صلى الله عليه وآله: "لتركبن طبق من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة وحتى أنهم لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلموه". فكل ما يجري في هذه الأمة له مثيلٌ ومشابهٌ في الأمم التي سبقتنا، ونحن إنما نتكلم عن تاريخ النبوات، تاريخ الرسل، وتاريخ الديانة الإسلامية في مراحلها المختلفة، في المرحلة الموسوية، وفي المرحلة العيسوية، وفي المرحلة المحمدية، ولو كان لنا اطلاعٌ وكتبٌ وتاريخٌ مدون عن الديانة الإسلامية في مراحل الأنبياء الذين سبقوا هؤلاء الأنبياء والرسل أيضاً لضربنا أمثلةً منهم لأنها دينٌ واحدٌ وشريعةٌ واحدة.

سؤال: أليس واجباً على الفقيه قبل الجواب عن أي سؤالٍ كان أن يبحث عن الوضع السائد في البلاد ثم الإجابة.

جواب: بلى، هذا هو الواجب، خاصةً في مثل بلادٍ يسمع أنه قد حصل فيها فتنة لمدة سنةٍ أو تزيد وأن هناك اختلافاً بين أهلها، كان الواجب عليه في أي سؤالٍ يرد إليه من ذلك البلد أن لا يجيب إلا بعد أن تكون له المعرفة الواسعة بما يجري، ولكن إذا قيل له إن أناساً يدعون إلى الإسلام،

ويريدون تطبيق الشريعة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يشجبون حرق بيوت الناس، ويحاربون من يهدم أسواقهم، وينددون بمن يأمر بمقاطعة العلماء والخطباء فيأخذون ويسجنون، طبعاً هذا لا يحتاج إلى سؤال، لأن من يقوم بهذه الأعمال يجب مناصرته، حتى لو قيل لي إن قوماً يدعون إلى تطبيق شريعة الله في الأرض ويحاربون المنكرات وبث الخصومات بين الشيعة ويطلبون من الشيعة أن يكونوا يداً واحدةً على الشيوعيين والملحدين ويحاربون من ينسق مع الشيوعيين، لكنت رأساً بدون شك، على مفروض السؤال سأؤيده، ولكن المشكلة هي أن الإنسان الذي يسأل العالم هذا السؤال إنما يريد تأييد أناس يؤيدون التفريق بين الشيعة، وهم أنفسهم الذين يدعون إلى المقاطعة، وهم أنفسهم الذين يشجعون على إهانة العلماء وحرب المساجد، وتسليط الشرطة على المساجد، وغير ذلك، ويطالبون بالبرلمان وينسقون مع الشيوعيين ومع ذلك يقول في سؤاله - في مفروض سؤاله - يدعون إلى تطبيق الإسلام، ما رأيك فيه؟ هل يجوز مناصرة مثل هذا أو الدفاع عنه أو تبرير عمله؟

سؤال: يقول السائل: في إحدى الليالي سمعت سؤالاً موجهاً إلى المحاضر هناك [لا نريد كلاماً عن الجنة أو النار بل نريد حلاً للمشاكل الحاضرة]، فما رأي سماحتكم في مثل هذا السؤال؟
جواب: هذا كلام شخص منزلق في الفتنة تماماً، لماذا؟ لأنه إذا كان لا يريد الكلام عن الجنة والنار، فالمشاكل هذه إنما نخاف منها لأنها توصل إلى النار، وإلا لو كانت توصلنا إلى الجنة لكننا نحمل أعلامها، ولو كنا نعتقد اعتقاداً جازماً واضحاً من الشرع، من كتاب الله، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وآله أنها توصلنا إلى الجنة لكننا ممن حمل أعلامها، وكل شيء عند المسلم إنما هو للفرار من النار وللدخول في الجنة، وربما ليس رغبةً في الجنة لهذه الدرجة، لا، لكن خوفاً من النار، هناك أسباب:

أولاً: النار ليست فقط محل عقاب، بل محل إذلال، ومحل إهانة، لأنها ناتجة عن سخط الله وغضبه وعن طرده ولعنته، وطبعاً المؤمن لا يريد أن يكون بعيداً عن ربه.

والشيء الثاني الرغبة في الجنة، ليس فقط لأن بها نعيماً، وفيها قصورا، وفيها الحور، فيها
الولدان، وفيها الأنهار، ليس كذلك فقط، فهي من جانبٍ ثانٍ هي دار كرامة الله، ودار عزته، ودار
رحمته، فكل مؤمنٍ يحب أن يكون قريباً من ربه، فالمؤمن لا بد أن ينظر في جميع الأمور إلى
الجنة والنار، ولا نريد كلاماً إلا كيف نصل إلى الجنة وكيف نفر من النار.
وصلى الله على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

الفتنة (3) *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين. عندما تعم الفتنة أي مجتمع أو أي أمة تتغير فيها أو تغير جميع أنماط الحياة، وجميع أنماط التفكير للغالبية العظمى من تلك الأمة، وعندما تنتشر فتنة في أي أمة من الأمم فإن أول ما تتجه الفتنة إلى زعزعة المفهومات، وإلى زعزعة الأسس الفكرية التي تحكم أنماط التفكير وأساليبه وطرقه، يتغير المنطق خاصةً الأسس العقلانية والأسس الفكرية التي تحكم أنماط التفكير وأساليبه وطرقه، يتغير المنطق تماماً في تلك الأمة التي تصاب بالفتنة العامة، فالخطأ يصبح صواباً والصواب يصبح خطأ. كنا في العراق في عام 1960، وفي تلك السنة انبثقت فتنة الشيوعيين، ولخصت جميع المطالب الشيوعية وبكل وضوح في عبارة صغيرة أقيمت للشارع العام: [حزب الشيوعي في الحكم مطلب عظيم].

فاذاً واضح من هذا الشعار أن الشيوعيين إنما يعملون ويسعون لحكم العراق، ولكن فتنهم أقيمت أول ما أقيمت بأساليب مختلفة إلى صغار السن العاجزين عن التفكير الجدي من أبناء الخامسة عشر والسادسة عشر والسابعة عشر وأقل من ذلك، وكذلك أهل القرى والريّساتيق ومحلات الأهوار البعيدة عن مراكز العلم ومراكز الحضارة.

وتلونت هذه الفتنة في كل مكان بلون، فالشيوعي يشرح للشيوعي أن المقصود بالشيوعي هو الشيوعي الذي يحب علياً؛ فيندفع حتى كبار السن من سكان المناطق البعيدة عن الحضارة وعن العلم إلى تبني مناهج الحزب الشيوعي والدفاع عنها، ويعتبر أن من يعادي الشيوعيين إنما يعادي الشيعة، فهو لا يستطيع هناك أن يقول إنه يعادي الشعب كله؛ لأنه ليس من مصلحة الشيوعيين هناك أن يتكلموا باسم الشعب كله، وهذه الفتنة أصبح فيها مثلاً مراجع التقليد مستهدفين بالسب، فالسيد محسن الحكيم العميل الأكبر للمخابرات المركزية الأمريكية، والخالصي محل تجميع

* في 26 رمضان 1417 هـ المصادف 1997/1/04م بجامع جدحفص

المعلومات للمخابرات الأمريكية المركزية، وبقية العلماء كلهم إما جواسيس وإما كانوا علماء البلاط الهاشمي الذي أطيح به، والعبارة الكبيرة المكتوبة على باب السيد محسن الحكيم رحمه الله: [هنا مقر المخابرات الأمريكية المركزية]، ولا إشكال في أن الشارع أيضاً صفق معهم بشعار [لموامنه جواسيس]، والمقصود ب[الموامنة] طلبة العلوم الدينية، وتعقل الإنسان الشيعي في العراق هذا المفهوم.

وما يجري في البحرين لو حللناه في طبيعته نجده من إلقاء نفس الفئة التي أقلت في العراق، فالجبهة الشعبية وجبهة التحرير الشيوعية في البحرين، عندما استطاعت تحصيل جواز المرور من قبل أناس يتسترون بالإسلام، وعندما تمكن أفراد الجبهة الشعبية وجبهة التحرير، وتمكنت هاتان الجبهتان أن تحصلا على جوازات المرور من قبل من يسمون أنفسهم بأحرار البحرين الإسلامية أو حزب الله أو غير ذلك تمكنوا أن يتسللوا إلى الناشئة في القرى، وفي الأرياف، ويلزمون مواقع تدريس الدين، وبعضهم يلبس العمة مع الأسف وهو عضو في الجبهة الشعبية، وأخذوا يعملون منذ عام 87 حتى عام 94 على بث هذه المفهومات وباسم الإسلام في أبناء هذا المجتمع.

ومن أجل ذلك كانت طبيعة ما حصل في البحرين هو نفسه الذي حصل في العراق؛ لأنه أتى من مصدر واحد هو الفكر الماركسي وبصياغة واحدة هي الجدلية الديالكتيكية، واستهدف نفس الشرائح التي استهدفت في العراق، أبناء الخامسة عشر حتى العشرين في المدارس، وفي المساجد، وفي غير ذلك، واستهدف الأشخاص البعيدين الذين لا يجالسون العلماء كثيراً حتى قيل لهم مثلاً بعد العريضة الثانية أننا إذا حصلنا على البرلمان فسوف يحصل كل إنسان على راتب شهري إن شاء الله من دون حاجة إلى أن يعمل، طبعاً أناس كثيرون يصدقون أمثال ذلك، أفكار طوبائية لكنها قابلة للتصديق وللعمل، وأناس مثلاً كانوا يلازمون العلماء، وهؤلاء بعضهم له فهم ولكن يأخذه الطمع، ويحب الزعامة، أو يحب الرئاسة، أو يحب الظهور، وبعضهم أيضاً، يجالس العلماء ولكن لا يدري ما يقال بمجالس العلماء.

المهم أن المستهدف في الفتنة في أي زمان، وفي أي مكان، هو الأسس الفكرية لتلك الأمة حتى يتبدل المنطق، وتتبدل ألوان التفكير، وتتبدل الأنماط والسلوك العقلانية التي يركز عليها السلوك العملي، خذوا مثلاً، لو جاء شخص قبل أربع سنوات وأحرق سيارة شخص آخر لأي سبب من الأسباب، فإن موقف المجتمع تجاهه سيكون التأييب، ولا يبالي المجتمع حتى أن يزج به في السجن، أما اليوم فإن الرجل لو لم يفعل شيئاً إلا أن يقدمه إلى المحاكم لمطالبته بحقه، لردعه، ولردع غيره، فإنه يصبح مجرمًا، ومتعاونًا مع الظالم، هذا هو المنطق لأن العقل لا يقف على قدمين، العقل في الوقت الحاضر - إلا في أفراد قليلين بالنسبة إلى المجتمع - منكوسٌ على رأسه، مصلوبٌ من جهة رجليه لا من جهة رأسه، ليس فقط مصلوباً، بل مصلوبٌ ومنكوسٌ.

ومن أجل ذلك فالأنماط السلوكية التي تتبع من الأنماط التفكيرية كلها ستكون بهذه المثابة، الناس تعيش على العنف، ولا يستطيع أن يواجهك، فهو يعرف أنه لا يملك حجة، فما الذي يفعل؟ في غفلةٍ يحرق سيارتك، وفي غفلةٍ يحرق بيتك، وفي غفلةٍ يلقي ابنك الصغير في الطريق فيضربه، وربما يوصله إلى الموت، ومع ذلك لو ذهبت لتطالب بحقك فعندئذٍ ستصبح في نظر الغالبية إنساناً متعاوناً مع الظالم، كيف يمكن مكافحة هذه الأنماط؟ لا بد من فضحها، ولا بد من إعلان أنها تأتي من الشيوعيين، سواء غضب من يواليهم أو لم يغضب، لا بد أن نقول إن الشيوعية وجدت جوازاً يسمح لها بالتسلل إلى أفكار أبناء المسلمين، هذا الجواز ختمه مع الأسف بعض حملة الدين، وإذا لم نفضح المقولة من أساسها فلا يمكننا أن نوقف هذه المهزلة في أمتنا وفي شعبنا.

ومن جهة ثانية أيضاً يجب مكافحة العنف، يجب أن ينتهي العنف في كل مكان، ومن يتسامح مع إنسانٍ يقوم بإرهاب إنسانٍ آخر أو بعملٍ عنفيٍّ تجاهه أو تجاه إنسانٍ آخر أو يطلب التسامح عنه، هذا في الحقيقة عدوٌ لنفسه وعدوٌ للشعب، يجب أن ينتهي العنف ويجب أن يعلم كلُّ إنسانٍ أن هذا ليس من طبيعة فكر المسلم، وهذا ليس من طبيعة سلوك المسلم، وأن ما يكون وما هو حاصلٌ لا يمت إلى الحضارة الإسلامية بصلة، ولا يمت إلى الدين الإسلامي بصلة، ولا

يمت إلى الخلق الإسلامي بصلة، وما لم يجند المثقفون والعلماء والشباب أنفسهم بالتبشير الحقيقي ضد ما هو موجود ويتركوا عنهم كل مجاملة لأي إنسان فإنه لا يمكن أن توقف هذه المهزلة، من كان يظن أن الشدة ضد هؤلاء هي سلوك مخطئ فهو مخطئ، لأن الفتنة لا يمكن إيقافها إلا بالتشدد تجاهها، وليس هناك شخص مخطئ تأتي لتتفاهم معه وتأخذه بالطيب من الكلام، هناك انقلاب في الأمة يجب عليك مقاومته، يجب عليك رده، ولو أن العلماء في العراق سايروا ذلك، سايروا الفتنة التي كانت قائمة لتحول الشعب العراقي فعلاً بل الشيوعي منه بالذات إلى إنسان شيوعي، ولكن المجابهة بالشدة وفضح الدخائل، ولم يبالي العلماء في النجف أن يخرجوا من بينهم أناساً يعلنون أن هؤلاء خونة للشيوعيين حتى وقفت الفتنة، لو قالوا لا نريد أن نقول عن هذا العالم الجليل صاحب الرسالة العملية أنه خان الأمة مع الشيوعيين لكانت لا تنتهي الفتنة، بعضهم طبع الحزب الشيوعي رسالته تحت عنوان: [مرجع الكادحين والشغيلة]، توجد رسائل عملية صدرت تحت هذا العنوان؛ لأنه رضي أن يسايرهم وأن يسكت عنهم، أما الباقيون فلا، رضوا أن يفضحوا حتى هؤلاء الذين رضوا بالمهادنة، ذلك أن تبدل الأسس الفكرية في أي أمة هو شيء خطير.

ويكفي أن الأحكام الشرعية في حالة الفتنة تختلف نوعاً ما عن الأحكام الشرعية في حالة غير الفتنة، مثال ذلك أنه في الفتنة قد يعلن الناس أنهم شيوعيون أو يعلنون أن الله غير موجود، مئات، بل آلاف، تنتهي الفتنة ويعلنون توبتهم، في هذه الحالة توبتهم ظاهراً مقبولة، لكن لو كانت لا توجد فتنة في المجتمع ويعلن شخص من الأشخاص أن الله غير موجود، ثم يقول إنني تبت لا تقبل توبته، ظاهراً لا تقبل توبته، لماذا، لأنه في حالة الفتنة يكون العقل البشري مصلوباً ومنكوساً، والفتنة تحرف، فالآن لو جئت لغالبية أهل البحرين لوجدت الفتنة محرفة، الذوق منحرف، الإنسان الذي يستسيغ حرق وإتلاف أموال الغير، أهذا له عقل؟ عقله مصلوب، أله ذوق؟ الإنسان الذي يؤيد هذا الإنسان ويدافع عنه ويحاول التستر عليه، أهذا له ذوق؟ أو له عقل؟ هذا الذي أحرق سيارة صديقه ألا يمكن أن يحرق بيتك غداً، حتى لو كنت أباه أو عمه أو أخاه.

فإذاً الكلام في حالة الهدوء والاستقرار للمخطئ يشترط فيه شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن توافرت وجب رده وإن لم تتوافر سقط رده، وأما في حالة الفتنة فلا يكون هناك أمرٌ بمعروف أو نهْيٌ عن منكر لأنك تتكلم وأنت تعلم أنه لا أذن صاغية، تتكلم وأنت تعرف أنه لا احتمال للتأثير، إذاً ما قيمة الكلام، فقط إظهاراً للحكم الشرعي، وتسجيلاً للموقف الشرعي، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله: "إذا ظهرت الفتن فعلى العالم أن يظهر علمه وإلا فعليه لعنة الله"، إذاً لا ينظر في الفتنة هل وجدت شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حقي أو لم توجد، لأنني لم آت هنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جئت فقط لأظهر الحكم الشرعي، ليكون ذلك حجةً لله على خلقه، ولأسجل لِنفسي الموقف الشرعي الذي أمرني النبي صلى الله عليه وآله أن أسجله لِنفسي في حالة الفتنة.

وصلى الله على محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

سؤال: ما هي أهم المفهومات التي حرفت في فتنة البحرين؟

جواب: بسم الله الرحمن الرحيم، فتنة البحرين لم يبق شيء من الجهات الفكرية إلا وتدخلت فيه وحرفته، حتى مفهومات القرآن مثل التقوى حرفت بأنها ليست خوف الله أو خشيته وإنما هي تحمُّل هموم الأمة، إلى هذا الحد وصل التحريف، فما بقي شيء حتى تسأل ما هي المفهومات التي حرفت، لم يبق شيء لم يحرف.

سؤال: لماذا لم تتصدوا لهذا التحريف من بدايته؟

جواب: من حين ما أعلن وقفنا ضده.

سؤال: لماذا لم تستعملوا سلطتكم الشرعية في مكافحة أصحابها وعزلهم عن المجتمع؟

جواب: مع الأسف أن البحرين لا توجد فيها سلطة شرعية، ويمتاز مجتمع البحرين بأنه يقبل كل معمم من دون حاجة إلى السؤال عنه أو حتى سؤال من يثق فيهم من العلماء الموجودين، وفتح المساجد أمام كل من هب ودب، وأنهم يستحرمون أن يمنعوا شخصاً من صلاة الجماعة لأن بعض الأطفال جاءوا بهم ليصلوا بهم. وفي سنة من السنين بعض العلماء منعوا بعض الأشخاص من صلاة الجماعة والجمعة في بعض المساجد وقامت القيامة عليهم ولم تقعد كما أتذكر في ذلك الوقت.

سؤال: تقولون بأن الشدة لا تردّها إلا الشدة، وهناك من يقول بأن الحكومة هي التي بدأت بالشدة فعلياً ردها بالشدة، فما ردكم على ذلك؟

جواب: أولاً أنا لم أقل إن الشدة لا ترد إلا بالشدة، والشيء الثاني أنا لا أتكلم عن الدولة ولا الحكومة، وعليك إذا كنت شجاعاً وتريد أن تواجه الحكومة أن تبرز إلى ميدان من الميادين وتواجهها كما فعل زيد بن علي مثلاً، وكما فعل الخوارج، وكما فعل جميع الشجعان والرجال؛ سواء كنت أويدهم أو لا أويدهم، وأن لا تكون فأراً تأتي في الليل أو تأتي متخفياً وتخرب شيئاً يستفيد منه المجتمع وتفر بجلدك، وتأتي الشرطة وتمسك الأبرياء وتعذبهم وأنت أيها الفأر لا تزال جباناً، لا تذهب إلى الشرطة وتعترف وتقول أنا فعلت وتصير رجلاً وشجاعاً.

سؤال: هناك من يعلل أعمال الحرق والتخريب بالحليّة وذلك مقارنة بما جرى في أيام الثورة الإيرانية من أعمال تخريبية في إيران.

جواب: أنا لا أدري إن كان جرت أعمال تخريبية في إيران أو لم تجر، ولكن حرق أموال المسلمين حرام في جميع الأديان، ومن اعتقد الحليّة فأمره خطير في الإسلام، ومن قال بالحليّة فقد شرع في الإسلام، ولا يجوز لأحد أن يتصرف في ملك الغير إلا لضرورة قصوى كإنقاذ نفس كما لو اشتعلت النار في منزل وفيها طفل ولا بد من خرم الجدار لإخراج الطفل لأنه لا يمكن الدخول إليه

من جهة الباب وأمثال ذلك، وأما التصرف في أموال الغير من غير ضرورةٍ قصوى كهذه فهو غَصْبٌ وحرامٌ وافتئاتٌ على الله سبحانه وتعالى، ولا يحل لأحد أن يفعله سواءً في البحرين أو في إيران، أو في الهند، أو في أيِّ مكانٍ يا أخي، ونحن لا يوجد عندنا معصوم إلا أربعة عشر معصوماً إذا أمروا بشيء أو فعلوا شيئاً نعتقد أن هذا شيء شرعي، وأما غيرهم فقد تكلمنا في الأسبوع الماضي عن غلو الشيعة في قضية الفقهاء، وأن الفقيه بشر عادي يمكن أن يصيب ويمكن أن يخطئ، وأن الشيعي من باب الأولى أيضاً يمكن أن يصيب ويمكن أن يخطئ، وهؤلاء الذين أخطأوا كلهم شيعة، ولكن دفعهم الشيوعيون الحاقدون على الشيعة، واستغلّوهم بعد أن حصلوا جواز المرور إليهم عن طريق معتمدين مع الأسف.

سؤال: قد يقول قائلٌ بأنكم تفكرون بعقلية الستينات في مواجهتكم للوضع السائد والآن زمن الصحوة الإسلامية كما يعبر، ألا ينبغي تغيير نمط التفكير ويتم ذلك بالاجتماع مع أصحاب الدعوة الموجودة للالتقاء في النقاط الجوهرية؟

جواب: إذا كان أصحاب الدعوة الموجودة هي الجبهة الشعبية وجبهة التحرير فمن يرضى أن يجلس معهم إلا خائناً لله ولرسوله، الشيء الثاني إننا نتكلم عن الحكم الشرعي، والحكم الشرعي يا أخي ليس من الستينات بل مضى عليه ألف وأربع مائة سنة؛ فإن كنت تراه من أساطير الأولين فلك أن تقول أنه من أساطير الأولين، وقد ورد في منشور وقع من بعض المعتمدين ينتقد خطبة الجمعة قبل أسبوعين قال فيها إن من يريد أن يعيش بالعقلية القديمة فذلك شأنه وأما شعبنا، لأنه يعتبر نفسه الشعب، فهو يريد أن يعيش العقلية الجديدة ويتحد مع الشيوعيين، إذا لم تكن قد قرأته فاقراه يا أخي، وافهمه، وافهم ما فيه.

سؤال: سماحة العلامة هل يجوز شرعاً الاستعانة بالظالم على ردة من يخالف الحكم الشرعي.

جواب: نعم، قال الفقهاء يجوز ذلك، منهم العلامة الحلي قال يجوز للفقهاء الشيعي أن يستعين بالظالم لإقامة الحدود ومنع الناس من المنكرات، ومنهم الشيخ عبد الله الستري قال يجوز للفقهاء أن يستعين بالظالم حتى في إحضاره أمام القاضي لو رفض الحضور أمام القاضي، وغير ذلك، نعم كلهم يجيزون ذلك، وهذا صعبٌ على من لعبت بعقليته مفهومات الشيوعية التي ألقاها بعض المعممين مع الأسف.

سؤال: ما حكم الحارق للسيارات والمنازل في القانون بحكم كونكم قاضياً؟ وما الحكم في الشريعة؟
جواب: لا أدري بالقانون ما هو حكمه، ولكنني أعرف حكمه في الشريعة، أولاً يغرم ثمن السيارة، ثانياً يعزر بما يراه القاضي مناسباً لردعه وردع غيره من ذكر اسمه في الصحف مع سجنه أو غير ذلك.

سؤال: في كلماتكم السابقة كنتم تحثون على اللين والرفق لحل الأمور فما القصد من الشدة في كلمتكم الليلية؟

جواب: ما أزال أؤكد على الرفق في حل الأمور، ولكنني لا أحث على الرفق مع الملحدّين الذين يريدون تحريف عقلية الشباب وإبقاء الفتنة لا تنتهي.

سؤال: ما رأي الإسلام الحنيف في ما يحصل في الجزائر من قطع رؤوس الكبار والصغار؟ وهل له أي صلة بتعاليم الإسلام؟

جواب: هذا السؤال يوجه إلى قادة الجزائر أو إلى قادة الإنتفاضة في البحرين وليس لي.

سؤال: لماذا لا تكون هنا دعوة لجمع العلماء للتصدي لهذه الفتنة وتعريف الناس ما يفعلون.

جواب: أعتقد أن كل العلماء على علمٍ بهذه الفتنة وواجبهم تجاهها.

سؤال: هل أصدر السيد محسن الحكيم رحمة الله عليه فتوى تجاه الفتنة وبالخصوص تجاه الشيوعيين.

جواب: نعم، هو لا يحتاج إلى فتوى ولكن حتى يفهم العامة من الناس الذين لا يعقلون شيئاً أصدر فتوى بعنوان الشيوعية كفرٌ وإلحاد.

سؤال: كيف نوفق بين وجوب إظهار الحكم الشرعي في زمن الفتنة والتقية من جهال الشيعة؟

جواب: التقية من جهال الشيعة فيما لا يضر بجوهر العقيدة، وأما في حالة الفتنة فلا يوجد هناك تقية من جهال الشيعة وإلا لخرجوا عن كونهم جهالاً للشيعة إلى كونهم أتباعاً للكفرة.

سؤال: ما معنى أسلوب الجدل الديالكتيكي الذي استخدمه الشيوعيون في العراق؟

جواب: الفلسفة الماركسية كلها مبنية على المادية الديالكتيكية وليس فقط في العراق، والديالكتيك تعني الجدل، باللغة الألمانية يقال ديالكتيك ويقصدون به العمل من خلال المتناقضات، بأن تشعل الصراع مثلاً بين فئتين، بين العمال وصاحب العمل مثلاً، أو بين العمال والدولة، هذا الذي يقصدون به، وقد أشعلوا الصراع بينكم والله الحمد مع بعضكم البعض، جعلوا الشيعي يشتم الشيعي، والشيعي يحرق بيت الشيعي.

سؤال: ما هو من وجهة نظركم الحل لوقف العنف من قبل الطرفين إن أمكن؟

جواب: لا يوجد عنف من طرفين، يوجد عنف من طرف واحد وهم أتباع الانتفاضة أما الجهة الثانية فدائماً معتدى عليهم، إلا إذا كنت تريد أن المعتدى عليه لا يرد من يعتدي عليه، ويراه يحرق سيارته ويقف مكتوف الأيدي حتى لا يدفعه، أو يهجم على المأتم ويفعل به ما يريد أو غير ذلك من الأمور.

سؤال: المقصود بالطرف الثاني الحكومة أو بقية الشعب؟

جواب: أنا لا أتكلم على الحكومة في شيء ولست وكيلاً عنها، الذي يريد أن يقول ذلك يريد أن يغالط، يريد أن يبين أنني أتكلم عن الدولة، هذا مخطئ، وأعرف هذه الحيلة، أي واحد يأتي بلفظ الدولة أو الحكومة في محاضرتي أو يسأل عنها اعتبره مندساً ويريد (ينبز) بأني أدافع عن الدولة، لا أنا لا أدافع عن الدولة، أنا أدافع عن الشيعة المظلومين الذين فرقهم الشيوعيون الذين حصلوا على جواز مرور في صفوفهم من قبل معمرين خونة، وليس لي علاقة بحكومة الدولة، وأنا أنتقد من يطالب بتطبيق دستور الدولة، وما هي الدولة تطبقه، هل الدولة تركت دستورها؟ أوقفت مادتين، وقد عملوا منهم حجة لك من أجل أن تركض وراءهم وهم لا يبيغون الديمقراطية، لا الجبهة الشعبية التي لم ترض أن تدخل الانتخابات تلك السنة ولا جبهة التحرير التي دخلت الانتخابات وقالوا ندخل للتخريب، ولكن لفظة ديموقراطية تغريك وليس عندهم طريقة ليتصيدوك إلا بذلك.

سؤال: فضيلة الشيخ نرى في تناولكم الظاهرة، أي الفتنة، في المجتمعات الغض أو التجاوز عن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي تحرك هذه الظواهر كغياب العدالة الاجتماعية أو غياب مبدأ تكافؤ الفرص وغياب حرية التعبير وهي أمور غالباً ما يتحمل النظام المسيطر أو الدولة الجزء الأكبر من ذلك. فما رأي فضيلتكم؟

جواب: ولماذا لم يطالب بحقوقه من دون أن يشعل فتنةً بين الناس، ومن دون أن يغير ويحرف الأسس الفكرية والعقلية والخلقية والدينية والاعتقادية؟ ألا يستطيع أن يطالب بما يشاء من الحقوق من دون أن يشرح مفهوم التقوى بما لا يراه الله؟ ألا يستطيع أن يطالب بحقوقه من دون أن يبرر للناس تجاوز أحكام الله؟ ألا يستطيع أن يطالب بحقوقه من دون أن يدعي أن الأحكام الشرعية تطرح في مقابل مصلحته؟ إلى غير ذلك، إذا كان لا يستطيع فعله أن يبتعد عن محل القيادة لأنه إنسان قليل العلم وقليل الخبرة وقليل العمل، وإن كان يستطيع فلماذا فعل؟

سؤال: كيف يمكن تبرير موقف الشيعة للعالم من أنهم ليسوا إرهابيين حتى صُرِّح مؤخراً بتأسيس الحركة الإسلامية في الجزائر بأن ما يجري في الجزائر هو من فكر الشيعة المتطرف؟

جواب: لا يمكن الرد بأن الشيعة ليسوا إرهابيين بتصريحات علماء الانتفاضة في البحرين بأنه يجوز تكسير [الليئات] وهذه الأشياء [ليش ما يجوز]، ويجوز حرق السيارات والبيوت والاستيلاء على المساجد والمآتم بالقوة واستعمال العنف ولو بيده، هذا كله رد والحمد لله.

سؤال: ما رأيكم في من يقول إنه لا داعي في هذا العام لإظهار مظاهر الفرح والسرور في عيد الفطر المبارك تضامناً مع المساجين؟

جواب: لن نعطل شعائر الله، ومن أراد أن يعطل شعائر الله فليعطل، ولو أردنا أن نعطل العيد لأجل أحد لعطلناه من أجل أمير المؤمنين عليه السلام، فلم يمض على ذكرى وفاته إلا تسعة أيام ولو كان ذلك لعطل الحسن عليه السلام وهو رئيس الدولة، قضية العيد في العام الذي توفي فيه أبوه، وإنما يريد الذي أصدر هذا، بعثه ليثبت للعالم بأن شيعة البحرين مطايا يمكن ركوبهم، وأنهم يقبلون أي أمرٍ مهما تنافى مع معتقداتهم ودينهم وشعاراتهم وكراماتهم وغير ذلك.

سؤال: ويستحب لبس الثياب السود؟

جواب: على أي حال إن تعطيل شعائر العيد هو حربٌ لله وليس حرباً للدولة، ونحن في الصلاة لا نقول: [اللهم إني أسألك بحق هذا اليوم الذي جعلته للمسلمين عيداً وللدولة ذخراً وشرفاً وكرامةً ومزيديا]؛ إنما نقول: [للمسلمين عيداً ولمحمد صلى الله عليه وآله ذخراً وشرفاً وكرامةً ومزيديا]، الذي يقول: [اللهم إني أسألك بحق هذا اليوم الذي جعلته للمنتفضين عيداً وللدولة ذخراً وشرفاً وكرامةً ومزيديا] هذا حر إذا عطل العيد وليس مأثوماً، وأما إذا قال: [اللهم إني أسألك بحق هذا اليوم الذي جعلته للمسلمين عيداً ولمحمد صلى الله عليه وآله ذخراً وشرفاً وكرامةً ومزيديا] ويعطل العيد أو يقعد بعد العيد فهذا يحارب محمداً وآل محمد، ويريد أن يذهب كرامتهم.

الحق*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين والسلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته.

نتكلم هذه الليلة عن معنى كلمة الحق، ففي هذه الأيام يكثر الحديث عن الحق، وتتردد هذه اللفظة على كل شفة ولسان. فما هو معنى لفظ الحق؟

لهذه اللفظة عدة إطلاقات، وقد يصعب إيجاد الجامع بينها، فالحق اسم من أسمائه تعالى، ففي القرآن الكريم وصف الله نفسه أو سمى الله نفسه بأنه الحق: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾¹.

والحق عند علماء الكلام والفلسفة يطلق على الموجود الثابت العين، فهو يساوق معنى الوجود أو معنى الموجود ولكن بشرط أن يكون ثابتا غير قابل للتغير أو التبديل، والحق يطلق بمعنى الصحيح في مقابل الباطل بمعنى الخطأ؛ فيقال فلان على حق أو فلان محق وفلان مبطل، فلان محق في دعواه؛ وفلان مبطل في دعواه، فيكون الحق في هذا الإطلاق ضد الباطل وهذا في الحقيقة يرجع إلى المعنى الأول أي الوجود في مقابل العدم؛ لأن العدم هو الباطل والوجود هو الحق.

ويطلق الحق على الأمور والاعتقادات الشرعية؛ فنقول إن الموت حق، وإن البعث حق، والنبوة حق، والإمامة حق إلى غير ذلك. فهذا أيضا إطلاق من إطلاقات لفظ الحق فيطلق عليه، والمقصود بإطلاق لفظ [حق] هو بأنه من شريعة الإسلام عندما نقول الكفن حق فإنما نقصد أنه أمر واقع من شريعة الإسلام وأن الله سبحانه وتعالى أنزله على نبيه، ويطلق الحق أيضا على معان أخرى لا نريد أن نطيل المقام في الكلام عليها وتعدادها.

ومن الأمور التي يطلق عليها لفظ الحق هو الحق بالمعنى المتشرع كما هو عند الفقهاء والقانونيين والأصوليين، وهذا المعنى أيضا له معان مختلفة، فالمال يسمى مالا في لغة الاقتصاد؛

* في 5 رمضان 1416 هـ المصادف 26 / 1 / 1996م بجامع جدحفص
¹ التور: من الآية 25

تقول البيهقي مال والدينار مال والبقرة مال وغير ذلك ولكن عندما تقع هذه الأشياء موضوعاً للتحاكم والقضاء تسمى حقوقاً وتسمى حقاً، فعندما يبيع زيد بيته على عمرو بألف دينار مثلاً أو أكثر يكون البيت حقاً للمشتري ويكون الثمن حقاً للبائع.

فالحق إذن أطلق على ما يصح عند العقلاء التمول به؛ يعني ما اعتبر العقلاء أن له قيمة يصح أن يتداعى عليه الناس ويتشاجر يسمى حقاً، والقيمة طبعاً تارة تكون قيمة استهلاكية وتارة تكون قيمة عينية، فالقيمة الاستهلاكية هي هذه الحاجة أو هذا الشيء يسد حاجة لزيد، فاللحم مثلاً له قيمتان، قيمة استهلاكية وأنه يسد جوعاً، وقيمة عينية وهو أن الكيلو من لحم الغنم يساوي نصف كيلو من سمك الصافي، فإذن له مقابل عيني آخر أيضاً، وتسمى قيمة، وتعادل القيم دائماً بالنقد، وأي بلد يكون فيه تقدر قيمة اللحم أو السمك أو الرز أو السكر لسهولة المعاملات بالنقد بدلاً من مقايضتها مع بعضها البعض، ويكون النقد هو الدينار أو الدرهم أو الجنيه أو غير ذلك. هذه القيمة هي التي سببت أن يتنافس العقلاء في هذه الأشياء ويعتبروا أن لها قيمة، وأن لها مالية، لأنها تسد حاجة ما عند الإنسان. فلا بد إذن أن يعترف الشارع أيضاً بأن لها قيمة استهلاكية فعلاً، وأن يعترف بتلك القيمة الاستهلاكية حتى يصح أن تكون لها قيمة مالية، فالشارع مثلاً أهدر قيمة الخمر الاستهلاكية بمنعه من استعماله وشربه وغير ذلك؛ فلم تبق له قيمة مادية نظراً لأنه لا يسد حاجة عند المسلمين، فلو أن مسلماً أراق خمرًا لمسلم لا يستطيع ذلك المسلم أن يقول إنه أتلف حقي أو ذهب بحقي ويقاضيه ويطلب مقابله ثمنًا أو خمرًا إلا في حالة واحدة هو أن يكون ذلك المسلم ممن يعمل في صناعة الخل ويحتاج إلى تخمير الرطب أو تخمير العنب لتحويله خلا؛ ففي هذه الحالة لو أحرق المسلم مصنع ذلك المسلم وأتلف الخمر الذي فيه فعندئذٍ له أن يطالبه بالتعويض والغرامة وإيقاع العقوبة عليه؛ لأنه أتلف عليه ما يعتبر مالا عند الشرع وعند العقلاء. فإذن لا بد أن يكون هناك اعتبار من الشرع واعتبار من العقلاء بالمالية حتى يسمى ذلك الموضوع حقاً في مقام القضاء.

وهناك إطلاق آخر أيضا عند الفقهاء والمشرعين والأصوليين في معنى الحق وهو الالتزامات المتبادلة بين الناس، نقول للولد حقوق على والده، وللوالد حقوق على ولده، وللبايع حق على المشتري، وللمشتري حق على البائع، والعامل له حق على صاحب العمل، وصاحب العمل له حق على العامل، هذه الحقوق المتبادلة بين الناس لا بد أن يكون لها مصدران، مصدر عقلائي ومصدر شرعي، و لو فقدت أحد المصدرين لا يمكن اعتبارها حقا، فالعقد الذي يجري مثلا بين المؤجر والمستأجر ينشأ عنه التزام على كاهل المؤجر، و يستطيع المستأجر أن يقاضيه عليه ويلزمه بالوفاء به، ويقول أمام القاضي إنه أذهب حقي، ذلك أن على المؤجر أن يخلي بين المستأجر والعين المؤجرة ليستوفي منافعتها مدة عقد الإيجار، وكذلك للمؤجر حق على كاهل المستأجر وهو دفع الأجرة من جهة، والمحافظة على العين المؤجرة من جهة أخرى، ويستطيع أيضا المستأجر أن يقاضيه ويقول أذهب حقي، ويطلب بالوفاء به. فهذا هو المصدر العقلائي.

ولا بد أيضا أن يكون هناك مصدر شرعي يقر هذا البناء العقلائي ويعترف به حتى يكون العقد مؤثرا في المعقود عليه، فتنشأ الالتزامات والحقوق المتبادلة منه، فلو كان المؤجر أجره الدكان ليفتحه خمارة ثم لم يسلمه البيت فإنه لا يستطيع أن يقيم الدعوى ويطلبه بالوفاء بالعقد ويقول أنك قد أذهبت حقي، وذلك لأن هذا العقد وإن كان في البناء العقلائي منتجا للالتزامات المتبادلة ولكنه فاقد للاعتراف الشرعي، فإذا فقد الاعتراف الشرعي ينتفي من أصله، وطبعا العدم لا ينتج منه إلا العدم، يعني ليس هناك عقد مطلقا، لا أنه يوجد هناك عقد فاسد، فلا فرق بين العقد الباطل والعقد الفاسد في الفقه الجعفري وإن كان هناك فرق بينهما في الفقه الحنفي، ولكن لم يتضح لنا لحد الآن الفرق بينهما حتى في الفقه الحنفي. كذلك عقد العمل؛ فلو أجر نفسه أن يعمل عند زيد إما بالقطعة وإما بالمدة من الزمان، فأجر نفسه أن يسقي له عشرين (شريا) أو أجر نفسه أن يسقي له زراعته لمدة شهر، فإن كلا العقدين صحيح، يعني يصح للإنسان أن يؤجر نفسه في العمل بالقطعة أو بالمدة من الزمان، و تنشأ التزامات على كاهل صاحب العمل والعامل، ويلزم كلا

منهما أن يفى للآخر بالالتزام الذي في ذمته له، هذا الالتزام بالنسبة للطرف الآخر أيضا يسمى حقا، فهذا أيضا حق.

طبعا هذه كلها نسميها بالحق الخاص لأنها تنشأ بين الأفراد ولا تنشأ في المجتمع ككل، فهناك نوع من الحقوق أوسع من هذه الحقوق لا تكون بين زيد وبكر، أو بين عمرو وبين خالد، ليست حقوقاً والتزامات تنشأ بين الأفراد، فهناك حقوق عامة، وعندما يكون الإنسان فردا من جماعة تنشأ على كاهله التزامات للجماعة، وتكون له حقوق على تلك الجماعة، وهذا واضح جدا من إعلان الرسول صلى الله عليه وآله بأنه من قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله كان له ما لنا وعليه ما علينا.

كيف نشأت الحقوق العامة؟ وكيف وجدت؟ وهل يمكن أن تكون الحقوق العامة بين كل الأمم واحدة؟ أو أن الحقوق العامة تختلف من أمة إلى أمة؟ لابد من الجواب عن هذين السؤالين. طبعا في أوروبا يختلفون في تفسير الحقوق وتحديد ما هي الحقوق العامة. وهناك نظريات مختلفة في هذا المجال، فهناك مثلا نظرية الحقوق الطبيعية، وهي أن الطبيعة بذاتها أعطت الإنسان حقوقا؛ فحق التنفس حق طبيعي لكل إنسان لا يجوز للآخرين أن يعتدوا عليه وأن يسدوا أنفه ويمنعوه من التنفس، وحق الحياة، وحق الشرب، وحق الأكل، وحق الزواج، وحق العمل وغيرها من الحقوق. وكلها تفسر على أساس أنها حقوق طبيعية وأن الإنسان يولد حائزا على هذه الحقوق من الطبيعة نفسها، وإن كان أصحاب هذه النظرية يختلفون فيما بينهم في مدى سعة هذه الحقوق ومدى ضيقها. و لا إشكال في أن الإنسان يولد مزودا بحق التنفس وحق النظر وحق السمع وحق الكلام وحق الأكل والشرب؛ ولكن إلى أي حد له الحق في النظر مثلا؟ فهل له الحق في النظر إلى كل شيء حتى ما في بيوت الناس؟ وإلى أي حد له حق الأكل والشرب؟ هل له الحق أن يأكل كل شيء؟ ثم إن هناك أمورا تسمى حقوقا لا يولد الإنسان مسلحا بها مثل المشاركة في إدارة المجتمع، فإن الإنسان لا يولد مسلحا بهذا الحق.

ونظرية الحقوق الطبيعية تعجز عن تفسير جميع الحقوق التي تتوافر في المجتمع لأفراده.

بعضهم يقول قول آخر وهو أن مصدر الحقوق العامة هو عقد اجتماعي، فكأن المجتمع إنما نشأ وإنما كان على أساس تعاقد بين أفراد، أن أنتازل عن جزء من حرياتنا مقابل أن نحصل على أمور أخرى، وبطبيعة الحال فإن أصحاب هذه النظرية يرون أن كل الحقوق سواء الحقوق العامة أو الحقوق الخاصة ليس لها إلا مصدر واحد هو العقد، فتارة يكون العقد فردياً مثل عقد البيع وعقد الهبة وعقد الزواج وغيره، وتارة يكون العقد الاجتماعي، وكما أن الحقوق الخاصة تنشأ من العقود الفردية فالحقوق العامة تنشأ من العقد الاجتماعي.

وهذه النظرية أيضاً تعجز عن تفسير كثير من الحقوق حتى الفردية، ومثال ذلك وجوب نفقة الأبناء على الآباء، فمتى تعاقد الابن مع أبيه حتى نشأ له هذا الحق؟ فإن مصدر إنفاق الآباء على الأبناء والزامهم بالإنفاق عليهم لا يمكن تفسيره بنظرية العقد. كذلك في الحقوق العامة، فالإنسان يولد في هذا المجتمع لا يشعر أنه تعاقد مع هذا المجتمع، ولو أراد أن يترك هذا المجتمع ليعيش في غابة منفرداً أو يضع له خيمة في إحدى الصحارى ليعيش فيها منفرداً ما عارضه أحد ولم يقل له أحد أنك تعاقدت معنا وعليك أن تلتزم لنا بما تعاقدت، ولا أظن أن هناك مجتمعاً يحجر على الأفراد أن يتركوه إلى مجتمع آخر، أو أن يعيشوا في الغابات، أو على رؤوس الجبال أو في الصحارى. فالعقد الاجتماعي لا تفسره الحياة الواقعية الموجودة، ولم تذكر كتب التاريخ أنه حصل في يوم من الأيام، اللهم إلا أن يكون ما تفرضه الحياة يسمى عقداً؛ ولكن هذا لا توجد فيه حرية اختيار، والتعاقد يحتاج إلى حرية الإرادة، وما لم تكن الإرادة حرة في الإبرام والرفض فلا يصح أن تسمى العملية عملية تعاقد؛ فلو أراد إنسان أن يأتي إلى أي قرية من قرى البحرين مثلاً ويتخذ له صديقة وخدينة فهل يستطيع أن يعيش؟ لا. لا يستطيع أن يعيش، ولكن لو جاء واتخذ له زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة فهل يتكلم له أحد؟ هل يعارضه أحد؟ لا يعارضه أحد. ولو ذهب إنسان إلى أي قرية من قرى بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو في أوروبا وأراد أن يتخذ له زوجة ثانية ربما يرحمه الجيران بالأحجار، ولكن لو قال فلانة صديقتي أو خدينتي لم يفعلوا شيئاً.

فإن لا يوجد هناك إرادة في اختيار الشيء أو رفضه حتى يسمى عقداً، فالمجتمع يتباني على مواضع معينة يفرضها على كل من يعيش في ذلك المجتمع سواء كان من أبنائه

الأصليين أو من الطارئين عليه الذين اختاروا العيش في وسطه. ففضية العقد الاجتماعي مشكوك في أصله، إضافة إلى أنه لا يمكن أن يفسر كل ما يدعيه الإنسان من الحقوق.

فبالنسبة للمجتمعات الإسلامية الحقوق العامة ليس لها إلا مصدر واحد؛ هذا المصدر هو الشريعة ذاتها، بل كثير من الحقوق الفردية ليس لها إلا الشريعة مصدر، فوجب إنفاق الأبناء على آبائهم ليس له مصدر إلا الشريعة الإسلامية، وكذلك الحقوق العامة ليس لها مصدر إلا الشريعة الإسلامية.

في أوروبا وعند قيام الثورة الفرنسية صدرت وثيقة تحدد الحقوق العامة، وهذه الوثيقة صدرت من طبيعة الحياة التي أفرزتها أو من طبيعة الظروف التي أفرزتها الحياة في الإمبراطورية، وأفرزتها أيضا النهضة الصناعية في أوروبا حيث وجدت طبقات جديدة، ووجدت أفكار جديدة، ووجدت فلسفات جديدة، بعضها إحادية، وبعضها ليست إحادية، وحصل هناك صراع وتصادم بين الفئات التي اعتبرت نفسها مهضومة، وبين الفئات التي اعتبرت أن الآخرين إنما يريدون أن يسلبوها ما تمكنت من تحقيقه بنشاطها وبفعلها وبكفاءتها. وعندما حصلت الثورة اجتمع فلاسفة الثورة وفي حالة غليان صدرت وثيقة تحدد الحقوق العامة في المجتمع الفرنسي. وكذلك في كثير من المجتمعات الغربية.

وظهرت فكرة الديمقراطية كحل بديل للتصارع بين الفئات المختلفة. وحسب تعبير الإنجليز: [الورقة بدل الرصاصة] ولكن حددت هذه الحقوق العامة في ثلاثة حقوق وهي حرية العمل، حرية القول، حرية الفكر. وهذه هي الحقوق العامة التي حددت في ذلك الوقت، وعلى أساس منها قام المجتمع الأوروبي الحديث.

بالنسبة للمسلمين كما قلنا فإن الحقوق سواء العامة أو الفردية يجب أن تحددها الشريعة الإسلامية، والنمط الحياتي الذي يجب أن يسود بين المسلمين يجب أن يكون مؤطرا بمعطيات الشريعة الإسلامية. لأننا لا بد أن نوجد لنا المصدر الذي نعتمد عليه في تحديد الحقوق وأن لا يبقى هناك خلاف ونزاع فيما هو حق وما هو ليس بحق، وعندما يبقى الجدل قائما من دون وجود

مصدر فإن الخلاف لا يمكن أن يحسم وإنما يبقى فقط تصارع وتغالب. ومن يغلب يفرض رأيه ويفرض ما يذهب إليه لأنه لم يوجد هناك ميزان، لم يوجد هناك فيصل يقضي بالحق بين المتنازعين، في أوروبا مثلاً سواء في الشرق أو في الغرب إذ إنه لا يوجد فيصل يقضي بين المتنازعين فالمعارك تحسم دائماً بالقوة، وحتى في أحسن البلاد ديمقراطية عندهم تجد أن الغلبة دائماً لطرف دون طرف، سمه الأكثرية إن شئت، لأننا لو جئنا إلى الديمقراطية لوجدنا أن كل ما فعلته هو أنها لطّفت الصراع، لطّفت وسائل الحرب فبدل استعمال الرصاص، وبدل استعمال السيوف، وبدل استعمال الخناجر، استعملت الورقة، ولكنها معركة على أي حال، حرب على أي حال. ولو سئلتوا بأي حق يجب أن تخضع الأقلية للأكثرية، لما وجدوا سبباً مقبولاً، ولا يوجد إلا قوة الأكثرية وهيبتها. فإذا رجعت إلى الشرق فإنك تجد المعارك، والانشقاقات، والانقلابات العسكرية هي الفيصل في حسم المواقف وحسم الأمور.

إذن لا يوجد هناك فيصل لحسم الخلاف بحق، لا يوجد فيصل محايد، هل نريد لأنفسنا نحن أيضاً أن نعيش حياة لا ينتهي منها التصارع، ولا ينتهي منها التغالب فننادي بنظريات جريت عند غيرنا ولم تصلح أن تكون فيصلاً في الموضوع، لا أظن أننا نريد ذلك، فإذا ما هو الفيصل؟ كيف أستطيع أن أقول إن هذا حق أو أن هذا حقي؟ وكيف يستطيع غيري أن يقول لا؛ هذا ليس حقي؟ من الذي يحكم بيننا؟

سوف نبقى في خلاف دائم لا ينتهي إلا بأن نرجع إلى الأصل الحقيقي الذي انبنى عليه مجتمعنا، الأصل الحقيقي الذي انبنت عليه مجتمعاتنا هو الشريعة الإسلامية. فكلما تنازع الناس في شيء حتى يصل إلى حل لنزاعهم، حتى يلجئوا إلى فيصل يفصل الخلاف بينهم، يجب عليهم الرجوع إلى الشريعة الإسلامية، فما تذكره الشريعة الإسلامية أنه حق يكون حقاً، ومن منع صاحبه من استعماله يكون بموجب الشريعة الإسلامية ظالماً، وأما إذا لم يكن هذا الشيء أو هذه الممارسة مقررّة في الشريعة الإسلامية فمن يصر على ممارستها أو يطالب بها وهي غير مقررّة في الشريعة الإسلامية يعتبر مبطلاً، وإذا أصر على ممارستها مفترياً على غيره عد ظالماً، فإذاً الفيصل

الحقيقي فيما يصح للإنسان أن يعتبره حقا وما لا يصح له أن يعتبره حقا هو أن يكون مقررا في الشريعة أو غير مقرر، وأحسن كتاب تعرض للحقوق عامها وخاصها منذ بداية الإسلام إلى اليوم هو كتاب الإمام زين العابدين عليه السلام في الحقوق، وأنا أنصح الشباب والمتقنين بقراءته ودراسته والتمعن فيه مع ملاحظة ما ذكره الفقهاء في كل باب من الأبواب التي تعرض إليها الإمام عليه السلام. ينبغي أن يرجع الإنسان إلى ما ذكره الفقهاء في كتبهم عن هذا الموضوع الذي يذكره الإمام حتى يتجلى له حقيقة ما يقصده الإمام صلوات الله وسلامه عليه وحتى يعرف ما هو الحق وما هو الباطل في قضية الحقوق العامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سؤال: هل يمكن اعتبار الإنسانية حقا من الحقوق العامة وذلك بأن أعتبر غيري من غير المسلمين أخا لي؟

جواب: الإنسانية لها وشائج رحم، ويقول أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه في عهده لمالك الأشتر رضوان الله عليه: "واعلم أن الناس صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق" ولم يجعل الناس إخوة كلهم، نعم لو لم يغيروا ولو لم يبدلوا عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها لكانوا كلهم إخوة فجميعهم يعودون إلى أب واحد وأم واحدة، الإنسانية تفرض بعض الأشياء على الإنسان؛ و مثال ذلك، لو مر المسلم على وثني أو على ملحد يكاد أن يحترق بالنار ينقذه، ولو مر المسلم على وثني أو على ملحد يكاد أن يموت من العطش يبيل عطشه، وليس له عليه أكثر من هذا، وهذا ما يقتضيه التناظر في الخلق، أن يساعده على البقاء حيا. وأما أن تكون له الحقوق التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وآله "يكون له ما لنا وعليه ما علينا" وهو لا يشهد الشهادتين ولا يلتزم بمقتضياتهما فلا، نعم كل من شهد الشهادتين واستقبل هذه القبلة ولم يتجاهر بترك ما فرض الله سبحانه وتعالى فله ما لنا وعليه ما علينا. أما إذا لم يؤمن بالله سبحانه وبملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فليس له ما لنا وليس عليه ما علينا، كل ما هناك باعتباره

نظير في الخلق له علينا إذا ما تعرضت حياته لكارثة من حريق أو غرق أو ظمأ أن نساعده على بقاء حياته، وليس له أكثر من هذا.

سؤال: هل الديمقراطية حق في الإسلام؟

جواب: الإسلام لا يعرف الديمقراطية، الديمقراطية نظام كما ذكرنا سابقاً نشأ ووجد في أوروبا كإفراز للصراع الدائر بين فئاتها وشرائح سكانها، وهو يعتمد على معطيات معينة ويقر بحكم الأكثرية على الأقلية، هو لم ينف الصراع بين أبناء المجتمع، وهو لم يحل الخلاف بين أبناء المجتمع، وهو لا يقول هذا حق وهذا باطل، فربما أكون على باطل ولكن الغالبية معي، وربما تكون على حق لكنك أقلية، كل ما هناك أنه بدل وسائل المحاربة، ووسائل الصراع من السيف والرمح والرصاص والمدفع إلى الورقة والاقتراع، لكنه لم يأت بشيء يفصل به بين المحق والمبطل. الحسنة الوحيدة التي في الديمقراطية هي أنها تمنع الأكثرية أو المختلفين أن يرهب كل منهما الآخر في الدعوة لرأيه، يعني أنا أستطيع أن أدعو لرأبي بحرية مع بقاء شخصيتي محترمة لا تهان، ولا أتعرض لا أنا ولا ممتلكاتي ولا أبنائي ولا من يقول برأبي إلى الخطر، وأنت أيضاً تستطيع ذلك. ليس للديمقراطية حسنة أكثر من ذلك، هل رفعت الظلم؟ لا، لم ترفع الظلم، هل حققت العدل؟ لا، لم تحقق العدل، هل صلحت أن تكون فيصلاً بين المحق والمبطل؟ لا، كل ما هناك صار القوي بدل أن يحارب الضعيف بالسلاح ويقضي على حياته، يحاربه بالورق، ونتيجة الغلبة يكون هو الفائز.

الإسلام ليست هذه طريقته، وليست هذه طبيعته، وهو لا يعرف هذه التي تسمى

بالديمقراطية، ولم تنتج عن تشريعاته ولا عن وحيه.

يقول الشاعر:

الحق ما اجتمع السواد عليه

قاعدة يتخذها الكثير من الناس، من أين جاءت هذه القاعدة؟ من كتاب الله؟ أو من سنة رسوله صلى الله عليه وآله؟ أو من أقوال المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم؟ وهذه القاعدة لو صحت لكان مذهب الشيعة باطلاً فإن السواد أجمعوا على خلافة أبي بكر لا على خلافة علي. ومن أراد أن يتذرع بها من الشيعة فبارك الله له في إيمانه بنص الرسول في أمير المؤمنين عليه السلام.

سؤال: إذا لم يكن هناك عقد اجتماعي منصوص بين أفراد الشعب بعضهم لبعض أو بينهم والحكومة تحدد الحقوق فماذا تعتبر المبايعات التي كانت تأخذها الحكومات مثل بني أمية على الشعب؟

جواب: هذا السائل في الحقيقة خلط في سؤاله خطأ عجيبا، أولا أن أصحاب نظرية العقد الاجتماعي يتكلمون عن نشوء المجتمع وتكونه وترتب الحقوق فيه بين أفرادهم وجماعته سواء منهم الحاكم والمحكوم أو غير ذلك، الشيء الثاني أن البيعة لم يكن بنو أمية يأخذون بها، ولم يكن بنو العباس يأخذون البيعة؛ لأن بني أمية وبني العباس ألغوا نظام الخلافة وحولوا الحكم من نظام الخلافة إلى نظام الملك العضوض. فعندما مات معاوية كان قد ألزم الناس بابنه يزيد، وعندما مات يزيد بايع بنو أمية -وليس المسلمين- ابنه معاوية. إلا أنه أعلن لهم أن هذا ليس من حقه ولا من حق أبيه وجده واعتزل الموضوع، فاختر بنو أمية مروان بن الحكم ليكون خليفة، وبقي لفظ خليفة يطلق بدلاً من لفظ الملك لأن الأمة أيضا لا تتحمل مثل هذا اللفظ في تلك الفترة الزمنية، وأصبح مصطلحا أن يطلق على ملوك بني أمية وملوك بني العباس لفظ الخلافة، وما كان الشعب بأسره يُدعى إلى البيعة بعد معاوية مطلقا.

والبيعة التي تسمع بها هناك بيعتان وليست بيعة واحدة، والنبي صلى الله عليه وآله أخذ لنفسه بيعتين، بيعة تسمى بيعة النساء، وبيعة تسمى بيعة الحرب، بيعة النساء لأنه صلى الله عليه وآله أخذها على الرجال والنساء؛ فسميت بيعة النساء، وهذه البيعة إنما هي على الإيمان بالله

والإيمان به صلى الله عليه وآله كرسول، وأن يلتزم هذا المؤمن بأداء الواجبات الدينية والامتثال عن المحرمات الشرعية، حتى أنه جاء في بيعة النساء "وأن لا آتي بفاحشة من بين يدي ولا بين رجلي ولا كذا وكذا.. إلى أن قال ولا أزي" فهذه بيعة، بيعة النساء وهي البيعة العامة، وقد أخذت على النساء والرجال.

وهناك بيعة أخرى أخذها النبي صلى الله عليه وآله وهي التي قال عنها القرآن ﴿لِإِنَّ الَّذِينَ

بَايَعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾¹، هي بيعة الحرب، يعني بايعوه على أن يحاربوا معه وأن يقاتلوا معه في سبيل الله، وأن يدافعوا عنه وعن أهله كما يدافعون عن أموالهم وأهليهم وأبنائهم وأزواجهم، فإذن هاتان هما البيعتان، والنبي صلى الله عليه وآله أخذ بيعة النساء لعلي يوم الغدير فأمر جميع من معه بمبايعة علي بالإمامة، كما بايعوه بالنبوة وأمر نساءه أيضا ونساء الحجاج الذين معه بمبايعة علي عليه السلام بإمرة المؤمنين؛ مع أنه في اعتقادنا أن النبوة من الله سبحانه وتعالى، وأنه يجب على الناس أن يقبلوا بالرسول الذي يبعثه الله ويقوم له المعجز، وأن الإمامة أيضا في اعتقادنا نحن الشيعة من الله سبحانه وتعالى وأنه يجب على الناس أن يؤمنوا بالإمام الذي ينصبه الرسول صلى الله عليه وآله لهم بأمر من الله. فالبيعة هذه إنما هي للموالاتة والطاعة وليست لتحديد الحقوق والواجبات على رسول الله صلى الله عليه وآله أو على أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه.

وأين السائل من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ

يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾²، فإذن ليست هذه البيعة التي تذكرها كما في الديمقراطية التي لا يعي كثير من الناس مفسدها ويظن أنها خير نظام أخرجت لأهل الأرض حتى أنه يفضلها على النظام الإسلامي الشرعي ويطالب بها، هذه البيعة فقط إلزام للمبايع على الطاعة. والبيعة التي كان يجريها ملوك بني أمية وبني العباس على جنودهم وعلى عوائلهم إنما هي للإلزام بالطاعة والولاء

¹ الفتح: من الآية 10
² الأحزاب: من الآية 36

والإخلاص. ولا يزال الملوك والأمراء يأخذون البيعة لأنفسهم على عوائلهم ووزرائهم وأجنادهم على الولاء والطاعة والإخلاص، وأنتم تعرفون أنه في مرات كثيرة مات بعض الملوك أو حصلت انقلابات على بعض الأمراء.. .. فقد يثور ولد على أبيه فيأخذ البيعة على عائلته، لكن هل سمعتم أنه دعى الشعب لذلك أو دعاهم ليحدد الحقوق والواجبات؟
لا علاقة للبيعة التي كانت تؤخذ في الأزمان القديمة بتحديد الحقوق والواجبات، وإنما البيعة كانت تؤخذ على الطاعة والمناسحة والإخلاص والولاء.

سؤال: ما رأيك في هذه المقولة: إن في اختلاف أمتي رحمة؟

جواب: هذا حديث ولكن ليس هذا نصه، وإنما نصه "اختلاف أمتي إلي رحمة" والمقصود باختلافهم ليس تباينهم؛ أي اختلافهم وتنازعهم، وإنما الاختلاف بمعنى المجيء والذهاب، اختلاف أمتي إلي رحمة، يعني بعضهم يأتي وبعضهم يذهب، ولذلك نقول عن أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين [ومختلف الملائكة] أي الذين تختلف لهم الملائكة، هذا آت وهذا ذاهب، فاختلف أمتي إلي رحمة يعني يأتون يأخذون العلم ويأخذون الأحكام ويأخذون الشريعة، وليس ما فهمته أن النبي صلى الله عليه وآله يريد لأمته أن تتضارب وتتنازع؛ فليس هو الاختلاف الذي بمعنى التباين أو بمعنى التضارب والتنازع، لا.

سؤال: في الوقت الحاضر إذا تكلم الإنسان عن حق أو دافع عن كلمة حق يعتدى عليه، وقد يتعرض للأذى، فهل الدفاع عن كلمة الحق هنا واجب أو محرم كما جاء في فتاوى الشيخ محمد أمين زين الدين؟

جواب: لتلم بالموضوع سواء من أي جهة حصلت الأذية أرجو أن تقرأ محاضرات السنة الماضية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تستمع إلى الأشرطة.
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الحرب العقائدية *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمتنا في هذه الليلة لا تدخل في عرض المحاضرات، وإنما قصدنا بها أن تكون كلمة ننبه فيها إلى أمور تعرض دائماً للجيل المؤمن، ذلك هو التنبيه على ما يفعله أعداء الحركة الإسلامية الإيمانية من دسائس ومن وقائع أو إيقاع بينهم.

وفي الحقيقة فإن الحرب العقائدية دائماً تعتمد على الإعلام والإشاعة، والإعلام والإشاعة في غالبه يعتمد على البهت وعلى التشويه؛ أي أن وسائل الحرب الإعلامية في دنيا العقائد المختلفة، والتيارات الفكرية المتضاربة هي دائماً محاولة التشويه والإيقاع وإيجاد الاختلاف بين أصحاب التيار الواحد، وهذا الأسلوب ليس من مبتكرات هذا العصر الحاضر، وإنما مر بمراحل متقدمة ومتطورة في هذا التاريخ، بل ربما يعود تاريخه إلى ما قبل الإسلام.

وهذا الأسلوب من الحرب اتخذ صوراً وأشكالاً مختلفة، ومن هذه الأشكال أو من هذه الأساليب إيجاد تيارات فرعية ضمن التيار الديني العام حتى تقوم هذه التيارات الفرعية المختلفة في صراع داخلي فيما بينها، وفتح معارك جانبية تلهي المجتمع المؤمن، وتلهي المؤمنين عن التوجه إلى الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وتجعلهم مشغولين بأنفسهم، وفتح هذه الجبهات الداخلية المختلفة أو التيارات الفرعية المختلفة في الغالب يعتمد تخطيطاً خبيثاً وهو أن تظهر الفئة التي تريد إيقاع الاختلاف بين المؤمنين بالتمسك بشخصية أو مجموعة شخصيات من المؤمنين، ومحاولة نبذ بقية الشخصيات وضمهم والتشويه عليهم، ويكون التستر على هذه الحالة بالتعصب إلى فئة من هذه الشخصيات.

وهذا الأسلوب أول ما عثرنا عليه في رسائل [بولس]، وبولس هو الذي حرف الديانة المسيحية وأوجد هذه الكنيسة الموجودة في أيامنا، بولس هو أحد الذين ابتكروا هذا الأسلوب الذي سوف أتكلم عنه، ولا بد أن أعطي نبذة عنه، بولس كان يهودياً متشدداً ضد تلامذة السيد المسيح، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، وقد استأذن الوالي الروماني في القدس والتي هي أورشليم بقتل آلاف ممن اعتنق الديانة المسيحية في ذلك الوقت، ثم بلغه أن جماعة كبيرة قد اتبعت السيد المسيح في دمشق، فأخذ رسالة من والي أورشليم إلى والي دمشق، ليسلمه الجماعة التي آمنت بالسيد المسيح في دمشق، وفعلاً أصدر له والي بيت المقدس ووالي الناصرة، أصدر له أمراً أو رسالة يحملها إلى والي دمشق، يطلب منه فيها أن يسلم بولس كل الذين آمنوا بالسيد المسيح في دمشق.

هذا الرجل فكّر وهو ذاهب إلى دمشق أن هذا الأسلوب أسلوب القتل وأسلوب التعذيب لن يقضي على الإيمان بالسيد المسيح، ولن يقضي على السيد المسيح، ولن يقضي على المؤمنين الذين آمنوا برسالة السيد المسيح، فكّر في أسلوب آخر، وهو أنه لا بد أن يعمل من داخل الذين آمنوا بالسيد المسيح لا من خارج الذين آمنوا بالسيد المسيح. وفي الطريق وهو يسافر مع القافلة من القدس إلى دمشق، ادعى بأن مَلَكاً قد مر عليه ولطمه على عينه فعمي، وأنه لا يبصر الطريق، وأخذ الناس يقودونه في القافلة إلى حاجته وإلى كل شيء لأنه لا يرى شيئاً؛ لا يبصر شيئاً، إلى أن وصل إلى دمشق، وشاعت هذه المعجزة الكبرى، بأن عدو المسيح وعدو المؤمنين قد جاءه الملاك جبرائيل فلطمه على عينه فأصبح أعمى، فلما وصل إلى دمشق قال لقد جاءه الروح القدس، ومسح على وجهه، فعاد بصيراً وأمره أن يدعو إلى السيد المسيح وأن يؤمن به، فأعلن إيمانه بالسيد المسيح، وتحمس للدعوة أكثر من تلامذة السيد المسيح، الذين هم الروحانيون منهم، يعني الباقي أحد عشر تلميذاً للسيد المسيح، وأصبح متحمساً جداً، وأخذ لا يهاب السلطات الرومانية، ولا يخاف الكاهن اليهودي الأعظم، ولا يهاب السلطات الدينية القائمة في ذلك الوقت، متحمساً في الدعوة، فالتفّ حوله جماعة كبيرة من المؤمنين بالسيد المسيح، ورجع إلى بيت

المقدس بهذا الحماس وبهذا الإيمان، وادّعى بأن الملاك ينزل عليه وأنه يعمّد إلى السيد المسيح، ونهى عن الختان، ولما اجتمع معه تلامذة السيد المسيح، صارحهم بكل جرأة، إذا كنتم أنبياء الختان فأنا نبي الغرلة، ثم أطلق كلمته المشهورة، كل شيء طيب للطيبين، قالوا له كيف يكون ذلك؟ أين تكون المحرمات الذي ذكرها الله في الناموس، يعني التوراة، وفي كتب الأنبياء وفي غيرها؟ وأحل ذبيحة المشرك وأحل غيرها بعنوان أن كل شيء طيب للطيبين، وطبعاً هذا فيه تسهيل على الناس، وأخذ يدعو الناس إلى ذلك، وكذلك أعلن سقوط العبادات البدنية، من الركوع والسجود وغير ذلك، وأعلن عن سقوط التضحية بالحيوان، وأخذ يحرف في الديانة من الداخل بدل أن يحاربها من الخارج.

هذا الرجل من بعض ما أراد أن يهدم به الديانة المسيحية الحقيقية أنه نهى عن ذكر النبي موسى عليه السلام في الدعوة إلى الله، وقال: لا تدعوا إلى أحد، ادعوا إلى الإيمان بالسيد المسيح فقط، وأخذ يشدد التعصب للسيد المسيح ضد الإيمان بالنبي موسى عليه السلام وبأنبياء بني إسرائيل الآخرين، وكانت حجته هي أن لموسى في كل قرية وفي كل مدينة منبر يدعو إليه، ونحن نريد إنشاء منبر للمسيح، وكأن السيد المسيح وموسى ابن عمران نذّان، وكأنهما ليسا نبيين في ديانة واحدة وهي ديانة الإسلام، ونشأ التثنت ونشأ التفرق بين من يؤمن بالسيد المسيح والنبي موسى وبين من يؤمن بالنبي موسى فقط وبين من يؤمن بالسيد المسيح فقط.

هذه التيارات الثلاثة وجدت في نفس الديانة، وأخذت هذه التيارات تتصارع، ومن أجل التشويه على موسى بن عمران عليه السلام وعلى أنبياء الله الكرام، لا بدّ أن يتشبث بولس بأن يمدح السيد المسيح وغير ذلك.

طبعاً هذا أسلوب خبيث، أمدح هذا النبي لأشتم هذا النبي، ولذلك فإن القرآن احتاط لهذه القضية، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾¹، فالتفريق بين الرسل بأن يدّعي الإيمان برسول دون الإيمان

¹ البقرة: من الآية 285

برسول آخر، أو أن يمدح ويثني على رسول ليتكلم أو يشجب رسولاً آخر مخرج عن الإيمان، ومن يفرق بين أنبياء الله ليس مؤمناً.

وهذا الأسلوب أيضاً حتى في داخل الإسلام وحتى في الحركة الشيعية الواحدة، وجد على أشده في الأيام الأولى، مثلاً، عندما صالح الإمام الحسن عليه السلام معاوية فإن قسماً من الناس كان يسوؤهم ذلك، لأنهم لا يعرفون الحكمة من وراء هذا، فلما قتل الحسين عليه السلام شهيداً، أبرز أهل النفاق رؤوسهم مثلاً بأن يثنوا على الحسين عليه السلام شاجبين موقف الحسن، وقسم منهم يثني على موقف الحسن عليه السلام شاجباً موقف الحسين، بحيث يوجد تياران مختلفان في جسم العقيدة، يتصارعان ويتعصب لكل إمام فريق من الناس، والحال أنهما إمامان، إن قاما وإن قعدا، وأن الإيمان بواحد منهما دون الإيمان بالآخر لا يشكل قاعدة وركيزة إيمانية صحيحة مقبولة، فهذا التيار بقي يعيش حتى زماننا، يقول علي شريعتي مؤسس حركة مجاهدي خلق الإيرانية: إذا كنا شيعة فنحن حسينيون ولسنا حسنيين.

إذا كان شيعياً لا بد أن يكون حسنياً حسينياً وإلا فهو ليس بشيعي، الشيعي لا يكون حسنياً فقط، ولا حسينياً فقط، فإذا هذا الأسلوب الذي ينتهج خاصة من المنحرفين ممن يتظاهر بالديانة أو بالتدين أو بالدعوة إلى الدين والإسلام هو في حقيقته هدم للدين وهدم للإسلام، والثناء على إمام مع شجب إمام آخر لا يشكل ركيزة إيمانية قوية، وإنما يشكل انحرافاً عن الشريعة.

مثل هذا الأمر بقي جارياً على مدّ التاريخ، فالزيدية مثلاً لعبت دوراً كبيراً في استغلال هذه الطريقة عند الناس، فنجد أن الزيدية يثنون على الحسين عليه السلام ليشجبوا الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام، ويثنون على زيد ليشجبوا الباقر ويشجبوا الصادق عليهما السلام، والحال أن زيدا ليس من الأئمة المعصومين، يعني لم يكن داخلاً في ركائز الإيمان، الإيمان بزيد ليس داخلاً في ركائز الإيمان، وإنما الذي يدخل في ركائز الإيمان هو الإيمان بالباقر والصادق عليهما السلام، ومع ذلك نجد أن الزيدية في ذلك الوقت بسبب الإشاعات التي أطلقتها كادت أن تززع كثيراً من الشيعة عن مستقر إيمانهم بالأئمة عليهم الصلاة والسلام؛ من أن الصادق قد أرخى عليه

ستره وأنه هادن الظلمة وأنه وأنه إلى آخر ما هناك، حتى أن بعض المخلصين من الشيعة مثل زرارة بن أعين - رحمه الله - جاء يسأل الإمام الصادق عليه السلام: ما تقول في قبول الولاية من هذه الدولة الظالمة؟ وكان يريد أن يأخذ منه تصريحاً بأنه يقول أن ذلك حرام كأنما يريد أن يدافع ضد الإشاعات التي يطلقها الزيدية ضد الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه؛ لكن الصادق سكت عنه ولم يجبه بكلمة واحدة، ولما دخل محمد بن مسلم وغيره من ثقات الشيعة قال: ماذا يريد زرارة مني؟ هل كان الشيعة يسألون هذا السؤال؟! إنما كانوا يقولون يُدخل في عملهم ويؤكل طعامهم وتقبل هداياهم وما كانوا يسألون في هذا السؤال، والإمام عليه السلام لا يمكنه أن يتنازل إلى أن يدفع الإشاعة التي توجه ضده بشيء يمس جوهر الدين ويمس مصلحة التشيع والشيعة في نفس الوقت، زرارة رضوان الله عليه حرصاً منه على شخصية الإمام كان يريد أن يجيب بهذا الجواب حتى يدفع عنه هذه الإشاعة، وهذا الأسلوب استخدمه الواقفية أيضاً ضد الشيعة القطعية، الواقفية هم الذين وقفوا على موسى بن جعفر صلوات الله وسلامه عليه، والقطعية هم الذين قطعوا بموته، وطبعاً حاول الواقفية بشتى الطرق تشويه سمعة الإمام الرضا صلوات الله وسلامه عليه بأنه قد دخل في سلطة العباسيين، وأنه أصبح ولي عهدهم، وأنه وأنه إلى آخر ما هناك.

ومن يقرأ تاريخ الرجال وما تنقل منهم من كلمات خاصة علي بن أبي حمزة البطائني عليه ما عليه وأصحابه، هؤلاء قاموا بحملة تشويهية كبيرة ضد الإمام الرضا صلوات الله وسلامه عليه في هذا المجال.

وبالطبع فإن هذا المجال لم يقتصر في التشويه على الأئمة فقط، وإنما أيضاً شمل العلماء الذين يسرون بطريقتهم وشمل العلماء الذين يقولون بمقاتلتهم، فيثنى على هذا العالم ليُشتم ذلك العالم، يثنى على محمد بن مسلم ليُشتم زرارة، ويثنى على زرارة ليُشتم محمد بن مسلم، وكأن زرارة ومحمد بن مسلم يمثلان تيارين مختلفين في الدين؛ لا أنهما تلاميذ إمام واحد وكل منهما قد ائتمن على سر الإمامة، ولا بد أن أشرح للأخوة الشباب معنى الائتمنان على سر الإمامة، تمر فترات على الشيعة تكون فترات عصبية جداً لا يتمكن فيها الإمام أن يخبر بالإمام الذي سيكون بعده

وعندئذ يجعل هذا سرّاً عند الثقات الثقات جداً من الشيعة، فإذا زالت هذه الظروف يقوم هؤلاء بإبراز السر، ويسمى هذا السر سر الإمامة، وفي أيام الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه كان الإمام الصادق عليه السلام لا يتمكن أن يخبر الناس بمن يكون الإمام من بعده، ولو علم أبو جعفر المنصور بمن يكون الإمام بعد جعفر الصادق لأمر بقتله فور موت الصادق، فالإمام الصادق عليه السلام ائتمن هذا السر عند أفراد معينين منهم محمد بن مسلم الثقفي، ومنهم زرارة بن أعين، ومنهم المفضل بن عمر الجعفي، ائتمنهم على سر الإمامة، وكتب في وصيته أنه عليه الصلاة والسلام يعهد بالأمر إلى عدة أشخاص منهم أبو جعفر المنصور، وقاضي المدينة ابن أبي ليلى، ووالي المدينة، وابنه عبد الله وابنه موسى بن جعفر، وزوجته أم عبد الله، وتوفي الإمام الصادق عليه السلام وأبرد والي المدينة إلى أبي جعفر بأن جعفر بن محمد قد توفي فرجع البريد فوراً: انظر وصيه واضرب عنقه وأرح الناس، فجاء والي المدينة وطلب وصية الإمام الصادق عليه السلام فدفعت إليه في ظرفٍ مختوم، ففضها وقرأها، فتحير من يقتل ومن يدع، فكتب إلى أبي جعفر مسرعاً لقد تعدد أوصياء جعفر بن محمد، ومنهم أنت وأنا وفلان وفلان وفلانة فانظر ماذا تأمر يا أمير المؤمنين، فكتب: ليس إلى قتل كل هؤلاء سبيل، طبعاً بسبب أن الإمام الحقيقي لم يعلن عنه برز كل من في نفسه حب الزعامة والرئاسة، فادعى عبد الله الأقطع بن جعفر الصادق عليه السلام الإمامة، وفتح مجلسه، وأيده أيضاً بعض الناس وبعض تلامذة الصادق ممن لا عقل لهم كافٍ وغيرهم، والتفّ به الناس يبايعونه بالإمامة ويقتدون به، لأن الناس تذهب إلى العلماء، والعلماء ساكتون، ذهب أهل العراق إلى زرارة وقالوا له: يا زرارة من هو الإمام بعد الصادق عليه السلام، قال: دعونا نشكل وفداً نرسله إلى الحجاز لينظر ماذا يكون، وشكل وفداً برئاسة ابنه وأرسل هذا الوفد إلى الحجاز ولم يفصح عن سر الإمامة، مرض زرارة ووصل إلى حد الموت، وقال الشيعة هذه فرصة نذهب إليه ونسأله على إمامة من تموت يا زرارة، فذهبوا إليه وهو مريضٌ جداً، فقالوا له: يا زرارة إنك مشرفٌ على الموت فأخبرنا على إمامة من تموت، فقال: آتوني بالمصحف، فجاءوا له بالمصحف، فقال: ضعوه على صدري، فوضعه على صدره، فقال:

أموت على إمامة من يشهد هذا المصحف بإمامته، بطبيعة الحال هذا الرجل الذي يؤتمن على سر الإمامة لو فتح أحدكم كتب الرجال ونظر ما قال فيه بعض الناس وما اتهموه به حتى أوصلوه والعياذ بالله حتى إلى شرب الخمر والفاحشة وغيره لتعجب.

طبعاً الذي فعل هؤلاء ليسوا هم ثقات الشيعة وليسوا هم خيار الشيعة؛ وإنما المنحرفون المندسون في الشيعة من زيدية أو غيرهم، فمثلاً يمدحون محمد بن مسلم ليشتموا زرارة بن أعين، وقسم آخر منهم يمدح زرارة بن أعين ليشتم محمد بن مسلم، والمفضل بن عمر الجعفي هذا من خيار الناس، وكان وكيلاً للإمام الصادق عليه السلام في الكوفة، بل في العراق كله، ومن المؤتمنين على سر الإمامة أيضاً، ولو نظرت ماذا قال عنه المندسون في حركة التشيع وفي حركة الإيمان لوجدت شيئاً فظيماً.

فهذا الأسلوب من الحرب ومحاولة التفرقة بين المؤمنين ليس أسلوباً مستحدثاً، وإنما هو وسيلةٌ يستغلها أعداء الدين منذ أقدم الأزمان، وكذلك في زماننا تجد أن الناس قد حولوا العلماء كأصنام، وحولهم كأحزاب يتعصبون لهم، فهذا يتعصب لهذا الفقيه ويشتم بقية الفقهاء، وهذا يدعو إلى هذا الفقيه ولا يرى تقليد سائر الفقهاء، هذا في الحقيقة تفرقة بين المسلمين، وتضييع للوقت بين الفئة المؤمنة، بل حتى في البلد الواحد تجد أن كثيراً من المؤمنين إما عن غفلة أو لأن هناك من يندس بين المؤمنين ويغريهم، يتشددون ويتعصبون لفرد من علماء تلك البلد مثلاً ويتسترون به في شتم بقية العلماء، أو التهوين من أمرهم أو غير ذلك، وعندئذ يتشاجر أنصار هذا العالم وأنصار هذا العالم، ويصبح الصف المؤمن صفوفاً متعددة، وتفتح بينهم معارك جانبية، ويتحولون من شيعة واحدة إلى شيع مختلفة.

إن هذا الأسلوب ينبغي التنبه له لأنه لا يمكن مثلاً القبول بإسقاط سائر العلماء بالدعوة إلى عالم واحد، فإذا كنت تريد أن تمدح زيدا أمدحه، ولكن مدح زيد لا يتوقف على التهوين من أمر عمرو، الثناء على المسيح عليه السلام لا يستدعي التهوين من أمر موسى عليه السلام، ومدح الحسين عليه الصلاة والسلام لا يستدعي التهوين من أمر الحسن عليه السلام، ومدح

الحسن عليه السلام لا يستدعي التهوين من أمر الحسين عليه السلام وتخطئته، وكذلك سائر الفقهاء، والعلماء سواء كانوا فقهاء أو غير فقهاء إنما هم جميعاً يحملون رسالةً واحدة، وكلهم يعملون من أجل هدفٍ واحد، وهو نشر الدين وسيادته، والتهويل عليهم أو التشويه على أحدٍ منهم هو في الحقيقة زعزعة في الصف المؤمن، ومحاولة لإيجاد تياراتٍ مختلفة في التيار الديني الواحد، وهذا ينبغي على الشباب أن يكافحوه ولا يرضوه.

ومن هذه الأساليب الخبيثة أيضاً، وهي قديمةً ولا أريد أن أرجع إلى تاريخ الأسلوب الثاني كما ابتدأت بتاريخ الأسلوب الأول، هو أسلوب الإيقاع بين المؤمنين، كيف يكون أسلوب الإيقاع؟ طبعاً هذه سياسة تستعملها حتى الدول، أسلوب الإيقاع أو أسلوب [فرق تسد]، سياسة تستعمل منذ القدم، لا في خصوص التيارات الدينية بل حتى في التيارات العلمانية وأمثالها، وهو التفرقة بين أهل البلد الواحد أو الصف الواحد أو الفكر الواحد أو المذهب الواحد، وجعلهم فرقةً متشتتة، إما باختلاق الأكاذيب بأن يكذب على أحدهم بأنه قال كذا فيثور عليه الطرف الآخر كيف قال كذا، وإما باستغلال بعض الأشياء التي تقع ولا تكون مقصودة وتستغل استغلالاً سيئاً ويفرق بها بين المؤمنين، أضرب مثلاً: بعد الثورة الإيرانية يقال إن عائلة الشاه قد زارت النجف الأشرف، وأن زوجة الشاه التقت بالسيد الخوئي أيده الله، يقال ذلك، بل إنه حتى لو حصل هذا، ماذا يقدح في السيد الخوئي أن زوجة الشاه جاءت ودخلت عليه؟ واستغل هذا الأمر غير المقصود، إن كان قد وقع و هو غير مؤكد، وأضربت نار الفتنة بين من يتبع السيد الخوئي أيده الله وبين من يتبع الإمام الخميني رحمه الله و قدس سره مثلاً، والحال أنه لو عرض الأمر على الإمام الخميني قدس سره لقال إن هذا الأمر لا يوجب شيئاً، ولكن استغل في صفوف الناس استغلالاً سيئاً، وامتدت بعض الألسن التي لا تعقل أي طرفيها أطول ونالت من السيد الخوئي أيده الله، وطبعاً لا بد أن يكون أيضاً في جماعة السيد الخوئي جهلة لا يعرفون كيف يعالجون الموقف، فيمدون ألسنتهم في الطرف الآخر، وهكذا يتفرق الصف الواحد.

طبعاً الحادثة الواقعة لو فرضنا أنها وقعت، أولاً أنها لا تؤثر ولا تقدر في العدالة، ولو فرضنا أنها تؤثر وتقدر في العدالة لكان ينبغي أن يؤخذ لها مأخذٌ أو ألف محمل أنها غير مقصودة، وأنها وقعت عفواً، أو أنه فوجئ بدخولها وإلى غير ذلك من الوجوه، ويقول النبي صلى الله عليه وآله: "احمل أخاك المؤمن على سبعين محملاً من الخير ثم تأول له"، يعني لو أن السبعين محمل من الخير انتهت ولم تجد محملاً فأنت من نفسك تأول له، نحن لا نفعل ذلك، وإنما نشدد على ما يقع اتفاقاً أو غفلةً أو خطأً ونجعله وكأنه كبيرةً من الكبائر التي لا تغتفر.

هذا الأسلوب أيضاً يستعمل على مدى التاريخ، وأنا ضربت به مثلاً واحداً لأن الوقت لا يتسع، وأريد أن أنبه على شيء وقع هنا في البحرين.

طبعاً عندما ابتلينا بأن بعض من كان يعز علينا جداً أن جاءهم شخص لا أدري كيف تمكن من إقناعهم بفكرة باطلة هم أعلم الناس ببطلانها دينياً وقبلوها، وبعد الصبر عليهم أربع سنوات أو أكثر من النصح والتوجيه سواءً يوم كانوا داخل السجن بتوجيههم أو بعد أن خرجوا بالجلوس معهم وغير ذلك واضطررنا إلى الكلام عنهم، بلغنا أن بعض الناس ذهب إلى البلاد الشامية يدعو إلى الفكرة، فكان لا بد من تنبيه العلماء الذين هم في البلاد الشامية عن وجود هذه الفكرة وما جرى أو تطورات الموقف الذي حصل في البحرين بين العلماء هنا وبين أفراد هذه الفئة، فكتبت موجزاً بطبيعة الحال في بداية الاجتماع الذي حصل بين العلماء وبين عبد الوهاب مع اثنين من مرافقيه، ويبدو أن هناك كلمة قالها أحد العلماء أيده الله في مقام الجدل معهم، أو هم قالوا له فأقرها جديلاً، وفي أثناء التقرير أنا أوردت هذه الكلمة، وبعد ذهاب التقرير، نفى الشيخ أن يكون قد قال هذه الكلمة في السابق، وقال إنما قلتها ذلك اليوم عندما قالوا هم إنك قلت لنا أمر المولى مطاع، فقال قلت لكم أمر المولى مطاع لا يعني أنني أؤيدكم أو أنني رضيت بذلك، وإنما أنا في البداية أخذت الأمر على أنه عبث أطفال لا يلبث أن ينتهي، وقال إنني قلتها جديلاً يعني عند المجادلة معهم ولم أكن قد قلتها سابقاً.

طبعاً هذه الكلمة قد كتبت في التقرير الموجز الذي أرسل للبلاد الشامية، ولم يمكن تلافيها يعني وإزالتها من التقرير لعدم وجود الاتصالات الدائمة أو وجود الشخص الذي طلب الموجز لينقله إلى هناك لنحمله تصحيح الموضوع في البلاد الشامية.

وقبل أربعة أشهر من الآن أي بعد ثلاث سنوات من كتابة الموجز اتصل بي شخص عن طريق الهاتف سمى نفسه [محمد علي عبد الله الديري]، لا أعرفه ولا أدري هل أن هذا الاسم حقيقي أو وهمي، قال إنه جاء من سوريا وأنه وجد هناك موجزاً قد وقعته يتداول بين العلماء في سوريا وأنه جاء بنسخة منه وأن فيه هذه اللفظة وأن الشيخ فلان يذكرها، قلت له نعم، هذا صحيح ولكن سوف يعدل الموقف، فقال هل أنشر هذا الموجز في البحرين؟ قلت له لا، لا تنشره لأنه لم يكتب لأهل البحرين، وأن الأمور الموجودة عند أهل البحرين فيها تفاصيل أكثر مما هو مكتوب في هذا الموجز.

بعد ثلاثة أشهر عاد هذا الشخص واتصل بي وقال إنني ذهبت إلى الشيخ فلان وأريته الموجز فقال إنني لم أقل ذلك أبداً في أي مقام من المقامات، وأنا مستعد لأن أباهل من يدعيه، فقلت له يا أخي أنت ماذا يعنيك من هذا الأمر؟ وما هو غايتك منه؟ وقلت لك إنني سوف أحل الموضوع مع الشيخ المذكور، وعندما اتصلت بالشيخ قال إنه كذاب لم يأتني ولم يطلعني على الموجز، وإنما اتصل بي بالهاتف وقال لي إن في الموجز كذا وكذا، وقد أخبرته بأن فلاناً لا يعقل أن يكذب علي ولكن يحتمل أن أكون قلت هذه الكلمة في مقام المجادلة وهو أخذها على نحو الجد وكتبها.

على أي حال، هذا الرجل على الرغم من أنني أخبرته بأن يترك الموضوع وأنه لا دخل له فيه، اتصل بي قبل أسبوع شخص أيضاً لا أعرفه يقول إنه من القدم، وقال إنه وجد هذا الموجز موزعاً، في أحد المساجد في قرية الدراز، وبطبيعة الحال قد لا يكون ذلك الشخص حقيقياً، وقد لا يكون من يدعي أنه من القدم من القدم، على أي حال قلت له إذا وجدته في أي مسجد فاسحبه ومزقه لأنه ليس معداً للتوزيع أو غير ذلك.

من أجل ذلك وجب أن أنبه الجميع على هذا الموضوع وهذا إنما هو في الحقيقة جارٍ في مسار التفرقة بين الصف المؤمن، طبعاً الشيخ لم يتأثر علي، وأنا لا أتأثر عليه، وكل منا يعرف الثاني تماماً، ولكن أحببت أن أنبهكم لأن عادة الناس من غير العلماء هم الذين يتأثرون ويتجادلون، وينشق بذلك الصف المؤمن، في الحقيقة أن الشيخ لم يقل إنه لم يقل لهم مطلقاً إن أمر المولى مطاع، وهو ينكر ذلك إنكاراً تاماً، ويقول إنما جاريتهم في ذلك اليوم من باب الجدل بأنني حتى لو قلتها فهل يعني ذلك تأييداً أو إغراءً أو غير ذلك؟ وإنني لم أقلها مطلقاً، فلذلك وجب أن أنبهكم على ذلك، وأن تعرفوا المغرر به فتنبهوه أو الذي يدس نفسه في صفوف الفئة المؤمنة للتفرقة بينها أو التشويه على أفرادها فتوقفوه عند حده.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الحرية *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.....

يقترح بعض الإخوة أن تكون الكلمة التي نلقينا نتناول موضوعاً متسلسلاً، وقد كان المفروض أن نبدأ في هذه المحاضرات من الأسبوع الماضي ولكن شاء الله أن لا نبدأ فيه وقد جاء هذا الاقتراح هذا اليوم، ورأيت أن نخصص الكلام عن الأركان والمقومات والأصول التي تعتمد عليها وتتادي بها الديمقراطية، لأنها هي الموضوع الرائج في الساحة الداخلية في الوقت الحاضر، وربما الساحة الخليجية أو العربية أو الإسلامية الأوسع، ولما كانت الديمقراطية تعتمد أو من أهم أركانها بل ركنها الأهم هو المناداة بالحرية، سواء حرية العمل أو حرية القول أو حرية الاعتقاد أو غير ذلك، فإذا مفهوم الحرية هو المفهوم الأهم الذي تركز عليه الديمقراطية، وهذه المحاضرات سنبدأ فيها بمعالجة هذا المفهوم من جوانبه المختلفة سواء منها الدينية أو الخلقية أو النفسية التي تسمى في العصر الحاضر بالسيكولوجية أو الناحية الاجتماعية أو الناحية السياسية.

وأول ما يسمع الإنسان لفظة [حر] يتبادر إلى ذهنه اللفظة المقابلة وهي لفظة [العبد]، وعندما يسمع الإنسان لفظ الحرية يحضر معها في ذهنه لفظ الرق ولفظ العبودية، فالحرية إذاً تقابل العبودية، والإنسان الحر هو الذي ليس بعبد ولا رقيق هكذا عرفها علماء اللغة، فالحرية هي مقابل العبودية ويعرفها بعض الكتاب السياسيين العرب بأنها الملكة الخاصة التي تميز الكائن الناطق عن غيره في قدرته على فعل ما يريد وترك ما لا يريد بحسب إرادته واختياره.

طبعاً هذا التعريف لا ينتمي إلى التعريف اللغوي من جميع جوانبه بل يزيد عليه بكثير، فالإنسان قد لا يكون رقاً وقد لا يكون عبداً ولكنه لظروف قاهرة لا يستطيع أن يفعل كل ما يريد أو أن يترك كل ما يريد بحسب إرادته واختياره، ومن حين ما يولد الإنسان فإنه يولد في أسرة بين

* محاضرة في ليلة الخميس 28 جمادى الأولى 1423 هـ المصادف 7 أغسطس 2002م بجامع جدحفص

أبوين ويحاول الأبوان تدليله وهو صغير لعدم رده أو منعه عن أشياء كثيرة يرغب هو في عملها، ولكنهما في حالاتٍ يخشون فيها عليه فيحذان من حرته في هذا التصرف أو ذاك شفقةً منهما عليه وخوفاً عليه، وهذا تدخلٌ إذاً في حرته وحدٌ من ملكته الخاصة بحسب نظر هذا الكاتب العربي الحديث، وتنشأ مع هذا الطفل المدلل إخوان وأخوات في البيت وتأتي مشكلة الأبوين حين تتعارض حريات الأطفال، اللعبة الزرقاء يريدونها كل طفل لا شيء إلا لأنها زرقاء، ماذا يفعل؟ يتعاركون، هل يمكن حل هذه المشكلة بشراء ألعاب متشابهة تماماً في اللون والشكل والحجم ومن جميع الجهات، بمعنى جعل المساواة بين هؤلاء الأطفال في اللعب المتساوية من جميع الجهات حلاً لمشكلة تعارض الحريات؟ لا أظن أن ذلك يكون حلاً ناجحاً، عندما تتكسر لعبة من هذه اللعب المتشابهة تماماً لن يعترف مالکها بأنها لعبته بل سيقول هي لعبة فلان ولعبتي لم يصبها شيء.

فإذاً المشكلة - مشكلة الحرية - تنشأ عند الإنسان من حين ولادته، ولو ترك هذا الإنسان حراً طليقاً يعود كالبهيمة، يعود كالحيوان السائب، فإذاً كيف يمكننا أن نعرف الحرية بأنها الملكة الخاصة بالكائن الناطق التي تميزه عن غيره بقدرته على فعل ما يريد وترك ما لا يريد بإرادته واختياره، والحال أنها إما أنها لا يمكن أن تتحقق له، ولو تحققت له لعاد حيواناً بهيمياً، ولكن هذا الكاتب في الحقيقة يعتمد على المفكر الليبرالي الغربي الذي عرف الحرية بأنها: [أن لا تكون هناك ضمانات قانونية عليك].

الحرية إذاً هي رفع الضمانات القانونية، فهذا حد واسع لأنها لو رفعت الضمانات القانونية سواءً في البيت أو خارج البيت ماذا يكون؟ ثم يدخل هو في شرح صميم الحرية ويقول إن الحرية هي أن يكون الإنسان قادراً على فعل كل ما يريد وترك كل ما يريد بإرادته واختياره، وأي تدخل في حد هذه القدرة هو تدخلٌ في الحرية، ولا فرق بين أن يكون هذا التدخل نبيلاً كمنعه من التصرفات اللاخلاقية والتصرفات المضرة به، أو لأن الضرورة تفرضه حتى لا يتعارض مع حريات الآخرين

وإرادات الآخرين، لا فرق هناك بين أن التدخل نبيل أو أن التدخل تفرضه الضرورة أو أن التدخل تعسفي ومن أجل غاية خاصة، كل ذلك هو تدخلٌ وحد من الحرية.

طبعاً هذا هو رأي المفكر الليبرالي الغربي [جان جاك روسو] والذي كان له تأثير كبير في أوروبا، ولكن ونحن ننظر إلى المجتمعات الأوروبية ونزورها، وقد أخذت بهذا المفهوم فلم تتحقق لهم الحرية الاجتماعية ولا الحرية من جوانب أخرى، فانطلقت الشعوب الأوروبية لتحقيق ذاتيتها وتحقق حريتها في ترك الضوابط الخلقية، هذا الذي قدر عليه لأن ترك الإنسان للضوابط الخلقية لا يضر رجال السياسة، ولا يضر رجال الحكم في شيء، فأطلقوا لهم العنان من أجل ذلك، بل ساعدوهم عليه وشجعوهم عليه حتى ينصرفوا عن الجوانب الأخرى.

إذاً مفهوم الحرية بهذا المعنى أما أنه لا يمكن تحقيقه في الحياة الاجتماعية، وإما أنه لو تحقق للإنسان المفرد الذي يعيش في غابة ولا يوجد معه أحد من بني الإنسان يحوله إلى حيوان من البهائم أو من آكلات اللحوم.

على أي حال هذه الليلة باعتبار أن كثيراً من الشباب لم يسمع عن البحث نكتفي بهذا القدر على أن نعيد تعريف الحرية والكلام فيه في الأسبوع القادم إنشاء الله حتى يستفيد الجميع ونستفيد نحن أيضاً من المراجعة لأنه لم تنبثق الفكرة إلا قبل صلاة المغرب بقليل.

الإشاعة (1) *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

نتكلم هذه الليلة عن الإشاعة واستغلالها في عمليتي الإلهاء والتوجيه. ولابد من توضيح

المعنى المقصود من لفظي الإلهاء والتوجيه إذ ربما يكونان غير ظاهرين لدى كثير من الناس.

دائماً عندما تحصل أحداث كبيرة أو عندما يراد إيجاد أحداث كبيرة، تعتمد الفئات السياسية

سواء كانت دولاً أو أحزاباً إلى القيام بعملية إلهاء أو القيام بعملية توجيه، وعندئذ لابد أن تقوم قبل

تلك الأحداث أو بعدها بعمل ما، قد يكون ذلك العمل حدثاً اقتصادياً، وقد يكون خبراً يستحوذ على

أذهان الناس، المهم أنه لابد أن يحصل شيء يوجه أفكار الناس أو يلهيهم، وذلك حسب العمل أو

الشيء الذي يراد إحداثه. عندما تريد دولة من الدول أن تقوم بعمل ما ولا تريد أن يلتفت شعبها

إلى ذلك الشيء فإنها تحتاج إلى عملية إلهاء، أمر ما يلتهى الناس بالثرثرة فيه والتفكير فيه ريثما

تتم تلك الدولة ما تريد فعله، وكذلك عندما تريد أي فئة من الفئات القيام بعمل من هذا النوع تحتاج

إلى صرف نظر الناس عما تفعل فتحتاج إلى القيام بعمل يشغل الناس بالكلام والثرثرة فيه، وهذه

تسمى عملية الإلهاء.

نضرب مثلاً ليس بالبعيد، أو بعض الأمثال التي ليست بالبعيدة عن زماننا، في القديم لم

تكن الأرض في نظر أهل البحرين سلعة تجارية يتنافسون عليها ولكن في السبعينات حوّلت

الأراضي في البحرين إلى سلعة تجارية. بأي طريق حوّلت؟ جاء بعض التجار من الكويت إلى

البحرين لا يحملون أموالاً معهم، وإنما كانوا يحملون أوراق دعم من البنوك التي في الكويت إلى

البنوك التي في البحرين بأننا ندعم فلاناً بكذا وكذا دينار مثلاً، وقاموا والناس في غفلة بشراء

الأراضي بأثمان زهيدة جداً. التفتت تجار البحرين إلى هذه العملية فأخذوا يتنافسون في شراء

الأراضي وجمدوا معظم أرصدتهم أو ربما جمد الكثير منهم كل رصيده في المضاربات في الأراضي فوقعوا في حفرة الإفلاس، المهم أن الحديث عن سوق المضاربة في بيع وشراء الأراضي أصبح على كل شفة ولسان، ولم يعد لأهل البحرين كلام في مجلس أو سوق أو دكان أو وزارة أو دائرة إلا أن فلاناً باع أرضه بكذا صباحاً ثم باعها المشتري بكذا عصراً ثم بيعت في الليل بكذا، وانتهت المعركة بورطة كبيرة لتجار البلد، حتى أن بعض كبار التجار لو دفع شيكا بعشرة دنانير لما كان ينصرف، لأنه قد جمد كل أرصدته في أراض لا تتحرك، وخرجت الأموال إلى الكويت والحال أن تجار الكويت لم يأتوا بدينار واحد. وهذه العملية ألهمت الناس فترة طويلة تزيد على ثلاث سنوات، لم يكن الناس خلالها يلتفتون إلى شئ مما يحدث بينهم أو يحصل في مجتمعهم، غيّرت أفكار، وغيّرت نظم، وغيّرت قوانين. ولما التفت تجار البحرين إلى هذه العملية ثاروا واتهموا تجار الكويت بالتحايل عليهم، وأرادوا أن ينتقموا منهم، فهم يعتقدون أنهم أقدر في فن التجارة من أهل الكويت وغير أهل الكويت لأنهم أرسخ قدما على مدى القرون الماضية إلا أنهم لا يستعملون الحيل كما يزعمون، وما دام أن هؤلاء جاءوا إلينا واستعملوا الحيل ضدنا فيجب أن ننتقم. طبعا للظروف السياسية وللعلاقة الحميمة لم تسمح الدولة لهم بتنفيذ خطتهم، إلى أن صارت الثورة الإسلامية في إيران وأصبح المجتمع يئز بالتظاهرات والمسيرات والتهافتات فتقدموا بخطتهم من جديد، وأقنعوا المسؤولين بأن هذا سيوجه أفكار الناس نحو شئ يلهون به عن هذه الأمور، فسمحت الدولة لهم بتنفيذ الخطة التي وضعوها، ومن يومها أخذت الإعلانات عن تأسيس الشركات المساهمة تنتشر بشكل رهيب بين الناس، وأصبح الكلام عن الاكتتاب في هذه الشركات هو الشغل الشاغل للناس. وجاء أهل الكويت في هذه المرة للتعامل ليس بطريقة الضمان البنكي ولكن بتحويل المال بالفعل، ليشتروا أسهما كثيرة من الذين اكتتبوا في المساهمة، وقبل فرز الأسهم وتوزيعها على المكتتبين، مما أدى بهم لتحمل خسائر فادحة ما كانوا يتوقعونها، وقد بقيت ذيول هذه المسألة في المحاكم إلى وقت قريب. هذه العملية استغلت للإلهاء وأحيانا تكون العملية عملية توجيه.

إن استعمال الإشاعة أسهل بكثير من القيام بعمليات اقتصادية من هذا النوع في عمليتي الإلهاء والتوجيه، فإن خبراً أنا أطلقه وينتشر لا يجعلني أجازف بخسارة أموال، ولا أحتاج إلى وضع خطة اقتصادية معقدة ، لذلك من الطبيعي أن تستخدم الإشاعة في عمليتي الإلهاء والتوجيه أكثر مما تستخدم العمليات الاقتصادية وأمثالها في هذا السبيل. ونضرب مثلاً ببعض الإشاعات في عملية الإلهاء والتوجيه : أعتقد أن معظم الجالسين قد أدرك إشاعة صاحب القرون، ومؤدى هذه الإشاعة خبر أطلق بأن رجلاً خالف الله سبحانه وتعالى في قضية من القضايا، وعندما جلس صباحاً وجد نفسه وقد نبت له قرنان، واشتغل الناس بالحديث عن صاحب القرون، ليس أياماً ولكن أشهراً، والغريب أن كثيراً من الناس الذين يوصفون بالثقة يدعي رؤيته، بل إن شخصاً قال لي إنني رأيته في المستشفى، ومستعد أن أحلف على ذلك مما جعلني إلى اليوم لا أقبل منه خبراً. طبعاً إشاعة صاحب القرون ما هو هدفها ؟ ولماذا بذل الجهد في ترويجها ؟ لا شك أن هناك جهة كانت في حاجة في ذلك الوقت لإلهاء الناس وجعلهم يتحدثون في هذا الخبر ليلاً ونهاراً، ويتناقشون، وربما يتشاجرون ويتضاربون بالأيدي بين مصدق ومكذب، وبين مبرهن ومفند، وريثماً يتمكن صاحب الإشاعة أن يحقق ما يريد تحقيقه دون أن ينتبه إليه أحد، ودون أن يلتفت إليه العامة.

أحياناً تكون الإشاعة للتوجيه وليس للإلهاء، ونضرب مثلاً من تاريخنا بإشاعة أطلقت من أجل التوجيه وليس من أجل الإلهاء: عندما خرج أهل البدعة ببدعتهم في البحرين مدعين السفارة عن الإمام المهدي عليه السلام، - البدعة التي لا يريد علماءنا أن يتكلموا عنها وبحاربوها، ولا يريد شبابنا أن يكافحوها، وتركها الجميع تنتشر وتسري بين البسطاء، عندما خرجت فكرة البدعة ووُجِدَت، حاول بعض مؤيديها إطلاق إشاعة تؤيدها وتوجه الناس إليها، كيف ؟ ادعت امرأة أنها رأت في الرؤيا فاطمة الزهراء عليها السلام أو العباس بن علي عليهما السلام [لا أتذكر بالضبط] وأنها أعطتها منديلاً لا تمسح به على مريض إلا وبرئ، وأصبح الناس يتهافتون على تلك المرأة من كل مكان، وعندما ضاق الجيران بكثرة السيارات وكثرة الواردين عليها أعلنت أنها ستنتقل

مركزها إلى مسجد [عزيز]. لو نظرنا في عناصر هذا الخبر، لوجدناه يعتمد على الرؤيا وهي نفس العنصر التي تقوم عليه دعوى عبد الوهاب البصري، والفرق بين الدعوتين هو أن هذه المرأة لا تنقل أحكاما ولا تدعي الرئاسة لكنها تهییء النفوس لقبول الدعوى، ومن أجل ذلك اضطررنا في ذلك الوقت أن نحارب هذا الموضوع بشدة. فالإشاعة إذن هي أرخص وسيلة لهدم أي مجتمع، والإشاعة هي أرخص وسيلة لإقناع الناس بأي فكرة؛ سواء عن طريق إلهائهم عما يراد فعله أو عن طريق توجيههم لما يراد فعله.

والإشاعة تستغل أحيانا ضد مذهب معين، فالإشاعة عن الشيعة في بعض البلدان أنهم إذا فرغوا من الصلاة يرفعون أيديهم ثلاث مرات ويقولون [خان الأمين]، وبعضهم يرويها [خان الأمين] وصددها عن حيدرة]، والغريب أن يقبل هذه الإشاعة عن الشيعة حتى بعض الجامعيين، ولو قلت في نجد إن الشيعة يقولون [الله أكبر] لما قدرت أن تقنع أحدا على الرغم من أنه لا أساس لهذه الإشاعة.

فالإشاعة إذن يمكن أن تصبح وسيلة حرب، ووسيلة تشويه، ويمكن أن تستغل لوضع عازل نفسي سميك بين الناس وبين فكرة معينة، بين الناس وبين عقيدة معينة، بين الناس وبين شخص معين. إن الإشاعة ليست مجرد أمر بسيط كما يظن بعض الناس، ولكنها إذا أُجيد استخدامها قد تهدم أمة بأسرها، فضلا عن فرد، بإمكانك أن تشعل حربا لا ينطفئ أوارها بإشاعة، وما عليك إلا أن تنتشر خبرا محبوبا وعندئذ تحصل العداوة، ويمتد اللسان، ثم تحصل المشاجرة إذا كان الموضوع يتعلق بالأفراد، أو المقاتلة إذا كان يتعلق بالدول.

أضرب لكم مثلا بإشاعة تافهة أطلقت قبل شهر أو شهرين وربما سمعتموها جميعا وهي إشاعة تمزيق الورقة، هل سمعتم أنني مزقت ورقة فشاع خبرها في البحرين كلها وأصبح شغل الناس الشاغل هو التحدث عن تلك الورقة الممزقة، لكن لو سألت أحدا ماذا في هذه الورقة؟ لوجدته لا يدري. يعرف أن ورقة كانت البلسم الشافي والسحر الذي سيحقق مطلب المجلس الوطني ولكن جاء فلان ومزقها.

أضرب لكم مثلاً بإشاعة معاصرة يتكرر إطلاقها بين حين وآخر؛ فأنتم تسمعون في هذه الأيام عندما يحصل أي انفراج في الأزمة التي تعيشها بلادنا بأن جماعة من لجنة حقوق الإنسان أو لجنة العفو الدولية قد جاءت إلى البحرين وأنهم قالوا كذا وفعلوا كذا، مع أنك لو بحثت الأمر لا تجد من يؤكد لك الخبر، ولا تجد من التقى بأحد منهم فما هو الغرض من إطلاق هذه الإشاعة؟

الغرض من ذلك هو صرف أنظار الناس عن تحركات المخلصين من أهل البلد في السعي لحل الأزمة بنسبة أي انفراج إلى جهة أخرى، وليس أنسب من نسبة ذلك إلى تدخل لجنة العفو الدولية أو بعض جماعات حقوق الإنسان. على أي حال الإشاعة هي أرخص سلاح لهدم أي مجتمع ولهدم أي عقيدة، ومن أجل ذلك ركز القرآن على حرب الإشاعة، وقد حاربها في موردين:

1 - أن تكون موجهة ضد الأفراد، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي

الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾¹، وهذه حرب للإشاعة التي تطلق ضد الأفراد.

2 - كما ركز القرآن في مورد آخر على محاربة الإشاعة التي توجه ضد المجتمع ودم

المؤمنين. في هذا المجال فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾²؛ فعرفوا من أين جاء وما هي غايته وغرضه وما يترتب عليه.

الإذاعة أو الإشاعة إذن هي أخطر سلاح تستخدمه الفئات السياسية منذ أقدم الأزمان حتى في أيام النبي صلى الله عليه وآله. أضرب لكم مثلاً بحديث الإفك الذي وجه ضد مارية أم المؤمنين رضوان الله عليها، ونزلت فيه آية قرآنية، وهذا الخبر نشره المنافقون والذين في قلوبهم مرض، وعملوا على ترويجه بشدة لولا أن الله سبحانه وتعالى أنزل آيات في الموضوع تكذبهم وتهدهم، وكذلك بعد رجوع النبي صلى الله عليه وآله من حجة الوداع ودخول المدينة وإصابة النبي صلى الله عليه وآله بالمرض الذي توفي فيه خرجت إشاعة مؤداها أن رسول الله قد غير

¹ النور: 19

² النساء: من الآية 83

وصيته، وأخذ المنافقون والذين في قلوبهم مرض يروجون هذه الإشاعة لولا أن العباس بن عبد المطلب رضوان الله عليه وقف ضد هذه الإشاعة موقف الأسد، وكان ينادي كل من يحتمل أن يدعي بأن النبي صلى الله عليه وآله أخبره بتغيير وصيته ويأتي به أمام الناس ويسأله هل أوصى لك محمد بشئ؟ فيقول لا، وبهذه الطريقة أفسد تلك الإشاعة.

فالإشاعة منذ أقدم الأزمان تستعملها جميع الفئات السياسية من دول وأحزاب وفئات كسلاح في حربها بعضها ضد البعض، وضد الشخصيات التي تتناوئها، وليس ذلك بالأمر الجديد؛ لأنها لا تكلف شيئاً، فما عليه بعد صياغة الخبر إلا أن يلقيه في المجتمع عن طريق بعض المروجين فيقوم الناس بنشره، إن مما يساعد صاحب الإشاعة على ترويجها هو عادة الناس الغربية، فهناك ناحية نفسية يستغلها صاحب الإشاعة وهي أن كثيراً من الناس يحب التظاهر أمام الغير بأنه السباق في العلم بالأشياء والاطلاع عليها، وأن الأخبار تصل إليه قبل غيره، فبمجرد أن يسمع الخبر لا يستطيع الاستقرار قبل أن يخبر به الناس ومن دون تحقق من صدقه، ومجتمع البحرين بسبب ضيقه تسري فيه الإشاعة بسرعة فائقة، فيكفي أن تلقي الكلمة في الحد وتسرع بسيارتك حتى تصل إلى الزلاق، فتجد أن الكلمة قد سبقتك، ولكنها ليست على أصولها بل محورة ومغيرة أو مطورة، ربما يعزى ذلك إلى وجود نقص في شخصية بعض الأفراد، إذ يعتقد أنه إذا أسرع ببث الخبر يصبح في نظر الناس أعلم خلق الله ببواطن الأمور.

أما كيف نحارب الإشاعة فهذا ما نتكلم عليه في الأسبوع الآتي إن شاء الله.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الإشاعة (2) *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

عنوان هذه المحاضرة كما هو مبيت منذ الأسبوع الماضي، كيف نحارب الإشاعة. وحرب الإشاعة يتوقف على معرفة طبيعة الإشاعة، ومعرفة هدفها، ومعرفة طرق وأساليب بثها. والكلام عن هذه الأمور إذا أردنا أن نفصل فيه القول لا تتسع له أمثال هذه الكلمات، لكننا مضطرون أن نتكلم ولو على شكل إجمالي عن هذه الأمور الثلاثة.

لابد ونحن نريد أن نحارب الإشاعة أن نعرف طبيعة هذه الإشاعة التي نريد أن نحاربها، أهي من أجل التوجيه والحث على القيام بعمل ما، أو التثبيط عن عمل ما، أم هي من أجل مجرد إلهاء الناس بأمر يتحدثون فيه حتى يلهوا عن غيره، أهي للتأليب أو لتخذيل أو غير ذلك، فإنه بدون معرفة هدف الإشاعة لا يمكن محاربتها. نضرب مثلا بإشاعة وقعت في يوم أحد، ما هو سبب هزيمة المسلمين في يوم أحد؟ لو نظرت إلى كتب التاريخ لوجدتها تذكر أن سبب الهزيمة هو أن النبي صلى الله عليه وآله أوقف جماعة من الرماة على الجبل وقال لهم كل من أراد أن يسلك هذا الطريق فارموه بالنبال كائنا من كان، ولا تنزلوا عن مكانكم سواء انتصرنا أو وجدتمونا مقتولين. وعندما أبتدأ المشركون يهزمون ورأى الذين على الجبل بقية المسلمين يأخذون أسلاب المشركين، خافوا أن تفوتهم الأسلاب فتركوا أماكنهم ونزلوا ليأخذوا الأسلاب مع غيرهم، فاغتم خالد ابن الوليد الذي كان قائدا لفرسان المشركين الفرصة وكبس المسلمين من الخلف. هذا ما تذكره كتب التاريخ وفي رأيي أن هذا ليس هو السبب الكافي للهزيمة التي وقعت على المسلمين، فلو أن الجيش كان متماسكا، ومترابطا، ولو كان واقفا في مواضعه لما كان فتح هذه الثغرة وإن كانت من الخلف تؤدي إلى هذه الهزيمة المنكرة التي جعلت جيش المسلمين يصل إلى بيوتات

* في ليلة الثلاثاء 1995/7/17 بجامع جدحفص

المدينة. في الحقيقة إن المنافقين أطلقوا في صفوف الجيش وهم يرون خالد ابن الوليد قد اجتاز هذه العقبة إشاعة تقول إن محمدا قد قتل، هذه الكلمة التي يذكرها المؤرخون ببساطة وينصرفون عنها ولا يعلقون عليها هي السبب الحقيقي في انهزام الجيش، فعندما أطلق المنافقون هذه الإشاعة بأن محمدا قد قتل انهزم أهل يثرب، وطبعا أول من انهزم، أول من أظهر الانهزام وأظهر الضعف هم الذين في قلوبهم مرض . وانثال المسلمون من خلفهم يركضون تاركين رسولهم وراء أظهرهم، خاصة وأنه لما عبر خالد بن الوليد تلك العقبة هرب الذين كانوا في العريش وتركوا النبي صلى الله عليه وآله وحده ليس معه إلا أربعة نفر من بني هاشم وهم الذين وقفوا يجالدون قريشا حتى علم المخلصون من المسلمين كذب الإشاعة ورجعوا إلى النبي صلى الله عليه وآله. فإذن هذه الإشاعة هي السبب في هزيمة هذا الجيش المنتصر في أبان انتصاره. إذا درسنا هذه الإشاعة نجد أنها اعتمدت على عناصر، فالظرف جد ملائم لإطلاقها، الذين أوقفهم رسول الله صلى الله عليه وآله على العقبة قد نزلوا عنها، وفرسان معسكر العدو عبرت العقبة، والذين في العريش - العريش هو مركز القيادة - مع الأسف هربوا، والناس في حالة انشغال ذهني، أذهانهم في تلك الحال فارغة إلا من عملية الحرب، فعند ما يأتي خبر موت الرسول صلى الله عليه وآله يصادف عقولا فارغة غير قادرة على التفكير السريع وعلى التماسك السريع خاصة إذا انهزم مروّج الإشاعة ذاتها، انهزم الجيش إذن بسبب الإشاعة أكثر من انهزامه بسبب عبور العقبة. الدليل على ذلك وأنت تقول هذا مفندا التحليلات الموجودة في كتب التاريخ، نقول إن أربعة ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله استطاعوا أن يمنعوا خالد بن الوليد وفرسانه وكل جيش قريش، فما بالك فلو بقي الجيش متماسكا؟ إذن لم يكن لهذا العبور ذلك الأثر الفعال.

مثل آخر من الإشاعة هزمت جيشا في أبان انتصاره، في أثناء الحرب الإنجليزية السودانية حرب بريطانيا العظمى مع المهدي وهو محمد المهدي الشخص الذي ادعى المهودية في السودان وثار ضد الإنجليز، وهو أحد أجداد الصادق المهدي أحد الزعماء السياسيين في السودان إلى اليوم. هذا الرجل وفي أثناء الحرب طبعا لم يتمكن بدراويشه وصوفيته أن يقف أمام الجيش

البريطاني وهو مدجج بأسلحته الحديثة والقوية، ورأى الرجل بأن جيشه ينهزم أمام الإنجليز، فماذا فعل؟ أشاع بوجود النصر، ثم جعل جنودا من جنوده يرجعون من مقدمة الجيش إلى مؤخرته وهم يحملون قبعات إنجليزية و[بدل عسكرية] إنجليزية فظن الذين في المؤخرة أن الهزيمة قد وقعت فعلا بالإنجليز، وأن القوم يسلبونهم، فاندفع الصوفية وال دراويش الذين يقودهم المهدي إلى مقدمة الجيش اندفاعا واحدة مما أربك التنظيمات العسكرية الإنجليزية وأوجد الهزيمة في صفوف الإنجليز. في الحقيقة ما الذي دفع هؤلاء المنهزمين إلى هذا الاندفاع الشديد الذي أثر على ذلك الجيش المدجج بالسلاح في أبان انتصاره؟ هو الإشاعة المعاكسة والمضادة. الإشاعة في مثل هذا الوقت تجد كما قلنا أذهانا فارغة، تجد أفكارا منحصرة في معان تولدها الحرب، النصر، الموت، الهزيمة، فعندما يكون الإنسان في الحرب أمامه ثلاث معان ينتصر، يموت، يفر. لا إشكال أن أحب الأشياء للمحارب أن يكون منتصرا حيا، فعندما يحصل خبر بوجود النصر يحصل ذلك الاندفاع وكذلك إذا حصل الخبر بقضية الهزيمة يحصل الاندفاع المعاكس. طبيعة الإشاعة هنا هو استغلال فراغ الذهن إلا من معان محددة، أحيانا تكون طبيعة الإشاعة وهدفها ليس للتوجيه لإيجاد عمل، تكون طبيعتها لنشر فكرة ضد فكرة، أو ضد جماعة، أو ضد شخص، كيف يمكن نشر فكرة عن طريق الإشاعة؟ لابد أن تتحين الفرصة لتلك الفكرة في حالة اجتماع عام، وكلما صار الاجتماع العام مملوءاً بالحماس و مملوءاً بالشدة، وكان الغالبية فيه ممن لا تصل إليهم المعلومات الصحيحة بسرعة كلما كان ذلك أكثر تأثيرا و أسرع تأثيرا. نضرب مثلا بقضية التحكيم في حرب صفين، عندما طرحت فكرة الاحتكام إلى القرآن طبعا كان العرب في الجيشين قد ملوا الحرب، في ليلة الهرير وحدها قتل من الطرفين عشرات الآلاف من الرجال فما بالك بحرب صفين وأيامها ووقائعها من أولها إلى آخرها، والمشكلة في حرب صفين أن ابن العم يقتل ابن عمه، كندة العراق تحارب كندة الشام، قيس العراق تحارب قيس الشام، فإذن الرجل يقتل ابن عمه، الرجل يحارب أخاه، عندما يجد بصيصا من أمل لإيقاف هذه المجزرة لا يفكر هل أن ذلك على حساب المبدأ أو ليس على حساب المبدأ، خاصة وأن المعلومات ليست متوافرة لكل أحد، والعقول ليست كلها قادرة على

تحليل الموقف واستنتاج النتيجة الصحيحة، والغالبية العظمى من جيش العراق لا ترى في علي عليه السلام إلا أنه رجل عادي من الناس وجب له حق الطاعة بالبيعة بعد عثمان، وليس إماما مفترض الطاعة من الله. ومادام يمكن أن يحتكم ويترجح أحد الرجلين وفي معسكر العراق من يرجح معاوية على علي لأن عليا عليه السلام ما كان يحابي أحدا في العطاء، وهؤلاء يريدون المحاباة فهذه الإشاعة، أو هذه الفكرة لما تطرح تقبل بسرعة، استغل أهل الشام ذلك وطرحوا فكرة الاحتكام إلى القرآن، لم يقبل جيش العراق من قائده كلمة، أصروا أن يلتجئوا إلى التحكيم، وأصروا عند اختيار الحكم على أبي موسى الأشعري؛ لأن الإشاعة الثانية جاءت لتطرح بينهم أن عليا إنما يختار ابن عمه وقريبه، لم يوازنوا بين كفاءة عبد الله بن عباس حبر الأمة وبين كفاءة هذا الرجل الذي يختارونه، ولو نظرتم إلى البخاري اليوم لوجدتم الروايات عن هذا الرجل وهو يدعي أن هناك سورا من القرآن بكاملها قد ضاعت، هذه عقليته، عقلية الرجل تحتمل أن يعتقد أن كثيرا من القرآن ضاع مع الأسف وهو يحفظ قسم منه وقسما منه لا يحفظه، ومن بعضها سورة الحفد وأمثالها، هذا الرجل بهذه العقلية لا يصح اختياره للتحكيم، ولكن الإشاعة رجحته وحصل الإصرار. إذن لا بد من معرفة هدف الإشاعة إذا أردنا أن نحارب الإشاعة، هدف الإشاعة ربما يكون التشويه على فرد، وربما يكون التشويه على جماعة من الناس، وربما يكون التشويه على أمة بأسرها. الإشاعات التي تبث ضد الشيعة لا تفرق في الشيعي بين أن يكون عربيا، أو فارسيا، أو هنديا، أو تركيا، عنوان عام يشمل أمة أو مذهبيا بكامله. الإشاعة التي تشاع مثلا عن الأشخاص الذين يحرسون في جدهفص تشمل المجموعة بكاملها، ربما حتى أناس من جدهفص يقبلونها - مع أنهم يستطيعون أن يلتقوا بهم - إذا كان للإشاعة قوة، فينبغي أن تلتفتوا إلى أن الذي يطلق الإشاعة يختار في البداية أفكارا وقلوبا قابلة لتصديق الإشاعة لا تناقش في الإشاعة؛ لأنه لو كان يطرح الإشاعة ويجد من يناقشها في أول طرحها يفسد أمره، ومن أجل ذلك تجدون أن الإشاعات أول ما تطرح أمام أقوام تميل نفوسهم إلى أن تكون الإشاعة صادقة. آتي إلى جماعة تحب شيئا ما فأطرح إشاعة ترغب في تحقق ذلك الشيء، فيصدقها الكل بسرعة من دون أن ينظر في صحتها

وبطلانها، فمثلا كل الناس يحبون تخفيف الأزمة فيأتي إنسان ويطرح إشاعة، وفد من مجلس العموم البريطاني سيصل غدا إلى البحرين، وسوف يضغط على الدولة لتفعل كذا وكذا. تجد مثل هذا الخبر يسري كأنه النار في الهشيم، وكأن مجلس العموم البريطاني يملك من الصلاحية أن يضغط على أي دولة من الدول، وكأن مجلس العموم البريطاني ضغط على دولته لتوقف التعامل مع الدول التي لم تحترم حتى الحرية الدينية لمواطنيها، شيء غريب لكن حين تكون النفوس متوجهة إلى إيجاد حل فإن الكل يحب أن يصدق الخبر فينتشر، لكن لو جاء إنسان وطرح خبرا معاكسا مضادا للأمال حتى إذا كان هو الواقع فإنه لا يقبل، ولذلك هناك حقيقة يقرها علم النفس وهي أن أصحاب التوجهات الموحدة تسري بينهم أفكار موحدة، ولا ينظر إليها إن كانت صحيحة أم مخطئة، إنها تجمع أصحاب المصلحة المشتركة، فأينما تذهب تجد نفس الرأي، نفس الفكر ونفس الاقتراح. صاحب الإشاعة يستغل التيار العام الذي يجري في ذلك الوقت في البلد لي طرح إشاعته. ربما يطرحها بصورة سؤال لا بصورة خبر، هل سمعت كذا وكذا؟ لا، يقول أنا سمعت، لو سألته ممن سمعت؟ يقول سمعته من ثقة، من هو هذا الثقة؟ لا يخبر به لأنه كذاب، لأنه إذا كان ثقة لماذا لا تخبر باسمه، لو قلت له أذهب معك إلى الشخص الذي قلت في حقه هذا الكلام يرفض، لماذا؟ لأنه كذاب، لو قلت له مثلا سأخبر هذا الشخص الذي تقول في حقه هذا الكلام فإنه يرفض، لماذا لأنه كذاب، المهم أن صاحب الإشاعة أول ما يطرحها ويعطيها إلى المروجين يوصيهم إن لم يكونوا أذكاء بطرحها في الوسط التي تكون ميوله وتكون توجهاته إلى تحقيق ذلك الخبر. خذوا لكم مثلا لو جاء شخص وأخبر أن [صدام حسين] قد مات، من منكم يحب أن يكذب هذا الخبر، لا أحد منا يحب أن يكون هذا الخبر كذبا، هذا هو الواقع، ربما تجد كل واحد منا يركض ويخبر من يلتقي به أن صدام حسين قد مات، من قال لك، الناس يقولون، أخبرني به ثقة، ألا ينبغي لنا أن نتحرى صحة الخبر قبل التسليم به والمساهمة في نشره وترويجه؟ هذا الخبر لا يترتب عليه أثر عملي لمعظم الناس في البحرين، لكن لو طرح هذا الخبر في العراق وصدقه الناس وخرجوا إلى الشوارع مهللين مصفقين عندئذ ماذا يحدث؟ تنزل عليهم الزبانية

بالرصاص وتقنيهم، هذه هي النتيجة. ليس كل خبر في كل محل له أثر عملي، خبر موت صدام حسين في البحرين ربما لا يكون له أثر عملي، لكنه في العراق ذو أثر عملي خطير، عندما يطرح مثل هذا الخبر وهو كذب فإن واضع الخبر ومروجه يتسبب في قتل عشرات الآلاف من الأبرياء، لأنهم لفرحهم سيخرجون يهللون ويرقصون ويصفقون في الشوارع، وعندئذ تنزل زبانية صدام حسين وترميهم بالرصاص. الخبر دائما إذا صادف قلبا ميالا لتحقيقه أو إلى تحققه تراه يتبناه بسرعة، وكذلك العقل الخالي بالمرّة، إنسان غافل، ليس الخبر واردا في ذهنه إطلاقا، ليس هو مع الخبر وليس هو ضد الخبر، إنسان لم يفكر في هذه الناحية وتلقي عليه الخبر يصدقه بسرعة ولا يحقق فيه، أو إنسان ليس له عداوة مع زيد وليس عنده صداقة معه، وقد لا يعرفه، وربما سمع بوجود شخص اسمه فلان بن فلان، تذهب إليه في الليل وتقول له : يقولون مات فلان، يتأوه لكنه يصدقك بسرعة، إنه لا يحتمل أن لك غرضا في إشاعة موته، تراه في اليوم الثاني يخبر أخاه وابن عمه ويناديهما ليذهبا معه لتعزية نوبه، لماذا؟ لأن قلبه فارغ، لا يهمه أن يتحقق الخبر أولا يتحقق، فالقضية كما يقول الشاعر العربي:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

الفكرة مثلا التي يلقيها صاحب الإشاعة قد تكون من هذا القبيل، تفتش عن أفكار خالية بالنسبة لزيد أو بالنسبة ل بكر ليلقي عليها الفكرة عنه، فتمتلك تلك الفكرة من قلوب هذه الجماعة وعندئذ يعسر قلعا. فإذن أهداف الإشاعة مختلفة، هل هي ملء قلب، هل هي تأليب، هل هي توجيه لأحداث وقعت، هل هي لردع إنسان عن القيام بعمل أو الوقوف في موقف، تختلف أهدافها. وعندما تلقى الإشاعة وأنت تريد أن تحاربها عليك أن تعرف الهدف الذي يراد منها. أحيانا لا يكون الهدف من الإشاعة ظاهرا، أو يتظاهر ملقي الخبر بأنه لا يقصد به هدفا معينا، مجرد خبر، اسأله ماذا تقصد بهذا الخبر؟ عندئذ تكتشف أمره ويتضح هدفه.

الأساليب التي تلقى بها الإشاعة أيضا تختلف، فتارة يلقي الخبر بصورة سؤال، يقال إن فلان فعل كذا، هل سمعت ذلك؟ ما معنى هذا السؤال؟ لماذا اختارني ليسألني بالذات؟ أو لماذا

اختار هذه الجماعة ليسألها بالذات؟ أحيانا لا يذكر اسم الشخص أو الجماعة التي يراد طرح الإشاعة ضدها، يقال إنه في البلد الفلاني حصل كذا، كأن يقال أن كل من يدخل جدحفص ليلا يسأل عن بطاقته، وتفتش سيارته مثلا، - وهذه الإشاعة موجودة بالفعل -، أو يقال إن في البحرين كذا، يقال إن في الحجاز كذا، ما هو الهدف من إلقاء الخبر؟ الخبر له فائدتان، إما توصيل معناه إلى ذهن السامع أو أخبار السامع بأنك تعلم به، لوجئت لشخص يسكن مع أخيه في البيت وقلت له جاء أخوك من السفر أمس، تريد أن تخبره بأنك تعلم أن أخاه جاء أمس، طبعا هذا أسلوب من أساليب ترويح الإشاعة. وأسلوب آخر، يبحث عن شلات، مجموعات [بسطات] يجلس معهم ويأخذ في سرد الأحاديث المختلفة ويطرح الخبر الذي يريد ترويجه من خلالها، بعض مروجي الإشاعات يكونون كالثعلب المراوغ لا يستقر في مكان، يحبذ أن يلقي كل فرد على حدة يسره بالخبر وينصرف عنه إلى شخص آخر و هكذا.

طبعا هناك أساليب مختلفة أخرى في نشر الإشاعات، المهم أن حرب الإشاعة تكون أولا وبالذات بتتبع مصدرها، هذا هو الشيء الطبيعي، إذا أردت أن تعرف مصدر الإشاعة اتبع مصدر الخيط الذي تجيء به الإشاعة، لكن ملقي الإشاعة ذكي يختفي وكأنه الجني الذي تراه في الظلام ثم يختفي كالشيطان، فلو سألت صاحب الإشاعة ممن سمعت هذا الخبر؟ نادرا يقول لك سمعته من فلان، قد يقول لك الناس يقولون، طبعا الطريق الطبيعي لإفسادها معرفة مصدرها ولكن قد لا يكون الوصول إليه ممكنا، لا بد من اتباع أسلوب آخر وهو إلقاء التهمة على المروج ذاته بأنه هو المخترع، لو قال سمعته من الناس قل الناس كثير أعطني منهم عشرة، إذا قال من ثقة، قل له أنا أذهب معك إلى ذلك الثقة، لا تتركه يفلت من بين يديك، وإذا رفض قل له أذهب معك لمن تكلمت عنه، ستجده يرفض، ويخترع من المبررات ما يقدر عليه، إذا رفض قل له أنت المخترع وعليك التبعة وسوف أخبر الناس عنك بأنك تؤلب على الجماعة الفلانية أو تكذب على الجماعة الفلانية أو تكذب على زيد أو عمرو أو غير ذلك، عندئذ يضطر أن يخرس لسانه أو يخبر بالمصدر الذي جاءت منه الإشاعة.

وهناك أساليب أخرى لكن لا يتسع الوقت للكلام أكثر، ولا يستطيع الناس العاديون في محاربة الخبر أو الإشاعة أكثر من هذا الطريق وهو أن يلزموا كل مشيع للشر أو للغبية بأنه المخترع وأن يُحارب حتى لا يعود يروج خبراً آخر ويشهر بين مجتمعات الشباب بأن فلاناً مروج إشاعة وكذاب. وبهذه الطريقة يمكن القضاء على الإشاعات التي تفرق الصفوف والإشاعات التي توهن الأمر، والإشاعات التي تسبب الهزيمة للمجتمع، وتنتشر الخرافة، وتلهي الناس عما يدور حولهم، وتشغلهم عن شئونهم.

طبعاً الشباب المثقف عليه واجب أكبر من الناس العاديين، عليه القيام بمهمة التبصير، فإذا لم يقم الشباب المثقف كل في مجاله بتبصير من حوله ومن هم أقل منه ثقافة أو أصغر منه سناً أو من أقرانه وزملائه فإنه لا يمكن حفظ المجتمع. الحقيقة أن الأمر الذي يؤسف له أن مجتمع البحرين ومنذ وعينا وحتى الآن تتحكم فيه الإشاعة، ونحن صغار ونحن لا نزيد على العاشرة من العمر، فتحنا أعيننا على إشاعة أن الرفاع قد أعدت للهجوم على جدحفص، واشتغل أهل جدحفص ليلاً ونهاراً بمراقبة الطرق والاستعداد والسهر طيلة الليل جماعات يتوزعون للحراسة، ومضت الأيام والليالي، واكتشفنا أن الخبر كذبة مدبرة، ثم أدركنا أن مجتمع البحرين كله تتحكم فيه الإشاعة وتوجهه، لا يسأل أحد من الذي أمر، ومن الذي قال، ومن الذي فعل، ولا تجد كبيراً أو صغيراً يكلف نفسه بالسؤال، بل ينساق وراء كل خبر كما يعبر بعضهم " جماعة بلا قائد " صحيح بلا قائد لماذا؟ لأنهم يمشون مع الإشاعة، والذين تقودهم الإشاعة قائدهم الشيطان، يقول المثل الشعبي: [من لا كبير له فكبيره الشيطان]، وإلا هل هناك أحد من العقلاء، أو جماعة من العقلاء تسير من دون قائد، أو لا تعرف من يقودها، وما مدى صلاحيتها، ما مدى إخلاصه؟ عجيب!. عندما تسأل يقال لك بلا قيادة، كيف تمشي؟ في ظل من تمشي يا أخي؟ الحقيقة هو يمشي مع الإشاعة، الإشاعة تقول إنه سيحدث شيء هذه الليلة في المكان الفلاني، تراه يركض إلى ذلك المكان، على الشباب المثقف إذن القيام بحملات التبصير، بحملات التنقيف حتى يتخلص المجتمع من مروجي الإشاعات، على الأقل لا يبقى مجتمع إشاعة، يتحول إلى مجتمع لا

يتحرك حتى يعرف ماذا يريد على الأقل، ومن يريد. لا يصح أبدا أن يبقى المجتمع إلى مالا نهاية له بهذه الطريقة من التفكير وبهذه الطريقة من السلوك ويتحكم فيه الخبر المجهول، وبوجهه الشخص المجهول. وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

تحريف الكلم (1) *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وشفيع ذنوبنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين، والسلام عليكم أيها المؤمنون ورحمة الله وبركاته.

أولا أعتذر عن انقطاع الكلمة في الأسبوع الماضي، وهذه الكلمة معقودة لشرح وبيان بعض الشعارات والألفاظ التي تتداول على الألسنة أو تكتب على الجدران في هذه الأيام، ما هي حقيقتها وما هو المقصود منها، مترفعين عن ساقط القول مما حفل به قاموس الشيوعيين في الخمسينات والستينات في العراق والخليج مثل لفظ علماء البلاط أو العملاء والجواسيس وأمثال ذلك، مترفعين بأنفسنا عن الكلام عن مثل هذه الشعارات التي لا تدل في الوقت الحاضر - بعد أن سقطت قوة الأحزاب الشيوعية التي هي صاحبة هذا القاموس - إلا على أن من يستعملها لا يزال متوقفا في المصطلحات الرجعية القديمة في الخمسينيات والستينيات وأوائل السبعينيات، بالإضافة إلى أنه لا تزال الأفكار الشيوعية والبعثية التي انبثت تلك الأيام في أذهان العامة تعشش في ذهنه، لا تدل على أكثر من أن مستعمل هذه الألفاظ الساقطة لا يزال متأخرا حتى في استعمال القاموس السياسي، كما تدل على أنه لا يزال متأثرا بالأفكار اليسارية والشيوعية وأنه لا يزال يستعمل القاموس اليساري والشيوعي.

غاية ما هناك إنني أود أن أنبه إلى شيء واحد ولربما يقال وما فائدة التنبيه فإنه لن يسمع على الأكثر؛ أقول كما قال الله سبحانه وتعالى عن قوم وعظوا قوما يعلمون أنهم لا يرجعون بالموعظة عن غيرهم، فلامهم بعض المؤمنين وقالوا: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾¹، فرب كلمة أحييت سامعها بعد الموت.

* محاضرة في ليلة الثلاثاء 1995/7/31م بجامع جدحفص
1 لأعراف: من الآية 164

نود أن نقول لهؤلاء إن النبي صلى الله عليه وآله قال: "من كسر مؤمنا فعليه جبره". وإذا تأملنا في هذه الرواية الشريفة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله نجدها دقيقة جدا في مؤداها وعظيمة جدا في معناها، "من كسر مؤمنا" لا يعني من كسر يد المؤمن، فتجبيره سهل، "من كسر مؤمنا فعليه جبره"، أي من حرف مؤمنا عن طريق الحق إلى طريق الفسق أو إلى طريق الجور أو إلى غيره فعليه جبره، من تسبب في فساد عقيدة مؤمن، أو فساد عمله، أو دفعه للابتعاد عن الدين طوب بإصلاحه وإرجاعه إلى جادة الصواب، ومن يغذي الناس بمثل هذه الأفكار يكسر في كل مرة مؤمنين وليس مؤمنا واحدا، المؤمن الصغير أو البسيط الذي وثق في هذا المتحذلق وظنه مؤمنا وعادلا وتابعه وتبنى الألفاظ الساقطة التي وضعها اليساريون والشيوعيون في قواميسهم السياسية، طبعاً هذا جعله سبباً وجعله قذافاً وجعله ينحرف بأفكاره إلى ذات اليسار، والإمام علي عليه السلام يقول: "اليمن والشمال مضلة والوسطى هي الجادة"، يكون حرفة عن الجادة الوسطى التي هي جادة الإسلام إلى جادة اليسار، فهذا عليه جبره.

طبعاً هذا الإنسان يذهب ويطلق هذه الألفاظ على كل شخص يختلف معه، أو تحمله أنت أيها المتظاهر بالعدالة على بغضه وكرهه فينفر منه ويغتابه ويتلبه فماذا يحصل؟ يحصل على آثام، ويحصل على الذنوب العظيمة، ويؤخذ من أعماله فتعطى لذلك الإنسان الذي تلبه هذا البسيط المسكين الذي لا يعي ما يفعل، فتكون قد كسرتة، حملته ذنوباً وأفقدته حسنات، وعليك أن تجبره يوم القيامة. كيف تستطيع أن تجبره؟ أيضاً المؤمن الذي أحقدت عليه قلوب هؤلاء البسطاء ربما كان له دور مفيد في المجتمع فشلت دوره مثلاً، وأبعدت الناس عنه، فتكون قد كسرتة وعليك تعويضه عن كل ما فاتته من الثواب بسبب أنه لم يتمكن من فعل الخير الذي كان ينويه.

يكفي أن نذكر هؤلاء القوم الذين لا يزالون يستعملون قاموس الشيوعيين والبعثيين ومجمل اليساريين الذين وضعوه في الخمسينات والستينات من هذا القرن الميلادي، يكفي أن نذكرهم بأنكم ما زلتُم رجعيين، - ولفظ [رجعيين] في الحقيقة خطأ لغوي لكنه خطأ شائع، والصحيح في اللغة العربية أن نقول [رجوعيين] وليس [رجعيين]، والذي سبب شياع هذا الخطأ بين الناس هم أصحاب الشمال وأصحاب اليمن الذين تلقوا تثقيفهم في الغرب أو الشرق، هم الذين جاءوا بمصطلح رجعي

ورجعية، وجمعوا رجعي على رجعيين وكل هذا خطأ، المفروض أن يقولوا رجوعي وليس رجعياً -
يكفي أن نقول أن من مصطلحات هذا القاموس أن تسمى رجعياً لأنك لا تزال تستعمل شتائم
وجدت قبل أربعين سنة، فأنت اليوم لم تطور حتى شتائمك، بالإضافة إلى ما تتحملة من وزر
بالنسبة للطرفين، الطرف الذي تملأ ذهنه وتجعل نفسيته مؤهلة للسباب عن طريق تلقينه هذه
الألفاظ، والمؤمن الآخر الذي تريد أن توجه إليه هذه الشتائم.

وأيضاً نترفع عن مقام التنازب بالألقاب الذي أخذ بعض مدعي التدين ومنتظاهري الوطنية
يدرّبون على استعماله الناشئة التي يزعمون أنهم يسعون لإعدادها إعداداً إسلامياً، لا نريد أن نتكلم
عليه كثيراً، وإن كان التنازب بالألقاب أخذ يشيع بين الناس الملتفين بأدعياء العلم والتدين، وأخذت
الألقاب تطلق، أي على بعض المجموعات وعلى بعض الأشخاص، يكفي أن نذكر هؤلاء بأن الله
سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿لَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الضَّالُّونَ﴾¹، فمن يطلق لقباً على فرد أو جماعة أو قبيلة ولا يكون ذلك الفرد أو أولئك القوم راضين
بهذا اللقب، فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه لقب فاسق، ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾، أي أن من
نبز قوماً أو فرداً أو قبيلة أو جماعة بلقب لا يرضى به المنبوز فهو عند الله يسمى فاسقاً، فإذا
سمعت أيها الشاب إنساناً ينبز إنساناً بلقب لا يرضى به أو ينبز جماعة بلقب لا يرضون به فقل
له أنت فاسق، وهذا لقبك من عند الله لأن الله يقول: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾، وهو أيضاً ظالم
حسب مقياس القرآن، ومع ذلك ستجده يدعي أنه من أكبر دعاة تحقيق العدالة الاجتماعية بين
البشر، ومن أكبر المضحين في سبيل رفع المظالم عن كواهل الناس.

على أي حال لا أريد أن أتكلم عن الساقط من القول بأكثر من هذا. وأعود إلى بعض
الألفاظ والشعارات التي أخذت تتداول بين الناس في هذه الأيام وأحياناً تكتب في أوراق والنشرات،
وتكتب على الجدران مما لها تعلق بكتاب أو سنة لأن في شرحها وتفهم الناس معناها، ومتى

¹ الحجرات: من الآية 11

يصح أن تستعمل، ومتى لا يصح أن تستعمل ثواباً كبيراً من الله سبحانه وتعالى وإنقاذاً للجهلة من الوقوع تحت طائلة عذاب الله ونقمته.

كنت مارا في أحد أزقة جدحفص ووجدت جملة تقول: [هذه بلاد الخونة]. طبعا هذا شعار موجود على الجدار، وربما الذي كتبه شخص بسيط من أبناء جدحفص نفسها ملئ ذهنه وشحن على قومه وعلى بلده وعلى أهله من قبل حزب من الأحزاب، أو داعية لأحد الأحزاب، فكتب هذا الشعار، وربما يوجد هذا الشعار أيضا في قرى كثيرة يكتب عن أهلها أنهم خونة. ما هو معنى الخيانة؟ ومن يطلق عليه خائن ومن لا يطلق عليه خائن؟

الخيانة في اللغة العربية معناها عدم الالتزام بالمعاهدة والاتفاق والعقد، فإذا تعاهد اثنان أو أكثر على شيء ثم ذهب أحد المتعاقدين وخالف مقتضى العقد يقال إنه خان شريكه في العقد، كما لو أن إنساناً باع بيته على زيد، وبعد أن أجريت صيغة العقد الشرعية فكر أحدهما فوجد أن هذا العقد ليس في مصلحته، وبدل أن يذهب إلى صاحبه ويقول له أقلني العقد، ذهب وتصرف بنفسه في المبيع أو في الثمن من دون إعلام لصاحبه، فهذه خيانة، وكذلك لو أن خطيباً يتفق مع أهل مأتم على أن يقرأ عندهم بكذا وكذا دينار، وقبل الوقت المحدد بيوم أو يومين في وقت ضيق يأتي شخص إلى الخطيب ويطلبه للقراءة عنده بأجرة أعلى مما اتفق عليها مع صاحب المأتم الأول في نفس الوقت الذي سيقراً فيه في هذا المأتم فيتركهم وينصرف ويجعلهم في حيرة وورطة، طبعا هذه خيانة، وكذلك صاحب المأتم الذي اتفق مع الخطيب، فإذا بقيت عن وقت القراءة أيام قليلة وجد خطيبا آخر إما أنه أفضل من ذلك الخطيب وإما لأن أجرته أقل فاستأجره وترك ذلك الخطيب وأرسل إليه لقد استغنينا عنك، في وقت ضيق لا يتمكن فيه ذلك الخطيب من إيجاد محل آخر، طبعا هذه خيانة، وكذلك لو أن دولة تتفق مع دولة أخرى على أمر معين، ثم إن إحدى الدولتين تخالف هذه الاتفاقية من دون إعلام للدولة الثانية. مثلا صدام وقع اتفاقية مع إيران تعرف باتفاقية الجزائر، ومن دون إعلام إيران نبذ اتفاقيتها، وأعلن الحرب على إيران، وبعد إعلان الحرب أعلن نبذ الاتفاقية، طبعا هذه خيانة.

فإذن الخيانة في اللغة معناها مخالفة أحد المتعاقدين لمقتضى العقد وروحه، يقول الشاعر

العربي همام بن غالب المعروف بالفرزدق :

تَعَشَّ فَإِنِ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونَنِي نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

فلا بد أن تكون هناك معاهدة، فإذا وجدت المعاهدة، وجد الاتفاق، ووجد التعاقد، والذي

يخالف مقتضى تلك المعاهدة، ويخالف مقتضى ذلك الاتفاق، ويخالف مقتضى ذلك العقد يقال له

خائن، يقول سبحانه لنبيه في كتابه المجيد: ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْخَائِنِينَ﴾¹، يعني أي قوم عقدوا معك معاهدة ووصلتك أنباء وأخبار أنهم يوشكون أن ينقضوا ذلك

العهد ويخونوك فأنت انبذ إليهم على سواء، أي أخبرهم بأنك أنهيت عقدك معهم، أرسل إليهم أنني

أنهيت معاهدتي معكم، هذه نزلت في حرب هوازن، وذلك أن قريشا عاهدت رسول الله صلى الله

عليه وآله في يوم الحديبية معاهدة جاء فيها أن قبائل العرب من دخل في حلف قريش فهو مع

قريش ومن دخل في حلف محمد فهو مع محمد، ودخلت قبيلة هوازن في حلف محمد صلى الله

عليه وآله، ومع ذلك شنت قريش الحرب عليها وجاء شيخ قبيلة هوازن وهو يقول:

يا رب إني ناشد محمدا حلف أبيه وأبينا الأتلدا

قصيدة طويلة أنشدها، احتار النبي صلى الله عليه وآله، إذ ليس من طبيعة الأنبياء أن

يخونوا، هناك معاهدة أن لا يحارب قريش، فأنزل الله سبحانه إليه: ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ

إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾². فإذا جاز إعلامهم بانتهاء أمد المعاهدة مع الخوف من

الخيانة فكيف بالخيانة الفعلية وهي إشعال الحرب مع هوازن، وذهب المسلمون وحاربوا في صف

هوازن وهزموا قريشا. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾³. تخونوا الله لأن الله سبحانه وتعالى أخذ عهده على عباده في عالم الذر أن يطيعوه

¹ الأنفال: 58

² الأنفال: 58

³ الأنفال: 27

ولا يعصوه، فكل معصية يرتكبها العبد في دار الدنيا هي خيانة لذلك العهد، وكل ترك لطاعة في الدنيا هي خيانة لذلك العهد، فيصح أن تطلق على المعصية لفظة خيانة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوْنُوا أَمْثَانِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وإذا حملنا اللفظ على ظاهره من أخذ لفظ الأمانة على الوديعة طبعا الوديعة عقد من العقود، فما زال إلى اليوم يستعمل عقد الوديعة في البنوك وبين سائر الناس، ولو أن الودعي تصرف في الأموال المودعة لديه وأتلفها على المودع، فإنه يكون قد خان أمانته، وإذا أخذنا الأمانة بمعنى كل ما جرى وضعه تحت يد الشخص عن طريق عقد من العقود فحتى الموظف العام الذي يخون وظيفته، والذي يأخذ الرشوة على المواطنين، والذي يدخل عداوته وصدقاته في مجال وظيفته ويعطل أعمال الناس، هذا يكون خان أمانته.

والخيانة معناها هي عدم الوفاء بالعقد، وعدم الوفاء بالمعاهدة، وليست الخيانة معناها الاختلاف في الرأي، أو الاختلاف في الأسلوب، فلا يحق لي أن أسميك خائناً لمجرد أنني أختلف معك في الرأي، فالخيانة ليست درجة من درجات الاختلاف بين الناس حتى يصح أن تسمي من يختلف معك في الرأي خائناً، هل أجريت معه عقداً يا أخي؟ هل اتفقت معه على موضوع وخالف مقتضى هذا الاتفاق، وخرج على روح هذا الاتفاق من دون أن يعلمك بأنني سأنتهي هذا الاتفاق حتى يصح أن تسميه خائناً؟ إطلاق الخيانة بهذا المعنى إنما يدل على الجهل العظيم عند من أطلقه، وإذا كنت قد أخذت هذا المعنى من أستاذ في اللغة فاعلم أنه لا يعرف شيئاً في اللغة، وإذا كان من علمك هذا الإطلاق للفظ الخيانة يدعي الثقافة فاعلم أنه ممن يطلق القول على عواهنه، وإذا كان من اقتديت به في استعمال هذا اللفظ يدعي أنه من طلبة العلم فهذا مصيبته أعظم؛ لأن طالب العلم الذي لا يعرف معنى اللفظة في اللغة العربية، ولا يعرف معنى اللفظة في كتاب الله وفي سنة رسوله، ومع ذلك ينصب نفسه معلماً ومرشداً وقُدوةً، هذا شيء عجيب! وإذا كان عالماً ويتجاهل علمه فانظروا إلى الأحاديث التي وردت في العالم الذي لا يعمل بعلمه، أقل ما ورد فيه من الروايات "إن أهل النار يتأذون من ريح العالم الذي لا يعمل بعلمه" فإن كان يعرف معنى هذه اللفظة في اللغة العربية وفي كتاب الله وفي سنة رسوله ثم يعلمها الناس بطريق آخر فويل له غداً

يوم القيامة، وإن كان لا يعرف حتى معنى مثل هذه اللفظة البسيطة في اللغة العربية وفي كتاب الله وسنة رسوله فلا يجوز له أن يضع نفسه معلما ومرشدا وإماما للناس، بل عليه أن يذهب ويحضر الدروس، ويحضر الأبحاث عند العلماء ويتعلم.

وإنسان مثل هذا أيضا لا يجوز للناس أن تتساق خلفه وتحسبه على العلماء، بل إذا وجدوه يريد أن يتصدى إلى وظيفة تقتضي أن يتصدى لها العالم يقولون له: ابتعد، هذا ليس مقامك ولا ينبغي مجاملته في هذا الشأن، هذا مفهوم من المفاهيم يظنها الإنسان بسيطة فيطلقها، فلان خائن، أو البلد الفلانية بلاد الخونة، أو القوم الفلانيون خونة، فهذا إنما يدل على جهله حتى بطريقة استعمال اللفظة في اللغة العربية، ومع ذلك ينصب نفسه للناس خطيبا أو إماما أو مرشدا، ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم.

ونواصل الكلام على بعض المفهومات والشعارات في الأسابيع القادمة إن شاء الله تعالى.
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

تحريف الكلم (2) *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

نتكلم هذه الليلة عن كلمة طالما أطلقها الناس ضد بعضهم البعض، واستعملها كل فريق منهم سيفاً حاداً في رقاب من خالفه، في صحفهم وفي كتبهم وفي خطاباتهم، على الجدران في أي مكان يطلقونها، وهي الكلمة المشهورة " الساكت عن الحق شيطان أخرس".

والكلام عن هذه الكلمة من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: هذه الكلمة لا أستطيع أن أجزم إن كانت حديثاً له سند أو هي مجرد قول مأثور ليس له سند، لا أستطيع أن أجزم بذلك لأن استقرائي للموضوع في مظانه حتى الآن غير تام، وتتبعي غير كامل، ولكنني لم أجدها في المصادر التي تتبعت فيها هذه الكلمة من أحاديث الشيعة لحد الآن، ولا أستطيع أن أنفي أن تكون حديثاً وأجزم بذلك؛ لأنني لم أتبع جميع المظان وجميع المصادر التي يحتمل أن تكون الكلمة موجودة فيها في كتب الروايات. فإذن، كونها حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أو عن أحد الأئمة عليهم الصلاة والسلام تروى عنهم فضلاً عن أن تثبت لهم أمر مشكوك لا نستطيع أن نجزم به ولا نستطيع أن نجزم بنفيه.

الجهة الثانية: أن هذه الكلمة لو كانت حديثاً فإنه إذا أخذ على إطلاقه حتى لو كان له سند صحيح يكون باطلاً، وإنما يصح أن يصدر عن أحد المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إذا أخذ على نحو الموجبة الجزئية، أي القضية الجزئية التي تنطبق على مورد ولا تنطبق على موارد أخرى، وذلك لأننا لو أخذنا هذا الحديث على إطلاقه فإنه يكون متناقضاً مع مواقف جميع رسل الله وأوصيائهم المعصومين. ونضرب مثلاً برسولين من أولي العزم وإن كانت جميع الأنبياء وجميع المرسلين يشتركون في هذه الخاصية وكذلك كل أوصيائهم، نأخذ أولاً موسى بن

* محاضرة في ليلة الثلاثاء 1995/8/7م بجامع جدحفص

عمران على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام، تترى هذا الرجل في مصر، وعاش في مصر سنين طويلة وهو يرى فرعون يقتل الرجال ويستحيي النساء، يرى فرعون يظلم بني إسرائيل ويحملهم ما لا طاقة لهم به، عايش فرعون وهو يدعي أنه الله الذي يجب أن يعبد سنين كثيرة وما حدثنا التاريخ الموافق أو المخالف، اليهودي أو العربي أو القبطي أن موسى عليه الصلاة والسلام في تلك السنين الطويلة تكلم ببنت شفة لفرعون وقومه، ولا تقل لي إنه لا يعلم بما هو حق وبما هو باطل. لأنه أولا وحسب اعتقادنا نحن الشيعة أن الأنبياء والأوصياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من حين الولادة، ولا تقل لي إن موسى كان عاصيا فتاب، تاب بعد النبوة، ربما يجري هذا على مذهب غير الشيعة، ولكن عقيدة الشيعة أن الأنبياء والرسل والأوصياء والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين معصومون من حين الولادة؛ فلا نتصور أنه كان عاصيا بسكوته على ما يرى من المظالم والفظائع والقتل المتعمد من دون ذنب، وهتك الأعراض ونهب الأموال وهدم البيوت، ولا تقل لي إنه لا يعرف حتى نسبه، فالقرآن يحدثنا أنه يعرف المؤمنين ويعرف شيعته: ﴿فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾¹، فإذن كان يعرف أن هذا مؤمن وهو من شيعته وهذا كافر وهو عدو له، وعندما أخبره حبيب النجار صهر فرعون وكان مؤمنا يكتم إيمانه بأن القوم قد عقدوا اجتماعا وقرروا فيه قتلك، وأن الفرعون قد أجاز ذلك وقال له : اخرج إنني لك من الناصحين، فخرج إلى مدين وبقي في مدين عشر سنوات، ولا ندري ما فعل موسى أيضا في مدين، وعندما رجع ونبأه الله وطلب من ربه أن يشرك معه في الرسالة أخاه هارون عندئذ ذهبا إلى فرعون، ولكن طيلة بقاءه في مصر لم يذكر التاريخ أنه تكلم بكلمة، هذا موقف من مواقف النبي، فهل كان موسى عليه السلام من حين تكليفه إلى حين أن بعثه الله رسولا شيطانا أخرس، لأنه كان ساكتا عن الحق؟

محمد صلى الله عليه وآله عاش في قومه قبل النبوة أربعين سنة، وكلهم كانوا يتقون فيه، ويأتمنون على أموالهم وعلى أعراضهم ويلقبونه بالصادق الأمين، وهو يراهم يعبدون الأصنام،

¹ القصص: من الآية 15

ويراهم يستحلون الحرام، ويراهم يرتكبون من المظالم ما يرتكبون، ولا إشكال أنه صلى الله عليه وآله نبي وأدم بين الماء والطين، كان يخرج عنهم صلى الله عليه وآله إلى غار حراء يتعبد فيه، وأخذ معه علي بن أبي طالب عليه السلام منذ أن كان صغيراً، كان يصاحبه ويعلمه، ولكن ما حدثنا التاريخ بأن محمداً صلى الله عليه وآله وقف عند الكعبة وهي مجمع قريش قبل البعثة ونادى أيها الناس أنتم ظالمون، أو يا زعماء قريش كفوا عن ظلم الغرباء، على الرغم من أنه قبل زمنه بقليل قد وجد في قريش من تحرك لرفع بعض المظالم وعقدوا حلفاً أسموه بحلف الفضول، وكان منهم بعض أعمامه وبعض أبناء عمه، ومعروف أن حلف الفضول إنما تشكل كحزب لمحاربة المظالم التي ترتكبها قريش ضد من يأتي إلى مكة. على أي حال كانت هناك سابقة، وكان صلى الله عليه وآله يستطيع أن يحتذيتها وأن يجمع من تبقى من أعضاء حلف الفضول، ويستطيع أن يجمع من يشعر بذلك الظلم ويتكلم، ولكنه لم يفعل حتى بعثه الله رسولا، فهل كان محمد صلى الله عليه وآله قبل بعثته شيطانا أخرس.

وكذلك وصيه علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه بقي ساكناً في بيته لا ينطق بشيء خمسا وعشرين سنة، ولا تقل إنه لا يعرف هذه الفتنة، ولا يعرف المظالم وهو الذي يقول "طفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء، يشيب فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه، فرأيت الصبر على هاتا أحجى فصبرت وفي العين قذى وفي القلب شجى"، ربما كان علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه مدة الخمس وعشرين سنة شيطانا أخرس، إذا صح هذا الحديث على إطلاقه أو إذا صحت هذه الكلمة على إطلاقها؟

الحسن بن علي عليه السلام بعد الصلح يرى معاوية وأتباعه وقد اتخذوا مال الله دولا وعباده خولا، ويرى المظالم ويرى القتل بالظلم والسجن بالظلم ونهب الأموال وهتك الأعراض ولم ينطق بكلمة حتى توفاه الله، فهو إذن بعد أن كان مجاهداً أصبح شيطانا أخرس، لو صحت هذه الكلمة على إطلاقها! والحسين عليه الصلاة والسلام سيد الشهداء وأبو الأحرار وأبي الضيم من

حين ما صالح أخوه الحسن معاوية وإلى أن مات معاوية وقد عاش بعد أخيه أيضا سنين أخرى صامتا لا يتحرك وهو يرى كما كان أخوه يرى ما يفعل معاوية ورجال دولته وأتباعه، فهل كان في تلك المدة شيطانا أخرس؟

زين العابدين صلوات الله وسلامه عليه وهو الذي قتل أبوه وإخوته وأعمامه وأهل بيته، وهو الذي استبيح رحله وسبيت أخواته وعماته ونساؤه يكون في المدينة، ويعلن أهل المدينة الثورة على يزيد بن معاوية، فكان الأولى به في نظر الناس أن ينضم إلى هذه الثورة وأن يقف مع هذه الانتفاضة، وعلى الأقل أن لا يكون شيطانا أخرس يجلس في بيته ويغلق بابه، والناس تجزر كالأضاحي في المدينة، والبيوت تهدم والأعراض تهتك، حتى ورد في التاريخ أن جيش يزيد بن معاوية افتض أربعين ألف بكر في تلك الواقعة.

ويخرج عبد الله بن الزبير بدعوى الدفاع عن الإسلام - وإن كان كثير من الناس يعلن دائما الدفاع عن الإسلام وهي كلمة حق يراد بها باطل- ويعرض الكعبة المشرفة للمهانة، وعلي بن الحسين عليه السلام أيضا ساكت لا يحرك ساكنا، ولا يتكلم لا ضد عبد الله بن الزبير ولا ضد يزيد بن معاوية؛ لأن الاثنين طلاب دنيا ليس فيهما أحد من وجهة نظره على الأقل أنه يريد الله؛ لأن من يريد الله لا يعرض الكعبة للمهانة، ومن يريد الله لا يعرض المؤمنين للمهانة، ولا يعرض المؤمنين للأذية وهو يريد شيئا آخر.

الإمام الباقر عليه السلام والصادق والكاظم والرضا إلى آخر الأئمة، كلهم كانوا ساكتين مع ما يشاهدون من التلاعب بمقدرات الأمة، ومع ما يرون من خروج الخلفاء في أزمنتهم على الإسلام وأحكامه، حتى اتهم بعضهم كالإمام الصادق بأنه أرخى ستره وهادن الظالمين، فهل كانوا جميعا شياطين خرسا عن الحق؟

فإذن الحديث لو ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله، أو ثبت عن أحد الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لا يمكن أخذه على إطلاقه، إضافة إلى أننا قلنا إننا لا نزال في محل شك هل هو حديث أو هو قول مأثور، ولو كان حديثا هل تصح طريقه أو لا تصح، لا نعلم، لكن لو

ثبت وصح طريقه إلى أحد المعصومين فإنه لا يمكن قبوله على إطلاقه، ولا بد من قبوله على نحو الموجبة الجزئية أي أن الساكت عن الحق في بعض الموارد يكون شيطاناً أخرس، هذا إذا صح، هذه هي الجهة الثانية.

أما الجهة الثالثة: فهي في الكلام على متن الرواية ودلالاتها، فنقول إنه لا يصلح للحرب في الدعاية السياسية، لماذا؟ لأن فيه مفهومات غامضة، ولا نريد إلا أن نركز على مفهوم واحد من المفهومات التي تعرضت لها هذه الكلمة أو هذه الرواية، وهي كلمة الحق، "الساكت عن الحق شيطان أخرس" يا ترى ما هو الحق الذي يكون الإنسان إذا سكت عنه شيطاناً أخرس؟ طبعا يتبادر إلى الأذهان؛ وهذا هو موضع اللبس في هذه الرواية أن الناس تفهم من لفظ الحق، الحق الذي جاء به الله، ولكن هل أن الحق في موارد الاختلافات الاجتماعية والسياسية في الوضوح كالحق الذي جاء به الله سبحانه واضح تمام الوضوح مثل الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، مثل حرمة الخمر، والزنا، والسرقه، واللواط؟ الأمور السياسية في وضوح أحقيتها وبطلانها أهي بهذه المثابة المنكشفة لكل مسلم حتى يطلق لفظ الحق عليها؟ لا إشكال أن الأمور الاجتماعية والسياسية مدائة اختلط فيها الحق بالباطل، يقول أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه لسليم بن قيس " ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيخرجان إلى الناس". كل إنسان ينظر من زاويته ويقول هذا حق، وذاك ينظر من زاويته ويقول هذا باطل، فيختلفان، "ولو أن الحق خلص لم يختلف عليه اثنان، ولو أن الباطل خلص لما اتبعه اثنان، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان ويخرجان إلى الناس".

فإن الحق الذي تصورته أنا حقاً فصرت أنا مقياس الحق والباطل، فيصبح الرجال هم مقياس الحق والباطل؟ وهذا خلاف المقياس الشرعي، يقول أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه لرجل يوم البصرة " اعرف الحق تعرف أهله، إن الحق لا يعرف بالرجال" فلكي تقول إن فلانا على حق وإن فلانا على باطل ينبغي أولاً أن تعرف ما هو الحق وما هو الباطل في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وآله، وعندئذ تقول إن فلاناً على حق لأنه أتبع كتاب الله وسنة

رسوله، وفلان على باطل لأنه خالف كتاب الله وخالف سنة رسوله. في الأمور الاجتماعية والسياسية ربما يكون هناك كتاب وربما تكون هناك سنة ولكن هذا الكتاب وهذه السنة ليست على نحو النص الذي لا يحتمل التأويل ولا يحتمل الاختلاف، بل تجد الروايات متضاربة، والآيات مختلفة، فكل إنسان يُحمّل القرآن ويحمّل السنة وجهها، فعندئذ لا يمكنك أن تحكم على شخص بالضلال والخروج عن الدين لأنه خالفك، وغاية ما هناك وفي أحسن الفروض تقول إنه مخطئ، أكثر من التخطئة في هذه الأمور لا تجوز شرعا، ومن زاد على هذه التخطئة يكون لا إشكال تعدى طوره، مثلا يقول إن فلانا فاسق لأنه يقف هذا الموقف، لا يجوز له أن يقول ذلك، أو أن يقول: فلان لأنه يقف هذا الموقف كافر، لا يجوز له، هذه أمور لا يجوز فيها أكثر من التخطئة.

نعم لو تعصب لرأيه، وتعصب لموقفه وخالف حكما ثابتا من الدين يكون فاسقا، فمثلا من استحل غيبة من يخالفه في الرأي هذا ارتكب مخالفة الشيء الثابت بالضرورة من الدين فأصبح فاسقا، وكذلك لو أنه بسبب تعصبه لرأيه أبطل عبادة من عبادات المسلمين، طبعا يكون قد فسق، أو أنه لتعصبه لرأيه ترك فريضة أوجبها الله عليه، فصار مثلا لا يحضر جماعة زيد لأنه يختلف معه في الرأي أو لا يحضر جمعة عمرو لأنه يختلف معه في الرأي، طبعا إذا فرضنا أنه يقلد من يقول بوجوب الجمعة، أو هو لا يجيد الصلاة ويلزمه الحضور في الجماعة، لا يحضر لأن من لا يجيد الصلاة يجب عليه الحضور في الجماعة لأنه لا يجيد القراءة فهذا ترك واجبا عليه تعصبا لرأيه فهذا فاسق . أما في هذه الأمور فلا يمكن أن نقول إن ما تصورته هو الحق وما تصوره زيد فهو الباطل، وأنه يعلم أن ما أتصوره أنا حقا فهو حق، وعندئذ يكون شيطاننا أخرس لأنه ساكت عن الحق الذي يعلم أنه الحق مع عدم العذر الشرعي له في السكوت.

أضرب لكم مثلا، الآن في الجمهورية الإسلامية في إيران، حكامها علماء أجلاء فضلاء عدول، ويوجد آخرون أيضا فقهاء عدول يختلفون معهم في الرأي ويرون أن القائمين على الحكم في الجمهورية مخطئين في هذا السير، ما رأيكم لو طلبوا من الناس الكلام واعتبروا كل ساكت شيطاننا أخرس؟ إذا كان ما أتصوره أنا حقا فهو الحق تجيء هذه النتيجة، بل الذين في الحكم

أيضا ليسوا قسما واحدا، أقسام متعددة وكل قسم منهم يتصور الحق بشكل خاص، فيوجد مصطلحات في إيران جماعة يسمونهم روحانيان مبارزان منهم كروبي، وآخرون، وجماعة يسمونهم روحانيان فقط منهم رفسنجاني وبقية الجماعة، وهم طبعا على خلاف دائم في بعض الأمور، فهؤلاء يتصورون الحق بشكل وهؤلاء يتصورون الحق بشكل آخر، ما رأيك لو أن هؤلاء وهم يرون أولئك مخطئين طالبوا الناس بالكلام وتفسيق أولئك لأنهم يختلفون معهم، وربما يعتقدون أنهم يعلمون بالحق، وقالوا أولئك يعلمون بالحق ويعاندون ويسكتون عن الحق وأن كل من لا يقف ضدهم فهو شيطان أخرس، هل هذه النتيجة صحيحة؟ إلى أي شيء تؤدي هذه النتيجة؟

فإن مفهوم الحق مفهوم غامض خاصة في الأمور السياسية والاجتماعية، وليس مثل الحق في العبادات، وحتى في المحرمات، اليوم ابتداء مفهوم الحق يزيد غموضا، بعض المحرمات التي كان متسالماً على حرمتها، أصبح اليوم بعض العلماء يشكك في حرمتها ولو من جهة أخرى فكيف بها في الأمور السياسية والاجتماعية.

وإذا كان مفهوم الحق في الغموض بهذا المعنى فهذا القول المأثور أو هذا الحديث إن ثبت له سند لا يصلح أن يكون سيفا في الصراع السياسي، ولا يصلح أن يشهره أحد على أحد؛ لأن من يشهره على المختلف معه يكون ظالما فعلا ما دام هو يعلم أنه لا يوجد هناك حق واضح أبلج بالذي هو يتصوره، وأن الإنسان ربما تكون له أعذار، وأنه لو رأى الحق الأبلج لا يجب عليه الكلام، ربما تكون له أعذار كما كانت للأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أعذار، وكما كانت للأنبياء في مواقع سكوتهم عن الحق أعذار، فإن هذا الحديث لا يصح إطلاقا إن صح أنه حديث أن يكون سلاحا في المخاصمات والمهاترات السياسية، ولا يصلح مطلقا أن تشهره فئة على فئة، وأن أي فئة تستعمله إنما تعد مفلسة، بل لأنها لا تجد ما تحج به تلك الفئة فتعتمد إلى أمر مضلل للبطاء، يسمعون لفظة الحق فيتيهون ميسا وهم لا يعرفون معنى الحق.

ولو قام شخص فوزع أوراقا على الحاضرين وطلب من كل شخص أن يُعرّف معنى كلمة الحق لوجدتم تعريفات بعدد أفراد الجالسين، لأنه ليس مفهوما متضحا في الأذهان، ولو وزعت

أوراق على جميع الجالسين وطلبت من كل شخص أن يُعرّف مفهوم الظلم لجاءتك تعريفات بعدد أفراد الحاضرين.

فإذن هذه الكلمة إنما يدل استعمالها على إفلاس المستعمل لها في التشويه على مخالفيه، وعلى عصبية. ولا يدل على أكثر من كونه مفلسا فكريا ومتعصبا لرأيه، فهذا الاستعمال لا يدل على شيء أكثر من ذلك، ومع الأسف كنت أود أن أختتم الحديث برواية عن أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه ولكن المجال قد طال وربما نذكر هذه الرواية في وقت آخر وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

دعوة الحق*

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين، السلام عليكم أيها الاخوة المؤمنون ورحمة الله وبركاته.

قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه المجيد: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ¹﴾.

شبه سبحانه وتعالى الدعوة إلى الباطل برجل يقف على ساحل الماء يمد كفيه إلى الماء، ويطلب من الماء أن يصل فاه دون أن يكلف نفسه بغرف الماء بالكفين وإيصاله إلى فمه. ولا شك أن قوانين الكون كلها تأبى أن يبلغ هذا الماء الذي في الساقية إلى فم العطشان ما لم يغترف بيديه أو بإناء.

ومعنى ذلك أن الدعاة إلى الباطل إنما يحاولون أمرا لا يمكن أن يتم لهم، ولا يمكن أن يقبل منهم، فالدعاة إلى الباطل ليسوا دائما خالين من الانتساب الى الله سبحانه وتعالى، وربما يتمسكون أيضا بأنهم يدعون إلى الله، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ²﴾، فإذا كانت الدعوة حقا، وإذا كانت الدعوة إلى حق فنسبتها إلى الله صحيحة، وأما إذا لم تكن إلى الحق فنسبتها إليه غير صحيحة، بل هي دعوة من دونه، ومن دون الله سبحانه وتعالى ربما كان وثنا أو صنما أو دينا مصطنعا أو عقيدة باطلة أو سلوكا مخالفا لما أراد الله سبحانه وتعالى لعباده.

فإذن ونحن نريد أن نجعل من أنفسنا دعاة للناس إلى هذا الدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسله وأنبيائه، وختم به بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، ونريد أن نجعل من أنفسنا تلك الأمة الوسط التي تكون شاهدة على الناس؛ لا بد لنا أن نعرف ما هي دعوة الحق؟ ومن الذي يقوم بها؟

* محاضرة في عام 1988م

¹ الرعد: 14

² الرعد: من الآية 14

حتى نميز ما هو حق مما هو باطل، ونميز دعاة الحق من دعاة الباطل، فإن الشبه في هذا المجال أكثر من أن يكتشف بدون تمعن وبدون تعمق في الفكر.

والدعوة في اللغة لعلها واضحة عند الجميع، وهي بمعنى الدعاء أو الاستدعاء أي طلب الشيء، تقول دعوت فلانا أي طلبت منه فعل شيء، أقل ما يكون الحضور إلى البيت مثلا. فالدعوة إذن بمعنى الدعاء أو الاستدعاء. والحق يكون اسما من أسماء الله سبحانه وتعالى، ويكون اسما لكل ما هو واقعي ثابت، فكل شيء ثابت غير قابل للبطلان يقال له حق، والمقصود به في هذه الآية الكريمة هو دين التوحيد الخالص، فإنه الدين الذي لا يعقل بطلانه في يوم من الأيام، وهو الأمر الواقع غير القابل للنقض، ومن أجل ذلك سمي دين الحق، وسمي دعوة الحق، هذه الدعوة تكون من الله سبحانه وتعالى لخلقه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾¹، فهو سبحانه وتعالى يدعو إلى الحق، ولكن هذه الدعوة بلغها للناس أناس مثلهم من البشر، وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وحملها أتباع الأنبياء إلى سائر الأمم، وأتباع الأنبياء منهم من هو مخلص لتلك الدعوة، ومنهم من يستغل تلك الدعوة لمآرب في نفسه، فإذا حتى لو دعا إلى ما هو حق ولكن قصده في ذلك لم يكن سليما كقصد الأنبياء صلى الله عليه وآله لا تكون تلك الدعوة حقا، ولا تكون تلك الدعوة لله، بل هي دعاء من دونه، فهو يحاول أن يوجد شيئا يقربه إلى الله سبحانه وتعالى بطريق لا يرتضيه الله سبحانه وتعالى، فلا يمكنه القرب من الله، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغ.

فالعنصر الأول إذن في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى أن يكون القصد ممن يحمل رسالة الأنبياء ليبلغها إلى غيره من البشر أن يكون قصده في ذلك لله وحده، وإذا قصد الإنسان الله سبحانه وتعالى فلا بد له من أن يسلك الطريق الذي يأذن الله سبحانه وتعالى أن يدعى إليه به، وإلا فالدعوة إلى الله بدون إذن الله هي أيضا مرفوضة من الله، وهي ليست دعوة إلى الله، وإلا فكثير من الفلاسفة والحكماء من غير هذه الأمة دعوا إلى التوحيد الخالص، ودعوا إلى عبادة إله

¹ الرعد: من الآية 14

واحد، ودعوا إلى الانقطاع إلى إله واحد، ولكن لما لم يكونوا مآذونين بتلك الدعوة تعتبر دعوتهم تلك موصلة إلى الله سبحانه وتعالى، ولا منتسبة إليه، بل لا بد أن يكون الداعي مآذوناً له في الدعوة من الله سبحانه وتعالى، حتى النبي صلى الله عليه وآله وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾¹.

فالإذن إذاً من الله سبحانه وتعالى ضروري في أن تكون تلك الدعوة إلى الله، ولا يكفي أن يكون القصد من تلك الدعوة سليماً ومجرداً إلى الله بينما لا يكون الداعية ممن أذن الله له بالدعوة؛ فإنه إذا لم تبلغه دعوة الأنبياء، يكون مثاباً على إخلاص نيته، ولكن دعوته لا تكون دعوة الحق، ولا تكون دعوة الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنه لم يكن مآذوناً في الدعوة إليه، فلا بد إذاً أن يكون الداعية إلى الله سبحانه وتعالى مآذوناً من الله في الدعوة إليه، ولا يكون مآذوناً بالدعوة إليه حتى يسير على النهج الذي رسمه الله سبحانه وتعالى لأنبيائه ورسله وللمؤمنين بشريعته في الدعوة إلى تلك الشريعة، ويتأدب بآداب تلك الشريعة، ويتحلى بأخلاق تلك الشريعة، ويكون في حقيقته داعياً إلى الله، لا إلى هوى عنده، ولا إلى رأي يحملة؛ يدعو إليه بحجة أن هذا هو دين الله، ثم يذهب فيكفر من خالفه في ذلك الرأي الذي أوجده هو بنفسه بحجة أن هذا الإنسان الآخر يخالف دين الله.

فرق بين مخالفة جوهر الدين وبين مخالفة رأي أوجدته لنفسه، حتى لو كان هذا الرأي الذي أوجدته لنفسه يعتمد على أدلة من الدين فإنه لا يكون مخالف هذا الرأي مخالفاً للدين، أو خارجاً من الدين حتى أجعل من هذا الرأي ديناً أدعو إليه، فلو فعلت ذلك لا أكون من الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما هو دعوة إلى رأي، هذا الرأي بسبب الدعوة إليه تحول صنماً، فالصنم لا يشترط أن يكون حجراً، أو شجراً، أو حيواناً، بل حتى أنبياء الله الذين أكرمهم برسالته، وابتعثهم لبريته، قد يحولهم الإنسان أصناماً، فالذين يعبدون عيسى عليه السلام مثلاً، هؤلاء في الحقيقة حولوا السيد المسيح من كونه رسولاً إلى كونه صنماً، واليهود وقد أنكروا أي نبوة بعد موسى عليه

¹ الأحزاب: من الآية 46

السلام وبعد نبوة آل داود حولوا أنبياء بني اسرائيل الذين هم بين موسى وبين داود بل حولوا موسى ذاته صنما يدعون إليه، وينكرون إيمان من قال بنبوة من جاء بعده من الأنبياء.

فالصنمية إذاً لا يشترط أن تكون حجراً أو أن تكون حيواناً أو أن تكون شجراً، ربما كانت فكرة وربما كانت بشراً، وربما كانت ملكاً، فلو أن إنساناً عبد ملكاً من الملائكة أو آله ملكاً من الملائكة أو نسب إلى ملك من الملائكة المكرمين صفات الربوبية، فهو في الحقيقة قد اتخذ ذلك الملك صنماً، وتكون دعوته حتى لو كانت تحمل جميع مفاهيم الشريعة الإلهية ما دامت تعتمد على تأليه من ليس بإله، أو تحتل فهي ليست بدعوة لله، حتى الرأي كما قلنا إذا أوجدته قد يكون نابعا من الدين، وقد يكون منتسبا للدين، لكنني لو كفرت من خالفني في هذا المنحى أو في هذا الرأي، واعتبرته خارجاً عن ربة الإيمان، فإنني في الحقيقة لا أكون في دعوتي إلى هذا الرأي داعياً لله، وإنما أكون داعياً إلى صنم هو هذا الرأي، أو داعياً إلى شخصي أنا باعتباري صاحب هذا الرأي، ولا أكون داعياً لله، قد يدعو الإنسان إلى فكر يحمله، وقد يدعو الإنسان إلى رأي يحمله، لكنه لا يكفر من خالف رأيه، أو نحى منحى لا يتلاءم والمنحى الذي سلكه، فمادام ذلك الإنسان لم يخرج عن حدود الشريعة، ولم يفارق مقتضى الإيمان، وإلا لكانت دعوته ليست دعوة إلى الله، وإنما دعوة من دون الله.

ونضرب مثلاً في هذا ما نشاهده بين أفراد المذاهب الإسلامية من محاولة إزراء أهل كل مذهب على أتباع المذهب الآخر بما لديهم من مسائل هي في الأعم الأغلب اجتهادية أوجدها فقهاء تلك المذاهب، وربما كانوا مخطئين فيها أو مصيبين، لكنها باعتبارها فروعاً لا تقتضي الخروج عن ربة الإسلام، مثال ذلك موضع السجود أو طهارة موضع الصلاة، فمن فقهاء المسلمين من يعتبر الطهارة في موضع القيام أي موضع الرجلين حين القيام، ويشترط فيه أن يكون طاهراً، وأما سائر مواضع المصلي كموضع السجود أو موضع الجبهة فلا يشترط فيه أن يكون طاهراً، وإنما يكفي فيه بأن لا تكون نجاسته متعدية، ومذهب آخر لا يشترط طهارة موضع القيام، وإنما يشترط طهارة موضع السجود، ويكتفي في سائر مكان المصلي بأن لا تكون نجاسته

متعدية، فيأتي هذا الفريق فيشنع على ذلك الفريق بأنكم تجيزون السجود على العذرة، ويأتي هذا الفريق ويشنع على هذا الفريق بأنكم تجيزون الوقوف على العذرة، طبعاً النتيجة ماذا؟ هي اختلاف الكلمة وتشنت الصف.

وأضرب مثلاً بمسألة أخرى من المسائل التي يكثر الابتلاء بها بين الناس، الزوجة مباحة لزوجها، لكن القدر المتيقن من الإباحة هو الواقعة في القبل، وأما الواقعة في غير القبل فهي موضع خلاف واجتهاد بين الفقهاء، فمنهم - يعني هذا ليس منحصرًا بالشيعة أو بغير الشيعة - مثلاً من غير الشيعة من يقول بأن الواقعة في دبر المرأة حرام، ومنهم من يقول حرام تنزيهي، والحرمة التنزيهية في مصطلح الأحناف بمعنى الكراهة المغلظة في مصطلح الشيعة، وفقهاء الشيعة أيضاً يختلفون في المسألة، فمنهم من يقول بالحرمة ومنهم من يقول بالكراهة المغلظة، وكل فقهاء المذاهب تجدهم يختلفون في هذه المسألة، فيأتي شخص من مذهب آخر يقول مثلاً إن الشيعة يبيحون نكاح المرأة في الدبر، مع أنه لا يوجد أحد من الشيعة يقول بالإباحة بالمعنى الخاص؛ لأن الإباحة بالمعنى الخاص هي تساوي الطرفين، وليست هناك مرجوحية من جهة، وما من فقيه من فقهاء الشيعة إذا لم يقل بالحرمة إلا وهو يقول بأنه مكروه كراهة مغلظة، وهذا عين ما يقوله فقهاء غير الشيعة بأنه حرام تنزيهي؛ لأنه كما قلنا فإن مصطلح الحرمة التنزيهية في أصول الحنفية معناها الكراهة المغلظة في أصول الشيعة، لماذا يفعل ذلك؟ تفرقة بين المسلمين وإضعافاً لصفوفهم.

طبعاً الدعوة بهذه الطريقة لا تكون دعوة إلى الله سبحانه وتعالى حتى لو كان الداعي مخلصاً، وفي وجدانه أنه يريد التقرب بها إلى الله؛ لأنه خالف أمر الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَأْرَعُوا فَتَنْشَلُوا وَكَذَهَبَ مِنْكُمْ﴾¹، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾². هذا الأمر كما ينطبق على المذاهب الإسلامية فهو أيضاً ينطبق داخل البناء الشيعي، فلو أن فئة من الشيعة مثلاً اجتهدت اجتهاداً معيناً، ثم رأت أن كل من خالفها قد خرج عن خطة الدين،

¹ الأنفال: من الآية 46
² آل عمران: من الآية 103

وأقامت دعوتها على ذلك فهذه الفئة حتى لو كانت مخلصه لله سبحانه وتعالى لا تكون دعوتها دعوة الحق، فإن ما تحدثه من الفرقة في صفوف المسلمين أعظم من الخير الذي تزعم أنها تريد أن تحققه لهم.

فالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى إذن يجب أن تكون سائرة على النهج الذي يريده الله سبحانه وتعالى لعباده، والنهج الذي يريده الله لعباده هو الدعوة إلى الشريعة، وإلى جوهر الشريعة وإلى التوحيد الخالص، ولا تدخل فيها الأفكار والأشخاص والأفراد، مهما عظمت تلك الأفراد، وتلك الشخصيات إلا أن تكون تلك الشخصيات ممن أمر الله بالدعوة لها على نحو قطعي، فإنه لا يعقل أن يؤمن إنسان بالله ويتمكن من العمل بشريعته ما لم يؤمن بأنبيائه ورسله، أما إذا كان العمل بالشريعة والإيمان بالله لا يتوقف على شخص من الأشخاص، فإن الدعوة إليه ومحاربة من خالفه بحجة أن هذا هو الفرض العيني على المسلمين لا تكون دعوة الحق، وإنما هي دعوة من دون الله، دعوة إلى فرد من أفراد الأمة مثلاً، هذا لا يكون دعوة إلى الله، يصح الدعوة إلى أفراد الأمة، وتصح الدعوة إلى علماء الأمة، على أن لا يؤدي ذلك إلى حد تفسيق المسلمين بعضهم بعضاً، وإلى حد تكفير المسلمين بعضهم بعضاً، وإلا كانت الدعوة صنمية وليست إلهية.

الدعوة الإلهية هي التي يكون جوهر الدعوة فيها والمقصد الأسمى فيها هو الله سبحانه وتعالى، والداعية الحقيقي هو من يدعو الناس إلى العمل بأحكام الإسلام، الداعية الحقيقي هو من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستدعي من ذلك الداعي أن يعرف ما هو المعروف وما هو المنكر، وإلا ربما نهى عن معروف ودعا إلى المنكر، فإن الجاهل كما يقول النبي صلى الله عليه وآله: "كخابط ليل ما يفسده أكثر مما يصلحه".

فاذاً لا بد من عنصر العلم في موضع الدعوة، ومن أراد أن يكون داعية إلى الله سبحانه وتعالى فعليه أن يتعلم شريعة الله، وعليه أن يدرس شريعة الله، وعليه أن يدرس العقائد التي يريد الله سبحانه وتعالى الدعوة إليها، والأحكام التي لا يسع الإنسان المسلم مخالفتها، وهي ما ثبت أنها من جوهر الدين، لا ما ثبت أنها من اجتهاد المجتهدين، وكلام المتفقيين، فإنه مثلاً عندما تكون

المسألة خلافية بين الفقهاء، فليس لك أن تلوم إنسانا عمل بخلاف ما تعتقده أنت، لأن هذا بالإضافة إلى أنه ليس من جوهر الدين فإنه يؤدي إلى تفرقة صفوف المسلمين، مثال ذلك: من يذهب إلى حرمة زيارة القبور، إذا كفر من زار القبور هل كان مخلصا في دعوته إلى الله؟ هل هناك نص صريح من آية محكمة أو سنة متواترة أو إجماع من المسلمين على حرمة زيارة القبور حتى يكون مخالف هذه الفتوى مبدعا في الدين، أو مرتكبا للكبيرة؟ أم أنه اجتهاد في المسألة بني على نصوص يعتقد المفتي بموجبها أنه يفهم من ظاهرها أو من تأويلها حرمة زيارة القبور، فتحرم زيارة القبور عليه وعلى متبعيه؟ ولكن هل له أن يبدع المسلمين ويكفر المسلمين؟ أو ليس أن من اجتهد في مسألة فقد أباح لغيره أن يجتهد في قبالة؟ وكذلك ما يحدث من بعض المسائل الشقاقية عند بعض جهلة الشيعة في بعضهم البعض بسبب اختلاف الفقهاء في أي مسألة ما، فمثل هذه الأمور ليست دعوة إلى الحق، فيجوز لك أن تعمل بقول الفقيه الذي تعتقد ما دمت ليس بفقيه، ويجوز لك أن تدعو إلى العمل بفتواك إذا كنت فقيها، ولكن ليس لك أن تبدع من عمل بغير فتوى مقلدك، أو بغير فتواك إن كنت فقيها، فمادامت هذه الفتوى ليست من ضروريات الدين، وليست مما ثبت بنص محكم من الكتاب أو سنة متواترة أو إجماع من الأمة، فالمسألة سيان، فضروريات الدين هي التي تكون في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأضرب مثلاً: [يذبيحة المخالف]، فالحناابلة مثلا وليس كلهم، وإنما أتباع محمد بن عبد الوهاب منهم يرون حرمة ذبيحة من خالفهم، وبخاصة إذا كان الذابح شيعياً، فهل لهم مثلا أن يكفروا الأحناف أو الشوافع أو الموالك إذا خالفوهم في الفتوى؟ لا، ولو فرضنا مثلا أن بعض فقهاء الشيعة يمنع ذبيحة الكتابي، وبعضهم يسمح بذبيحة الكتابي فرضا [إذ لا توجد هذه المسألة]، فلو فرضنا أن المسألة خلافية بين فقهاء الشيعة، ووجدت شيعيا يأكل ذلك اللحم الذي هو بموجب اجتهادي إن كنت فقيها أو بموجب تقليدي إن كنت متبعا حرام، فهل لي أن أحكم بفسقه؟ طبعا لا، فمادامت المسألة ليست بنص محكم في كتاب الله وليست بسنة متواترة عن رسول الله صلى الله

عليه وآله، ولم يحصل عليها إجماع الأمة فالدعوة إليها على نحو تفسيق المخالف وتكفيره دعوة صنيعة وليست بدعوة إلهية.

إذن لا بد للداعية أن يعرف ما هي شريعة الله حتى يدعو إلى الله، وما هو السبيل الذي يريده الله، وما هو الطريق الذي يضعه الله لأنبيائه ورسله حتى يكون مأذوناً له في الدعوة إلى الله، هذا بالنسبة إلى الصفات التي يتحلى بها الداعية.

ومن غير شك أننا لا نحتاج إلى التحدث عن صفات الدعوة الحقيقية أو دعوة الحق، فدعوة الحق ليست إلا دين التوحيد الخالص، ودين التوحيد الخالص يقتضي توحيد العبادة، وتوحيد كلمة العابدين لله سبحانه وتعالى، أما مجرد الاعتقاد بأن الله واحد من دون أن نعتقد بأن المؤمنين أمة واحدة فلا يتم بذلك توحيد، ولا نكون مخلصين في التوحيد، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾¹.

فتوحيد المعبود إذن يقتضي توحيد الأمة، وتوحيد الكلمة، والذين يفرقون كلمتهم، والذين يتخذون دينهم شيعاً يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾²، يعني إنك بريء ممن دعا إلى فرقة المسلمين، وممن دعا إلى تشنتهم، لأنه ما لم يعتقد بأن لكل المسلمين من الحق مثل ما له، وأن عليه من الواجبات مثلما عليهم، وأنه ليس بأفضل منهم وليس بأقرب إلى الله سبحانه وتعالى منهم، فإنه لا يكون في الحقيقة داعياً إلى الله وإنما داعياً إلى هوى في نفسه، يدعو إبرازه أن ينطق بكلمة التوحيد لأنه لا مجال له لكي يروج ما عنده إلا عن طريقها.

الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى تقتضي أيضاً الالتزام بدين الله، وأما أن يدعو الناس إلى الخير وهو لا يعمل الخير، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، هذا في الحقيقة لا تكون دعوته دعوة إلى الله لأن الإنسان عليه قبل أن يدعو غيره إلى الله أن يدعو نفسه، وأن يحاسب نفسه، وأن يوطن نفسه على عبادة الله وطاعته، وأن يتحلى بأخلاق الله، وأن يتحلى بأخلاق أنبيائه

¹ الانبياء: 92

² الأنعام: من الآية 159

ورسله حتى يكون إسلاماً يمشي على الأرض، فيكون سلوكه ويكون عمله في حد ذاته لساناً يدعو، وأما إذا كان يدعو بلسانه ويخالف بفعله وسلوكه فلا شك أن هذا يؤثر على ذلك الدين الذي يدعو له، ومن أجل ذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى اختار أنبياءه من أفضل خلقه، اختار أنبياءه أفراداً لم يعثر عليهم حتى في طفولتهم بارتكاب الكبائر والموبقات مما ينافي الأخلاق البشرية، حتى لا يعاب عليهم حين الدعوة، وإلا لقالوا لهم أنتم مثلنا تعملون، وما نراكم بخير منا في هذا السلوك، كيف يدعو مثلاً إلى الصدق من دينه الكذب؟ وكيف يدعو إلى الأمانة من شأنه الخيانة؟ لا شك أنه لا يصدق فيما يقول.

فحتى يكون الإنسان داعياً إلى الله مقبول القول عند الله سبحانه وتعالى، ومقبولاً عند خلق الله، ينبغي أن يتحلى بأخلاق الله، وأن يجاهد نفسه في العمل بأحكام الله قبل أن يجاهد غيره في العمل بأحكام الله وإلا لكان من الأمرين بالمعروف الفاعلين للمنكر، ولا شك أن من يرتكب المنكر لا يقبل منه مرتكب المنكر الآخر نهيه له عنه أو دعوته إلى المعروف، ومن أجل ذلك قال الصادق عليه السلام: "كونوا زينا لنا.... " ومعنى زينا لنا أن تكون أخلاقكم وأن تكون أفعالكم وأن يكون سلوككم بحيث إن من يخالفنا يرى فيه السلوك الفاضل، والأخلاق الفاضلة، فهو يحب أن ينتمي إلى هذه الجماعة، ويحب أن ينتسب إليها، وأما إذا لم يكن بهذه الحال، فهو شين عليهم [عليهم السلام].

فاذاً لا بد في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من مجاهدة الإنسان لنفسه قبل أن يجاهد غيره، وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره، وأن يدعو نفسه إلى الخير قبل أن يدعو غيره، ولا أعني بذلك أنه يجمد نفسه حتى يكون ككبار الصحابة والتابعين، لا، لا أقصد ذلك، ولكن عليه وهو يدعو غيره إلى الله أن يدعو نفسه قبلهم، وأن يلتفت إلى ما عنده من المعائب ومن الأخلاق الذميمة وإلى السلوك المنحرف قبل أن يلتفت إلى سلوك غيره وأخلاق غيره.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

مفهوم الوحدة*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين. بعض الشباب الخريجين يقول: لقد كثر في هذه الأيام الكلام في الدعوة إلى الوحدة وأنت ممن ساهم في ذلك بكلمات متعددة، فقد دعوت إلى الوحدة مرتين في ليالي الثلاثاء ومرتين في خطب الجمعة، ولكن هذه الوحدة التي تدعو إليها هل هي خواء أم أنها تقوم على أساس؟ وما هو الأساس الذي تقوم عليه الوحدة التي تدعو إليها؟

لا شك أن مفهوم الوحدة مفهوم يستعمله كثير من الفئات، البعثيون مثلاً شعارهم يتكون من ثلاث كلمات، الوحدة والحرية والاشتراكية، فمفهوم الوحدة إذن يدخل في شعارهم وهو الكلمة الأولى في هذا الشعار، والكلمة الثانية تعني أن هذه الوحدة لا تقوم على الإكراه وإنما على الاختيار، والكلمة الثالثة تبين الأساس الذي يدعون بناء عليه إلى الوحدة وهو الاشتراكية. وكثير غيرهم أيضاً يدخل مفهوم الوحدة كعنوان عام في برنامجهم السياسي والاجتماعي.

مفهوم الوحدة أيضاً يدخل في برنامج المسلمين، فلا تجد مسلماً سواء كان هذا المسلم من السياسيين أو من غير السياسيين، من الشرعيين الدينيين، أو من غير الدينيين، أياً كان مذهبه، وأياً كان انتماءه إلا ويدخل مفهوم الوحدة في برنامجه.

مفهوم الوحدة لا يجوز أن يكون خواء، ولا يجوز أن يقوم إلا على أساس معلوم وواضح، ونحن عندما ندعو إلى الوحدة فإننا ندعو إلى الوحدة منطلقين من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾¹، واللافت للنظر في هذه الآية أنها أمرت بالاعتصام بحبل الله، فهي عندما أطلقت مفهوم الوحدة واعتبرته عنواناً على البرنامج الإسلامي في العمل، إنما أطلقتها بناء على هذا الأساس، أساس الاعتصام بحبل الله.

* محاضرة في ليلة الثلاثاء 10/9/1995م بجامع جدحفص
1 آل عمران: من الآية 103

فبرنامج الوحدة التي ندعو إليها هي الوحدة التي تقوم على الالتزام بالوحي النازل من الله على أنبيائه؛ لأن ذلك هو حبل الله، يقول النبي صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين: "إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود بين السماء والأرض وعترتي"، فعبر عن القرآن بحبل الله، فأساس الوحدة التي ندعو إليها هو الاعتصام بالقرآن، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، والاعتصام بالوحي معناه الالتزام بمقتضيات هذا الوحي، فلا يمكنني أن أقول إنني أعتصم بالقرآن ثم أتجاهر بأشد ما نطق القرآن بحرمة أو منعه. ولا يمكنني أن أدعي أنني أدعو الناس إلى القرآن ثم أجانبه في أخطر ما يقول وفي أخطر ما يدعو إليه.

فإذن أساس الوحدة التي ندعو إليها هو الاعتصام بكتاب الله، وكتاب الله منع من التفرقة في الدين، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾¹، فأساس الوحدة في الإسلام هو الوحدة في مقابل الكفر، وليس وحدة جماعة من المسلمين في مقابل جماعة أخرى؛ لأن هذا هو التفرقة بعينها، وإذا كنا حين ندعو إلى الوحدة إنما ندعو لأن تتوحد جماعة من المسلمين ضد جماعة أخرى من المسلمين ففي الحقيقة نحن ندعو إلى الفرقة، ولكن الوحدة التي ندعو إليها هي الوحدة التي تكون ضد غير المسلمين فيما إذا أرادوا أن يحاربوا المسلمين، أو أن يفرقوا المسلمين، ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾².

فإذن الذين يجعلون الدين شيعا وأحزابا وفئات يضرب بعضها بعضا يقول الله سبحانه تعالى لنبيه: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ لأن هذه الوحدة لا تقوم على التمسك والاعتصام بحبل الله، وإنما تقوم على التفرقة بين المؤمنين بكتاب الله، إن التعاون له قانون في القرآن، والتعاون من مقومات الوحدة، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾³. فإذن عندما تكون الوحدة

¹ الشورى: من الآية 13

² الأنعام: من الآية 159

³ المائدة: من الآية 2

وحدة فئوية، وحدة ضيقة، وحدة جماعة من المسلمين ضد جماعة أخرى من المسلمين فإنها تخرج عن مفهوم الوحدة المطلوبة قرآنا.

إن الوحدة القرآنية لا تشمل غير المسلمين، وهذا صحيح لأن أساسها هو الاعتصام بحبل الله، وأما من لم يكن من المسلمين فهو لا يؤمن بحبل الله حتى يمكنك أن تتوحد معه على طاعة الله، وعلى الالتزام بشرائعه، وعلى التمسك بأحكامه.

الوحدة التي ندعو إليها إذن ليست خواء وليست مجرد لفظة نطلقها، وعندما ندعو إلى الوحدة ندعو فإنما للوحدة على الأساس القرآني، هذا الأساس الذي يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾¹، فكل المؤمنين إخوة في هذه العقيدة، فهم جميعا ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾²، فكل من دخل في مظلة هذا الإيمان اعتبره الإسلام أخا، وإذا اعتبره الإسلام أخا وجب عليك أن تعطيه كل حقوق الأخوة، من الحب، ومن الإخلاص، ومن الإعانة، من إعانتته على نفسه، وإعانتته على الشيطان، وإعانتته على العدو الخارجي، فهذه ثلاث إعانات؛ أن تعينه على نفسه بإرشاده ووعظه إذا رأيتته يخالف أحكام الله، وأن تعينه على الشيطان بتوبيخه إذا رأيتته يصر على مخالفة أحكام الله، وأن تعينه على العدو الخارجي؛ أن تكون حائلا بينه وبين ذلك العدو الخارجي أن يعتدي على جسمه، أو على ماله، أو على عقله أيضا، فإذا كان العدو الخارجي لا يريد في الوقت الحاضر أن يعتدي على جسمه أو على ماله أو على عرضه ولكن يريد أن يسم أفكاره بعقائد وأفكار لا تمت إلى دين الله بصلة فعليك أيضا أن تعينه على نبذ تلك الأفكار ونبذ تلك المعتقدات.

إن مفهوم الأخوة يجب أن يتجسد بين الناس المتوحددين والمعتصمين بحبل الله، ومن أجل ذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى حرم أمورا كثيرة لأنها تضر بالوحدة بين المعتصمين بحبل الله؛ منها السخرية، ولمز المؤمنين بالألقاب، والتجسس والغيبة، بل اعتبر الغيبة أكلا للحم الأخ، وحرم

¹ الحجرات: من الآية 10
² البقرة: من الآية 285

التجسس واعتبره أكلا للحم الأخ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ بِسْمِ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يُبَّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾¹، ضرب

له أبتع الأمثلة، وصوره بأقبح الصور، بالنسبة للمتجسس على المؤمنين الذي يأتي إلى جماعة ويجلس بينهم لينقل كلامهم إلى جماعة أخرى قد يكونون أيضا من المسلمين لإضرار الفتنة، أو يكونون من غير المسلمين لإعانتهم عليهم، أو الذي يغتاب المسلمين بأن يذكر أحد المسلمين بعيب فيه في غير حضرته، صوره بأقبح صورة؛ بصورة شخص له أخ مات فأخذ هذا الأخ يأكل لحم أخيه الميت، لماذا عبّر عنه بالأخ، لأن هذه الأعمال بالإضافة لأنها مخالفة لدين الله فإنها تفرق المعتصمين بحبل الله، والقرآن منع من كل ما من شأنه أن يفرق بين المعتصمين بحبل الله.

انظروا كم هم أصحاب المعاصي والكبائر؛ ما وردت في القرآن لفظة شتم لهم، ولكن ذلك الإنسان الذي يمشي بالنميمة بين المسلمين لم يكتف القرآن بتهديده وإنما شتمه، وقال: ﴿هَمَّاكِرِ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١٣﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٤﴾ عَتَلِ بَعْدَ ذَلِكَ نَرِيمٍ ﴿١٥﴾²، لأن من أشد ما يفرق المعتصمين بحبل الله

هو النميمة بين فئاتهم وبين أفرادهم، وبين الأخ وأخيه، وبين الابن ووالده، وبين الجار وجاره.

فإذن فالوحدة التي ندعو إليها إذن ونتمسك بها ونُصِّرُ عليها هي الوحدة القائمة على أساس التمسك بشريعة الله، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾³، وأما من خرج عن قانون الإيمان فليس لنا ولاية عليه، وليس له ولاية علينا، وعندئذ لا يمكنني أن أجعله أبا أفضي إليه بالمودة، ولست كما قال إلياس فرحات:

ما دمت محترما حقي فأنت أخي آمنت بالله أو آمنت بالحجر

¹ الحجرات: 11-12

² القلم: 11-13

³ التوبة: من الآية 71

لا، هذا المفهوم لا يمكننا السير عليه، إنه مفهوم غربي ينبع من قولهم الدين لله والوطن للجميع، والقرآن يقول: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾¹، وليس الدين فقط لله، فإذن لا بد من وجود الأخوة الإيمانية بين المتأخين، ولا بد من الاعتصام بحبل الله لمن يريد أن يتوحد مع الموحدين والمؤمنين، وكيف يمكنني أن أجعل من لا يؤمن بالله أخا أبادله الود والولاء والقرآن يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾².

إن الوحدة التي ندعو إليها إذن أساسها القرآن، نحل حلاله ونحرم حرامه ونلتزم بكافة أحكامه وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

¹ الأعراف: من الآية 128
² المجادلة: 22

بين منطقيين*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين،
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

جاءني وهو يقول إن شابا قال له إنه عندما قرأ الكلمة الأولى التي ألقيت هنا قبل أسبوعين،
وكان يعيش في ضمن مجموعة أو باصطلاحهم في الوقت الحاضر (شلة)، تأثر نفسيا بالتأويلات
التي أعطيت لها، ولكنه عندما قرأ الكلمة التي ألقيت في الأسبوع الماضي وبيّنت بعض ما حاول
بعض المغرضين التشويه به اطمئن إلى ذلك، فحاول نقل اطمئنانه إلى المجموعة التي هو فرد
منها، ولما أخذ الكلمة الثانية إلى تلك المجموعة ليقرؤها أو ليسمعوها، ثار كبير المجموعة
صارخا فيه لا نريد أن نسمع، لا نريد أن نقرأ، وأخذ يصرخ في وجهه ويجلب عليه.

طبعا كان صاحبي متعجبا من هذا الموقف، أما أنا فلم أتعجب. لم أتعجب من هذا الموقف
مطلقا، لأنه هو الموقف الملائم لنفسية مثل هذه المجموعات، فالقرآن الكريم يعكس لنا منطق
المجموعات التي تبني أمورها على الكذب، وعلى التشويه، وعلى عدم اعتماد الحقائق. يقول
سبحانه وتعالى عن جهلة قريش -أي زعمائها- إذ يقولون لمن معهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾¹.

بطبيعة الحال إن أبا جهل ومن شاكلة في قريش، لو سمحوا لفتيان قريش أن يسمعو ما
يقول رسول الله صلى الله عليه وآله، لفلج منطقتهم، فمنطقتهم يقوم على تزوير الحقائق، منطقتهم
يقوم على إطلاق الشائعات التي ليس لها أصل، أما منطق الصواب، منطق الحق فيقوم على
الحقائق المدعومة.

* محاضرة في ليلة الثلاثاء 1995/7/3م بجامع جدحفص
¹ فصلت: من الآية 26

ومن أجل ذلك، لا يستطيع المنطق الذي يقوم على الكذب والافتراء وإطلاق الشائعات التي لا أصل لها أن يواجه المنطق الذي يقوم على الدلائل والوقائع المدعومة، هذا لا إشكال فيه، ومن أجل ذلك، فكل المجموعات التي يعتمد منطقها، ويعتمد أسلوبها على الكذب والتزوير وإطلاق الشائعات، لا تستطيع أن تواجه المنطق المدعوم بالحقائق والوقائع، ومن أجل ذلك هي لا تريد لمن هم لا يزالون معها أن يستمعوا قولاً آخر يخالف ما يقولون.

هذه المجموعات تربي من يكون معها وعادة تعمد إلى اليافعين من الشباب الذين لا تزال قلوبهم طرية، فترسل إليهم شخصا مدربا نوعا ما على كسب صداقات هؤلاء الناس، ليعزل جماعة منهم عن بقية الشباب، يعرفون عادة في الوقت الحاضر بأنهم [شلة فلان]. ثم يبقى يخاطب قلوبهم لا عقولهم، يخاطب قلوبهم بالأكاذيب، يخاطب قلوبهم بملئها بالحق على زيد أو عمرو أو بكر أو خالد ممن لا يعجبهم، ويحاول بكل جهد أن لا يلتقي أحد من هذه المجموعة بأناس يختلفون في الرأي وفي المنطق معه. نعم هو يعمل زيارات لمجموعته إلى مجموعات أخرى في قرى أخرى، في مدن أخرى حتى لا يستوحشوا عن العزلة، لكن لا يسمح لأحد منهم أن يختلط أو يسمع رأيا آخر، عندئذ تتركز هذه الشائعات وهذه الأكاذيب في نفوسهم لكثرة ما تردد عليهم، ويصبحون لا يفهمون إلا هذا المنطق، لا يعون إلا هذا النوع من الكلام. يقول سبحانه وتعالى وهو يقص قضية شعيب مع قومه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَا مَرَهْطًا لَرَجِمْنَاكَ¹﴾.

انظروا.. منطق عصري يقصه القرآن عن قوم قبل أكثر من خمسة آلاف سنة، منطق يعيشه الناس هذا اليوم، ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾. صحيح أنهم لا يفقهون كثيرا مما يقول، ذلك لأنه بكثرة ما ركز على ملئهم بأسس مخالفة للواقع، أصبحوا لا يتمكنون من فهم المنطق الآخر، لأن هذا المنطق يخالف قضايا هي في نظرهم مسلمات لا تقبل الجدل، هي في نظرهم حقائق لا تحتل الشك.

¹ هود: من الآية 91

طبعاً أنت إذا سمعت منطقاً يخالف المسلمات التي عندك، يخالف الحقائق التي قامت في نظرك، لا تفهم ذلك المنطق، ﴿وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾. لأن أصحاب هذا المنطق الذي لا يقوم على الواقع ولا يقوم على الحق، لا يستطيع أن يقابل المنطق الآخر، فلا يستطيع أن يأخذ ويعطي معه، لا يستطيع أن يحاوره، فيعتمد دائماً إلى أسلوب التهديد.

﴿وَأَنَا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾. إذن الاعتماد إنما هو على القوة، والاعتماد إنما هو على التهديد، فمادمت تخالفنا نهددك، نفعل كذا، نصنع كذا، نعم إذا كان هناك رادع، وإذا كان له قوم يخشى أن يدفعوا، يخشى أن ينتقموا يتوقف التهديد.

﴿وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ هذا المنطق ليس جديداً، منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، النبي شعيب من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، من نسل مدين، ومدين هو ابن إبراهيم، إبراهيم له أربعة أولاد، أبونا إسماعيل وعمنا إسحاق وعمنا مدين وعمنا مدان، إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، ومدين ومدان من زوجة تسمى قطورة، وشعيب هذا نبي من أنبياء الله سبحانه وتعالى، والذين جاء إليهم هم من قومه، هم من أهلهم، كلهم من مدين، ولكن كان المنطق المنحرف قد أبعدهم عن ملة إبراهيم، جعل لهم مسلمات لا ينظرون الحياة إلا من خلالها.

ولا إشكال أن المسلمات تحدد زاوية النظر، فإذا حددت زاوية النظر لا يمكن أن يرى الإنسان شيئاً إلا بلونها وبمقدارها، فلو أخذت لك نظارة زرقاء ووضعتها على عينك لرأيت الدنيا كلها زرقاء، ولو وضعتها حمراء لرأيت الدنيا كلها حمراء، المسلمات هي نظارات على الفكر، وعلى العقل، فإذا لم تكن تلك المسلمات مبرهن عليها، تلون لك الفكر، فلا ترى الدنيا، لا ترى الحق إلا بهذا اللون، وعندما يختلف اللون لا يمكنك أن تراه صحيحاً، فتتهم نفسك بأنك مصاب بعمى الألوان، والحال أنك صحيح النظر، تأمل زجاجة نظارتك فهي صافية أو فيها لون، فإذا كانت الزجاجة صافية ورأيت الأبيض أزرق أو الأبيض أحمر أو غير ذلك فعليك أن تذهب إلى الطبيب، وأما إذا كانت ملونة فنظرك صحيح، والذي جعلك ترى خصوص هذا اللون وأن ما يخالفه ليس بصحيح هو نظارة وضعتها على عينيك، كذلك المسلمات التي تقبلها من دون دعم

ببرهان، ومن دون أن تدعم بالواقع تجعل لك نظارة غير واقعية وغير حقيقية، وتترك الدنيا بهذا اللون.

هذه المسلمات هي نظارات الفكر، فإن ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَا مَرْمُوكَ

لَرَجَمْنَاكَ﴾.

وإذا بقي الإنسان يعيش ردحا طويلا في منطق كهذا المنطق، يعتمد على ملء القلوب بالحدق، ويملاً فكره بمسلمات معينة، تحدد زاوية نظره، وتقوم عنده حواجز نفسية غليظة بينه وبين من يدعو إلى فكر آخر أو يدعو لمجرد التأمل في مسلماته، ماذا قالوا للنبي صلى الله عليه وآله؟ ﴿قُلُوبَنَا فِي أَكْثَنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلُ إِنَّا عَامِلُونَ﴾¹. قلوبهم في أكنة، هذا صحيح، فالحدق الذي ملئت به قلوبهم عليه صلى الله عليه وآله جعلتهم يقبلون الدعايات المغرضة ضده، وجعلتهم غير مستعدين أن يسمعوها شيئا من دعوته، ويزنونها بميزان المنطق، بالميزان السليم، فلذلك نشأت بينهم وبينه الحواجز النفسية ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

﴿قُلُوبَنَا فِي أَكْثَنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾، لا نريد أن نسمع شيئا مما تقول، بل لا نتمكن

أن نسمع شيئا مما تقول، إذا سمع أحدهم الآية من القرآن، يثور ويزمجر ويشتم، ويلعن ويصخب، لأنه لا يتمكن أن يسمع شيئا مما يقول، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، حاجز نفسي غليظ نعيشه، يحجبنا عنك ويفصل بيننا وبينك، ﴿فَأَعْمَلُ إِنَّا عَامِلُونَ﴾، عندئذ يتحجر الفكر، ويتحجر القلب، - ما لم يتدارك الله سبحانه وتعالى الإنسان برحمته - لكثرة ما يعيش منطقا معينة خاصا لا يحاور من يخالفه فيه تتكون عنده رواسب نفسية ضد من يخالفه، وتصبح عنده تلك الأكاذيب حقائق، وتلك الشائعات مسلمات، وماذا يزيل الحاجز النفسي إذا قام بين شخصين أو بين فئتين؟

¹ فصلت: من الآية 5

أنا لم أستغرب من أن يحدث هذا بعد مضي مدة تزيد على العشر سنوات تزرع الكراهية وبيت التشويه، وتطلق الأكاذيب والشائعات ضدي، لكن منطقي يختلف عن هذا المنطق، إنني أتبع منطق القرآن، إنني أقول كما يقول سبحانه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾¹.
 الإنسان لا ينبغي أن يكون إمعة يصدق كل ما يقال له، عليه أن يبحث عن البرهان، وعليه أن يسأل عن الدليل، وعليه أن يتحرى الواقع، ولا مانع أن يسمع الإنسان من أطراف مختلفة، ويحاور فئات متباينة ثم يبني موقفه ويبني فكره على ما قام عليه البرهان، عندئذ ستضح له الحقيقة، وسيعرف الصدق من الكذب، هذا هو منطق الإيمان، لا أن تزرع الحواجز النفسية بين إنسان وإنسان.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، إذن إذا أراد الإنسان أن يبني نفسه بفكر صحيح ويمنطق صحيح، عليه أن لا يقوِّع نفسه. هناك منطق غريب استعمله أهل الباطل ويستعمل اليوم، يقولون للمسلمين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله إنكم قوم متعصبون مغرورون بدينكم تصدقون كل ما يقول محمد، ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُبَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾²، وينسون أنهم ينهون أتباعهم، أن يسمعوا آية واحدة من قرآن محمد، ويتهمون أصحاب محمد بالتعصب، أصحاب محمد يذهبون إليهم ليحاوروه، ماذا تكون النتيجة؟ الضرب، التهديد، الصخاب، الصراخ، العراك، ومع ذلك يقولون أنتم متوقعون في تصديقكم محمد.

هذا المنطق نعيشه اليوم، كان شخص من الأشخاص دائما يقول إن أهل جدحفص فاقدوا الوعي متوقعون، لأنهم كل ما يقول فلان يصدقونه، سمعه شاب يقول هذا الكلام فذهب إليه في مكان عام وسأله، قال له: فلان له جماعة؟ قال نعم، قال هل يقبلون منه كلما يقول؟ قال نعم، قال فلان له جماعة؟ قال نعم، يقبلون منه كلما يقول؟ قال نعم، فلان له جماعة؟ قال نعم، يقبلون منه

¹ الزمر: من الآية 17- من الآية 18
² الأنفال: من الآية 49

كلما يقول؟ قال نعم، قال لماذا لم تتعنتهم بالمتعصبين ولم تتعنتهم بفاقدى الوعي ولم تتعنتهم بالمتفوقين؟ قال لا، أولئك يعطون فكرا نيرا وليس كفلان.

إذن ما هذا المنطق يا أخي؟ هؤلاء جماعة يأتون ليحاوروك، أنت ترفض حوارهم، ومع ذلك تتهمهم بالتعصب، وتتسى نفسك أنك تخيف الناس من محاوره الجماعة الأخرى وتبعدهم عنهم، وعن سماع كلامهم ومنطقهم، تتسى نفسك من التعصب، تماما كمنطق أبي جهل وأبي سفيان في ذلك الوقت الغابر. هذا هو عين المنطق لم يتغير، من أول الزمان إلى آخره ﴿سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَكَانَ تَجْدِ لِسِنَّةِ اللَّهِ بُدِيلاً﴾¹.

الحق سيقوم على البرهان، والخطأ لن يتولد إلا من الخطأ، عندما تكون مقدمات القياس صحيحتين لابد أن تكون النتيجة صحيحة، وعندما تكون إحدى مقدماتي القياس باطلة، لا يعقل أن يتوصل إلى نتيجة صحيحة، فالنتيجة تتبع أحس المقدمتين.

نصيحتي للشباب، أن لا يرضوا بقوقعة أنفسهم وقبول إشاعة، وقبول أكذوبة دون البحث عنها وعن حقيقتها من أي إنسان كان، ومن أي فئة كانت، ومن أي جماعة كانت. إذا سمعت خبرا ضد زيد أو عمر، عليك أن تتحرى الصدق فيه، عليك أن تعرف ما يقال وما يدور، وهل هذا صحيح، وهل هو أمر واقع، المغرض أحيانا يأخذ شيئا له أصل ولكنه يحور ذلك الأصل، يضخم الموضوع. حتى إذا كان للموضوع أصل، عليك أن تبحث عن التفاصيل، لا ينبغي قبول إشاعة من دون تتبع. نصيحتي إلى الشباب أن لا يجعلوا لعقولهم ولأفكارهم زوايا حادة ضيقة لا ترى إلا حيزا ضيقا من الوجود، أو يحجبوها عن رؤية الواقع بما يضعون عليها من عصابات حاجبة للرؤية أو نظارات ملونة للحياة، فيصبحوا مسيرين وهم يظنون أنفسهم أحرارا، ويصبحوا جهلة وهم يحسبون أنفسهم مطلعين.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

التوغل في الدين بالرفق واللين*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين،
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

من صفات المؤمن التآني في الأمور، والرفق بها حتى يمكنه أن يتوصل إلى الحق، وحتى لا يحدث فساداً في حين أنه يريد الصلاح. وهذه الصفة ينبغي أن تلازم المؤمن في كل مسألة يعالجها، سواء كانت هذه المسألة مسألة علمية، أو مسألة عقائدية، أو مسألة اجتماعية، فإنه إذا ما أخذ الأمور بالرفق، وأخذ الأمور بالتآني، فلا إشكال أنه من جهة يكون قد أدى ما وجب عليه من قبل الله في السعي ومحاولة الإفادة، ومحاولة الإصلاح، ومن جهة ثانية أنه لم يتسبب في إفساد شيء، أو كسر مؤمن، أو الإضرار بمؤمن.

والنبي صلى الله عليه وآله كثيراً ما كان يوصي أمته بالرفق، "إن هذا الدين صعبٌ مستصعب فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا ظهراً أبقي، ولا غاية وصل". وهذا الحديث الشريف ينبغي أن يكون نبراساً، ومن أجل ذلك نجد أن الذين يغالون كثيراً في ناحية من النواحي نجدهم بعد سنين قد انقلبوا إلى عكس ما كانوا عليه، فالذي يلزم الصلاة بكثرة [يعني الصلاة المستحبة] بكثرة تزيد عن ما جرت عليه العادة وهو يريد أن يشغل وقته في آناء الليل وأطراف النهار بالصلاة من دون أن يراعي قدرته النفسية - لا أقول الجسدية - ولكن قدرته النفسية وإقباله القلبي على ممارسة هذه العبادة، فإنه بعد سنين قد يؤدي به الحال إلى ترك النوافل الراتبة، هذا إذا كان حظه حسناً، وإلا فقد ينقلب إلى عكس ما كان عليه بحيث يستهزئ بالمصلين ولا يقيم الصلاة

وحتى في تبني الأفكار نجد أن من يتشدد ويتعصب تعصباً أعمى لفكرة معينة أو لجهة معينة، نجده بسبب الإيغال وعدم أخذ الأمور بالرفق، قد ينقلب إلى عكس ما كان عليه من تلك الفكرة، وأذكر مثلاً شهدته في النجف الأشرف، فقد كان معنا في النجف الأشرف شاب أهوازي

أحياناً يحضر للدراسة، وإلا فلا يمكن أن يقال عنه إنه طالب علم، ولكن أحياناً يحضر للدراسة، هذا الرجل يلبس الغترة والعقال والثوب والعباءة، ولم يرب له لحية في يوم ما، كان حليق اللحية، وكان أحد طلاب العلم من السادة كلما مر عليه بصق في وجهه لأنه حليق اللحية، فقيل له: يا سيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون بهذه الدرجة، فيصيح قائلاً: [هذا الخبيث هذا الكلب هذا اللعين، يحسب على طلبة العلم وهو حالق لحيته] ويتشدد عليه تشدداً كثيراً. ومضت الليالي والأيام فوجدنا في السوق دكاناً جديداً يعمل له ديكور، وقد كتب عليه اسم السيد المحترم وأنه بوتيك للنساء، ولم نصدق وقلنا ربما يجلس فيه أحد غيره؟ ولا يعقل أن هذا السيد سوف يجلس لبيع الثياب الداخلية للنساء، لكن فعلاً وجدنا السيد يبيع الثياب الداخلية للنساء، قلنا لصاحبه: إن صاحبك الذي يعيبك لحلق اللحية هو الآن يبيع في البوتيك للنساء، قال: لا لن أذهب إليه الآن، سأنتظر فإنه سيصل إلى حد أكبر، بعد أيام حلق السيد لحيته، لكن بقيت العمامة والجبّة، ومضت بعض الأشهر، فوجدنا السيد قد لبس اللباس الإفرنجي، عندها اكتفى صاحبنا بأن مر عليه، وقال له: باللهجة الإنجليزية [هلو]، ولم يكلمه بأكثر من ذلك.

بطبيعة الحال الإنسان يتقلب بين الالتزام والفسق وبين الفسق والالتزام، وما لم يصل الذنب الذي يرتكبه الإنسان إلى الكفر بالله والارتداد عن الدين، أو الشرك فباب التوبة مفتوح، لكن ذلك الرجل بقي إلى أن أذن الله بالتفرق من النجف وهو على ما هو عليه، لم يزد في سلوكه ولم ينقص، يقوم بالصلاة والصوم وغير ذلك إلا أنه لا يربي اللحية، وهذا السيد الذي كان متشديداً لهذه الدرجة، وجدناه فجأةً ينقلب إلى درجةً ليتها كانت مجرد حلق اللحية، وكانت المسألة تهون كثيراً عما وصل إليه، والسبب في ذلك أنه في الحقيقة غالب الدين، يقول النبي صل الله عليه وآله: "ما غالب هذا الدين رجلٌ إلا غلبه"؛ لأن الأوامر والنواهي الإلهية كثيرة جداً، ولا شك أن العمل المخلص، العمل الذي يكون بإخلاص في طاعة الله، يجر الإنسان إلى طاعة أخرى، وأما العمل الذي يقوم به الإنسان رياءً وتصنعاً، فإنه قد يقوده إلى رياء آخر أو إلى معصية فاضحة.

وأضرب لكم مثلاً عن رجل مشهور في التاريخ كان أحد كبراء بغداد، معروف بين أهل بغداد بأنه مولع بالخمير، والغناء، والجواري، وكان يشتري الجواري المغنيات بأعلى الأثمان، ويدربهن أيضاً على فنون الغناء العربي، ويعقد حفلات الرقص والغناء في بيته، متجاهراً بهذا الأمر، ولم يحصل أن فعل حسنةً طيلة حياته، مر ذات يوم وهو ذاهب إلى السوق، فوجد ورقة صغيرة وقعت من مصحف قديم قد تمزق، فانحنى على تلك القطعة من الورق ورفعها عن الأرض حتى لا تداس، وعندما دخل السوق اتجه إلى سوق العطارين واشترى لها عطراً بدرهم وعطرها به، وأخذ ينتظر حتى مر على جدار رفيع فيه فجوه أو غار، فوضع تلك الورقة في ذلك المكان حتى لا تداس، هذه أول حسنة كان يفعلها في حياته، لكن يبدو أنه فعلها بإخلاص، في هذا اليوم بالذات وهو يفعل ذلك في السوق، مر الإمام الكاظم صلوات الله وسلامه عليه على دار هذا الرجل مجتازاً، وكانت إحدى الخادמות قد خرجت من بيت الرجل وهي تحمل القمامة لتلقيها خارج البيت، فقال: لها الإمام عليه السلام أنت جارية من؟ قالت: أنا جارية فلان، قال: وهل مولاك حر؟، فنظرت إليه غاضبه وقالت: أيشك أحد أن مولاي حر! فقال: نعم هو حر ثم انصرف، رجع إلى البيت ... وكانت هذه الجارية لا تزال ممثلة على ذلك الرجل، الذي يشكك في حرية سيدها، وكانت تنتظر أن يرجع سيدها بفارغ الصبر، فلما رجع، قالت له: لقد مر اليوم بدارنا رجل صفته كذا وكذا وسألني جارية من أنت، قلت له: جارية فلان، قال: وهل فلان حر؟ قلت له: أهل يشك أحد في أن مولاي حر! فقال: نعم هو حر قال: أعيدي علي صفات الرجل فأعادت عليه، قال: أواقفة أنت من أن هذه صفات الرجل الذي مر على دارنا، قالت: نعم قال: وا فضيحتاه، الإمام يمر بداري وأنا أفعل هذه الأفعال، ماذا لو مر وسمع أصوات الغناء مرتفعة؟ ثم عمد إلى كل آلات اللهو من العيدان وغيرها وحطمها وكسر آنية الخمر وباع الجواري المغنيات، وتاب إلى الله سبحانه وتعالى من ذلك العمل توبةً نصوحة، والسبب في ذلك هو إخلاصه في هذا العمل الصغير.

هذا الرجل مرض وأتوا له بالطبيب ليفحصه، فحصه الطبيب وقال لهم غداً صباحاً آتوني بشيء من بول هذا الرجل حتى أتأكد من الفحص، وفي اليوم الثاني أخذوا له شيئاً من بول الرجل في زجاجة وأتوا للطبيب، حمله الطبيب وقال ما لكم، أقول لكم آتوني بشيء من بول الرجل تأتوني ببول رجل غيره، قالوا هذا هو بوله، قال لا يعقل، هذا الإنسان الذي يعيش مدمناً للخمر طيلة حياته يكون هذا بوله، هذا بول عابد من العباد وزاهد من الزهاد لا بول هذا الرجل.

فإذن انكشف أن التوبة الحقيقية والتي تربط الإنسان بالله طهرت حتى جسمه من آثار الخمر، هذا رجل.

ونضرب مثلاً برجل آخر، فقيه من الفقهاء كان الناس يرجعون إليه، ويعملون برسالته، ويستفتونه في أحوال دينهم، في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلدان التي يوجد فيها الشيعة، وكل الناس تعتقد بأن هذا الرجل مؤهل لأن يختاره ولي الله سفيراً له بعد الحسين بن روح، ولكن الإمام عليه السلام أصدر أمره للحسين بن روح بأنه قد اختار علي بن محمد السمرى، ماذا فعل هذا الرجل؟ حصل عنده اجتهاد جديد، وأجرى تعديلاً على الرسالة العملية، كتب فيها حلية اللواط، وحلية نكاح المحارم، وغير ذلك من الأمور، وأخذ أيضاً يتكلم في العقائد، فادعى أن الحسين بن روح ليس هو في حقيقته الحسين بن روح، ولكنه علي بن أبي طالب عليه السلام قد تلبس بهذه الصورة، وادعى بأن زينب بنت الحسين بن روح ليست هي بنت الحسين بن روح، وإنما هي زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام قد تلبست بهذه الصورة، وأخذ يعبث بالفروض، والعبادات، وصدر اللعن من الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه، يأمر الشيعة بلعنه بعد دبر كل صلاة.

لماذا صار هذا الرجل بعد أن كان فقيهاً وبعد أن كان مرجعاً من مراجع الشيعة الكبار، أن يصل إلى هذه الدرجة؟، لأنه في الحقيقة لم يكن مخلصاً في أعماله لله، وإنما كان يعمل لغاية أن يظهر في سلم الترقيات الدنيوية، أن يكون عالماً، وأن يكون مرجعاً، طاوعته نفسه أن يكون سفيهاً، ويوم أن صار سفيهاً، خسر كل شيء.

فإذاً ليس المهم أن يكثُر الإنسان من العبادة، ولا أقول إن الإنسان يقلل من العبادة، ولكن أقول أن يقبل على العبادة بمقدار ما يقبل عليها قلبه، فإذا رأى في قلبه ضيقاً عن نافلةٍ فليسترح منها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوا عليها بالنوافل، وإذا أدبرت فاقصروها على الفرائض"، لماذا؟ لأنه إذا أراد أن يقسر نفسه على ما لا تقبل عليه من النوافل يدخلها الرياء، فلا تتشجع وتتدفع إلا بأن يدخلها الرياء أمام الناس بأن فلاناً يفعل كذا، فلان متصلب في دين الله، فلان متشدد لا يبالي، هذه الصفة إذا كانت ظاهرة عند الناس ولم تكن عن إخلاص فربما تؤدي إلى مضرة كبيرة به، وبالمؤمنين الذين هم من حوله، لأنه يرببهم على الرياء، وعلى التشدد وعلى عدم الإخلاص، وبالتالي ربما يضر أكثر مما يصلح.

فالرفق بالأمر سواء في مجال العبادة أو في غير مجال العبادة هو الذي ينبغي أن يكون عليه حال المؤمن، وأما يعيش في مجتمع من المجتمعات، وهذا المجتمع فيه أفراد كثيرون وفئات كثيرة وهناك فئات من المؤمنين أيضاً قد تختلف مع الفئة التي هو مندمج فيها في فكرة بسيطة أو في جهة معينة، وهناك فئات منحرفة عن الدين كلية، وهناك فئات منحرفة عما ينبغي أن يكون موقفه في معالجة ذلك؟ هل يأخذ الأمور بالشدّة والتصلب في جمع الأفراد من الفئات المنحرفة عن الدين وإبعادهم عنها، أو مثلاً في قضية إبعاد المؤمنين عن التأثير بالفئات المنحرفة والفئات المنحرفة؟ هل يأخذ الأمور بالتشدد والتصلب أو يأخذها بالرفق؟ لو أخذها بالتشدد والتصلب فسوف يكون ما يفسده أكثر مما يصلحه، فلو جئت إلى أي إنسان ضعيف وصارحته بأنه مخطئ في مشيه مع فلان لجعلته يتصلب للبقاء مع فلان، ولكن لو جئت إليه فنبهته تنبيهاً بعد تنبيهه، على ما عند فلان من الخطأ أو من الإفراط لوجدته يبتعد عنه.

طبعاً من المؤمنين من يعتقد أنه أكفأ من سائر الناس، وهو يستطيع إصلاح هذا المنحرف، فتجده يلتصق به، وهو المسكين لا يعلم أنه أعجز الناس عن فعل ذلك الشيء، لكن عنده اغترار في نفسه، فتجده يلتصق به، فلو جئت تحمل على هذا الإنسان المغتر بنفسه في التصاقه بهذا المنحرف، ربما تخسره بالمرّة، فإذا لا توجد طريق في هذه الحالة إلا معالجة الموضوع معه بالرفق،

والانتظار به والثأني عليه، ثم سؤاله عن نتيجة ما حقق، وعندئذ يعرف أنه أخطأ، فإذا عرف أنه أخطأ يضطر للابتعاد.

وكذلك لو أن إنسانا له قريب، وهذا القريب منحرف، افترضه ملحدا أو مبدعا أو غير ذلك، هل تظنون أن كل مؤمن يلتزم الخط الإيماني مائة في المائة فلا يبالي بأخيه أو بابن عمه أو بابن خاله؟ لا، هذا أمر صعب، ولذلك امتحن الله به عباده فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾¹، فهذه طبعاً قضية امتحانية وابتلائية، ولكي لا يسقط المؤمن في هذا الابتلاء وهذا الامتحان، لا ينبغي أخذه بالعنف، فلو كان له أخ منحرف أو كان له أخ ملحد وأنت تريد منه أن يحارب أخاه أو أن يقاطع أخاه، وتكلمه بصورة صارمة وبصورة شديدة، ربما تجعله لحمة النسب يتشدد ويقف مع أخيه، وعندئذ أنت تخسر هذا الفرد، وأيضا تكون قد كسرت مؤمنا، ولكن لو أخذ هذا الإنسان بالرفق والتفهم لكان يحتمل أنه يمكن إصلاحه، أو لا، قد تقع للإنسان المؤمن شبهة بأن فلانا مظلوم، وأن ما يقول عنه هؤلاء إنما هو لعدم اطلاعهم على حاله، وأنه في حقيقة أمره قد تاب مما هو عليه، فهو لا يقاطعه ولا يعاديه، لأنه يعتقد أنه مظلوم، وفي هذه الحالة لو عمل هذا الإنسان الذي يعتقد بظلامه هذا الإنسان بتشدد فهو بسبب الدافع باعتقاد مظلومية هذا الشخص سوف يعتبر نفسه مظلوما معه، ويتعاطف معه أكثر ويتشدد أكثر، وبالتالي تكون قد خسرت هذا الإنسان، وأيضا يصيبك أنك كسرت مؤمنا، وأن عليك جبره، فلا بد من الملاينة معه والمسايسة، وأخذه بالتي هي أحسن حتى يمكن إبعاده عنه.

فإذا الرفق في الأمور هو المنهج الإسلامي الصحيح في معالجتها، وأن للعنف وللشدة وللتصلب مواضع محدودة ومعدودة، ولا أعني بالرفق التهاون في أمور الدين، لا، الرفق لا ينافي الالتزام بالدين، ولكن نقول أن يرفق الإنسان بنفسه باعتباره إنسانا ضعيفا، ويرفق الإنسان بأخيه

¹ المجادلة: من الآية 22

المؤمن باعتباره أيضا إنسانا ضعيفا، وعندئذ يستطيع أن ينجي نفسه من الوقوع في الرياء أو الانقلاب إلى عكس ما كان عليه.

وأنتم تشاهدون أشياء كثيرة تحصل في دنيا العالم الخارجي، فحينما وقعت حرب الخليج أو قضية صدام والكويت، فإن هناك فئات إسلامية متشددة وقفت مع [صدام]، لماذا؟ لأن الأمريكان جاءوا إلى المنطقة، وإذن صار هناك ولاء للكفار، والتغير من حال إلى حال والتبدل من موقف إلى موقف، تدفع إليه أقل الأسباب، وربما شاهدتم أن فئات كانت تحارب [صداما] في الأزمة، وفئات كانت تحارب مثلا الجهات الأخرى في الأزمة أيدتها، لماذا هذا التبدل؟ وقع التبدل في الحقيقة لأن الأسباب الحياتية لها تأثيرات نفسية، ولها تأثيرات فكرية وهي تؤثر بصورة أو بأخرى في الأفكار والسلوك، ولأنها أيضا لم تُبنَ على ناحية حقيقية من الإيمان حتى يستخلص منها موقفا ثابتا لا يتغير ولا يتبدل، وإنما هو تفسير خاطئ لموقف الإيمان لا نأمن الانتقال منه إلى غيره، وأسباب ذلك كله عدم أخذ الأمور بالرفق.

فإذا أخذ الأمور بالرفق هو المنهج الإسلامي الذي ينبغي أن يعالج به الإنسان نفسه، وأن يعالج به غيره، وأن يعالج به الأمور التي تجري في مجتمعه، ومتى ما ترك الإنسان الأخذ بالرفق وغالب هذا الدين فلا شك أن الدين يغلبه، وأن المُجد يعني المتشدد في الأمر بصورة فوق الحد الاعتيادي لسائر الناس، وأن المجد لا أمراً حقيق ولا غاية وصل، المجد هو الإنسان الذي يسافر من بلد إلى بلد على ناقة، فهو يريد أن يصل إلى تلك البلد، لا يمنح نفسه الراحة، ولا يمنح ناقته الراحة، ويسير بها آناء الليل وأطراف النهار لكي يصل إلى البلد التي يريد، ما هي النتيجة؟ هلكت الناقة، لكثرة السير والجوع والعطش وعدم النوم هلكت الناقة، فلما هلكت الناقة أين بقي هو؟ في الصحراء، فلا ظهر عنده يركبه ليوصله إلى واحة أو إلى بئر، ولا هو وصل إلى الغاية التي يريد، ولذلك ضرب به النبي صلى الله عليه وآله مثلا فيمن ترك الرفق في الدين، والرفق بالأمور "إن المجد لا ظهرا أبقى ولا غاية وصل" ونحن أيضا لا نريد أن ينطبق علينا هذا المثل الذي ذكره صلى الله عليه وآله بأن لا نبقي ظهراً ولا نصل إلى الغاية، يعني لا نبقي على إيماننا الحقيقي ولا

نصل إلى غايتنا من إصلاح الناس، بل نريد أن نبقي على إيماننا الحقيقي، وأن نتمكن من إصلاح الناس، وهذا يستلزم منا أن نأخذ بالنصيحة التي قدمها النبي صلى الله عليه وآله في صدر الحديث: "إن هذا الدين صعب مستصعب، فأوغل فيه برفق، فإن المجد لا ظهراً أبقى ولا غاية وصل".

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

﴿ الباب الثاني ﴾

الأخلاق

التوكل

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

الكلام في التوكل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾¹، وقال سبحانه

وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾²، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾³.

والتوكل درجة من الدرجات العالية لأصحاب اليقين، ومنزلة رفيعة من منازل الدين، لكنه غامض في العلم صعب في العمل.

أما غموضه في العلم فمن حيث إن حقيقة التوكل هو قطع النظر عن الأسباب؛ أي قطع الاعتماد على الأسباب، بحيث يتيقن وتطمئن نفسه أن كل هذه الأسباب ما ظهر منها وما خفي، وسواء كانت من الأسباب القريبة أو الأسباب البعيدة في حقيقتها ليست مُعطية للمطلوب، وإنما السبب الحقيقي والمؤثر هو الله سبحانه وتعالى.

ومن جهة ثانية أن الأوامر الشرعية والسنن الإلهية ورد فيها التكليف باتباع هذه الأسباب، ومن ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: "أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسبابها". ونحن نلاحظ أن المولى سبحانه وتعالى كلف الناس بالسعي في طلب رزقهم وحوادثهم، وحضهم على الذهاب والمجيء في شؤونهم، وأمرهم بالصلاة والصيام والزكاة والحج في عباداتهم، وهذه كلها أسباب.

فإذاً يحصل ربما عند العلم تضاد أو تناقض بين الأوامر الإلهية وبين حقيقة معنى التوكل، فإذا كان معنى التوكل هو عدم الاعتداد بالأسباب وعدم الالتفات إليها، بينما الأوامر الشرعية كلها تقتضي العمل بهذه الأسباب والالتفات إليها، فكيف يمكن تحصيل العلم والإدراك بحقيقة التوكل؟
فلذلك صار صعباً أو غامضاً في العلم.

¹ المائدة: من الآية 23

² الطلاق: من الآية 3

³ آل عمران: من الآية 159

وأما صعوبته من جهة العمل فلأنه يعتمد على ركنين أساسيين هما اليقين والشجاعة. فاليقين بدون شجاعة لا يثمر توكلاً؛ يعني مجرد اليقين ومجرد الإيمان لا يثمر توكلاً، ومن أجل ذلك نجد أن المؤمن وهو ذو يقين وهو متيقن قد لا يكون متوكلاً تمام التوكل على الله سبحانه وتعالى، بينما نجد من ليس مؤمناً مطمئناً لصحة ما هو فيه، فاليهودي والنصراني مطمئنة نفسه تماماً إلى صحة ما هو فيه، بينما المؤمن قد لا تطمئن نفسه فيحتاج إلى ملاحظة بعض الأشياء كما روى سبحانه وتعالى عن خليله إبراهيم: ﴿قَالَ أَوْكَلُهُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَكَيْنَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾¹.

فالتوكل في حقيقته هو اليقين والاطمئنان، وهذا يحتاج إلى الإيمان والشجاعة، والمؤمن قد يكون متيقناً ولكن نفسه غير مطمئنة. مثال ذلك من يرفض المبيت مع ميت في فراش واحد أو قبر واحد، أي تنفر نفسه لا على أساس يرفض بحيث لا يرضى، وإنما لو بات في فراش واحد مع ميت أو في قبر واحد مع ميت لنفرت نفسه، لنفر قلبه من ذلك، ولا عتراه خوفٌ شديد، والحال أنه قد ينام مع حجر في فراش واحد أو مع أي شيء في فراش واحد أو قبر واحد فلا تنفر نفسه، السبب في ذلك ليس هو عدم وجود اليقين عنده بأنه لا فرق بين الميت وهذا الحجر في إمكان حصول الأذى، ولكن لنفور النفس، ونفور النفس هنا معناه عدم الاطمئنان إلى هذا العلم وإلى هذا اليقين الذي عنده، فهو لذلك السبب في هذا إنما هو الجبن، وهو الخوف، فالتوكل يحتاج - بالإضافة إلى الإيمان المرتكز على اليقين - يحتاج إلى اطمئنان، وهذا الاطمئنان لا يأتي إلا عن طريق الشجاعة، ومالم تقترن الشجاعة باليقين لا يثمر توكلاً عند النفس، ومن أجل ذلك فقد يقع المؤمن في الاعتماد على الأسباب، كأن يظن أن الصلاة هي التي تدخله الجنة أو أن الصوم في الحقيقة هو الذي يدخله الجنة أو أن ما ما يعمل من أعمال هي في الحقيقة التي توصله إلى الجنة، أو ذهابه إلى العمل في هذا الدكان هو الذي يدر عليه الرزق، وعمله في هذه الشركة هو السبب الموصل إليه الرزق، ولذلك تجده يتعلل في ما لو دار الأمر بين طاعة الله سبحانه وعدم ارتكاب المعصية وبين بقائه في العمل في هذا المكان يتعلل بأنه مصدر الرزق، ولا شك أن في

¹ البقرة: من الآية 260

ذلك منافاة لمعنى التوكل لأن فيه اعتماد على الأسباب، وهذا في الحقيقة ليس قدحاً في إيمان هذا الشخص، ولكن لم يحصل عنده الاطمئنان التام للوثوق بالله سبحانه وتعالى وذلك للخوف من الفقر. فإذن هو فقد الشجاعة، فلما فقد الشجاعة فقد الاطمئنان ولما كان التوكل يعتمد على هذين الركنين وهما اليقين والاطمئنان فإنه يكون قد فقد التوكل في هذا المقام.

فحقيقة التوكل في الحقيقة إنما هي الوثوق بالله سبحانه وتعالى، والعلم بأن مشيئة الله وأن علم الله وأن قدرة الله هي المؤثرة في جلب المنافع ودفع المضار، وليست هذه الأسباب، ثم توطئ النفس عن شجاعة في عدم الاعتداد والاعتماد على هذه الأسباب، هذه حقيقة التوكل، فمن أجل ذلك قلنا أيضاً هو صعب في العمل، كما أنه غامض في العلم، والغريب أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن الاعتماد على الأسباب الخفية لا ينافي التوكل، وإنما الذي ينافي التوكل هو الاعتماد على الأسباب الجلية الظاهرة.

وأما الاعتماد على الأسباب الخفية، فلا ينافي التوكل، وضرب لذلك مثلاً بأن من يروض نفسه على الجوع والعطش، الأسبوع أو ما يقرب من الأسبوع ويريض نفسه على أكل الحشائش وأمثال ذلك ويخرج إلى الصحارى والمهامه البعيدة اعتماداً على ذلك، فمثل هذا لا يقال إن اعتماده على ذلك ينافي التوكل، والحقيقة هذا وهم، لأنه بعد إرضته نفسه وعلمه بأنه يتمكن من تحمل الجوع والعطش الأسبوع وما يقاربه صارت الأسباب بالنسبة إليه جلية، وكذلك إذا كان اعتماده على قدرته في تحمل الجوع والعطش أو قدرته على الاكتفاء بالحشائش فهذا أيضاً منافٍ للتوكل، فكما أن الاعتماد مثلاً على العمل أو الكسب الفلاني أو الصلاة أو غير ذلك هي التي توصله مثلاً إلى الجنة أو إلى المال ينافي التوكل فكذلك في هذه الحالة لا فرق في الأسباب بين خفيها وجليها وبين قريبها وبين بعيدها.

القضية أن التوكل هو عدم الاعتداد بالأسباب، وعدم الاعتماد على الأسباب، بل الوثوق في مسبب هذه الأسباب، والاطمئنان، فليس يكفي أنك تثق بسبب إيمانك العميق وإنما تطمئن نفسك إلى ذلك، يقول الإمام الكاظم عليه السلام: "إن التوكل درجات، منها أن تفوض أمرك إلى

الله مطمئناً إلى أنه لا يألوك خيراً وأنه أكرم وأبرّ، وأنه أرحم، وأن ما أصابك فمن الصالح أن يقع ذلك"، طبعاً هذه هي الدرجة العليا التي ذكرها الإمام عليه السلام، هذه هي الدرجة العليا من التوكل بأن يفوّض الإنسان أمره إلى الله بحيث يكون راضياً، ويرى أن حكمة الله سبحانه وتعالى هي التي تدبر له المصلحة وتدفع عنه المضرات في كل شيء.

على أي حال إن معنى التوكل في حقيقته ليس إلا قطع الاعتماد على الأسباب، سواء كانت هذه الأسباب من العبادات في المقام الديني والأخروي، أو من الأمور الأخرى في النواحي الدنيوية، ولكن ليس معنى ذلك ترك العمل بهذه الأسباب، يعني أن التوكل لا يعني أن الإنسان يجلس عن السعي في شؤونه ومصالحه، اعتماداً على أن الله سبحانه وتعالى يرزقه بيده، بيد قدرته، وأن الله سبحانه وتعالى يشافيه بقدرته، هذا أيضاً غير مراد للشرع، بل هو خلاف الشرع، فإن الله سبحانه وتعالى أمر الناس بالسعي في طلب معيشتهم، وأمر المرضى بالتداوي بهذه الأدوية، ولذلك فليس معنى التوكل عدم إعمال الأسباب، وإنما التوكل عدم الاعتماد على الأسباب، وفرق بين عدم الاعتداد بالأسباب وبين عدم إعمال الأسباب، ولا فرق في ذلك، نعم بعض العلماء يفصل أن الأسباب بعضها مما يعتدّ به العقلاء، وبعضها مما لا يعتدّ به العقلاء، وبعضها مما يراه العقلاء موصلاً إلى المطلوب على نحو القطع، ومنها ما هو موصل إلى المطلوب على نحو الظن، ومنها ما هو محتمل بعيد الوقوع، فيقولون إن إعمال الأسباب إذا كان معتدّاً بها عند العقلاء سواء كانت موصلة للمطلوب على نحو قطعي أو على نحو ظني، فهذا لا ينافي التوكل، وذلك مثل أن يذهب الإنسان للتداوي بدواء ما، أو للعمل في مكان ما، فهذا إذا اتفق مع صاحب العمل يكون الدخل من هذا السبب مقطوع به، وإن كان ربما يطرد من العمل ولا يعطيه صاحب العمل ما بقي من أجر وغير ذلك، ولكن في نظر العقلاء يكون شبه مقطوع به، والذي يكون مظنوناً به محتملاً احتمالاً قوياً مثل التاجر الذي يشتري بضاعة بربحها ويبيعها وتحصيل الربح من ورائها، وربما كسدت هذه البضاعة ولم يبيعها، وأما لو استعمل الأسباب التي هي غير معتدّ بها عند العقلاء فلو عمل رقية، يعني يتداوى بأن يعمل لنفسه رقية أو يستعيش بأن

يعمل لنفسه رقية يحصل من ورائها كل يوم ديناراً تحت فراشه، عمل مثل هذه الأعمال يقول بعض العلماء إن هذا إعمالها منافٍ للتوكل، حتى لو لم يكن معتداً بها يكون منافياً للتوكل؛ هكذا قال بعض العلماء، لكنني لم أستطع التفرقة في النظر بين إعمالها وإعمال غيرها إذا كان لا يُعْتَدُّ بها، وأما إذا كان على نحو الاعتداد، فحتى الأسباب المعتبرة عند العقلاء على نحو الاعتداد تكون منافية للتوكل، وعلى أي حال فإن عدم إعمال الأسباب يكون فيه إثم ويكون منهيّاً عنه شرعاً، لكن الاعتداد بها أيضاً منافٍ للتوكل، لأن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته واقتضت مشيئته واقتضت إرادته ألا تجري الأمور إلا بأسبابها، فقد ورد في بعض الروايات عن أحد الزهاد قال: لأهجرن العباد والبلاد، ولأوينّ إلى الوهاد والجبال ولن أفارق ذلك حتى يرزقني الله بيده، فذهب إلى سفح جبل فبقي ما يقرب من الأسبوع فأشرف على الهلاك من الجوع، فأوحى الله إليه بمعنى نفث في روعه: إنني لا أرزقك حتى تنزل وتدخل مصرّاً، فنزل ودخل بلده، فهذا جاء بطعام وهذا جاء بشراب فأكل وشرب، فأوجس من ذلك خيفة في نفسه، فأوحى الله إليه: أردت بزهدك الدنيا أن تنفي حكمتي وإن رزق عبدي بيد عبادي لأحب إلي من رزقه بيد قدرتي.

وفي بعض روايات الإسرائيليات أن موسى عليه السلام مرض، فجاء له بنو إسرائيل فوصفوا له بعض الأدوية التي يتداون بها، فقال: لا أتداوى إلا أن يشفيني الله سبحانه وتعالى بيد قدرته، فبقي أياماً بمرضه، ثم أوحى الله إليه: يا موسى لن أشفيك حتى تذهب إليهم ليداووك بأدويتهم، فذهب إليهم وقال داووني بما شئتم، فعملوا له الدواء الذي وصفوه وسقوه إياه فبرئ، فأوجس من ذلك خيفة، فأوحى الله إليه: يا موسى أردت أن أخالف حكمتي التي أجريتها في عبادي، لا، لا بد لك من التداوي بما يتداون.

فاذاً هذه الأسباب مأمور بإعمالها شرعاً، ولكن المنهي عنه هو الاعتداد بها، والاعتماد عليها، كما بينا ذلك في محاضرات سابقة إن الاعتقاد بأن العمل هو المنجي، هذا الاعتقاد مهلك، بل عليه وأن يعتقد أن المنجي من عذاب يوم القيامة هو رحمة الله وهو فضل الله، وليس هو صلاته أو صيامه أو حجه أو صدقته أو بره أو غير ذلك وإن كان مما أمر الله سبحانه وتعالى به

عباده أن يتقربوا إليه هو بهذه العبادات، وكذلك في طلب الأرزاق، عبادة أمر الله عباده أن يتقربوا إليه بها، لكن عليهم أن لا يعتقدوا بأنها هي السبب في الرزق، بل الرزاق هو الله سبحانه وتعالى، وربما يعتمد الإنسان على سبب وإذا به يشاء الله سبحانه وتعالى أن ينقطع، فينقطع؛ لأن الأسباب بيده، وأمور الدنيا والسموات والأرض كلها مسخرة بأمره، وهو الذي يرزق عباده من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون، وهو الذي يجعل الرزق لعبده، وعبده لا يعلم أين يكون رزقه، ولا شك أن الإنسان قد يطلب رزقه في موضع قريب ولكن رزقه موجود في بلد آخر لا يحصل عليه حتى يصل إلى ذلك البلد، فالإنسان لا يعلم أن رزقه في أي سبب وضع، وفي أي مكان يحصل، وكذلك دواؤه لا يعلم به على يد أي طبيب شفاؤه يحصل ولا بأي دواء يحصل، وكل أمر يؤمله في هذه الدنيا فسيجد العبد أن له أسبابا كثيرة متعددة، كل سبب منها في احتمال إيصاله إلى المطلوب يتساوى مع الآخر، فهو لا يدري من أي سبب سوف يوصل الله إليه مطلوبه، ومعنى ذلك أن السبب بمفرده في الحقيقة ليس علة، وليس فاعلاً للمطلوب، وأن السبب في حد ذاته مسبب عن غيره، مُسَبَّبٌ من مُسَبِّبِ الأسباب سبحانه وتعالى، فينبغي أن يكون الاعتماد عليه والرجاء إليه والتفويض إليه، وعندئذ لا يكون إعمال هذه الأسباب منافياً للتوكل على الله سبحانه وتعالى.

فحقيقة التوكل إذن ليس معناها ترك التكسب والتداوي وغير ذلك والسعي في حوائج الإنسان، بل إن السعي - سعي الإنسان في حوائجه - في الحقيقة هو طلب من الله، دعاء إلى الله، لأن الدعاء عبادة وهذه العبادة كسائر العبادات تعتمد على ثلاث جهات:

أولاً: الجهة القلبية. وهي الاعتقاد في الجنان.

والجهة الثانية: القول باللسان.

والجهة الثالثة: العبادة التي تكون بالجسم أي العبادة بالأركان.

فما لم يكن الدعاء عملياً، ومالم يقترن الدعاء القولي بالدعاء العملي لا يكون الدعاء القولي في حد ذاته عبادة كافية، بل إن الإنسان عليه أن يدعو ربه مخلصاً له قلبه، طالباً منه بلسانه القولي، وأيضاً يجعل سيره وسلوكه يجعل تحركه لسان حال عند الله سبحانه وتعالى في الطلب،

فإن من يذهب لطلب الرزق كأنما لسان حاله يقول يا ربي ارزقني، بهذا المعنى لا يكون طلب الرزق منافياً للتوكل على الله سبحانه وتعالى، وإذا كان هكذا حاله عندئذ يجمل الطلب، ولا يلج بالطلب كله، لأنه يتيقن أنه كما يقول النبي صلى الله عليه وآله: "لا تموت نفس حتى تستكمل لذتها".

فاذا ما قدره الله له فسوف يأتيه من دون حاجة إلى إنهاء كل أوقاته وإجهاده نفسه في طلب هذا الشيء، بل إن كان الله قد قدر له فسوف يحصل عليه، وإن لم يقدره الله له فإنه لن يحصله، وكما قلنا في الأسبوع الماضي فإنه كما أن اليقين حقيقته أن لا يتهم عباد الله فيما لم يقدره الله له، فالتوكل هنا أن لا يعتمد على ما في أيدي عباد الله بل يعتمد على ما في يد الله، وليثق أن ما في يد الله أقرب إليه مما في يده، ليس أقرب إلى الإنسان من تناول اللقمة من الإناء ووضعها في الفم لازدادها، ليس أقرب من ذلك، ومع ذلك فإن الرزق الموجود عند الله سبحانه وتعالى وصوله إليه أقرب من وصول هذه اللقمة التي في يده إلى فمه، بهذا ينبغي أن يكون وثوقه بالله سبحانه وتعالى، إلى هذه الدرجة حتى ينال منزلة المحبة فإن الله سبحانه وتعالى وصف المتوكلين فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾¹.

ولا شك أن المحبوب لا يعذب ولا يطرد ولا يهان، فإذا أحب الله العبد لن يعذبه، وإذا أحب الله العبد لن يطرده، وإن الله سبحانه وتعالى قد جاء بسؤال في الحقيقة استتكري على الناس في أنهم لا يتقون فيما عنده ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾²، فمن استكفى الله كفاه، وفي الحديث القدسي ما معناه أن من أمتني وتوكل علي لو كادته السماوات والأرض لجعلت له المخرج من بينهما، ومن أمل غيري واعتمد على غيري منعت عنه السماء وأسخت من تحته الأرض.

فاذن الاعتماد على الله سبحانه وتعالى والتوكل على الله سبحانه وتعالى هو حقيقة الإيمان، وإن كان كما ذكرنا غامضاً في العلم صعباً في العمل.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

¹ آل عمران: من الآية 159
² الزمر: من الآية 36

سؤال: التوكل يحتاج لليقين والشجاعة، ما نوع الشجاعة؟

جواب: الشجاعة أي لا يخاف، تجد أن الناس دائماً يحصل عندهم الخوف، خوف الفقر مثلاً أو خوف الضرر مثلاً أو خوف فوت المصلحة، فتجده يعتمد على هذه الأسباب معتقداً أنه إذا لم يفعل ذلك يخسر رزقه، هذا خوف، وليس بالضرورة نقص في الإيمان؛ لأن المؤمن إيمانه كامل والحمد لله، ولكن الخوف الذي يباشر قلبه يجعله غير مطمئن إلى كلام الله سبحانه وتعالى وإلى وعد الله، فتجده يعتمد على السبب، اعتماده على السبب لماذا؟ لأنه خاف أن تفوته المصلحة، أو لأنه خاف أن تلحقه المضرة، معنى ذلك أنه لم يكن شجاعاً، لأن الخوف إنما يكون عند الجبن، لا يكون عند الشجاعة، فالشجاع لا يخاف.

سؤال:.....

جواب: إذا اقترن اليقين والشجاعة حصل الاطمئنان.

التوبة*

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، والسلام عليكم أيها الإخوة المؤمنون جميعاً ورحمة الله وبركاته.

التوبة في اللغة هي العود والرجوع. والمقصود بها في الشرع هو الرجوع إلى الله تعالى والعودة إليه، فإن الإنسان وهو يعيش في هذه الأرض عندما يولد صغيراً أول ما يترعرع في نفسه هو أمور الغريزة؛ سواء الشهوات أو النزعات أو المطالبات من حين هو طفل، ولا يتجه عنده أصل الرشد وأصل العقل إلا بعد ربح من السنين، فتكون تلك الحياة البهيمية التي يعيشها الطفل من حين أن يفتح نظره على الدنيا قد ترسخت في نفسه بحيث ليس من السهولة جداً أن يتخلص من آثارها ومن تدخلاتها في سائر شؤون سلوكه، لذلك فتح الله تعالى له باب الرجوع من هذا الطريق إلى طريق الله سبحانه وتعالى.

فالصحيح أن يقال طريق العودة من طريق الشيطان الذي يحاول جهده في استغلال تلك الرواسب التي نمت وترعرعت في طفولة الإنسان وأن يدفعه إلى التثبيت بها، بل والزيادة فيها إلى الخروج عن الحد المعتدل الذي أباحه الله، هذا الرجوع وهذه العودة هو معنى التوبة.

والتوبة تنسب إلى العبد، فيقال: تاب زيد بمعنى رجع، وعاد، وتنسب إلى الله فيقال: تاب الله على زيد؛ ومعنى ذلك أن ألهمه العودة إليه وقبل منه هذه العودة.

وحقيقة التوبة تتكون من عناصر ثلاثة:

العنصر الأول: هو العلم بأن الذنوب من المهلكات للإنسان.

والعنصر الثاني: - الذي هو في الحقيقة ما هو إلا نتيجة للعنصر الأول - هو الندم على

استعمال ما هو مضر ومهلك؛ أي ارتكاب الذنب.

ومن العنصر الثاني يتولد عنصر جديد هو الإرادة الجازمة على عدم المواصلة أو العودة

إلى هذا الطريق المهلك.

* محاضرة ألقاها في عام 1988م بالدير

فإذاً عناصر التوبة هي العلم والندم والإرادة الجازمة على عدم معاودة الذنب. وفي الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله قال: "الندم توبة"¹. وإطلاق التوبة على الندم بذاته باعتباره لا يحصل إلا نتيجة للعامل الأول، ولأنه مع حصوله تحصل منه الإرادة الجازمة على عدم العودة اضطراراً، فإن من قال له الطبيب مثلاً إن هذا المأكل أو هذا المشرب سام للأجساد ولكنه أقدم بسبب جهله على شرب ذلك الشيء أو أكل ذلك المطعم ثم حصل له العلم بحقيقة الحال فلا إشكال بأنه يندم على ما فعله في نفسه في حق نفسه من أكل السام أو شرب السام، وبالتالي لا بد أن تحصل عند هذا الإنسان إرادة على عدم مخالفة الطبيب مرة أخرى.

ولكن ما هو المقصود بالعلم؟

المقصود بالعلم هنا هو العلم على نحو التيقن؛ يعني إذا حصل اليقين الجازم الذي لا يعتريه الشك في ضرر الذنب وإهلاكه للإنسان بحيث وصل إلى مرتبة الإيمان؛ لأن الذنوب مبعدة له عن الله سبحانه وتعالى وحاجبة له عن القرب منه، فهذا العلم في حقيقته هو الإيمان بمضرة الذنب وإبعاده عن الله تعالى، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"²، الذنب المقصود منه أن الزاني لا يزني وهو يؤمن بالله، فإن الإيمان بالله والإيمان بكتبه ورسوله واليوم الآخر ليس على نحو التضاد والتناقض مع ارتكاب المعاصي.

ولإعطاء بعض التفاصيل عن هذه الجملة نقول إن العلم أو الإيمان يتم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: هي ما يطلق عليه عامةً [علم المكاشفة]، وهو العلم الذي يكون فيه انكشاف في القلب، ويكون مطلوباً بذاته لا لغرض آخر وراءه، وهذا أرقاه شهادة ألا إله إلا الله بحقيقتها، والعلم بتفصيلاتها والإيمان بكتب الله ورسوله وملائكته. ولا شك أن الإنسان في بداية أمره لا يعرف من معاني هذه الألفاظ إلا شيئاً قليلاً، أو ربما لا تزيد تلك المعرفة على المعنى اللغوي، فمثلاً معنى الملائكة ما هو معنى الملائكة؟ من منا يعرف حقيقة الملائكة؟ ولكن بعد حصول هذا العلم وتلقيه يحصل انكشاف في القلب لحقيقة التوحيد، وحقيقة الجنة، وحقيقة النار، وحقيقة

¹ بحار الأنوار - ج 74 - ص 159 - العلامة المجلسي
² الكافي - ج 5 - ص 123 - الشيخ الكليني

الملائكة والكتب وغير ذلك، ومن أجل ذلك يطلق على هذا العلم الذي هو في الحقيقة عين الاعتقاد بعلم المكاشفة.

العلم الثاني: وهو الذي يتفرع من هذا العلم ويدخل أيضاً في حقيقة الإيمان، ويدخل في حقيقة المعرفة؛ هو ما يراد من أجل التوصل به إلى شيء آخر لا أنه يطلب لذاته، ويطلق عليه في مصطلح القوم بعلم المعاملة، أي أنه يطلب ليتعامل به للوصول إلى هدف آخر، وذلك كمعرفة أحكام الوضوء وأحكام الصلاة أو أحكام الحج أو غير ذلك؛ إذ مجرد معرفة أحكام الوضوء لا يستفيد منه الإنسان إذا كان لا يريد أن يتوضأ، ومجرد معرفة أحكام الصلاة حتى لو كانت معرفتها عن طريق الأدلة والاستنباط وإلى حد الفقاهة، بل إلى حد الدرجات العليا من الفقاهة؛ لا يفيد الإنسان شيئاً إذا لم يكن غرضه هو العمل بها، لذلك فإن هذا النوع من العلم يسمى علم المعاملة. ومعرفة حقيقة الذنب ومعرفة مضرة الذنب ومعرفة تأثير الذنب في إبعاد الإنسان عن مقام القرب من الله تعالى، هذا العلم هو من حقيقة الإيمان، ولكنه هو من النوع الثاني، فمن لا يبالي في القرب من الله أو البعد منه لا تفيدته معرفة مضرة الذنب وتأثيرها على القرب من الله؛ كمن لا يريد أن يصلي لا يفيدته معرفة أحكام الصلاة وتفصيلاتها، فهذا العلم عندما يرتكب المؤمن الذنب فإنه حين ارتكابه ليس مؤمناً بضرر الذنب، ولو كان يؤمن بضرر الذنب وأنه يبعده عن الله سبحانه وتعالى ما ارتكبه. هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"، لا بمعنى أنه لا يؤمن بالله ولكن بمعنى أنه لا يؤمن بضرر الزنا على آخرته، وربما بسبب أو بآخر تبرر له شهوته ذلك، مثلاً بأن يقول: إن الله غفور رحيم، وبأن رحمة الله وسعت كل شيء، على أي حال يفقد الإيمان في تلك اللحظة بضرر هذا الذنب على آخرته فيقدم عليه، وكل ذنب في الحقيقة يقدم عليه الإنسان في حين إقدامه لا يكون ملتفتاً إلى ضرره عليه، وهذا تماماً كالمريض الذي يتناول السم بعد نهى الطبيب له، ليس المعنى أنه لا يؤمن بوجود الطبيب، وليس بمعنى أنه لا يؤمن بنصح الطبيب، ولكن يحصل عنده الشك في نفس كلام الطبيب في مضرة الأصل، كما لو ذهب إنسان واشترى دواءً للإسهال وشربه ولكن بقي عنده شك هل أنه فعلاً يسبب

له الإسهال أم لا يسبب، هذا الشك ليس بسبب الشك في الطبيب أو بنصحه في وصف الدواء، ولا الشك أيضاً في أصل الدواء، ولكن يأتيه الشك مثلاً في إمكانية تركيبة الدواء أو طريقة جمع عناصره، أو تكوينه الكيميائي وغير ذلك، فلا يحصل عنده التأكد واليقين بأنه سوف يوصله إلى الإسهال، إلا إذا حصل له بالفعل، وكذلك من يرتكب - حين يرتكب - الذنب ليس معنى إقدامه على الذنب أنه لا يؤمن بالله، ولكن يحصل عنده شك في تأثير الذنب على آخرته وعلى إبعاده عن الله سبحانه وتعالى.

ولكن ما هو الذنب؟

حينما نقول إن التوبة هي الرجوع إلى الله عن الذنوب، وقلنا إن أول عنصر من عناصرها هو العلم، والعلم قلنا إنما هو العلم اليقيني بضرر الذنب على آخرة الإنسان، فلا بد إذاً أن يعرف الإنسان ما هو الذنب حتى يدرك مدى تأثيره على آخرته.

والذنب في حقيقته ليس إلا مخالفة أمر المولى، فلا يقصد بالذنب أكثر من مخالفة الإنسان لأمر مولاه؛ سواء في حالة الفعل أو حالة الترك، أو بالأحرى هي صفة تلحق الإنسان أو حالة نفسانية تلحق الإنسان بسبب قيامه بفعل أو بترك يعتقد فيه أنه مخالف لما يريده المولى منه، فعندما يدرك الإنسان أنه في مقام المخالفة يدرك أنه في مقام العصيان، ولا إشكال بأنه لا يتعقل أن المولى يقرب العصاة إليه ويدنيهم، خذ إليك مثلاً الموالى العاديين سواء كانوا من الموالى الذين لهم حق المولوية أو الموالى الذين ليس لهم حق المولوية ولكن يفترضون لأنفسهم المولوية، يعني الموالى غير الله مطلقاً سواء كانت لهم حق المولوية كالنبي أو الإمام المعصوم أو الأب أو الجد أو من ليست له حق المولوية ولكن يفترض لنفسه حق المولوية كالزعيم والرئيس والملك وغير ذلك، هل أحد منهم يقرب إليه ويدني إليه من هو مجد في مخالفة أوامره ومعصيته في كل ما يريد من فعل أو ترك؟ وهل يتصور أحد منا بأنه إذا أمعن في خلاف والده بحيث يترك ما أمر به ويرتكب ما أمر بتركه، هل يتصور هذا الابن أن أباه يقربه إليه ويدنيه؟ أو يتصور أن ملكاً أو حاكماً أو رئيساً أو حتى مديراً في مدرسة أو دائرة أو غير ذلك يكون تحت إمرته شخص مجد في

أن لا يفعل ما يريد هذا المدير أن يفعل، وأن يرتكب معظم ما لا يريد هذا المديرُ أحداً أن يرتكبه ثم يتصور أن هذا المدير يقربه إليه، ويوليه وظائفه، ويدنيه، ويجعله المحبب والمقرب إليه؟

فإذاً عندما يدرك الإنسان أنه في مقام العصيان فلا شك أنه يدرك أنه في مقام البعد، ولا يمكنه أن يتصور إمكانية القرب مع بقاءه على تلك الحال، فإذا أدرك الإنسان إدراكاً يقينياً لا يعتريه الشك في ضرر الذنب عليه بالنسبة إلى آخرته، ووجد نفسه ليس في الطريق المؤدي إلى غايته التي يريدها من القرب من المولى فلا شك أنه يصيبه الندم الشديد في قلبه، ويذوب حسرة، فإذا حصل له هذا الندم فإنه تتولد عنده إرادة جازمة للرجوع عن الطريق الذي هو فيه، وعدم المعاودة لارتكاب المخالفة والعصيان، وهذه هي حقيقة التوبة، وإطلاق النبي صلى الله عليه وآله التوبة على الندم باعتباره نتيجة للمعرفة، وسبباً للرجوع وعدم المعاودة، والحقيقة أن هذه العناصر الثلاثة كلها متولدة بعضها عن بعض وليست بمعنى أنها عناصر متباينة ثم جمع بينها، بل إن الندم نتيجة للمعرفة والإرادة بعدم ارتكاب الذنب مرة أخرى لا يكون إلا إذا حصل له الندم في نفسه، والعياذ بالله لو أبلس هذا الإنسان مع إدراكه بأنه في موقف العصيان وأنه في موقف المخالفة، وأن هذا الموقف يؤاخذ عليه في آخرته لكنه فيه قد أبلس وأصبح لا يبالي بالنتيجة الأخروية، أما لوجود اليأس والقنوط وأما للاغترار والغرور، فهذا الإنسان مجرد إدراكه بأنه في مقام العصيان لا يجعله يتوب، ونضرب مثلاً باثنين أحدهما آدم والثاني هو الشيطان الرجيم، فأبونا آدم صلوات الله وسلامه عليه عندما أدرك أنه أخطأ بمخالفة الأولوية - وسوف نتعرض إلى استغفار الأنبياء وتوبتهم بعد قليل - أصابه الندم الشديد فقبل الله ندمه وتوبته وتاب عليه، والشيطان وقد أدرك أنه في مقام المخالفة والعصيان لكن لم يصبه الندم، وإلا فقد كان باب التوبة مفتوحاً للجميع، فمقتضى قواعد العدل الإلهي أن لا يفتح الباب لهذا ويغلقه عن ذلك. ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أهبطوا منها جميعاً فإما يأتيتكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾¹.

ولا شك أن هذه الآية بعمومها وإطلاقها تشمل إبليس كما تشمل آدم عليه السلام وحواء، وقد تاب

¹ البقرة: من الآية 38

آدم عليه السلام وحواء وأبليس وإبليس ورفض أن يتوب، لماذا؟ لأنه يئس من رحمة الله، وقنط من رَوْح الله وعفوه. بل اشتدَّ به طغيانه وتجبره بحيث أقسم أن يحتك ذرية آدم عليه السلام حيث فاتته آدم عليه السلام بسبب توبته، فإبليس إذا كان يعرف أنه في مقام المعصية ومقام المخالفة، ولكن بسبب أنه أصبح يائساً من الرجوع ومن العودة إلى الله ومن القرب من الله، لم يبال بالمصير الأخرى، ولم يحصل عنده ندم على المعصية وعلى المخالفة، وأصر على البقاء في هذا المقام، فصار بذلك عدواً لله، وآدم عليه السلام لما أدرك مقام المخالفة ولكن لم يحصل عنده اليأس والقنوط من رحمة الله وعزَّ عليه أن لا يكون قريباً من المولى سبحانه وتعالى أصابه الندم فنزع عن الخطأ وصمم العزم على عدم المعاودة.

فإذا ما لم يحصل الندم لا تتولد الإرادة والعزم على عدم المعاودة، ولذلك صار هذا العمل أو هذا العنصر هو العنصر الرئيس في التوبة وإن كان في الحقيقة فرعاً عن العلم والمعرفة. ولكن كما قلنا لما كان هذا العلم وهذه المعرفة إنما هو من علم المعاملة، أي من العلوم العملية التي تزداد لغيرها، ما لم تحصل منها الثمرة فوجودها وعدمها سيان، وما ثمرتها إلا الندم وثمره الندم هي الإرادة.

هذه الذنوب كيف تحصل للإنسان؟ وما هي أنواعها؟

قسموا الذنوب إلى تقسيمات مختلفة، فتارة قسموها بالنسبة إلى صفات الإنسان، فقالوا إن الذنوب تكون ذنوباً ربوبية وتكون ذنوباً شيطانية وتكون ذنوباً بهيمية وتكون ذنوباً سبعية، في الحقيقة هذا التقسيم فلسفي أكثر منه واقعياً.

والمقصود بهذا التقسيم أن الله سبحانه وتعالى خلق الملائكة عقولاً مجردة لا يعترها شيب من الأخلاق، ولذلك فهي لا تعصي، وخلق الشياطين والأبليس من مركب واحد هو مركب النار فصارت بطبيعتها نزاعة إلى المعصية عاتية عن الطاعة، وخلق البهائم لا تدرك في الحياة إلا غرائزها، وما يقيم حياتها من المأكّل والمشرب وما يحفظ تناسلها من الجنس، وخلق السباع ضارية مؤذية قتّالة، وخلق الإنسان وجعل فيه كل هذه التركيبات، إضافة إلى ذلك فإنه سبحانه نفخ فيه

من روحه فصار أيضاً بسبب ذلك له صفات ربانية أو صفات ربوبية، فمن الصفات الربوبية يتولد حب العزّ وحب الزعامة وحب القدرة وحب المدح وحب الجاه وحب السيطرة حتى يصل إلى ما وصل إليه فرعون فيقول أنا ربكم الأعلى.

ومن الصفات الشيطانية من وجود عنصر النار يتولد عند الإنسان الحقد والحسد والبغضاء والحيلة وغير ذلك من الأمور التي يستعملها الشيطان.

ومن كونه أحد الحيوانات وفيه مركب البهيمية تكون عنده سائر الغرائز والشهوات الحيوانية البهيمية.

ومن كونه أيضاً فيه بعض الأخلاق السبعية تحصل عنده عرائز الغضب والثوران والهيجان والتهمج على الأنفس والأموال وغير ذلك، كما أنه من الغرائز البهيمية يحصل الزنا واللواط وأمثاله والسرقات وغير ذلك من هذه الأمور.

فهذا تقسيم في الحقيقة لهذه الذنوب بناءً على هذه الصفات، ولكن في مقام العمل لا توجد مثلاً جدوى مهمة كبيرة تتبني على هذا التقسيم للذنب، فإن الذنوب أي سببها ومصدرها إنما هو بسبب تأثيرها على القرب من الله سبحانه وتعالى، وعلاجها إنما هو التوبة. نعم بعض من يذهب إلى معنى الرياضة ومعنى الاعتزال ومعنى التصوف يستعمل مثل هذا الأسلوب بدعوى المجاهدة، والحقيقة أن لفظ المجاهدة في الشريعة إنما يعني جهاد النفس وكسر شوكتها في أي طريق تريد أن تخالف الله سبحانه وتعالى فيه، ولو كانت التوبة ومعرفة الذنوب تتوقف على معرفة هذه الفلسفة وهذا التقسيم لكان حصول التوبة من الإنسان العادي أمراً عسيراً، وعندئذ لا تشمله رحمة الله سبحانه وتعالى الذي فتح باب الرحمة لكل عباده كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم.

هناك أيضاً تقسيم ثانٍ، هي الذنوب بالنسبة إلى من تكون وفي حق من تقع بين المذنب وغيره، فقسموها إلى ذنوب بين العبد وربّه، وذنوب تحصل بين العبد وسائر خلق الله، وبذلك تكون

قسمين:

ومن الذنوب التي تكون بين العبد وربه ترك الصلاة مثلاً والصيام والحج وأمثال ذلك، مما افترضه الله سبحانه وتعالى على العبد، أو حرم على العبد فخالف إلى فعل ما حرم أو ترك ما أوجب.

والذنوب التي لها تعلق بالعباد كثيرة، منها عدم إخراج الحقوق الشرعية لمستحقيها، كأكل الزكاة والخمس والغصب والسرقة والخيانة واللواط والزنا، وأمثال ذلك من هذه الذنوب، وكذلك أذية المسلمين والمؤمنين، كغيبتهم أو ضربهم أو قطع أرجلهم أو أيديهم أو قتلهم أو إهانتهم أو غير ذلك، كل هذه الذنوب تكون متعلقة بين المذنب وبين عباد الله.

ولا شك أن هذا تقسيم واقعي ومعرفته لها أثر كبير في التوبة، فإن التوبة مثلاً من الذنب الذي هو بين العبد وربه، يكفي فيه الندم وتلافي ما فات إن كان يمكن قضاؤه، كقضاء الصلاة أو الصوم أو الذهاب إلى الحج، والذنب الذي له تعلق بعباد الله؛ حتى تحصل له منه التوبة الحقيقية عليه أن يتلافاه بأن يستبرئ ذمة من سبب له ذلك الضرر أو الظلم بسبب ذنبه مثلاً، فإنه إذا لم يستبرئ المظلوم فلا تحصل منه التوبة الحقيقية أو لا يحصل له النزوع الحقيقي إلى الله سبحانه وتعالى، باعتبار أن هذا الذنب له تعلق بطرف ثالث هو أحد خلق الله سبحانه وتعالى، فهذا التقسيم لا إشكال أنه تقسيم واقعي وله تأثير كبير في مجرى التوبة.

هناك تقسيم ثالث بموجب حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "الذنوب ثلاثة: ذنب مغفور، وذنب غير متروك، وذنب نحن لصاحبه كما هو لنفسه، نرجو له المغفرة ونخشى عليه العذاب. فقليل له يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وما هو الذنب المغفور؟ وما هو الذنب غير المتروك؟ وما هو الذنب الذي ترجون لصاحبه المغفرة وتخشون عليه العذاب؟ قال أما الذنب المغفور فذنب يكون بينه وبين الله وقد عاقبه الله عليه في الدنيا، فإله أكرم من أن يعاقب عبده مرتين، وأما الذنب غير المتروك فهو ظلمه لعباد الله فإنه سبحانه إذا جاء يوم القيامة وبرز لخلقه أقسم على نفسه وقال وعزتي وجلالي لا يفوتني ظلم ظالم، فيقتص من الظالم للمظلوم، ومن القرناء للجماء حتى الكف بالكف والمسحة بالكف والنطحة وغير ذلك، وبعد ذلك بيعتهم للحساب،

وأما الذنب الذي نرجو لصاحبه المغفرة ونخشى عليه العذاب فهو ذنب يكون بينه وبين الله سبحانه وتعالى وقد تاب منه وندم، عليه فإن الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنه ويرحمه وله أن يأخذ بحقه ويعذبه".

وهذا التقسيم الذي ورد في الرواية مطابق للتقسيم الثاني، وإن كان التقسيم الثاني يتكلم في مقام التوبة، يعني له تعلق بخصوص التوبة وهذا له تعلق بتقسيم الذنوب جميعاً. والذنوب من جهة ثلاثة تنقسم إلى كبيرة وصغيرة، أو الكبائر والصغائر، وللعلماء خلاف كبير في ذلك، فبعض العلماء نفى وجود الصغيرة، واعتبر كل ذنب يقدم عليه الإنسان بتعمد فهو كبيرة.

ولا شك أن هذا القول تنفيه الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ¹، فلو لم تكن الذنوب كبيرة وصغيرة لما صار لتخصيص حكم الكبيرة معنى، وأن ما نهى عنه فيه الصغير وفيه الكبير.

ولكن كيف نعرف ما هو الذنب الكبير وما هو الذنب الصغير؟

فمن العلماء من يقول إن الكبائر سبع، ومنهم من يقول سبعين، ومنهم من يوصلها إلى عدد جد كبير، والحقيقة أنه ليس لنا مجال في معرفة عدد الكبائر، فحتى نعرف عدد الكبائر بالتأكيد وعلى نحو الضبط والتفصيل نحتاج إلى تصريح من صاحب الشرع بأن يقول عنيت بالكبيرة مثلاً سبعاً أو سبعين أو مائة وهي كذا وكذا وكذا...، وأما مع ورودها في روايات متفرقة تارة سبع وتارة عشر وتارة ثلاث وتارة أكثر أو أقل، وفي هذه الرواية تذكر مجموعة من الذنوب وفي رواية تذكر مجموعة من الذنوب الأخرى، فإن هذا لا يجعلنا نعرف على نحو التأكيد عدد الكبائر بالضبط؛ لأن العدد لا يمنع غيره، ومثلاً إذا قال النبي صلى الله عليه وآله أو قال أحد الأئمة عليهم السلام بأن الكبائر سبع، وذكر مجموعة ثم قال في مجلس آخر أو قال إمام آخر

¹ النساء: من الآية 31

أنها ثلاث وذكر مجموعة أخرى، ولا تتأفي بين هذا العدد وذاك، بل يمكن جمعه معه، وعندئذ جمع العددين لا يكون حاصراً عن الزيادة، فقد يحتمل أن توجد زيادة.

فمعرفة الكبائر من الذنوب إذاً على نحو التفصيل غير ممكن ما دام لم يرد بيان مفصلاً بتحديدتها من صاحب الشرع الأقدس، ولكن نحن نعرف أكبر الكبائر ولا نعرف أصغر الصغائر، وأكبر الكبائر كما وردت به الروايات المتضاربة بين كافة المسلمين سيع وهي: الشرك بالله سبحانه وتعالى، وقتل النفس، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والزنا، واللواط، والتعرب بعد الهجرة.

و باعتبار هذه الرواية وكونها رواية مستفيضة بين كافة المسلمين نقول إن ما ورد فيها أكبر الكبائر، لا بمعنى أن ما لم يذكر فيها ليس من الكبائر، ولكن يمكن أن يوجد لنا طريق به نعرف معنى الكبيرة ومعنى الصغيرة، فإذا عرفنا معنى الكبيرة ومعنى الصغيرة استطعنا أن نميز في الذنوب بين ما يكون كبيراً وبين ما يكون صغيراً، ولا إشكال أن كل ما توعده الله عليه النار فهو كبيرة، ولا إشكال أن كل ما ورد النهي عنه في القرآن، بخصوصه فهو كبيرة، ولكن ليس كل الكبائر مذكورة في القرآن وليس كل الكبائر ورد فيها ذكر يتوعد بالنار مثلاً.

فإذن ما هو المقصود بالكبائر؟

الواقع أن الهدف الرئيس لبعثة الأنبياء وإنزال الكتب وتشريع الشرائع بل الغرض الرئيس من خلق السماوات والأرض وخلق الجن والإنس إنما هو الحياة الأخرى، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾¹، ولكن الحياة الأخرى لا تحصل فيها السعادة ولا يحصل فيها إلا عن طريق أن يعرف العبد ربه بالربوبية، ويعرف نفسه بالعبودية، فتوقفت الحياة الأخرى على العلم، فاحتاج الأمر إلى أن يوجد الإنسان في حياة قبل الحياة الأخرى، فوجدت الحياة الدنيا لتكون طريقاً ومعبراً وممهداً للحياة الأخرى، ولذلك ورد في الحديث "الدنيا مزرعة الآخرة"، فصارت الحياة الأخرى لا يمكن تحقيقها إلا بالحياة الدنيا، والحياة الدنيا تتوقف على شيئين: سلامة الأبدان، وسلامة الأموال. لأنه إذا لم تكن الأبدان سليمة لا يمكنها أن تؤدي العبادات المطلوبة منها، ولا أن تصل إلى المعرفة

¹ الذريات: 56

الحقيقية المرادة بها، فلا بد أن تكون الأبدان سليمة. ولا تكون الأبدان سليمة إلا بتوافر أسباب السلامة لها من المأكل والمشرب والمسكن وغير ذلك مما يدفع عنها سائر الآفات المضرة وبقيما ويجعلها قادرة على الحركة، وهذا لا يكون إلا بالمال، فصار للمال دخل وعلاقة بالحياة الأخرى.

فإذا هذه الذنوب إذا أردنا أن ننظر إليها نجد أن منها ما يناقض الهدف الرئيس أو الهدف المقصود رأساً، يعني منها ما يناقض الهدف الأخروي رأساً، كالكفر بالله سبحانه وتعالى والشرك والكفر بالأنبياء وعدم التصديق بالكفر والشرائع، وكذلك إيجاد البدع وإيجاد الأديان الفاسدة والباطلة والمذاهب الكاسدة والأفكار المنحرفة والدعوة إليها، كل ذلك يناقض الهدف الأساسي من خلق الإنسان رأساً، فلا شك أن كل ما يكون من هذا القبيل يكون أكبر الكبائر، ولذلك فالكفر بالله أكبر الكبائر.

وتارة أخرى لا تضاد هذه الذنوب الهدف الرئيس مباشرة، وإنما تضاد الهدف الرئيس بطريق آخر، كما لو كان الذنب يتعلق بأرواح عباد الله وتعطيل أجسادهم كقتل الإنسان وقطع أطرافه كيديه أو رجليه أو ضربه أو غير ذلك مما له تأثير على سلامة بدنه، فهذا لا يناقض الإيمان بالله رأساً، ولا يناقض الإيمان باليوم الآخر رأساً ولكن يناقضه بطريقة غير مباشرة، وكان عظيماً باعتباره مانعاً وحاجباً من القرب إلى الله سبحانه وتعالى ولو بطريق غير مباشر.

وأما الأموال فلا شك أنها تأتي في المرتبة الثالثة - بناءً على هذا التفصيل - ومن أجل ذلك لا يكون مثلاً أكلُ شيءٍ بالغصب كقتل مؤمن، فلا يعقل أن نجعل اغتصاب ملك المؤمن يعادل قتل المؤمن، فهي وإن كانت كبيرة فلا شك أن قتل النفس أكبر من اغتصاب مال الإنسان أو منعه من رزقه أو غير ذلك، بالإضافة إلى أن هذه الأموال يمكن أن تتلافى أما بالتغريم وإما بالأخذ وإما بالاسترجاع أو غير ذلك، بخلاف الأشياء التي تقع على جسم الإنسان أو على روحه فلا يمكن تلافياها، لأنه بعد إزهاق روح الإنسان بأي شيء يتلافى ذلك؟! أو بعد تعطيل جارحة من جوارحه بأي شيء يتلافى!!؟

وعلى الرغم من ذلك فلا بد أن نقول أن في هذا التفصيل الذي قلناه نقص، وهذا النقص نضرب مثلاً له بالربا، فإذا جئنا مثلاً إلى الربا، - لو كنا نسير بالقياس - فإن مقتضى القياس أن يكون شرب الخمر أشد من الربا، ومقتضى القياس أن الزنى أشد من الربا، ومقتضى القياس أن قتل النفس أشد من الربا، ولكن بموجب نصوص الشريعة فإن الربا أشد من الجميع، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾¹، إلى أن يقول: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ بُتِمُ فَلكُمْ مَرْوُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾². فإذا ما جعل الله سبحانه وتعالى مرتكب كبيرة من الكبائر في مقام محاربة إلا المرابي، ولذلك ورد في الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله: "إن أكل درهم واحد من الربا أشدّ عند الله من سبعين زنية بذات محرم بين الركن والمقام - أو عند الكعبة في رواية أخرى -" مع أن هذا الذنب في الحقيقة يتعلق بالأموال ولا يتعلق بالأبدان مما قلنا عنه أنه في المقام الأول في قضية الحفظ بين الشرائع والأديان.

فإذا لا يمكن للإنسان بعقله أن يصيب أسرار الشرع في الحقيقة، ووصله إلى أسرار الشرع وعلله وأسباب تشريعاته وتنظيماته بعقله أمر بعيد.

على أي حال كل ما كان هذا الذنب له تعلق بالحجب عن اليوم الآخر يكون كبيرة، نعم هناك أمور لا يكاد البشر - بسبب ما فطروا عليه من الحيوانية - ينفكون عنها، كأن يتكلم فيكذب كذبة صغيرة، أو يعد إنساناً بالمجيء ثم لا يأتي، أو يغتاز على ابنه فيضربه من دون أن يستحق هذا الابن عقاباً أو أمثال لذلك، أو سوء خلق بينه وبين أخيه في أمر من الأمور، هذه أمور لا يكاد الناس يتمكنون من الانفكاك عنها، لذلك سميت بالصغائر، ولكن هذه الصغائر لا ينبغي الاستهانة بها. يقول الصادق عليه السلام: "إياكم والمحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر، فقل يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وكيف لا تغفر المحقرات؟ قال أن يعملها الرجل فيقول إن لم تكن عليّ إلا هذه فطوبى لي". إذا استصغرها واستهان بها انقلبت كبيرة، ولعل من هذه الرواية أخذ قوله من قال إن كل ذنب مع الإصرار كبير، أو أنه لا يوجد فرق بين الصغيرة والكبيرة، على أي حال

¹ البقرة: 278
² البقرة: 279

فإن هذه الأمور التي لا يتمكن الناس بسبب ما فطروا عليه من الانفكاك عنها جعل الله لها كفّارات خاصة، فالصلاة كفّارة لما قبلها، فصلاة الصبح مثلاً كفّارة لما عمل بين صلاة العشاء وصلاة الصبح، وصلاة الظهر كفّارة لما عمل من الصغائر بين فرض الصبح وفرض الظهر وهكذا، والجمعة إلى الجمعة كفّارة، يعني صلاة الجمعة كفّارة لما وقع من الذنوب بينها وبين الجمعة السابقة عليها، ورمضان إلى رمضان كفّارة، فهذه الذنوب الصغائر جعل الله سبحانه وتعالى لها مكفّرات هي هذه العبادات اليومية أو الأسبوعية أو السنوية، ولكن بشرط التوبة عنها والعزم على عدم العود إليها؛ وإن كان لا يتمكن بحسب فطرته وحسب طبيعته ألا يعود إليها ولكن عليه دائماً أن ينوي في نفسه أن يأسف على ما حصل منه، وأن يعزم على أن لا يعود، هذا بالنسبة إلى الصغائر.

وأما بالنسبة إلى الكبائر فقلنا: إن الكبيرة إنما يحصل التوبة منها بالندم عليها، الندم الشديد حتى يزيل الإنسان أثرها من قلبه عليه بإكثار الطاعات وإكثار الحسنات، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾¹. ويقول النبي صلى الله عليه وآله: "أتبع الحسنة السيئة تمحها". وهذا الأمر الإلهي له حكمته الكبرى، وذلك لأن الإنسان يحصل على قلبه رين مما يباشر من الذنوب وذلك كالمرآة التي تكون في مكان يتصاعد فيه البخار فلا تظهر فيها الصور، فمجرد إيقاف مصدر البخار لا يجعل الصورة منطبعة عليها، بل لا بد من تنظيفها وتجفيفها حتى تعود المرآة قابلة لعكس الصورة، وكذلك قلب الإنسان فإنه بسبب مزاولته الذنوب يحصل عليه رين، وتحصل عليه ظلمة، ومجرد التوقف عن الذنوب يوقف زيادة تلك الظلمة، ولا بد أن يشتغل الإنسان في صقل هذا القلب، في صقل مرآة هذا القلب وإعادته لتلقي الأنوار الإلهية والفيوضات الرحمانية، وذلك عن طريق إكثار الطاعات وعمل الحسنات، فهو كالثوب الذي يصيبه الأوساخ، فمجرد إخراجها من موضع الوسخ لا ينظفه، فلا بد من غسله بالماء والصابون مراراً وتكراراً حتى يعود إليه نقاؤه وبياضه، وكذلك القلب، وهذا الطريق الوحيد في الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى

¹ هود: من الآية 114

والعودة إليه مع إعادة الطهارة الأصلية للإنسان. وإعادة النظافة هي أن يواظب على الطاعات ويتجنب بقدر إمكانه أن يقع أو يتورط في معاصي جديدة.

ولكن على أي حال ومهما كانت الذنوب بين الإنسان وربه ولو أنها إلى عنان السماء لا ينبغي له أن ييأس أو أن يقنط من رحمة الله سبحانه وتعالى، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾¹. ويقول النبي صلى الله عليه وآله: "لو كانت ذنوبكم من الأرض إلى عنان السماء فتبتم غفرها الله لكم". فإذا لا شك أن التوبة هو باب الرحمة الذي فتحه الله لخلقه إرغاماً لأنف عدوه، والتوبة واجبة على كل الناس سواء كان نبياً أو إماماً أو عالماً أو إنسان عادياً، كل الناس تجب عليهم التوبة في كل حين من الأحيان وفي كل حال من الأحوال.

ولا يمكننا التفصيل في هذا الموجز ولكن نقول إن وجوب التوبة عام من جميع الوجوه، وفي جميع الأحيان، وعلى جميع الناس، وأن واجب الإنسان الأول هو التوبة، وهذه التوبة متى ما وجدت فلا شك أن تكون مقبولة، فلا يعقل أن توجد التوبة ولا تقبل من عند الله سبحانه وتعالى، بعضهم يشكك فيقول: كون التوبة صحيحة شيء، وكونها مقبولة شيء آخر، يقيس التوبة على الصلاة والصيام أو غير ذلك، فقد يكون صحيحاً مسقطاً للإعادة أو القضاء ولكن لا يكون مقبولاً. إن التوبة تختلف عن هذه العبادات البدنية، فلا يعقل أن توجد ولا تكون مقبولة من الله سبحانه وتعالى، ولنا دليل واحد بالإضافة إلى قضية أن الفطرة في الإنسان تقضي بذلك وإلا يئس من رحمة الله الذي هو منهي عنه، لنا دليل واحد موجود في كل نصوص الشرع وهو أنه سبحانه وتعالى هو الذي طلب من عباده أن يتوبوا؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾². وحينما نأتي إلى القابل والطالب يعني قد يقبل الإنسان شيئاً ولكنه لم يطلبه ولكن لا يعقل أن يطلب الإنسان شيئاً ولا يقبله، فما دام الله سبحانه وتعالى هو الذي طلب التوبة من عباده، فلا بد أن يكون قابلاً لتلك

¹ الزمر: من الآية 53
² التحريم: من الآية 8

التوبة عند حصولها، ولا يعقل أن توجد التوبة ولا تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى، وإلا لتخلف الغرض من فتح بابها لبني الإنسان عموماً، نعم شيء واحد لا تقبل فيه التوبة ظاهراً ولكنها تقبل باطناً، وهو الارتداد عن الفطرة والعياذ بالله، فلو ارتد الإنسان عن فطرته، وألحد بالله بعد أن ولد من أبوين مسلمين أو كفر بالنبي أو القرآن أو كذب بالصلاة أو غير ذلك، هذا يقال له مرتد فطري، والمرتد الفطري يقول العلماء إنه لا تقبل توبته، وهذا ليس على الإطلاق؛ يعني في الظاهر وفي الحياة الدنيا، ولا يقبل المسلمون توبته لأن حكمه في الشريعة الإسلامية أن يقتل، ولكن باطنا - بينه وبين الله - تقبل توبته، فهناك فرق بين الحكم الوضعي الظاهري في الحياة الدنيا وبين الحكم التكليفي في الحياة الأخرى، الحكم الوضعي بالنسبة لهذا الإنسان أن الحاكم الشرعي يحكم عليه بالقتل، ويحكم بأن زوجته قد بانت منه، ويقسم تركته حتى لو لم يتمكن من قتله، ولكن لا يقال إن الله لا يقبل توبته إذا تاب، لا، إذا تاب وادعى التوبة وكان الحاكم الشرعي قد قدر عليه فإن الحاكم الشرعي يؤخر تنفيذ الحد ويعطيه مهلة لقضاء صلاته وصيامه وما فاته من العبادات، الحكم بأن يؤخر حده ويعطى مهلة للقضاء دليل على أن توبته مقبولة في الباطن، وإن كان حده في الدنيا القتل، وليس هو الذنب الوحيد الذي حده في الدنيا القتل، فالزاني المحصن حده في الدنيا القتل، واللاتط المحصن حده في الدنيا القتل، والمفعول به حده في الدنيا القتل، وشارب الخمر بعد أن يجلد ثلاث مرات ثم عاد في المرة الرابعة حكمه القتل، وكثير من الذنوب حدها في الدنيا القتل.

إذاً كون المرتد الفطري حده في الدنيا القتل لا يعني أن توبته عند الله غير مقبولة، ولكن يعني أن المسلمين ينبغي أن لا يعتبروه تائباً ولا يقدمونه في أمورهم، فبعد أن تمضي له سنين يعيش مع الشيوعيين ويناصر الشيوعيين ويدعو للشيوعية، وإذا به بين عشية وضحاها من كبار الملتزمين الذي يدعون للإسلام ويعلمون الإسلام!! ولذلك ورد في النصوص عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام واتفق عليها الفقهاء بأن المرتد الفطري لا تقبل توبته ظاهراً وتقبل توبته باطناً.

فالتوبة إذاً لا يعقل أن توجد ولا تكون مقبولة، ولعلك تقول إن التائب قد يشك في قبول التوبة، نقول إن الشك في قبول التوبة والخوف من العقاب هو علامة التوبة، ومجرد كونه يشك في أن الله قد قبل توبته أو لم يقبلها لا يدل على أن الله لم يقبل توبته، لأن الله سبحانه ما أناط بقبول توبته بجزم العبد عليه بقبولها. بل يقول الإمام الصادق عليه السلام: "من أذنب ذنباً، ثم علم بأن الله يراه وأن من حقه أن يعفو عنه إذا شاء وأن يعاقبه إذا شاء، فقد غفر الله له وإن لم يستغفره". فالخوف من العقاب، إنما هو تسليم بحق المولى في الأخذ بحقه، وهذا هو عين التوبة، وعين الإيمان، فكيف تكون حقيقة الإيمان منافية للتوبة؟

اللهم إجعلنا جميعاً من التوابين، وارض عنا وارحمنا وانصرنا على القوم الظالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

سؤال:.....

جواب: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

الذنوب بالنسبة للبشر ليست على مستوى واحد، والاستغفار أيضاً ليس على مستوى واحد، ورب عمل لو أتاه الإنسان لعد ذلك الإنسان طائعاً، ولعد ذلك الإنسان محسناً، ولكن هذا الفعل بالذات لو فعله إنسان آخر لعد ذلك الإنسان مسيئاً؛ وذلك مثل ما ينبغي تركه بطريق الأولى، طبعاً عندما يرتكب الإنسان العادي ويترك ما يكون الأولى فعله، لا يكون مذنباً ولكن لو أن معصوما ارتكب ما هو خلاف الأولى لعد الله سبحانه وتعالى عليه ذلك ذنباً، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة احتج بها من ذهب إلى عدم عصمة الأنبياء صلى الله عليه وآله مثبتاً لهم الذنوب بها، وهي في الحقيقة ليست إلا من قبيل ترك ما هو أولى، وليست مخالفة للشريعة، ولذلك فالأنبياء صلى الله عليه وآله هم أشد الناس استغفاراً، فإنهم صلى الله عليه وآله عندما ينشغلون في شيء من المباح عن أمر الملة أو الأمة يعدون ذلك ذنباً ويستغفرون منه، مع إنه مثلاً إنما انشغل عن

هذا الأمر بأمر مباح كأكل أو شرب أو حديث أو غير ذلك، فمجرد انشغاله لحظة ما عن أمر الملة التي هو في صدد نشرها أو عن الأمة التي كلف بهدايتها، يعده هو على نفسه ذنباً، فيستغفر منه، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله: "إني لأستغفر في اليوم سبعين مرة - أو برواية أخرى مائة مرة -".

الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ الناس كلهم على قدم المساواة في المؤاخظة، بل هم درجات، ومن ذلك ما ورد في الروايات من أن عقاب العالم الفاجر أشد من عقاب الجاهل، ويضاعف له العذاب ما لا يضاعف لشخص آخر لو ارتكب ذلك الفعل.

فاذاً التوبة وقد طويها نحن الكلام فقلنا إن التوبة واجبة على الجميع في جميع الأحوال، وقلنا إن الوقت لا يتسع للتفصيل، فمثلاً الانشغال بحديث عن ذكر الله سبحانه وتعالى نقص سواء كان لنا أو للمعصومين عليهم السلام، مجرد التوقف لحظة عن ذكر الله وعن التفكير في الله، أي مجرد توقف الفكر لحظة واحدة، هو نقص، بالنسبة لنا هذا النقص قد لا نعهده نقصاً، وأما بالنسبة للمعصوم إذا اشتغل في شيء مباح عن التفكير في الله لحظة واحدة تداركه بالاستغفار والتوبة، وهذا معنى استغفار الانبياء والاصفياء، لا بمعنى أن التوبة ليست عن الذنوب، طبعاً الذنوب متفاوتة.

والمقصود بالتوبة قلنا الرجوع الى الله، والمقصود بها تحصيل القدر الممكن من الكمال بالنسبة إلى العبد، ولا شك أن الدرجة التي يطلبها المعصوم من الكمال أو الذي يصبو إليها المعصوم من الكمال غير الدرجات التي يصبو لها الإنسان العادي من الكمال، فمجرد خلاف الأولى بالنسبة للمعصوم نقص يخاف أن يحجبه عن بلوغ تلك المرتبة من الكمال، بخلاف غيره من سائر الناس، فإنه ربما ترك حتى المستحبات أو ارتكب حتى المكروهات، دون ان يخطر بذهنه ان هذا نقص شديد قد يؤخره عن كثير من المراتب الأخروية، ولذلك ورد في الحديث: "حسنات الأبرار سيئات المتقين".

سؤال: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾¹، ما تفسير هذه الآية الكريمة؟

جواب: المقصود بها النار، ما من أحد من بني آدم إلا يمر بالنار، حتى يفرح أهل الجنة بأنهم ليسوا من أهلها، ولأنك لو لم تعرف نقيض الشيء لا تعرف الشيء، فمن لا يعرف الأبيض، لا يظهر له سواد الأسود، ومن لم ير اللون الأسود مطلقاً، لا يعرف معنى الأبيض، فإن الشيء إنما يحصل بضده. فإذا مر المؤمن بالنار طبعاً لا تحرقه، نفس ورودها لا يعني العذاب فيها. ﴿وَإِنْ

مِنْكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾² ثُمَّ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَنَجَّيْنَا فِيهَا جِبْرَائِيلَ³.

فإذن، قضية الورد لا تعني العذاب، وإنما تعني المرور، فسواء المؤمن والكافر والمعصوم وغير المعصوم كلهم يمرون بالنار، وعندئذ يجتاز المؤمنون إلى جنتهم، بعد ان عاينوا ما يجري في النار، فيحمدون الله ويشكرونه، على أنه لم يجعلهم من أهلها ومن سكنتها وممن يعذب فيها، ويعرفون مقدار الكرامة التي نالوها بسبب طاعتهم، وبسبب فيئهم ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويعرفون مقدار الخسارة والهلاك الذي حل بأولئك الذين خالفوهم في هذه الطريق في الحياة الدنيا.

سؤال: لماذا لا تقبل توبة المرتد الفطري ظاهرياً؟

جواب: أما لماذا فكل ما أقوله لا يعني أنه من أسرار الشرع ومن ملله، وإنما هي تقريبات وتوضيحات، إذ إن المشرع أي مشرع - دع عنك مشرع الإسلام سبحانه وتعالى - حتى المشرعين الوضعيين عندما يضعون قانوناً بحسب المصالح التي يريدون تحقيقها، لا يذكرون في ذيل قوانينهم العلل والأسباب التي من أجلها وضعوا هذا الحكم، مع أن حكمة هؤلاء البشر مثلنا، يحيط بها عقولنا - أي إنهم لو ذكروا عللهم وأسبابهم فلن تكون عقولنا عاجزة عن الإحاطة بحكمتهم - فإنهم بشر مثلنا وربما كان فينا من هو أعلم من واضع القانون، ومع ذلك فواضع القانون الوضعي لا يذكر العلل والأسباب التي دعت إلى وضع الحكم.

¹ مريم: من الآية 71
² مريم: 71-72

فالمشروع الحق وهو الله سبحانه وتعالى أيضا لم يذكر العلة والأسباب الحقيقية التي جعلها لأحكامه، وإنما اختار طريق التعبد والتسليم، نعم لا شك أننا نعتقد بأن الأحكام الشرعية سبقت لتحقيق مصالح ودفع مفسدات عن الخلق، وعندئذ قد نجتهد نحن بعقولنا في معرفة بعض هذه المصالح التي يريد المولى تحقيقها لعباده، أو معرفة بعض هذه المفسدات التي يريد المولى دفعها عن عباده، لكن لا يعني ذلك أنها سر التشريع أو أنها سببه وعلته.

لعل من أهم الأسباب والعلل في هذا الحكم وهو عدم قبول توبة المرتد الفطري ظاهرا أن المرتد عندما يرجع إلى الإسلام، ربما لا يكون رجوعه حقيقياً وإنما يرجع لغرض آخر كنشر بدعته أو على الأقل إخراج الناس من دين الله بطريقة لا يشعرون بها، فيتقصد أثواب القديسين، بحيث لا يترك نافلة إلا فعلها، ولا يوما إلا صامه، وغير ذلك؛ فيغتر به الناس، فإذا قال كلمة اتبعوه، وعندئذ يبدأ في العمل والهدم في جسم المجتمع المسلم وفي صفوف المؤمنين، بل يحاول القذف والقذف في من رد عليه أو عارضه، أو قال للناس احذروا منه أو غير ذلك، وعندئذ يؤدي هذا إلى الفساد، فحسما لمادة الفساد، ودفعاً عن التلبس بقدر الامكان ودفعاً لظاهرة النفاق عن البروز، الله سبحانه وتعالى لعله لبعض هذه الحكم، حكم بأن المرتد لا تقبل توبته ظاهرا وإن كانت رحمته ولطفه لا تجعله يغلق عليه باب التوبة الحقيقية لو كان تائبا حقيقيا فإنه يحصل على درجته الحقيقية في الآخرة، ولكن من يتوب توبة حقيقية لا يتأثر على ما يفوته من الدنيا من جاه أو زعامة أو مكانة أو معرفة أو غير ذلك، فإن من يكون طلبه الآخرة لا يكثر بهذه الأمور، وأما إذا كان يحز في نفسه أنه لماذا لم تقبل توبته ظاهرا فهذا التأثير في نفسه من فوات حطام الدنيا بالنسبة إلى ثواب الآخرة يكشف عن جديته في التوبة.

سؤال:.....

جواب: الحد لا يسقط وإن تاب لأن توبته ظاهرا لا تقبل. نعم لو كان لم يقدر عليه المسلمون، وتاب فلا شك أن توبته أفضل من توبة من تاب بعد أن قدر عليه المسلمون، لكن ليس معنى ذلك أن له أن يتقدم في أمور المسلمين، لا ليس له ذلك.

سؤال: ما مفهوم الشفاعة؟

جواب: الشفاعة هي الوساطة، عند المولى، هذا المعنى المقصود بالشفاعة، وأن الله سبحانه وتعالى كرما منه وإظهارا لكرامته للمطيعين من خلقه جعل لهم الوساطة بينه وبين خلقه في أن يعفو عنهم في حقوقه التي صارت له عليهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم، وهذا هو معنى الشفاعة الشريعة الإسلامية، والنبي صلى الله عليه وآله شفيع المسلمين، أي أنه يشفع للمسلمين يوم القيامة فيشفعه الله فيهم، والأئمة صلوات الله عليهم شفعاء للمسلمين، والأنبياء صلوات الله عليهم شفعاء للمسلمين، والمؤمنون رضي الله عنهم وأرضاهم شفعاء للمسلمين، يقول النبي صلى الله عليه وآله: "إن المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر"، يعني تقبل وساطته وشفاعته عند الله في إخراج جماعة من النار بقدر ربيعة ومضر وطبعا إنما أعطاه هذه الدرجة لإظهار كرامته، وكرامة الطاعة وفضل الطاعة وليس ذلك منافيا لمعنى التوحيد أو لمعنى الربوبية كما يروج له بعض الناس الذين لا يتدبرون في القرآن حق تدبره وكأنهم لم يقرأوا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ امْرَضَى﴾¹، فطبعا من لا يريد الله أن يشفعوا له لا يتشفعون له، وليس المقصود بالشفاعة أنها بدون إذن الله بل نحن نعتقد بالشفاعة وأن الأنبياء يشفعون، والأوصياء يشفعون، والأولياء والمؤمنين يشفعون بإذن الله، الله سبحانه وتعالى يأذن لهم بالشفاعة ولذلك ورد في الحديث المتواتر بين أهل الاسلام من الشيعة والسنة عن النبي صلى الله عليه وآله: "ادخرت شفاعتي للمذنبين من أمتي"، ولم يقل أحد من المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتباين نحلهم بعدم الشفاعة إلا ما ظهر في هذه الأيام من بعض المتحذلقين بالدين وهم لا يعرفون شيئا من حقيقة شريعة المسلمين؛ حيث زعموا أن التقرب إلى الله

¹ الانبياء: من الآية 28

بالأنبياء شرك، وأن التقرب إلى الله بأوليائه شرك، مع أن الله سبحانه وتعالى في نقاشه مع المشركين إنما جاء لهم بشيء قال إنه لم يأذن لهم قالوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زِنْفَى إِنَّ اللَّهَ يَخُكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ¹﴾، فكأنما لو كانت هناك مأذونية من الله بالتقرب إليه بهذه الأصنام لما كان التقرب بها شركاً وإنما صار التقرب بالأصنام شركاً لأن الله لم يأذن بالتقرب إليه بها، فإذا كان التقرب إلى الله بوسيلة من الوسائل عن طريق إذنه، كيف يكون شركاً؟! ومعنى ذلك أن إبليس كان محقاً في رفضه السجود لآدم، لأن السجود هو أظهر معاني العبادة، يعني لا يوجد عبادة ولا خضوع أشد من ظهور السجود فيه، ولذلك عبدة الأصنام ليست لهم صلاة معينة وإنما يسجدون للأصنام إظهاراً لخضوعهم لها، فإذن عندما رفض إبليس أن يسجد إنما التزم بحقيقة التوحيد، فبأي حق صار عدواً لله مطروداً من رحمته إذا كان التقرب إلى الله بالخضوع لغيره ولو عن طريق إذنه شركاً، ولو عن طريق أمره شركاً؟! ولكن من لا يعرف الدين ويتلبس بعلماء المسلمين يفسد أكثر مما يصلح.

سؤال: بالنسبة للمرتد فطرياً، وعدم إقامة الحكم الشرعي عليه في هذه الظروف، فما واجب الأمة المسلمة تجاه هذا المرتد سلوكياً؟

جواب: واجب الناس بطبيعة الحال لا أقول أنهم يعادونه أو يقاتعونه، ولكن واجبهم أن لا يسمحوا له بالدخول في شؤونهم الدينية، وبأن يقدموه أو يزاحموا أو يرضوا بالالتفاف حوله، أو يسمحوا لأولادهم بالالتفاف حوله والذهاب إليه والرجوع إليه بحيث يكون له جماعة تقدره وتقدسه باسم الدين، والحال أنه في الشرع بحسب الحكم الدنيوي الذي يجب تطبيقه على الأرض حكمه أن يقتل.

سؤال: وأولاده؟

جواب: إذا كانوا مسلمين ومؤمنين فهم منا ونحن منهم.

¹ الزمر: من الآية 3

سؤال: ما تعليقكم على ارتكاب الكبيرة مع عدم الوعي؟

جواب: طبعاً لا يرتكب الإنسان الذنب إذا كان واعياً بدينه حتى لو كان يعرف جميع أحكام الشرع، وارتكب الكبيرة ففي حين ارتكابه الكبيرة هو فاقد للوعي، وقد بينا ذلك، وقلنا إن قول النبي صلى الله عليه وآله: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن" أو لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن إلى غيرها من الروايات، إنما تعني عدم تيقنه بمضرة هذا الذنب في آخرته، لأنه لم يصدق أن هذا الذنب يحجبه عن الله سبحانه وتعالى، ولا شك أن عدم هذا التصديق هو عدم وعي حتى لو كان عالماً أو فقيهاً أو فيلسوفاً وارتكب الذنب فهو في حال ارتكابه للذنب ليس واعياً بدينه في تلك اللحظة.

سؤال: حلق اللحية في الأسبوع مرتين مع العلم بتحريمها، هل يعد ذلك من الكبائر؟

جواب: حلق اللحية حرام ولكنه ليس من الكبائر، نعم الإصرار عليه وعدم نية التوبه كبيرة، أما نفس الفعل فليس كبيرة.

إصلاح ذات البين*

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد واله الطيبين الطاهرين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾¹، والإصلاح بين الناس أي السعى لرفع الخلاف الذي يقع بين المؤمنين بعضهم مع بعض وحل التنازع بينهم هو من أفضل ما يتقرب به الإنسان إليه سبحانه وتعالى، ولا إشكال أن البشر مهما سمت ومهما اتسعت مداركهم العقلية ومهما ارتقوا في سلم الخلق فإن أسباب الاختلاف بينهم وأسباب المشاجرة بينهم لا تنتهي، وإذا كان البسطاء يتشاجرون على أمر ربما كان جد بسيط فإن بعض أصحاب الدرجات الراقية سواء في المال أو في العلم أو في الدين أو في السلم الاجتماعي تكون الأسباب التي تسبب الاختلاف والتباعد بينهم أكثر تعقيدا، والخلاف يحصل بسبب وجود عدم التلاؤم بين ما تقتضيه ذات هذا الشخص وما تقتضيه ذات الشخص الثاني، وتبدأ مشكلة الاختلاف بين الناس وهم أطفال؛ فتجد طفلين يختصمان ويصطرعان ويختلفان على لعبة من اللعب، وتتطور الأمور بهما فيختلفان في ملكية دفتر أو قلم، أو في الاختصاص بهذا الفراش أو ذلك الكرسي، ويتطور الحياة تتطور أسباب الخلاف حتى تصل إلى أصحاب الفكر ورجال العلم، ويقع الاختلاف بينهم لا على شيء من حطام الدنيا ولا على شيء من مراتب الآخرة، أما أنه ليس على شيء من حطام الدنيا لأن كل واحد منهما يؤمن أن زيدا لا يتمكن أن يؤثر عليه اجتماعيا أو يسلب منه رزقا أو يحتل عنه مركزا، وإنما سبب الاختلاف هو أنه لا يوافق في ما يذهب إليه من فكر ولا يتفق معه فيما يعتقد به من قول، وبطبيعة الحال الثواب الأخروي لا يصطرعان عليه لأنه مكفول لكل من أخلص لله سبحانه وتعالى في طاعته، هذا نوع الخلاف، ويحصل الخلاف أحيانا بين الأخ وأخيه على شيء من حطام الدنيا، وبين أصحاب الحرف على منافسة في معاملة ما، كل شريحة من شرائح المجتمع أفرادها في البداية يتنافسون، وهذا التنافس يؤدي إلى

* محاضرة ألقاها في 18 شهر رمضان 1412 هـ المصادف 22 مارس 1992م
¹ الأنفال: من الآية 1

الاختلاف، والاختلاف قد لا يكون ضاراً بل قد يكون رحمة، ما رأيك لو اختلف دعاة الباطل وأهل الباطل ألا تكون رحمة بالناس أن يختلفوا؟ بل تكون رحمة بالناس أن يمتشقوا السيوف ويضرب بعضهم بعضاً، فإذن هذا النوع من الاختلاف فيه رحمة، وكذلك لو اختلف الفسقة وتركوا مجلس اجتماعهم واندمج كل منهم في فئة ثلاثه من فئات المؤمنين، هذا الاختلاف يكون رحمة لأنه أنقذهم من مجلس السوء، ولكن أن يقع الخلاف مثلاً بين أخ وأخيه، أو بين زوج وزوجته، أو بين أب وابنه، فهذا طبعاً خلاف مضر، فلا بد إذن أن يتصدى الشارع المقدس بدفع الخارجين والمحايدين في هذا الخلاف إلى التوجه بإصلاح ذات البين، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾¹، وإصلاح ذات البين يكون بالوسائل المشروعة ولا يكون بالوسائل المحرمة، وأحياناً يجوز فيه بعض المخالفات الشرعية إذا كانت هذه المخالفة الشرعية مسموحاً بها في هذا المقام، كما لو تنازع أخوان فذهب شخص ثالث إلى أحدهما وقال له كنت اليوم عند أخيك فلان وقد مدحك وقال كذا وكذا وكذا، وجاء له بمدح، طبعاً كذب هنا، بل ربما كان هذا الرجل لو ذكر له أخوه ربما يلغنه ولا يمدحه، لكن هذا الشخص اختلق كلاماً من عنده ونقله إلى ذلك الأخ؛ بقصد إزالة ما في نفسه من الحدة حتى يتمكن من التقريب بينهما، الكذب حرام في الشريعة المقدسة، ولكن في هذا المورد هذا الكذب مباح، بل يترتب عليه لهذا الكاذب ثواب، فالرواية عن النبي صلى الله عليه وآله: "لا كذب على مصلح"²، وعن الباقر أو الصادق عليهما السلام: "إن الكلام ثلاثة: صدق وكذب وإصلاح، فالصدق هو أن تنقل الشيء كما وقع، والكذب هو الإخبار بخلاف الواقع، والإصلاح هو الكلام من أجل التقريب بين المؤمنين المختلفين، سواء كان مطابقاً للواقع أو مخالفاً للواقع"، وفي الرواية عن أحدهما عليهما السلام: "إن الله أحب الكذب في الإصلاح، وأبغض الصدق في الإفساد"، لأنه لو جلست إلى أحد المختلفين فنال من ذلك الشخص، وذهبت ونقلت إليه ما قال ذلك الشخص، تكون قد نقلت شيئاً قد وقع وتكون صادقاً، لكن الشارع المقدس يطلق على هذا الناقل اسم النمام، وهو الذي ينقل كلمات السوء التي يسمعها

¹ الأنفال: من الآية 1
² الكافي - ج 2 - ص 343 - الشيخ الكليني

من شخص لآخر، ويقول الله سبحانه وتعالى في وصف هذا الإنسان: ﴿هَمَّاكَرٌ مَشَاءٌ بَنِيمٍ﴾¹ منع للخير معتد أئيم² عتلى بعد ذلك نريم¹، ولذلك يقول الإمام عليه السلام: "إن الله أبغض الصدق في الإفساد"، وما وجدنا الله سبحانه وتعالى في القرآن شتم مرتكبا لإحدى الكبائر، بمثل ما شتم النمام، هماز يعني يهمز العداوة بين الناس، مشاء بنميم ينقل إليهم كلمات السوء، منع للخير لأنه بهذا النقل يكون قد سد باب التقارب والتآلف والتحابب بين المؤمنين، معتد أئيم يعني أنه بهذا النقل قد اعتدى على المؤمنين وأفسد ذات بينهم، وأوجر نار العداوة في صفوفهم، ثم تأتي بقية الشتات، فلا توجد كبيرة ورد فيها شتم في القرآن كالصدق في إصلاح ذات البين، وهذا بخلاف الكذب في إصلاح ذات البين، فعلى الرغم من أن الكذب قبيح، وعلى الرغم من أن الكذب في معظم أفراده ومعظم مصداقاته حرام، لكنه في مثل هذا المقام يكون من الأمور السائغة، بل يترتب على ذلك ثواب؛ لأن التآلف والتحابب بين المؤمنين غرض أسمى في الشريعة الإسلامية، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ﴾²، وإذا كانت الجماعة غير متألفة، وغير متعارفة، لا يمكنها أن تتعاون، ولا يمكنها أن تتساند، فإذا تكون مهمة الإصلاح أو مهمة إصلاح ذات البين من المهمات المقدسة في الشريعة، بل في بعض الروايات أن زرارة بن أعين رحمه الله، ذهب ليصلح بين تاجرين كبيرين من تجار الشيعة في الكوفة، وتعسر الإصلاح بينهما إلا أن يدفع فلان كذا ألف دينار، إذا كان يلزم أن يدفع هذه الآلاف من الدينير فهو لا يريد أن يصطح مع صاحبه، فتعهد زرارة بدفع المال إذا اصطلحا، وفعلا أنفذ المال إلى التاجر الثاني وأصلح بينهما، فلما اصطلحا واعتنقا قال لهما أتدريان من أين جئت لكما بهذا المال؟ قالوا: لا، قال: هذا من مال إمامكما عليه السلام، وقد أمرني أن أبذل ماله في الصلح بين شيعته، إذا توقف صلحهما على بذل ماله في ذلك، ولذلك بذلت لك المال الذي اصررت أن لا تصطح مع أخيك إلا به، طبعاً لما سمع ذلك التاجر أرجع المال وبقي على

¹ القلم: 11-13
² الأنفال: من الآية 63

الصلح، لأن أي جماعة لا تكون متألّفة القلوب متعارفة بل تكون على العكس، متناكرة مختلفة مثل هذه الجماعة، لا يمكنها أن تصمد في الهزائن، ولا يتعاون أفرادها في الشدائد، ولا تتكافل فيما بينها عند الحاجة، وبطبيعة الحال لا تستقيم أي جماعة بدون التكافل وبدون التعاون، والاختلاف والتشاجر يمنع من تحقيق هذا الغرض، ولذلك لا بد للشارع أن يهتم بقضية التأليف وإزالة التناكر بين أفراد المجتمع، بل حتى في مقام القضاء، وعلى الرغم من أن القاضي مهمته إزالة الخلاف بالحكم، هذه مهمة القضاء طبعاً، لكن إزالة الخلاف بالحكم، مثل العملية التي فيها قطع يد أو رجل أو بقر بطن أو قلع عين، ويزيل الخلاف، لكن لا يرفع ما في القلوب، القاضي مهمته دائماً حدية كالسيف، يحكم بأن هذا البيت لزيد وليس لعمرو، فيخرج زيد فرحان جذاً ويخرج عمرو شاتماً لاعتنا لذلك القاضي، على أي حال، على الرغم من أن هذه هي مهمة القاضي، إلا أن الله سبحانه وتعالى أحب للقاضي أن يعرض الصلح على المتنازعين قبل المضي في سماع الدعوى، وأنه إذا أمكنه أن يقرب وجهة نظري الطرفين وأن يصلح ذات بينهما، طبعاً يكون خيراً له من الحكم في الدعوى، ولذلك نجد أنه في حالة كون الخلاف بين الزوج والزوجة مثلاً وعادة الخلاف الذي يكون بين الزوج والزوجة يكون غامضاً، لا تظهر فيه الحقيقة، لا الزوج يخبرك بالحقيقة التي من أجلها يتشاجر مع زوجته، ولا الزوجة تخبرك بالحقيقة التي من أجلها تتشاجر مع زوجها، ولا يوجد شهود لما يجري بين الزوج والزوجة في غرفة النوم، وعندئذ تدق المسألة، في هذه الحالة لا يتوصل القاضي إلى حق في هذه المسألة، إذن من الذي يصدق؟ لا الزوج يصدق ولا الزوجة تصدق، يصل إلى الصدق، مع ذلك حتى في هذه الحالة أحب الله للقاضي أنه قبل النظر في قضية الزوج والزوجة والبدء في دعواهما ان يصلح بينهما، وأنه إذا أعيته المذاهب في الصلح، إذا تمكن أن يبعث حكيمين، حكماً من أهلها وحكماً من أهله، أن يختار شخصاً عاقلاً خيراً متديناً من طرف الزوجة، وشخصاً عاقلاً ديناً من طرف الزوج، حتى يختلي كل حَكَمٍ بطرفه ويسأله عن حقيقة ما وقع، ثم يجتمع الطرفان وينظران في الأمر ويقرران إن كان الصلح في بقاء حالة الزوجية أو يكون الصلح في إنهاء الزوجية، فإذا اتفقا على إبقاء

الزوجية أو إنهاء الزوجية، يرفعان ما اتفقا عليه إلى القاضي، والقاضي يقوم بإمضائه، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَابْتَغُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾¹، لكن يشترط في الحكمين أن لا تأخذهما العصبية، وأما لو كان كل حكم من الحكمين، لابد أن يريد لصاحبه أن يكون هو الكاسب، وهذا يريد لصاحبه أن يكون هو الكاسب، فهذان لا يتحقق بهما الغرض، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾²، وأما لو كان كل حكم يريد أن صاحبه هو الذي يغلب وهو الذي يكسب، يكون الأمر حينها شراً من أن يتصادم الاثنان، لأنه إذا كانت العداوة بين اثنين، فستكون العداوة بين عشيرتين، ويكون بعث الحكمين سبباً في إيجاد تشاجر لا بين الفردين كما كان، ولكن بين العائلتين، فحصر الخلاف في فردين أفضل من أن يحصل الخلاف في عشيرتين. فإذا الحياة لا تستقيم على التناكر والاختلاف والتشاجر، وإنما تستقيم على التآلف وعلى التعارف وعلى التحابب، ولا يكون ذلك إلا بالإصلاح بين الناس، ولكن من يريد أن يصلح بين الناس فعليه أولاً أن يصلح نفسه، لأنه لو كان في حد ذاته ليس مصلحاً لنفسه، فإنه لا يتمكن أن يصلح بين الناس، والذي تعود أن لا يتنازل عن شيء من حقوقه لأحد من المسلمين، كيف يستطيع أن يذهب الى اثنين متشاجرين ويطلب من كل منهما أن يتنازل عن شيء من حقوقه للطرف الاخر؟ لا يقدر مثل هذا، بل يعجز، ولذلك اشترط بعض العلماء ومنهم صاحب الحدائق رحمه الله في العدالة أن يكون سهلاً في القضاء والاقتضاء، فلو كان الرجل جامعاً لكل شرائط الإيمان، لكن قضية التنازل عن حق ثابت له هذا لا يمر بخاطره، عند صاحب الحدائق هذا لا يصلح شاهداً، ولا إمام جماعة، ولا إمام جمعة، ولا قاضي، ولا مرجع، لأن من شرائط العدالة عنده وليس فقط عنده بل عند علماء كثيرين أن يكون سهلاً في القضاء والاقتضاء، يعني سهلاً في التسليم بحقوق الغير، متساهلاً في التنازل عن حقوقه، يعني في القضاء يعني إذا كان هو يقضي لغيره، يطالبه بحق، والاقتضاء إذا كان غيره يقتضيه يطالبه بحق، فيكون سهلاً في الطرفين، ولا يحمل في قلبه ولا يتشبث بالأسباب التي تجعل في قلوب المؤمنين عليه غلاً، ولا يحاول أن يوجد الغل في

¹ النساء: من الآية 35
² النساء: من الآية 35

نفسه على أحد من المسلمين من أجل هدف مادي زائل، بل يتنازل ويتسامح، مثل هذا الانسان يتمكن أن يصلح بين سائر الناس، لأن كلامه في طلب التنازل يكون على سجيته وطبيعته، وليس فيه تكلف، فينفذ إلى قلب الطرف الآخر، وأما لو كان ممن لا يتنازل عن شيء من الأشياء يكون له، أو يكون صعباً في تسليم أشياء الناس لهم، فهذا الإنسان لا يمكنه بطبيعة الحال أن يصلح، والنبى صلى الله عليه وآله نهى أن يبيتن مؤمن وفي قلبه مقدار جناح بعوضة على مؤمن آخر، بل عليه أن يصفى نفسه ويصفى قلبه عن كل المؤمنين قبل أن تأخذ عينه النوم، بأن يهبهم كل إساءة وصلت إليه من مسلم أو مؤمن، ونهى صلى الله عليه وآله أن يتقاطع مسلمان أكثر من ثلاث ليال، فإن تقاطعا واستمر تقاطعهما أكثر من ثلاث ليال، كان مقت الله لهما جميعاً، وأيهما سبق صاحبه إلى الصلح والاعتذار وذهب إليه يطلب منه العذر وإن لم يكن هو مسيئاً في حقيقته سبقه إلى الجنة، يقول صلى الله عليه وآله: أسبقكم للاعتذار من صاحبه أسبقكم الى الجنة، كل ذلك من أجل عدم وجود التخالف والتناكر بين أفراد المجتمع، وإحلال التآلف والتعارف والتآزر، وبماذا وصف الله أهل الجنة في الجنة؟ أعداء متدابرين؟ أو قال إخواناً على سرر متقابلين، بل إخوانا ولم يقل أعداء، وبماذا وصف الله أهل الجنة في الجنة؟ أعداء، وأن المسلمين ليطول حسابهما يوم القيامة لسبب أن هذا يطلب هذا بحقه وهذا يطلب هذا بحقه، والله سبحانه وتعالى يغفر ويتوب ويرحم ويهب حقوقه، ولكن حقوق الناس إذا طالب بها الناس، لايد من أخذها لهم، والآن تصور أنك تطالب عشرة آلاف شخص بإساءات، ويطالبك عشرة آلاف شخص بإساءات، تقف على باب محكمة واحدة إلى أن تنتهي من اقتضاء حقوقك على عشرة آلاف شخص، كم يمضي من الزمان وأنت تقف على باب المحكمة حتى تؤدي حقوق عشرة آلاف شخص كم تمضي من الزمان؟ وأنت واقف في عرصات القيامة؟ يعني مئات السنين من أجل أن تقضي حق زيد، ويقضيك عمرو حقك، أليس من الأصلح أن تأتي القيامة لا تطالب أحداً بحق ولا يطالبك أحد بحق، ويبقى فقط ما بينك وبين ربك، فتقصر بذلك حسابك، وتعجل بزهابك إلى الجنة، وأكثر من ذلك لو ابتليت بشخص ليست له حسنات، وهذا الذي ليست له حسنات أظن

أنه يقول لا هذا زيد هذا وأنا أعفو عنه؟ لا، لأنه في ذلك الوقت لا يطمع في أي شيء، فيقول بل أعطوني من حسناته، فإذا أخذوا من حسناتك ولم يبق منها شيء قال خذوا من سيئاتي وضعوها عليه لتخففوا عني. إن الإنسان يجب أن يبقى في النار عدد السنين، فإذا فساد قلوب المسلمين والتاكر بينهم، كما أن فيه أضراراً كبيرة في الدنيا، أقلها أن يتسلط عليهم أعداؤهم، وأن يستذلوهم، وأن ينكلوا بهم لأنهم متتاكرون لا يتعاونون ولا يتآزرون، كذلك له آثاره السيئة في الآخرة، بحيث يطول بذلك حسابهم ولا ينجون والعياذ بالله من دخول النار.

فينبغي للمؤمنين إذا كانا قد تشاجرا أو اختلفا في أمر من الأمور أن يحاولا بكل جهد أن يزيلوا ما بينهما، يعني هذا بعد أن يصفوا أنفسهم ويظهروها ويوطنوا أنفسهم على التساهل في حقوقهم تجاه سائر المؤمنين وتحمل إساءات المؤمنين مع غفرانها، انظروا الى مالك الاشر مثلاً، هذا رجل شيعي، ونحن نقول أيضاً إننا شيعة، لا، هذا سيف أمير المؤمنين عليه السلام ووال من ولاته، ومن الزعماء في العالم الإسلامي، ويكفي أن مصر كلها تدين لسيادته، وقد قاد وفدها في الفتنة الكبرى يوم ذهب إلى المدينة، الزعامة ليست شيئاً سهلاً، وهو ليس إنساناً عادياً، بل إنسان من علية القوم في ذلك الوقت، يمر على سوق الخضارين في الكوفة عاصمة أمير المؤمنين عليه السلام، طبعاً هم عراقيون لا يعرفون والي مصر، شكله شكل مصري، يأخذون الخضار الفاسدة ويضربونه بها، ماذا يفعل مالك الاشر؟ بإمكانه أن يذهب ويرسل صاحب الشرطة ويقبض على الفاعل ويؤدبه تأديباً تاماً، والدولة دولته، والزمان زمانه، لكن ماذا يفعل مالك؟ يسرع إلى أقرب مسجد من السوق، فيدخل ويصلي ركعتين ويقول: اللهم اغفر له فإنه لا يعرفني، فلا يعفو عنه فقط، بل يسأل الله أن يغفر له، وإلا فكيف صلح لأن يكون سيف أمير المؤمنين عليه السلام، وأن يقول له أمير المؤمنين: كنت لي يا مالك كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله، لو كانت نفسيته أنه لا يرضى أن يهينه أحد ولا يرضى... و...، أليس الاجدر بنا ان نفتدي بآبائنا وأسلافنا، أيمتنا صلوات الله وسلامه عليهم، الذين هم أعلى درجة من مالك، وما شرف مالك وما عظم مالك وما ارتفع مالك إلا لأنه صار بواباً على أبوابهم، وخادماً من خدامهم، وسيفاً من

سيوفهم وأين درجة مالك وأين درجتهم، فهذا أحد الذين غرر بهم النواصب في المدينة المنورة، وما أكثر النواصب في المدينة المنورة منذ ذلك اليوم، يمتليء قلبه حقداً على الإمام زين العابدين عليه السلام، بسبب ما يقوله النواصب، فيخرج زين العابدين عليه السلام من المسجد فيتبعه ذلك المغرر فيشتمه، يمشي وراءه ويشتمه، والإمام صلوات الله وسلامه عليه عليه يسير وكأنه لا يسمع، قال ربما أنه لم يعرف أنني أعنيه، فلحقه وقال يا هذا إياك أعني، بكل وقاحة، فماذا أجابه زين العابدين عليه السلام؟ قال: وعنك أعفو، هذا الرجل بهت، فأين ما يقوله هؤلاء الناس من الكلام في هذا الانسان؟ أين تلك الاشياء التي يذيعونها لنا، لقد تبخرت، فيرجع الرجل منكساً رأسه ويقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته، هذا إمام من أئمتنا عليهم السلام، فنحن أيضاً إذا كنا إمامية فلا بد أن نقنطد به، وكذلك النبي صلى الله عليه وآله وما كان يصيبه من الأذى من قومه، وكان بإمكانه أن يدعو عليهم دعاءً بسيطاً فلا يبقى منهم أحد، ماذا كان يقول؟ اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، فإن هذا أيضاً نبينا ورسولنا وسيدنا والذي به فخرنا، والذي به قامت هذه الأمة وتأسست، وفضله علينا إلى يوم القيامة، ألا نقنطد به في هذا الموضوع؟ فإن لا ينبغي للمؤمن أن يبيت وفي قلبه على أخيه المؤمن مقدار جناح بعوضة، ولا ينبغي للمؤمن أن يعلم أن خلافاً وتشاجراً وتناكراً وقع بين مؤمنين وهو يقدر على السعي في إزالة ذلك الخلاف ويترك هذا السعي، وإذا كان يعرف أنه لا يقدر ولكن يعرف أن زيدا يقدر، فلا ينبغي له ألا يذهب إلى زيد ويخبره بأن بين فلان وفلان تشاجراً أو اختلافاً أو تناكراً فلا تغفل عنه ولا تقصر في إزالته، فإن الدال على الخير كفاعله، وله أجر السعي، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

حول آداب ومجالسة العلماء

عن آداب مجالسة العلماء، فلا بأس بالكلام عن آداب المتعلم والمعلم، ونبدأ في ذلك بنبذة في ذكر فضل العلم والعلماء.

ولا شك أن الإنسان بفطرته يدرك شرف العلم وحسنه، كما يدرك قبح الجهل وانخفاض درجته، ويكفي في فضل العلم في هذه الشريعة حث القرآن الكريم والنبى الكريم عليه، حتى أنه صلوات الله وسلامه عليه قال "اطلبوا العلم ولو في الصين"، أي ولو كان في الشقة بينكم وبين موضع تحصيل العلم كالشقة بين بلاد العرب وبلاد الصين، وقال علي عليه الصلاة والسلام: "اطلب العلم من المهد إلى اللحد"، أي لا تتقطع عن قارب العلم، لأن العلم في الحقيقة لا نهاية له، حتى يقول الإنسان إنني قد وصلت إلى منتهى العلم فيكف عن الطلب، بل إن المفروض أن الإنسان كلما تكشفت له أسرار العلوم، وكل ما تبينت له الحقائق، كلما اشتدَّ شغفاً وولها في تحصيلها، وهتك أستارها، وكشف حجاباتها؛ وذلك لأن اللذة الحقيقية في هذه الدنيا ليست إلا لذة الفكر، ولذة المعرفة، وأما سائر ما يناله الناس من المأكل والمشرب، واللباس والنساء والجاه وغير ذلك من أمور الدنيا ففي الحقيقة لا يقال أنها لذة، بدليل أنها تنقضي وتتناقص.

وقد بينا في محاضرات سابقة أنها هي علاجات للآلام، فإذا تناول المريض الدواء وانخفضت درجة الألم يشعر براحة فيظن أنه قد تحصل اللذة، ولكن إذا عاد إلى الطبيعة السوية يشعر بالتنازل السريع من الوصب الذي يصيبه إلى الراحة فيفقد اللذة، فمثلا الإنسان الجائع، أول ما يتناول اللقمة الأولى يشعر بلذة كبيرة فيها، ثم تتنازل لذته في ذلك الطعام لقمة بعد لقمة، ولو كانت لذة حقيقية لازدادت بسبب تذوقها، ولكن في الحقيقة فإن تناول الطعام لما كان دواء لألم الجروح، فهو يشعر بالراحة في إزالة ذلك الألم، وكل ما زال الألم وخفت درجته، كلما قلت رغبته إلى ذلك الدواء لاستغنائه عنه، فإذا شبع انتهت لذته من ذلك الطعام، وكذلك سائر ما في هذه الدنيا في الحقيقة كله ليس إلا أدوية للآلام التي تصيب الإنسان، أما آلام جسمية كالجوع والعطش

والبرد والحر وأمثال ذلك، وإما آلام نفسية كالشعور بالحاجة فيحصل على لذة كبيرة عندما يدخل عليه المال، أو لأن الإنسان باعتبار أن الله سبحانه وتعالى أوجد فيه حباً من ناحية السمو وناحية الرفعة، فهو يطمع دائماً في العلو ويطمع دائماً في الجاه، فهو بسبب ما أودع الله فيه، يحس بألم من هذه الناحية، وإذا صار له نوع وجاهة أو نوع عزة أو نوع كذا، يكون علاجاً لهذا الألم، ولذلك يظنه لذة، والحقيقة أن هذه الأمور، ليست لذة، والدليل على أنها ليست لذة وأن الإنسان يشبع منها، ويزول تذوقها من عنده إذا أكثر منها، بل ربما يحس بألم جديد، من جراء مضاعفتها، فمن يكون نهماً في الأكل فيكثر من الأكل، بعد أن يفرغ يحس بألم الثقل من البطن، فيعمد إلى دواء جديد، أي شيء يزيل عنه ذلك الألم، تراه يجهد نفسه فيما يحصل من المهضومات، أي نوع من المهضم، الذي يسرع في هضم الطعام يستعمله، وما ذلك إلا لأنه لما انهمك في الأكل، وزاد ما أكله عن حاجته وأحس بثقله، أحس بالألم من جديد، ولكن من نوع آخر، كان في السابق يحس بألم الجوع، وأصبح الآن يحس بالتخمة التي هي ألم البطن.

فإذاً في الحقيقة لا توجد مما لدى الإنسان مما اعتاد على استعماله شيء يستحق أن يسمى لذة، اللهم إلا العلم والمعرفة، وهذه الحقيقة هي اللذة في الدنيا، اللذة الحقيقية في الدنيا، ولذلك تجد أن من تذوق طعم العلم، يكون نهماً لا يشبع، لأنه كلما تفتقت له أسرار ذلك العلم كلما ازداد شغفاً وولعاً وحباً، وصبر وثابر على الكد والتحصيل، لماذا؟، لأنه يشعر بلذة، وتبقى هذه اللذة عنده لا تزول، يعني من يدرك حقيقة من الحقائق، ينفرد بإدراكه لتلك الحقيقة، وهذه اللذة لا تزول عنه، لا تزول عنه إذا شبع منها، وقد لا يشبع من تأملها، لا يشبع من التمعن فيها، بل يرغب أن يجد أن لها طرفاً وخيطاً لم يكتشف بعد، يتصل بحقيقة أخرى، فتجده مجداً مثابراً ساهراً صابراً ليتوصل إليه أو ليصيب غير ذلك الخيط المتصل وهكذا يقضي عمره، فإن الذي يكون لذة والذي يمكن الصبر عليه من حين ما يكون الإنسان في مهده إلى أن يصل إلى لحد هو العلم، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، إنما هو إشارة إلى ذلك - إلى أن العلم ليس له حد - وبحر ليس له ساحل، فكلما غاص الإنسان لا يصل إلى قعر، وكلما سبح لا يصل إلى

ساحل، وهذا البحر اللجي في حقيقته هو الذي يمثل اللذة الوحيدة في هذه الحياة الفانية، وليس وراء الفكر ووراء المعرفة ووراء العلم من لذة، هذا أمر محسوس يدركه الإنسان بفطرته، بالإضافة إلى الحض الكثير الوارد عليه، الوارد عليه من النبي صلى الله عليه وآله ومن الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم.

ولا شك أن هذه العلوم -العلوم التي يتمكن الإنسان من السير فيها- أيضا تتفاوت في درجاتها، فكل العلوم شريفة ولا إشكال، كل العلوم شريفة، وكل العلوم مفيدة، وكل العلوم حقيقة بأن تدرس، حرية بأن تدرس وتفصل، ولكن هذه العلوم أيضا تتفاوت في الشرف وتتفاوت في الدرجة، وتتفاوت في الفضل والحسن، فمثلا العلوم التي تتصل بالإنسان لا شك أن مقامها أخطر من العلوم التي تتصل بالمادة، وإن كانت المنجزات التي نشاهدها ومدنيتنا الحاضرة إنما هي منجزات علوم المادة؛ لكن تأثير العلوم المتصلة بالإنسان على الإنسان أخطر من نتائج هذه العلوم المادية، مثلا ببركات هذه العلوم المادية أصبحت حياتنا سهلة وميسرة وبسيطة بما أوجدته هذه العلوم من آلات؛ بسبب التوسع في علم الحيل الصناعية المعروف بعلم الميكانيكا، يعني هذه العلوم كان القدماء -وبهذا السبب أنا ذكرت هذا الاسم- لأن القدماء يجمعون هذه العلوم تحت هذا العنوان [العلم بالحيل الصناعية]، أي كيف يولد الحركة بهذه الطريقة، أو كيف مثلا يجعل الحركة تكون بتلك الطريقة، والسكون يصل إلى هذا الحد، فيحتالون على رفع الأثقال مثلا بآلة، أو قطع الخشب بآلة أو غير ذلك، طبعا هذه كلها من باب التحايل على استخدام بعض القوانين الطبيعية في باب الحيل الصناعية، ولا شك أن مدنيتنا تقوم على منجزات هذه العلوم، ولكنها لا تؤثر في حياتنا ذلك التأثير الشديد إلا عن طريق الحضارة، فلو تركت المدنية وشأنها عندئذ لا يكون لها أي تأثير على الحياة ما لم تقترن بالحضارة. ولكن ربما أكون أغريت في المصطلح، أو ربما يكون كثير من الإخوان لا يفرق بين مدلول لفظ الحضارة ومدلول لفظ المدنية.

المدنية طبعا هي ما يوجد في عصر ما من آلات وأدوات تيسر له سبل العيش والحياة، وتسهل عليه القيام بالأعمال، فبدءا بالسكين الصغيرة، أو الإبرة التي يخاط بها الثوب، أو المسلة

التي يصنع بها الحصير، وانتهاء بالطائرة والصاروخ وغير ذلك، هذه الأمور كلها تسمى مدنية، وأما الحضارة فهي أمر معقد، للمدنية فيه تأثير، ولكن للأديان والعقائد والأفكار والعادات والأنماط السلوكية والتربية والمناخ من كون المناخ مثلاً رطباً أو يابساً، حاراً أو بارداً، مشمساً أو مغيماً، أو غير ذلك كله دخل في تكوين الحضارة، وأضرب لكم مثلاً بشيءٍ طبيعي لا يختلف من عصرٍ لعصر، حقيقةً أن الإنسان يعطش، لكن العطش يحتاج إلى من يروي هذا العطش، طبعاً المدنية تقدم وسائل متعددة، المدنية مثلاً توجد الأدوات التي تخرج بها الماء، والماء سائل يروي العطش، المدنية مثلاً، توجد الوسائل التي تنمي الأبقار فتوجد الحليب والحليب واللبن ومشتقاته كلها سوائل يمكن أن يروي بها العطش، والمدنية أيضاً توجد الأشربة الأخرى كالمركبات المحللة مثل الكولا وغيره وكلها يمكن أن تروي العطش، المدنية أيضاً يمكن أن توجد أنواعاً من السوائل والمشروبات، تضر بالعقل وبالقلب وبالرئة وبالكبد وهذه أيضاً تروي العطش كالخمرة والفقاع المعروف الآن بالبيرة وأمثالها من سائر الأشربة يمكن أيضاً أن تروي العطش، طريقة تناول هذه الأمور لري العطش هو ما تفرضه الحضارة، فمثلاً ربما في ديار من أوروبا يكون شربهم للفقاع أكثر من شربهم للماء، يعني كلما أحس بالعطش كلما سارع إلى شرب الفقاع أي البيرة، لماذا؟ لأن الحضارة التي يعيشونها تحبذ ري العطش بهذه الوسيلة، أكثر من تحبيذها لري العطش بالماء أو الحليب ومشتقاته، وربما مثلاً في بلادٍ أخرى تكون الحضارة تروي العطش بوسائل أخرى، فإذن طريقة تناول بهذه الطريقة هي التي تسمى بالحضارة، وحتى الآلات وحتى الأدوات وطريقة استعمالها تعود إلى الحضارة، ووجودها يعود إلى المدنية، فمثلاً الملعقة، الملعقة باعتبارها أنيةً مصنوعة فهي من نتائج المدنية، طريقة استعمالها ومواضع استعمالها يعود إلى الحضارة، هذا الفرق بين الحضارة وبين المدنية.

في الحقيقة أن العلم الإنساني أو العلوم المتعلقة بالإنسان هي العماد الفاعل المؤثر في الحضارة، فمثلاً العلوم المتعلقة بما يسمى بعلم النفس مثلاً، أو علم القانون أو علم الاجتماع أو علم السياسة أو علم الدين أو غيره، أو دراسة الفلسفة بمختلف مذهبها، أي أن تأثير هذه العلوم

على الحضارة أكثر من تأثير المدنية على الحضارة، فمثلاً لو فرضنا في مجتمع يسوده الإسلام مائة بالمائة، وليست فيه عادات غريبة على الإسلام يمكن أن تتناول جميع ما أنتجته المدنية ولكن بطريقة مختلفة تماماً عن مجتمع آخر لا يدين بالإسلام أو لا يصل إلى درجة عليا من التمسك بالإسلام، وهنا مثلاً يكون للدين بطبيعة الحال تأثير كبير على استعمال تلك الآلة، فإذن تأثير الدين في الحضارة يكون أكثر من تأثير تلك الآلة، وهكذا سائر العلوم الإنسانية، كلها لها تأثير في صياغة العقلية البشرية وصياغة الأنماط السلوكية للبشر أكثر من التأثير المادي لمعطيات العلوم المادية، فلا شك أن الإنسان أشرف بكثير من العلوم المتعلقة بالمادة.

وإذا جئنا إلى العلوم المتعلقة بالإنسان أيضاً تجدها تتفاوت في الفضل والشرف والرفعة علماً عن علم، فلا يوجد مثلاً من يقول إن علم الطب ليس بأشرف مثلاً من علم الاجتماع، لا أحد يقدر أن يقول هذا الكلام، لماذا؟، لأن ما يقدمه الطب من خدمة للإنسان لحفظ أصل وجوده فوق هذه الأرض أكثر مما يقدمه علماء الاجتماع، وإن كان في الحقيقة أن الطب إنما أيضاً هو وجه من وجوه نشاطات المجتمع الإسلامي وليس معطيات فردية، كذلك ما تقدمه الأديان أو ما يقدمه الدين إلى الإنسان باعتباره يقدم له حياته الدنيا وبدله على ما ينبغي له أن يفعله ليسعد في حياته الأخرى، لا إشكال أنه لا يقارن بسائر العلوم الأخرى المتصلة بالإنسان، أو التي تبحث ويكون مادة بحثها هو الإنسان ذاته، فلذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله: "العلم علمان، علم الأديان وعلم الأبدان" أيضاً هذان العلمان ليسا في درجة واحدة، وإن كان كل منهما يتعلق بالإنسان أتم التعلق، ويقدم له الأمور الضرورية للحياة الدنيا، لكن لما كان أثر الطب منحصراً في خصوص الدنيا، وعلم الدين يسري أيضاً وله نتائج لا تنحصر في هذه الحياة الدنيا، وإنما أيضاً تصل إلى الآخرة فلا شك أن علم الدين أيضاً أشرف من علم الطب باعتبار أن نتائج وموضع الاستفادة من نتائجه، أرحب وأوسع وأعم واشمل، غاية ما يتمكن علم الطب مثلاً، أن يقدمه هو تدبير الأجسام أو علم تدبير الصحة، غاية ما يتمكن هذان العلمان عليه هو أن يجعل الإنسان يعيش في الدنيا خالياً من الآلام بقدر الإمكان، ولكن لا يستطيع أن يجعل شيئاً تجاه ذلك بالنسبة للحياة الآخرة،

وأما علم الدين فكما أنه ينظم للإنسان طرق حياته في الدنيا، ويجعله في الدنيا بقدر المستطاع سعيداً وآمناً، فإنه أيضاً يفتح له باب التعامل الذي يؤدي به إلى حياة مستقرة وسعيدة وآمنة في الآخرة، فإذاً تكون نتيجته أعمّ، ومجال الاستفادة منه أرحب، فإذا كان كذلك يكون أشرف.

وعلم الدين أيضاً لما كان علوماً متعددة أيضاً فبعضها لا شك أشرف من بعض، وذلك بسبب اختلاف الموضوعات التي تبحثها هذه العلوم، ولا شك أن المعرفة بالله سبحانه وتعالى هي أشرف من كافة العلوم، أي أن العلم الذي يبحث عن معرفة الله وعن معرفة ملائكته وكتبه ورسله وعن معرفة تفصيلية باليوم الآخر والحياة الآخروية، لما كان موضوعه أشرف الموضوعات ونتيجته أخطر النتائج؛ التي لها التأثير التام في حياة الإنسان، في الحياة الدنيا وحياته الأخرى فلاشك أنه يكون أشرف العلوم وأخطر العلوم، ففضية العلم وإن كانت شريفة كلها ولكن علم الدين هو أشرف العلوم وأفضل العلوم، ويأتي في فضله أن الله سبحانه وتعالى جعل للعلماء، أو مدح العلماء في كتابه مدحاً لم يمدح به أحداً من خلقه.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾¹. ولا شك أن ما يُنجي يوم القيامة، إنما هو خشية الله سبحانه وتعالى، وأيضاً جعل للعلماء من مقام ومن إجلال ومن إكرام ما لم يجعله لأحد، حتى أنه أمر الناس بأن يبجلوهم ويجعلوهم صدر المجالس، ولا يزاحموهم، بل لو دخل أحد العلماء إلى مجلس وكان ذلك المجلس مكتظاً ألزم سبحانه وتعالى المؤمنين بأن ينشروا من صدر المجلس ويفرغوه لذلك العالم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾²، ولا شك أن هذا التبريل وهذا الإجلال إنما هو لأجل العلم الذي يحملوه؛ لأجل العلم بمعرفة الله سبحانه وتعالى، والعلم بأحكامه جل وعلا، وإلا لو دخل أحد علماء الأنساب، عالم بالنسب علامة، أي أن يكون عارفاً بالأنساب وتسلسل العشائر وبطونها وهذا يسميه العرب علامة؛ لا يأمر له بهذا التبريل، وإنما يأمر له بهذا التبريل إذا كان يحمل العلم الرباني، العلم الإلهي، العلم بالله، ومعرفة الله، والعلم بأحكام الله، وحتى أنه في تصريح من النبي صلى الله عليه وآله صار العلماء ورثة الأنبياء العلماء، هم ورثة الأنبياء وذلك

¹ فاطر: من الآية 28
² المجادلة: من الآية 11

كما في الحديث: "إن الأنبياء لا يورثون ذهاباً ولا فضة وإنما يورثون أحاديث من أخذ بها فهو وارثهم"، ومن ذلك المشهور من قول نبينا صلوات الله وسلامه عليه "العلماء ورثة الأنبياء" ولا شك أنها وراثة شريفة لا تعطى لأحد مجاناً.

ولقائل أن يقول وأين أنت مما كان يفعله صلى الله عليه وآله؟ أليس هو أعلم العلماء على الإطلاق ولقد كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، أين أنت من هذا الحديث؟ نقول بلى هذه أخلاق سيدنا ونبينا صلى الله عليه وآله كان يجلس حيث ينتهي به المجلس تواضعاً منه، لا أن الله لم يجعل له الحق في وجوب الخصوص والإجلال والإكرام، بل تواضعاً منه من جهة وتعليماً لأولئك المتكبرين أولي الخيلاء والجبروت الذين يحوطون به من جهة أخرى؛ وذلك لأنه صلوات الله وسلامه عليه وآله كان يعيش بين قومٍ ربوا بالجاهلية، وعاشوا في الجاهلية، ودخلوا الإسلام في أواسط أعمارهم أو أواخر أعمارهم في الأعم الأغلب منهم؛ ولذلك فهم مخضرمون حديثو عهد بجاهلية، ولقد كان العرب في الجاهلية أولي خيلاء وأولي جبروت، وأولي ترفع؛ حتى أن السبحة من الجواهر الثمين تسقط من أحدهم في الطريق فلا ينحني لها ليأخذها، بل يتركها وينصرف للبيت تكبراً من أن يراه الناس قد انحنى، وبعد ذلك يرسل العبد فإن وجدها وإلا فإنه لا يكثرث، فأراد صلى الله عليه وآله أن يعلمهم التواضع في كل باب، فكان يتنازل عن حقه لهذا الهدف الرفيع، فمن جهة أنه تواضع لله سبحانه وتعالى، ومن جهة يفعله تعليماً لأولئك المتكبرين الذين دخلوا الإسلام بعد أن تغلغت هذه العادات في نفوسهم، وأراد صلى الله عليه وآله أن يزيلها حتى لا يتزاحموا على صدر المجلس، فإذا كان صلى الله عليه وآله يجلس حيث انتهى به المجلس لا يكون للمجلس صدر معلوم يتزاحمون عليه ويتكثفون حوله، لأنهم إذا عرفوا أن هذه الجهة هي صدر المجلس الذي يجلس فيها النبي صلى الله عليه وآله فلا شك أن أصحاب الخيلاء والجبروت الذين يحبون السمعة والرفعة في أعين الناس سيتزاحمون ويتكثفون على تلك الجهة، وإذا هو جلس حيث انتهى به المجلس لا يعرفون أين سيكون جلسوا في أي مكان، ولقد رأى هؤلاء الضعيفو النفوس الذين تربوا على الخيلاء والجبروت أن الاقتراب من النبي والجلوس عنده مركز شرف لا

يمكن أن يفوتهم في أعين الناس، فأخذ كل منهم يضيق من المجلس ويأتي ويجلس بالقرب منه صلى الله عليه وآله ويساره حتى يقول الناس الضعفاء الفقراء هذا رجل عظيم، هذا ممن يساره النبي صلى الله عليه وآله، فإذن هو من خاصته وبطانته وله المحبة عنده.

فالله سبحانه وتعالى أراد أن يفضح هؤلاء، وأمر بأن لا يسارَ النبي أحد إلا ويقدم بين يدي نجواه صدقة، ويدفع مالا، فهذا يشق عليهم؛ فهم يحبون الجاه ولكن لا يريدون جاها يكلفهم أموالا، فانقطعوا عن ذلك، ولكن جاء عليّ عليه السلام لأمر مهم يريد من النبي صلى الله عليه وآله، وقرئت عليه الآية فتصدق وناجى النبي صلى الله عليه وآله، ولم يتصدق أحد غيره، على أي حال لأن الله سبحانه وتعالى أوقف طلاب الجاه من أن يستغلوا تواضع رسوله في نفوس الضعفاء، فإذن كان ما يفعله النبي صلى الله عليه وآله إنما هو لإزالة هذه الأمور، وإلا فالآية القرآنية صريحة في أن للعلماء صدر المجلس: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَاَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾¹.

فإذاً فضل العلماء في هذه الشريعة عظيم جداً، هذا بالنسبة إلى العلماء، ولكن ما هو فضل طالب العلم؟ ما هو الفضل الذي جعله الله سبحانه وتعالى لطالب العلم، نأتي عليه في الأسبوع الآتي إن شاء الله.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

¹ المجادلة: من الآية 11

فضل العلماء ودرجاتهم*

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين،
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

قال سبحانه وتعالى في كتابه المجيد: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾¹،

وقال النبي صلى الله عليه وآله: "فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناكم".

والمقصود بالعالم في مجمل الآيات والروايات الواردة ليس مطلق العالم، وإنما العلماء أو العالم الذي يكون عالماً بأحكام الله سبحانه وتعالى، أي العالم بالعلم الديني الإلهي سواء كان هذا العالم من علماء الفقه الأكبر أو من علماء الفقه الأصغر، ولا إشكال أن العلم أو العالم بالفقه الأكبر أفضل من العالم بالفقه الأصغر وأعتقد أننا شرحنا هذه المصطلحات في سنوات ماضية ولكن إيجازاً نقول إن المقصود بالفقه الأكبر هو العلم المتعلق بمعرفة الله سبحانه وتعالى، والعلم أو الفقه الأصغر هو العلم المتعلق بأحكام الله سبحانه وتعالى، وسمي العلم المتعلق بمعرفة الله سبحانه وتعالى بالفقه الأكبر لأمرين: الأمر الأول لأنه الأساس الذي ينبني عليه الفقه الأصغر، وثانياً لأنه علم أخروي محض لا يمكن استئصال الدنيا به ولا استجلاب الدنيا به؛ فتجد أن العلم بالله سبحانه وتعالى ليس ميزة معروفة ظاهرة عند الناس أن فلاناً يعرف الله سبحانه وتعالى أكثر من معرفة زيد، أو أن بكرةً يعرف الله معرفة أعمق من معرفة خالد، لا، العلم الأكبر يكون في القلب، ومن أجل ذلك لا يحصل عليه صاحبه في الدنيا جاهاً ولا مالا ولا منصباً ولا غير ذلك، ولأجل هذا صار العلم به سبحانه وتعالى علماً أخروبياً محضاً، ولا إشكال أنه من هذه الناحية أيضاً يكون فضله أعظم ويكون أكبر.

والنوع الثاني من العلم قلنا إنه الفقه الأصغر، وهو العلم بأحكامه سبحانه وتعالى؛ كالعلم بأحكام الطهارة بجميع أقسامها وأحكام العبادات من الصلاة والصوم والزكاة والحج وأحكام

* محاضرة ألقاها في 11 شهر رمضان 1413 هـ المصادف 5 / 4 / 1993 م
¹ الزمر: من الآية 9

المعاملات من البيع والشراء، وأحكام العقود هذه كلها يطلق عليها في مصطلح المتكلمين بالفقه الأصغر، وسميت بالفقه الأصغر لأن منزلتها في الدين أقل من منزلة الفقه الأكبر من ناحية، ولأنها كالسكين والسيف يمكن أن يستعمل للخير ويمكن أن يستعمل للشر، فالسيف مثلا يمكن أن يستخدمه الإنسان ليدافع به عن الحق، ويمكن أن يستعمله الإنسان ويحارب به الحق، الفقه الأصغر كما يستجلب به رضا الله سبحانه وتعالى وكما تستجلب به الدار الآخرة، فكذلك ربما تستجلب به الزعامة والجاه في الدنيا، والمال في الدنيا، وغير ذلك، ومن أجل ذلك لا تكون درجته كدرجة الفقه الأكبر.

على أي حال فإنه يشترط في كلا العلمين أن يكون طلبه ودراسته متقربا به إلى الله، وإلا فلا يستحق طالب العلم أو العالم سواء بالفقه الأكبر أو الفقه الأصغر أن يسمى عالما، أو أن يسمى فقيها، وإنما يسمى بذلك في الحقيقة إذا كان طلبه لذلك العلم لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى، ويقصد حصول المثوبة من الله سبحانه وتعالى، والعالم سواء بهذا العلم أو هذا العلم يقول عنه النبي صلى الله عليه وآله: "فضله على سائر الناس كفضلي على أدناكم"، يعني كفضل النبي صلى الله عليه وآله على أقل الأمة.

ولهذا فإن للعالم موقعا وحقا ألزم الإسلام الأمة به؛ من وجوب الاحترام والتقدير والتبجيل والطاعة وغير ذلك، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ¹﴾، فمثلا في مقام الجلوس وفي المجالس يلزم الناس أن يجعلوا صدر المجلس للعلماء لأن الله سبحانه وتعالى أمر برفع درجتهم في مثل هذه الأمور، وهذا نوع من التكريم، والعلماء الحقيقيون هم ورثة الأنبياء، يقول النبي صلى الله عليه وآله: "إن الأنبياء لا يورثون درهما ولا دينارا ولكنهم تركوا علما فمن أخذ بشيء من هذا العلم أخذ به النصيب الأكبر". وفي رواية أخرى: "اللهم ارحم خلفاءنا..... قيل له: يا رسول الله وما خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون بعدي يروون سنتي".

¹ المجادلة: 11

فإذا العلماء باعتبارهم يروون سنة النبي صلى الله عليه وآله هم خلفاء النبي، وطبعا الخلافة-خلافة النبي صلى الله عليه وآله- درجات أبرزها مصداقا وأظهرها فردا هو العالم الحقيقي بالله وبأحكام الله وهو الإمام المعصوم، هذا هو أظهر مصاديق الخلفاء للنبي صلى الله عليه وآله، ويليه من بعده الأمثل فالأمثل من رواة حديثه وحملة سنته، فكلما كانت رواية العالم بسنة محمد صلى الله عليه وآله أكثر وكلما كان إدراكه وفقهه في كلام محمد صلى الله عليه وآله أعمق كلما كان أقرب في سلم الخلافة من غيره، فإذا مناط الخلافة هنا في الحقيقة هو مناط الرواية، فالرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وحمل سنته ونقلها إلى الأجيال الآتية من أمته، وتغطية نفوس الناس في زمن ذلك العالم الذي يسمى خليفة بهذه السنة المحمدية هو معنى الخلافة عن النبي صلى الله عليه وآله، ومن أجل ذلك شبهه صلى الله عليه وآله بأنبياء بني إسرائيل فقال: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل". ووجه التشبيه هنا يحتمل أن يكون بسبب كثرتهم يعني أن علماء الأمة في كثرتهم كأنبياء بني إسرائيل في الكثرة، ويحتمل أن يكون أن وظيفتهم في الأمة هي وظيفة الأنبياء في بني إسرائيل؛ لأن وظيفة الأنبياء في بني إسرائيل؛ هي حمل الرسالة العامة؛ يعني كرسالة موسى عليه السلام أو رسالة داود عليه السلام أو رسالة عيسى عليه السلام وبثها في الناس وحفظها والحكم بها والعمل بها.

وطبعا إذا جئنا إلى الأمة الإسلامية نجد أن هذه الوظائف هي وظيفة العلماء فيها؛ فعليهم أن يحملوا رسالة محمد صلى الله عليه وآله، وأن يبثوها في الناس، وأن يحفظوها من التلاعب، ومن الضياع، ومن التحريف، ومن التزوير، وأن يحكموا بها بين الناس، فتكون المشابهة من هذه الجهة، أي من حيث الوظيفة، والحقيقة أن كلا الاحتمالين واقع، فالعلماء في الأمة الإسلامية بلغوا في الكثرة كأنبياء بني إسرائيل أو أكثر، ومن حيث الوظيفة هم متفقون، فتشبيبه صلى الله عليه وآله العلماء بأنهم كأنبياء بني إسرائيل منطبق على ذلك، وهنا ظريفة أود أن أذكرها ليست في مقام الاحتجاج ولكن خطرت ببالي هذه الظريفة، يقال إن أحد العلماء رأى فيما يرى النائم النبي صلى الله عليه وآله ومعه موسى بن عمران، فقال موسى بن عمران عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة

والسلام للنبي صلى الله عليه وآله هذا من علماء أمتك؟ قال: نعم، قال: أسأله بمسائل؟ قال: أسأله، فسأله في مسألة فقال ذلك العالم الجواب فقال له ما أكثر إطالتكم الجواب يا علماء أمة محمد، فقال: نحن نطيل الجواب ولكن ليس مع الله سبحانه وتعالى والحال أنك يا موسى سألك الله سؤالاً صغيراً محدوداً أظنبت له في الإجابة كأنه لا يعلم، سألك ماذا بيدك فلم تكف أن تقول إنها عصاي حتى قلت: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾¹، فإذن نحن نطيل الجواب مع الناس المخلوقين وأنت يا موسى أطلت الجواب في سؤالك مع الله سبحانه وتعالى.

على أي حال هذه مجرد ظريفة لتلطيف الجو، ومعروف أن أجوبة علماء أمة محمد فيها إطالة واستدلالات طويلة وعريضة، طبعاً هذا إذا دل على شيء فإنما يدل على مدى عمق الإدراك للعلم، وعلى مدى التفتح على الموضوعات بحيث يطيل الإنسان فيها ويوضحها ويشرحها من جميع الجوانب محاولاً أن يتلافى كل إشكال يحتمل، وكل إبهام يحتمل.

على أي حال والعلماء في هذه الأمة وظيفتهم ظاهرة وهي حمل سنة محمد صلى الله عليه وآله، وبنها إلى الناس، وكذلك الأئمة عليهم الصلاة والسلام أمروا بتقدير العلماء باعتبارهم حملة لهذه السنة، يقول الإمام الصادق عليه السلام: "عرفوا منازل الرجال بقدر روايتهم عنا"، يعني كلما كان أكثر رواية عنهم كلما كان ينبغي أن يزيد فضله عند الناس، وكلما كان ينبغي أن يجل تقديره عند الناس، بل حتى أنهم صلوات الله وسلامه عليهم في إرجاع الناس إلى العلماء دائماً يشترطون الرواية، وبدون الرواية لا يكون إرجاع، وحتى الإمام المهدي عليه السلام في توقيعه الصادر الذي قال فيه: "وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله".

فإذن دور العالم في حقيقته وحتى يكون خليفة عن النبي صلى الله عليه وآله وخليفة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام أن يكون راوياً لحديثهم حاملاً لسنتهم، عاملاً بأحكامهم، هذه هي وظيفة العالم وطبعاً وظيفة الأمة بالنسبة إلى هذا العالم هي الإجلال والإعزاز والالتفاف حوله وتقديره وطاعته، ولكن ينبغي دائماً في هذه الحالة أن يكون العالم قائماً بوظيفته حتى تقوم له

¹ طه: من الآية 18

الأمة بهذا الواجب، فمتى تخلى العالم - والعياذ بالله - لو فرضنا - وإن كان ذلك لم يحصل عندنا والله الحمد أن تخلى أي عالم عن وظيفته - ولكن نقول: لو حصل أن تخلى العالم عن وظيفته لا تبقى له تلك الحقوق التي اشترطها النبي صلى الله عليه وآله على أمته للعالم، بل هذا كما قال فيه الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾¹، وطبعا هذا الرجل من اليهود، وهذه الآية نزلت في شخص من اليهود كان أعطي بعض العلم، ويقال إن الله سبحانه وتعالى أعطاه حرفا واحدا من حروف الاسم الأعظم الذي إذا دعا به أي إنسان تستجاب له الدعوة فورا، فاتفق أن ملكا من بني إسرائيل فسق عن أمر ربه وأخذ يحارب الأنبياء الموجودين في دولته لأنهم يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ولأنه لا يستطيع أن يتغلب عليهم فجاء إلى هذا الرجل وقال له: ما رأيك أن تدعو على هؤلاء القوم، بما أن الله قد أعطاك حرفا من الاسم الأعظم فادع عليهم ربك وأرحنا منهم، فوافقه الرجل وقال: أخرج إنشاء الله بين الصفين وأدعو عليهم، فخرج فكلما أراد أن يدعو عليهم ترجع دعوته على الملك وأتباعه وتحل المصائب، فيقول له توقف فكلما أراد أن يقف لا يستطيع لأن لسانه قد انطلق بالدعوة إلى أن فني أولئك فأدخله الله النار بما آتاه من العلم، لأن العلم إذا لم يقم به العالم ينقلب حجة عليه، ولذلك في الدعاء ﴿اللهم اجعل علمي حجة لي ولا تجعل علمي حجة علي﴾.

والعالم الذي يستقيم بعلمه فإن نوره يسعى بين يديه يوم القيام، وعندما أقول العالم لا تظنوا أنني أقصد خاصة من أظهر نفسه بصفة العالم بل كل واحد منا إذا علم مقدارا من العلم ورأى من يجله ولم يعلمه يكون قد كتم العلم، وإذا علم شيئا من الدين ولم يعمل به وأهمله يكون كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾²، بل إن العلماء درجات، العالم الذي يعرف مسألة واحدة عالم بالنسبة لمن لا يعرفها وهكذا تترقى الحالات، وهذا الواجب، واجب القيام بدور العالم على كل من علم، وطبعا التعليم وبث الوعي فيه ثواب كبير، يقول الإمام الصادق عليه السلام: "من علم شيئا كان له أجر من عمل به إلى يوم القيامة،

¹ الأعراف: من الآية 175
² الجمعة: من الآية 5

قيل: وإن مات؟، قال: وإن مات جرى له مثل ذلك". فإذا علم الإنسان أو أفتى الفقيه بفتوى وعمل بها الناس، فإن هذا الفقيه يشارك كل فرد عمل بهذه الفتوى، حتى أنه إذا جاء إنسان بعد موت الفقيه بألف سنة وعمل بهذه الفتوى فإنه يشارك الفقيه العامل بعد ألف سنة في ثواب العمل بتلك الفتوى، لأن الإمام عليه السلام يقول: "من علم شيئاً كان له أجر من عمل به إلى يوم القيامة، وقال السائل: وإن مات؟، قال: نعم وإن مات جرى له مثل ذلك".

وعن الصادق عليه السلام: "من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"، ولأي إنسان أن يشكل على هذه الرواية، من باب أن الله يعطي ثواب العامل لمن سن السنة بعد موته تفضلاً من الله، لكن أن يحمله وزر من عمل بتلك السنة بعد موت الذي سنها بأي مناه؟ والحال أنه مثلاً لا يجوز تقليد الميت، نقول أن تحميله الوزر في من عمل بالبدعة التي أبدعها بعد موته دليل على جواز تقليده بعد موته، لأنه إذا كان لا يجوز تقليده بعد موته فإنه لا يحمل شيئاً بعد موته، وربما أن الله يتفضل ويعطيه ثواب العاملين بفتواه لا بأس، ولكن المنافي للعدل هو أنه لا يجوز تقليده ثم يحمل وزر من عمل بتلك البدعة التي ابتدعها في فتواه!! كما لو ابتدع عبادة، أو ابتدع شيئاً ثم يحمل بعد موته، كما ورد أن بعض الناس الذين كانوا في زمان النبي صلى الله عليه وآله يحملون عمل الأمة أو كل أخطاء الأمة يوم القيامة والحال أنه لا يجوز اتباعهم بعد موتهم.

على أي حال فإن العالم موقعه في الأمة خطير جداً، فكما أن باب الثواب وباب العمل مفتوح له بعد موته فكذاك المسؤولية على كاهله ولو بعد موته، وطبعاً إنما صار العالم بهذه المثابة من بقاء الشخصية حية أبد الآبدين ودهر الداهرين تتحمل المسؤولية وتحصل الثواب فإنما هو لإكبار الله لها، وإجلال الله لها، ولتعظيم الله لها جعلها حية - الناس موتى وأهل العلم أحياء - في بعض الروايات: "أجسادهم مفقودة وأعيانهم موجودة"، يعني لا يفقد منه إلا جسده ولكن عينه موجود، ويقول النبي صلى الله عليه وآله: "يموت المرء إلا من ثلاث: ولد بار يستغفر له بعد مماته، وصدقة جارية له في حياته فهي تجري له بعد مماته، وكتاب علم ينتفع به". وفي لسان

رواية أخرى "يعمل به"، فبقيت شخصيته حية مستديمة تحصل الثواب وتتحمل المسؤولية كما لو كان بين أظهر الناس، وهذا منصب خطير، ومقام جليل يضع الله سبحانه وتعالى ورسوله وأهل البيت فيه العالم.

وإذا كان بهذه المثابة عند الله سبحانه وتعالى وعند رسوله والأئمة فواجب الناس أيضا هو الالتفاف حول ذلك العالم، وطاعته، وتقديره، ليس لشخصه أنه زيد بن أرقم، ولكن لكونه خليفة من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكونه خليفة من خلفاء أمير المؤمنين عليه السلام، ولكونه خليفة من خلفاء الأئمة المعصومين عليهم السلام ولكونه خليفة من خلفاء المهدي (عج)، -"فإنه خليفتي عليكم وأنا حجة الله"- فكما أن الإمام المهدي (عج) هو الحجة بيننا وبين الله فكذلك هذا العالم الذي يروي حديثهم ويعمل بأحكامهم ويثبت شيعتهم ويربي أيتامهم هو حجتهم على سائر الشيعة، الذي يكون حجة بينك وبين إمامك ينبغي أن توقره وأن تعززه، وأن تحبه، وأن لا تكون ضده، أو محاربا له، أو غير ذلك، بالإضافة إلى أنه بدون التقاف الأمة بالعلماء لا تستقيم للإسلام قائمة، أتظنون أن السواد على البياض -القرآن بذاته- يكفي؟، لا، لا يكفي، لو كان أن القرآن بذاته يكفي لكان جعل الإمام وتنصيب الإمام عبثاً بعد إكمال إنزال القرآن، فالإسلام لا يستقيم إلا بالخليفة المعصوم، ولا يستقيم إلا بالعالم الذي هو الخليفة غير المعصوم حتى يحصل التقاف الناس بالإمام عن طريق التقافهم بالعلماء الذين يحملون أحكام الإمام وروايات الإمام وما يريده الإمام.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

﴿ الباب الثالث ﴾

الفقه

مناصب الفقيه *

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين،
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

تنتهي الزعامة الدينية في زمن الغيبة للشيععة الإمامية إلى الفقيه الجامع لشرائط الفتيا،
والمقصود بالفقيه هو الشخص القادر على استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية
الموضوعة من قبل الشارع المقدس، والفقيه هذا له ثلاثة مناصب، المنصب الأول هو أنه يعمل
بعلمه ولا يتبع أحداً غيره، كأحد من الفقهاء أو غيره، وهذا أمر طبيعي فكل عالم في علم إنما يتبع
علمه ولا يتبع سائر العلماء المتخصصين في ذلك العلم، لأنه بعد ادعائه أن الواقع قد انكشف له
وأن الحق في القضية هو هذا القول، لا نستطيع أن نقنعه بقول غيره الذي يراه خطأً، والمنصب
الثاني هو عمل الناس بقوله، أي رجوع الناس له، وعملهم طبق فتواه، وهذا أيضاً جارٍ على
المتعارف عند العقلاء، وهو أن كل جاهل بعلم من العلوم يرجع فيها إلى العارف بذلك العلم، فغير
الطبيب يرجع في فن الطبابة إلى الطبيب، وغير المهندس يرجع في فن الهندسة إلى المهندس
وغير ذلك، والشارع المقدس أقر هذا البناء العقلائي الذي سار عليه الناس، فأجاز رجوع العوام -
الذين لم يتخصصوا في الفقه- إلى الفقيه الجامع لشرائط الفتيا، وقد وردت الرخصة بذلك في
التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام "وأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه
مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه" فسواء جعلنا اللام هنا بمعنى الرخصة أو جعلناها
بمعنى على فتعني الوجوب، على أي حال هذا أمر عقلائي والشارع المقدس إنما أقره، والمنصب
الثالث هو الحكم بين الناس، فله أن يحكم بين الناس، وأن يفصل الخصومات الواقعة بين الناس،
وقد عين من قبل الشارع المقدس ليكون حاكماً كما ورد في مقبولة ابن حنظلة "إذا وقع بينكم
شجار في دين أو ميراث فلا تترافعوا إلى حكام الجور ولكن انظروا إلى رجل منكم قد روى حديثنا

وعرف أحكامنا ونظر في حلالنا وحرامنا فاجعلوه حاكماً عليكم" أو في نسخة أخرى "قاضياً عليكم فإنني قد جعلته قاضياً فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما علينا رُدُّ وبننا استهزئ، والراد علينا راد على الله فهو على حد الشرك بالله" فللفقيه إذاً أن يحكم بين الناس، وأن يفصل الخصومات، ولكن ما مدى سعة سلطته في هذا الباب؟ معظم العلماء ذهبوا إلى أن الفقيه إنما هو منصوب في مقام القضاء فيما يقابل القاضي المنصوب من حكام الجور، فكل ما للقاضي المنصوب من حكام الجور أن يحكم فيه فللفقيه الجامع لشرائط الفتيا أن يحكم فيه، وهذا إنما يأتي في الأموال التي هي الحقوق وفي الحدود وفي القصاص، ولكن هل له أن يحكم في الموضوعات كالأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك كإثبات الأهلة؟ كل ما يرجع إلى الموضوعات يعني لا يرجع إلى الأحكام الشرعية، فإن تدخله فيها هل هو على أساس من قيامه بأمور الحسبة، أو على أساس أنها وظيفته ومنصبه؟ هذا موضع خلاف، فبين معمم وبين مخصص، وبناء على هذا الحديث الشريف فمنصب الفقيه هو الحكم بالأحكام لا الحكم في نفس الموضوعات؛ لأنه عليه السلام وضعه فيما يقابل القاضي المنصوب من الخليفة العباسي في ذلك الزمان، والموضوعات كلها في ذلك الزمان ترجع إلى من اغتصب الإمامة الذي هو الخليفة، والفقيه لم يوضع في مقابل من اغتصب الإمامة حتى يكون له الحكم في هذه الأمور، وإنما يكون له الحكم في الخصومات والمنازعات الواقعة بين الناس، ولذلك قالوا بأن حكم الحاكم في الهلال غير نافذ؛ يعني لو حكم الحاكم بأن غداً هو أول شوال أو أن غداً هو أول شهر رمضان لا يكون حكمه نافذاً لأن الإمام عليه السلام لم يضع الفقيه لأجل هذه الغاية، وتدخل الفقيه في هذه الغاية إنما باعتباره قائماً بأمور حسبية؛ يعني بأمور تنظيمية من سماع شاهد أو النظر في تعديل شاهد أو غير ذلك، فلا يجوز له أن يحكم بالهلال حكماً، ومن أجل ذلك قالوا لو حكم لم يجز لمقلديه اتباعه في هذا، وقسم آخر عمموا منصب الفقيه إلى ما يشمل هذا وما يشمل أيضاً الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية، واحتجوا على ذلك بالتوقيع الصادر من صاحب الأمر (عج) "وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا" فالوقائع كما تكون في أمور التنازع التي تقع بين الناس فكذلك تقع

في أمور الموضوعات، وقد أمر عليه السلام بالرجوع إلى رواية الحديث في ذلك، كل هذا بناء على أن (ال) في قوله "الحوادث" هي للاستغراق لا للعهد، وأما لو كانت حوادث معينة أو كان يقصد بها مثلاً الحوادث التي عين الصادق الفقيه لأجلها عند ذلك لا يتم هذا الاستلال، ولكنه بناء على هذا الحديث عمموا حكم الفقيه؛ فجعلوا له التدخل في كل شأن من شؤون الحياة التي يحتاج إليها الإنسان الشيعي؛ سواء في الأمور السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو غير ذلك، فكل ما يحتاج إليه الشيعة فللفقيه الحق أن يحكم فيه أو يبيت فيه، حسب ما توصله أدلته أو حسب ما يرى من أنه صالح لتنظيم الشيعة الإمامية، على أي حال فإن القدر المتيقن هو أن الناس يحتاجون للفقيه في مرحلتين:

المرحلة الأولى: في مقام الإفتاء حتى يأخذوا منه معالم دينهم من الحلال والحرام وغير ذلك.

والمرحلة الثانية: هي مرحلة القضاء، القضاء بين الناس وفصل الخصومات وحل التركات، فإنه لا يجوز لأحد لم يبلغ رتبة الفقاهاة أن يحكم بين اثنين ولو في مقدار درهم، ولا يجوز لأحد لم يبلغ رتبة الفقاهاة أن يحل تركة أو غير ذلك أو أن يجري قسمة بين قوم فيهم قُصْر، لأن الوالي على القصر والأيتام والمجانين والسفهاء إنما هو الفقيه الجامع لشرائط الفتيا، ولأجل ذلك قال العلماء رضوان الله عليهم إن وجود هذا الشخص في كل قطر هو واجب كفاي؛ أي يجب أن يكون في كل قطر من أقطار الإسلام فقيهاً أو أكثر من فقيه موجود حتى يحل مثل هذه المشكلات أو يحكم في هذه الوقائع التي تقع للناس طيلة السنين والأعوام، فإذا خلى القطر من فقيه، لم يوجد في بلد من البلدان فقيه، فماذا يفعل الناس؟ قال العلماء رضوان الله عليهم: إن تمكنوا في حكم الخصومات وفي حل التركات وغير ذلك أن يتصلوا بالفقيه الموجود خارج القطر فليتصلوا، فإذا لم يتمكنوا من الاتصال به فعليهم تقع المسؤولية، وحتى يتلافوا هذه المسؤولية ولا يقعون في الإثم جميعاً بتركهم واجباً كفايياً عليهم أن يخرجوا جماعة ليذهبوا فيحصلوا العلم الديني، وينبغ فيهم من يصل إلى حد الفقاهاة، وهم في حين الطلب معذورون، يعملون بالاحتياط أو بغير ذلك حتى يرجع

إليهم أصحابهم فيرشدهم ويعظونهم، وإذا أهملوا مثل هذه المهمة أثموا جميعاً لأنهم تركوا واجباً كفائياً، فإن طلب العلم في أصله مستحب، نعم طلب العلم إذا لم يكن متعلقاً بأعمال اليوم والليلة مستحب، ولكنه بالنسبة إلى عموم الناس واجب كفائي، وقد أمر الله سبحانه وتعالى به فقال عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾¹، فطلب العلم بهذا المستوى هو واجب كفائي، ومستحب لكل فرد أن يقوم به، والواجب الكفائي هو الذي إذا قام به بعض الناس سقط عن البعض الآخرين، وإذا أهمله كل الناس أثم الجميع، وكل الصنائع وكل المهن هي بهذا المستوى، واجبات كفائية، فلو خلت بلدة من البلدان من وجود المزارعين وجب على والي الأمر أن يجبر الناس، وأن يوجد المزارعين، وإذا لم يكن لهم أموال يجب على ولي الأمر أن يعطيهم من الأموال ما يوجد به المزارعين، لأنه غرض كفائي من أغراض الحياة، وكذلك وجود الفقيه الجامع لشرائط الفتيا في كل قطر هو واجب كفائي، إذا قام بعض الناس وذهب إلى الدراسة ولتحصيل هذا العلم سقط عن الباقيين الوجوب، وإذا أهمله الجميع كلهم فإنهم يأثمون ويقعون تحت المسؤولية؛ لأنهم أهملوا ما يحتاجون إليه في حياتهم وخصوصاً من الناحية الدينية، ولأجل ذلك تكون مساعدة أهل العلم أفضل بكثير من مساعدة سائر المحتاجين، لأن أهل العلم في الواقع يريحون الناس من تحمل مسؤولية كبيرة والوقوع تحت مآثم، فالناس بطبيعة الحال لا يتمكنون كلهم من النفور إلى طلب العلم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾²، أي لا يستطيع جميع المسلمين أن ينفروا كلهم لتحصيل العلم، لأنه لو أن الجميع انشغلوا بتحصيل العلم فمن يقوم ببقية الصناعات؟ ومن يقوم بإرساء قواعد المجتمع؟ لا يمكن هذا، فلا بد أن تنفر طائفة من كل فرقة، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾³، وهذه الطائفة التي تنفر إلى طلب العلم ترفع عن كاهل البقية مسؤولية عظيمة، ومعظم الذين ينفرون إلى طلب العلم لا يملكون شيئاً، أي لا يملكون دخلاً محددًا أو

¹ التوبة: 122

² التوبة: 122

³ التوبة: 122

عقاراً أو غير ذلك، فلا بد من مساعدتهم، ومساعدتهم أفضل من مساعدة غيرهم من سائر أصناف المحتاجين، وخصوصاً إذا انضم إلى هذا العنوان الثاني عنوان ثالث وهو أن يكون طالب العلم من أولاد النبي صلى الله عليه وآله، فإن هذا أيضاً عنوان ثالث، فلا ينبغي أن يوجد إنسان ينتسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله - هذا الرسول الذي أنقذنا من غواية الجهل إلى نور الإيمان، هذا الرسول الذي ضحى من أجل أن نكون مسلمين، تحمل الأذى طيلة حياته، وتحمل الأذى في أهل بيته الأذنين، يعني لا تجد إنساناً نص عليه الرسول صلى الله عليه وآله إلا ولقي الأذى، وطبعاً أذى هذا الرجل يرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله، مثل هذا الرجل ينبغي أن لا نترك إنساناً من ذريته يحتاج، أي نراه يعيش محتاجاً ثم لا نساعد، وقد نص الله تعالى في القرآن المجيد بوجوب موالاة أهل بيته، ووجوب محبتهم وغير ذلك، يعني فرض له حقوقاً كثيرة، فقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾¹، وجعل نصف الخمس الواجب على المسلمين إخراجاً هو للضعفاء من أهل بيته عليهم السلام يعني إلى المنتسبين إليه في الذرية، فإذا كان الرجل هو من ذرية الرسول صلى الله عليه وآله وطالب علم، فهذا مساعدته أولى بكثير من مساعدة سائر المحتاجين والفقراء، وعندكم هذه الليلة رجل شعاره شعار أنه من أولاد الرسول صلى الله عليه وآله، وشعاره الثاني الذي يظهر منه أنه من طلبة العلم، ويقول إنه من سكنة قم وطلبتها، وجاء إلى البحرين لأنه في حاجة، وخرج يلتمس المعونة في أقطار الشيعة، والرجاء أن تساعدوه، فساعدوه في ذلك.

نرجع إلى ما كنا فيه من تفصيل مناصب الفقيه، وقد قلنا إن المنصب الثاني من مناصب الفقيه هو رجوع الناس إليه، ولكن يشترط أن يكون هذا الفقيه الذي يرجع الناس إليه بعد حصوله على ملكة القدرة على استنباط الأحكام الشرعية، أن يكون عادلاً، يعني أن يكون حائزاً على العدالة، والعدالة ظاهر من لفظها أنها مأخوذة من الاعتدال، تقول رجل عدل أي معتدل الطريقة، معتدل السلوك، بخلاف الاعوجاج، فالعدل مقابل الأعوج، والعدالة مقابلة للاعوجاج، ولا نعرف

¹ الشورى: 23

عدالة الرجل إلا بمطابقة صورته للأوامر الشرعية والنواهي الشرعية، والأوامر الشرعية والنواهي الشرعية أكثر من أن تحصى أو أن تقدر، ولكن بعبارة أكثر اختصاراً أو أقصر أن العدالة الشرعية هي عدم ترك الواجب وعدم ارتكاب المحرمات الكبائر، وعدم ترك المستحب أو المكروه استهانة به، قد يترك الإنسان المستحب وقد يرتكب الإنسان المكروه، ولكن إذا لم يكن استهانة بذلك المستحب أو استهانة بذلك المكروه فمجرد تركه لا يقدح في العدالة، وإنما يقدح في العدالة أن يتركه مستهيناً به، فهذا مخل بالعدالة، وأما إذا تركه من دون أن يستهين به فهو لا يقدح في العدالة، وعليه فإن أهم ركن في العدالة هو أن لا يترك الواجب ولا يرتكب المحرم الذي هو كبيرة، والمحرمات كثيرة والكبائر منها هي التي نص عليها القرآن الكريم، فكل محرم نص عليه القرآن الكريم فهو كبيرة من الكبائر، وكل أمر ورد تحريمه من السنة بالتواتر لا بطرق الآحاد وإنما بالتواتر فهو أيضاً من الكبائر، والكبائر التي نص عليها القرآن الكريم تكاد تبلغ السبعين محرماً، أهمها سبعة وهي: الشرك بالله، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والكذب على الله وعلى الرسول، والتعرب بعد الهجرة، والزنا، واللواط، وشرب الخمر، هذه هي أهم الكبائر التي نص عليها القرآن الكريم، وإن كانت الكبائر المنصوصة في القرآن تبلغ السبعين أو تزيد، ولكن الأهم هي هذه السبع، وأهم الكبائر بطبيعة الحال ترك الصلاة أو ترك الزكاة أو غير ذلك، ولكن مثل هذا لا يحصل إلى الفقيه حتى نعدده من عيوبه، وأهم ما يخاف من الفقيه هو الإفتاء من دون علم، أن يفتي من دون علم، لأنه إذا أفتى بدون علم فإنه قد يحل ما حرم الله وقد يحرم ما أحل الله، وقد ذم الله ذلك فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وقال إنني أعلم هو لا يعلم وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾¹، فالفقيه إذا كان عادلاً بعد كونه فقيهاً جاز الرجوع إليه، ولكن بشرط أيضاً وهو أن لا يوجد في الفقهاء من هو أعلم منه، ولكن إذا كان يعلم أن فلانا أعلم منه فلا يجوز له أن يقدم نفسه للتقليد أمام الناس، بل عليه أن يسكت وأن يصبر حتى يأتي

¹ النحل: 116

دوره، فإذا انحصرت الألفية فيه يقدم نفسه، وإذا لم يكن هو الألف لا يجوز له أن يقدم نفسه للتقليد، لأن قاعدة الشيعة الإمامية في العقائد أنه لا يجوز تقديم المفضول مع وجود الأفضل، ففي كل علم إذا وجد إنسان أمكن في العمل من إنسان لا يجوز تأخير صاحب الحق وتقديم غيره، بل إن الألف مقدم على أي حال، فإذا اجتمعت هذه الشروط جاز للناس أن يقلدوه، وهناك شرط مُخْتَلَفٌ فيه في التقليد، وهو هل يشترط الحياة في مرجع التقليد؟ أو لا يشترط الحياة في مرجع التقليد؟ هذا الشرط منذ أن ذكر في الرسائل العملية إلى اليوم وهو محل خلاف ومحل أخذ ومحل رد بين العلماء، وعلى أي حال ما نجده من الأحاديث في كتب الأحاديث لا تذكر شيئاً فيه صراحةً يدل على الحياة، بل إن كثيراً من الأحاديث جاء إن لم يكن صريحاً فمضمناً بإقرار تقليد قوم قد ماتوا، ومن ذلك أن الصادق عليه السلام قال لرجل: "بلغت سبعين سنة وأنت لا تعرف أن تصلي لله ركعتين، فقال الرجل: كيف لا أعرف يا ابن رسول الله أن أصلي ركعتين وأنا أعمل بكتاب حريز؟ و حريز في أيام الصادق عليه السلام كان متوفى، يعني ليس من الأحياء، ومع ذلك لم يقل له الإمام لماذا تعمل بكتاب حريز وقد مات، وإنما قال له لا عليك قم فصل ركعتين، يعني لم يناقشه في تقليده لحريز مع أن حريزاً كان من الأموات في أيام الإمام الصادق عليه السلام، ومما يدل أيضاً صراحةً قول الصادق عليه السلام: "يقال للفقير يوم القيامة قم حتى تشفع في من تعلم منك، فيقوم فيشفع في فئام وفئام وفئام وأوصله الإمام عليه السلام حتى عشرة أجيال، ثم قال: وهم الذين تعلموا منه والذين تعلموا ممن تعلم منه وهكذا إلى عشرة أجيال، فقال له أحدهم ولو علم الناس إلى يوم القيامة؟ قال: نعم ولو علم الناس إلى يوم القيامة كان له أجر من تعلم عنه، وقوله عليه السلام: "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة أو بدعة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة" ولو كان تقليد من توفي لا يجوز لما كان له ثواب من عمل بتلك السنة أو وزر من عمل بتلك البدعة، لأن حصوله الأجر من العاملين بقوله المفروض قد انقطع في الحياة، على أي حال هذه مسألة لا يزال الأخذ والرد والنقاش والإبرام، قائماً فيها إلى اليوم لم ينته بين العلماء، والمجمع عليه هي هذه الثلاثة في

مرجع التقليد، أن يكون رجلاً بالغاً إمامياً عادلاً، قادراً على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وأن لا يكون هناك من هو أعلم منه، فإذا وجد من هو أعلم منه صار التقليد للأعلم وليس له، أي لا يجوز له أن يقدم نفسه للتقليد مع وجود من هو أعلم منه، لو لم أعرف الأعلم ولا أدري أيهم؛ أهذا هو الأعلم أو هذا الأعلم أو هذا الأعلم، ولا أتمكن من البحث، فأصحاب الفضيلة والعلماء الذين هم لم يعرضوا أنفسهم للتقليد، كل جماعة تقول فلان أعلم وهذه الجماعة تقول فلان أعلم، فإذا كنت لا أعلم أكون بالخيار، بفتوى أي من العلماء أخذت فقه ديني ، وأنا لا أعلم من هو الأعلم، فإذا قلت لا أعلم من هو الأعلم فأكون بالخيار، بفتوى أي عالم إمامي عادل بالغ رتبة الفقاهة أخذت فقه ديني، وكذلك إذا اختلف الفقهاء وأنا لا أعلم الأعلم منهما، فيجب الرجوع في المسائل الخلافية إلى الأعلم، فإذا لم أعرف الأعلم فأنا بالخيار، عملت بقول هذا أو بقول هذا، فهذه أهم ما يشترط في مرجع التقليد، بقي هل أن من يعمل بدون تقليد وهو من العوام، هل أن عمله باطل؟ أو ليس عمله باطل؟ هذه أيضاً مسألة تثار، وسنتكلم عليها في ليلة أخرى إن شاء الله

....

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

حرمة الغناء في الإسلام *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.
.....¹ وعرفه آخرون من علماء اللغة بأنه الصوت الموزون والمحرك للقلب،
وبعضهم قال إنه الصوت الحسن المشتمل على المد والترجيع المطرب، وعرفوا الطرب بأنه خفة
تعترى القلب فتفرحه أو تحزنه.

ومن أجل هذه الاختلافات أو بسبب هذه الاختلافات حاول بعضهم أن يجمع كل عناصر
هذه التعريفات فيصوغ منها تعريفاً فقال: هو صوت الإنسان الذي من شأنه إيجاد الطرب، وبسبب
ذلك ذهب بعض الفقهاء كصاحب الحدائق رحمه الله إلى أنه لما كانت ماهية الغناء عند علماء
اللغة موضع اختلاف فلا بد من إرجاعها إلى العرف، يعني إلى أهل اللغة؛ المستعملين للغة من
للناس، فما أطلق عليه الناس غناءً فهو غناء سواء اشتمل على مد الصوت أو لم يشتمل، وسواء
حصل فيه الترجيع أم لم يحصل، فالعبرة هو أن مستعملي اللغة العربية يطلقون عليه لفظ الغناء،
فإذا كان العرب في أثناء استعمالهم لهذه اللفظة يطلقونه على نوع من أنواع الكلام، فهذا الكلام
غناء وإن لم يشتمل على المد والترجيع، أو غير ذلك، وإن كانوا لا يطلقون عليه غناء فلا يسمى
غناء ولا تنطبق عليه الأحكام وإن اشتمل على المد والترجيع، وغير ذلك مما ذكروا.

وإذا أردنا أن ندرس هذه التعريفات فيمكن أن نقول إن الغناء شأنه شأن الكثير من
المفاهيم اللغوية المدلول بها على بعض المظاهر الاجتماعية ليست له ماهية محددة بالدقة
كسائر الماهيات والطبائع العقلية، وهذا هو الفرق بين الأشياء أو الطبائع العقلية والظواهر
الاجتماعية، فلفظ المسكر مثلاً يطلق على كل ما من شأنه أن يوجد الإسكار، وربما كان قليلاً لا
يسكر وإنما يسكر كثيره، ولكنهم يطلقون على ذلك القليل الذي لا يسكر اسم المسكر، فكذلك
الغناء، لما كان من هذه المفاهيم المتعلقة بهذه الظواهر، لا نرتجي أن نجد له تعريفاً جامعاً

* محاضرة في 25 ربيع الثاني 1408 هـ المصادف 17/12/1987م بجدحفص
¹ وقع سقط بسبب وجود فراغ صغير في الشريط المنقول عنه

مانعاً كما يقول علماء المنطق، خاصة وأن علماء اللغة ليس من شأنهم تحديد الماهيات بالدقة العقلية، وإنما من شأنهم بيان المعاني التي استعمل العرب فيها ذلك اللفظ، ولما كانت استعمالات اللغة أو استعمالات العرب للغتهم تختلف من مورد إلى مورد، باختلاف ملاحظة الخصوصيات التي قد توجد في مصداقٍ وتختفي في مصداق، نشأت هذه التعريفات في كتب اللغة. فالأغنية التي تحتاج إلى مد الصوت يصاحبها مد الصوت ويطلق عليها العرب اسم الغناء، فيأتي اللغوي ويقول هو الصوت المشتمل على المد المطرب، ولكن ليس كل الأغاني تقتضي مد الصوت، بل ربما بعض الأغاني تقتضي أن لا يوجد فيها مدٌ للصوت وإنما توجد ترنيمة واحدة متكررة مترتبة، فيلاحظها العربي ويطلق عليها لفظ الغناء أو الأغنية؛ فيأتي اللغوي ويأخذ هذه الملاحظة التي لاحظها العربي فيعرف الغناء بأنه الصوت المشتمل على الترجيع المطرب باعتبار ترجيع المغني لتلك الترنيمة الواحدة غير الممدودة.

فإن بسبب هذه الملاحظات عند المستعملين للغة اختلفت كلمات علماء اللغة عندما جمعوها، وإذا أردنا أن نوجد تعريفاً لا نقول إنه جامعٌ مانع ولكنه يحتوي على العناصر المهمة التي لاحظها العرب في إطلاق ما أطلقوا عليه لفظ الغناء، فيمكن أن نقول بأنه الصوت الحسن المرجع بترتيب متعارف عليه ومن شأنه إيجاد الطرب، أو نقول بأنه صوتٌ إنسانٍ حسنٌ مرجعٌ فيه بترتيب متعارف عليه من شأنه إيجاد الطرب، فبقولنا صوت إنسانٍ نخرج سائر الأصوات التي تكون بترجيع مترتب ومتعارف عليه كالأصوات الخارجة من الآلات الموسيقية مثلاً فإنها أصوات وحسنة ومرجعة بترنيمة معينة وبنغمة معينة ومن شأنها إيجاد الطرب ولكن لما لم تكن صوت إنسان فإنها لا يقال عنها أنها غناء، فلا ينطبق عليها عنوان الغناء، ولا ينطبق عليها أحكام الغناء وإنما تنطبق عليها أحكامٌ أخرى في الشريعة الإسلامية هي ما اعتاد الفقهاء أن يطلقوا عليه آلات اللهو، وقولنا حسن -وصفه بأنه حسن- في هذا المورد أو الحسن في هذا المورد بل في كل الموارد الجمالية، لا نعني به الحسن العقلي، وإنما نعني به إحتواءه على الناحية الجمالية، ولا شك أن وصف الشيء بالناحية الجمالية بأنه حسن مما تحار فيه العقول والأفهام، بل لا يتفق اثنان

على ملاحظة جهة الجمال في شيء واحد، فالجمال مورد إحساس أكثر منه مورد تعقل، فالصوت الحسن هو الذي يكون فيه ناحية جمالية ذاتية، فلو كان أبح خلقةً أو أجرش خلقةً، فإذن لا يسمى ذلك الصوت غناءً، لماذا؟ لأنه يفقد عنصر الجاذبية، وإنما تتجذب النفوس إليه لوجود ملاحظة الناحية الجمالية فيه وهي ما وصفناه بأنه حسن، ولكن درجات الحُسن في كل شيء متفاوتة، فمنها ما هو رفيع المستوى جداً ومنها ما وضع المستوى جداً، المهم أن توجد فيه ناحية جماليةً تتجذب النفوس إليها وتستهوِي القلوب ولو بصفة ضعيفة جداً، ومع فقد هذه الناحية الجمالية لا تتجذب النفوس إليه ولا تميل القلوب نحوه فيخرج عن هذه الملاحظة التي يلاحظها العربي لاستعمال لفظ الغناء، وغير المرجح بترتيب معين فلأنه مالم يكن له ترجيح بترتيب معين حتى لو كان وصفه حسناً وحتى لو تحققت فيه الناحية الجمالية فما لم يكن له ذلك الترتيب المعين المتعارف عليه بأنه من تراجم الغناء وترانيمه لا يطلق عليه لفظ الغناء، وإلا لكان مجرد قراءة نص أدبي مثلاً من شعر أو غير شعر أو قرآن أو دعاء أو غير ذلك بصوت حسن يستهوِي القلوب ويجذب النفوس ينطبق عليه أنه غناء، والحال أن العرب لا يطلقون على كل صوت حسن أنه غناء، وإنما يطلقون عليه أنه غناء إذا كان ذلك الصوت قد قيل بترتيب معين وبترنيم أو بنغمات معينة، ففيه سكّات معينة في مواضع محددة، وفيه نطقات في مواضع محددة، والمقاطع الصوتية قد حسب له حساب متعارف عليه عند أهل ذلك الفن، فعندئذ يصح أن يوصف بأنه غناء، وأما لو خلا عن ذلك الوصف ولم يحصل على ذلك الترجيح المرتب بطريقة معينة متعارف عليها فحسب الظاهر أن العرف العربي لا يساعد على تسميته غناءً، فقد ورد عن زين العابدين عليه السلام أنه كان إذا قرأ القرآن صباحاً ومر السقاؤون حول بيته جذبهم صوته فوقفوا عن عملهم ليستعموا صوته لحُسن صوته، وقد قال الرضا عليه السلام إن علي بن الحسين عليه السلام كان إذا قرأ القرآن استوقف المارة بحسن صوته، وقال أحدهم: وما حال من يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يظهر للناس ما يحتملون.

فإذن لا يمكن أن نقول بأن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله تسمى غناءً ولا قراءة علي بن الحسين عليه السلام تسمى غناءً، مع أنها تحتوي على الصوت الحسن الذي يستهوي النفوس ويجذب القلوب، بل يعطل حركات الأجسام عن السير في مقاصدها، ولكن لما كان لا يحتوي على تلك الترجيحات المرتبة على النحو المعين المتعارف عليه لا يدخل تحت مفهوم الغناء، ولا يسمى غناءً، ولا تنطبق عليه أحكامه، فهذا القيد إنما هو لإخراج هذا المعنى، [من شأنه إيجاد الطرب]، ولم نقل المطرب، لأنه لا يشترط في الغناء أن يكون مطرباً بالفعل وإنما يطرب بالتكرار، فأصوات المغنين ونغماتهم مختلفة في قوة التأثير في النفوس، ومنها ما هو قوي التأثير في النفوس جداً بحيث تحدث تلك الخفة في نفس السامع بمجرد قراءة بيت أو بيتين أو قراءة آية أو آيتين أو كلمة أو كلمتين، ومن تلك الأصوات وتلك النغمات ما لا يؤثر في سامعه إلا بعد قراءة شيء كثير من الأشعار أو الكلام المتغنى به، وكذلك السامعون يختلفون في الرقة والحماسة واللطافة والخشوع بدرجات متفاوتة، فمنهم من ينفعل ويطرب ببيت واحد، ومنهم من لا ينفعل ولا يطرب إلا بعد سماع قصائد وأشعار كثيرة.

فإذن لا يشترط في الغناء أن يكون مطرباً في الفعل، وإنما له شأنية إيجاد الطرب، فما كان حاوياً على هذه الأوصاف ومن شأنه إيجاد الخفة في نفس السامع، فلا شك أنه يسمى غناءً، وأما لو لم يكن من شأن ذلك الكلام الموزون إيجاد تلك الخفة، أي ليس من شأنه إيجاد الطرب، فإنه لا يسمى غناءً.

وعلى أي حال فإن المعول في هذا أي فيما يسمى غناءً وما لا يسمى غناءً إنما هو على العرف العربي، يعني إطلاق العرب لتلك اللفظة، ولكن لما كنا بعيداً عن مقامات ذلك العرف ولسنا في تلك الأزمان صار لزاماً علينا أن ندرس تلك العناصر التي يلاحظها المستعمل العربي فيطلق تلك اللفظة على أساسها، وباستقراء تلك العناصر التي مرت في تعاريف علماء اللغة في مختلف كتبهم ومجاميعهم وقراطيسهم صغنا هذا التعريف للغناء وقلنا بأنه: [صوت الإنسان الحسن المشتمل على الترجيع المتعارف عليه ومن شأنه إيجاد الطرب]، فإذا كانت هذه العناصر مجتمعة

تتطبق على شيء فعندئذٍ يسمى ذلك القول غناءً، ولا فرق في ذلك بين أن يكون شعراً غزلياً أو يكون في مدح النبي صلى الله عليه وآله أو أحد الأئمة، أو في رثاء ميت أو مظلوم، أو نبي أو إمام، أو يكون دعاءً أو قرآناً، ولا فرق بين أن يكون في الوعظ والتزهيد والترغيب في الآخرة والترهيب من النار والدعوة إلى الجنة وبين غيرها من الحالات، فكلما توافرت هذه العناصر التي ذكرناها في كلام فهذا الكلام يسمى غناءً، وما لم تتوافر هذه العناصر في كلام أي اختل وجود هذه العناصر في كلام ما فإنه لا يسمى غناءً، ولا فرق بين أن يصاحب هذا الكلام المحتوي على هذه العناصر آلات اللهو كالمعازف والدفوف والطبول والعيان وغيرها من الآلات القديمة والحديثة والمزامير أو أن لا يصاحبه شيء، فإن الاعتبار في معنى الغناء هو بالصوت الإنساني لا بالآلات للهو، فإن حكم آلات اللهو منفرد عن الغناء، وإنما البحث هنا في خصوص أحكام الغناء، فإذاً لا فرق في إطلاق الغناء عليه سواء صاحبه هذه الآلات أو لم تصاحبه هذه الآلات، وعندئذٍ فإن الفتاوى الشرعية المترتبة على معنى الغناء لا فرق في انطباقها على هذا القول بمصاحبة آلات اللهو أو عدم مصاحبة آلات اللهو، ولا فرق في موضوع ذلك الكلام مطلقاً، ولا فرق في مورده، نعم ربما لو صاحبه آلات اللهو يكون له أحكام زائدة على مجرد الغناء وذلك لوجود أو مصاحبة آلات اللهو له، ولا شك أن الفقهاء الإمامية يتفقون تماماً من دون خلاف بينهم على أن الغناء مطلقاً سواء كان معناه حقاً أو باطلاً وسواء صاحبه هذه الآلات أو لم تصاحبه حرام، بغض النظر عن معناه، فما انطبق عليه لفظ الغناء فمتفقٌ على تحريمه عندهم، ولا فرق بين أن يحصل فيه محرماً من خارج كما لو استلزم أن يختلط فيه الرجال والنساء أو لم يستلزم محرماً من خارج، كما لو كان لا يختلط فيه الرجال والنساء، هم متفقون على أن الغناء بأي طريقة كان محرماً في الشريعة الإسلامية.

وقد وردت في حرمة الغناء عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الأئمة المعصومين عليه السلام أحاديث كثيرة مستفيضة إن لم تكن متواترة في المعنى، وهذه الأحاديث على طوائف مختلفة، فالطائفة الأولى هي الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ

النُّزُومِ¹، "فعن زيد الشحام قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾²، قال: قول الزور الغناء"³. "وعن أبي الصباح عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾⁴، قال: الغناء". "وفي حديث ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾⁵، قال: الزور الغناء".

ولا شك أن معنى الزور في اللغة الذي فسر به الإمام عليه السلام هذه الآيات وخاصة آية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾⁶ فسر الزور بالغناء، الزور في اللغة معناه الميل والكذب هو الباطل، والغناء قد لا يكون كذباً ولا ميلاً ولا باطلاً، فالشعر الذي يتغنى به في مدح سيد المرسلين صلى الله عليه وآله معناه ليس باطلاً، وكذلك الشعر الذي يتغنى به وهو في مدح أحد الأئمة - صلوات الله وسلامه عليهم - معناه ليس باطلاً، وكذلك الشعر الذي يتغنى به وهو في وصف الجنة والترغيب فيها أو في الحث على الجهاد في سبيل الله وغير ذلك، هذا أيضاً معناه ليس باطلاً، بل القرآن ذاته إذا تغني به فهذا الصوت مدلول به على معاني نازلة من السماء فإذا لا يكون معناه باطلاً، ولكن الإمام عليه السلام وصفه بأنه زور وذلك لأن هذه الهيئة الصوتية الخاصة المعروفة بين الناس باسم الغناء هي في حد ذاتها باطل، بغض النظر عن مدلولها، وبغض النظر عن المعنى التي تضمنته تلك الهيئة الصوتية، فهذه الهيئة الصوتية لما كانت ممنوعة من الله سبحانه وتعالى غير مرضية منه ولا مقبولة لديه، فعندئذ تكون زورا وتكون ميلاً وباطلاً وكذباً، فلا ينظر عندئذ في المعنى المدلول بها عليه، ولا عبرة بذلك المعنى المدلول بها عليه، بل تكون باطلاً وتكون زورا وتكون ميلاً.

¹ الحج: من الآية 30

² الحج: من الآية 30

³ وسائل الشيعة الإسلامية - ج 12 - ص 225 - الحر العاملي

⁴ الفرقان: من الآية 72

⁵ الحج: من الآية 30

⁶ الحج: من الآية 30

ولما كان الأمر هنا للوجوب على الأقل لو لم نقل بأن صيغة الأمر تدل على الوجوب على الأقل لاقتربنا بقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾¹ فإن المقام يقتضي القول بوجوب اجتناب تلك الهيئة الصوتية، فعندئذ تكون حراماً و لفظ الاجتناب أوسع من الاستعمال فكل شيء يتعلق بها يجب اجتنابه، سواء قوله أو تعليمه أو تعلمه أو الاستئجار عليه أو استماعه؛ ولو من جانب لأن لفظ الاجتناب أوسع من لفظ التحريم.

ومن طوائف هذه الروايات الواردة في المقام، طائفة من الروايات الواردة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾²، فعن محمد بن مسلم الثقفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سمعته يقول: الغناء مما وعد الله عز وجل عليه النار، وتلا هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾³، وعن عمران بن محمد عن أبي عبد الله عليه السلام: "قال: سمعته يقول: الغناء مما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾"⁴.

ومن هذه الآية بمعونة هذه الروايات نفهم عدة أمور، وحتى تكون عندنا قرائن كثيرة حول دلالة هذه الآية، لا بد أن نعرف سبب نزولها، خاصة وأنها عللت فقالت: "ليضل"، هذه نزلت في رجل من أهل الجاهلية عندما اشتد الصراع بين المشركين وبين المسلمين حول الهجرة، هذا الرجل أخذ يسافر إلى فارس ويشترى أخبار الدولة الفارسية والرومانية ويأتي بها إلى مكة فيبيعها على الناس، فيلتهون بقراءتها عن الكلام في الرسالة وما جرى وما قال وما يقال، يعني تماماً كالصحف التي تصدر اليوم ويشترىها الناس حتى يلهوا بها عن كل ما يدور حولهم، وعن أحكام دينهم وغيرها، فهو يسافر إلى فارس ويشترى منهم أخبار الفرس وأخبار الروم ويأتي إلى مكة يبيعها،

¹ الحج: من الآية 30

² لقمان: 6

³ لقمان: 6

⁴ الكافي - ج 6 - ص 431 - الشيخ الكليني

⁵ لقمان: من الآية 6

⁶ الكافي - ج 6 - ص 431 - الشيخ الكليني

حتى يلهي الناس بطريقة لطيفة ويكسب المال، ويحارب الإسلام من جهة بأن يدع الناس يتناقشون، ماذا قال كسرى وماذا قال قيصر، والنتيجة أنهم التهوا عن الحركة التي يقوم بها النبي صلى الله عليه وآله في مكة ولا يناقشون هذه الموضوعات التي يأتي بها النبي صلى الله عليه وآله ولا يستمعون القرآن لأنهم لاهون بهذه الروايات، ومن ناحية ثانية يكسب المال، فهذه الآية في الحقيقة أصل نزولها في هذا الموضوع، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾¹، فهل نستطيع أن نفهم من ذلك أنه إذا كان الغناء يلهي عن ذكر الله ويلهي عن سبيل الله يكون حراماً وإذا كان لا يغني عن ذكر الله أو لا يلهي عن سبيل الله فلا يكون حراماً باعتبار اتخاذ موضوع النزول، لأن هذا هو مورد النزول، وأنه لا بد أن يشتريه الإنسان ك شراء الأشرطة والقينات وغيرها، أم لا، أي أن مورد النزول لا يكون حاكماً في هذا المورد، وإنما الحكم لعموم اللفظ وإطلاقه وأن الأئمة عليه السلام حيث حملوا هذه اللفظة على الغناء فعندئذ لا نتقيد بمورد النزول؟

هذا الكلام وتفصيلاته وتتمة الروايات الواردة في تفسير هذه الآية نستعرضها في الأسبوع

القادم إنشاء الله.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

¹ لقمان: من الآية 6

حرمة الغناء في الإسلام (2)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

كان الكلام في حرمة الغناء، وقد استعرضنا طائفتين من الروايات الواردة في التفسير والتي يفهم منها بموجب اللغة إطلاق الحرمة للغناء، يعني سواء كان الغناء مصاحباً لآلات اللهو كالعيدان والمزامير وأمثالها أو غير مصاحب، وسواء كان مدلوله باطلاً كالألفاظ المستهجنة والفاحشة أو كان مدلول كلماته حقاً كأن تكون آيات من القرآن أو أشعاراً في المواعظ أو غير ذلك، وهناك أيضاً روايات أخرى تدل على هذا المعنى بالإضافة إلى هذه الروايات، منها ما عن الرضا عليه السلام وقد قيل له في خراسان "إن العباسي ذكر أنك ترخص في الغناء، قال: كذب الزنديق، ما هكذا قلت له، سألني عن الغناء فقلت له: إن رجلاً أتى أبا جعفر عليه السلام فسأله عن الغناء فقال له: يا فلان إذا ميز الله بين الحق والباطل، فأنى يكون الغناء؟ فقال مع الباطل، قال: قد حكمت"¹.

والعباسي هذا كان في سابق أمره يدعى الهاشمي أو العلوي ثم لقب بالعباسي، ولم يكن هو علوي النسب ولا هاشمي النسب ولا عباسي النسب، وإنما كان منقطعاً إلى أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، شديد التمسك بهم، لهج بالدعوة إليهم، ومن عادة أهل البيت عليهم السلام مهما يكن عند الإنسان من نوايا يخفيها وهم يعلمون بها يتركونه حتى يكشف نفسه، فلما جاء دور الرضا عليه السلام أخبره بأن المأمون سوف يدعوه لولاية العهد، وأنه بعد ذلك سينكث عليه ويقتله، فبقي يتربص حتى جاء أمر المأمون لنقل الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان، فصحبته ذلك الرجل في السفر، وفي أثناء الطريق أسر له بعض الأسرار المتعلقة ببعض أمور العباسيين،

¹ الكافي - ج6 - ص435 - الشيخ الكليني

فلما وصل إلى خراسان ودعا المأمونَ الرضا عليه السلام إلى قبول الخلافة وبعد إبطائه إبطاءً شديداً لذلك عرض عليه أن يقبل ولاية العهد، وبعد الإلحاح قبلها شريطة أن لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيء ولا يتدخل في أمور الدولة، تأكد للعباسي أن ما قاله الإمام لا شك واقع، فهو لا بد أن ينظر له موضعاً آخر لتحصيل الزعامة والرئاسة، فانخرط في سلك جواسيس بني العباس، وفي سلك الداعين لهم، والمدافعين عنهم، وأخذ يشي بالشيعة ويكذب عليهم، بل لا يبالي من الوشاية بالإمام عليه السلام والكذب عليه، ولشدة دعوته للعباسيين والمدافعة عنهم تبدل لقبه من العلوي أو الهاشمي إلى العباسي.

على أي حال ليس الغرض هو بيان ترجمة العباسي و لكن البيان هو قوله عليه السلام: كذب الزنديق. بعد قول السائل له إن العباسي ذكر أنك ترخص في الغناء، ثم استشهد عليه السلام بكلمة أبي جعفر عليه السلام إذا ميّز الله بين الحق والباطل فمع أيهما يكون الغناء؟ قال: مع الباطل، قال: قد حكمت. فالباطل الذي ليس بحق نوعان - في الحقيقة -، منه ما هو حرام في ذاته ومنه ما ليس بحرام بذاته، فالفكاهة مع الإخوان - مثلاً - والمزح إذا لم تقارنه معصية أخرى باطل؛ لكن ليس محرماً في ذاته وإنما زيادته مكروهة، وكثير من أنواع الباطل مكروه، والعباسي طبعاً لم ينقل عبارة الإمام عليه السلام وإنما نقل عنه أنه يرخص في الغناء، فلو كان كلام أبي جعفر عليه السلام في قوله إذا ميّز الله بين الحق والباطل فمع أيهما يكون الغناء، قال: مع الباطل. لو كان من الباطل غير المحرم لما كان الإمام عليه السلام يكذب العباسي في نقله الرخصة، لأنه عندئذ لو فرضنا أننا نفهم من عبارة أبي جعفر عليه السلام أنه مكروه، وأنه من الباطل غير المحرم، لكان نقله عن الإمام عليه السلام أنه رخص في الغناء صدقاً وليس كذباً، فوصفه بالزنديق وأنه كاذب، "كذب الزنديق، ما هكذا قلت له"، يعني لم أرخص له؛ أي أن كلامي لا يفهم منه الرخصة بحال ولو من باب الكراهة، وأما استشهادك بكلام أبي جعفر عليه السلام فيدل على أن الذي يفهم من كلام أبي جعفر عليه السلام هو الحرمة بذات الغناء بغض النظر عما

يقارنه وما يخالطه، وبغض النظر عن مدلوله وموضوع كلامه؛ سواء كان قرآناً أو موعظة أو دعاء، بل في حد ذاته يكون حراماً فاحشاً.

وهناك أيضاً روايات كثيرة على هذا المعنى، بل روى الثقة المأمون علي بن جعفر الصادق عليه السلام عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام عن الرجل يتعمد الغناء، أيجلس إليه؟ قال: لا. يعني لو أن إنساناً يتعمد أن يغني، هل يصح أن يجلس إليه وهو يتعمد الغناء؟ فإن الإمام عليه السلام يقول: لا. فلو لم يكن الغناء في حد ذاته حراماً لما كان هناك معنى للأمر أو لتحريم الجلوس إليه وزيارته أو القعود معه، طبعاً لا بد أن يكون ذلك من أكبر الكبائر حتى يجب مقاطعته، فهو لا يجوز الجلوس إليه مطلقاً.

وأيضاً قوله صلى الله عليه وآله: الغناء عش النفاق. وذلك لما ربما يقال هنا من أنه يفهم من هذه الكلمة أن ذلك باعتبار ما يثيره الغناء المتعارف من كوامن الشهوة و نوازع الرغبات الدفينة في النفس بحيث إنه بعد ذلك تتسلط هذه الرغبات وهذه الشهوات على القلب، فيضطر الإنسان إلى كتمانها عن الناس فيظهر من حاله ما ليس في باطنه فيكون نفاقاً وهذا كافٍ في استهجان الغناء.

وقول موسى بن جعفر عليه السلام في بيع الجواري المغنيات إن بيعهن حرام وشراءهن حرام والاستماع منهن نفاق وتعليمهن كفر. أي تعليمهن الغناء على حد الكفر واستماع الغناء منهن هو نفاق، وثمانهن في بيعهن وشرائهن حرام.

وأيضاً قول النبي صلى الله عليه وآله في حديث السحت: ومن السحت أجر المغنية. فما تقبضه المغنية من أجر مهما كان نوع غنائها فهو سحت، سواء غناؤها في الأشعار الباطلة الماجنة أو غناؤها بالقصائد التي تتضمن المدح أو القصائد التي فيها الموعظة، فأجرتها حرام وسحت لا يجوز لأحد أن يأكل منه شيئاً.

على أي حال إن حرمة الغناء لذاته مطلقاً ليست محل خلاف عند أحد من الشيعة [رض] مطلقاً، بل كأنما كلماتهم متسألمة، اللهم إلا من واحد منهم - ما دمت قد ذكرت ذلك - وهو

النراقي حيث فصل وقال إن الغناء منه حلال ومنه حرام، ولكن عدا النراقي سواء من القدماء أو المتأخرين الأموات أو الأحياء الموجودين لا يوجد مخالف منهم على أن الغناء في حد ذاته حرام مطلقاً في أي موضوع كان، وليست حرمة بسبب المقارنات من استعمال آلات اللهو أو - مثلاً - ما يصاحبه من اختلاط النساء بالرجال، أو ما يصاحبه من الرقص أو غير ذلك، بل هو في حد ذاته حرام مطلقاً. وإنما وقع الخلاف بين الفقهاء في موارد:

المورد الأول: المغنية التي تزف العرائس: هل يجوز الغناء في الأعراس في زف العروس

إلى زوجها؟ أو أنه لا يجوز الغناء في زف العروس إلى زوجها؟

هذه مسألة من المسائل التي اختلفوا فيها وذلك بسبب وجود الروايات التي اختلفت أنظارهم وأفهامهم لمعانيها، فمنهم من رآها مخصصة لهذه القاعدة وهي الحرمة المطلقة لحرمة الغناء لذاته، وبعضهم لم يفهم منها ذلك، أو بعضهم رأى أن سندها ضعيف، أو حتى مع صحة سندها فإنما هي رواية أو روايتان، وتلك الروايات التي تدل على الحرمة مطلقاً كثيرة ومستفيضة، بل متواترة، وعندئذ لا يقيد ولا يخص تلك القاعدة بهذه الروايات.

على أي حال فإن القول المشهور عند الشيعة أنه يجوز للنساء أو يجوز للمرأة في

الأعراس في زف العروس إلى زوجها، يجوز لهن الغناء بشروط:

الشرط الأول: أن لا يصاحب هذا الغناء شيء من الحرام، كاستعمال آلات اللهو، وآلات

اللهو هي الآلات المعدة للهو كالطبل والدف والعود والمزامير وغيرها كالطوس وأمثاها من كل ما يستعمل قديماً أو يخترع حديثاً، وكل آلة أعدت لإخراج هذه الأصوات طبعاً؛ لأن هذا في حد ذاته حرامٌ شديد، ومن الكبائر، فلو أن المغنية التي تزف العرائس حملت شيئاً من هذه الآلات تكون قد ارتكبت حراماً كبيراً ويجب على النساء في هذه الحالة إذا دخلت وهي تحمل الدف أن يخرجن من العرس، وأن يخيرن أم العروس بأن تخرج هذه التي جاءت تحمل الدف أو هن يخرجن حتى ينقطع المنكر من مجتمع النساء؛ لأنها في هذه الحالة تكون قد ارتكبت حراماً كبيراً، فلو فرضنا أنها تعطى أجره على هذا الغناء أو ما يسمى بالجلوة فعندئذ أيضاً هذه الأجرة تكون حراماً وتكون سُحتاً، وإلا فالغناء في الأعراس لزف العرائس بالنسبة إلى النساء كما هو

المشهور بين علماء الشيعة هو القول بحليته، مع الشروط التي سناول في سردها، لكن لو دخلت بدف واحد فإن ذلك يكفي في تحريم الجلوس معها، وفي استماع صوتها، ومن الغريب أن النساء اللواتي يسمين بالقارئيات أو [الملايات] في هذا الزمان أصبحن صاحبات فرق غنائية يحملن الدفوف وهن بعد ذلك سيقرأن المراثي على أبي عبدالله الحسين عليه السلام، فينبغي للنساء أن يطهرن مجتمعهن من أمثال هؤلاء الفاسقات اللواتي يتشبهن بالمتدينات وما هن من الدين في شيء، حتى يتبن إلى الله ولا يحملن الدفوف والبطارات معهن.

الشرط الثاني: أن لا يدخل عليهن الرجال، فلو كانت تغني في موضع يدخل فيه الرجال فعندئذ يحرم عليها الغناء ويحرم الجلوس معها، فإن هذا مجلس لا ينظر الله إلى أهله، وفي الحديث لا تؤمن فيه الفجيرة والكارثة أن تقع في ذلك الزواج، إذا كان النساء يختلطن فيه بالرجال.

الأمر الثالث: أن لا يسمع أصواتهن الرجال، أي أن يكون صوت المغنية لا يخرج إلى خارج المكان فيسمعه الرجال الأبعاد ويجلسوا ليستمعوه من بعيد، ومع الأسف أنه قبل أيام في إحدى القرى غنت [ملاية] كبيرة جداً على سطح من سطوح تلك القرية المجاورة لنا وهي تحمل مكبراً للصوت، يعني لم يكفها أنها تغني بصوتها إلا أنها حملت معها مكبرة من بيتها لأنها في الحقيقة قد انسلخت عن قضية أهل البيت وصارت من المغنيات، ولكن بما أن القراءة على الحسين فيها أموال فهي لا تريد أن تترك القراءة على الحسين؛ وإلا من تكون هذا شأنها لا تسمى من القارئيات على الحسين بل صاحبة فرقة غنائية، شأنها شأن اللواتي يغنين في المحطات التلفزيونية والإذاعية وغيرها، ولا فرق بينها وبينهن بحال من الأحوال، مادامت لا تتقيد بالآداب الشرعية، بل لا ترضى بأن توعظ، وقد حاول أحد أهل تلك القرية وعظها - كما أخبرني - فثارت عليه ولم تتقبل الوعظ.

على أي حال إن مثل هذه لا ينبغي للنساء أن تتركها هي وأمثالها يجلن ويصلن في أعراسهن، بل ينبغي طردهن من الأعراس.

أيضاً لو قارنته أمور أخرى محرمة بأن يكون موضوع الأشعار التي تقال في ذلك الغناء باطلة من القول الفاحش أو الماجن كما تستعمله بعض البنات مع الأسف في بعض الأعراس، هذا أيضاً لا يجوز؛ فإن هذه الألفاظ المستهجنة والفاحشة لا ينبغي للمسلمات المؤمنات أن يتلفظن بها، ولا أن يرددنها، وأن لا يقبلن لأنفسهن بسماعها، فإذا كانت التي تزف العرائس أو التي تجلو العرائس تلتزم بالآداب الشرعية التي ذكرناها، فإن الغناء عند المشهور من علماء الشيعة مرخصٌ لهم فيه، وإن كان السيد الخميني [رحمه الله] - مثلاً - يستشكل استشكلًا كبيراً في حلية ذلك لهم، لكن غيره أيضاً من الأحياء لا يستشكل في هذه الأمور بالإضافة إلى أنه القول المشهور عند الشيعة الإمامية.

المورد الثاني: لا شك أن لكل أمة أعياداً، والأعياد هي مواسم الفرح في تلك الأمة، وللمسلمين عيدان مهمان هما عيد الفطر وعيد الأضحى ولنا نحن الشيعة من المسلمين أيضاً أعياد خاصة، يعني مناسبات دينية هي أعياد خاصة منها عيد الغدير ومواليد الأئمة والنبي صلى الله عليه وآله، فهل في هذه المناسبات يجوز الغناء؟ أو لا يجوز الغناء في هذه المناسبات؟ و لا أعني الغناء الذي تصاحبه الموسيقى أو آلات اللهب بل هو الغناء المجرد، فينبغي أن تضعوا في أذهانكم أن الاختلاف - بين العلماء - في هذه المسائل بالذات هو اختلاف بالتغني بالأشعار في مثل هذه المناسبات، فعندئذ لا تتوهموا مثلاً أن من يحمل موسيقى أو يحمل طبلاً أو عوداً أو يحمل دفاً أو غير ذلك هو يشملها، لا طبعاً إذا صاحب الغناء أي شيء من آلات اللهب لا يختلفون في الحرمة، ولكن الناس يأتون بأشعار على هيئة الغناء وذلك من أجل اللهب في هذه الأيام التي هي مخصصة للأفراح، فهل يجوز لهم ذلك أو لا يجوز؟ هذه من المسائل التي اختلف فيها العلماء، وسن فصل الكلام فيها وفي بقية المواضع التي اختلفوا فيها في المحاضرة الآتية إنشاءً لله....

وصل الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

حرمة الغناء في الإسلام (3)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

ذكرنا أن علماء الشيعة رضوان الله عليهم متفقون على حرمة الغناء لذاته بغض النظر
عما يصاحبه، أي سواء صاحبه محرم بالخارج كاستعمال آلات اللهو من المزامير والنايات
وغيرها أو لم يصاحبه مثل هذا المحرم، أو صاحبه محرم آخر كاختلاط الرجال بالنساء أو لم
يصاحبه، فالغناء بذاته محرم، وهذا موضع اتفاق بين الفقهاء، إلى هذا القدر هو موضع اتفاق،
وبغض النظر عن مدلول الكلمات سواء كانت مدلول الكلمات حقاً كما لو كانت في مدح الله
سبحانه وتعالى أو الثناء عليه أو كانت باطلاً أيضاً لا ينظر إلى مدلول الألفاظ من هذه الناحية
بعد أن كان الغناء هو كيفية من كيفية الصوت كما مر تحديده وتعريفه، فقلنا إنهم اختلفوا في
مسائل.

ومن هذه المسائل التي اختلفوا فيها الغناء في الأعراس، وذكرنا أن المشهور بين الفقهاء
هو جواز الغناء للنساء خاصة في الأعراس بشروط تعرضنا لها في الأسبوع الماضي، ومنها
عدم استعمال آلات اللهو، حتى ولو كانت هذه الآلة دفاً أو أمثاله، ومنها عدم دخول الرجال
عليهن وعدم إيصال أصواتهن إلى الرجال كاستعمال مكبرات الصوت وأمثاله، على أن
بعض الفقهاء أيضاً لا يقولون بحليته في مثل هذا المورد كصاحب تحرير الوسيلة فإنه لا
يستثني حالة الأعراس مطلقاً.

ومن هذه الموارد أو المواضع التي اختلفوا فيها الحداء، واليوم الناس لا تحتاج للحداء فقد
فات زمن الجمال، ففي السابق كانوا يسافرون ويذهبون ويأتون على الجمال، ومن طبيعة الجمال
أنها إذا سارت تسير سيراً عنيفاً وعلى غير انتظام في رفع أيديها وأرجلها بحيث إذا كان على

ظهرها مثلاً نساء يتأذين بهذا السير، وكذلك الرجال المترفون إذا ركبوا الناقة وسارت بهم ذلك السير الذي لا ينظم رفع الأرجل والأيدي يحصل عندهم التعب، فوجدوا بأن النوق تسير بموجب الصوت الحسن، إذ إنها إذا سمعت صوتاً حسناً جعلت حركاتها وسكناتها موافقةً إلى المد والسكته وغير ذلك مما يشتمل عليه الصوت الحسن، فأوجدوا لهم نوعاً من الصوت أسموه الحداء، وقد اختلف العلماء في الحداء، فهو محرم أم محلل؟ والواقع أن الذين قالوا بحليته لم يذكروا على ذلك رواية أو آية أو غير ذلك، وإنما ذكروه استثناءً من الغناء، أو ربما لأنهم لا يرونه داخلياً في موضوع الغناء، أي باعتبار أن عنوانه الحداء فلا ينطبق عليه عنوان الغناء، ولكن معظم الفقهاء أي غالبية فقهاء الشيعة منذ صدر الإسلام إلى اليوم أيضاً يدخلون الحداء في مفهوم الغناء، وحيث إنه لا توجد أدلة على استثنائه، لا يستثنون الحداء من الغناء، طبعاً لا داعي للتوسع في بحث هذه المسألة ولا في شرحها لأنه لا يوجد داعٍ للحداء في الوقت الحاضر.

ومن الموارد التي اختلفوا فيها أيضاً الغناء في أيام الأعياد وليالي الجمعات، والظاهر أن أصل المسألة لم يكن قد جاء من فقه الشيعة وإنما جاء من فقه غير الشيعة، حيث جوزوا الغناء في الأعياد وفي ليالي الجمعات، لأن غير الشيعة لا يرون أن الغناء في حد ذاته حرام وإنما يكون حراماً إذا خالطه محرّم من خارج، وأما الغناء في حد ذاته عندهم فهو ليس محرماً، يقول الغزالي: لا يوجد أحد من أهل الحجاز من يقول بحرمة السماع؛ يعني أن كافة علماء الحجاز - طبعاً من غير الشيعة - لا يوجد فيهم من يقول بأن السماع وهو الغناء حرام، وكذلك معظم فقهاء العراق لا يوجد فيهم من يقول بحرمة الغناء، نعم قال أبو حنيفة بأنه مكروه، وكأنما هو شذوذ عن علماء العراق في ذهابه إلى الكراهة، فهذه المسألة - مسألة الغناء في الأعياد - لم تكن في الأصل من فقه الشيعة ولكن وجدت روايات فيها؛ فلذلك بحثها علماء الشيعة، ولا شك أن معظم العلماء الأقدمين والمعاصرين يقولون بحرمة الغناء حتى في الأعياد، وذهب بعض المتأخرين من العلماء إلى حلية الغناء في الأعياد الدينية والمواسم المليية كعيد الفطر والأضحى وليالي مواليد الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لوجود رواية عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر

عليه السلام، قال سألته عن التلهي في الأعياد أو في العيد، قال: لا بأس به ما لم يعص به، - وفي نسخة أخرى - ما لم يؤزر به، وفي نسخة ثالثة - ما لم يزمر به. ولا شك أن النسخة الثالثة تصحيح، يعني ليست صحيحة وإلا فالمقصود بالرواية ما لم يعص به، ما لم يعص الله بذلك التلهي أو لم يؤزر به؛ يعني ما لم يؤثم به والمعنى فيهما واحد، فتكون واحدة قد رويت باللفظ والأخرى قد رويت بالمعنى، فذهبوا إلى جواز الغناء بسبب هذه الرواية في الأعياد وفي بعض مواسم الدينية والمالية، لكن عموم الفقهاء من الأحياء والأموات المتقدمين والمعاصرين يذهبون أيضاً إلى حرمة الغناء حتى في الأعياد، وسواء كان فيه محرماً يعني صاحبه محرم من الخارج أو لم يصاحبه، ولفظة التلهي ليست خاصة في الغناء، بل التلهي حتى في الضحك والقصص وغير ذلك مما يعد تلهياً، فما لم يؤزر به أو ما لم يعص به، يعني ما لم يكذب في قصصه ونكته وغير ذلك بحيث يكون قد عصى الله سبحانه وتعالى، ومنه ما لو غنى، فيكون قد عصى الله سبحانه وتعالى، على أن هذه الرواية في الحقيقة عجيب أمرها، وغريب ورودها، والأولى حملها على موافقة التقية وذلك لأن من يتصفح أعمال العيدين، وما أمر الله فيهما من الصلاة والدعاء والتبذل والانصياع وغير ذلك يجد أن المسيطر على جو الأعياد الشرعية، إنما هو حالة العبادة لا حالة التلهي والضحك وأمثال ذلك، أي بغض النظر عن كون الرواية يستفاد منها الغناء أو لا يستفاد منها الغناء، فالروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في استحباب الإنقطاع إلى الله في العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى وغيرها من أيام الأعياد الدينية والمالية، كلها تدل على أن الأعياد لم تجعل للتلهي والتضحك وغير ذلك، وإنما جعلت أياماً فاضلةً عند الله سبحانه وتعالى للعبادة، فإذا جاءت هذه الرواية تقول بالتلهي فلا بد من تأويلها لأنها موافقة للتقية، فإن من يلاحظ الأدعية الواردة عن أهل البيت عليه السلام وسائر الروايات والأخذ بالصيام في كثير من الأعياد في عيد الغدير مثلاً أو الأمر بالصلاة والصدقة والدعاء في عيد الفطر وعيد الحج يعرف أنه لا يبقى مجال عندئذ للتلهي بجميع أشكاله، سواء كان غناء أو غير غناء، فكيف يمكن أن يقال إنه يباح الغناء؟

وخذ مثلاً عيد شوال [عيد الفطر] يستحب الغسل في أول الليل، ويستحب الدعاء طيلة الليل، ويستحب الغسل في أول النهار، وتجب الصلاة من حين طلوع الشمس، ويستحب الدعاء إلى زوال الشمس، فمتى يبقى وقت للتلهي الذي يتكلم عنه السائل الذي يسأل الإمام؟ وما هي هذه الرواية مع هذه الروايات الكثيرة المتعددة التي هي باليقين ثابتة عن الأئمة عليهم السلام. وكذلك عيد الحج [عيد الأضحى] وما فيه من الأعمال وما فيه من العبادات، كل ذلك ينافي بالتصور هذه الرواية وغير ذلك، ولذلك ذهب معظم العلماء إلى أن التلهي - وإن كان لا يعصى به الله وليس حراماً - فإنه ليس من الأمور المستحبة أو الفاضلة، وأما الغناء فلا يفهم عندهم قطعاً من هذه الرواية، فهم جميعاً - ماعدا الشاذ النادر منهم - ذهبوا للجزم بحرمة الغناء حتى في الأعياد وليالي الجمعات.

ومن الموارد التي ربما يختلف فيها العلماء، قضية القرآن الكريم، التغني بالقرآن الكريم، فهناك روايات عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الإمام الصادق عليه السلام وعن بقية الأئمة عليهم السلام منها قول النبي صلى الله عليه وآله: "اقرأوا القرآن بالصوت الحسن فإن الصوت الحسن يزيد القرآن زينة".

ومنها قول الصادق عليه السلام: "من لم يتغن أو يغتن بالقرآن فليس منا"، ولكن الصوت الحسن ليس دائماً معناه الغناء، وأما الرواية الثانية فالمقصود منها من لم يكن غنياً بالقرآن عن غيره من الكتب فليس منّا، وليس المقصود منها من لم يجعل القرآن مورد أغنية يغني بها فليس منا، ولذلك لا تتنافى هاتان الروايتان وأمثالهما مع ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله: "اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإياكم وألحان أهل الفسق والفجور" وفي رواية أخرى طويلة في وصف آخر الزمان قال: "وعندئذ يأتي أقوام يتعلمون القرآن لغير الله يجعلونه مزامير" إلى أن قال صلى الله عليه وآله: "أن أولئك من أهل النار".

على أي حال قوله [يجعلونه مزامير] ليس المقصود به أنه يقرؤونه في النيات والعيان والأوتار لأنها لا تخرج أصواتاً ذات حروف ومقاطع حتى يقرأ بها القرآن، وإنما يجعلونه مزامير أي

يقروونه بطريقة النفخ في المزامير، أي يجعلون القرآن أغنية يتغنون بها، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله في الرواية الأولى: "اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها وإياكم وألحان أهل الفسق"، والمقصود بألحان أهل الفسق إنما هي ألحان المغنين، فإذن حتى لو كان مدلول الأغنية هو آيات القرآن الكريم، يكون التغني بها حراماً، ويكون الاستماع لها حراماً، بل لا بد أن يقرأ القرآن بأصوات العرب وألحانها، وطبعاً يستحب تحسين الصوت بالقرآن، ولقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام يحسنّ صوته بالقرآن حتى أن السقائين إذا مروا بداره صباحاً يققون، يأخذهم حسن صوته فيققون يستمعون إلى تلاوته حتى ينتهي من التلاوة، فهل معنى ذلك أنه عليه السلام يجعل القرآن أغنية يغني بها؟ طبعاً لا، لا شك أن الصوت الحسن كما ذكرنا في تعريف الغناء عنصر من عناصر الغناء، لكن ليس كل صوت حسن هو غناء، فقد ذكرنا فيما سبق من تعريف الغناء بأنه الصوت الحسن المرجع فيه بطريقة معينة متعارف عليها، يقتضي تكرارها إيجاد الطرب، وقلنا إن الطرب إنما هو خفة تعتري النفس توجد الحزن أو الفرح، فإذاً ليس كل صوت حسن غناء، وإن كان الصوت الحسن عنصراً من عناصر الغناء، فإن الصوت الأبح بطبعه أو الأجش بطبعه لا يشتهي الإنسان الاستمرار في استماعه حتى يجذب الناس ويثير فيهم طرباً، فإذن يستحب تحسين الصوت بالقرآن، ولكن لا يجوز اتخاذ القرآن مزامير، ولا يجوز التغني بالقرآن، بل يذهب بعض الفقهاء أيدهم الله إلى أن التغني بالقرآن والدعاء وبالأشعار التي فيها مدح الله سبحانه وتعالى أو مدح للأنبياء والأئمة عليهم السلام أشد حرمةً من التغني بسائر الأشعار الغزلية وأمثالها؛ لأن في هذا إيهاماً بأن هذا إنما يفعل هذا المحرم عبادة والحال أنه فسق وليس عبادة، وإن الله سبحانه وتعالى لا يطاع من حيث يعصى.

وأيضاً من المسائل التي تثار في هذا الصدد مسألة المراثي على أهل البيت عليهم السلام، المراثي والمدائح التي تقال في أبي عبد الله الحسين عليه السلام وسائر أهل البيت عليهم السلام، فهذه هل تستثنى من حرمة الغناء؟ أو أنها لا تستثنى من حرمة الغناء؟ والمقصود أنه لو أن المنشد اتخذ للقصيدة التي ينشدها لحناً غنائياً كألحان أهل الفسق، كما نشاهده عند بعض من

ينشدون [الرداديات] بالأخص، يستمعون إلى ألعان أهل الفسوق ويصيغون ذلك على إيقاعاتهم وأنغامهم، فمثل هذه الحالة، هل تستثنى؟ أو لا تستثنى من الحرمة؟ أي انه ليس مجرد قراءة الشعر بطور من الأطوار التي لا تدخل في أطوار الغناء أو تقسيم الصوت بالشعر يكون حراماً، لا، لا يفهم أحد منكم ذلك، أنا لا أقصد ذلك، والعلماء الذين يقولون بالحرمة لا يقصدون ذلك، وإنما يقصدون: لو أن الخطيب الحسيني أو الرادود الحسيني اتخذ للقصيدة لحناً غنائياً فهل تكون أجرته حلالاً أم حراماً؟ وهل يكون مأثوماً أم مستثنى في هذه الحالة من الإثم؟ وهل يجوز الجلوس والاستماع إلى تلك [الردة] أو تلك القصيدة التي ألقيت بلحن الغناء؟ أو يجب القيام ويجب إنكار المنكر عند القدرة عليه؟

بعض الفقهاء استثنوا من ذلك المراثي في أبي عبد الله الحسين عليه السلام خاصة، وقسم قال إن جميع مراثي الأئمة عليهم السلام ومدائحهم تستثنى، ومعظم العلماء من الأحياء والأموات يقولون لا تستثنى، لا يستثنى من ذلك هذا الأمر، والذين استثنوا ذلك اعتمدوا طبعاً على رواية عن الإمام الصادق عليه السلام عندما دخل أحد العراقيين عليه في المدينة المنورة فأنشده قصيدة في الحسين عليه السلام فقال "أنشدني كما تقرأون في العراق"، يقول هذا البعض إن أهل العراق كانوا ينشدون بطريقة الغناء، فإذا بموجب هذه الرواية تستثنى مراثي أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

الباقون يقولون إن المعروفين بحلية الغناء وأطوار الغناء ليسوا هم أهل العراق وإنما هم أهل الحجاز، وقوله عليه السلام "أنشدني كما تتشددون عندكم في العراق"، يعني لا تتشددني بلحن أهل الحجاز لأنه محرم وأنشدني بطريقة أهل العراق لأنهم لا يستعملون الغناء، أو على الأقل تكون طريقة الإنشاد في العراق في ذلك الزمان مجهولة لنا فلا نعلم ما هي، أهي طريقة الرقة أم هي طريقة الغناء.

فإذاً لا يمكننا التمسك بهذه الرواية في القول بتحليل شيء ثبت بالضرورة من الدين وبشرع سيد المرسلين أنه حرام، وعندئذ لا يجوز لمن ينشد على أبي عبد الله الحسين عليه السلام أن

يتتبع أساليب أهل الفسق وألحانهم وإيقاعاتهم في إنشاد ما يرثي به الحسين أو أهل البيت عليهم السلام أو يمدحهم بذلك.

وبعض العلماء يقول إن الغناء معروف عرفاً، وهذا لا يكون غناءً حتى إذا كان بأسلوب الغناء، وحتى لو صار بألحان المغنين لا يسمى غناءً، وإنما هو نوح، وفرق بين الغناء والنوح، والمحرم إنما هو النوح بالباطل وليس مطلق النوح، فيكون عندئذ إنشاد هذه المراثي ولو على طريقة المغنين حلالاً، طبعاً هذه شبهة لطيفة ونقول فيها إنه لا شك أن النوح يختلف عن الغناء في اللغة، وفي الحديث المنقول عن النبي صلى الله عليه وآله "صوتان يكرههما الله، نوح في فجيعة، وصوت في نعمة" أي أن النوح والغناء محرمان، وفي رواية أن امرأة كانت لها جارية وهذه الجارية كانت تنوح على الموتى، وكانت هي تأكل من كسب هذه الجارية، يعني إذا مات شخص يدعون الجارية لتنوح عليه، وسمعت أن النوح حرام فذهبت إلى رجل من أهلها وقالت له إذا ذهبت إلى الحج فاسأل أبا عبد الله عليه السلام وتعني الصادق عليه السلام هذا حلال أم حرام؟ وأنت تعلم أنه ليس لي مورد أرتزق منه إلا هذه الجارية، فإن قال حلال أبقيتها وأكلت من كسبها، وإن قال حرام بعتها وأكلت من ثمنها حتى يفتح الله سبحانه وتعالى، فقال لها أخوها إنني أجل أبا عبد الله أن أسأله مثل هذه المسألة، وأبى أن يعدها بالسؤال، فلما سافروا إلى الحج تذكر ابن أخيها ذلك فسأل أبا عبد الله عليه السلام فقال: "أنتشارط؟ [يعني تشتترط أجرة معينة] فقال لا أدري إن كانت تشتارط أم لا، ولكن على الحاليين، قال قل لها لا تشتارط، فإذا لم تشتارط حلّ لها ذلك".

طبعاً هذا مقيد، نحن هنا في البحرين لا يوجد عندنا نوح على الموتى، إذا مات الميت نقرأ على الحسين وعلى أهل البيت عليهم السلام، ولكن في العراق والشام وفارس ومصر وغير ذلك النوح على الميت باق إلى اليوم لم ينقرض، وقد رأيت في النجف الأشرف، والمقصود بالنوح على الميت أن يؤتى بالنائحة فتعدد فضائل ذلك الميت ومكارمه وترفع من قدره، وفي العادة أن النائحة تضطر إذا كانت مهنة الميت وضيعة أن تعطي هذه المهنة أوصافاً وألقاباً لتقلبها مدحاً، فنقلب الأفعال الشائنة مدحاً، هذا ما يسمى نوحاً بالباطل، وقد شاهدناه، وبعد النوح توجد عند أهل

العراق عادة أخرى يسمونها [الحر]، و[الحر] هو أن تجتمع نساء المحلة مع أقارب الميت أو الميتة من النساء ويتعريين من الثياب ويلطمن الصدور بأقصى ما يمكنهن حتى تدمي صدورهن لمدة أربعين يوماً، حتى لو كانوا يتمنون موت ذلك الإنسان فإنه إذا مات يفعلون له ذلك. أربعين يوماً بهذه المثابة، بالإضافة إلى النوح وهو أن تأتي النائحة وتعدد فضائله ومناقبه وما فعله في حياته من المكارم، طبعاً أحياناً يكون الميت ممن له فضائل ومناقب واقعية، كما لو كان عالماً جليلاً وعمل من الأعمال الخيرية ما شاء الله، فإذا جاءت النائحة لا تحتاج للباطل وإنما تقول عمل كذا وكذا وغير ذلك، ولكن والعياذ بالله إذا كان مستهتراً سكيراً أو غير ذلك، وكانت جميع الخصال الدانية هي فيه فماذا تفعل النائحة؟ تقلب تلك الرذائل فضائل، تصوغها بصيغة الفضائل، يعني تصوغ للفضائل ألقاب فضيلة، وهذا يسمى نوحاً بالباطل، فطبعاً قوله عليه السلام: "قل لها لا تشارط" ليس معناه أنها لو ناحت بالباطل يكون نوحها حلالاً ولا تأثم، تأثم ولكن السيدة التي هي مالكة الأمة لا يلحقها إثم أن جارتها ارتكبت المحرم، وإنما لو كانت قد شارطت يكون الكسب حراماً، فإذا أكلته السيدة أكلت حراماً، وأما إذا لم تشارط وقبلت بما أعطوها لا يكون ذلك أجره على النوح لأن الأجره هي ما تمت عليه المشاركة، وأما بدون مشاركة وما يعطى لها من قليل أو كثير تأخذه لا يسمى أجره فيكون الدخل حلالاً، فإذا أكلت منه مالكتها أو سيدتها تكون قد أكلت حلالاً.

فمورد نظره عليه الصلاة والسلام إيجاد الطريق الذي يجعل ما تأكله تلك السيدة المؤمنة حلالاً؛ لأنها ليس لها مورد رزق غير هذه الجارية، فلا يدل كلامه هنا على أنه في حالة النوح يكون كل شيء حلالاً ويُغض النظر عن الروايات والأحكام الثابتة أيضاً في حرمة النوح، نعم استثنى النوح بالحق فهو ليس حراماً، ولكن لا شك أن النوح يختلف عن الغناء لا لأن هذا يثير الحزن والغناء يثير الفرح كما يقول أصحاب هذه الشبهة، لا، ليس من هذا القبيل، فبعض [الرداديات] التي قد سمعنا جزءاً منها لو تركت وشأنها تثير فرحاً، لكن لما كان مدلول الألفاظ في تعداد مصائب الآل عليه السلام فمدلول الألفاظ هو الذي أثار الحزن.

إن فالكلام إنما هو في الكيفية، ولما كانت الكيفية محرمة فإذا صاغ هذا [ردته] بالطريقة التي حرّمها الله فلا شك أنه يكون مأثوماً على ذلك لأنه يكون سلك مسلك أهل الفسوق، ويكون مستمعوه مأثومين أيضاً على الاستماع إليه، فإذن لا يستثنى من ذلك [الردات] وأمثالها، حتى لو كانت في الأئمة المعصومين عليه السلام إذا كانت بألحان أهل الفسق وإيقاع المغنين، وأما مثلاً الأطوار التي يستعملها الخطباء في الأبيات الدارجة فالظاهر أنها لا يشملها مفهوم الغناء، لأنها ليست على إيقاع المغنين، وإنما هي نمط خاص اتخذ في هذه المجالس منذ أن بزغ فجرها فلا تدخل في أصوات المغنين، نعم كما قلت بعض الذين يصيغون [الردات] و[اللطميات] يتعمدون أحياناً أصوات أهل الفسق فإذا تعمدوا ذلك وجب القيام عنهم وعدم الاستماع إليهم.

وهذا آخر ما نوردته في هذا البحث المتعلق بالغناء وأرجو من الأخوات اللواتي طلبن الخوض في هذه المسألة أن ينظفن مجتمعهن من المغنيات اللواتي ينتحلن لأنفسهن اسم الملايات وما هن بملايات، فيطردن كل من تحمل دفاً في عرس، لا من ذلك العرس فقط ولكن من المآتم حتى في أيام عشرة محرم؛ فإن من ترضى أن تدنس نفسها بحمل الدف وأمثاله لا ينبغي أن تنسب إلى أهل البيت عليه السلام، فارجو من الأخوات اللواتي طلبن السير في هذا البحث أن يطهرن مجتمعهن من هذه الجاهلات اللواتي يردن التشبه بأهل الفسق فيقولون هذه فرقة فلانة وهذه فرقة فلانة، ليس عند الشيعة فرقة لضرب الدفوف والأغاني، وإنما عند الشيعة مؤمنات وقرات يطعن الله ولا يعصينه، ويتمسكن بأهل البيت وأقوالهم عليهم السلام ويتبعنهم.

وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

اختلاف العلماء في إثبات الهلال*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

من الموضوعات التي تتخذ في معظم الأحيان لانتقاد العلماء والانتقاص منهم اختلافهم في إثبات الأهلة، فكثير ممن لا معرفة له بشؤون الفقه وشؤون الأحكام يتخذ هذا نقداً وعبياً على العلماء، وقد استغل أو استغل هذا الموضوع أيضاً من الفئات المعادية للفكر الإسلامي وللعقيدة الإسلامية كالشيعيين وغيرهم من أصحاب المبادئ الأخرى لمحاولة إبعاد الشباب عن العلماء، يضحون قضية الاختلاف في الأهلة، وأحياناً يثيرون تحيزات بين الناس بسبب الاختلاف في الأهلة، فإذا اختلف العلماء في هلال صوم أو في هلال فطر أو في هلال حج جاء المغرضون وحزبوا الناس، فتجد مثلاً من أفطر يقدر في العالم الذي لم يفطر، ومن لم يفطر - بسبب متابعتة لعالم لم يفطر - يقدر في العالم الذي أفطر، وبطبيعة الحال فإن معظم الناس ليسوا مغرضين، وإنما بسبب الجهل بطرائق إثبات الأهلة وأساليب إثباتها يتصورون أن ذلك ناتج من حزازات شخصية، وعنعات ذاتية بين العلماء، فيوجهون لهم الانتقاد، ومن أجل ذلك نود أن نلقي نظرة موجزة على أساليب إثبات الأهلة وكيف ينظر العلماء في هذا الموضوع، وما هي الموارد التي يختلفون فيها والموارد التي لا يختلفون فيها.

أصل الموضوع أن الأهلة أو إثبات دخول الشهر القمري العربي يكون برؤية الهلال؛ لقول النبي صلى الله عليه وآله: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته"، والمسلمون كلهم على أن الهلال أو على أن الشهر يبتدئ من حين رؤية الهلال في أفق السماء، باستثناء الإسماعيلية فإنهم يرون أن الشهر يبتدئ من حين دخول القمر في حيز المحاق، فإذا دخل القمر في حيز المحاق يكون

الشهر عندهم قد دخل، وقد يكون ذلك في الليلة الثامنة والعشرين أو الليلة التاسعة والعشرين، ولا يصل إلى ليلة الثلاثين طبعاً.

طبيعي أن هذا الموضوع - موضوع الإسماعيلية - خارج عن موضوع البحث والمناقشة لأنه يباين أو يناقض قوله صلى الله عليه وآله: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته"، مناقضة واضحة، فإن الهلال يرى إذا خرج من حيز شعاع الشمس لا فيما إذا دخل في الظل المخروطي للأرض؛ لأن حالة المحاق معناها دخول القمر في ظل الأرض بحيث يكون على خط قدره 180 درجة مستقيماً مع الشمس، فعندئذ لا يمكن أن يرى لأنه إذا توسطت الأرض بينه وبين الشمس تحصل حالة خسوف، وإذا كان في هذا المجال وكان فوق الأرض يكون واقعاً في منطقة شعاع الشمس فلا يمكن أن يرى، والأمر إنما هو الصيام والنظر بالرؤية.

فاختلاف سائر المسلمين مع الإسماعيلية في هذا الموضوع نظراً لأن النبي صلى الله عليه وآله عين رؤية الهلال أو عين مبدأ الشهر برؤية الهلال، والإسماعيلية إنما عملوا ذلك متابعة لبعض طوائف الهند وجروا عليه عندما صاروا في الهند، وأما عندما كانوا في مصر؛ يوم كانوا يحكمون مصر أيام الدولة الفاطمية فكانوا يسيرون على طريقتين؛ طريقة تعرف بطريقة الجدول، وطريقة تعرف بطريقة الحساب، ولذلك تجد أن الفقهاء ينصون أن الجدول لا عبارة به وأن الحساب لا عبارة به، ويقصدون الطريقتين الإسماعيليتين اللتين كانتا تستعملان في مصر أيام الإسماعيلية، وفي القرون الأخيرة عندما انتقل الإسماعيلية بشقيهم المؤمنية والنزارية إلى الهند عملوا بموجب قانون بعض الطوائف الهندية وهو تعيين أن الهلال أو أن مبدأ الشهر يبتدئ من حين دخول القمر في حيز المحاق.

على أي حال نحن لا نناقش هذا القول؛ وإن كان الإسماعيلية عند سائر المسلمين محسوبين على الشيعة.

مبدأ الهلال أو مبدأ الشهر هو رؤية الهلال، ويسمى هذا بالشهر الشرعي، وهناك شهر آخر مبدؤه حساب معين يعتمد على علماء الهيئة، ويسمى هذا بالشهر التقويمي، نجد أن التقاويم تبني على هذا النحو من الحساب وتعين أول الشهر وآخر الشهر، وهذا يسمى شهراً تقويمياً، والشهر التقويمي هو أن يحسب تسعة وعشرين يوماً ونصف لكل شهر عربي، وبطبيعة الحال فإن الشهر العربي بعضه يكون ثلاثين يوماً وبعضه يكون تسعة وعشرين يوماً، فإذا كان المبدأ الهلال أقل من تسعة وعشرين يوماً ونصف يطرح ذلك النصف وإذا كان أكثر من تسعة وعشرين يوماً ونصف يضاف إليه نصف يوم فيكون الشهر تاماً، وفي تلك الحالة التي تنقص فيها نصف اليوم يكون الشهر ناقصاً، طبعاً باعتبار أن علماء التقويم يريدون أن يضعوا مبدأ الشهور لسنة كاملة ولا يعينون كل شهر بمفرده، وهناك أيضاً شهر ثالث يسمى الشهر الواقعي، والشهر الواقعي يعتمد في تعيينه على لحظة تولد الهلال، ويتولد الهلال بمجرد مفارقتة لمركز شعاع الشمس، فإذا انحرف عن مركز شعاع الشمس إلى جهة الغرب يعتبر الشهر الواقعي قد دخل، والشهر الواقعي قد يسبق الشهر الشرعي بيوم وقد يكون معه في نفس اليوم، والاعتماد في تعيين العبادات من الصوم والإفطار والحج والخمس والزكاة والعادة الشهرية للنساء وغيرها إنما هو الشهر الشرعي، ولكن كيف يثبت الشهر الشرعي؟ هذا السؤال هو موضوع هذه الكلمة، ولا أقول هذا البحث لأننا لسنا في موضوع بحث وإنما في موضوع أو في مجال كلمة.

أحياناً يكون الهلال نيراً والسماء صافية بحيث أن كل من التفت إليه ورفع رأسه إلى السماء وكانت عينه سليمة يرى، وتكون الرؤية حينئذ رؤية عامة وهذا ما يسمى عند الفقهاء بالرؤية العامة، وفي هذه الحالة لا يثبت الهلال إلا بوجود الشياخ بين المشاهدين في تلك البلد، ويختلف الفقهاء في القدر المحقق للشياخ؛ فمنهم من يقول إنه لا بد أن يدعي الرؤية في مثل تلك الحالة عدد لا يقل عن الخمسين أو عن الأربعين، فلو كانت السماء صافية خالية من جميع العلل، ليس فيها شعاع ولا غبرة ولا حمرة ولا دخان ولا ضباب ولا غيم ولا غير ذلك من سائر العلل السماوية، وكان الهلال نيراً ومع ذلك لا يدعيه إلا أفراد قليلون فإنه حينئذ يحكم باشتباههم؛ لأنه إذا كانت

السماء بهذه الكيفية فيقتضي أن كل سليم البصر ملتفت إلى الهلال يرفع رأسه إلى جهته يراه، فإذن لا تقبل البيئة في مثل هذه الحالة. هكذا ذهب كثير من الفقهاء ومنهم صاحب الحدائق رحمه الله، وقسم آخر من الفقهاء يقبلون البيئة حتى في مثل هذه الحالة باعتبار أن حجية البيئة مطلقة فلا تحدد ولا تقيد بخلو السماء من العلة.

وطبعاً قد يختلف العلماء لو كانت السماء بمثل هذه الحالة والهلال بمثل هذه الحالة ثم لم يحصل عدد يحقق الشياخ، فلا شك أن من يكتفي بمطلق البيئة يصوم من شهر رمضان أو يفطر إذا كان عيداً، أو يقف وقوفاً جدياً لو كان في الحج، والقسم الآخر من الفقهاء أو العلماء سواء كان عن اجتهاد أو تقليد يتبع من لا يقبل بالبيئة، وفي مثل هذه الحالة لا يتمكن من الإفطار إذا كان فطراً أو من تعيين ذلك اليوم من شهر رمضان لو كان صوماً، فلا بد إذن أن يقع الاختلاف. وكذلك الذين يقولون لا يكتفي إلا بالشياخ أيضاً يختلفون في القدر المطلوب في تحقق الشياخ هل هو عدد معين كأربعين أو خمسين أو لا ينحصر في عدد معين، بل كل عدد أوجب اطمئناناً نفسياً أو أوجب علماً يعني هل يشترط أنه يوجب العلم أو يوجد الاطمئنان موضع خلاف، فقسم يقول يكفي أي عدد يوجد اطمئناناً في النفس، وعندئذ لو وجدت تسعة شهود أو عشرة شهود ففي مثل هذه الحالة بعض العلماء يثبت عنده دخول شهر رمضان مثلاً، أو دخول شوال، وقسم آخر ممن يشترط أن العدد لا بد أن يكون مفيداً للعلم وحينئذ فإن تسعة أو عشرة من بلد يسكنها خمسمائة أو ألف شخص لا تحقق له علماً فعندئذ قد لا يفطر، أو قد لا يصومونه من رمضان، ويكون ذلك أيضاً مورداً من موارد الاختلاف.

أما إذا كان في السماء علة، والعلل تختلف، الغيم علة مانعة من الرؤية والضباب الكثيف علة مانعة من الرؤية، والدخان الشديد علة مانعة من الرؤية، لكن الغبار المنتشر في الجو في ظاهر الأمر وإن كان علة لكنه ليس علة مانعة من الرؤية في نظر قوم، وكذلك لو كان في الأفق احمرار زائد فعند بعض العلماء أنه ليس علة مانعة من الرؤية، فهل تختص حجية البيئة أي الشهادة في بعض العلل دون بعض أو في كل مورد توجد فيه العلة تقبل فيها البيئة؟ هذا أيضاً

مورد خلاف. فلو لم يكن في السماء غيم ولا ضباب كثيف ولا دخان كثيف ولكن يوجد في السماء احمرار زائد وجاءت بيبة وادعت الرؤية، فبعض العلماء يقول في مثل هذه الحالة لا أقبل البيبة لأنه ليس في السماء علة تمنع من الرؤية، وقسم آخر يقول: لا، مع وجود البيبة التامة الشرعية فأنا أقبلها وأبني عليها، وأنه لا فرق؛ لأن العبرة إنما هو عجز العين عن الرؤية سواء كان بوجود الحاجب أو لأمر مفرق للبصر كالشعاع الكثير المتسبب عن انتشار الرطوبة الزائدة في الجو أو الغبار الكثير في الجو أو الحمرة الشديدة أو غير ذلك مما يضعف البصر العادي عن اختراقه، فعندئذ إذا جاء أفراد يتصفون بصفات الشاهد وتحقق بهم البيبة فأنا أبني عليها، ولا أشكال في أنه في مثل هذه الحالة سيقع اختلاف بين من يقبل البيبة وبين من لا يقبل البيبة.

نفرض أن العلل اجتمعت، وأن هناك علة يتفق القوم على أنه في مثلها تقبل البيبة كالغيم مثلاً، ولكن هل تقبل البيبة من داخل البلد أو لا تقبل البيبة إذا كانت من داخل البلد؟ هذا موضع خلاف عند العلماء. فقسم من العلماء كصاحب الحدائق رضوان الله عليه يقول: في مثل هذه الحالة يلزم أن تكون البيبة من خارج البلد لا من داخل البلد؛ لأنه إذا كانت في السماء فرجة يمكن رؤية الهلال من خلالها، فلا يعقل أن تكون مقتصرة على هذين الشخصين أو الثلاثة، بل كل أهل البلد إذا نظروا إلى السماء وكانت هناك فرجة تواجه الهلال فكل سليم البصر منهم سيرى الهلال، وعندئذ لو كانت البيبة من داخل البلد لا يمكن البناء عليها، وأما لو جاءت البيبة من خارج البلد فتقبل لأنه يحتمل وجود الفرجة في ذلك الموضع، ولا توجد الفرجة في داخل البلد؛ كما لو كانا في بحر فرأياه أو في صحراء فرأياه ولم يره أهل البلد فهذا صحيح، وتقبل البيبة. قسم آخر يقول لا، نحن نقبل البيبة سواء كانت من داخل البلد أو من خارج البلد، وبطبيعة الحال ففي مثل هذا المورد لا بد أن الشخصين سيختلفان في ثبوت الهلال وعدم ثبوته.

نضيق الموضوع فنقول لو أن السماء معلولة بعلّة يتفق فيها على قبول البيبة كالغيم، وأن الشاهدين أو الشهود يدعون الرؤية في خارج البلد كالبحر أو الصحراء أو كانوا في سفر فقدموا، يأتي هنا دور تقييم العدالة.

وللعلماء رضوان الله عليهم مذاهب متباينة في العدالة بين مشدد وبين مسهل، فالذي يشترط شروطاً مشددة في عدالة الشاهد قد لا تستقيم عنده البيعة، بينما الذي يكتفي بحسن الظاهر مطلقاً قد تستقيم عنده البيعة، فعندئذ تستقيم البيعة عند زيد ولا تستقيم البيعة عند عمرو وهذا أيضاً يسبب الاختلاف في دخول الشهر وعدم دخوله.

وكذلك لو أن الهلال أو دخول الشهر لم يثبت عن طريق الرؤية العامة أو الشيعاء أو البيعة وإنما حكم به أحد حكام الشرع فقال القاضي أو المرجع أو غيره حكمت بأن غداً أول شهر رمضان أو حكمت بأن غداً هو أول شوال أو حكمت بأن غداً هو اليوم التاسع من ذي الحجة أو هو اليوم الأول من ذي الحجة ففي هذه الحالة هل ينفذ حكم هذا الحاكم على سائر المكلفين أو لا ينفذ حكمه على المكلفين؟

لا إشكال أن الحاكم الشرعي في الأحكام الشرعية يسري حكمه على كل المكلفين، وأن من رد عليه رد على الله وعلى رسوله وعلى الأئمة عليهم السلام، هذه هي القاعدة العامة في فقه الإمامية، ولكن هل أن مجال نفوذ حكم الحاكم الشرعي هو الأحكام الشرعية أو تشمل موضوعات الأحكام الشرعية أيضاً؟ هذا موضع خلاف، ولا إشكال أن الحاكم الشرعي لو كان معصوماً كنبى أو إمام مفترض الطاعة فحكمه يجري على المكلفين في جميع الأشياء، هذا لا خلاف فيه؛ لأن النبي قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾¹. فالنبي صلى الله عليه وآله يستطيع أن يقول أخرجت هذا البيت من ملك فلان وأدخلته في ملك فلان وينتهي الأمر، ولا حق له في الاعتراض. والنبي صلى الله عليه وآله يستطيع أن يقول طلقت زوجة فلان منه وأنكحتها فلاناً، ولا يستطيع من طلقت زوجته أن يتكلم، ولا يستطيع من أنكح تلك الزوجة أن يرفض، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، والنبي يستطيع إجراء الصلح على أي جزء من أجزاء أرض المسلمين، والنبي يستطيع إعلان الحرب على أي قوم أراد، كل هذا داخل تحت سلطة النبي صلى الله عليه وآله، وما كان لمحمد صلى الله عليه وآله فهو لعلي بدليل حديث يوم الغدير حيث قال فيه النبي

¹ الأحزاب: من الآية 6

صلى الله عليه وآله: "ألست أولى بكم من أنفسكم؟"، مشيراً إلى تلك الولاية التي جعلت له بموجب الآية، فلما أجابوا بلى يا رسول الله، قال: "فمن كنت مولاه فعلي مولاه".

فإذاً جعل هذه الولاية المجعولة له من الله في التصرف في كل الموجودات الكونية، وكل ما يعود إلى بني الإنسان لعلي عليه السلام، وثبتت له، وما كان لعلي عليه السلام فهو للمعصومين من ولده الأئمة المفترضة طاعتهم، هذا لا إشكال فيه، لكن بقية العلماء بما لهم من ولاية ليسوا كالنبي وكالأئمة المعصومين، فلا يستطيع أي حاكم شرعي ولا أي مرجع أن يقول أخرجت بيت فلان من ملكه وأعطيته فلانا، ولا يتمكن ولا يستطيع أي حاكم شرعي أن يقول طلقت زوجة فلان منه وزوجتها فلانا، لا يتمكن، إذاً هل له أن يحكم في الموضوعات؟ أو ليس له أن يحكم في الموضوعات؟ مسألة موضع خلاف شديد منذ قديم الزمان، فبعض الفقهاء يرى أن للحاكم الشرعي أن يحكم في الموضوعات، ومن ضمن الموضوعات التي تتعلق بها أحكام شرعية تبدل الشهور، ودخول شهر وانتهاء شهر، فيكون من حقه أن يقول حكمت بأن غداً أول شوال، أو بأن غداً أول شهر رمضان، أو غير ذلك، وهذا القسم من الفقهاء يعتقدون بأن الحاكم الشرعي إذا حكم بذلك وجب على كافة المكلفين تنفيذ هذا الحكم والإفطار أو الصوم أو غير ذلك، وقسم آخر من الفقهاء يقول بأن الحاكم الشرعي لم يكن منصوباً من قبل الأئمة لمثل هذه الغايات، فصلاحيته لا تتسع للحكم في الموضوعات، فلا يستطيع أن يقول حكمت بأن غداً أول شوال، أو بأن غداً أول شهر رمضان، ولو قال ذلك كان قوله لاغياً وخروجاً على دائرة اختصاصه، فلا يكون ملزماً لأحد من المكلفين، وطبعاً لكل فريق في هذه القضية أدلته ولكل فريق مبناه.

ولا شك أنه في حالة ثبوت الهلال بالحكم لا إشكال أنه سيقع الاختلاف، فمن يرى أن حكم الفقيه أو الحاكم الشرعي سواء كان مرجعاً أو قاضياً أو غير ذلك نافذاً فيلزمه تنفيذ ذلك الحكم، ومن يرى بأن الحاكم الشرعي لا يدخل الحكم في الموضوعات في مجال اختصاصه يرى أن نطق الفقيه أو نطق القاضي أو نطق المرجع بهذا الحكم لاغٍ لأنه خروج على مورد اختصاصه، هذا من موارد الاختلاف.

فإذاً الاختلاف بين العلماء في قضية الأهلة ليس بسبب الحزازات الشخصية، أو النظرات الذاتية، أو التعصب، وإنما بسبب اختلاف المقاييس الشرعية التي يبني عليها كل فريق أو كل عالم من العلماء في إثباته للهلال أو عدم إثباته للهلال في ذلك الموضوع. فما هو واجب الإنسان المكلف؟

هناك أيضاً مسألة من مسائل الاختلاف أو من أسباب الاختلاف لا بأس أن نشير إليها، وهي أن العلماء يختلفون في أنه هل أن كل بلد وكل قطر له هلال خاص أو للعالم كله هلال واحد؟

بعض العلماء يقول: كل أهل قطر لهم أفق شمسي معين، وهذا الأفق الشمسي المعين يفرض رؤية للهلال معينة، وعندئذ لا بد أن يكون الهلال قد وجد في أفق تلك البلد حتى يكون قد تبدل الشهر في تلك البلد، واختلاف أفق عن أفق يقدره الفلكيون بالاختلاف ساعة في الشروق أو الغروب، لكن الفقهاء لم يعينوا مقدار تباين الآفاق، بل قالوا إذا تباينت الآفاق، فإذا بنينا على تبدل الأفق من الناحية الفلكية تهون المسألة، لأن الأفق الواحد إذا كان يقتضي التغير بساعة في الشروق و الغروب فمعناه من هنا إلى الحجاز يبقى أفق واحد لأنه لا يوجد ساعة كاملة بيننا مثلاً وبين مكة بل من هنا إلى ما قبل خراسان بقليل يبقى أفق واحد لأنه لا يوجد ساعة واحدة تسبق في الشروق أو تسبق في الغروب، لكن هل أن الرؤية في الهلال هكذا؟ هذا مشكل، لأن الهلال مكوثه في الليل قليل في أول ليلة، فالبلاد الشرقية التي تغيب فيها الشمس قبل البلاد الغربية ولو بدقائق معدودة كعشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة أو أكثر من ذلك حتى لو لم تصل الساعة قد لا تتمكن من رؤية الهلال، بينما تتمكن البلاد الغربية التي يتأخر فيها الغروب أن ترى الهلال، إذا كان تولد الهلال بعد زوال الشمس، فإذا تولد بعد زوال الشمس مثلاً وكانت الأيام أيام صيف فإنه تكون هناك مدة كافية من زوال الشمس إلى الغروب يتمكن فيها الهلال من الانفلات من أسر الأشعة الشمسية بحيث يكون فوق الشمس بخمس وثلاثين درجة إلى أربعين درجة فتكون الرؤية ممكنة، وإن كانت متعسرة في بعض الأحيان مثلاً، ولكن يكون الإمكان العقلي والإمكان العلمي

متوافراً، فيرى الهلال، بينما إذا كانت الشمس تغيب قبل هذه اللحظة لا يمكن رؤية الهلال عند أهل هذه البلد، لماذا؟ لأن الهلال لم يفلت بعد من دائرة الأشعة الشمسية بدرجات كافية تكون معها الرؤية بالعين ممكنة. فطبعاً هذا بالنسبة إلى الذين يبنون على الآفاق.

والقسم الآخر من العلماء يقول لا، إذا ثبت في بلاد من بلاد المسلمين برؤية عامة أو بينة عادلة يتفق فيها الإنسان مع من يعدل هناك ويكون مذهب من أثبت الهلال في تلك البلد في العدالة مطابقاً لمذهب هذا العالم الثاني في هذا البلد في العدالة فعندئذ يبنى على إثبات ذلك العالم لأنه إذا قلنا بأنه هلال واحد لكل أهل الأرض، فيكفي هلال واحد لكل أهل الأرض، وهذه أيضاً من الأمور التي تسبب الاختلاف بين العلماء.

ومن الأمور التي تسبب الاختلاف بين العلماء أيضاً الرؤية بالآلة، كالمقربات، فبعض العلماء يشترط أن تكون الرؤية بالعين المجردة، فلو كان على العين آلة كمنظارة أو مقراب أو غير ذلك من الآلات الموصلة للنظر إلى مواضع بعيدة ليس حجة، لأنها لم تكن بالعين المجردة، وقسم آخر من العلماء يقول لا، لا مانع لأن الحديث الشريف "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته"، جعل الرؤية هي المبدأ بحيث يكون الاستناد في النظر إلى العين؛ فإذا أمكن أن يساعدها مساعد في الرؤية كمقراب أو غير ذلك فإن ذلك لا يمنع؛ لأن الاستناد لا يزال إلى الرؤية، نعم لو كانت الآلة في تعيين الهلال لا تعتمد على العين كما يسمى في الوقت الحاضر بالرادار أو أمثال ذلك فهذا لا يمكن الاعتداد به شرعاً؛ وذلك لأنه لا يكون الاعتماد فيه على العين، بخلاف المقراب فإنه مادام الاعتماد فيه على العين فلا ينافي قوله صلى الله عليه وآله "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته"، فعندئذ هذا الفريق إذا جاء، إذا كان أحد شاهدي البينة أو كلا شاهدي البينة قد رأى الهلال بالمقراب فإنه يفطر أو ينوي الصوم من رمضان بينما ذلك العالم الآخر الذي يقول لا بد من العين المجردة لا يفطر، وإذا كان صوماً لا يصوم من رمضان.

فالاختلافات بين العلماء إذن ليست بسبب التعصبات الشخصية ولا الحزازت، ولا حب الذات ولا حب السمعة أو الظهور، وهم أجل وأرفع وأكرم من أن تجرهم هذه الأمور إلى الاختلاف

في أحكام الله، والاختلاف في موضوعات تتعلق بأحكام الله، وإنما سبب اختلافهم هو سبب المباني الشرعية التي يبني عليها كل منهم موقفه في هذه المسألة، فلا ينبغي التشويه، على أن هذه المسألة في حقيقتها لا تضر بوحدة الأمة، واجب الانسان المكلف أن ينظر؛ فإن كان هو يعتمد على أحد العلماء دون بقية العلماء فيمكن من اتباعه في إثبات الهلال أو في نفيه، ولكن ليس له أن يثبت بينت شفة سوء ضد من خالف معتمده من العلماء؛ لأن ذلك الذي خالف لم يخالف لهوى في نفسه، ولو فرضنا أنه يعتمد على أكثر من واحد، فاختلف هذان اللذان يعتمد عليهما فأفطر أحدهما وبقي الآخر صائماً فماذا يفعل المكلف؟، طبعاً ينظر، فالذي يقول عندي بينة يُقدم قوله على الذي يقول لم تثبت عندي البينة؛ لأن هذا يدعي ثبوت وجود، وذلك كل الذي هناك يبقى في موقف سلبي، لا يدعي أن لديه شيئاً مضاداً لكلام من أثبت الهلال، فإذا كان يعتمد على كل منهما وأحدهما ثبت لديه الهلال، يلزمه اتباعه دون من لم يثبت عنده الهلال في هذه الحالة؛ لأن من لم يثبت عنده الهلال بقي في موضع سلبي، وليس في موضع إيجابي مناقض لذلك الموقف حتى يقال إنه في حيرة، ولكن على أي حال لا ينبغي مد اللسان ولا يجوز في مثل هذه الأحوال.

ولو اتفق العالمان اللذان يختلفان في المباني، وكان الهلال يثبت على مبنى دون مبنى، لكان ينبغي أن ننتقدهما، لا فيما إذا وقف كل منهما موقفه الشرعي الذي فرضه الله عليه من المباني أن ننتقدهما، بل نقول: كل منهما قد أحسن، وكل منهما قد بذل جهده، وأن هذه المسألة والاختلاف فيها لا يستدعي تفرقة لأنها ليست من أصول الدين في شيء، وإنما هي من فروع الدين، وكما يختلف العلماء في المسح على الرجلين هل يكون معية أو ترتيباً، ومع ذلك لا نمد أسننا على من يقول يجب المسح معيةً ولا نمد أسننتنا على من يقول يجب المسح بالترتيب ونصلي خلف كل منهما، فكذلك في هذه المسألة لأنهما في الحقيقة من باب واحد، ولكن حيث إن الأهلة تتعلق بمواسم مهمة عند المسلمين من أعياد أو صوم أو حج، يتخذها بعض الناس ومن

في قلبه حسيكة أو حقد على العلماء للتشويه عليهم بالاختلاف والتضارب والتطاحن وغير ذلك،
وينبغي إذاً التنبه إلى مثل هذا وتفهم الجاهل، وإسكات المعاند.
وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

سؤال: لماذا لا نعتمد على الحسابات الفلكية؟

جواب: لأنها لا تعتمد على العين. فالبيئات يمكن أن يكونوا كلهم مشتبهين، لكن واجبنا العمل بها،
ويختلف العلماء في البيئة، هل هي طريق لإثبات الموضوع وحجيتها من باب الأمارات المجعولة
شرعاً؟ أو لأنها طريق من طرق العلم فحجيتها إلى ما تحدثه في نفس سامع البيئة؟

أكثر الفقهاء على أن البيئة من باب الأمارات، وليست من باب الطريقية للعلم، ولذلك لو
جاء الشاهدان العادلان، فشهدا عند القاضي على أن زيداً مطلوب بمئة دينار لعمره، فإن القاضي
يحكم على زيد بدفع المئة الدينار إلى عمره، بغض النظر عن تأثره النفسي بكلام البيئة، نعم لو
كانت هناك بعض القرائن التي قد تثير شكوكاً حول البيئة، ولكن هذه البيئة ثابتة عدالتها، في هذه
الحالة استظهاراً للعدل وللحق يجوز للقاضي أن يأمر المدعي بالحلف مع بيئته، لقول علي عليه
السلام ثم رد اليمين على المدعي مع بيئته استظهاراً للحق والعدل.

فإذن البيئة في حقيقتها لا يُنظر إليها هل أنها أثارت في نفس الحاكم الشرعي اطمئناناً أو
علماً أو مجرد شك، وذلك لأن الناس يتفاوتون فمنهم سريع الجزم سريع القطع ومنهم كثير الشك
كثير الوسوسة، ولو كانت البيئة ليست إلا بما تُحدثه من أثر في نفس الحاكم، لتعطلت مصالح
الناس، ولتبدلت الأحكام بين قاضٍ وآخر، فمن أجل ذلك كانت البيئة هذا شأنها، بينما من يقول
إن العبرة بالشياخ هو حصول الاطمئنان فيكون للشياخ حكم خاص لا علاقة له بالبيئة، لأنه
عندئذ لا عبرة بعدد الشهود ولا بعدالتهم ولا بوثاقتهم ولا بتباين بلدانهم، وإنما بالأثر الذي يُحدثه
الشياخ في نفس الحاكم.

سؤال:.....

جواب: إذا كان القاضي يعلم بالواقعة فهو لا يجعل فرصة للمدعي بإحضار بينة ولا يقول له أحضر بينتك، فلو أحضره بغير طلب فإن الشهادة تكون تبرعية وهي باطلة.

سؤال:.....

جواب: وهذا محل اتفاق بين العلماء، لو تبرع إنسان بالشهادة دون أن يطلبه صاحب الحق، فإن القاضي يرد شهادته ويعتبرها باطلة.

سؤال:.....

جواب: لأنه في هذه الحالة القاضي لا يطلب البينة ولا يقول للمدعي أحضر بينتك، وإنما يدور أمره بين اثنين، إما أن يحكم بعلمه، وإما إذا كان يخاف أن يسبب نيلاً من منصب القضاء أن يعتزل القضية ويتركها إلى قاض آخر لا يعلم بالواقعة، ويتمكن عندئذ المدعي من الاستفادة من شهادة هذا الشاهد بحيث يطلبه للشهادة.

سؤال:.....

جواب: هنا لا اعتبار بالظن، ولا اعتبار بالعلم وإنما حجية البينة في حد ذاتها، هي حجة أفادت ظناً أم لم تقد، فأحياناً لا يستفيد الحاكم حتى ظنا من الشهادة، ولكن لا يستطيع أن يقول إنني لا أحكم بالبينة لأنني لم استفد حتى الظن.

سؤال:.....

جواب: فالأمر في البينة ليس باعتبار ما تفيده من ظن أو شك أو جزم، لا. وصلى اللهم على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

هذا الحديث كان جوابا عن بعض الأسئلة

طرق اثبات الهلال وزكاة الفطرة

أولا: طرق اثبات الهلال:

يثبت الهلال بطرق متعددة منها:

• الطريق الأول:

الذي يفيد العلم من هذه الأدلة وهو رؤية الانسان نفسه للهلال، فإذا رأى الهلال بنفسه علم بأن الشهر قد انتهى وان شهرا جديدا قد دخل، حتى لو لم يكن معه أحد، وحتى لو أجمع الناس على عدم رؤية الهلال، وبذلك يوجب الشرع الصوم أو الافطار أو الوقوف بعرفة على ذلك الشخص وإن كان منفردا.

• الطريق الثاني:

هو الرؤية العامة ومعناها أن يكون الهلال موجودا في السماء بحيث يراه كل ذي عينين سليمين، ويراه كل من رفع رأسه الى السماء في تلك الجهة التي يكون فيها الهلال، ولو ان إنسانا لا يتمكن من الرؤية ولكن عرف أن كل سليم نظر رأى الهلال فعليه أن يجزم جزما يقينيا أن ذلك الشهر قد انتهى وأن شهرا جديدا قد ولد، وتترتب عليه الأحكام المترتبة على ذلك الهلال من صوم أو فطر أو غير ذلك من نذر ووقف.

• الطريق الثالث:

التواتر، والمقصود به هو إخبار جماعة بلغوا من الكثرة والتعدد حدا يستحيل معه أن يتفقوا على الكذب، ويشترط في التواتر أن تكون السماء خالية من كل العلل؛ ليس فيها غيم أو

غبار أو دخان أو غير ذلك من العلل الأخرى المانعة، فإذا كان ذلك فلا بد من حصول عدد كبير من شهود رؤية الهلال.

• الطريق الرابع:

وهو أقل درجة من الطرق الثلاث المتقدمة في إفادة العلم؛ ولذلك يعبر عنه العلماء بأنه يفيد الاطمئنان أي أن يحصل ذلك بواسطة إخبار جماعة يتعذر اجتماعهم على الكذب، لا أنه يستحيل كما يعبر عنه في التواتر ولكن يتعذر اجتماعهم على الكذب .. فإذا كانت هذه الجماعة مختلفة ومتفرقة في البلدان يستفاد منها الاطمئنان، وهذا الاطمئنان في الحقيقة نوع من العلم ولكن ليس على درجة اليقين كما هو الحال في التواتر.

أما إذا كانت السماء معلولة بإحدى العلل المانعة فإنه يختلف الحكم باختلاف العلة المانعة، فتارة تكون العلة من الغيم، وتارة أخرى تكون من غير الغيم [العلل الأخرى] فقد اختلف الفقهاء فيما إذا كانت العلة من الغيم [السحاب] وليست معتلة بالعلل الأخرى، فقد اشترط بعضهم أن تكون البيئة من خارج البلد لا من داخل البلد، وقالوا إذا كانت في السماء فرجة فإنه لا يراه هذان الاثنان فقط وإنما يراه كل ناظر من هذه الفرجة، وبذلك لا بد أن تكون البيئة من خارج البلد حتى يحتمل وجود فرجة عند الشاهدين لم تكن موجودة لسائر المشاهدين. وإلى هذا يذهب صاحب الحقائق رحمه الله بأنه إذا كانت العلة غيما فلا بد أن تكون البيئة من خارج البلد.

وكذلك يثبت الهلال عند جماعة من الفقهاء بإخبار جماعة متواترة بوجود البيئة، فلو تواتر بين الناس ان زيدا وأن عمرا قد رأيا الهلال، وكانا معروفين بالعدالة فلا يلزم السماع من الشاهدين بنفسهما، بل وجود التواتر بالبيئة يكفي للعمل بتلك البيئة، وهذا عند بعض الفقهاء لا عند جميعهم، كالسيد الخوئي حفظه الله كما يظهر في منهاج الصالحين، وكذلك لو نقح البيئة الحاكم الشرعي وأعلن إثباته بذلك فلا إشكال في أن السيرة القطعية المستمرة بين المسلمين هو

العمل بتلك البينة، ولا يلزمون أنفسهم بأنه يجب على كل إنسان أن يسمع البينة بنفسه، بل يكتفي بإعلان الحاكم الشرعي في ثبوت الهلال. ولكن لو حكم الحاكم بالهلال سواء على تلك البينة أو حتى لو كان مدرکه الشیاع فإن العلماء یختلفون عندئذ، فمن يرى أن حکم الحاكم ینفذ فی الموضوعات يجب السير على حکم الحاكم فی تلك الواقعة، ومن يرى أن حکم الحاكم لا ینفذ فی الموضوعات فحکمه لا یكون ملزما للناس فی تلك الواقعة كصاحب الحدائق رحمه الله وسیدنا الاستاذ الخوئی أیده الله وأدام ظلّه فإنهما لا یریان أن للحاکم الشرعی حق الحکم فی الموضوعات؛ ولذلك لو قال الحاکم الشرعی حکمت بأن غدا هو أول شوال فلا تجب متابعتة، فهذا ما یتعلق بالهلال، والمرجو من الأخوة والشباب الاستهلال لیس فی شهر رمضان فقط بل فی سائر الشهور لحل الشبهة الموضوعية.

ثانيا: الكلام في زكاة الفطر:

ومن تمام الصيام إخراج الصدقة بعده، وهذه الصدقة هي المعروفة بالفطرة، وهي زكاة الأبدان، فكما أن على الأموال زكاة فعلى الأبدان زكاة كذلك، وفي هذه الزكاة رد على من يتهم الإسلام بأنه عامل غير المسلمين معاملة قاسية وأوجب عليهم الجزية على الرؤوس .. نقول إن الإسلام أوجب الزكاة على المسلمين عن الرؤوس؛ غاية ما هناك أن المسلم لما كان يعتقد الثواب من الله سبحانه وتعالى، وأن ذلك امتثال لأمر الله، ويدفعها طوعا، ويدفعها معتقدا أن الله قد أكرمه بهذا التكليف، ورفع من حد البهيمة السائبة إلى حد الانسان المتحمل للمسؤولية؛ بخلاف الكافر فإنه يدفع الجزية صاغرا لأنها تؤخذ منه قهرا وهو لا يعتقد أنه يثاب عليها في الآخرة، ولذلك عبر عنه سبحانه وتعالى بالصغار فقال: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾¹.

¹ التوبة: من الآية 29

ولكن لم يفرد الإسلام بالدفع عن الرأس حتى يقال لماذا كلف الإسلام من لا يؤمن به بدفع شيء عن رأسه وكأنها ضريبة على بدنه، نقول إن هذا حق لغيره، وهذا الحق يأخذه الإسلام من المسلم والكافر، وكل من يعيش تحت دولته يلزمه أن يدفع عن رأسه مقداراً معيناً من المال، ولكن أن يكون مسلماً فيدفعه عن اختيار ويحصل عليه الثواب، ويكون هذا إكراماً له؛ أو أن يكون كافراً فيؤخذ منه رغماً عن أنفه وتحقيراً لشأنه مع عدم وجود الثواب عليها، وأيضاً فرق آخر بين زكاة الفطر والجزية وإن كان كل منها على الرؤوس، فإن الزكاة محددة غير قابلة للزيادة والنقصان، والتكليف فيها ورد عن الله وعن الرسول صلى الله عليه وآله بمقدار محدد باق إلى يوم القيامة، بخلاف الجزية فإن الله سبحانه وتعالى قد فوض أمرها للرسول صلى الله عليه وآله وإلى خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله من بعده في مدى زيادتها أو إنقاصها كل وقت بحسبه، ولهم أن يعفوا عنها ويلزموا من يشاءون، وهذه الجزية في الحقيقة تصغير لشأن هذا الكافر حتى يراجع نفسه، وأن يستمع لصوت فطرته وعقله، ومع ذلك فلا بد من النظر إليه بعين الرحمة، فينظر في حاله ومدى قدرته على الدفع، ولذلك فوض الله سبحانه وتعالى تقدير ظروفه وقدرته على الدفع إلى ولي الأمر حتى يخفف على من يستحق التخفيف، والتشديد على من يستحق التشديد منهم.

على أي حال فإن هذه الزكاة وهي زكاة الأبدان قرنها الله سبحانه وتعالى بالصيام، لأن الصيام في الحقيقة هو زكاة للبدن من الشهوات والمعاصي طيلة العام، وفي هذا الشهر المبارك حيث يتعفف الإنسان عن كثير مما كان يزاوله، ويصفو قلبه بممارسة هذه الرياضة الشرعية، فتأتي بعد ذلك الزكاة لتخلصه من شح نفسه، فإنه بعد أن جاهد نفسه بالصبر على ترك المفطرات وترك المعاصي، ومحاولة كسر شهواته في هذا الشهر، فعلى إرادته أيضاً بأن تجاهد لتخليصه من ملكة الشح والبخل، فأوجب الله سبحانه وتعالى عليه أن يخرج هذه الزكاة عن نفسه، وعن من يجب عليه نفقته، ومن يعيله، وعن الضيف الذي ينزل عنده في ليلة العيد، وعن الأجير الذي تكون نفقته عليه، وليس المقصود بالضيف من يزورك ليلة العيد ويتقطر عندك ثم ينصرف، حتى أني وجدت كثيراً من الناس يتقاطعون ليلة العيد في الزيارة بسبب هذا الوهم، وليس الأمر كذلك، فهذا

لا يقال له ضيف، وإنما الضيف من ألقى رحله عندك بعد أن جاء من بلد بعيد لا تدري أنه سوف يذهب اليوم أو غدا أو بعد غد، فهذا يقال له ضيف، لا من تدعوه للإفطار عندك برجاء تحصيل مثوبة قوله صلى الله عليه وآله "من فطر صائما فله أجر صائم"، والحمل ليس عليه فطرة، ولكن لو ولد هذا الحمل ليلة العيد قبل ثبوت الهلال تجب الفطرة عليه، وأما لو ولد بعد ثبوت الهلال وقبل زوال الشمس من يوم العيد فلا يجب إخراج الزكاة عنه وإن كان الأفضل والأحوط إخراجها عنه لو ولد بعد ثبوت الهلال وقبل زوال الشمس من يوم العيد.

ومستحق زكاة الفطر هو مستحق الزكاة المالية الأخرى، وهم أصحاب العنوان المذكورين في آية الصدقات: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَامِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ¹﴾، ولا شك أن ذوي الأرحام أولى بها من غيرهم، فلو لم يكن ذو الرحم موجودا في وقت إخراجها جاز له أن يعزلها حتى يسلمها إلى ذي الرحم، وفي حالة عدم وجوده يلزمه إيصالها إلى المستحق في نفس وقتها بقدر الإمكان، فإذا لم يوصلها في وقتها إلى المستحق وكان قد عزلها عن سائر أمواله في وقتها فهي فطرة، وإن لم يعزلها عن أمواله حتى انتهى وقتها فقد فاتته الفطرة، ويأثم على ذلك، وصارت صدقة عادية.

وقت الفطرة: يعني وقت إخراج الفطرة من طلوع الشمس أو من طلوع الفجر عند بعض العلماء إلى زوال الشمس من يوم العيد وأفضل أوقاتها أن يخرجها بعد صلاة العيد، فإذا صلى العيد دفعها إلى المستحق، ويجوز عزلها عن أمواله من ليلة العيد بعد ثبوت الهلال.

مقدارها: صاع من أصوغة النبي صلى الله عليه وآله، والصاع أربعة أمداد، صاع الفطرة أربعة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وآله، وصاع الغسل خمسة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وآله، وقد وقع الاختلاف الكبير في تقدير المد وتقدير الصاع بعد أن اتفقوا على أنه ستة أرتال بالعراقي، ولكنهم اختلفوا في تقديره من حيث المئاقيل، فمنهم من بنى على المئاقيل الصيرفية

¹ التوبة: من الآية 60

فصارت الفطرة عنده في هذا الزمان بما يعادل ثلاثة كيلوات فرنسية، إلا غراما واحدا، ومنهم من بنى على المئاقيل الشرعية التي هي الدينار الشرعي المتفق عليه بين الخاصة والعامة، وأنه لم يختلف في الجاهلية والإسلام فصارت الفطرة بما يعادل هذا الزمان من الأوزان الفرنسية المستعملة في السوق خمسة كيلوات لا ثلاثة كيلوات، والفرق بين المئقال الشرعي والمئقال الصيرفي هو أن كل ثلاثة مئاقيل صيرفية تعادل مئقالين شرعيين، والمئقال الشرعي أو الدرهم الصيرفي المعتبر في المئقال ثماني وأربعون شعيرة متوسطة الحجم، وبالنسبة للمئقال الشرعي أو الدرهم الشرعي يكون اثنان وسبعون شعيرة متوسطة الحجم، بمعدل كل ثلاثة دراهم صيرفية درهمين شرعيين، وقد قدر صاحب الحدائق الفطرة في سنة [1170هـ] بوزن البحرين بناء على الدراهم الشرعية التي يختارها فصارت ثلاثة آلاف من الآلاف المستعملة في البحرين والموسومة بمئقال [بار]، ومئقال [بار] هو الذي كان يوزن به المن؛ لأن الوزن الذي كان في البحرين إلى ما قبل دخول الإنجليز هو الألف المئقال المعروف بمئقال [بار]، والمئقال الواحد لا أتذكر هل يساوي أربع أو خمس تولات، على أي حال فإن كل ستة عشر مئقالا يقال له [قياس]، وكل قياسين يسمى [ألف]، وكل ستة عشر ألفا يسمى [منا]، والمن يساوي بوزننا الحاضر خمسة وعشرين كيلو غرام فرنسي.

فبناء على ذلك تكون الفطرة بالنسبة لهذا الوزن خمسة كيلوات، وأما بالنسبة للشيخ عبدالله الستري رحمه الله والمشهور بين العلماء الآخرين من الأحياء والأموات فهو ثلاثة كيلوات، إلا أن صاحب الحدائق وابن أخيه الشيخ حسين يعتبران الوزن بالمئقال الشرعي، فقد قدرا الفطرة بخمسة كيلوات، ووجدت في النجف الأشرف أن السيد حسين الحمامي رحمه الله يقدرها بخمسة كيلوات، وعبر في رسالته بأنها [حُقَّة] نجفية ونصف الحقة النجفية، وهذا معناه أنه يكون خمسة كيلوات، وكذلك السيد عبدالله الشيرازي المتوفى قريبا يقول: إن هناك فطرتين، الفطرة الواجبة وهي ثلاثة كيلوات وفطرة الاحتياط خمسة كيلوات، على أي حال لا يمنع الإنسان من دفع الزائد حتى لو كان يقلد من يقول بالناقص ولا يكون العكس.

ومن شرائط الفطرة أن الصاع لا ينقسم على فقيرين، وأقل ما يعطى الفقير صاع، ولا يجوز
قسمة ذلك بين فقيرين، ومن كان فقيراً ممن يستحقون الفطرة وسائر الزكوات فهذا لا تجب عليه
الفطرة لأنها تجب على من ملك قوت سنته له ولعياله الواجب النفقة بالفعل أو بالقوة، وأما إذا كان
لا يملك قوته وقوت عياله واجبي النفقة لمدة عام لا بالفعل ولا بالقوة فهذا ممن يستحق الفطرة؛
ولكن الأحوط كما يقول العلماء أن يخرج صاعاً واحداً يدفعه لأحد من أهل بيته وهذا يدفعه للآخر
حتى تدور عليهم، وآخر من يصل عنده هذا الصاع يدفعه إلى فقير خارج البيت لأن في ذلك أثر
وضعي متعلق بالبدن، لذلك قال الفقهاء بالاحتياط في مثل هذه الحالة، طبعاً زكاة الفطر كسائر
الزكوات الواجبة محرمة على آل رسول الله صلى الله عليه وآله، فكما أن زكاة الأموال محرمة على
رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فكذلك زكاة الفطرة محرمة على رسول الله
صلى الله عليه وآله وذريته، ولكن ورد في الفطرة استثناء واحد وهو أنه إذا كان المخرج للفطرة من
ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله فيجوز أن يدفع فطرته إلى آل الرسول صلى الله عليه وآله ولا
تكون حراماً عليهم؛ هذا عند الغالب، وقيده بعض الفقهاء رضوان الله عليهم فيما إذا عجز الخمس
عن القيام بنفقاته، وأما إذا كان الخمس لا يعجز عن القيام بنفقاته فليس له أن يأخذ هذه الزكاة؛
على أي حال فإن القول عند معظم الفقهاء هو أن فطرة السيد يجوز أن يدفعها إلى السيد، وأما
فطرة غير السيد فلا يجوز أن يدفعها إلى السيد، وعلى هذا بالنسبة لفتوى صاحب الحدائق فإن من
تكون أمه سيدة لا يجوز للعامي أن يدفع له الفطرة لأنه عند صاحب الحدائق ممن يستحقون
الخمس إلا من شخص مثله يعني ينتسب إلى آل رسول الله صلى الله عليه وآله بالأب أو بالأم.
وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

حجية قول الفلكي*

كلام الفلكي مجرد قرينة، وهو ربما يكون استدعاءً للناس ليستعدوا لأداء الصلاة في وقتها، ولكن لا اعتماد على كلام الفلكي، والاعتماد إنما هو على الرؤية، فإذا رأى الناس الخسوف وجبت عليهم صلاة الآيات سواء كان الخسوف جزئياً أم كلياً، وكذلك إذا رأوا الكسوف [الانكساف في الشمس] وجبت عليهم صلاة الآيات سواء كان [الانكساف] جزئياً أو كلياً، ومادام السؤال عن قول الفلكي ومدى الاعتماد عليه - وقد مرت بنا في هذا العيد فتنة بسبب قول الفلكي - فنود أن نفصل القول بالنسبة إلى قول الفلكي وكلامه في الأهلة فنقول.

إذا ادعى الفلكي أو الرّصدي وجود الخسوف أو الكسوف، فلا عبرة بقوله إذا لم تلاحظه العين؛ فالله سبحانه وتعالى أناط الحكم في وجوب الصلاة ليس بقول الفلكي وإنما برؤية العين، فإذا رأى سبب وجوب الصلاة [كالكسوف أو الخسوف] أحد الناس وجبت عليه الصلاة بمفرده، نعم لو رآته الغالبية من الناس ولكن بعضاً ممن كانت عينه كليلية لم يره فإنه تجب عليه الصلاة، أما إذا كانت غالبية الناس لم تلاحظ الخسوف في القمر فلا تجب عليهم الصلاة، وكذلك إذا لم تلاحظ غالبية الناس الكسوف في الشمس لا تجب الصلاة عليهم لقول الفلكي أو الرصدي، إذ لا عبرة به عند الشارع، ولا يترتب عليه أي أثر شرعي في هذا المجال، حتى لو أن جميع مراصد الأرض أجمعت على تحقق الكسوف أو الخسوف ولم ير أهل الأرض ذلك لا تجب الصلاة عليهم.

ولكن ما موقف الشرع من كلام الفلكي أو الرصدي في الأهلة؟ أو ما مدى حجية قول الفلكي في الأهلة؟

نقول: إن الكلام عن حجية قول الفلكي أو الرصدي يكون في مقامين هما ناحية الإثبات

وناحية النفي.

* وهذه المحاضرة جواب عن سؤال عن حجية قول الفلكي في وقوع الخسوف والكسوف وهل تجب الصلاة إذا قال الفلكي ذلك دون أن نرى الخسوف أو الكسوف؟ وذلك في جامع جدحفص بتاريخ 18 شوال 1419 هـ

ففي الناحية الأولى وهي الناحية الإيجابية نقول: إن الشارع المقدس لم يجعل تغير الشهور وترتيب الآثار على تغير الشهور على التولد فلكياً، وإنما جعل مناط اعتبار ترتيب الآثار الشرعية التي تترتب على تغير الشهور على رؤية الهلال في أفق السماء بالعين؛ سواء كانت مجردة أم مستعينة بآلة مقرّبة، لكن لا بد أن ترجع هذه الآلة إلى العين، فلو كان لا يرى بالعين لا مجردة ولا مع المقرّبات؛ غير أنه يمكن أن ترصده الآلات التي لا تعتمد على البصر، فيرصد الهلال بها، ويقول إن الهلال موجودٌ في الأفق، وقد خرج عن نطاق المحاق، وارتفع ثلاثين درجة فضلاً عن ثلاثة عشر درجة أو أربعة عشر درجة أو ست درجات، ولكن الناس لم تره، فإنه لا يترتب أثرٌ شرعي على قوله ولا يعتبر الشهر قد تغير.

فلو كان الشهر شهر إفتار، ويجب الصوم بدخول الشهر الجديد فإنه لا يجب الصوم في هذه الحالة، وكذلك لو كان الشهر شهر صوم ويجب الإفطار بالشهر الجديد فإنه لا يجوز الإفطار، ولا يرتفع حكم وجوب الصوم، وكذلك لو كان على الإنسان نذرٌ يقع في يومٍ معين من الشهر الجديد فإنه لا تبرأ ذمته لو أدى نذره بناءً على قول الفلكي ما لم يقترن بالرؤية البصرية، وكذلك المواقيت والأوقاف كلها والحج لا تترتب شرعاً إلا إذا رأى البشر الهلال في أفق السماء، سواء رأوه بعيونهم المجردة أو بالاستعانة بالآلات المقرّبة، وليس الآلات الراصدة التي لا تعتمد على الرؤية؛ لأن الآلة المقرّبة كل ما تفعله هو تقريب الهلال للعين، و لكن يبقى الاعتماد على رؤية العين، بخلاف الآلات الرصدية الأخرى، فإنها لا تعتمد على العين، ولا يصح التعويل عليها مطلقاً في ناحية ترتيب الآثار الشرعية.

وعدم جواز التعويل على قول الفلكي أو الرصدي في مورد الإثبات أمر متسالم عليه بين فقهاء المسلمين ممن يعرف بالتحقيق، وأن البيئة على الهلال ليست مجرد طريق للتحقق من وجود الهلال كيفما اتفق، وإنما للتحقق من رؤيته بالعين.

فلو أداّن زيد عمراً بمبلغ مليون دينار مثلاً على أن يدفعه إليه في اليوم الثاني من شهر ذي القعدة وأعلن الفلكي تولد الهلال من شهر ذي القعدة، ولكن الناس لم تر الهلال في أفق السماء،

وتقدم الدائن في ذلك اليوم إلى القضاء يطلب إلزام عمر بدفع الدين لا يتمكن القاضي أن يحكم على المدين بدفع المال إلى الدائن، وإنما ينتظر إلى اليوم الثاني أو الثالث الذي تعينه الرؤية، فالإعتماد إذن في ترتيب الأثر الشرعي أناطه الشارع المقدس بالرؤية.

وأما الكلام عن الجهة الأخرى وهي جهة نفي وجود الهلال في السماء في تلك الليلة وهي التي عبرنا عنها بالناحية السلبية فإن السؤال الذي تثيره هو هل أن الحساب الفلكي أو الرصدي هو الأصل والرؤية فرعٌ عليه؟ فلا يقبل قول الشهود بالرؤية إذا كان الحساب ينفي تولد الهلال في ذلك الوقت، أو أن الرؤية هي الأصل؟ والحساب الفلكي مجرد قرينة مضعفة لقول الشهود كما يذهب إلى ذلك السيد محمد باقر الصدر قدس سره؟

نقول: إن الشارع المقدس كما ذكرنا قبل قليل أناط الأمور بالرؤية ولم يعتمد على الحساب الفلكي أو قول الرصدي في شؤون ترتيب الآثار الشرعية ﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلُوبِهَا مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾¹، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابَ﴾²، وفي هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وآله: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمت عليكم الشهور فعدوا الشهر ثلاثين يوماً"، فالحساب الفلكي إذاً يجب أن يعتمد على الرؤية، فلو كانت العملية الحسابية الرياضية التي أجراها عالم الفلك كذبتها الرؤية فلا قيمة لهذه العملية الحسابية مطلقاً، لماذا؟

لأن الآية بمعونة الروايات الواردة في المقام جعلت الأصل هو الاستهلال، وأن الحساب ومعرفة السنين وتقدير الحساب يعتمد على هذه الرؤية، والسر في ذلك هو أن العملية الرياضية هي عملية بشرية، وأي عملية بشرية أو برهان بشري قابلٌ للخطأ والإصابة، نعم بسبب تطور علوم الرياضيات وتطور آلات الرصد أصبح الخطأ في الحسابات الفلكية نادر النادر، ولكنه ليس مستحيلاً، هذه جهة.

¹ البقرة: من الآية 189
² يونس: من الآية 5

والجهة الثانية أن الرؤية علمٌ حسي، علمٌ وجداني، يستطيع من يراه أن يضع يد من لم يره عليه ويوجهه إليه وإذا كان بصره صحيحاً وحاداً فسوف يراه، أما البرهان الرياضي فليس من هذا القبيل، بل لا يعرف مدى صحته إلا من أجراه، ولذلك قال الفلاسفة إن حجبة البرهان ذاتية أي تخص من قام عنده البرهان وليست حجبة عامة لكل الناس، فمتى ما تعارض العلم الحسي الوجداني مع العلم البرهاني فلا إشكال أن العلم الوجداني يحكم على العلم البرهاني، وهذه قاعدة مسلمة في جميع العلوم، نعم حاول بعضهم أن يشكك في معطيات الحس باعتبار أن الحواس أيضاً تقع في الخطأ، خذ إليك المثل الذي جاء به ديكارت، وهو عالم رياضي وفيلسوف من أعظم فلاسفة عصر التنوير الأوربي، أراد أن يشكك في معطيات الحواس، فهو يقول أحضر ماء بارداً وآخر حاراً وآخر دافئاً وضع إحدى يديك في الماء البارد والأخرى في الماء الحار ودعهما فترة ثم ارفعهما وضعهما في الماء الدافئ فسوف تجد اليد التي رفعتها من الماء الحار الماء الدافئ بارداً، وأما الأخرى فسوف تحس بأن الماء حارٌ، وفي الحقيقة أن الماء ليس بارداً وليس حاراً وإنما هو دافئ، وهذا يعني أن الحواس تقع في المغالطة، وأنت تنتظر إلى الشيء البعيد فتراه أصغر من حقيقته، وتنتظر إلى الشيء القريب فتخاله أكبر من حقيقته، وإذا لاصق الشيء عينك لا تراه، فإذاً يمكن وقوع الحواس في الخطأ، كما هو ممكن في البرهان، وبالتالي فإنه لا يكون العلم الوجداني الحسي خيراً من العلم البرهاني، كما أن العلم البرهاني لا يكون أرقى من العلم الوجداني.

ولكن من أوتي أدنى بصيرة يعرف أن في هذا القول مغالطة، ذلك أن الإنسان حائر على ملكة ذهنية تميز ما ترسله الحواس وتلغي منه ما هو متعارض مع الواقع، فالرجل الذي وضع يديه في المياه المذكورة في المثل يدرك أن الماء فاتر وليس حاراً أو بارداً، ويدرك أنه أقل في درجته الحرارية من الماء الحار، وأعلى درجة من الماء البارد، كما يدرك الإنسان أن الشخص الذي يراه بعيداً أكبر من الحجم الذي هو عليه، وهذا بخلاف البرهان سيما الرياضي منه فإن الخطأ الذي يقع فيه ربما فات على أكبر الرياضيين الالتفات إليه، ويكفي في حصول النتيجة الخاطئة أن يحصل الخطأ ولو في خطوة واحدة من خطوات المعادلة الرياضية، على أي حال فقد حاول بعض

علماء الفيزياء المشتغلين بعلم الفلك أن يشككنا في ما رآه الشهود عن طريق خداع الحواس، فإنه لما وجد أن الشهود متعددون وكثيرون، وليسوا في موضع واحد، ومع ذلك أعطوا صفات متفقا عليها للهلال لم يستطيع أن يقول إنهم جميعا مشتبهون أو أنهم كاذبون، فهم لا يعرف بعضهم بعضاً، وليسوا في مكان واحد، فقال إنهم قد رأوا شيئاً، ولكن ما رأوه ليس هو الهلال وإنما هو صورة منعكسة من بقية قمر شهر رمضان، لأن قمر شهر رمضان لا يزال باقياً تحت الأرض فإذا وقعت عليه أشعة الشمس انعكست عنه صورة في الأفق فرآها هؤلاء الناس وظنوها هلالاً، والحال أنها ليست هلالاً، وإنما هي صورة منعكسة.

وهذا الكلام وإن كان في حد ذاته قد يكون صحيحاً، لكننا لو حللناه فإنه لا يصح قبوله في

مثل حالة الهلال في شهر شوال هذا العام [أي عام 1419 الهجري] وذلك لسببين:

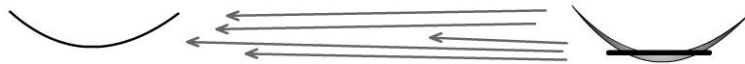
أولاً: إن الانعكاس تارة يكون من قبيل انعكاس صورة الجسم المقابل للمرآة في المرآة فيتبدل الشمال يميناً واليمين شمالاً، وهذا الانعكاس يقتضي أن يكون قمر شهر رمضان موجوداً في الطرف المعاكس من الأفق وعلى نحو أن تكون الأشعة المنبعثة عنه متعامدة مع الجهة الغربية من الأفق حتى تكون صورته منطبعة في الجهة الغربية، وبالتالي أن رأي الهلال لو استدار ونظر في الجهة الشرقية لكان يرى القمر الحقيقي كما يبين ذلك الشكل التقريبي الآتي:

الأفق الغربي

الأفق الشرقي

الصورة المنعكسة

قمر شهر رمضان



ولا شك أن دكتورنا الفاضل لا يريد هذا النوع من الانعكاس، لأن الأفق الشرقي كان خالياً

من القمر، بل لا يمكن في آخر الشهر أن يكون القمر في الأفق عند غروب الشمس، حتى تكون

له صورة متعامدة على الأفق الغربي، وكيف يمكن أن يُرى في الأفق الشرقي وهو حسب الفرض قد دخل منطقة المحاق وصار أسفل الظل المخروطي للأرض كما يمثله هذا الشكل التقريبي:

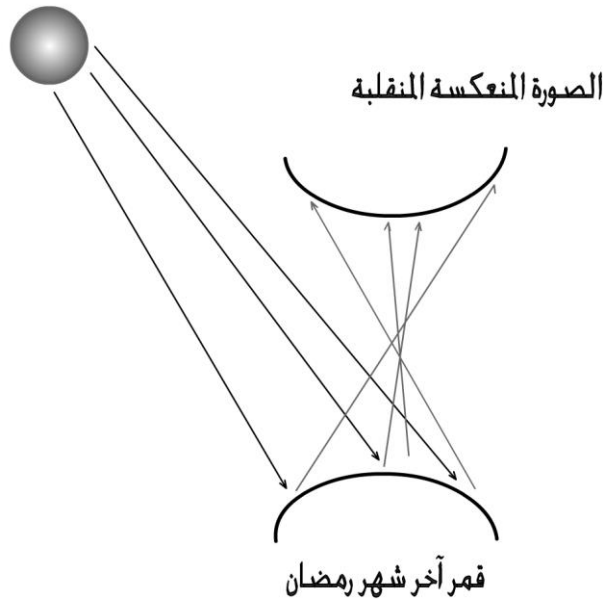


القمر قبل التولد



وتارة يكون الانعكاس من قبيل الانعكاس الحاصل في الخزانة ذات الثقب الضيق والتي على فكرتها صنع ما نسميه اليوم باللفظ الإنجليزي [كاميرا]، ولا بد أن يكون هناك انعكاس وانقلاب، وهو لا يتم بتبديل اليمين شمالا والشمال يمينا فقط، ولكن يكون الأعلى هو الأسفل، والأسفل هو الأعلى، كما يبينه الشكل التقريبي التالي:

المصدر النوري وهو هنا الشمس



٥

ولكن كيف نفرق بين الانعكاس في المرآة والانعكاس في الخزانة ذات الثقب الضيق؟

إذا كان الانعكاس على جسم مقابل لذي الصورة فطبعاً في هذه الحالة لا يتبدل الأعلى إلى أسفل والأسفل إلى الأعلى وإنما يصير مقابل اليمين شمالاً فقط وبالعكس. وأما إذا كان المصدر الضوئي في جهة وسط على الجسم المرئي ثم انعكست من الجسم المرئي صورة إلى داخل الخزانة فالانعكاس يكون مقلوباً، والعملية التي يصفها دكتورنا الفاضل هي من قبيل انعكاس الأشعة التي وقعت على قمر شهر رمضان الواقع تحت الأرض وعكسته إلى الأفق الأعلى، فلا يكون من قبيل انعكاس الشيء في المرآة، وإنما من قبيل انعكاس الجسم في الخزانة ذات الثقب الضيق، وهذا لا يكتفٍ فيه أن يكون على نحو المقابلة بانعكاس اليمين شمالاً والشمال يمينا، بل لابد أن تكون الصورة منقلبة أيضاً، فهل كان القمر وهو في حالة المحاق متجهاً إلى الأسفل ولذلك رآه الشهود متجهاً إلى الأعلى؟ هذا ما يحتاج إلى إثبات وبرهان أيضاً حتى يتم للدكتور الفاضل ما ادعاه من أن المشاهد في الأفق هو صورة لبقية قمر آخر ليلة من شهر رمضان.

ولعل باستطاعة الدكتور أن يعول على تفصيل منطوق شهادات الشهود لإثبات مطلوبه فكلهم قالوا إن الهلال يتجه إلى الأعلى مع ميل قليل إلى الجهة الجنوبية لكنه لو فعل لسلم بأن الشهادة هي التي تقرر صحة النظريات الفلكية والحسابات الرصدية.

إضافةً إلى أن صحة هذا التحليل ينطوي على مصادرة كما يقول علماء المنطق، لأنه يجعل الدعوى ذاتها دليلاً على صحة نفسها. لماذا؟

لأن هذا الفرض يصح إذا آمننا بقول الفلكي بأن الهلال لم يتولد بعد، وهذا هو موضع النزاع، وهذه أول الدعوى، وهي ما نحتاج عليه إلى برهان، وهو ما نحتاج أن يثبت لنا الفلكي بأن الهلال لم يتولد، وإلا فإن رؤية الشهود له تثبت تولده، ودكتورنا الفاضل أراد أن يحل رؤية الشهود ويبعدها عن أن تكون رؤية للهلال بفرضية أنه لم يتولد، ومعنى ذلك أنه يريد أن يثبت أن الهلال لم يتولد بدعواه أن الهلال لم يتولد، وهذا عين الدور الممنوع في المنطق وهو مصادرة على المطلوب.

الثاني أن الرؤية في الليلة الثانية والثالثة كشفت عن أن وصف الشهود للهلال في الليلة الأولى مطابق لما وجد عليه في الليلتين الأخيرتين؛ إذ لم يتغير بل بقي متجهاً إلى الأعلى، ولو كانت صورة منعكسة ومنقلبة أو منعكسة فقط لكان ينبغي أن تكون هيئته في الليلة الثانية مخالفاً لهيئته في الليلة الأولى، على الأقل في قضية العكس؛ فيصير يمينه شمالاً وشماله يميناً فيكون ميله الذي رآه الشهود للجنوب أن يُرى ميله للشمال حتى يمكن التفرقة بين الصورة المنعكسة في الليلة الأولى وبين الهلال الحقيقي في الليلتين اللتين تلتا تلك الليلة.

على أن هذا الادعاء وهو انعكاس صورة قمر آخر ليلة من الشهر يمكن أن تكون في كل شهر خاصة على ما يدعيه دكتورنا الفاضل من أن البحرين لا تصلح لرؤية الهلال في أول ليلة من الشهر إلا ما ندر، ويكون إناطة الشارع المقدس لإثبات الهلال بالرؤية غير حكيم؛ لأن السماء في غالب البلدان وغالب الأزمان لا تنفك من العلل المضعفة للرؤية.

على أي حال فإن الأصل الذي يترتب عليه تغير الشهور وترتيب الآثار الشرعية هو العلم الحسي العائد إلى حاسة البصر سواء كانت هذه الحاسة رآته مجردة أو مستعينة بالمقربات، ولكن لا بآلات الرصد التي لا تعود إلى العين.

والغريب من الدكتور الفاضل الادعاء باستحالة وقوع الخطأ في العملية الرياضية عند الفلكيين مع أن العملية الرياضية ككل عملية رياضية غير فلكية يقوم الجهد البشري بها على أمور ترقم حدودها، ترقم الحد الأول والحد الثاني، وهذا قابل أن يحصل فيه الخطأ، فما كان حدًّا أول قد يجعله الرياضي حدًّا ثانياً والعكس صحيح.

كما أن الخطأ قد يقع في ترتيب الخطوات التي تكون ضرورية في تحصيل النتيجة، فإذا أخطأ في ترتيب الخطوات المتبعة لا بد أن يحصل الخطأ في النتيجة. وكل من مارس الرياضيات يعرف أن الخطأ قد يكون دقيقاً جداً فلا يتم اكتشافه إلا بعد مدة طويلة من الزمن.

أما المورد الثالث الذي يمكن أن يقع فيه الخطأ فهو مراعاة ترتيب الخوارزميات التي تحكم تلك العملية الرياضية، خاصة إذا كان يعتمد في إجرائها على الحاسب الآلي، فلو حصل أي خطأ

في ترتيب الخوارزميات فلا بد أن تكون النتيجة الرياضية خطأ، وهذه المواضع كلها يمكن أن يقع فيها الرياضي، ويمكن للحاسب الآلي عندما تُعطى له المعلومات وفيها خطأ أن يخطئ فيها، فالبرنامج الذي يضعه مبرمج بالحاسب الآلي لإجراء أي عملية رياضية ربما يتضمن خطأ دقيقاً لا يكتشفه ذلك المبرمج إلا بعد دراسة أشهر أو سنة، لأن المبرمج يكتشف الأخطاء الفظيعة بصورة سريعة، أما الأخطاء الدقيقة جداً فأحياناً تفوت عليه، ويقرأ البرنامج مرة تلو أخرى ويعيد الدراسة مرات كثيرة، ومع ذلك قد لا ينتبه إلى موضع الخطأ، ويجري العملية ويرأها خطأ، ويعود للمراجعة، وفي النهاية يجد أن الخطأ شيء بسيط وتافه، فيضحك من نفسه كيف فاتته، فإن الله سبحانه وتعالى خلق عقول البشر تدرك شيئاً وتغيب عنها أشياء ... حتى يدرك الإنسان نقصه ويعترف بعدم كماله، ويقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ¹﴾، ويقول: ﴿مَرَبِّ نَرِدُّنِي عَلِمًا²﴾، ولا يدعي أن الفلكيين يستحيل أن يخطئوا، بحجة أنهم يعلمون الناس، فبقية أصناف العلماء الذين يعلمون الناس ألا يخطئون؟ علماء الفقه ألا يخطئون في الفقه؟ جميع العلماء يخطئون.

الخلاصة أن الاعتماد في تحقق الأوقات الشرعية للعبادات والاعتماد في الاعتبار الشرعي في تغير الشهور وتغير السنين ودوران القرون إنما هو على الرؤية البصرية للهلال، وليس على الحسابات الفلكية، وإن كنا نعترف أن الخطأ فيها أندر من النادر. نعم يمكن أن يكون قول الفلكي قرينة مؤيدة للشهادة أو مضعفة لها، فنعمل الاحتياط اللازم في تمحيص مضمون الشهادة، والتأكد من عدم اشتباه الشاهد، لا رفض سماع الشهادة أو عدم البناء عليها لمجرد نفي الفلكي أو الرصدي عدم تولد الهلال.

¹ يوسف: من الآية 76
² طه: من الآية 114

معنى العدالة عند الشيخ يوسف البحراني قدس سره*

إن بعض الإخوان وجهوا هذا السؤال قبل فترة وفي كل يوم يلحون على تحصيل هذا الجواب.

العدالة في اللغة بمعنى الاعتدال؛ فالعدل هو المعتدل، وكذلك هي في علم الأخلاق بمعنى الاعتدال، وهو تجنب طرفي التفريط والإفراط، تجنب طرفي الغلو والقلو، هو السير على الخط الأوسط من الدين، فلا يغلو في دينه، ولا يقصر أيضاً في دينه، ولا يفريط بما لم يأذن به الله سبحانه وتعالى، ويخترع الصلوات التي لم تأت عن الله وعن رسوله، ولا يترك - أيضاً - الصلوات التي أمر بها الله ورسوله، وهكذا في جميع الأشياء إذا سار على الخط الوسط.

والنمط الأوسط يكون قد سار على خط الاعتدال؛ ولذلك تجد أن الناس بمختلف أديانهم وبمختلف بلدانهم إذا أرادوا أن يمدحوا شخصاً قالوا إنه شخص معتدل؛ سواء كانوا مسلمين أو كفاراً، في مجال السياسة أو في الاجتماع، في باب الاقتصاد باب الصرف والتقتير، دائماً إذا أرادوا أن يمدحوا شخصاً ما قالوا إن هذا الشخص إنسان معتدل.

وكذلك الشرع المقدس؛ المدح في الإسلام دائماً لمن يسير على الطريقة الوسطى، ومن يسير على النهج الأوسط، ومن يكون معتدلاً في عقائده، ومن يكون معتدلاً في سلوكه، سواء كان سلوكه الاجتماعي أو الاقتصادي أو النفسي أو العائلي أو الخارجي، إذا التزم أحكام الشرع على نحو معتدل لا على نحو إفراط من جهة أو تفريط من جهة أخرى يقال له معتدل، ويقال له عدل ويكون ممدوحاً، ويقول عليه الصلاة والسلام: "إن اليمين والشمال مضلة والوسطى هي الجادة".

فمعنى العدالة إذاً في اللغة هو الاعتدال، أي التوسط بين طرفي الإفراط في الشيء والتفريط فيه. وحتى في الدين لا تظنوا أن الالتزام بالدين كلما تشدد يكون أحسن، النبي صلى الله عليه وآله يقول: "إن هذا الدين صعب مستصعب ما غالبه رجلٌ إلا غلبه فأوغل فيه برفق فان المجد لا ظهراً أبقى ولا غايةً وصل".

* المحاضرة التي ألقاها سماحة العلامة الشيخ سليمان المدني في يوم الخميس 2 ذو القعدة 1419 هـ المصادف 18 فبراير 1999م

إذاً حتى في العمل الديني ليس التشدد هو الأمر الممدوح وإنما التوسط والاعتدال في الأمور كلها دائماً هو الأمر الممدوح، فكما هو أيضاً ما عليه سائر العقلاء وإن كانوا غير مسلمين من مدح المعتدل كذلك الإسلام يمدح الشخص المعتدل في سلوكه الديني؛ فالعدالة مأخوذة من هذا الباب، وربما تعرف عند الفلاسفة بأنها ملكة نفسانية تردع عن ارتكاب المعاصي وترك الواجبات، ولو جئنا نصيغ هذا التعريف الكلامي ونريد أن نحوله إلى تعريف بمقتضى معطيات علم النفس الحديث نقول: إنها قدرة عقلية تردع صاحبها عن ترك الواجبات وارتكاب المحرمات، وصاحب الحقائق رحمه الله يقول: إنها حسن الظاهر، العدالة في الشريعة هي حسن الظاهر، ولكن ليس حسن الظاهر مطلقاً، فقد ترى إنساناً في الطريق حسن الهندام صبيح الوجه تقول هذا عدل لأن هذا ظاهره حسن؛ أو حتى حسن الظاهر من حيث العمل الشرعي وأنت لم تخالطه، ولم تعامله، ولم تمازجه؛ بحيث ترى مثلاً إذا ذهبت إلى بلده تراه رجلاً لا يتكلم إلا بالدين، ولا يتكلم إلا بالأمر بالمعروف، ولا يتكلم إلا بالنهي عن المنكر وتقول هذا عدل، لا. يقول صاحب الحقائق هو حسن الظاهر الذي يحصل لك عن المخالطة والممازجة والمعاملة، أو يحصل لك عن إخبار الأشخاص الذين خالطوا هذا الشخص وعاملوه، أما الأشخاص الذين لم يعاملوه ولم يخالطوه ولم يمازجوه فأخبارهم لا قيمة له.

فالتعريف الذي يذهب إليه صاحب الحقائق رضوان الله عليه في هذا الباب مأخوذ من رواية أبي خديج رضوان الله عليه الذي قال فيها عن الإمام الصادق عليه السلام: "هو من إذا سئل عنه أهل محلته قالوا لا نعلم من ظاهره إلا خيراً، مؤدٍ للواجبات تارك للمحرمات، مواظبٌ على الجماعات، حاضرٌ في مساجد المسلمين"، والرواية الأخرى أن الإنسان إذا كف يده ولسانه وبيطنه وفرجه وحضر مساجد المسلمين وواظب على جماعتهم وجب عليهم تعديله وقبول شهادته، فمن هذه الروايات يقول صاحب الحقائق رضوان الله عليه: إن العدالة معناها في الشرع حسن ظاهر الإنسان من حيث الاعتدال الشرعي، من حيث الاعتدال في السير والسلوك الشرعي، فصاحب الحقائق عبّر بألفاظ أو مصطلحات واردة في باب علم الأخلاق، وبعض الإخوان أو

بعض طلبة العلم يضخم هذه الأمور ويفهم الناس أن العدل فوق الكرة الأرضية كالعنقاء تسمع بها ولا تراها، أو كالكبريت الأحمر الذي لا يوجد إلا نادراً، فما هذه الألفاظ التي نسمعها ... دعنا نحللها.

يقول صاحب الحقائق _ رضوان الله عليه _ في الرسالة الصلاتية: أن يكون قائماً بالوظائف العلمية والعملية والقلبية والقلبية. هذا التعبير الموجود في الرسالة العملية، وهذا التعبير الموجود في الرسالة العملية يجعله بعض طلبة العلم أكثر مما يذهب إليه الفقهاء، وليس الأمر كذلك فالمقصود من قوله أن يكون قائماً بالوظائف العلمية والعملية هو أن الوظائف العلمية هي العقائد، والوظائف العملية هي واجبات الشرع أركانه وفروعه؛ يعني أن يكون معتقداً بعقائد الحق، فأما لو زاع عن عقائد الحق تسقط عدالته؛ ولو كان مثلاً والعياذ بالله لا يؤمن بيوم الحساب خرج عن الإسلام، فهذا لا يسمى عدلاً، ولو كان يؤمن بالله ويؤمن بالملائكة ولكن لا يؤمن بالنبوة خرج عن الإسلام ولم يكن في طريق الاعتدال؛ هذا فرط ولم يبق بالوظيفة العلمية، فعندئذ يكون قد خرج عن الإسلام فلا يكون عدلاً. وتارة أخرى لا يكفر بشيء من العقائد الخمس ولكنه ينكر عصمة الأنبياء، يؤمن بالنبوة ويؤمن بأن الله بعث مئة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي وأن هناك مئة ألف وأربعة وعشرين ألف وصي، ولكن يقول إن الأنبياء والأوصياء صلوات الله وسلامه عليهم ليسوا معصومين، فهذا فرط، وعادةً الذي يفرط في جانب العصمة وينكر عصمة من عصمه الله فإنه يقول بعصمة من لم يعصمه الله.

لاحظوا عندنا في الإسلام مثلاً الذين أنكروا عصمة الأنبياء وأنكروا عصمة الأوصياء وقعوا في القول بعصمة الصحابة كلهم، والدليل على أنهم يقولون بعصمة الصحابة أنك لو قلت إن فلاناً الصحابي مخطئ استحلوا دمك، وإذا لم ترض أن تقول بأنه مخطئ فماذا تعني؟ تعني أنه معصوم، ينكر عصمة محمد صلى الله عليه وآله ويقول بعصمة أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ؛ مثال ذلك عدو الدين الألكن المعروف بمحب الدين الخطيب؛ ونحن نسمة عدو الدين الألكن لأنه عدو للدين باعتباره لا يقول بعصمة الأنبياء والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم، وألكن

لأنه لا يعرف حتى أن يعبر عن العقائد الصحيحة؛ يقول في كتابه إنني أعتقد في الأمة عقيدة الشيعة في الأئمة؛ يعتقد في أمة محمد كلها أنها معصومة ولكن لا يصدق أن علي بن أبي طالب عليه السلام معصوم، ولا يصدق أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله معصوم، وأمة محمد مليارات وملايين تقول بعصمتها ولا تقول بعصمة الرسول صلى الله عليه وآله، أو تقول بعصمة الإمام علي بن أبي طالب، الغريب أنك لو قلت له إن عمر مخطئ استحل دمك لكن يقول علي عليه السلام غير معصوم، يعني علي يخطئ لكن عمر لا يخطئ، فحتى في الصحابة يفرق وهو لا يشعر.

فالتفريط من جهة إذن يصاحبه الإفراط من جهة أخرى، إذا أنكر عصمة من عصمه الله وقع في القول بعصمة من لم يعصمه الله، وأحياناً بالعكس ليس من جهة التفريط بل من جهة الإفراط، مؤمن ويؤمن بالأصول الخمسة ولكنه يرفع الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم إلى درجة الألوهية أو يرفع الأنبياء إلى درجة الألوهية، فهذا جانب الإفراط، كما أن هناك جانب تفريط فهنا جانب إفراط، وهناك تقصير وهنا غلو، هناك نسميه قالياً يعني مبغضاً أنك على صاحب الحق حقه، بغضاً له وتوهيناً له، وإنزالاً لدرجته، وهنا غلا، فكما يغلو النصارى في المسيح عليه السلام ويقولون هو ابن الله وكما يغلو بعض المسلمين في بعض أهل البيت مثلاً أو في الصحابة فهذا غلو.

وكما أن التقصير مغلٌ بالاعتدال من جانب ويجعل الإنسان غير قائم بالوظائف العلمية كذلك الإفراط يجعل الإنسان لا يسير على طريق الاعتدال، فلا يقوم بوظيفته العلمية، فمن كانت عقائده ليست صحيحة فمعناه أنه لم يقم بالوظائف العلمية، وحينما يقول صاحب الحقائق _ رضوان الله عليه _ : أن يكون قائماً بالوظائف العلمية يعني تكون عقائده صحيحة، وكل الفقهاء يشترطون في العدل أن تكون عقائده صحيحة، ولو كانت عقائده غير صحيحة لا يرونه عدلاً؛ غاية ما في الأمر أن صاحب الحقائق _ رضوان الله عليه _ بدل أن يقول: [وأن يكون صحيح العقائد] قال: أن يكون قائماً بالوظائف العلمية.

وأما الوظائف العملية فهي معروفة، وهي ما يعمل بالأركان من أمور الدين من صلاةٍ وصومٍ وزكاةٍ وحجٍّ وامتناعٍ عن شربِ خمرٍ وامتناعٍ عن لواطٍ وامتناعٍ عن غيبةٍ وامتناعٍ عن نسيئةٍ إلى آخر الواجبات والمحرمات؛ فإذا قول صاحب الحقائق - رضوان الله عليه - [أن يكون قائماً بالوظائف العلمية والعملية] مساوqً لقول بقية الفقهاء [أن يكون مؤمناً وأن لا يترك واجباً أو يرتكب محرماً]، مساوqً تماماً ولا يختلف معهم من هذه الجهة بحيث تكون العدالة عنده عنقاء مغرب، وأنه على قول صاحب الحقائق يكون العدل أندر من الكبريت الأحمر، لا ليس كذلك، و[القلبية والقلبية] هذه لها معنى لطيف جميل إذا لم نحملها على أنه تأكيد لجملة [الوظائف العلمية والعملية] ونقول إنه تعبيرٌ آخر لهذا المعنى، وتارة أخرى نقول إن صاحب الحقائق لا يحتاج بعد أن قال: [أن يكون قائماً بالوظائف العلمية والعملية] لا يحتاج أن يعيد ذلك بحيث يقول: [قائماً بالوظائف القلبية والقلبية]، ولكن له معنى آخر، فالوظائف القلبية ومعناها أن يكون قد طهر نفسه من الأخلاق الدنيئة والملكات المرذولة، طهر نفسه من الحسد لأن الحسد ملكة قلبية رذيلة، وطهر نفسه من الغش وطهر نفسه من الحقد، فليس بمجرد أن اختلف مع الإنسان أحقد عليه إلى يوم القيامة؛ فالحقود مختلفة عدالته طبعاً، إذا اختلفت معي أو اختلفت مع عمرو أو فلان خطأ ولم يقف الأمر عند الاختلاف معي، وإنما خالف ربه وارتكب محرماً من المحرمات فواجبي أن أنصحه. وأن أقول له: يا فلان أنت أخطأت في حق ربك. أو أخطأت في حق نفسك. أو أخطأت في حق دينك. فاتق الله واترك هذا العمل. أما أن أحقد عليه فهذا لا يجوز.

فإذاً الذي يحقد على الإنسان المؤمن الذي لم يكفر بأحد الأصول الخمسة طبعاً ليس ماشياً على طريق الاعتدال. فالدين لا يأمر المؤمنين بالتباغض والتحاقد، بل التعاون، "انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً قالوا يا رسول الله ننصره مظلوماً نعرف معناها لكن ننصره ظالماً كيف؟ قال اردعه عن ظلم نفسه أو عظه ألا يظلم نفسه". فإذاً هو أخوك خطأ أو لم يخطئ، لا يخرج عن أخوتك إلا إذا أنكر إحدى الضرورات من الدين، وما لم ينكر إحدى الضرورات من الدين لا يخرج عن الأخوة الإيمانية، وما لم يدخل في الدين بدعة لا يتحملها الدين لا يخرج عن الأخوة الدينية.

فإذاً قول صاحب الحدائق - رضوان الله عليه - [قائماً بالوظائف القلبية والقلبية] يقصد فيه الوظائف القلبية تنقية النفس من الأخلاق والملكات الشيطانية المرذولة، ولا إشكال فإن الفقهاء لا يختلفون معه في ذلك؛ فلو علموا بأن زياداً يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله يروونه ساقط العدالة لا تجوز الصلاة خلفه، ولا يجوز قبول شهادته؛ وكذلك لو أن الفقهاء عرفوا بأن شخصاً يبغض عمراً المؤمن ويحقد عليه لأنه اختلف معه أو لأنه ارتكب معصية من المعاصي يعتبرونه خارجاً على حد الاعتدال؛ لأن هذا من باب الغلو في الدين؛ والغلو لم يأمر به الله؛ حتى يصل إلى هذه الدرجة، وإنما عليه أن ينصحه، استجاب له أو لم يستجب، فأنت لست الحاكم الشرعي الذي تطبق الأمور بيدك وتحمل عصا الشرع في يدك، ليست هذه هي الطريقة، لا تبغضه، تقول لا أريد صداقته، لا تصادقه، لا تمش معه، لكن لا تبغضه لا تؤلب عليه، لكن لا تحاربه، حارب العمل فقط، قل للناس العمل الفلاني سيء من دون أن تشير إلى المرتكب؛ لأنك لو أشرت إلى المرتكب وقعت في واحد من ثلاثة: إما أن تصبح مغتاباً، وإما أن تصبح مشهوراً بالمؤمنين، وطبعاً لا تظنوا أن عقاب التشهير بالمؤمنين أقل من عقاب الغيبة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَتُّمَّ لَا تَعْلَمُونَ﴾¹. انظروا لها فحب التشهير بالمؤمن ليس عقابه عند الله أقل من عقاب الغيبة والعياذ بالله، وإذا كنت مخطئاً أو أن الرجل لم يرتكب العمل وأنت توهمت أنه ارتكب هذا العمل تكون باهتاً له، فإذاً لا ينبغي لك فعل ذلك.

فهذه الواجبات أو الوظائف القلبية والوظائف القلبية وكذلك الخيرات وجميع الأمور الطيبة من مستحبات ومن واجبات وغيرها التي تكون نتيجةً للقدرات النفسية هي الوظائف القلبية، وهي التي تنتج عن الوظائف القلبية. فملكة الكرم هذه ملكة قلبية أو وظيفة قلبية. لكن كيف تظهر؟ ومن أين يعرفها الناس؟ يعرفونها بالفعل، وبالقيام بوظيفتها القلبية حتى يكون هناك حسن ظاهر، وحسن الظاهر هذا يدل على أن الإنسان قائم بالوظائف القلبية، فهناك حسن ظاهر يدل على أن الإنسان قائم بالوظائف العلمية.

¹ النور: 19

وخلص القول أن العدالة عند صاحب الحدائق - رضوان الله عليه - وأزِيدها غموضاً
بدل التوضيح وإجمالاً بدل التفصيل فأقول إن العدالة عند صاحب الحدائق "هي أن يكون قائماً
بالدين من حيث الأركان واللسان والجنان على نحو معتدلٍ خالٍ من الإفراط والتفريط".
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة لسماحة العلامة الشيخ سليمان المدني عن بعض أحكام وآداب صلاة الجماعة*

صلاة الجماعة من المستحبات المؤكدة، بل لشدة استحبابها ألحقت بالواجبات لشدة أهميتها، وحتى أن الرسول صلى الله عليه وآله حرّق على قوم بيوتهم لأنهم لا يحضرون جماعته، وقال أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه لأهل الكوفة الذين أخذوا لا يحضرون جماعته عليه السلام "أما أن تستحلوا ذبيحتنا وتحضروا جماعتنا أو تفارقونا ولا تسكنوا في مصرنا وإلا حرّقت عليكم بيوتكم". فكأنما إذا أقيمت الجماعة ولم يحضرها بعض الناس على نحو الدوام فهم في الحقيقة إنما يطعنون في الإمام الذي يقيمها، فإذا كان إمام الجماعة معصوماً كالرسول صلى الله عليه وآله أو كالإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام يكونون قد طعنوا في المعصوم، ونفوا العصمة عنه، فحق له أن يحرق عليهم بيوتهم.

وإذا كان الإمام [إمام الجماعة] غير معصومٍ وداوم فرداً أو أفراداً على عدم حضور جماعته فلا إشكال أنهم يطعنون في عدالته ووثاقته ولذلك يأبون الحضور معه في جماعة واحدة، ويكون انقطاعهم من باب الحكم ببطلان جماعة المؤمنين التي تكون في البلد، ولا تجب نية الجماعة في صلاة الجماعة على الإمام بل لو صلى الإمام بنية الانفراد وصلى من خلفه بنية الجماعة صحت جماعتهم وصحت صلاتهم، وكان لهم ثواب الجماعة وله ثواب المفرد.

ولا يجب على الإمام أن ينوي الجماعة إلا في صلاة الجمعة، ففي صلاة الجمعة يجب على الإمام أن ينوي الجماعة لأنه إذا لم ينو الجماعة لا تتعدّد جمعته فتكون الصلاة عندئذ باطلة. ولصلاة الجماعة آداب من أهمها:

أولاً: المسارعة في الحضور إليها بحيث لا تقوته تكبيرة الإحرام، وحتى أن بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله فاتته في يوم من الأيام تكبيرة الإحرام فذهب وتصدق عن فوات تكبيرة

* ليلة الخميس 8 ذو القعدة 1419هـ المصادف 1999/2/24م

الإحرام عليه، فقال له الرسول "ص" لو تصدقت بمثل جبل أحد ذهباً وفضة ما أدركت فضل تكبيرة الإحرام.

ثانياً: تسوية الصفوف بأن يسوي المسلمون في المسجد صفوفهم، لا أن يأتي ويرى الصف الذي هو أمامه لا يزال غير متكامل فيشكل صفاً جديداً، بل عليه أن يدخل في الصف الذي لم يكتمل حتى يكتمل، ثم يتكون الصف الذي بعده، وليس كما نشاهده الآن في بعض الجماعات بحيث تكون كأنها مثلث ينتهي بواحد بينما الصف الأول من طرفيه غير مكتمل. هذا غير صحيح، هذا خطأ فادح، وإن الشيطان ليتخلل تلك الجماعة من أي فرجةً وجدها.

وكذلك أن لا يكون بين المصلي والمصلي الثاني فرجة بقدر الإمكان، بل ينبغي أن تكون المناكب متلاصقة لا أن تكون هناك فرجٌ، وأما لو كان في الصف الأول بين المصلي والمصلي الثاني فرجةً تسع مصلياً فلا إشكال أن من يكون على يمين تلك الفرجة إذا كانت هي على يمين الإمام تكون صلاتهم باطلة. وكذلك لو كانت الفرجة على يسار الإمام تكون صلاة من على يسارها باطلة، فينبغي أن يدفع منه إذا أحس أن هناك فرجة أن يدفع الذي على يمينه أو على يساره أو يفترشا رجلهما حتى يسدا تلك الفرجة، ولا تبطل صلاتهم. وكذلك لو كانت بين الصف والصف فرجة كما لو جاء إلى الصف الثالث وفي الصف الثاني أمامه فرجة فيكون بينه وبين الصف الأول مسافة تتحمل أن يقف إنسان ويصلي فإن عليه أن يمشي إليها ويسدها، ويدخل في الصف الذي أمامه، ولا يصلي إلى تلك الفرجة؛ لأنه إذا صلى إلى تلك الفرجة تكون صلاته باطلة، ولا تبطل صلاة من على جانبيه ولا من خلفه، وتبطل صلاته هو لأنه صلى أمام تلك الفرجة التي في الصف الثاني وهو في الصف الثالث.

وأيضاً إذا دخل المسجد وكان مسبقاً وطلب من الإمام إطالة الذكر أو تكرار الذكر ليتمكن من الدخول لا يلزم أن يصل إلى الصفوف ثم يركع بل يستطيع أن يركع وهو بعيد، فإذا رفع الإمام رأسه من الركوع مشى والتحق بالصفوف ولا تبطل صلاته في هذه الحالة.

ثالثاً: يجب أن يتابع الإمام في جميع أفعاله لا أن يتقدم على الإمام في الهوي إلى السجود أو الهوي إلى الركوع أو الرفع من الركوع أو الرفع من السجود، بل عليه أن يهوي إذا هوى الإمام إلى الركوع، ويسجد إذا هوى إلى السجود، وإذا رفع رأسه وسمع منه السمعة أن يرفع رأسه من الركوع، وإذا سمع التكبير أن يرفع رأسه من السجود وهكذا؛ لأنه إذا كان يسبق الإمام في الأفعال متعمداً تبطل صلاته، وإن كان غير متعمد أي ساهياً لا تبطل صلاته، ولكن إذا عود نفسه على تلك العادة وأصبحت له عادة دائمة فإنه يكون متعمداً في التقدم، وبذلك يُبطل صلاته من حيث لا يشعر.

وكذلك في الأقوال وهي الأذكار التي يتابع فيها المأموم الإمام ينبغي للمأموم أن يتأخر عن الإمام فيها، فلو قال معه كان له ثواب صلاة المفرد؛ فمثلاً لو قال سبحان ربي العظيم وبحمده مع الإمام في مرة واحدة، ولفظ ذكر السجود مع الإمام في مرة واحدة، أو تلفظ التشهد مع الإمام في مرة واحدة وهكذا، فمن يأتي بالأذكار مع الإمام حذو النعل بالنعل فإن له ثواب صلاة المفرد، وليس له ثواب صلاة الجماعة، وإذا كان يريد ثواب صلاة الجماعة وجب عليه أن يتأخر في الذكر في اللفظ بالكلمة، وبعد أن يلفظها الإمام يلفظها هو، ولا يلفظها مع الإمام في وقت واحد.

هذه تقريباً أهم الآداب التي يحتاج إليها المأموم في صلاة الجماعة، ولقائل أن يقول ما بالك لم تتكلم عن إمام الجماعة؟

طبعاً إمام الجماعة له مستحبات أيضاً عليه أن يلتزمها، وأهم هذه المستحبات أن يصلي بصلاة أضعف من خلفه، ولكن ما معنى صلاة أضعف من خلفه؛ صلاة أضعف من خلفه جسماً أو صلاة أضعف من خلفه ديناً، إذا كان أضعف من خلفه جسماً فعليه أن يطيل صلاته كثيراً لأن الشيخ والمريض لا يستطيع النهوض والسجود والركوع بسرعة، فلا تكون السرعة في الصلاة مطابقة لصلاة أضعف من خلفه في الجسم، بل تكون السرعة في الصلاة منصبة ومتعبة ومجهدة للضعفاء والشيخ والعجائز الذين يصلون خلفه، فلا تكون السرعة في الصلاة مأموراً بها. لأنها يقيناً غير مرادة، وإنما قصد النبي صلى الله عليه وآله "أن يصلي بصلاة أضعف من خلفه". وقال

عليه السلام "إن منكم منفرين"، يقصد في كثرة المستحبات التي يدخلها الإمام في الصلاة بحيث تطول الصلاة لكثرة المستحبات فيها، فلا ينبغي للإمام أن يدخل المستحبات الكثيرة والأدعية الكثيرة في الصلاة فتطول الصلاة على من ليست له تلك الملكة الدينية في أداء جميع المستحبات، وإنما ينبغي للإمام أن يقتصر على النزر اليسير من المستحبات حتى لا تكون الصلاة مجردة عنها بالمرة.

والصلاة التي ورثناها نحن من العلماء رضوان الله عليهم تكاد تكون مجردة، فلا مساغ أن يأتي إنسان ويقول سوف أنقص من مستحباتها، ولا معنى للإسراع بها لأن الإسراع بها ينافي الحكمة من الصلاة بأضعف من خلفه من الناحية الجسمية، فكما لا ينبغي لك أن تجهد من ليست له تلك الملكة الدينية والتوجه القلبي في حضور صلاة الجماعة إذا كثرت مستحباتها، فكذلك لا ينبغي لك أن تطرد الشيخ الكبير والعجوز والمريض من حضور جماعتك بسبب سرعتك فيها، فهذه أهم ما ينبغي للإمام.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

﴿ الباب الرابع ﴾

كلمات المناسبات

العزاء*

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الأخ يقول: كيف بدأ العزاء؟ وما هو التاريخ الذي ابتدأ فيه؟ وما هو حكمه الشرعي؟ وهل يصح أن ينزع الرجال ثيابهم في العزاء؟ هل يجوز ذلك شرعاً أو يحرم؟
طبعاً لفظ العزاء إنما أطلق في البداية على التعزية الحسينية خاصة، وهي القراءة التي كانت تعمل في البيوت ثم أنشئت لها المآتم.

وفي القرن الثالث للهجرة أو أواخر القرن الثاني للهجرة وأوائل القرن الثالث للهجرة، خرج أول موكب في الشوارع باسم الإمام الحسين عليه السلام في بغداد قبل أي بلد آخر، وكان ذلك في أيام حكم البويهيين، فخرج أهل الكرخ وسكان مقابر قريش الذي يطلق عليها الآن اسم الكاظمية إلى الشوارع، وكانوا يهتفون باسم الحسين عليه السلام وينثرون القش والتبن على رؤسهم، وكانت هذه أول تظاهرة خرجت للشوارع بالنسبة إلى المواكب الحسينية.

ثم أخذت هذه المواكب بالتطور جيلاً بعد جيل، وحافظ عليها الشيعة على رغم الضغوط التي نالتهم خلال تاريخهم الطويل، ففي أي بلد وجد الشيعة فرصة أخرجوا هذه المواكب التي تنادي باسم الحسين عليه السلام وتعلن مظلوميته من الأمة التي لم تبال في قتل ابن بنت نبيها صلى الله عليه وآله، أو سبي ذرية نبيها صلى الله عليه وآله، ولم تشجب الفاعلين حينذاك، بل بقي ولا يزال في التاريخ من يرى هؤلاء القتلة الذين قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته وأنصاره وسبوا ذريته، لا يزال يوجد منهم حتى اليوم من يسميهم بأمراء المؤمنين وخلفاء الرسول صلى الله عليه وآله، بل لا يبالي أن يعلن بخطأ الحسين عليه السلام وأنه هو الذي سبب القتل لنفسه.

* كلمة ألقاها في أواخر الثمانينات من القرن العشرين بمجلسه بجدحفص

أصرَّ الشيعة على مواصلة هذه المسيرة على رغم المثبطات التي مرت خلال هذا التاريخ الطويل، وأصرَّ الشيعة على إبقاء هذه الظاهرة حيث ما تمكنوا من إبقائها، بل كانوا لا يتركونها إلا بالضغط الشديد جداً، وكأي شيء لا يبقى في يد العلماء بحيث يخضع للضوابط، تتباين مظاهر هذه الظاهرة في جيل عن الجيل الذي قبله أو الجيل الذي بعده، وتتباين هذه الظاهرة بسبب المنازعات الاجتماعية في مختلف البلدان التي يسكنها الشيعة أو التي يتشيع أهلها في خلال هذا التاريخ، فمثلا الهنود عندما دخلوا إلى التشيع وكانت فلسفة الهند تقوم على تعذيب الجسم، أدخلوا في المواكب الحسينية مثلا ضرب الرؤوس بالسيوف، وأدخلوا في المواكب الحسينية مثلا ضرب الظهر بالزناجيل أو بالسكاكين أو غير ذلك، بل ربما في بعض قرى الهند يشعلون نارا ويدخلونها تعذيباً لأجسامهم في أثناء الموكب الحسيني، وطبعاً هذا إنما يعود إلى فلسفة الهند ذاتها في تعذيب الجسم، ولا علاقة له في الأصل بالموكب الحسيني.

كذلك في بعض الأماكن حيث حلا لبعض الناس مثلاً إخراج الشبيه بمختلف أشكاله وأنواعه، منه ما هو على نحو التمثيل بحيث يقوم بالدور إنسان من البشر، ومنه ما هو على نحو التصوير المجسم الذي إذا اتخذ صفة تامة في صورة الإنسان يكون حراماً، فأيضاً هذا جاء من الإيرانيين ودخل إلى المواكب الحسينية، فلا شك أن كثيراً من الناس إذا رأى شيئاً في مجتمع آخر أيضاً يعشقه.

ونظراً لأن المواكب الحسينية في الأعم الأغلب إنما يقوم بشؤونها ويتولاها من لا خبرة له في أحكام الشرع، يحصل فيها أمثال ذلك، بل ربما في بعض البلدان أو بعض الأزمان حتى في البحرين دخل المزمار وأمثاله في المواكب الحسينية فترة من الزمن حتى قاومه المغفور له الشيخ باقر العصفور رحمه الله مقاومة شديدة إلى أن أنهاه من المواكب الحسينية، إلى غير ذلك من التطورات، هذا بالنسبة إلى تاريخ المواكب الحسينية.

يبقى ما هو الحكم الشرعي؟ هل أن هذا الفعل أو إخراج الموكب في حد ذاته - بغض النظر عن المقارنات والمدخلات - هل أن إخراج الموكب الحسينية مباح في الشرع أو محرم في الشرع؟

نقول: إنه بحسب روايات أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين و بحسب الأوامر الصادرة منهم إلى شيعتهم ليس فقط مباحاً، ولكنه مستحب و مندوب إليه، فكل ما يظهر ظلامه أهل البيت عليهم السلام بأي صفة، سواء كان بصفة التعازي وعقد المجالس لذلك، أو بصفة الموكب التي تسير في الشوارع، كلها مأمور بها و مندوب إليها، فلا أقل من قول الصادق صلوات الله و سلامه عليه "أحبوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا". ولا شك أن المناداة بظلامتهم والاحتجاج على المؤيدين لقتلتهم وظالمهم لا شك أن في ذلك إحياء لأمرهم، وإظهار لشأنهم، بل إعلان لموقف الإسلام من توليهم، فيكون بذلك مندوباً، وبذلك تجد أن العلماء مثلاً بالنسبة إلى العمل لا يحبذون العمل في اليوم العاشر من المحرم، ليس لأن العمل فيه محرم كما هو في يوم عيد شوال وعيد ذي الحجة، ولكن لأنهم يرون أن إقامة الشعار وإن كان بالعنوان الأولي ليس واجباً، لكنه بالعناوين الثانوية المقترنة به يكون واجباً، فلو ذهب جميع الناس إلى الأعمال في ذلك اليوم لتعطل الشعار، فإذا تعطل الشعار فمعناه أن الواجب الكفائي لم يقم به أحد، فيأثم الجميع. نعم إذا كان الشعار لا يتعطل بذهاب زيد من الناس إلى عمله، لا يقولون له إن كسبك في ذلك اليوم حرام، لأن الشعار وإقامته من الواجبات الكفائية، لم يتعطل.

فمن أجل ذلك نقول إن إخراج الموكب والمساهمة فيها والمشاركة في إحيائها ليس فقط مباحاً؛ ولكنه عبادة مندوبٌ إليها يستحق من شارك فيها بالنية الخالصة في إحياء أمر أهل البيت صلى الله عليه وآله الثواب الجزيل من الله سبحانه وتعالى، والزلفى لدى رسول الله صلى الله عليه وآله لأنه فيه إحياء لأمرهم، ونشرٌ لذكرهم، واحتجاجٌ على من ظلمهم، أو أيد ظالمهم.

هذا بالنسبة إلى الحكم الشرعي بالنسبة إلى الموكب بغض النظر عن سائر المقارنات التي

تصاحبها.

يبقى الحديث عن بعض الأمور التي تحصل في المواكب، لاشك أن هناك في المواكب تحصل أمور قد لا تكون مباحة من الشرع مثلاً لو جاء إنسان بالدفوف أو بالماصول أو غيرها من سائر المزامير، وعملها في الموكب، فإنه قد ارتكب منكراً عظيماً، ووجب على أهل الموكب أن يردعوه، وأن يخرجوه من الموكب، ولا يسمحوا له باستعمال المحرم في أثناء هذه العبادة؛ لأن العبادة لا تكون مقبولة عند الله سبحانه وتعالى، إلا إذا كانت خالصة له، خالية من المحرمات، وكذلك لو أراد هذا الذي يقود العزاء، أن يأتي [بالردة] على شكل أغنية؛ أي يذهب ويتسمع الفسقة في أغانيهم من المذاييع والتلفزات أو غيرها، ويلحن قصيدته التي يريد أن يقولها بألحان الفسقة، طبعاً في هذه الحالة، تكون [الردة] بهذا الطور أو بهذا اللحن الذي هو لحن الغناء المستعمل عند أهل الفسق، يحرم استعمالها، وفي هذه الحالة يجب على أهل الموكب أو أهل الحلقة أن يمنعوه من أن يقرأ القصيدة لهم، وإنما يكلفون شخصاً آخر، حتى يتوب ولا يستعمل ألحان الفسقة فيه، وهو الغناء المحرم في العبادة التي فيها ثواب، فهذه الأمور تكون منكراً في أثناء العبادة ويجب ردعها، ولكن لا يعني وجود المحرم في العبادة أن الإنسان يبتعد عن هذه العبادة أو يتركها إذا كان قادراً على السير فيها والمساهمة في إحيائها نواياً بذلك التقرب إلى الله تعالى.

بقي السؤال الثالث الذي طرحه الأخ، وهو أن يخلع الرجال ثيابهم في العزاء، طبعاً الواجب على الرجل ستره، إنما هو العورتان، وما ليس من العورتين لا يجب على الرجل ستره، كالصدر، والظهر، والعنق، والساق، وغير ذلك، هذا لا يجب على الرجل ستره؛ لذلك لو صلى بإزاره فإن صلاته صحيحة، نعم يستحب له أن يضع على كتفه ولو خيطاً أو حبلاً حتى لا يكون بدون رداء؛ لأن الصلاة بالرداء فضلها عظيم، لكن هذا لا يعني أن صلاته باطلة لأنه صلى من دون قميص أو صلى مثلاً من دون ثوبٍ لأن ما يجب عليه ستره قد فعله.

فإذن إذا كانت الصلاة لا تبطل بنزع الثياب فكيف نقول مثلاً إن الموكب إذا نزع الرجل ثيابه فيه يكون قد ارتكب أمراً منكراً؟ .. ليس أمراً منكراً، ولا يجب على الرجل ستر أكثر من العورتين، نعم ربما يقال كما سمعت المحرم من بعض الشباب، إنه ينافي المروءة، والحقيقة أن

نزع الثياب لا ينافي المروءة، وإنما ينافي الوقار لبعض الناس، لا لجميع الناس، نعم لو وجدت أحد العلماء، يعني المشائخ العلماء، كالشيخ عبد الحسن حفظه الله أو من في سنه أو غير ذلك نزع ثيابه ونزل الشارع، نقول إنه أخل بوقاره، لكنه لا يخل بمروءته، لأن منافيات الوقار تختلف عن المروءة، والمروءة معناها عند العلماء هي عدم المحافظة على الآداب الواردة من الشارع، كالأكل في السوق ماشياً، هذا وارد، لماذا؟ لأنه مكروه، وردت في حقه الكراهة الشرعية، أما في أمر لم ترد فيه كراهة شرعية، إذا ارتكبه الإنسان، فإنه لا ينافي المروءة وإن كان ينافي الوقار، ويكفيك أنه لا يكون منافياً للوقار بالنسبة لكل الناس وإنما ينافي الوقار بالنسبة إلى بعض الناس، فكما ينافي الوقار من بعض الناس لو مشى في الطريق حاسر الرأس، ولا ينافي الوقار من قسم آخر، كذلك ينافي الوقار لبعض الناس أن ينزعوا ثيابهم في الطريق لكنه لا ينافي الوقار لكل الناس.

فإذن الذي ينزع ثيابه في الموكب، لم يرتكب حراماً، ولم يأت بما يخل بمروءته؛ لأنه ليس هناك من نهي للرجل عن كشف ما عدا العورتين، حتى يكون مكروهاً شرعياً، وإن كان لا شك أنه مثلاً في الصلاة يستحب زيادة الثياب باعتبار ما ورد في الروايات بأن الله سبحانه وتعالى تفضلاً على عباده وتكراً يحسب ثياب المصلي ويعطيه ثواباً إذا لبس ثياباً أكثر، فكما زادت ثياب الإنسان في أثناء صلاته، كلما زاد ثواب الصلاة، لكن لو صلى بمجرد الإزار، ومن دون قميص صحت صلاته، نعم لو صلى وليس على كتفه شيء، حتى خيط، يقال إنه افتعل المكروه باعتبار نهي الشارع عن الصلاة بدون رداء، ولذلك يقول العلماء إنه يكفي في هذا المستحب، أو دفع الكراهة وضع خيط أو حبل إذا لم يجد شيئاً يضعه على كتفيه، وإن كان مثلاً بعض الناس لا يعرف هذا الحكم، فيحاذر على تغطية رأسه قبل المحاذرة على تغطية كتفيه، فيكون عليه إزار ويكون عليه [غتر] أو كما يسميها العرب عمامة، فيضع [غتر] على رأسه ويترك كتفيه بدون شيء، نعم لو وضع [غتر] مفروشة على الرأس حتى تسيل ثم وضع قسمها الأيمن على كتفه الأيسر وقسمها الأيسر على كتفه الأيمن بحيث تكون ثوبا شاملاً لكتفيه ورأسه يكون قد فعل

المستحبين، يعني تغطية الرأس وهو التعمم، وتغطية الكتفين وهو استعمال الرداء، ولكن إذا كان لا يريد أن يفعل ذلك فليضع الغترة على كتفيه لا على رأسه؛ لأن تغطية الكتفين في الصلاة أفضل بكثير من تغطية الرأس.

فإذاً هذا بالنسبة للصلاة، أما بالنسبة لسائر الأحوال فلم يرد هناك نهي مثلاً عن كشف سائر الجسم باستثناء العورة، فلا يكون من نزع ثيابه في العزاء الحسيني قد خالف الشريعة في شيء من هذه الأمور مطلقاً.

يبقى هناك إشكال وهو أن النساء يأتين إلى نظر الموكب فينظرن أجسام الرجال، من الذي ارتكب المحرم؟ هل ارتكب المحرم الرجل بنزع ثيابه؟ أم ارتكبت المرأة المحرم بمخالفتها كتاب الله سبحانه وتعالى في موضعين؟ لا شك أن الذي ارتكب المحرم في هذه الحالة هي المرأة وليس الرجل، لأن الله سبحانه وتعالى أنزل آيتين تمنعانهما من ذلك، الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾¹، ففي صدر الآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني اجلسن في بيوتكن، فإذا خرجت إلى الشارع للنظر والتفرج على المارة ومن فيه تكون هي التي خالفت هذا الأمر القرآني، لا أن الرجل الذي لم يؤمر بالجلوس في البيت هو الذي خالف الأمر القرآني.

والأمر الثاني قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾²، فهي إذاً المأمورة بغض بصرها وعدم النظر إلى وجه الرجل أو جسمه، لا أن الرجل ممنوع من الخروج إلى الشارع خوفاً من أن تأتي المرأة إلى الشارع فتتنظره، وكما يحرم على المرأة نظر ظهر الرجل أو صدره يحرم عليها النظر إلى وجهه أيضاً بشهوة، فلا فرق بين النظر إلى الظهر والصدر وبين النظر إلى الوجه من حيث الحكم الشرعي، كلاهما محرم في هذه الحالة إذا كان النظر بشهوة، فهذا الإشكال لا يرد على من ينزع ثيابه فقط في الموكب الحسيني، وإنما يرد على كل من يسير في الشارع من الرجال إذا كان لا يغطي وجهه [بالبوشية] ومثلها، فإن المآزات من النساء قد ينظرن إلى وجهه

¹ الأحزاب: من الآية 33
² النور: من الآية 31

أيضاً بشهوة، فهل يمتنع الرجال من الذهاب إلى الأعمال والدخول في الأسواق والسير في الشوارع حتى لا تأتي النساء فتتنظر إلى وجوههم؟ أم على النساء أن يعضن أبصارهن ولا ينظرن إلى وجوه الرجال بشهوة؟ كذلك عليهن أن يعضن أبصارهن ولا ينظرن إلى سائر أجزاء جسم الرجال بشهوة، هذا بالنسبة للحكم الشرعي في نزع الثياب.

نعم ينبغي تنزيه المواكب أيضاً من الأغراض الشخصية مثلاً أو الأمور السياسية أو الاجتماعية؛ لأن الذي يذهب إلى الموكب وهو يقصد التقرب إلى الله إنما يحصل الثواب إذا كان إظهاراً لمظلومية أهل البيت ولإظهار الحزن عليهم، لا للتنفيس عما في نفسه مثلاً، وهل يضرب الناس الصدر مثلاً، أو يلطمون على ظهورهم أو غير ذلك، إذا قلنا مثلاً بالجواز إذا لم يكن فيه مَضْرَّةٌ أو غير ذلك، هل يفعلون ذلك من أجل أن فلان لم يفعل كذا، أو فلان فعل بنا كذا؟ أو أنهم يحصلون الثواب إذا نادوا باسم الحسين عليه السلام وأسماء أهل البيت عليهم السلام؟ طبعاً الثواب لا يحصل [بالرذات] الاجتماعية وإنما يحصل [بالرذات] الحسينية الخالصة.

وكذلك يجب أن يكون الداخل في الموكب والمشارك فيه أن يكون بنية خالصة.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

سؤال: أكان العزاء المتعارف عليه هو الجلوس في المأتم وليس الخروج للشوارع؟

جواب: هل وردت كيفية معينة للعزاء من الأئمة عليهم السلام؟ لا، إذاً كل وسيلة أمكن إظهار أمرهم عليهم السلام بها، ولم تقترن بمحرم شرعي فهي جائزة، وتكون مندوباً إليها، وتشملها الأوامر العامة، لأن العبادة إذا كانت غير موقَّفة، فالعبادة تارة تكون توقيفية ترد لها صورة معينة وهيئة معينة من الشارع، فمن يأتي بها على غير صورتها يكون مبدعاً في الدين ولا يجوز له ذلك، وأما إذا كان الشارع المقدس لم يأت بكيفية معينة في العبادة، فبأي كيفية جاء بها المكلف يستحق عليها الثواب، وتكون مندوبة.

خذ إليك الدعاء، طبعاً الدعاء عبادة، والدعاء عندنا نوعان، الدعاء التوقيفي، وهو عبادة

توقيفية، فلا يجوز للإنسان اختراع دعاء توقيفي، بأن يدعي بأن هذا الدعاء الذي عمله هو للحاجة

الفلانية، أو لليوم الفلاني، أو للساعة الفلانية، أو ليوم عرفة مثلاً، هذا لا يجوز، لماذا؟ لأنه لا يجوز لك أن توقت وتوقف، لكن الدعاء الذي ليس بموقت وليس بموقّف، حيث لم ترد فيه كيفية معينة ولا صيغة معينة ولا ألفاظ معينة، جاز بكل اللغات وجاز على جميع الهيئات.

لا يوجد أمر بالتعزية عندنا، وإنما عندنا أمرٌ بإظهار أمر أهل البيت عليهم السلام، وإحياء أمر أهل البيت، فالأوامر التي وردت هكذا، "أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيأ أمرنا"، لا يوجد [انصبوا مأتماً]. فأى مكان يذكر فيه أهل البيت عليهم السلام يكون معظماً.

سؤال: تحدث حركات غريبة تشبه الرقص في العزاء، فهل هذا يجوز؟

جواب: إذا كانت رقصاً بحيث كان مما يستعمله أهل الفسق فهي حرام، وإذا كان كما يسميه [أهل الأول] [الموحة] الذي كان يستعملها [الشيّاب] فحسب الظاهر ليست رقصاً، وأما أن تكون هذه (الموحة) تطورت وصارت إلى حد الرقص الذي يتعاطاه أهل الفسق فإنها تكون حراماً. الرقص فنٌ معروفٌ عند أهله، فلو أن الإنسان عاداته إذا قرأ القرآن يهز رأسه، فهل يسمى هذا رقصاً؟ لا.

الناس تعرف أن تميز بين حركة الراقص وحركة غير الراقص، فإذا كانت تدخل في فن الرقص فهي حرام، وإذا لم تدخل في فن الرقص فهي حلال.

مداخلة: البعض يرى حركات الموكب رقصاً.

جواب: هل كل من ينظر للموكب يقول هذه الحركات رقصاً؟ معرفة الرقص أمرٌ عُرفي، فإذا كانت هذه الحركات رقصاً فكل من يراها سيسميتها رقصاً، مثل الغناء كل من سمعه يسميه غناءً.

سؤال: إذا أحسست أن لحن العزاء يطرب النفس [يعني صوته حسن]؟

جواب: الصوت الحسن ليس محرماً، وإنما المحرم هو أن يأتي الإطراب من الكيفية التي يقرأ بها الشعر، فمثلاً لو أنني قرأت لك بهذه الكيفية، هل سوف تطرب؟ تارةً يطرب لحسن الصوت وتارةً يطرب لكيفية الإلقاء، الغناء كفيه معينه معروفةً عند أهلها.

سؤال: بالنسبة إلى جبر أو إلزام الناس بخلع الثياب أو نهى الناس عن نزع الثياب؟

جواب: لم يجعل الله لأحد ولاية على أحد، حتى يجبر الناس على نزع الثياب ولا ولاية على أن لا ينزع الثياب، فالذي يريد أن يعزي بثيابه يعزي، والذي يريد أن يعزي بدون ثيابه يعزي.

ظلامه الإمام الحسن عليه السلام*

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، والسلام عليكم أيها المؤمنون جميعاً ورحمة الله وبركاته.

الحسن بن علي صلوات الله وسلامه عليه، وأخوه الحسين عليه أفضل الصلاة والسلام هما سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله، ومنهما انبثقت ذريته الطاهرة، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم عنهما: "ابناني هذان إمامان قاما أو قعدا"¹، والمقصود بقوله صلى الله عليه وآله قاما أو قعدا، أي إن تحركا وحاربوا وثاروا وجاهدا فهما إمامان يعملان بما ألزمهما الله به، وليس لأحدٍ ممن يدعي الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله الاعتراض عليهما، وإن قعدا . إن لزمنا بيوتهما . ولم يخرجنا للحرب أو للثورة فهما أيضاً إمامان، ليس لأحد ان يعترض على ما يفعلان، وذلك لأن الإمام الذي يكون وصياً عن النبي صلى الله عليه وآله إنما يعمل ويتحرك بموجب ما عنده من عهدٍ من الله سبحانه وتعالى، وهو معصومٌ من المخالفة الشرعية، سواء كانت هذه المخالفة عمديّة أو على نحو السهو والخطأ، فخرج الحسين صلوات الله وسلامه عليه وحربه هي كجلوس الحسن وعوده، كان فرضُ الحسن صلوات الله وسلامه عليه من الله أن لا يستمر في قتال معاوية، وكان فرضُ الحسين عليه الصلاة والسلام من الله أن لا يعطي بيده إعطاء الذليل.

الحسين صلوات الله وسلامه عليه لم يخرج من المدينة محارباً، ولم يخرج من مكة محارباً، وإن كان هو يعلم من سابق الأزل أنه مفروضٌ عليه ان يحارب، ومفروضٌ عليه ان يُقتل، ولكنّه في ظاهر الحال وهو يخرج من مكة لم يخرج محارباً.

والحسن صلوات الله وسلامه عليه كان في ابتداء أيام إمامته محارباً، لقد توفي أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه وحالة الحرب قائمةً بينه وبين المارق عن الدين معاوية بن أبي سفيان. صحيح أن المعارك كانت متوقفة، لكن القوم لم يكونوا حتى في حال هدنةٍ فضلاً عن أن

* كلمة ألقاها في الاحتفال بمولد الإمام الحسن - 16 شهر رمضان 1415 هـ المصادف 1995/2/16م
¹ بحار الأنوار-ج16- العلامة المجلسي

يكونوا في حالة سلم، فبعد انتهاء الحَكَمين وما توصلوا إليه من نتيجة باطلّة بعيدة عن كتاب الله سبحانه، حصلَ التوقف عن الحرب، وانشغل أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه عن الحرب بما حصل من فتنٍ في جيشه، وبما حصل من خروجٍ عليه، فالذين أصرّوا على قبول التحكيم مع علمهم بأنه ليس كل من رفع شعار الإسلام هو في حقيقته يدعو للإسلام، وليس كل من نادى بالقرآن هو في واقعه يريد ان يتمسك بالقرآن، مع علمهم بذلك فقد انطلت عليهم الشبهة وأصرّوا على علي عليه السلام أن يقبل التحكيم، وإلا فَمَنْ مِنَ المسلمين يجهل الطليق ابن الطليق، المنافق ابن المنافق معاوية؟ أهو من أهل القرآن حتى يرفع القرآن داعياً إليه؟ وفي قبال مَنْ يرفع القرآن؟ في قبال علي عليه السلام، الذي يعلم جند الجيشين أنه أول القوم إسلاماً، وأنه أعلم القوم بالله وبشريعته، وأنه أعظم المسلمين تمسكاً بهديه، فهل من الحق أو من العدل أو من الإنصاف ان يقبلوا دعوة معاوية للقرآن في قبال علي عليه السلام؟ وهل كان علي يحارب معاوية إلا من أجل خروجه عن القرآن؟ ولكنها الشبهة متى انطلقت، وملاّت الأنفس، وملاّت العقول واشتعلت بها العواطف فغشت على الأبواب أن تتفكّر، وعلى الأحلام أن تتمعن، وإذا بالقوم يقولون لعلي عليه السلام: [استجب إلى كتاب الله]، ورضخ علي عليه السلام إلى هذا الأمر قائلاً:

وما أنا إلا من غُزِيَةِ إن غوت غوبت وإن ترشد غزية أرشد¹

وأراد أن يختار لتلك المحاكمة المشؤومة من هو خبير ببواطن الأمور، ومن لا يُغلبُ على رأيه، ومن لا يُغالطُ في النظر إلى ما تنتهي إليه النتائج وما يراد الوصول إليه من النتائج، فأصرّوا عليه إلا أن يحكّم مِنْ قِبَلِهِ أغبى غبي في ذلك العصر [أبا موسى الأشعري]، وعندما أقول إنه أغبى غبي فلست أريد أن أظلم الرجل، أليس هو كما يروي البخاري قد جمع قرّاء البصرة وقال لهم: يا معشر القرّاء لا تقولوا قد حفظنا القرآن كله فلقد والله فاتكم قرآنٌ كثير، ثم ذكر سوراً كثيرةً يدّعي أنها كانت من القرآن فأسقطت، وادّعى أن هناك سورةً طويلةً تكاد تشابه في طولها سورة الأحزاب، وقال إنه أنسيها، ولا يذكر منها إلا آيةً واحدةً وهي [ادعوهم إلى آبائهم إن فسقاً بكم أن لا تدعوهم إلى آبائهم]، هذا الرجل الذي يتوهم كثيراً من السور ليس لها وجود، فسورة [الحفد] مثلاً

¹ نهج البلاغة-ج1-خطب الإمام علي ع-ص86

وأمثالها من السور التي يطَّلَع عليها من يقرأ في كتاب البخاري برواية أبي موسى الأشعري يدرك مدى بساطة هذا الرجل وغباوته، هل يصلح هذا الرجل للتحكيم في أمورٍ سياسيةٍ خطيرةٍ، وللدعوة إلى القرآن؟ أصروا عليه إلا أن يكون المُحَاكِمُ من قبل جيش الكوفة هو أبو موسى الأشعري، وعندما فشل التحكيم قالوا : لقد كفرنا . خرجنا عن الإسلام . لأننا حَكَمْنَا الرجال في كتاب الله، وأنت يا علي وقد رضيت معنا بتحكيم الرجال فعليك ان تتوب إلى الله من الكفر .

وانطلقت الفتنة، وفي كلا الحالين ما هي إلا الشُّبُهَة، وما هو إلا الجهل، تارةً يثيرها معاوية في صفوف علي حتى يفرِّقها، وتارةً يثيرها أقوامٌ من جند علي يصبون للزعامة والرئاسة، ومن أجل ذلك رفعوا شعاراً جديداً في قبال علي، [الحكم لله]، وهل كان علي يقول إن الحكم ليس لله؟ وهل سينزل الله ملائكةً يحكمون بين البشر بحكمه؟ وفي قبال من يُرْفَعُ هذا الشعار؟ شعار [الحكم لله]، وتكون معركة جديدة ليست مع المارق معاوية، ولكن مع المارقين الجدد، الذين أُطلق عليهم في التاريخ [الخوارج]، وفتنة الخوارج أشدُّ على علي عليه السلام من فتنة معاوية.

وقُتِلَ علي عليه السلام واستشهد في هذا الشهر على أيدي الخوارج، وجاء الحسن إلى الخلافة في مثل هذه الظروف، فالحسن إذن جاء إلى الخلافة وهو محارب، ولم يأتِ إلى الخلافة وهو قاعد، والحسين عليه السلام آلت إليه الإمامة وهو قاعد، ولكنه قُتِلَ محارباً، وكلُّ منهما حجةٌ لله في أرضه، واجبُ الطاعة، وواجبُ التقدير والاحترام؛ والاعتراف بشرعية كل ما يفعل، سواءً في ذلك الحسن أو الحسين عليهما أفضل الصلاة والسلام.

الحسن بن علي عليه السلام آلت إليه الإمامة وتولى الخلافة في ظروف حربية صعبة لا يمكنه أن يسير فيها، ولو سار فيها لأدى ذلك إلى فناء كل شيعة، وإلى فناء كل أهل بيته، فجيته مملوءٌ بالخوارج، وجيشه مملوءٌ بالخونة الذين يفضلون معاوية عليه، ألم يكن الأشعث بن قيس في جيش الحسن؟ والأشعث بن قيس لا يعرف أي طرفيه أطول، صحيح انه قائد عسكري كبير ومحارب عظيم، ولكنه لا يعرف أي طرفيه أطول، أحمق، أخرق، يكفيك لشدة حمقه أنه أراد أن يرشي أمير المؤمنين عليه السلام، هل يفكر إنسان في يومٍ من الأيام مهما بلغ به السقوط أو

بلغ به الغباء بأن علي بن أبي طالب يقبل رشوة؟! ولكن الأشعث بن قيس اعتقد ذلك، وذهب ليرشي علياً عليه السلام، والأشعث بن قيس هذا أحد الخوارج الذين لم يعلنوا عن أنفسهم ولم يكشفوا وجوههم، صَانَعَ علياً وصَانَعَ الحسن مدة طويلة، بل أصر على أن يزوج الحسن ابنته، ولم يكن الحسن عليه السلام ليخطب ابنته، الحسن خطب ابنة عمه، ولكن يبدو أن آل الأشعث كلهم أغبياء، فجاء الرجل يستشير الأشعث، لقد خطب الحسن ابنتي فماذا تقول؟ فأخذت قلبه الغيرة من ابن عمه والحسد له، كيف يصاهر الحسن فيفوقه شرفاً، ولم يكن الأشعث ينظر إلى شرف رسول الله، وإنما كان ينظر إلى أن الحسن خليفة، فقال له: يا هذا صاهر من إذا صاهرتك خدمك، لا من إذا صاهرتك تحتاج أن تخدمه. فذهب ذلك الغبي وردَّ خطبة الحسن عليه السلام، فلما كان يوم الجمعة جاء الأشعث وهو زعيم قومه ورئيس عشيرته يتخطى رقاب الناس في مجلس الحسن ليقول له: [يا أبا محمد لقد زوجتك ابنتي جعدة]، فلا يتمكن الحسن عليه السلام من رفض هذا الزواج، وإلا أفسد قلوب بني كندة كلهم وانقلبوا عليه، وتزفُّ جعدة إلى الحسن.

الأشعث هذا أحد قواده، والشمر بن ذي الجوشن الخارجي كان من قواده، كل من سمعتم بذكرهم في واقعة كربلاء يحاربون الحسين من القادة كانوا قادة في جيش الحسن، وكلمتهم يوم الطف مشهورة عندما سألهم أبو عبد الله عليه السلام: [على أي شيء تحاربوني؟ أعلى دين غيرته؟ أم على سنةٍ بدلتها؟ أم على قتيلٍ قتلته منكم؟ أم..؟ أم...؟]، قالوا: لا، ولكننا نحاربك بغضاً لأبيك، البغض لأبيه لم يكن قد حدث بعد الحسن، كان قد حدث منذ أيام علي عليه السلام، فإذن قواد جيش الحسن عليه السلام في الغالب منهم هم أعداء للحسن، وأعداء لعلي؛ ولذلك كاتبوا معاوية [إن شئت أن نسلم لك الحسن تسليم اليد فعلنا]، ولقد همَّوا بذلك وفعلوا وحاولوا، ولكن الله سبحانه وتعالى سلَّمه، هذا قسمٌ من أقسام القادة الذين كانوا يقودون جيش العراق، وقسمٌ آخر أيضاً من القادة من قواد جيش الحجاز وفيهم من بني هاشم المقربين مثل عبيد الله بن العباس، هذا الرجل اشتراه معاوية بدراهم معدودة على الرغم من أنه قتل ولديه، فهرب من الجيش ليلاً ولولا أنه في ذلك الجيش كان يوجد قائد آخر وهو قيس بن سعد بن عبادة، لهلك ذلك الجيش. إذاً ما حيلة

الحسن أن يفعل؟ هل يمكنه الاستمرار في الحرب؟ هل يمكنه مواصلة القتال مع معاوية؟ لا بد له من إنهاء هذه الحرب، ولا يمكن إنهاؤها إلا بطريقتين، طريق التسليم وإعلان الهزيمة، وطريق المصالحة، ولا إشكال أن الحسن عليه السلام لو سلك الطريق الأول لما بقي للإسلام ذكر، ولما بقي لمحمد صلى الله عليه وآله ذكر، ولما بقي لأهل البيت ذكر، فإذا ليس هناك بد للحسن عليه السلام من أن يجري صلحاً يحفظ ما يمكن حفظه، وعندما صالح الحسن عليه السلام معاوية، وكتب معه هذه الشروط، صالحه وهو أعرف الناس به أنه لا يفي بشيء من ذلك، لم يكن الحسن ممن يجهل معاوية، ولكن لا توجد صورة تحفظ الإسلام ولو اسماً، وتحفظ الشيعة، على الأقل من لم يكن معروفاً بارزاً منهم، وتحفظ لأهل البيت حياتهم إلا هذه الصورة، فاتتبعها الحسن عليه السلام.

ولقد ظلم الحسن في حياته، وظلم بعد وفاته، وما زال يُظلم حتى اليوم، أولاً كثيراً من جهلة الشيعة الذين يفكرون بعواطفهم ولا يتمعنون في الأمور بعقولهم، ولا يتمكنون من النظر بعيداً لمعرفة العواقب واستشفاف الخلفيات، وهم يرون أن للحسن عليه السلام جيوشاً متعددة في اليمن والحجاز والعراق والمدائن وفارس وغيرها، قالوا: كيف يُصالح؟! لقد خاننا، لقد أدلنا، لماذا صالح، وحتى اجتراً كثيراً منهم وهم يقولون له إذا دخلوا مجلسه: السلام عليك يا مُدلل المؤمنين.

الحسن عليه السلام إنما حفظ أرواحهم، وحفظ لهم دينهم، ولو أنه قاتل معاوية لأخذوا تحت كل حجرٍ ومدر، واصطلموا وأبيدوا، ولم يبق للتشيع لعلي ولأهل البيت اسمٌ ولا خبر، وعملت أيضاً دعايات معاوية عملها فنسبت إليه عليه السلام أنه منذ البداية كان على غير وفاق مع أبيه عليه السلام، وأنه كان يعتقد أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنه كان يُخطئ أباه في حربه، وأنه كان ينتظر أن تتوَل الأمور إليه ليسلمها إلى معاوية، وأن صورة الحرب المؤقتة التي جرت ماهي إلا أمور شكلية، وأعتقد أنه لا يزال من يتبنى هذا الرأي في الوقت الحاضر أو في قرننا الحاضر كطه حسين مثلاً في الفتنة الكبرى. وأيضاً حاولوا أن يشوهوا عليه بأنه إنما صالح لأنه ليست له همة الخلافة، وليست له قدرة الحرب، وليست له نفسٌ أن يدير المعارك، الحسن زير نساء يريد أن

يتزوج ويطلق، وهو في كل يوم يتزوج ويطلق، حتى نسبوا إليه أنه تزوج أربع مائة زوجة، فمعاوية وأتباع معاوية مدة دولتهم كانوا يشوهون على الحسن، وبعد وفاته أيضاً وإلى اليوم لا يزال هناك من يدعي لنفسه التشيع أو ينتحل التشيع يقول إننا لا نريد أن نتبع الحسن، فإذا كنا شيعةً فنحن حسينيون ولسنا حسنيين، هكذا يقول بعضهم في كتبه، بل ويجاهر بعضهم بلسانه، وكأن الحسن عليه السلام ليس بالإمام المعصوم، أمثال هؤلاء في الحقيقة إنما يكشفون عن عدم إيمانهم حتى بعصمة الحسين، فإن من يطعن في عصمة الحسن وينسبه إلى الخطأ ويقول لا أريد أن أتبعه، هو إنما يطعن في عصمة الحسين أيضاً، بل يُظهر أنه لا يعتقد لا بإمامة الحسن ولا بإمامة الحسين وإنما يتبع الحسين لأن موقف الحسين يطابق هواه، لا لأنه يعتقد إماماً معصوماً، وإلا فالنص الذي يثبت إمامة الحسين هو ذاته الذي يثبت إمامة الحسن، والنص الذي يثبت إمامة الحسين هو ذاته النص الذي يثبت إمامة ابنه علي بن الحسين، وهو ذاته النص الذي يثبت إمامة أبنائه التسعة، فإذا طعن إنسان في واحد من الأئمة وقال إنني لا أريد أن أسير بسيرته، فهو في الحقيقة أيضاً يطعن في إمامة من يدعي أنه يريد أن يسير بسيرته، لأنه نص واحد، نعم اعتبر الحسين أو الحسن أو غيرهما كمشاهير الرجال والتاريخ الذين جرت العادة أن يأخذهم الناس أمثالاً يقتدون بهم، فهو يقول أنا أريد أن أقتدي بهذه الشخصيات التاريخية، ولا أريد أن أقتدي بتلك الشخصية التاريخية، هذا معناه خروج عن حد التشيع، ومن أراد أن يكون شيعياً في حقيقته فعليه أن يقتدي بالحسين، وعليه أن يقتدي بالحسن، ومن لا يريد أن يقتدي بالحسن فهو لا يقتدي بالحسين باعتباره إماماً، وهذا لا إشكال ظلم للحسن عليه السلام بعد وفاته، بل إن المظالم للحسن عليه السلام لا تزال مستمرة، ويكفي أن الأعداء ليس فقط أنهم منعوا دفنه عند جده فقط، بل إنهم عندما آلت لهم الدولة في الحجاز هدموا قبره ومنعوا زيارته، ولا يزال هذا الظلم سائراً، فالحسن عليه السلام ربما يكون في ظلامته من هذه الجهة أكثر من ظلامته أخيه الحسين عليهما السلام، فالحسين وإن قُتل غريباً عطشاناً وقُتلت أنصاره وأصحابه وولده، وفُرق بين رأسه وبين جسده،

وسببت نساؤه، لكنه لم يُظلم بعد وفاته، لم يتكلم عليه أحد بعد وفاته، ولم تشوّه سيرته بعد وفاته،
بخلاف الحسن عليه السلام فإنه ظُلم حياً وظلم ميتاً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

غربة الإسلام*

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين، السلام عليكم أيها المؤمنون الكرام ورحمة الله وبركاته.

الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله بدأ في مكة غريباً، يُطارَد أتباعه ويحاربون ويستضعفون، والذين يحاربونهم يدعون أيضاً أنهم أبناء إبراهيم الخليل، وأنهم أتباع إبراهيم الخليل، وأنهم على ملة إبراهيم الخليل، وإبراهيم عليه السلام وهو خليل الله وأبو الأنبياء ينتسب إليه كل أهل الأديان، وَيُجْعَل راية ترفع أيضاً في وجه كل الأديان، فيهود كذبت عيسى عليه السلام، لأنهم أبناء إبراهيم، وأنهم أتباع إبراهيم، وأنهم يعملون بدين إبراهيم، والمسيحيون ومشركوا العرب أيضاً كذبوا محمداً صلى الله عليه وآله وحاربوه باسم إبراهيم، وحملوا في وجهه ملة إبراهيم، ولذلك يقول القرآن في معرض خطابه لهم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِمًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّكَمُ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾¹، ويقول في مخاطبة اليهود والنصارى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾²، ويقول للعرب عن الإسلام إنه ملة إبراهيم، وموضع الشاهد أن الذين حاربوا محمداً صلى الله عليه وآله حاربوه باسم الإسلام أيضاً، حاربوه باسم إبراهيم خليل الله عليه السلام، وباسم الحنيفية التي جاء بها إبراهيم، فالحنيفية لم يبقَ منها شيءٌ يَعْمَلُ به أهل مكة أو العرب إلا الحج وعقود الزواج والطلاق وأمثال ذلك، بل ربما تجاوزوها حتى في هذه الحدود الضيقة، وحرفوها حتى في هذه الأمور الصغيرة، ولم يبقَ من الحنيفية شيءٌ يَعْمَلُ به أهل مكة أو العرب، فالأصنام كانت على الكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل، كانت في كل مكان يُسجد لها من دون الله، ويُتقرب لها من دون الله، وبسبب تطاول الزمن وتطاول الأمد وقسوة القلوب لم يكونوا يشعرون بأنهم في مفارقةٍ عظيمةٍ مع دين إبراهيم، ومع ملة إبراهيم، فالتجارة

* كلمة ألقاها في الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وآله في 18 ربيع الأول 1418 هـ المصادف 1997/7/23م بمسجد المشرف بجدهفص

¹ النحل: 120

² آل عمران: 67

عندهم كانت تقوم على الربا، والربا الفاحش، ومن يقرأ القرآن الكريم وينظر محاربهه للتعامل الربوي يدرك مدى تغلغل التعامل الربوي في حياة المكّيين خاصةً والعرب عامة، وأن جميع تجاراتهم وجميع معاملاتهم كانت تقوم على الربا، وإلا فلا معنى لأن يعلن القرآن أن التعامل بالربا هو حرب لله. إن الزنا من أكبر الكبائر، واللواط حكمه أن يقتل فاعله، وكل هذه الجرائم ما اعتبر الله سبحانه وتعالى مرتكبها محارباً، لأنها إذا كانت تقع فهي تقع في الشذوذ، وبسبب الشهوة وغير ذلك، ولكن لانتشار التعامل الربوي وقيام الحياة الاقتصادية عليه عند المكيين خاصةً والعرب عامة اعتبر سبحانه المتعامل بالربا محارباً له.

إن جميع نواحي الحياة في الحقيقة كانت بعيدةً تمام البعد عن العمل بدين إبراهيم، وبملة إبراهيم، فالنصارى لم يظفوا على ما جاء به عيسى، واليهود ابتعدت كل البعد عن تعاليم التوراة وعن تعاليم الأنبياء، ومع ذلك حاربوا محمداً صلى الله عليه وآله باسم إبراهيم عليه السلام، وحاربوه وناذبوه باسم الانتماء إلى إبراهيم، ولذلك كان يقول صلى الله عليه وآله: " بدأ الإسلام غربياً"، بدأ غربياً في مكة، مستضعفاً لا يقبله أحد، لا تقل لي إنه قد رفضه الأغنياء وقبله الفقراء والمعدمون والعبيد، فإن الأيام كشفت أن كثيراً من الفقراء والعبيد الذين اعتنقوا الإسلام لم يعتنقوه إيماناً واقعياً به، ولا رضاً حقيقياً به، وإنما اتخذوه وسيلةً وغرضاً لتحقيق أهدافهم، وهو التحرر من العبودية، ولأنه بشرهم بالغنى والثروة، وإسقاط المديونية الربوية وغير ذلك، والأغنياء أيضاً لم يرفضوه لأنهم يرونه ضد الغنى وضد الأغنياء كما يحاول الاشتراكيون واليساريون عامةً تفسير التاريخ بذلك، فنحن نجد أن كثيراً من الأغنياء دخل في دعوة الإسلام، وساعد الإسلام، وأنفق كل ما يملك في سبيل الإسلام، ومن أعظم الأمثلة أمنا خديجة صلوات الله وسلامه عليها.

إن فالذين قبلوا الإسلام في مكة ليس لأنهم فقراء مستضعفون، والذين رفضوه في مكة ليس لأنهم أغنياء مترفون، وإنما هناك من آمن بالإسلام رغبةً بالإسلام ونبذاً لما عليه المجتمع، فأبو ذر [رض] مثلاً دخل مكة وجاء إلى الكعبة ورأى الناس تسجد للأصنام فضحك، قال له رجل: لم تضحك؟ قال: لماذا يسجدون لهذه الأحجار وماذا ستعطيهم؟ فقال له رجل: إن في مكة

رجلاً يقول كما تقول، فقال: هل لك أن ترشدني إليه؟ فأرشدته إلى محمد صلى الله عليه وآله فأسلم، أبوزر، إذن ما دخل الإسلام لأنه مستضعف أو لأنه ضعيف أو لأنه فقير أو غير ذلك.

وهناك من دخل الإسلام لغاية، ولذلك تجده يحاول أن يصل إلى غايته ولو باقتلاع أصول الدين من قلوب الناس.

فالعمدة إذن ليست هي الشعار، والعمدة ليس هو العنوان، وإنما العمدة هو الواقع، والعمدة هي الحقيقة، الحقيقة الخارجية وليست الذهنية، هذا الإنسان هل يحتفل بمولد محمد صلى الله عليه وآله لأنه يريد أن يدعو إلى محمد وإلى دين محمد؟ أم تراه يحتفل بمولد محمد ليستغل هذه المناسبة لأجل الكلام عن غايات دنيوية سياسية أو اقتصادية؟ وأنه لا يتمكن من تجميع الناس لنفسه فيستغل هذه المناسبة؟

المهم دائماً ليس مجرد الشعار والعنوان، فالشعار قد يكون مقدساً، ولكن ما هو الواقع؟ يقول الله سبحانه وتعالى في وصف يهود: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً¹﴾، يهود يتبجحون أنهم أتباع الأنبياء، وأنهم أتباع موسى، وأنهم أتباع داود، وأنهم أبناء إبراهيم، وعلى ملة إبراهيم، ولكنهم لا يعملون بشيء مما أنزل الله، ما بقيت موبقة إلا ارتكبوها، ولا محرماً إلا أحلوه، خاصة في المعاملات وفي التعامل، فاليهود لا يجدون غضاضةً في التعامل بالربا، بل هم الذين نشره في شبه الجزيرة، واليهود لا يجدون غضاضةً من الافتراء والكذب على من يخالفهم الرأي ويخافون منه على أوضاعهم وأموالهم، واليهود يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، يعني ليس علينا في المكيين سبيل، يجوز لنا أن نعمل بأبناء إسماعيل ما نريد ولا يكون ذلك حراماً علينا.

والمسلمون وقد طال بهم الأمد، وقست منهم القلوب، وتقلبت بهم الدول، وأغرتهم حلاوة العيش ولين الفراش، ابتعدوا عن دين محمد صلى الله عليه وآله، وأصبحوا لا يرون في دين محمد

¹ الجمعة: من الآية 5

صلى الله عليه وآله إلا مجرد العنوان، بأنني مسلم، ولكن ما هو واقعُ هذا الإنسان؟ لو عرضَ عليه عدوٌّ من أعداءِ محمدٍ، أو عرضَ عليه عدوٌّ من أعداءِ دينِ محمدٍ مصلحةَ جزئية، هل سيقبلها منه مقابل أن يتعاون معه وأن يعترف به؟ أم سيرفضها؟ هذا محك، وعندما يعرض المرتد المولود من أبٍ مسلمٍ وأمٍ مسلمةٍ ويرتد عن دينِ محمدٍ صلى الله عليه وآله إلى أي دينٍ وإلى أي مذهبٍ وإلى أي نحلة، شيعياً كان، أو نصرانياً، أو يهودياً، أو مشركاً، أياً كان، عندما يعرضُ على هذا المسلم التعاون معه من أجل تحقيق هدفٍ دنيوي ربما يكون مضراً بالمسلمين، ويلوح له بالنواحي المنفعية الدنيوية، هل أن هذا المسلم يرفض هذا التعاون؟ ويقول له أنت أحد أهدافي التي أسعى في القضاء عليها فكيف أتعاون معك وقد أهرقَ الإسلام دمك وأباح قتلك؟ أم سيقبلها منه ويتعاون معه؟ ليس مجرد أن يقول الإنسان إنني مسلم يكون مسلماً واقعياً. فإذن المهم ليس هو الشعار، وليس هو العنوان، وإنما هو الواقع، وإنما هو الحقيقة، وإنما هو المصدق، وإن كان التعامل في الدنيا يجري على العنوان ونترك الحقيقة لله يتعامل عليها يوم القيامة، فمن أظهر الشهادتين قلنا إن دمه حرام، وماله حرام، وعرضه حرامٌ وهو طاهر العين، ولا نبحت عما في قلبه، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حقيقته. إذا كان يرى أن الملحدين والمرتدين هم أولى بتعاونهم، أولى بتعاطفه من المؤمنين، هذا ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿الْمُتَرِّبِينَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً¹﴾.

فإن هذه هي الحقيقة، ما بقي من الإسلام إلا الاسم، فعندما تتناول الأزمان وتقسو القلوب، وتتحرف الفطرة التي فطر الله عباده عليها بفعل المؤثرات التربوية والاجتماعية، هنا يكون الاختبار، يعود الإسلام غريباً، أو كما يقول الصادق صلوات الله وسلامه عليه: "سيأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ومن الإسلام إلا اسمه"²، وفي هذه الحالة لا تتقطع العبادات، بل توسع المساجد وتصطف الصفوف، وتطوّل المآذن، ولكن أجسامٌ مجتمعة، وقلوبٌ متفرقة، متفرقة لأن أهواءها متفرقة، ولا تجمعها إلا أهداف دنيوية، وسرعان ما تقوم العداوة

¹ النساء: 50
² الكافي - ج 8 - ص 308 - الشيخ الكليني

والبغضاء بينهم بسبب الاختلاف في تلك الأهداف الدنيوية، أضرب لكم مثلاً بأفغانستان، ألم يكونوا يوماً واحدةً يوم كانوا يحاربون الروس؟ وإذا برفقاء السلاح أعداء متخاصمين، يقتل كل فريق منهم الآخر، ويستحل كل حزبٍ منهم دماء المنتمي إلى الحزب الآخر، وهم جميعاً يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، وبقيمون الصلوات، ويقرءون قرآناً واحداً، ويستقبلون قبلةً واحدةً.

وليس ببعيد ما كان يحلُّ في الصومال، بل في لبنان بين الشيعة أنفسهم، كيف قتل الشيعة الشيعة؟ كيف استحلوا منهم الدماء؟ واستحلوا منهم الأموال؟ واستحلوا منهم الأعراض؟ وهم جميعاً يشهدون الشهادتين، ويدعون أنهم يوالون أمير المؤمنين عليه السلام، ويقرءون قرآناً واحداً، ويصلون صلاةً واحدةً، هل هذا هو الإسلام؟ أم أنه ليس إلا عنوان يُتخذ؟ وربما أعلن لمحاربة الإسلام ذاته، فلو جاء شخص وقال لهم أيها الناس إنكم مخطئون فيما تفعلون، لقالوا كفر الرجل، كيف يُخطئ العلماء؟ كيف يُخطئ الفقهاء؟ كيف يُخطئ المؤمنين؟ لأنهم يرفعون هذه العنوانات وهذه الشعارات، لا إيماناً حقيقياً بها، وإنما للتوصل بها إلى أهداف دنيوية، المؤمن ينبغي أن يكون ولاؤه لله، فإذا لم يكن ولاؤه لله فبقدر ضعف هذا الولاء يضعف إيمانه، المؤمن يجب أن يكون ولاؤه وحبه للرسول صلى الله عليه وآله، وبقدر ما يضعف حبه وولاؤه للرسول يضعف إيمانه، يقول النبي صلى الله عليه وآله: "لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتي أحب إليه من عترته، ويكون أهلي أحب إليه من أهله، ويكون ذاتي أحب إليه من ذاته"¹، وليس معنى الحب أنني أحملهم شعاراً، ولكن معنى الحب أن أسير على طريقهم، أن أعمل بهديهم، أن لا أوالي لهم عدواً منكراً جاحداً، ألا ترى أن الناصبي الذي يبغض علياً عليه السلام يشهد الشهادتين، فلماذا يُجمع المسلمون على أن الناصبي خارجٌ عن الإسلام؟ لقوله صلى الله عليه وآله: "حب علي إيمان"²، هذا حديثٌ مُجمعٌ عليه بين المسلمين، فإذا أبغض علياً عليه السلام انتفى الإيمان من قلبه، فكيف بمن ترك دين محمد صلى الله عليه وآله، وأنكر نبوته مع ولادته من أبٍ وأمٍ مسلمين،

¹ بحار الأنوار- ج17- ص13- العلامة المجلسي
² بحار الأنوار- ج38- ص95

وفي بلدٍ مسلم، وفي مجتمعٍ مسلم؟ وأخذ يدعو أبناء المسلمين للسير معه وفي ركابه، هل هناك أعدى من هذا العدو لمحمدٍ صلى الله عليه وآله؟ ومن يرضى أن يتحالف مع هذا لأي غرض، هل يكون مؤمناً حقيقياً؟ هذا السؤال ينبغي أن يجيب عليه كل مسلمٍ بصدقٍ وإخلاص، إجابةً يقولها لربه يوم القيامة، نعم التعاون مع المرتد عن دين محمدٍ صلى الله عليه وآله لا يتنافى مع الولاء لك يا رب، ولا يتنافى مع الولاء لرسولك محمد صلى الله عليه وآله، ولا يتنافى مع الولاء لدينك، إذا استطاع بينه وبين ربه أن يجيب على ذلك، فليُفرح نفسه - إن شاء الله - بما سيلقاه، وإن كان لا يتمكن من أن يجيب ربه بهذا الجواب، فليعمل ما دام الأمر بيده، ومادام يستطيع أن يكون من أولياء الله بإرادته واختياره، ليعمل على الابتعاد عن هذا الطريق.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً، ويهدينا سواء السبيل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشعائر الحسينية*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة و السلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، و أصحابه المنتجبين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

للعشر المحرم عند الشيعة عموماً وفي هذا البلد خصوصاً موقع خاص، فعلى الرغم من أن المؤمن يتألم ويحزن لكل إمام ولكل نبي ولكل فادح أصابه أو أصاب أحد المؤمنين، و لكن قضية الحسين عليه السلام لها وقع خاص في قلوب المؤمنين، بل إن شرعية إقامة المأتم للرسول صلى الله عليه وآله ولأمير المؤمنين عليه السلام و لفاطمة عليه السلام و لسائر المعصومين عليهم السلام نابعة من شرعية إقامة المأتم للحسين عليه السلام. ما كنا لنعرف حكمها الشرعي لولا قضية الحسين عليه السلام. حكم شرعية إقامة المأتم إنما أخذناه من فعل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حين أقام المأتم للحسين عليه السلام يوم ولادته، ثم دأب يقيم المأتم على رأس كل سنة من ولادته، حتى اختاره الله الى جواره.

ومن هذا الفعل عرفنا أن إقامة المأتم أمر مشروع بل مندوب إليه، فإن فعل الرسول صلى الله عليه وآله الذي استمر عليه من حين ولادة الحسين عليه السلام تدل على رجحان هذا الأمر واستحبابه في الشريعة، وإلا لما كان صلى الله عليه وآله يقيم له المأتم وهو لا يزال حياً، ثم يدأب على إقامة المأتم في كل عام. وقد أجمع على هذا السلوك النبوي كل كتب التاريخ وكل كتب الروايات والمقاتل التي تعرضت للحسين عليه السلام عند المسلمين على اختلاف مذاهبهم و مشاربهم.

وتمتاز قضية الحسين عليه السلام عن قضايا وفاة النبي صلى الله عليه وآله أو ما أصاب الأئمة عليهم السلام من فوادح وأرزاء. لأن هذه القضية هي قضية تتحمل الأمة الاسلامية

* كلمة سماحة العلامة الشيخ سليمان المدني قدس سره قبيل شهر المحرم ليلة الاثنين 30 ذو الحجة 1418هـ - 1998/4/26م

مسؤولية كبيرة فيها، فقد تقاعست الأمة عن نصره هذا الإمام و أسلمت ابن بنت نبيها صلى الله عليه وآله في حرب غير متكافئة، و مالت مع السلطان الذي سيطر على مقاليدها بالقوة والغلبة. ومن أجل ذلك أصبحت الأمة تتألم لرزء الحسين عليه السلام ربما أكثر من تألمها لرزء غيره من الأئمة عليهم السلام أو حتى لرزء أمير المؤمنين عليه السلام أو الرسول صلى الله عليه وآله. تطور المآثم منذ ذلك الوقت الى هذا اليوم. فقد كان المآثم موضعاً يتقابل فيه الناس، سواء الرجال أو النساء بالنيابة على الميت الذي يراد الإشادة بذكره. غير أنه تطور وتغيرت أساليب التعزية فيه، وأصبحت القراءة الحسينية أشبه بالمحاضرات. ففيها تشرح الحقائق الدينية، وفيها تجلى المفهومات العقائدية، وفيها تصحّح الأفكار التي تبيت في المجتمع طيلة العام، وفي مختلف المناسبات، وأصبح المآثم أيضاً مؤسسةً اجتماعيةً ووجهاً حضارياً، بل أصبح الحضور في المآثم ذاته سلوكاً حضارياً اجتماعياً خاصةً في مجتمع البحرين. ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون الخطباء الذين يرتقون المنابر الحسينية على قدر المسؤولية في أداء رسالة محمد صلى الله عليه وآله، وشرحها وتفهمها لأمتهم. ينبغي أن يكون الخطباء الذين يرتقون هذه المنابر مؤهلين للقيام بهذه المسؤولية. ولا ينبغي للخطيب أن يعتمد المادة الرخيصة الساقطة لبيثها بين الناس. يدغدغ بها عواطفهم ويلهب بها مشاعرهم، ويفرّق بها صفوفهم، من أجل أن يكون مرغوباً ممن لا يعي مسؤولية هذا المنبر وهدفه الديني الرفيع.

المنبر الحسيني هو منبر لمحمد صلى الله عليه وآله، و ليس منبراً لحزبٍ أو فئةٍ أو طائفة. فإذا كانت الأفكار التي يحملها لا علاقة لها بالدين، لا ينبغي أن يستغلّ هذا المنبر من أجل بثها، لأن لهذا المنبر مسؤولية خاصةً في هذه الأمة، وينبغي للخطيب أن يتقيّد بالمسؤولية الشرعية، فهو عندما يأخذ الأجرة على الخطابة سواء من وقفٍ من الأوقاف أو من أشخاصٍ تبرعوا بها فإنهم لا يدفعونها إليه من أجل شتم زيدٍ، أو نيز عمرٍ، أو مدح خالدٍ، أو الإثارة و المطالبة بأمرٍ لا علاقة له بالدين. صاحب الوقف الذي وقف على القراءة، وقف على نهج قضايا أهل البيت عليهم

السلام، وقف على دعوة الناس بالأساليب المستحسنة لأهل البيت عليهم السلام، هذا ما يتسع له الوقت أن أقوله للخطيب.

وبالنسبة للناس عموماً ينبغي أيضاً الالتزام بقضايا الشريعة في المآتم. فينبغي إظهار الشعائر الحسينية و تأييدها، والحضور في مآتمها والتواجد فيها مهما أمكن. وأن يكون الإنسان قاصداً بذلك رضا الله سبحانه وتعالى، ولا يقصد بذلك عصبيةً لمكانٍ أو خطيبٍ أو فكرةٍ أو غير ذلك. لأن هذا الشعار يقام من أجل الله سبحانه و تعالى، فينبغي أن يكون الحضور فيه والعمل فيه أيضاً من أجل الله سبحانه وتعالى. فالحضور الى المآتم عبادة بعد أن ندب إليه الأئمة عليهم السلام بقولهم: "أحيوا أمرنا رحم الله من أحيأ أمرنا".

إحياء أمرهم بإظهار شعائرهم، وبدعوة الناس إليهم، أو على الأقل جعل الناس تتعاطف مع قضية أهل البيت عليهم السلام.

وفي البحرين يكون لهذه العشرة امتياز خاص لن يجده أحد منكم في أي بلد من البلدان المحيطة بالبحرين، أو حتى البلدان البعيدة عن البحرين. فالبحرين كلها تلبس ثياب عاشوراء، وتحتفل بها حكومةً و شعباً على اختلاف طوائف الشعب. فإذاً قضية عاشوراء في البحرين ليست قضيةً شيعيةً خاصة، وإنما هي قضية البلد كله. ومن أجل ذلك يجب المحافظة على هذه القضية والحريات المتوافرة في البحرين، بإقامة هذا الشعار على هذا النحو، بحيث وجدت له المآتم والحسينيات؛ كل حسينية كأنها جناحاً نسر لضخامتها وقوة بنائها وغير ذلك، وانتشار أعلامها في الشوارع والطرقات، وخروج المواكب في المدن والقرى، وهذه الحريات لا تتوافر لغيركم في سائر البلدان.

وأنتم تعلمون أن هذه الحريات الدينية إنما وجدت بعمل العلماء السالفين، ووجدت بصبرهم الدؤوب، ووجدت بحنكتهم وسياستهم، لا بانسياقهم وراء طلاب الدنيا وعشاق المشاركة في الحكم، هذه الحريات وفرها لكم الآباء والأجداد. فهل ترضون أن تأتي زمرٌ وفئاتٌ وأحزابٌ تحاول استغلال الحريات التي تعيشونها لأنها تنفس عليكم أنكم تعيشونها؟ وتعطي المبررات لتضييقها وإزالتها شيئاً

فشيئاً حتى تنتهي. إذا كنتم ترضون بذلك فسوف تنتهي هذه الظاهرة من بلادكم. وأحسن ما ستكونون عليه بعد ذلك كوضع الشيعة في سائر البلدان المحيطة بكم. إن لم تصلوا إلى وضع أشد وأضيق من ذلك.

إذا كنتم تريدون بقاء هذه الشعائر، وإذا كنتم تريدون استمرار هذه الحريات الدينية، فعليكم بالحفاظ عليها، بإيجاد المناخ الملائم لحفظها وبقائها واستمرارها، وذلك بمنع الفئات الأخرى من استغلالها بشعاراتهم ومفاهيمهم ومطالبهم. يجب أن تكون الشعارات والمفاهيم التي تبتث من على المنبر أو في المواكب كلها ترجع إلى أهل البيت عليهم السلام، وكلها تتبع من شريعة الله سبحانه وتعالى، وكلها تعود إلى شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله، وكلها تصبُّ في نشر قضية أهل البيت عليهم السلام وتدعو الناس إليهم. إذا لم تحافظوا على ذلك، وإذا لم توفرُوا الأمن والاطمئنان اللازمين لاستمرار هذه الحريات، فلن تبقى لكم هذه النشاطات.

لا إشكال أن الحريات - أي نوعٍ من الحريات سواءً كانت حرياتٍ دينيةٍ أو حرياتٍ سياسيةٍ أو حرياتٍ تجاريةٍ أو علميةٍ - لا تزدهر مع وجود الخوف والاضطراب. فالتاجر عندما يرى في البلد اضطراباً، وعندما يرى الخوف، وعندما يشاهد ممتلكات تحرق، وعندما يرى السوق تدمر، عندما يشعر أن الأموال تغتصب، لا يُنزل أمواله إلى ميادين الاستثمار، ولا يشغّلها في البلد. الدولة أيضاً إذا خافت ممن يريد أن يسلبها حكمها لا توفر له الحريات السياسية أيضاً. كذلك الحريات الدينية كسائر النشاطات الاجتماعية، كالنشاطات العلمية والنشاطات الاقتصادية، بل جميع النشاطات في أي مجتمع لا يمكن أن تزدهر ولا يمكن أن تنمو ولا يمكن أن تتطور إلا بتوفير الأمن والاطمئنان لها.

فإذا لم توفرُوا لهذه الشعائر الأمن والاطمئنان وأخذتم في كل مناسبة، في كل ذكرى، تُوجدون المبررات لقمع هذه النشاطات، فإن هذه الشعائر ستزول شيئاً فشيئاً.

يقول إبراهيم عليه السلام في دعوته لمكة المكرمة: ﴿مَرَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾¹ لماذا؟ لأن الأمن هو أساس كل خير، يقول سبحانه وتعالى عن الذين آمنوا: ﴿وَكَيْدٌ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾

¹ البقرة: من الآية 126

يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا¹، فإذا حتى العبادة لله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تستمر بدون الأمن.

الأمان هو النعمة الأولى بعد الوجود، فلذلك يتوعد الله سبحانه الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأخذوا يحرقونهم، ويقتلونهم، لتتكمش العبادة، يصير الناس يعبدون ربهم سرًا، لا يتجاهرون بعبادتهم لربهم. خذ لك مثلًا بعض البلاد الإسلامية التي لا تتوفر فيها الحريات لكل المذاهب الإسلامية، تجد أن الإنسان المسلم لا يتظاهر بالطريقة التي يعتقد أنها تقربه إلى الله تعالى. إنه يعبد الله سبحانه وتعالى ولكن ليس كما يعتقد... لماذا؟ لأن الأمن غير متوافر له. فإذا هذه الشعائر أيضًا، وهذه النشاطات إذا لم تتوفر لها الأمان وإذا لم تتوفر لها الاطمئنان، فلن تبقى. ولذلك فإنني أدعو شباب الأمة أن يكونوا واعين، وأن يحافظوا على هذه الشعائر بتوفير الظروف الصالحة لها، ظروف الاطمئنان للمواكب العزائية وللمآتم الحسينية.

ماذا يستفيد الانسان أن يقول شعاراً في الموكب يجرُّ على الموكب البلاء ويعطي المبرر لضربه والدخول فيه ومسك شعائره، ومساءلة رئيسه؟ ماذا يستفيد الإنسان بأن يعطي المبرر لإغلاق مآتم ما مثلاً؟ ألا ترون أنه إذا كان يصرُّ على هذه الأعمال فكأنما عدوٌ لهذه العقيدة؟ عدوٌ لهؤلاء الشيعة؟ عدوٌ لأهل البيت عليهم السلام؟ يريد أن يزيل ذكرهم؟ أن يمحو شعائرتهم؟ إن هذا على الأقل يريد أن يحول شيعتهم إلى شرانم خائفة، لا تستطيع أن تُظهر نشاطاتها الدينية وتُجاهر بها علناً، لماذا نسمح له بهذا العمل؟ إلى متى سنبقى خائفين؟ كل منا يحبس لسانه عن انتقاد هذه الأعمال المضرة، لا يريد أن يوفر الأمن والاطمئنان لهذه الشعائر ومع ذلك نتأسف إذا أصاب هذه الشعائر شيء!!

هذه العراق وهي أوسع منكم بلادا، وأكثر منكم نفيرا، وأقوى منكم اقتصادا، أين المآتم التي كانت فيها؟ لا توجد قراءاتٌ علنيةٌ الآن في العراق، لماذا؟ لأن الأحزاب أخذت تستغل المواكب والمآتم في بث شعاراتها، ومفاهيمها ومطالبها، وحتى حزب البعث الحاكم اليوم في العراق، كان

¹ النور: من الآية 55

يستغل الموكب الحسينية، والمآتم الحسينية في أيام الملكية، وأيام عبد الكريم قاسم. بثّ مفاهيمه وشعاراته ومطالبه، ولكنه عندما جاء إلى الحكم ضرب كل هذه الشعارات بحجة أن الأحزاب الأخرى تستغل الموكب والمآتم في قضايا سياسية تعارض مصلحة حزب البعث الحاكم. ولا إشكال أن طبيعة كل حاكم أنه لا يرضى بأن يمس حكمه وسياسته من أي مؤسسة، فإذا كان هناك سياسي، وإذا كان هناك حزبي يريد أن يعمل بالسياسة فليعمل خارج المؤسسات الدينية، ليس من الصحيح أن تعرّض المؤسسات الدينية للخطر وللخوف من أجل أي مطلب ومن أجل أي غرض سياسي، الأحزاب اليوم هي التي ترفع الشعارات في المآتم والموكب ولكنها لو توصلت إلى السلطة لأغلقت المآتم وألغت الموكب كما فعل حزب البعث العراقي. وعلى الناس أن تعي ذلك، وعلى الناس أن تعرف أن المآتم اليوم هو أمر حضاري، هو وجه من وجوه المجتمع في البحرين - نشاط ديني ونشاط حضاري - وكلنا مسؤولون عن الحفاظ عليه، وهذه مسؤولية الشباب بل مسؤولية الناس كلهم، ولا يُعذر إنسانٌ أن يقول إذا تكلمت ستحرق سيارتي أو بيتي، إذا أرادوا حرق سيارتك سيحرقونها تكلمت أو سكت. وإذا كانوا يريدون تخريب الأمن ولو بإحراقك حيا فسيحرقونك حياً ولا يبالون فيك.

فإذا لا داعي أبدا لإعطاء الفرصة لمن يريد بمؤسساتنا الدينية وبنشاطاتنا الدينية الشر. بل يجب الضرب على يده، وبالنسبة للجاهل ينبغي تفهيمه وتوعيته بأن هذا أمر مضر بالدين والدنيا، وإنك لن تحصل على حَقك بتعريض المآتم الفلاني للإغلاق أو تعريض الموكب الفلاني للإيقاف. ما تدعيه أنه حَقك طالب به بأساليب أخرى ولا تُقحم المؤسسات الدينية في قضاياك السياسية. أما إذا كنا نرى أن مساجدنا، وأن مآتمنا، وأن مواكبنا، كلها قد أصبحت لا قيمة لها، وأن أفكارنا وعقائدنا قد تبدّلت. فنحن اليوم لا نريد أن نحافظ على هذه المؤسسات، بل نريد أن نطهّر هذا المجتمع من وجود هذه المؤسسات، ولكن بأسلوب خفي لا يفتنه له الغالبية فيثورون ضدنا، فهذا أمر آخر. إذا أصبحنا نؤمن بأن الإسلام ما هو إلا مرحلة اجتماعية سادت ويجب أن تبيد، وأن تحل محلها مرحلة جديدة، ولا يمكن ذلك إلا بتهديم المساجد والمآتم والمواكب، ولكن لو فعلنا ذلك

فالناس سيثورون علينا وينقلبون علينا، لو قلنا لهم لا تعبدوا الله لن يوافقوا، إذا قلنا لهم لا تصلوا لن يوافقوا، ولكن نحن نأتي إلى المسجد ونهتف بهتاف سياسي، فتهجم الشرطة ويتفرق المصلون ويوماً بعد يوم يهجر المسجد. نأتي إلى المآتم فنهتف بهتاف سياسي أيضاً وتهجم الشرطة فينغلق المآتم فنرتاح من مؤسسة، وهكذا تنتهي المؤسسات الدينية، هذا طبعاً تخطيطاً خاص [تخطيط من أعدائنا].

إلى متى سنبقى سائرين في هذا الطريق، وغير واعين إليه؟ ينبغي إذاً الالتفاف حول المآتم بالتواجد فيها، وبالدفاع عنها، بالدفاع عنها بماذا؟ بعدم إعطاء المبرر لتعريضها للضرب وللإخافة، بتوفير جو الأمان والاطمئنان لها، وذلك بالضرب على يد العابثين وتوعية الجاهلين، ويكفي ما مر في السنوات السابقة، وأعتقد أنه لا تزال هناك بعض المآتم مغلقة، ماذا استفاد أربابها؟ ماذا استفاد الناس الذين اعتادوا الحضور فيها والاستماع فيها من إغلاقها....؟ فهل سنبقى إلى الأبد بهذه العقلية الساذجة غير الواعية؟ هل سنبقى على هذا الحال؟ هل سنظل ساكتين ونحن نرى أن حرياتنا الدينية تتعرض للخطر؟ وأن نشاطاتنا الدينية تتعرض للإخافة والخطر؟ لا ينبغي ذلك أيها الإخوة، بل إننا إذاً سنكون مسؤولين أمام الله سبحانه وتعالى. إن آباءكم وأسلافكم وأجدادكم وفروا لكم هذه الحريات الدينية، فلماذا لم تصونوها؟ لماذا لم تضربوا على يد العابثين..؟ يقول النبي صلى الله عليه وآله: "وإنما مثلكم كمثلكم قوم ركبوا سفينةً فركب بعضهم أعاليها وبعضهم أسفلها، فلو أراد بعض ممن احتل أسفلها أن يخرقها وقال هذا مكاني وأنا أحق به، فصدقوه وقالوا هذا مكانه وهو أحق به فخرقها، غرق وغرقوا، وإن ضربوا على يده ومنعوه نجا ونجوا".

المجتمع سفينة عندما تخرق خرقاً واسعاً - لا تعود مجرد جمّة مثلما يقول البحارة - تغرق

وتطمس في البحر، فلا ينبغي أن نترك سفينتنا تُخرق وتغرق ونحن فيها.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم لخدمة ديننا الحنيف، ورضاه سبحانه وتعالى
وخدمة مذهب أهل البيت عليهم السلام، وذلك بالمحافظة على توفير جو الأمان والاطمئنان
لإظهار شعاراتهم ونشر أمرهم.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

التهينة لظهور الإمام المنتظر*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، والسلام عليكم أيها المؤمنون جميعاً ورحمة الله وبركاته.

قضية الإمام المهدي صلوات الله وسلامه عليه أو المنقذ المنتظر، منذ أقدم الأزمان، ومن حين ما تسلط أحد ابني آدم وقتل أخاه، ووجد الباطل على الأرض، ووجدت المعصية، ابتداءً أهل الباطل يظهرون على أهل الحق، واستمر هذا الظهور إلا في أوقاتٍ قليلة، يقبضها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين ليأخذوا فيها الراحة ويحصل لهم الهدوء والاستقرار، ويتنفسون الصعداء من الضغط والظلم الذي يقع عليهم.

وكل نبي يأتي يبشر الناس بالمنقذ المنتظر، ومن قرأ أسفار التوراة الموجودة - على ما فيها من تحريفٍ كبير - يجد أنّ هناك آيات منها كثيرة تبشر بالمنقذ المنتظر، ومن قرأ صحائف الأنجيل الموجودة - على الرغم من تحريفها من بدايتها حتى نهايتها - يجد فيها أيضاً آياتٍ قد بقيت تبشر بالمنقذ المنتظر.

ويأتي النبي صلى الله عليه وآله، وفي وقت ظهوره وسيطرته وسلطانه، يخبر أمته بأن الإسلام سيعود غريباً، ويخبر أمته بأن الأرض ستمتلئ جوراً، ويخبر أهل بيته بأنهم المستضعفون من بعده، ويبشر الأمة بالمنقذ المنتظر "ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلاً صالحاً من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً"¹، وفي روايةٍ أخرى [ويوافي اسمه اسمي]، وتشاء الأهواء أن تضيف في هذا الحديث لفظاً "ويوافي اسم أبيه اسم أبي" ومع ذلك لا يتضرر مؤدى الحديث ولا يختلف معه.

* كلمة ألقاها في الاحتفال بمناسبة مولد الإمام الحجة عج في 14 شعبان 1419 هـ المصادف 1998/12/2م بمأتم قائم آل محمد بإسكان جندفص

¹ بحار الأنوار-ج14-ص33-العلامة المجلسي

ولكن لماذا كل هذه المعاناة من المؤمنين طيلة هذه الأزمان المتتالية، التي تزيد في حقيقتها على ملايين السنين، وإن كانت بحسب التواريخ الموجودة تزيد على ثمانية آلاف سنة حتى اليوم، ولكن في الحقيقة تزيد على ملايين السنين، لماذا كل هذه المعاناة ولا يأتي المنفذ المنتظر؟! لأنه بعد أن أصبح الإنسان ليس مخلصاً لله تعالى، وإنما عبد الشيطان وأطاعه كما عبد الله وأطاعه فلا بد إذن من الامتحان، ولا بد إذن من الابتلاء، ولأنه لو جاء المنفذ من البداية لما كان منقذاً، بل لأصبح في أيامه وبعد أيامه للشيطان دولة وللباطل جولة أخرى، فلا يستقر عهد الإيمان على هذه الأرض.

لا بُدَّ إذن من الابتلاء ومن الامتحان واختبار المؤمنين، فسؤال الشاعر:

هل أعددت العدة للخروج أم ما زلت فرداً؟ وهل اكتمل جند الحق أم ما زلت فرداً؟ هذا السؤال يمكن الإجابة عنه بأن جند الإمام صلوات الله وسلامه عليه لن يكتمل إلا بتمام الامتحان والاختبار، فالإمام مستعد للظهور في أي لحظة، ولا يمنعه من الظهور إلا الإذن الإلهي له، والإذن الإلهي يتوقف على تمام الاختبار. ومن أراد أن يخدم الإمام صلوات الله وسلامه عليه فليقم بالعمل الجاد للتهيئة لظهوره، والعمل الجاد للتهيئة لظهور الإمام صلوات الله وسلامه عليه هو أن يصلح الإنسان نفسه أولاً، فإذا أصلح نفسه وأصبح شعلة من الضياء أثار الطريق لغيره، وأما من لم يصلح نفسه فلا يستطيع أن يصلح غيره.

يقول النبي صلى الله عليه وآله: "ميدانكم أنفسكم فإذا قدرتم عليها فأنتم على غيرها أقدر"، وفي

الآية الكريمة المحكمة ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾¹.

من قال إنني أريد أن أهيب لظهور الإمام صلوات الله وسلامه عليه، فليبدأ بميدانه هو الخاص؛ أي يجاهد نفسه، فإذا استطاع أن ينتصر على نفسه التي بين جنبيه استطاع أن ينتصر على العالم كله، وعندما ينهزم في ميدان المعركة النفسية، لا يستطيع أن ينتصر في الميدان الخارجي.

¹ المائدة: من الآية 105

مفهوم التهيئة لظهور المهدي صلوات الله وسلامه عليه - هذا المفهوم الديني الصريح - مع ذلك استغله الشيطان.

فمن هنا نقول إنه يجب على من يعمل للتهيئة أن يجعل ميدانه نفسه، فالشيطان مستعد أن يستغل كل شيء حتى الصلاة، وحتى الصوم، وحتى العقائد الإسلامية، وحتى التوحيد يستغله الشيطان فيحوّله شركاً. الْمُعْطَلَّة - مثلاً - الذي عطلوا الله سبحانه وتعالى ونفوا عنه الصفات، استغل الشيطان قضية التوحيد الخالص عندهم فحولهم مشركين، والمُجَسِّمَة الذين نسبوا لله الجسم وصفات البشر استغل الشيطان عندهم أيضاً التوحيد فحولهم مشركين، الشيطان على استعداد لاستغلال أي شيء، وأي مفهوم.

ومن المفهومات المستغلة حالياً وبقوة لإضلال شباب الشيعة وإبعادهم عن المهدي المنتظر عجل الله فرجه هو مفهوم التهيئة لظهور الإمام، الأحزاب التي قامت تفرق صفوف الشيعة وتوقعهم، وتجعلهم جماعات متبددة، في أي بلد من بلاد المسلمين، قامت على مفهوم التهيئة للإمام المنتظر، فهل أن التهيئة للإمام المنتظر عجل الله فرجه تعني العمل على تمزيق الصف الشيعي وجعله يضرب بعضه بعضاً؟!

وفي الحقيقة فإن غير الشيعة الذين يطمعون في الحكم ويطمعون في الوصول إلى مناصب الدنيا يكونون صريحين مع أنفسهم؛ مثلاً العلمانيون صريحون مع أنفسهم فهم يشكلون الأحزاب ويعلنونها صراحة بأن لدينا منهجاً نريد أن نطبقه على الناس، ونعتقد أنه أفضل المناهج، ونحن نكون حكماً من قبَلِه، وجميع الأحزاب العلمانية قائمة على هذه الفكرة، وهي فكرة صريحة لمن أراد أن يتبعهم، والأحزاب الإسلامية الأخرى أيضاً صريحة كالأخوان المسلمين وغيرهم فهم يقولون إننا نريد أن نصل إلى الحكم لنطبق الإسلام، ولكن المشكلة هي أن الحزبيين الشيعة لا يتمكنون أن يصارحوا الشيعة بأننا ندعوكم أن تساعدونا وتساندونا لأن نصل إلى الحكم.

فلا بد إذن أن يغطوا أهدافهم الدنيوية بأغطية دينية مذهبية، فما هو الغطاء الذي يغطون به الطمع في الوصول إلى المناصب؟ جاءهم الشيطان وقال لهم إن الشيعة يعتقدون بوجوب

التهيئة للإمام المنتظر عجل الله فرجه فيمكنكم أن تقولوا بأننا نؤيد هذا الحزب لنهيئ للإمام المنتظر عجل الله فرجه، لماذا؟ لتأسيس دولتنا، نؤسس الدولة ونحن في عملنا لتأسيس الدولة لا نعمل لمصلحتنا ولا نعمل لأن نكون حكاما، وإنما نعمل لتهيئة الأمور للإمام المنتظر عجل الله فرجه ؛ فهذه الطريقة أغراهم الشيطان باستغلال هذا المفهوم الديني، وهذا الواجب الديني، فأصبحت الأحزاب تتخر في جسم الشيعة في كل مكان، وتفرقهم يمينا وشمالا، وكل من لم يقف مع هذا الحزب، فهو عدو لله، وعدو للأئمة صلوات الله وسلامه عليهم، والذي يكون في الحزب الآخر أيضاً عدو لله، والذي لا يكون في أي حزب من الأحزاب فهو أيضاً عدو لله.

فهكذا أصبح مفهوم التهيئة للإمام المنتظر عجل الله فرجه، ولو رجعنا للروايات الواردة عن أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم في كيفية خروج المهدي عليه الصلاة والسلام لوجدنا أن أشد الناس عليه عند خروجه، هم القائلون بإمامته، وحتى أنه في الحديث الشريف الصحيح في أصول الكافي وبسند صحيح لا يشك فيه أحد أنه لا يبقى على القول بإمامته عند خروجه، إلا أفراد قليلون، أعيانهم موجودة وأشخاصهم مفقودة، وحتى أن الواحد منهم لا يستطيع أن يخبر زوجته وأولاده بعقيده في الإمام المنتظر، لماذا؟ هل سينقرض الشيعة والعياد بالله فلا يبقى من الشيعة إلا أفراد؟ هكذا؟ لا، الواقع الذي نراه أن الشيعة في ازدياد، والقائلون بإمامة الإمام المهدي صلوات الله وسلامه عليه هم في ازدياد مستمر، وليسوا في انخفاض، وأعدادهم في التكاثر، وقوتهم وهيمنتهم في الظهور، ولكن المشكلة أنهم يقولون بإمامة الإمام، ويعملون لغير الإمام، ويطبقون مبدأ غير مبدأ الإمام، فإذا كان الرجل تابعا لحزب من الأحزاب فهو يطبق منهج ذلك الحزب، وأول ما يبدأ أي حزب من أحزاب التشيع، فإن عليه أن يقسم الشيعة إلى فريقين، فريق مهتدي وهو الذي يطيعه، وفريق غير مهتد وهو الذي لا يطيعه، وأن يقسم العلماء أيضاً إلى قسمين، فالعلماء الذين هم بعيدون عن السياسة مسكوت عنهم، والذين يعرفون حيلَه وأَحَابِيلَه إن ساروا في صفه وخطه فهم علماء الإسلام الحقيقيون، وإن فضحوا حباثله للناس فهم أعداء الدين

والعقيدة، وهكذا يصبح الشيعة فرقةً متناحرة، وأحزاباً متضاربة، فنتوقع كل جماعة منهم على بعضها، ويهملون أمر العمل الجماعي، الذي به قُوتهم وبه قدرتهم.

ولا إشكال في أنه لا يوجد امتحان يمر كمثل هذا الامتحان، وكلما قرب وقت الإمام صلوات الله وسلامه عليه كلما ازداد هذا الامتحان، ولقد مرت بلادنا ولا تزال بفتنة من الفتن الموعودة، من الفتن التي تمر بالشيعة لتمتحنهم، ففي قول الصادق عليه السلام وقد سُئِلَ عن خروج الإمام فقال: "لا والله حتى تفرقوا، لا والله حتى يبصق بعضكم في وجه بعض، لا والله حتى يلعن بعضكم بعضاً، لا والله حتى يكفر بعضكم بعضاً، لا والله حتى يقتل بعضكم بعضاً". هل كان الإمام يقول ذلك يريد للشيعة أن يحدث هذا التمزق؟ وهذا التضارب، وهذا الاختلاف؟ لا، ولكن ما لم تأت هذه الاختبارات لا يظهر المنافق من المؤمن الحقيقي، ولا يعرف من الذي صبر في ميدان معركة النفس، وهياً نفسه ليكون جندياً في جيش الإمام سلام الله عليه، أو رضي أن يكون جندياً من جنود حزب من الأحزاب، فلا يخرج الإمام عجل الله فرجه حتى تستعد شيعته، لا حتى يستعد هو عجل الله فرجه، أيها الشاعر: الإمام عجل الله فرجه مستعد منذ أربعة عشر قرناً، وهو لم يتخل عن وظيفته التي وظفه الله فيها، ولم يتخل عن مهمته التي عينه الله لها، ولكن الخطأ خطؤنا، والعجز عجزنا، واللوم يكون علينا، فنحن الذين لم نهى أنفسنا جنوداً مخلصين له، فنحارب الأحزاب، أي حزب كان، باسمه عجل الله فرجه أو باسم أعدائه، فقد وجدنا الأحزاب التي تتادي باسمه لم تستحي على وجهها؛ فتحالف من ينكر إمامته، ومن ينكر حتى وجود الخالق، وهذه هي نتيجة الحزبية.

إذاً الإمام - روجي فداه - مستعد للظهور ومنذ أربعة عشر قرناً، ولكن الشيعة ليسوا مستعدين حتى اليوم لأن يتلقوا إمامهم فينصروه، فعلينا إذاً أن نهى أنفسنا جنوداً للإمام عجل الله فرجه، أن نعمل على أن نكون له جنوداً مخلصين، إذا قال لنا الحزب نهىء نقول نهىء من دون تحزب؛ لأنك إذا تحزبت تفوقعت، وحاربت من خالفك، فإذا كنت مخلصاً للتهيئة فأصلح نفسك، أصلح نفسك قبل أن تصلح غيرك، ثم أصلح غيرك، أرشده إلى العقيدة السليمة الصحيحة، أرشده

إلى العمل السوي، حارب الخمر، حارب اللواط، حارب الزنا، حارب المنكر، لا أن تحارب
المؤمنين لأنهم يرفضون أن تستغل شبابهم، وتضحى بدماء أبناء الشيعة، وأن تزج بأبنائهم في
السجون، من أجل أن تصل أنت إلى كرسي، وليس لكرسي الحكم بل كرسي برلمان!!
فإن العجز هو عجز الشيعة، وليس عجز الإمام عجل الله فرجه، ونحن نسأل الله سبحانه
وتعالى ونتوجه إليه بإمامنا عجل الله فرجه وجعل أرواحنا فداءه أن يوفقنا من أجل تهيئة أنفسنا
لنكون جنوداً مخلصين للإمام أرواحنا فداءه.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الصبر على المبدأ والرفق في الأمور عند النبي صلى الله عليه وآله*

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وآله الطيبين الطاهرين.

والسلام على هذه الوجوه المؤمنة التي حضرت شوقاً وحباً لرسول الله صلى الله عليه وآله، واحتفالاً بمولده، وإقامة للشعائر الدينية، جميعاً ورحمة الله وبركاته.

وأشكر أولاً فضيلة العلامة الشيخ عبد النبي الحداد على هذه التوجيهات الذي تفضل بها، ولا إشكال أن أعداء الإسلام وأعداء محمد صلى الله عليه وآله كانوا وما برحوا وسيظلون يعملون على تشويه الحقائق، وعلى تشويه شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله منذ الأيام السحيقة وحتى يومنا هذا، وآخر تقليعة في هذا المجال على ما أتذكر تقليعة الكنيسة الأمريكية المعاصرة، أو اتحاد الكنائس الأمريكية المعاصرة، حيث لم تجد مغزماً تستطيع أن تغمز به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ولعلمهم أن المسلمين ما كانوا ليتخلوا عن محمد صلى الله عليه وآله، عمدوا إلى طريق مُعْوج، وهو أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وآله ليس إلا نصراني ابن نصراني، وأن الإسلام ما هو إلا فرع من فروع النصرانية، وأنا قرأت أنهم ألفوا في هذا الصدد كتاباً من أربعة عشر مجلداً، أصغر مجلد فيه ألف صفحة، والغريب أن هذه اللجنة التي ألفت هذا الكتاب ما تركت كتاباً عند المسلمين من كتب التاريخ والحديث والتفسير والسيرة إلا وحاولت الاستفادة منه، وأحمد الله أنه ليس في مصادر هذا الكتاب كتاب شيعي واحد، لا أقول إن كتب الشيعة وكل أحاديثها وكل ما دون في السيرة عندهم هو صحيح مائة في المائة، لا أقول ذلك، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستفادة من كتب الشيعة بشيء.

وعلى ذكر شقّ الصدر ورواية شقّ الصدر الموجودة في بعض كتب الحديث، وفي مولد البكري الذي يُتداول في الأعراس والبيوت، أقول إنها رواية مسيحية، من الروايات التي دسها أهل

* كلمة ألقاها في الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وآله في 21 ربيع الأول 1422 هـ المصادف 2001/6/13 بمأتم قائم آل محمد بإسكان جدحفص

الكتاب بين المسلمين، لأنها تمثل عمليةً يسميها المسيحيون [التعميد]، فعندما يولد الطفل المسيحي لا يعتبر مسيحياً متبّعاً لعيسى عليه السلام حتى يُؤخذ إلى الكنيسة، وهناك يأخذه الكاهن أو القسيس وينقّط في فمه بعض قطرات من شيء حلو مذاق بالعسل مثلاً، ويقول له: اشرب من دم المسيح لتكون طاهراً، ويُغسل بماء ويقال إنه غُسل قلبه. ورواية شقّ الصدر ما هي إلا طريقة للتعميد، وجيء بها مضخمة، وأن الملائكة فعلتها بمحمد صلى الله عليه وآله.

الرسول صلى الله عليه وآله لا يعرفه إلا الله، ولا يعرفه إلا علي عليه السلام، شخصيته غير معروفة لغير الله ولغير علي بن أبي طالب عليه السلام، والرسول صلى الله عليه وآله خُلِقَ قبل الكون كله، والسموات، والأرضون، الملائكة، الجن، الإنس، من لا نعلم من خلق الله، كلهم خُلِقوا إكراماً وإجلالاً لمحمد صلى الله عليه وآله، وحتى في كتب بعض المسيحية التي لم تصل يد التحريف إلى بعض آياتها "إن الله خلقه قبل خلق الخلق بعشرين ألف عام" هذا ما في إنجيل [يرنابا] ذاته، على أي حال نحن لا نحدد بالزمان، فليس هناك زمان قبل خلق الشمس، لأننا نقيس الزمان بالشمس، وبسير الشمس، ونقيس الزمان بسير القمر، وقبل خلق الشمس والقمر لا نستطيع أن نقدر الزمان، ومحمد صلى الله عليه وآله خلق قبل ذلك، فنحن لا نقول بيوم، أو بساعة، أو بعشرين ألف عام، أو بمائة ألف عام، أو بمليون عام، لا قياس عندنا، المهم أنه خلق قبل الكون، ومحمد صلى الله عليه وآله من أجله خُلِقَ الكون، ومحمد صلى الله عليه وآله رحمة لكل من في الوجود، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾¹، فإذن شخصية الرسول صلى الله عليه وآله لا نستطيع أن نتكلم عنها، نعم نحن كمسلمين نؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله، ونتبعه ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لاتباعه، وأن يهدينا للاستفادة منه، وعلينا أن ندرس سيرته لنستفيد من أخلاقه، لنستفيد من طرائقه وأساليبه في معالجة الأمور.

ومن الأهداف التي يجب أن تضطلع بها هذه المناسبات، أن يقوم الخطباء والشعراء، وأن يتكلموا عن بعض وصايا النبي صلى الله عليه وآله، وأن يشرحوا سيرته وأساليبه في معالجة

¹ الانبياء:107

الأمر، ولا يتسع المجال للحديث عن جوانب كثيرة، أو الإمام حتى بجانب واحد على نحو التفصيل، ولكنني أقتصر في هذا الموقف على ذكر جانبين أو خصلتين من خصال الخير التي يتحلى بهما محمد صلى الله عليه وآله، واللتين ينبغي أن يتحلى بهما كل مؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله، متبع له، هاتان الخصلتان هما الصبر والرفق.

الصبر على المبدأ، والصبر على المبدأ يستدعي الصبر على تحمل المكروه من أجل الثبات على المبدأ، ومحمد صلى الله عليه وآله معلوم صبره في قومه من أجل المبدأ، كم أؤدي هذا الرسول في مكة، وكم أؤدي في المدينة المنورة، وكم أؤدي وهو حي، وكم يؤذى بعد وفاته إلى اليوم، فيما يُتقول عليه وما يُنسب إليه وهو منه براء، في مكة جاء قومه بخير الدنيا والآخرة، جاءهم بما لم يأت به فتى مثله إلى قومه، فبأي شيء قابلوه؟ قابلوه بالتكذيب، بالازدراء، بالمحاربة، بالمقاطعة، كانوا يبنزونه بالألقاب، فهو الساحر، وهو الكذاب، وهو المفرق، وهو العميل للأجانب، الذي تملى عليه أساطير الأولين فيكتبها ليفرق بين بني إبراهيم وبين بني إسماعيل، يسير في مكة فيقف الأطفال له على الطريق يرمونه بالحجارة بأمر كبراء مكة وسادتها، ويذهب للصلاة عند الكعبة فيرمى عليه روث الحيوانات والدم وغير ذلك، ويؤمن به الإنسان فيقاطع ويؤذى، وربما طرح أرضاً وجلد حتى الموت، أو يتزك كأنه الميت من شدة ما أصابه، وكان باستطاعة الرسول صلى الله عليه وآله أن ينهي ذلك بدعوة واحدة، ولن ينزل مقداره عند الله لو دعا عليهم، ولن يقل فضله أمام الله لو دعا عليهم، ومع ذلك صبر على كل ذلك الأذى، وأتى إلى المدينة، فهل تظنون أنه قد ذهب إلى مجتمع جديد وكون دولة عاش فيها مستريحاً؟ عاش منعماً؟ كلا. صبر على ما هو أشد وأمض، قوم يعلنون الإيمان بدعوته، ويحضرون الصلاة خلفه، ويحملون الراية للحرب معه، وهم يتربصون به الدوائر، يخرج الواحد منهم فإذا ما ابتدأت الحرب رجع بمن معه، حتى ينهزم المؤمنون في الحرب، هذا ما فعله عبد الله بن أبي يوم بدر، خرج مع الرسول صلى الله عليه وآله ثم رجع بنصف الجيش، وقال إنه بعد ذلك سيخرج محمداً من المدينة، لأن محمداً سينهزم أمام قريش ويرجع ذليلاً، وأنه هو العزيز بالمدينة وسوف يُبعده، هذا واحد من المنافقين كشف وجهه،

هناك العشرات بل المئات من أمثال عبد الله بن سلول لم يكشفوا وجوههم، وعاشوا حتى آخر حياتهم صحابةً مبجلين، من يدرينا؟ ليس عندنا مقياسٌ نعرف به، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدْتُمْ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾¹، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمِيَّةِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ فَمَا كَانَ مِنْكُمْ مَنْ يَتَّقِي وَلَا كَانَتْ لَكُمُ الْيُتَّقِي وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾²، فإذا ما يدرينا لعل المئات أو أكثر من المئات ممن نبجلهم اليوم ونقدسهم بعنوان الصحابة هم في الحقيقة ليسوا أقل ضرراً وليسوا أقل حقداً على رسول الله صلى الله عليه وآله من عبد الله بن أبي سلول، ومع ذلك صبر على كل هذا الأذى.

هذا من حيث الصبر، ومن حيث الرفق في أخذ الأمور، معلومٌ عنه صلى الله عليه وآله تعامله بالرفق واللين مع من كان يؤذيه، ومع من كان يمدُّ لسانه عليه، ومع من كان ينبزه بكل لقب شين، وحتى مع اليهود الذين يتعمدون أذيته، كان يعاملهم بالحسنى، ويأخذهم بالرفق، ويظهر لين سياسته ورفقه أعظم ما يظهر في يوم الحديبية، فمن غيره يُطلب منه أن يحذف لقباً أعطاه الله له فيستجيب؟ احتج مندوب قريش وقال: لا تكتب هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، لأننا لو آمنا بأنك رسول الله ما وقفنا منك هذا الموقف، ولكن قل هذا ما اتفق عليه محمد بن عبد الله، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وآله يومئذٍ ضعيفاً، ولم تكن قوة قريش يومئذٍ بتلك القوة التي تُرهب الرسول أو تخيفه بعد كل ما مرَّ معها من حروبٍ انهزمت فيها، من بدر وأحد وغيرها.

ومع ذلك استجاب لأنه يرى أن أخذ الأمور بالرفق في شيءٍ سيتحقق إن عاجلاً أو آجلاً، وذلك أولى من الأخذ بالقوة وإسالة الدم ولو بمقدار قطرةٍ واحدةٍ، وأمر علياً عليه السلام أن يشطب لفظة رسول الله، وأن يكتب هذا ما اتفق عليه محمد بن عبدالله وفلان بن فلان.

¹ التوبة: من الآية 101
² محمد: 30

بطبيعة الحال بعض الناس هناك تجرأوا على الرسول صلى الله عليه وآله تجرأً ما كان يليق بأحدٍ يؤمن بالله ورسوله أن يتجرأ عليه، ولكنه أصرَّ على الأخذ بسياسة الرفق واللين وهو الذي يقول لعائشة: "يا عائشة، إن الله يعطي بالرفق ما لا يعطي بالشدَّة"، أي أن اتِّباع أساليب الرفق وأساليب اللين هو أولى من اتِّباع أساليب الشدَّة في الأمور السياسية والاجتماعية.

هاتان الخصلتان من أهم الخصال المفيدة، وكل خصال الرسول صلى الله عليه وآله مفيدة، ينبغي على كل مسلم أن يتحلَّى بهما، أن يصبر على ما يصيبه من الأذى في هذه الدنيا، خاصة من أجل الثَّبات على المبدأ، وخاصةً في الدفاع عن المبدأ، وخاصةً في مقام الالتزام بالمبدأ. وأن يتعامل مع من يختلف معه سواءً كان يتفق معه في بعض الأمور، أو يخالفه في جميع الأمور، بالرفق والملاينة، فإنه لا يوجد شيءٌ أوصل بالأمور من الرفق، فعلينا إذن أن نتحلَّى بهاتين الصفتين، وأن نشكر الله سبحانه وتعالى الذي منَّ علينا بمحمدٍ صلى الله عليه وآله رسولاً ونبياً وقائداً وهادياً.

ونسأله سبحانه أن يوفقنا للثبات على الإيمان به، والدعوة إلى سبيله، والاستتارة بهدي رسوله صلى الله عليه وآله، إنه كريمٌ مجيد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تأبين الشيخ عبد الحسن (قده)*

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على محمد وآله الشرفا.
العلماء وورثة الأنبياء، وذلك أن الأنبياء لم يورثوا مالا ولا حطاما وإنما ورثوا علما، والعلماء الذين يتحملون هذا العلم، أو يأخذون بنصيب من هذا الإرث، في مقابل ذلك يتحملون مسؤولية خطيرة ثقيلة، يتحملون مسؤولية الإنذار، فالحمد لله سبحانه وتعالى أنزل الكتب نذرا، ذَكَرَ التوراة فقال [نذيرا]، وذكر القرآن فسماه [نذيرا]، والأنبياء إنما يقومون بمهمة الإنذار، وذَكَرَ العلماء فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾¹. فجعل المهمة الرئيسية التي يجب على العالم أن يقوم بها هي مهمة الإنذار؛ الإنذار لقومه وليس الإنذار لغير قومه، وإنما يتوسَّع في إنذاره إلى الأقسام الآخرين، ويبلغهم رسالة الله، ويبين لهم أحكام الله بعد أن يكون قد بلغ رسالة الله إلى قومه، وبين ما يحتاجه قومه من الأحكام.

وأما أن يترك العالم موقعه في إنذار قومه ويتجه إلى إنذار الآخرين فهذا ابتعادٌ عن المركز الذي وضعه الله فيه، واختيار لمكانٍ من معركة محاربة عدو الله سبحانه وتعالى قد تؤدي إلى انهزام المسلمين وانهزام هذا الدين.

الحياة الدنيا فيها دولتان، والحياة الدنيا فيها صنفان -فيها جندان- جنود الله وجنود الشيطان، جنود الله هم الذين يلتزمون بأحكام الله، ويدافعون عن شريعة الله ويدعون بدعوة الله، وجنود الشيطان هم الذين يتبعون وساوس الشيطان، ويتبعون ما يُمليه إبليس على شياطينه من الجن والإنس.

* كلمة في الحفل التأبيني في أربعينية الشيخ عبد الحسن (قده) في 11 جمادى الأولى 1417 هـ المصادف 1996/9/25م بجامع جدحفص
¹ التوبة: 122

وهذه المعركة احتدمت من حين أمر الله إبليس بالسجود لآدم فأبى، والمعركة يلزم فيها أن يقف كل جندي في موقعه الذي أمر بالوقوف فيه، فإذا غير موقعه فإنه عندئذ يفتح فرجةً للجيش الآخر الذي يتربص الدوائر فينفذ منها، وعندما يترك العالم موقعه الذي أمره الله به وهو أن ينذر قومه، ويتجه إلى إنذار الأقسام الآخرين، فإن هذا العالم يكون قد غير موقعه الذي أمر بالتزامه في المعركة، وفتح ثغرةً يمرُّ منها الجيش المعادي للإيمان، فينفذ ويلتف على المؤمنين، وهذا شيء طبيعي، فمادامت مهمة العالم هي الإنذار، وما دامت مهمة العالم فرغ من مهمة الرسول؛ فلا بد أن تكون النتيجة كذلك. إن الله سبحانه وتعالى في بداية الدعوة قال لرسوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾¹، وبعدها أمره أن يصدع بما يؤمر في أهل مكة، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾²، فالدعوة الأولى توجَّهت إلى قوم محمد صلى الله عليه وآله، وحتى موسى ابن عمران، على الرغم من أنه بُعث في مصر، وأمر بالذهاب إلى فرعون، ماذا قال له؟ ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾³، أي اترك بني إسرائيل معي حتى أعلمهم، ذلك لأنه إذا كان قومه على غير مبدئه، وإذا كان قومه لا يؤمنون بالعقيدة التي يدعو إليها، إذا كان قومه لا يلتزمون بالشريعة التي ينادي بها، فمن باب الأولى أن يرفضه الأقسام الآخرون، فمن الأمر الطبيعي إذن أن يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾⁴.

عندما يترك العالم توجيه خطابه إلى من يحوط به من المؤمنين، وإلى من ينتمي إليه من المؤمنين فيبصرهم بأخطائهم، ويبين لهم ابتعادهم عن الشريعة، ويتكلف ما لم يكلفه الله به من بيان مخالفات الأقسام الآخرين، هذا إنسان قد ألغى ما كلفه الله به، وحمل نفسه ما لم يكلف به. فإذا المهمة الأولى والرئيسة على العالم هي أن ينذر قومه، لأنه لو أفلح في تهذيب قومه، ولو نجح في إصلاح قومه، ولو تمكن من هداية قومه، فإنه يكون قد أوجد فرقة مؤمنة كما سماها

¹ الشعراء: 214

² الجمعة: من الآية 2

³ الأعراف: من الآية 105

⁴ التوبة: من الآية 122

الله: ﴿فَلَوْلَا تَقَرَّرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾¹، فإذن سمّاها فرقة، وعندئذ يكون العالم قد نجح في إيجاد فرقة من فرق جيش الله التي تحارب الشيطان، وأما إذا أهمل قومه ودخل الشيطان، ودخلت جنوده، ودخلت أفكاره، ودخلت أهواؤه، عندئذ يضطر لأن يجامل تلك الفئة التي حملت أفكار الشيطان، ومبادئ الشيطان، وصبغتها بصبغة الدين لتسيّرهما على البسطاء من الناس، فما الذي يمكن أن يحصل؟، سقوط العقيدة في قلوب المؤمنين، واضمحلال الهدف الحقيقي للعقيدة الدينية، وللحكم الشرعي بين أفراد المؤمنين، وسبب ذلك هو أن العالم ترك موقعه الذي أمره الله بالوقوف فيه، واختار لنفسه موقعاً في المعركة ربما قد أمر غيره بالوقوف فيه، على الأقل في تلك الفترة الزمنية الخاصة، وتترك الموقع في الحروب قديمها وحديثها أمر خطير، فما الذي سبب الانتكاسة يوم أخذ للجيش الإسلامي الذي يقوده محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله؟ ألم يمكن منتصراً؟ ألم تنهزم قريش التي كانت تمثل جيش الشيطان؟ إن الذي سبب الانهزام يوم أحد هو أن من أمرهم الرسول صلى الله عليه وآله بالوقوف على الجبل، وقال لهم: [لا تنزلوا عنه سواء أئدنا أو انتصرنا]، حتى لو وجدتمونا قد أئدنا عن آخرنا، لا تنزلوا عن هذا الجبل، وإذا بهم -وهم يرون المسلمين في أوج انتصارهم- يتركون موقعهم ليساعدوا بقية المسلمين في جمع الغنائم، وكأن جمع الغنائم يحتاج إلى المساعدة، وإذا بالالتفاف يحصل من قبلهم، يتسرب خالد بن الوليد من تلك الثغرة التي وجدت، ويضرب المسلمين من الخلف فينهزموا، ويتركون رسولهم يُقاسي الموت، ولم يبق معه إلا أربعة أشخاص من أهل بيته، وقيل سبعة من أهل بيته، وينادي الشيطان: [إن محمداً قد قُتل]، حتى يزيدهم فراراً وخوفاً وهلعاً، وسبب ذلك هو الابتعاد عن الموقع في تلك المعركة المحددة.

وحتى في الحروب الحديثة التي عاصرناها حصلت انتكاسات لجيوش في أوج انتصارها من ثغرة بسيطة تركها قائد، ففي العام الثالث والسبعين والتسع مائة والألف، وفي شهر رمضان، حيث حصلت حرب المئة كيلو أو الثلاثين كيلو انتصرت جيوش العرب، وأخذت جنود إسرائيل

¹ التوبة: من الآية 122

تتهزم وتترك أماكنها، فما الذي حصل؟ قائد من قواد الجيش المصري ترك موقعه المكلف بالبقاء فيه، فحصلت ثغرة أُطلق عليها في ذلك الوقت بثغرة [الديس وار]، ودخل الجيش الإسرائيلي وضرب الجيش المصري من الخلف، وهذا كان سبب الانهزام على الجبهة العربية.

إذن تَرَكَ العالم موقعه الذي أمره الله بالوقوف فيه وبالقيام عليه أخطر في الهزيمة على العقيدة من يوم أحد، وأخطر في الانهزام على الشريعة من قضية انهزام الجيوش العربية أمام إسرائيل من تلك الثغرة، ذلك أن العالم لا يحارب بالسيف، ولا يحارب بالرصاص، وإنما الثغرة التي يسدها هي ثغرة الفكر، هي ثغرة الدين، هي ملء العقول بالدين، هي تربية الناس على الالتزام بالشريعة، فعندما يتركها العالم فلا يتكلم في الأخلاق، ولا يتكلم في الحث على الالتفاف حول العلماء، ولا يتكلم في موضوعات العقائد، لأن الناس كما يدعي ليسوا في حاجة إليها، ويملاً كل فراغاته بالكلام عن الحاجات المادية الآنية، ويوجه كل همّه لبيان أخطاء القوم الآخرين ومخالفاتهم وظلمهم ويترك قومه، ويترك أهله، ويترك جماعته، ويترك الفرقة التي أنفقت عليه من أموالها حتى أوصلته إلى هذا المستوى، يتركها فريسةً لذوي الأفكار الهدامة، والمبادئ الباطلة، والأوهام الزائفة تملأ نفوسها، هذه الثغرة التي فتحها، وهذا التغيير في الموقع أمر خطير، ماذا يسده؟، يدخل الشيطان بكل ثقله، وبكل قوته، بجنود كأنها السيّل الجارف، وفي أيام معدودات، وإذا بتلك الأمة التي هي في ظاهرها ملتزمة، وفي ظاهرها مؤمنة، تتحرف عن مسارها، وينقلب الحق في نظرها باطلاً، ويصبح الباطل في فلسفتها الجديدة حقا، ما هو سبب ذلك؟، سبب ذلك هو تغيير العالم لموقعه.

هذه الملاحظة كانت موضع الاهتمام عند كل العلماء في الأجيال السابقة، وفقيدنا الراحل كان واحداً منهم، عاصر كثيراً من الفتن التي مرّت، وعاصر كثيراً من الاضطرابات التي ألمّت بهذه البلاد، وفي حدود ما أدركناه فإنه عاش الاضطرابات التي حصلت في الخمسينات، فما سمعنا عنه في يومٍ من الأيام أنه بدّل منهجه وبدّل طريقته وأخذ يصبُّ اللوم على الآخرين، أو يشغل نفسه بفضح أخطائهم وظلمهم، بقي واقفاً في موقعه الذي ربّبه الله فيه؛ وهو توجيه النصح،

وتوجيه الإرشاد للشريعة؛ لأنه من هذه الفرقة، وهو أمر بإنذارها، وإرشادها، فهو لم يكلف بإرشاد القوم الآخرين وإنذارهم، ليكونوا ما يكونوا، فإذا هذه ناحية من نواحي المسؤولية التي يتحملها العالم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك كل إنسان في الحياة تكون له وظيفة، فما هي وظيفة العالم؟ إن وظيفة الطبيب هي أن يعالج أجساد المرضى، ووظيفة المهندس على اختلاف أنواع التخصص في الهندسة أن يتخذ له وظيفة لو أراد أن يتعداها فإنه يفسد في تلك الوظيفة التي يذهب إليها أكثر مما يصلح، ووظيفة العالم مشتقة من وظيفة النبي صلى الله عليه وآله، والنبي وظيفته بيان الحكم الشرعي وتبليغه للناس، ﴿أَلْبَلَّغُكُمْ مِرْسَالَاتِ رَبِّي﴾¹، ويحصر الله سبحانه وتعالى هذه الوظيفة بقوله: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾²، ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ

بِمُسِيئَةٍ﴾³.

فإذاً، وظيفة العالم ليس أن يطيعه الناس أو أن يعصوه، وليس أن يقبلوا منه أو يرفضوه، هذا في مقام التبليغ وليس في مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا شيء آخر، أما في مقام تبليغ الأحكام، وفي مقام تبين الرسالة، لا يلتفت هل يقبله الناس أم يرفضونه، هل يطيعونه أم يعصونه، لا، ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسِيئَةٍ﴾، فإذا أبلغهم رسالة الله، وإذا بين لهم حكم الله في الواقعة فقد قام بوظيفته التي رتبها الله فيها باعتباره وارثاً من ورثة الرسول صلى الله عليه وآله؛ لأن هذا هو الذي أمر الله به نبيه، وأما مقام الأمر بالمعروف ومقام النهي عن المنكر أمر آخر، والغريب أننا ربما نتكلف الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر ونحن نعلم يقيناً أنه لا تأثير لكلامنا، أو نَحْتَمِلُ احتمالاً كبيراً وجود الضرر علينا، أو على من يلوذ بنا من جرأته، فيفقد على الأقل شرطاً أو شرطين شرعيين مما يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا نتحمّله ونوصل أنفسنا ومن يلوذ بنا إلى أمورٍ لم يأمرنا الله بتحمّلها، إلى دمارٍ وإلى عذابٍ وإلى غير ذلك، ونترك المقام الذي كُفِّنا به، ولا يشترط فيه مطلقاً احتمال التأثير أو القبول أو الرفض،

¹ الأعراف: من الآية 62

² المائدة: من الآية 99

³ الغاشية: 21-22

وهو بيان الأحكام لمن يلوذ بالعالم من المؤمنين، ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصِطِرٍ﴾
﴿إِنَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾¹.

فإذا هاتان وظيفتان من وظائف العلماء، وكان علماء الأجيال السابقة كلهم على وعي بهذه الناحية، فكانوا يقومون بها، ومن أجل ذلك لم يتسببوا في ضرر أنفسهم أو ضرر غيرهم من المؤمنين، ولم يتحملوا ما لم يوجبه الله عليهم إلا بشروط غير متحققة، وكان فقيدنا أيضاً واحداً منهم، قضى كل عمره في هذا المقام، ولم يتوان عنه، وكان لا يقوم بشيء من باب ما فيه شروط إلا إذا تحققت شرائطه، - و أنا صغير - أذكر أن شخصاً في جدحفص افتتح مقهى، وجاء في المقهى بما يسمى في الزمن القديم [سحارة] أي [الراديو]، كما يقال في اللغة الإنجليزية لنشر الأغاني، فما هو إلا أن قام الشيخ رحمه الله، وجمع معه جماعة من كبار البلد وذهب إلى المقهى وكسّر تلك الآلة حتى أصبحت قطعاً لا يُنتفع بها، لأنه يعلم أنه في هذه القرية المحبة للعلماء، والمطبعة للعلماء، يتمكن من الأمر بالمعروف، ويستطيع أن يوصله بيده أو لسانه، ولكن خارج حدود ما تشتمل فيه الشرائط، فإنه لا يذهب إليه، لأن الله لم يكلفه به، وربما انجراره إليه يستدعيه إلى ترك وظيفته الشرعية، وهي إبلاغ الناس الأحكام الشرعية التي هي الوظيفة الأصلية للأنبياء عليهم السلام.

والخلاصة هي أن واجب العلماء هو الوقوف في الموقف الذي أمرهم الله فيه، وواجب الناس هو الالتفاف بالعلماء ومناصرتهم وتعظيمهم واحترامهم، ودفع جنود إبليس ومنعهم من إيصال الأذى لهم، وخاصة أن النبي صلى الله عليه وآله قد ألزمهم بإظهار علمهم في الوقائع إذا ما كثرت البدع وانتشرت الفتن، ويقول النبي صلى الله عليه وآله: "إذا ظهرت البدع في أمتي فلنظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله"²، فالعلماء في مثل هذه الظروف التي تنتشر فيها الأفكار الباطلة، والتي تعم فيها هذه الفوضى القاتلة، مضطرون، بل يجب عليهم بيان الأحكام الشرعية في كل واقعة، وفي كل عمل يقوم به واحد من الفرقة التي عادوا إليها بعد

¹ الغاشية: 21-24

² الكافي للكلييني - ج 1 - ص 54

دراستهم، وليس ما يقوم به فرد خارج عن الفرقة التي أمرهم الله بالوقوف فيها وتبليغها، وعندئذٍ بعد أن وجدت الثغرات من كل جانب وتدفقت أفكار الشياطين، فعلى المؤمنين أن يقوموا بواجبهم، أن يلتفتوا حول العلماء وأن يناصروهم وأن يدفعوا الأذى عنهم.

وفي ختام هذا الاحتفال نشكر الجميع على مشاركتنا ومواساتنا الحزن بالفقيد الغالي، ونسأل الله لنا ولكم السلوان والنصر على الأعداء، كما نسأل الله سبحانه وتعالى التقبُّل والمغفرة للفقيد رحمه الله، إنه هو السميع المجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في فكر العلامة الشيخ حسين العصفور*

المقدمة: الشيخ علي المعلم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، و الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وحبيب إله العالمين وشفيع المذنبين أبي القاسم المصطفى محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين واللعن الدائم على أعدائهم من الآن إلى قيام يوم الدين.

رب أشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾¹.

سماحة العلامة، الأخوة الحضور السلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته.

انطلاقا من الآية المباركة التي تعطي الأهمية البالغة للموقع وللصدارة وللمكانة التي حددها الإسلام بالنسبة لمقام رجل الدين، وانطلاقا من الأحاديث المباركة التي أكدت على أهمية رجل الدين في المجتمع، وعلى دوره في مختلف الأصعدة، وعلى الوجود الميداني والتحرك المصداقي للعلماء وللفقهاء والأعلام تصل إلى درجة يعتبرها الإسلام أن في وجودهم وفي تحركهم دوراً لا تختلف أهمية عن تحرك العلماء أو بالنسبة إلى تحرك الأئمة سلام الله عليهم، ولا ننسى الصدارة التي وضع أئمة أهل البيت سلام الله عليهم مكانة العلماء فيها، فالعالم كما تحدد الروايات وخصوصا التوقيع الوارد عن الناحية المقدسة لإمام العصر عجل الله له الفرج في قوله: "وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم و أنا حجة الله عليهم". وهناك أيضا جملة من الأحاديث الواردة عنهم سلام الله عليهم التي توحى لنا المكانة والصدارة والأهمية البالغة للمقاة على عاتق العلماء خصوصا بعد غيبة ولي العصر أرواحنا لتراب مقدمه الفداء، فلا

* محاضرة في 3 ذو القعدة 1414 هـ المصادف 13 / 4 / 1994م بالقطف
¹ التوبة: 122

مجال لأن أتكلم في هذه الأهمية، والكل يعرف الأهمية البالغة والمكانة المقدسة التي نقدها ونعتبر أن العالم في مثابة المحرك لفكرنا ولعقيدتنا، والمدافع عن بيضة الإسلام وعن المذهب.

وهاهنا وفي هذه الليلة نحن وإياكم على موعد مع علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ومع فذ من أفاض علمائنا الأعلام ألا وهو الحجة العلامة الشيخ سليمان المدني البحراني [حفظه الله] سماحة الشيخ موقعه في قلوب الشباب والمكانة التي احتلها في قلوب المؤمنين وخصوصا في قلوب الشباب المثقف في البحرين مكانة لها أهميتها، ولها دورها في مجتمع البحرين، فهو رائد الكلمة، وهو المربي لهذا الجيل المثقف، وهو أيضا المدافع عن المدرسة التي استمرت وما زالت مستمرة إلى يومنا هذا، المدرسة التي أسسها أعلامنا ووضعوا لها القواعد المتينة وهي مدرسة صاحب الحدائق والشيخ حسين وغيرهم من العلماء الأعلام.

نعيش و إياكم مع هذا العالم ولا بد لنا أن نعرفكم عن الحياة الدراسية لشيخنا المدني، الولادة في البحرين في مدينة جدحفص سنة 1359هـ، بدأ الدراسة في البحرين على يد الشيخ عبد الحسن والشيخ إبراهيم المبارك، ثم انتقل إلى النجف الأشرف عام 1379 هـ، وهناك التحق بكلية الفقه من جهة وشارك في الحوزة من ناحية أخرى، ومارس الدرس والتدريس، التحق في الحلقات العلمية البارزة آنذاك كدرس المرحوم المرجع الديني السيد محسن الحكيم حضر على يده في الفقه وحضر دورة كاملة في البحث على يد المرحوم المرجع الديني فقيه الطائفة السيد الخوئي عطر الله مرقدته الشريف في الأصول، كما درس أيضا عند أعلام النجف آنذاك السيد محمد تقي بحر العلوم، والملا صدرا، والشيخ إبراهيم الكرياسي.

ومن أقرانه في الدراسة وفي الدرس سماحة الدكتور الفضلي وسماحة السيد علي ناصر، وهذان علما من أعلام المنطقة، وأيضا من أقرانه في الدرس سيد عز الدين بحر العلوم وهو من المدرسين المشهورين في الآونة الأخيرة في النجف الأشرف، والسيد محمد حسين بحر العلوم والشيخ محمد جعفر شمس الدين، والشيخ الآصفي وغيرهم من الأعلام الموجودين.

فنجيي هذه الليلة وبقلوب واعية وبعقول متفتحة لنستمع إلى توجيهات هذا الأب الروحاني لشباب هذا اليوم وللطليعة المؤمنة الذين جاءوا ليستمعوا إلى رائد الكلمة وإلى رائد الحركة الإسلامية في البحرين ألا وهو سماحة العلامة الحجة سليمان المدني فليفضل مشكوراً....

كلمة العلامة المدني

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين، والحمد لله أحمده سبحانه الذي وفقني للاجتماع بهذه الوجوه النيرة المؤمنة، وأشكره تعالى على هذه النعمة العظيمة، كما أشكر الأخ الشيخ علي المعلم الذي مهّد وأصر على هذا الاجتماع وإن كان فيما قاله من مدح كثير من الغلو أو كثير مما لا أستحق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في الحقيقة لست أدري كيف أبدأ، ففضيلة الشيخ علي المعلم لم يحدد موضوعاً أتكلم فيه بل ترك الأمر عائماً، الرسالة التي نقلت لي على يد بعض الشباب هو الكلام عن الشيخ حسين آل عصفور المشتهر بالعلامة رحمه الله، والكلام عن هذا الرجل بدون تحديد موضوع في حد ذاته صعب، الشيخ حسين ليس رجلاً عادياً، ولا فقيهاً عادياً يمكن الكلام عليه من جنبه واحدة، فهو ليس مجرد فقيه يرجع إليه الناس في الأحكام، بل له صفات ومميزات تجعله وحيداً بين أقرانه، أو حتى بعد أزمانه، فالرجل بالإضافة إلى كونه عالماً من أعلام الشيعة، وبالإضافة إلى كونه رجلاً من رجالات العلم الخالدين، ويكفي أنه في ذلك الوقت وفي ذلك الزمان يلقب بالعلامة، ولفظ العلامة في ذلك الوقت لم يكن هيناً كوقتنا الحاضر حيث يطلق على معظم الناس كما يطلق عليه [رحمه الله]، لم يكن يطلق في ذلك الوقت لفظ العلامة إلا على الجهيد الوحيد في عصورٍ متمادية، أطلق لفظ العلامة على الحسن بن المطهر الحلي رحمه الله، وأطلق لفظ العلامة على الشيخ حسين العصفور رحمه الله، هذا الإطلاق ليس من أجل المحاباة أو المجاملة، لم تكن في ذلك الوقت الألفاظ تطلق إلا على من يستحقها.

الرجل بالإضافة إلى أنه فقيه، وإلى أنه زين المحدثين - كما يعبر عنه في الإجازات وفي كتب الرجال- فقد كان قائداً سياسياً بارعاً في زمنه، حضر الساحة المضطربة في ذلك الوقت، ويدللكم على هذا الحضور طريقة وفاته رحمه الله، فأنتم تقرؤون في المعاجم وكتب الرجال أنه مات بسبب ضربة حربة من يد أحد الخوارج، في ذلك الزمان لم يكن يسكن البحرين غير الشيعة، فمن أين جاء الخوارج وضربوا الشيخ حسين؟ المؤسف له أن كتب الرجال عندما تتكلم عن الشخص لا تتحدث عن الظروف الاجتماعية التي كان يعيشها، ولا تتكلم عن الأنشطة الاجتماعية التي كان يزاولها، وحتى نعرف كيف استشهد هذا الرجل لا بد أن نعرف دوره في الساحة السياسية المضطربة في ذلك الوقت، أي بداية القرن الثالث عشر الهجري.

في ذلك الوقت كانت البحرين نسبياً تتبع إيران، فمنذ أن احتلت من قبل الإيرانيين في العهد الصفوي بقيت جزيرة البحرين أو جزيرة أوال وما معها من الجزر تابعة في بداية الأمر تبعية تامة للدولة الصفوية في إيران، ومن بعد ذلك تبعية اسمية، ففي أواخر عهد الصفويين وضعف شأنهم تأسس في البحرين مجلس كان يعرف في ذلك الوقت باسم ديوان السلطنة، وكان العضو الذي يكون في ذلك المجلس يحمل لقب وزير الدولة، بطبيعة الحال طريقة الدخول إلى هذا المجلس هو عن طريق الانتخاب، وكان هناك حزبان رئيسيان يتصارعان على حكم البحرين وعلى تحصيل الأغلبية في ذلك المجلس وهما حزب البلايين وحزب الجدحفصيين، وبقي هذا الحال حتى بعد سقوط الدولة الصفوية وقيام الدولة الفاجارية، بقيت التبعية اسمية، وكانت البحرين تدار إدارة ذاتية من الداخل عن طريق هذا المجلس، وعن طريق الأعضاء المتواجدين فيه.

وفي بداية القرن الثالث عشر اضطربت الأحوال في المنطقة وأخذت الهجومات تترى على البحرين من الخارج، سواء من القبائل المغيرة التي كانت تغير على البحرين بقصد السلب والنهب أو من الدول المجاورة التي تريد احتلال البحرين وضمها إليها، ومن هذه الدول الدولة العمانية، وفي أيام سلطانها سعيد بن سلطان وقع الهجوم على البحرين عام 1216هـ، فاجتمع ديوان السلطنة برئاسة السيد ماجد بن السيد حسن الجدحفصي وكان رئيس حزب الجدحفصيين في ذلك الوقت،

وبحضور المندوب الإيراني الشيخ جباره الهولي و أيضاً بحضور مرجع البلاد الشيخ حسين رحمه الله في قلعة الديوان، وكانت البلاد محاصرة محاصرة تامة، كان رأي السياسين والسيد ماجد وسائر أعضاء المجلس أن يطاولوا العمانيين في الحصار إلى أن يمكن تحصيل نجدة من الدولة الإيرانية أو الدولة العثمانية لفك الحصار، طبعاً لو بقي الأمر على ذلك ل مات الناس وخاصة الفقراء منهم جوعاً، فالموقف السياسي قد لا يتفق أحياناً مع الموقف الشرعي، ولذلك أصر الشيخ حسين رحمه الله على أن يقوم بأحد أمرين، إن كانت لديه القوات الكافية في المقاومة وفي المدافعة فعليه أن يقوم بالمقاومة والمدافعة ودفع العدو، وإن كان يعجز عن ذلك فعليه بالتسليم حتى لا يموت الفقراء في بيوتهم جوعاً، وعندئذ اضطر الحكام أن يخرجوا لمحاربة الغازين العمانيين، وكان فيمن خرج أيضاً وممن قاد تلك المعركة هو نفسه، الشيخ حسين رحمه الله، حيث جرح في المعركة في قلعة الديوان أي عند قلعة الديوان، وقلعة الديوان هي قلعة المنامة، وهي مركز وزارة الداخلية في الوقت الحاضر حيث ضربه أحد العمانيين بحربة مسمومة على رجله فوق جريحاً، ثم نقل جريحاً إلى بيته في الشاخورة وتوفي بها.

فالشيخ رحمه الله بالإضافة إلى كونه فقيهاً ومرجعاً كان من القادة السياسيين المشاركين في صياغة وفي تسيير دفة الحكم في ذلك الوقت في البلاد، والحاضرين دائماً في الساحة بكل ما فيها من مأس، وكل ما فيها من صعوبات، ولم يكن فرداً عادياً كسائر الناس، هذا من جهة حياته الاجتماعية.

ومن جهة قدراته العلمية فأيضاً الشيخ حسين رحمه الله له قدرات مختلفة، وطرق علوم كثيرة متباينة، وإذا كان قد أطلق عليه لقب مجدد المذهب على رأس القرن الثالث عشر فهذا اللقب لم يطلق عليه من قبل مؤيديه ومن قبل مقلديه، وإنما أطلق عليه من قبل علماء الرجال، ومن قبل الفقهاء والمجتهدين؛ سواء منهم من يوافقه أو من يخالفه، فليس عبثاً أن يطلق عليه رحمه الله لقب مجدد المذهب على رأس القرن الثالث عشر، ولذلك لا يمكنني التحدث عن الشيخ حسين رحمه الله من جميع الجوانب ومن جميع المجالات العلمية التي تطرق إليها رحمه الله، سواء بالكتابة

والتأليف أو بالشرح أو بالتدريس والإفادة، وإنما سأكتفي بالحديث عن فكر الشيخ حسين رحمه الله من خلال المدرسة الفكرية والفقهية التي كان يتبناها ويحملها ويدافع عنها.

بطبيعة الحال أنه بعد سنة المئة والألف من الهجرة النبوية انشق الشيعة مع الأسف إلى فريقين كبيرين ومدرستين عظيمتين، هما مدرسة المجتهدين ومدرسة المحدثين، مدرسة المجتهدين قالت إن أصول العلم الشرعي تعود إلى أربعة مصادر وهي الكتاب والسنة والعقل والإجماع، ومدرسة المحدثين قالت إن العلم الشرعي الديني يعود إلى مصدرين اثنين، هما الكتاب والسنة، وأنكرت أن يكون للعقل دخل وحكم في القضايا الشرعية وفي الأحكام الجزئية والفرعية.

هذه المدرسة في بداية أمرها أو حتى إلى أواخر أمرها ما كانت تتكر تدخل العقل في أصول الدين وإنما تتكر تدخل العقل في فروع الدين، ولكن حصلت تحويرات كثيرة تلوفي فيها ما يمكن أن يتلافى من الاعتماد على الاستدلال العقلي البحت حتى في أصول الدين، أضرب مثلاً: من المعروف أنه في قديم الزمان وقع الجدل الشديد بين الأشاعرة وبين المعتزلة في أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى أو معرفة الله سبحانه وتعالى هل يجب أن تكون عن دليل وعن اجتهاد؟ أو يجوز أن تكون عن تقليد واتباع؟ فذهب الأشاعرة إلى أن معرفة الله والإيمان بالله يصح أن تكون عن تقليد واتباع، وذهب المعتزلة إلى أن الإيمان بالله ومعرفة الله يجب أن تكون عن دليل وعن اجتهاد، وأن الإنسان لو آمن بالله ولكنه لم يؤمن به عن دليل وعن اجتهاد وإنما آمن به عن تقليد واتباع للآباء والأجداد فإيمانه باطل ولا يستحق أن يسمى مؤمناً.

والشيعة أيضاً انقسموا في هذه المسألة؛ فمنهم من قال بما قالت الأشاعرة وهو أنه يصح أن يكون الإيمان بالله عن اتباع وعن تقليد، ولكن الغالبية والمشهور قالوا إنه لا يصح أن يكون الإيمان بالله إلا عن اجتهاد وعن دليل يقيمه المكلف على وجود الله سبحانه وتعالى الذي يؤمن به، وكان بطبيعة الحال لكل فريق من هذين الفريقين حججه وأدلته، فالذين لا يصححون الإيمان الذي يأتي عن طريق الاتباع وعن طريق التقليد يقولون إن الله سبحانه وتعالى ذم المشركين الذين

قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾¹، ولو كان الاتباع للآباء وللأجداد أو للعلماء أو غير ذلك مما يجوز في مقام الإيمان بالله لما كان يصح أن الله سبحانه وتعالى يستنكر عليهم هذا العمل مادام هو يصح، بالإضافة إلى أن التقليد وإلى أن الاتباع غاية ما يثمر إنما هو الظن، والمطلوب في مقام الإيمان وفي مقام العقيدة هو الجزم، وأيضاً يرد القائلون بجواز الاتباع فيقولون أنكم لم تأتوا بالآية كاملة لأن الله سبحانه وتعالى ما نهى عن الاتباع وعن التقليد مطلقاً وإنما نهى عن الاتباع والتقليد في حالة أن يكون المتبّع والمقلّد جاهلاً لا يفقه شيئاً، ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾²، فإن مقام الاستنكار ليس على قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾³، وإنما مقام الاستنكار من الباري سبحانه أنهم إنما اتبعوا آباءً لا يفقهون شيئاً ولا يعلمون، أما لو كان آباؤهم عالمين بالله عارفين به مسلمين بالنبوة، فعندئذ لا يكون اتباعهم مزيئاً عليه ولا مستنكراً من قبله تعالى.

على أي حال هذا الجدل لم ينته بين الطرفين، وأخذ كل طرف يشنع على الطرف الآخر، مدرسة أهل الحديث رأت في أن هذا الجدل حيث إنه إنما اعتمد على التحليلات العقلية الصرفة لم يأت بشيء، وهو إنما جعل الشيعة في كلا الفريقين يتبعان غير الشيعة، فالذين قالوا بالجواز أو بتصحيح التقليد وتصحيح الاتباع إنما هم يقولون بمقالة الأشاعرة، والذين منعوا من التقليد والاتباع وأوجبوا الدليل والاجتهاد إنما قالوا بمقالة المعتزلة، وأن المسألة في حقيقتها ليست محطاً للتقليد وليست محطاً للاجتهاد، ذلك أن قضية الإيمان بالله أمر فطري، والمعرفة أمر بسيط فطري خلقه الله في الكائنات، ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁴، ﴿وَكَلِمٌ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَنِي يُؤْفَكُونَ﴾⁵.

¹ الزخرف: 23

² البقرة: 170

³ الزخرف: من الآية 23

⁴ إبراهيم: من الآية 10

⁵ العنكبوت: 61

فإذاً الإيمان فطري، والعبد ليس له دخل في صنع المعرفة حتى يقال إنه قلد أو أنه اجتهد، ولو قلنا بالاجتهاد لكان ينبغي أن يحكم على عامة المسلمين بالهلاك، لماذا؟، لأن غالبية الناس حتى العلماء في معظمهم لا يتمكنون من الإتيان بالدليل الحقيقي على وجود الله سبحانه وتعالى، ومجرد أن يذهب المكلف إلى العالم ليعطيه الدليل على وجود الله لا يجعله قد آمن بالله عن دليل، لأن التقليد في الدليل هو تماماً كالتقليد في نتيجة الدليل، فإذا كنتم تقولون بعدم صحة التقليد والاتباع في نفس الإيمان فينبغي أيضاً أن تقولوا بعدم صحة التقليد والاتباع في نفس الدليل، لأن الإنسان الذي يقلد العالم في دليله هو كالذي قلده في نتيجة دليله، ما هو الفرق؟

فإن لو قلنا بوجود الاجتهاد وبوجوب الدليل في الإيمان لكان ينبغي أن نحكم بخروج غالبية هؤلاء المؤمنين من رتبة الإيمان؛ لأنهم لا يتمكنون أن يأتوا بالدليل الذي يسد جميع الشبه وجميع ما يثار حول الإيمان بالله، والقضية بالإضافة إلى ذلك لا تحتاج إلى اجتهاد ولا تحتاج إلى تقليد وإنما تحتاج إلى تنبيه باعتبار أنها أمر فطري مركز في أصل الخلقة.

فإن في هذه الحالة أو في هذه النظرية التي جاءت بها مدرسة الحديث وفقت بين الطرفين وأزالت الخصام والتشاجر من بين الفريقين المتشاجرين وهو أن اتباع الأب مجرد تنبيه للفطرة، واتباع العلم في الدليل مجرد تنبيه للفطرة، والنظر والاستدلال من القادر عليه أيضاً مجرد تنبيه للفطرة، لأن العلم كما هو مقسم عند العلماء إلى قسمين، علم حصولي، وعلم حضوري، والعلم الحصولي هو الذي لا يكون موجوداً عند الإنسان، أي العلم الكسبي وهو الذي لا يكون موجوداً عند الإنسان، وإنما يسعى إليه ويكسبه عن طريق الأدلة، وعن طريق البحث العلمي، وعن طريق إجراء التجارب في مقام ما يحتاج إلى تجارب، وعن مقام إجراء الاستقراء في مقام ما يحتاج إلى الاستقراء فيصل إلى نتيجة لم تكن موجودة عنده، هذا يسمى علماً كسبياً، وعلم آخر هو موجود، مثال ذلك، علم النفس بأحوالها، علمي بنفسي بأنني جائع، فأنا لا أحتاج إلى كسب ونظر حتى أعرف أنني جائع، وأيضاً علمي بنفسي أنني أعرف القراءة والكتابة، أو أنني أستطيع النظر وأستطيع الإبصار، ولا أحتاج في هذه الأمور إلى كسب ونظر، لأنها موجودة عندي، أحياناً أذهل

عن حالة نفسي، فقد أكون في أشد حالات الجوع ولكنني لا ألتفت إلى نفسي بأني جائع لأن هناك ما شغلني عن الإحساس بالجوع، ومجرد حدوث منبه بسيط يجعلني أشعر بالجوع وألتفت إلى الجوع، وكذلك القضايا التي يدركها الإنسان ويعرفها قد تغيب عن ذهنه إما للغفلة وإما للشبهة أو غير ذلك، وبمجرد أن يحصل التنبيه يعود إلى تذكر ما غاب عن ذهنه، فإذن الشيء الموجود لا يحتاج إلى كسب لأنه يكون من تحصيل الحاصل، وما دامت المعرفة بالله سبحانه وتعالى قد خلقها الله في نفس الإنسان فهو لا يحتاج إلى كسبه، ومن أجل ذلك سئل الصادق صلوات الله وسلامه عليه "ألعبد دخل في المعرفة، هل يجب على العباد أن يعرفوا الله؟"، قال : لا، لا يجب على العباد أن يعرفوا الله ولكن يجب على الله أن يعرفهم نفسه، فإذا عرفهم نفسه وجبت عليهم طاعته".

فالمعرفة إذن هي من صنع الله وليست صنع الإنسان بكسبه عن طريق التقليد والاتباع أو عن طريق النظر والاجتهاد، المعرفة بالله أو معرفة الله أمر بسيط، خلق وفطر عليه الإنسان، ولأننا لو فتحنا باب وجوب الاجتهاد لكان ينبغي أن نقول أن كل من اجتهد وبذل ما في وسعه ونظر واستدل فهذا يكون عند الله معذوراً حتى لو أوصله اجتهاده إلى الإلحاد والعياذ بالله، وبطبيعة الحال لا يلتزم بهذه النتيجة أحد، نعم الجاحظ التزم بذلك وقال - طبعاً الجاحظ من المعتزلة وهم أصل القول بذلك- التزم بذلك وقال إن المكلف متى ما نظر واستدل واجتهد فقد أدى ما عليه من قبل الله، وليس عليه أن يكون مصيباً؛ لأن الإصابة والخطأ ليسا من الأمور الإرادية، يعني أن الإنسان لا يصيب بإرادته، ولا يخطئ بإرادته، وإلا فما من إنسان يريد أن يخطيء، وإنما يكون الإصابة بتوفيق من الله و الخطأ بعدم تحصيله على التوفيق، فعندئذ يكون مأجوراً من الله سواء أصاب أو أخطأ. طبعاً لا يمكن لأي شيوعي أن يلتزم بهذه النتيجة ويقول إن الإنسان إذا نظر واجتهد وألقاه اجتهاده إلى عدم وجود الله يكون يوم القيامة معذوراً، ومن أهل الجنة.

فإذن ما ذهب إليه أهل الحديث من أن هذه القضية لا تحتاج إلى الاستدلال العقلي وذلك لأنها من الأمور الفطرية حلت مشاكل كثيرة سواء بين الفريقين المتنازعين من المتكلمين من

الشيعة أو بالنسبة إلى سائر الناس، فكل من شهد ألا إله إلا الله اعتبر موحداً، فإذا شهد بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله اعتبر مسلماً، وبذلك يحل هذه الإشكال، ولم يعد هناك مبرر لأن يقال إنه يجب النظر، أو أن يقع الخلاف في أول ما يجب على المكلف هل هو النظر أو مقدمات النظر أو غير ذلك، فهذه كلها مسائل كانت تثير الجدل وكانت تثير النقاش قد أريح واستراح منها الباحث العلمي بسبب هذه النظرية.

أيضاً هذه المدرسة كما قلنا تذهب إلى أن العقل له دخل في أصول العقائد كالاستدلال مثلاً على صفات الله سبحانه وتعالى، لا بد أن يكون للعقل دخل فيها وغيرها كذلك، كالنظر في معاجز الأنبياء؛ فهنا أيضاً لا بد من دخول للعقل فيها، ولكن بالنسبة إلى فروع الدين كالاستدلال على الأحكام الشرعية الفرعية قالوا إن العقل لا مسرح له فيها، ولكن ما هو هذا العقل؟

من الغريب أنني لقيت أشخاصاً يعتقدون بأن المحدثين يقولون إن الفقيه يجب أن يكون بلا عقل حتى يصح أن يكون فقيهاً، ليس ذلك كذلك، على أي حال المحدثون يقولون إن العقل لا مسرح له في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية المتعلقة بأفعال المكلفين الجزئية، وعمدة دليل العقل تقوم على شيئين أو أن العقل بحد ذاته يقسمه الفلاسفة إلى قسمين، عقل نظري، وعقل عملي، والعقل النظري مثل إدراكنا أن الاثنين أكثر من الواحد أو أن الواحد نصف الاثنين، وأن الأربعة زوج تنقسم على اثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، و أن النقيضين لا يجتمعان وأن الضدين لا يجتمعان إلى غير ذلك من هذه الحدود، فهذه تسمى بالعقل النظري. والعقل العملي ينحصر في القضايا الخلقية، هذه القواعد تسمى التهذيبات والصلاحيات، وطبعاً إذا أردنا أن نستدل عليها فيما لو قيل ما هو دليلكم على ذلك، نقول إنها حسنة وهذا هو معنى الحسن.

طبعاً عمدة الدليل العقلي في الحقيقة خاصة عند الشيعة إنما يعتمد على الحسن والقبح العقليين، وإلا فباب الاستدلال في الدليل النظري للعقل النظري على الأحكام نادر وقليل جداً ولا يلتفت إليه، وإنما النزاع الذي وقع وأثير بين مدرسة المحدثين وبين مدرسة المجتهدين هو الاعتماد على الدليل العقلي العملي؛ أي باب الحسن والقبح العقليين، ولا إشكال في أن الأشياء في حد

ذاتها تكون فيها حسن وقبح، ولا إشكال أن العقل قد يدرك بعض وجوه الحسن وبعض وجوه القبح في بعض الأشياء، فكل إنسان مسلماً كان أو كافراً، صغيراً أو كبيراً، متعلماً أو جاهلاً، لو سألته ما رأيك في العدل لقال حسن، ولو سألته ما رأيك في الظلم لقال قبيح، لا يشكك أحد من بني البشر في حسن العدل ولا يشكك أحد من البشر في قبح الظلم، بالإضافة إلى أمور أخرى قد يدرك العقل حسنها ويدرك قبحها، هذا الإدراك لو فرضنا أن العقل أدرك الحسن أو أدرك القبح في موضوع من الموضوعات، وفرضنا أن هذا الموضوع لم يرد فيه نص من قرآن ولا من سنة، فهل يصح العمل بهذا الإدراك العقلي واعتباره حجة؟ وأنه حكم الله في الواقعة؟ فالخلاف في التلازم بين إدراك العقل وبين حكم الشرع، فالمجتهدون ذهبوا إلى وجود التلازم بين إدراك العقل وحكم الشرع، والمحدثون ذهبوا إلى عدم التلازم بين إدراك العقل وحكم الشرع.

طبعاً المجتهدون يقولون إن الله هو سيد العقلاء، فإذا حكم العقلاء بحسن شيء فلا بد أن يحكم سيدهم بما حكموا به، لأنه سيد العقلاء، والمحدثون يقولون إنه لا يلزم أن تكون المصلحة الواقعية على طبق إدراك العقل حتى يلزم أن يحكم به الله سبحانه وتعالى وإن كان هو سيد العقلاء، وإن كان هو واهب العقل، بالإضافة إلى ذلك فإن العقل لا يدرك الموضوع الخارجي، ولا يدرك إلا المفهوم الكلي، فلا يوجد مفهوم أوضح في الحسن من مفهوم العدل، ولا يوجد مفهوم أوضح في القبح لدى العقل من مفهوم الظلم، ولكن لو وزعت على الحاضرين أوراقاً وطلبت من كل شخص أن يعرف الظلم وأن يعرف العدل لوجدت تعريفات بعدد الحاضرين، ولو وزعت أوراقاً بعدد سكان الكرة الأرضية من رجال ونساء وصغار وكبار وجمعتها لوجدت تعريفات قل ما تشترك مع بعضها البعض، وهذا يكشف عن أن العقل إنما يدرك الحسن والقبح في بعض المفاهيم وليس في كل المفاهيم، وأنه يدرك هذا الحسن والقبح في المفهوم لا في الموضوع، فالموضوع الخارجي لا يدرك فيه، أضرب مثلاً، لو كان في هذه القرية خباز واحد فقط، لكان جميع أهل القرية من أين يشترون الخبز؟، من ذلك الخباز، وعندئذ يكون له ربح وفير جداً، فلو جاء شخص وفتح مخبزاً ثانياً بجواره - طبعاً هذا ليس فيه تقصير لهذا الإنسان بجزء مما كان

يدخل عليه - فيأتي الخباز الأول ويعطيه مفهوم الإضرار بالمؤمن، وعندئذ يكون قبيحاً، ولكن صاحب المخبز الثاني يعطيه مفهوماً آخر، يقول عكس القول الأول، هذا من باب التسهيل على المؤمنين، فلا بد أن يكون حسناً، ما سبب الاختلاف هنا، لأن العقل يدرك الحسن والقبح، لكن يدركه في المفهومات الكلية العامة، لا يدركه في الجزئيات الخارجية.

ولذلك يجب أن نقول إذا أردنا أن نعمل بهذا النوع من الدليل أن القبح في المفهوم يسري إلى المصداق، طبعاً لا يمكن ذلك؛ لأن المفهوم ليس دائماً من طبيعة المصداق، الكلي ليس دائماً من طبيعة الجزئي، أحياناً يكون من طبيعته مثل انطباق لفظ الماء على الجزء منه، ولكن أحياناً لا يكون من طبيعته، ولذلك مفهوم حرف الجر لا يجر، تجر الباء، وتجر [عن]، وتجر [على]، أما عنوان حرف الجر فلا يجر، لماذا؟ لأنه ليس من طبيعته، أي مجرد صورة ينتزعها العقل من مقام الواقع؛ لأن العقل لا يستطيع أن يدرك الخارج، ولا يستطيع أن ينظر الموضوعات الخارجية؛ فلكي يعرف ماذا في الخارج ينتزع مفهوماً ويجعله مرآة، ومن خلال هذه المرآة ينظر إلى الخارج، طبعاً المرآة ليست من طبيعة ما في الخارج، فالفقيه عندما يزول عمله لا يحكم على المفهومات، بل على الأحكام الفرعية المتعلقة بأفعال المكلفين الجزئية، فالفقيه عندما يزول عملية الاستنباط فهو إنما يحكم على أمور جزئية، وهذه الجزئية لا يتمكن العقل من اكتسابها إلا عن طريق مرآة ينظر إليها منها، فمن أجل ذلك قالوا بأنه لا يمكن التعويل على دليل العقل في الأحكام الشرعية الفرعية المتعلقة بأفعال المكلفين الجزئية.

هناك أيضاً مسائل كثيرة لا أدري إن كان يمكن أن أطرق بعضها أو أن الوقت قد أزف وقد أطلت . فنترك الموضوع للأسئلة.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

سؤال: سماحة العلامة، لماذا رفض المحدثون العقل والإجماع كدليل مقابل الكتاب والسنة؟

جواب: أعتقد أن الكلام الذي تقدم كله مصداق للإجابة على هذا السؤال، وبالإضافة إلى ذلك الله سبحانه وتعالى في كتابه يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾¹. وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾²، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾³.

هذه الآيات المباركة هي الدليل الملزم على حجية أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وأفعاله وتقريراته، أي الأخذ بسنته وطاعته في ما أمر ونهى، واتباعه فيما فعل، وقال النبي صلى الله عليه وآله: "إني مخلف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فلا تتقدموهما فتمرقوا ولا تتأخروا عنهم فترهقوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم وأنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة". وقال صلى الله عليه وآله: "أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق"، إلى غيرها من الروايات الكثيرة المتواترة الشائعة.

وهذه الروايات التي أمر النبي صلى الله عليه وآله فيها باتباع الأئمة من أهل بيته هي دليل حجية أقوالهم وأفعالهم، فمن أين نأتي بالإجازة من الله سبحانه وتعالى للعمل بدليل العقل، بالإضافة إلى ما بينت من دليل العقل العملي.

ولكن على الرغم من كل ذلك لو سألنا من أين لنا إجازة من قبل الله أو من النبي (ص) بأن نعمل في دينه بأقوالنا؟ خاصة إذا نظرنا في كلمات أمير المؤمنين (ع) في ذم القضاة الذين نصبهم الخلفاء الذين من قبله حيث قال: "ترد القضية على أحدهم فيحكم فيها ثم ترد على غيره فيحكم فيها بغير ما حكم به صاحبه ثم يجتمعان إلى إمامهما الذي استقضاهما فيصوب آراءهم" إلى أن قال عليه السلام: "وأُنزل الله ديناً ناقصاً فاحتاج إلى عقولهم ليكملوه، أم هم شركاؤه فلم أن يأمره وعليه أن يرضى".

¹ الحشر: من الآية 7

² النساء: من الآية 64

³ الأحزاب: من الآية 36

فإذاً لا يوجد هناك دليل من الشرع على حجية دليل العقل، وقد بينا حاله من أنه لا يتعلق ولا ينظر إلا عن طريق المرآة المنتزعة من عنده، إلا أن نقول بالجزم والقطع، وهذا باب آخر قد يطول الكلام فيه في الوقت الحاضر، ولكننا نقول إن الجزم بحد ذاته لا يشكل ديناً ولا يشكل علماً، وربما جزم الإنسان بأمر ولكنه خلاف الدين، وخلاف العلم، كأهل الجاهلية الذين جزموا بصحة عبادة الأصنام، وضحوا بالغالبي والنفيس والأرواح في صيانة هذا الاعتقاد، وهم لا إشكال جازمون بصحة ما هم عليه، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى سماهم ظانين وسماهم يخرصون، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾¹، مع أنهم في الواقع جازمون وقاطعون، ومجرد الجزم والقطع لا يجعل المجزوم به والمقطوع به علماً حتى يكتسب الحجية، بل إن الله سبحانه وتعالى خلق للعلم طرائق عند الإنسان، فهو خلق له العينين والشففتين واللسان وخلق له اليدين والأذنين.

فإذاً مصادر العلم هي الحواس الخمس، الشم والسمع والنظر وغير ذلك، ومنها تأتي المعلومات، وكذلك تأتي أيضاً المعلومات من الفطرة، وأما ما خرج عن الفطرة وعن الحواس الخمس فلا يستحق أن يسمى علماً إلا أن يكون قد جاء عن طريق البرهان التي تكون مقدماته قد جاءت من الطرق العلمية، ولكن عندئذ تكون حجيته ذاتية أي لا تنطبق إلا على من قام عنده البرهان، هكذا نص على ذلك ابن سينا في كتابه [الشفاء] وغيره من الفلاسفة الكبار من أن حجية البرهان ذاتية؛ بمعنى أن العلم البرهاني لا يكون حجة على غير من قام عنده البرهان، والفقهاء إنما يريد حجة عامة إذا قامت تقوم عليه وعلى غيره حتى يصح تقليده فيما توصل إليه، وعندئذ لا يكون العلم البرهاني النظري حجة بالنسبة لغير من قام عنده البرهان، هذا عند الفلاسفة، وأما عند المتشعبة فإنهم يحتاجون إلى دليل شرعي يثبت حجية هذا البرهان أيضاً.

¹ الجاثية: 24

سؤال: شيخنا قد ذكرتم أنه إذا كانت هذه المباني على عدم حجية العقل والإجماع كدليل أو كمدرك، فعلى ماذا اعتمدت مدرسة المجتهدين في حجيتهما؟

طبعاً الذي ينظر في الجزء الثاني من كتاب [أصول المظفر] - وهو أستاذنا رحمه الله وقد درست على يديه - يرى أنه يحتج على دليل العقل بالقطع، ويرى أن القطع هو حجة الحجج، ثم يستدل على حجية هذا القطع بأن حجية العلم ذاتية، وقد قلنا بأن القطع بمعنى الجزم ليس هو دائماً العلم، قد يكون القطع علماً وقد يكون القطع وهمياً، سلوا بعض العجائز في هذه القرية إن كانت تؤمن بوجود [أم حمار] أو لا تؤمن، وحاولوا أن تقنعوها بأن الله لم يخلق خلقاً اسمه [أم حمار]. هذه قاطعة جازمة ولكن القطع هنا بأمر وهمي، فمجرد الجزم ومجرد القطع ليس دائماً علماً. العلم هو حصول صورة الشيء عند العقل، فالصورة الحاصلة عند الشيء في الذهن تسمى علماً وأما حصول صورة شيء آخر بدعوى أنها صورة ذلك الشيء لا تجعله ذلك الشيء، فالذي لم ير الجمل في حياته أولم ير الزرافة في حياته وأراد أن يرى الزرافة وقالوا له إن الزرافة تعيش في بلاد العرب، وخرج إلى بلاد العرب فرأى جملاً فاعتقد أن هذا الحيوان هو الزرافة، لماذا؟ لأن رقبتها طويلة، وأرجلها أيضاً طويلة، وذيلها قصير، وأذانها صغيرة، فهذه صفات الزرافة قد توافرت فيها، ورجع إلى بلاده وذهب حديقة الحيوان فرأى شيئاً فقالوا له إن هذه هي الزرافة، طبعاً لا يقبل ذلك، فلو فرضنا أنه أصر على أنه قد رأى الزرافة الحقيقية في بلاد العرب وأنها ليست هذه، في هذه الحالة فإن الصورة التي حملها للزرافة هل هي فعلاً صورة الزرافة؟! وهل هذا الإنسان يقال عنه أنه علم بالزرافة؟! لا يعلم بالزرافة، وهو جازم لكن جزمه ليس علماً.

فليس كل جزم هو علم حتى يصح استدلال أستاذنا بأن حجية العلم ذاتية، صحيح أن حجية العلم ذاتية، لكن حجية القطع ليست بذاتية، يقول الصادق عليه السلام كما في رواية المحاسن: "ما من قومٍ إلا وهم يجزمون بما هم عليه، إلا أنكم قد أخذتم بشيء له أصل"، فإذا يجب

أن يكون القطع معتمداً على أصل شرعي، فإذا كان كذلك يكون حجة، لا لكونه حجة في حد ذاته، ولكن لأن الأصل الشرعي الذي اعتمد عليه هو حجة.

سؤال: ألا ترون أن النظرية الوسط التي تفضلتم بطرحها - الفطرة - هي من شؤون العقل حيث إن من ليس له عقل لا يدركها، وهذا ما يراه المجتهدون؟

جواب: هذا مثل ما قلت لكم، أنه لقيني شخص في الطريق وقال بأن المحدثين يشترطون أن الفقيه لا عقل له حتى يقلد. ليس العقل بمعنى الإدراك هو موضع الخلاف، وإلا فبأي شيء يدركون كتاب الله، وبأي شيء يفهمون كلام رسول الله، وبأي شيء يحللون حتى تقول أن من ليس له عقل لا يدركه؟!، طبعاً المجنون ليس بمكلف حتى يشترط الجنون بالفقيه. نحن نقول دليل العقل ولا نقول الإدراك أو العقل العادي الذي يتعامل به الناس في حياتهم وبه يفهمون وبه يتكلمون.

سؤال: إذن شيخنا هناك فرق بين الإدراك وبين العقل كدليل؟

جواب: قلنا إن الخلاف عندهم ينحصر في الأدلة العقلية التي تنتج من العقل النظري كالتحليل والاستحسان والمصالح المرسله والرأي ومما ينتج من الدليل من العقل العملي الذي هو الحسن والقبح، وطبعاً كل هذا يدخل في الدليل الاجتهادي.

سؤال: إذن بهذا الإطار نحن نؤطر الدليل العقلي؟

جواب: المجتهدون من الشيعة لا يقولون بحجية كل معطيات الدليل العقلي، لا، حاشهم ذلك، وإنما يقولون بنوع واحد من الدليل العقلي وهو الاعتماد على نتائج العقل العملي الذي هو نتائج التحسين والتقبيح العقليين.

سؤال: سماحة العلامة، لماذا لا توجد في الآونة الأخيرة مدرسة مهيمنة تمثل الحركة الفكرية لمدرسة المحدثين كما حصل في زمن صاحب الحدائق [قده]؟

جواب: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ﴿وَتِلْكَ الْاَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾¹. وأعتقد بأن هذا كافٍ ولا تحتاج إلى توسعة. لابد للإنسان إذا أخذ بأسباب القوة وبأسباب الحياة أن يقوى وينتشر، وإذا أهمل أسباب القوة وأسباب الحياة يضعف ويموت. أضرب مثلاً ببلاد القطيف وسيهات من صفوى إلى سيهات فإن طلبة العلم الذين فيها من المحدثين قليلون، لماذا لا يوجد عدد كافٍ من الطلبة؟ لأن الناس لا تبذل لهم، طيب، إذا كان الناس لا يريدون أن يبذلوا لهم من جيوبهم، لماذا لا يدفعون لهم من الحق الشرعي؟! أليس الحق الشرعي موضوع في الأولوية لطلبة العلم؟! فإذا صار قطر كبير مثل هذا القطر بهذه المثابة، فالعلم ينقرض بموت حامله، ولا ينتشر، وإنما عماد الأمر وعماد حياة الأمم على المال والعلم.

بالمال والعلم يبني الناس أمرهم ماقام أمرٌ على جهلٍ وإقلالٍ

وبطبيعة الحال كما ذكرت، بالإضافة إلى تلك الآية وأن هناك سنة كونية وتداول الأمر بين الناس كذلك الأخذ بأسباب الحياة غير الأخذ بأسباب الموت.

سؤال: شيخنا الحجة، مسألة تقليد الميت من المسائل التي أخذت جانباً مهماً في الساحة العلمية، هل أن المحدثين هم الذين تفردوا بجواز تقليد الميت؟

جواب: أولاً ما هو التقليد؟، التقليد هو رجوع الجاهل إلى العالم، وهذا بناء عقلائي لم يخترعه الإسلام بل كان الناس من أقدم الأزمان، الجاهل منهم بالشيء يرجع إلى العالم به، ولكن هذا البناء العقلائي لا يميز بين عالم وعالم في أي صفة من الصفات، فمثلاً الناس لا يهتمهم أن يكون المهندس ممن يضرب بالطنبور أو ممن يصلي في المحراب، المهم أن يأتي ويعمل لهم الخارطة التي يريدون، وكذلك سائر المهن الأخرى. الشرع المقدس بالنسبة للعلماء الذين ينبغي الرجوع إليهم

¹ آل عمران: من الآية 140

لأخذ أحكامه اشترط فيهم شروطاً وصفات معينة، ولم يجز الرجوع إلى كل عالم، وهذه الشروط طبعاً معروفة؛ وهي الذكورة والإيمان والبلوغ والعقل والفقہ. وفي مرسله الإمام العسكري صلوات الله وسلامه عليه حين قال: "فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه، ولا يكون ذلك إلا لبعض فقهاء الخاصة وأما من ارتكب مراكب العامة فلا ولا كرامة"، فهذا الحديث الشريف بين الشروط التي تجب في الفقيه الذي يُرجع إليه في أخذ الأحكام الشرعية، وأن من يرتكب مراكب العامة فلا يجوز الرجوع إليه.

فلو عرفنا مثلاً أن فقيهاً من الفقهاء قامت عنده حجية القياس أو الاستحسان أو غيرها من هذه المراكب التي يرتكبها العامة، فعندئذ لا يصح الرجوع إليه، فهذا الحديث الشريف الذي حدد الشروط التي يجب أن تكون في المرجع أو في الفقيه كالإيمان والعدالة و لم يذكر من ضمنها الحياة مطلقاً. ولذلك فإن بعض الفقهاء وليس فقط المحدثين وإنما هناك أيضاً من الأصوليين من ذهب إلى جواز تقليد الميت، ومنهم من ذهب إلى وجوب تقليد الحي، ولكن المحدثين بقضهم وقضيضهم إلا من شذ وندر منهم كلهم على القول بجواز تقليد الميت ابتداءً واستدامة.

ولهم على ذلك أدلة، ومنها قول النبي صلى الله عليه وآله: "يموت المرء إلا من ثلاث، صدقة جارية له في حياته فهي تجري له بعد وفاته، وولد بار يستغفر له، وكتاب علم ينتفع به" - وفي رواية أخرى، وكتاب علم يعمل به -.

وأيضاً قوله صلى الله عليه وآله: "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"، فإذا كان تقليد الميت لا يجوز فكيف له أن يتحمل الوزر، فلو فرضنا أن أحداً قلده بعد موته بمئتي سنة وأراد الله أن يعطيه ثواب ما عمل فلا بأس، ولكن لو أن أحداً قد قلده في البدعة التي ابتدعها بعد مئتي سنة أو بعد ألف سنة هل يحمله وزر عمل من قلده، كيف يكون كذلك؟، وبذلك يستطيع هذا أن يحتج في يوم القيامة ويقول لله بأنك نفسك قد منعت تقليد الميت وهذا قلدي بعد أن مت، فكيف لي أن أتحمّل نتيجة اتباعه ونتيجة عمله!!؟

وأيضاً قول الصادق صلوات الله وسلامه عليه: "يقال للفقهاء يوم القيامة قم حتى تشفع فيمن أخذ منك وتعلم منك، فيقوم ويشفع في فئام وفئام وفئام - أوصلهم الإمام عليه السلام إلى عشرة، ثم قال - وهم الذين أخذوا منه، والذين أخذوا ممن أخذ منه".

وأيضاً عن الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه: "من علم شيئاً كان له أجر من عمل به إلى يوم القيامة قال السائل: وإن مات؟ قال عليه السلام: وإن مات جرى له مثل ذلك".

نعم. المحدثون عندما ذهبوا إلى القول بذلك لأنهم أيضاً يقولون إن الفقيه إذا كان يعمل بكتاب الله سبحانه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وبأقوال الأئمة عليهم السلام، تكون الفتوى التي يفتي بها عبارة عن رواية بالمعنى، ولا يوجد عالم يقول إن الرواية تموت بموت راويها، وإلا لو كانت الرواية تموت بموت راويها لكانت كتب الروايات كلها قد بطلت.

ولذلك يقول أستاذنا السيد محمد تقي الحكيم [فرج الله عنه وأنجاه] في كتابه [الفقه المقارن] عند بحث أصول الفقه المقارن عند باب وجوب تقليد الحي، قال: إن هذا النزاع ينحصر بين الأصوليين من الشيعة وأتباع المذاهب الأربعة من السنة، ولا يصح أن يشمل المحدثين من الشيعة لأن المحدثين من الشيعة إنما يعملون بالكتاب والسنة فتكون الفتوى رواية بالمعنى، ولا يقول أحد إن الرواية تموت وتسقط بموت راويها، فهناك فرق كبير بين الفتوى المعتمدة على الرواية وبين الفتوى التي تكون رأياً؛ ولذلك لا يجوز المحدث مثلاً أن تقول هذا رأي الشيخ حسين، فلو سمعك الشيخ حسين تقول ذلك لم يقبل منك ذلك، لأن الشيخ حسين ليس له رأي، وهذا بخلاف الفقيه المجتهد الذي يقول هذا رأياً؛ لأنه نتيجة جهد عقلي وجهد بشري. فالمحدث يقول إن هذا مجرد ما فهمته من الكتاب والسنة وليس لي رأي في الموضوع، وهذا هو الفرق بين الرواية وبين الرأي.

سؤال: شيخنا الحجة، كيف يمكننا التوفيق بين الرجوع إلى الفقيه الميت وبين متطلبات الحياة المعاصرة، بمعنى أنه كيف لنا أن نتعامل مع المسائل المستحدثة؟

جواب: معظم ما يسمى بالمسائل المستحدثة ليست مستحدثة، نعم موضوعاتها مستجدة لكنها ليست مستحدثة. فعندما يريد الفقيه أن يتكلم عن الصلاة في المحطة الفضائية مثلاً أو الطائرة فهو إنما يطبق عليها قواعد الصلاة في السفينة، وهي فعلاً سفينة لكن موضوعها قد تغير. كانت السفينة بشرع وتمشي في البحر وصارت السفينة ببنايين وتمشي في الجو، وطبعاً فإن حكم الصلاة في السفينة موجود. بعض العلماء يقولون - وأنا لم أراه - أن شخصاً ألف كتاباً ومن ضمن ما كتبه فيه أنه يجوز الاستجاء بأباريق النايلون، والإبريق هو إبريق سواء أكان نايلون أو صفر أو ألمنيوم، ولا أعلم صحة هذه الحادثة - فمعظم المسائل التي تسمى بالمسائل المستحدثة ليست مسائل مستحدثة، حتى المسائل المالية والاقتصادية مثل التعامل مع المصارف والبنوك أو تشييد المصارف وتشييد البنوك.

أضرب لكم مثلاً ببنك البحرين الإسلامي، فقد حاولنا أن نجد نظريةً فقهيةً تفتح لنا باباً لنشيد بنكاً على الطريقة الإسلامية، ويستطيع هذا البنك أن يقوم بجميع الأعمال المصرفية العصرية، ولم نجده عند الأخوان من المذاهب الأربعة؛ ولذلك فإن البنوك السعودية فيها جهات ناقصة ولا تقوم بجميع الأعمال المصرفية كبنك الرياض الذي لا يوجد عنده قسم الصرافة أو الكمبيوتر وغير ذلك من الأقسام الأخرى التي تقوم بها البنوك، كل ما هناك هو بنك تجاري. وفي موضوع الحوالة حاولنا عند فتح المشروع أن نجد مخرجاً عند فقهاء الشيعة لكي نقيم عليها نظام هذا البنك وأن نطبق عليها مثل القواعد، فلم نتمكن، وأين وجدنا هذه القواعد؟ عند الميتين.

ارجعوا إلى الرسائل العملية في باب المضاربة تجدون أن المضاربة والمزارعة والمساقاة يجب أن تكون بين اثنين، ولا يجوز أن تكون بين أكثر من شخصين، ويوجد هنا طلاب للعلم وهم يعرفون ذلك، وبطبيعة الحال فإن نظام البنوك يقوم على المضاربة، فإذا كانت المضاربة تقوم بين اثنين فكيف نستطيع أن نفتح بنكاً؟! الناس سنأتي بأموالها فعندئذ يجب على البنك ان يفتح نوافذ بعدد المشروعات، هذه نافذة المشروع الفلاني وهذه للمشروع الفلاني وهكذا وكل شخص يأتي ويتوجه ليضع أمواله في نافذة المشروع الذي يعتقد بنجاحه وبريحه ويترك نافذة المشروع الذي لن

يربح بحسب نظره. أولاً نجد أن بعض المشروعات لن تحصل على أي فلس فيفشل فيها البنك، وبعض المشروعات تزيد فيها الأموال التي لا يحتاج إليها كلها ويتورط البنك في كيفية العمل في هذا المشروع، وبعد ذلك وإذا بالمشروع الذي وضع جميع الناس أموالهم فيه يخسر، فمن أين للبنك أن يعطي أرباحاً للمودعين الذين شاركوا في هذا المشروع؟! ولو فرضنا أن أموال الناس قد وزعت على عدة نوافذ وعلى عدة مشاريع وهذا المشروع قد ربح وذاك الآخر قد خسر، وأتى البنك وأخرج نشرته السنوية ذاكراً أن فلاناً له كذا في المئة من أمواله ربحاً وفلاناً آخر عليه أن يدفع كذا خسارة، فهل يمكن أن يستقيم مشروع بهذه الطريقة؟ لا يمكن. حسناً، هل يعمل بنك ويسمى بنكاً إسلامياً بدون أي سند شرعي؟ لا يمكن.

وجدنا في آخر الأمر أن صاحب الحقائق رضوان الله عليه يقول: "يجوز أن تكون المساقاة ويجوز أن تكون المزارعة ويجوز أن تكون المضاربة بين أكثر من شخصين"، فهذه لما وجدناها قدرنا أن نبنى فقه قانون البنك البحريني الإسلامي على أساسها، ولما عمل القانون وكانت بعض الدول مشاركة فيه كالسعودية والكويت ودول سنية أخرى، وهم بالتأكيد يريدون أن يجدوا مخرجا لدخولهم في هذا البنك، فأرسلوا بخبير كان يدرس الاقتصاد في جامعة محمد بن سعود أو في جدة اسمه [محمد عبده] وكان مسيحياً وقد أسلم، وجاء هذا الرجل إلى البحرين ولكنه لم يفهم الفقه الذي بني عليه هذا القانون، فقال: كيف تكون هذه الطريقة، فقلنا له: لا يمكن فتح بنك إلا بهذه الطريقة، فقال: إننا فتحنا بنكاً في السعودية! قلت له: إنكم لا تستطيعون أن تقوموا بجميع الأعمال البنكية، وهناك أعمال بنكية كثيرة لا تتناولونها لحد الآن لعدم وجود سند عندكم تعتمدون عليه، على أي حال بعد ذلك رضخوا ولم يسحبوا أموالهم لأننا قلنا لهم بأنهم إذا كانوا لا يرغبون بالاشتراك فبإمكانهم أن يسحبوا الأسهم التي اشتروها، ولكنهم بعد ذلك قالوا إنه إذا كان هناك مذهب إسلامي يجوز ذلك فلا بأس.

المهم هو أن الحل إنما وجدناه في كتب الأموات، فإذاً ليس كل ما يسمى بالمسائل المستحدثة هي مسائل مستحدثة، ولكن لو وجدنا أو فرضنا أنه وجدت مسألة لم يذكرها المتقدمون

فهذا لا يقتضي أن الإنسان عندها يبطل تقليد المتقدمين، يعني لو فرضنا بأن الفقيه حي ولم يفت في هذه المسألة - وتوقف - ألا يقلدون غيره في هذه المسألة؟ أم يعدلون عنه تماماً؟! طبعاً لا أحد يقول بذلك لأن هذا الفقيه قد توقف في هذه المسألة أو قال إن الأحوط وجوباً في هذه المسألة فأنا لا أعدل عنه في هذه المسألة أو أقلد غيره وأعدل عنه تماماً، لا أحد يقول بذلك. فإذا كان لا يقال للحي الذي توقف في المسألة أو لم يذكر المسألة أصلاً في كتابه أنه يجوز العدول عنه في جميع المسائل لماذا يقال بالنسبة للميت الذي لم يذكر المسألة في كتابه أنه يجوز العدول عنه بالكلية!، لا، كما أنه في حالة أن الفقيه الحي الذي لم يذكر المسألة في كتابه يُقَدَّ غيره من الفقهاء الذين ذكروا المسألة في كتبهم كذلك الميت لو لم يذكر المسألة في كتابه يجوز تقليد غيره ممن ذكر المسألة في كتابه سواء أكان ذلك الذي ذكر المسألة حياً أو ميتاً، وعندئذ فالمسائل المستحدثة لا تتنافى مع تقليد الميت.

وأنا لذي سؤال إلى الدعاة الذين يروجون للمسائل المستحدثة، أقول: إن الله سبحانه وتعالى أنزل كتاباً وبعث رسولاً، وقال سبحانه وتعالى في كتابه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّعَكُمْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بِدَلَالِكُمْ﴾¹. وهذه الآية بينت أو دلت على أن هناك قسماً من الأمور أو المسائل أو الموضوعات لم يبينها الله لعباده وهو لا يريد أن يبينها لهم حتى لا يتكفوها، والنبي صلى الله عليه وآله أيضاً يقول: "إن الله أمر بأشياء فاتبعوها ونهى عن أشياء فذروها وسكت عن أشياء فلا تتكفوها".

أقول للذين ينادون ويصرخون بالمسائل المستحدثة، هل هذه المسائل موجودة في الكتاب والسنة أو غير موجودة؟ فإن كانت موجودة في الكتاب والسنة فلا بد أن الفقهاء من أيام.....²

¹ المائدة: من الآية 101

² فراغ في الشريط والسياق يقتضي أن التكملة على النحو التالي: فلا بد أن الفقهاء من أيام الأئمة ناقشوها وتعرضوا لها وإذا لم تكن موجودة في الكتاب والسنة فاتها مما سكت الله عنه وأمرنا بالسكوت عنه.

سؤال: سماحة الشيخ، الرجاء ذكر أسماء المجتهدين من الأصوليين الذين أجازوا تقليد الميت. وادعى البعض من أن هناك فتوى للشيخ حسين تنص على عدم جواز تقليد الميت، فما هو قولكم؟
جواب: طبعاً الأصوليون الذين أجازوا تقليد الميت كثيرون، منهم صاحب القوانين رحمه الله، ومن الموجودين الشيخ محمد علي الأراكي والسيد علي الخامنئي وغيرهم كثير أيضاً من الموجودين الذين يقولون بجواز تقليد الميت. وأما الشيخ حسين فما وجدنا له في كتبه ما يمنع من تقليد الميت بالطريقة التي نقلها عنه المرحوم الشيخ فرج بن العمران في أحد كتبه والشيخ حسين القديحي في منظومته، ولكن في شرح كتاب السداد لحفيد الشيخ حسين رحمه الله وهو الشيخ عبد علي بن الشيخ خلف بن الشيخ حسين وجدت عبارة استوقفتني، وفي هذه العبارة يقول: "ونحن نحمد الله الذي لم يمت شيخنا إلا وهو على القول بجواز تقليد الميت".

وطبعاً من هذه العبارة يفهم أن الشيخ حسين رحمه الله كانت له فتوى سابقة بعدم جواز تقليد الميت ثم عدل عنها، يعني يفهم من هذه العبارة، وإلا فتوى صريحة في عدم جواز تقليد الميت كما نقل عنه، لم أجد، وكذلك في شرح المفاتيح هناك عبارة وربما تكون هذه العبارة هي التي اعتمدها الشيخان المرحومان [الشيخ حسين بن الشيخ علي القديحي رحمه الله والشيخ فرج رحمه الله] وهذه العبارة في شرح المفاتيح تقول: "وقد عادت الشيعة في زمن الغيبة بعد علمائها بالخيبة إذ لم يبق لهم إلا الأموات من إحدى الفئتين الذين لا يجوز تقليدهم مع وجود الفقيه الجامع في البيت"، ففهم منها الشيخ فرج بأنه لم يبق من العلماء إلا أما أصولي حي أو إخباري ميت، وهذان مع وجود الفقيه الأخباري الحي لا يجوز تقليدهم، هكذا هو فهم.

على أي حال فإنني حسب تتبعي القاصر وجهدي القليل لم أقف على عبارة صريحة في عدم جواز تقليد الميت للشيخ حسين في نفس كتبه، وربما إذا كان هناك من الأعلام أو بعض العلماء قد وقف فعليه أن يتفضل علينا ويخبرنا عن أي كتاب هي فيه حتى نرجع إليها ولا نبقى على جهل بكل أقوال هذا الشيخ الكبير.

سؤال: شيخنا الحجة، تعرضت بعض الأقلام في الآونة الأخيرة إلى مدرسة المحدثين، فما هو موقف العلماء منها؟

جواب: طبعاً هذه الأقلام التي تعرضت لم تنتقد المحدثين انتقاداً علمياً حتى يكون للعلماء رأي منها، لأن العالم إنما يهتم وإنما يبحث عن النقد العلمي وينظر فيه إن كان صحيحاً فيتبناه أو كان خطأ فيرد عليه. هذه الأقلام التي تعرضت للمحدثين في الآونة الأخيرة هي مجرد شتم وسباب كتعرض الوهابيين للشيععة، وبطبيعة الحال فإنه ليست من شيمة العلماء متابعة الشتامين ومجاراتهم في الشتم واللعن، ويقول الشاعر:

لو كل كلبٍ عوى ألقمته حجراً لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

وحسب هؤلاء أن التاريخ سيسجل عليهم أنهم لا يفقهون شيئاً ولا يعلمون.

سؤال: سائل يسأل بأن هناك فتاوى لبعض المراجع على عدم جواز تقليد الميت، فهل هذه الفتوى تخص من يقلد من يقول بجواز تقليد الميت ابتداءً؟

جواب: هذا رأيه هو، وحتى الذين يقلدونه لو مات يكونون أحراراً ولهم أن يقلدوا من يشاؤون غيره حياً أو ميتاً.

سؤال: لماذا لا يوجد كتاب فتاوى لمقلدي الشيخ حسين بديلاً عن السداد لصعوبة عبارته؟

جواب: هذا يرجع للعلماء الذين يقلدون الشيخ حسين رحمه الله، فعليهم هم أن يلخصوا فتاواه ويخرجوها في قالب مبسط تكون سهلة على الناس.

سؤال: شيخنا بالنسبة للتبعيض، الإخوة يريدون أن يتعرفوا على هذه المسألة الفقهية، بمعنى أنه لو لم يكن هناك حكم عند الفقيه فهل يجوز الرجوع لغيره؟

جواب: قلنا في ذلك نعم، إنه في حالة أن الفقيه لم يفت في المسألة يجوز أخذ تلك الفتوى من غيره بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون مساوياً له أو هو أعلم منه.

الشرط الثاني: أن يكون على نفس طريقته ومشربه.

سؤال: إذا كان المسلك الأخباري هو المسلك الصحيح، فلماذا نرى الأمة الشيعية بأكملها من علماء وعوام لم يتبعوا هذه المدرسة؟

جواب: لو سألك السني وقال لك إذا كان مذهب الشيعة هو المذهب الصحيح، فلماذا نجد الأمة ومنذ 1400 سنة بغالبيتها لم تأخذ به وفيهم المراجع والفلاسفة والمتكلمين، ما تجيب به السني هو جوابنا.

سؤال: هل هناك مرجعية معاصرة لمدرسة المحدثين؟

جواب: موجودة نعم، فهناك الشيخ محمد أمين زين الدين أيده الله يرجع إليه الكثير في البحرين وغيرها، بل في الآونة الأخيرة غالب العراق رجعت إليه ومن مختلف الشعب.

سؤال: شيخنا الحجة، هناك مقولة للسيد الصدر في كتاب (الفتاوى الواضحة) يقول: (أنا أعتمد الكتاب والسنة كدليل، وكذلك أعتمد العقل والإجماع كدليل وإلى الآن لم أجد مسألة أحتاج فيها إلى غير الكتاب والسنة أو مسألة لم يتعرض لها أهل البيت في فقههم). هل يكون ذلك رأيه النظري وهو غير رأيه العملي؟

جواب: الحمد لله، أولاً أن هذا الاعتراف اعتراف طيب في أن الشيعي لا يحتاج إلى غير الكتاب والسنة من أدلة، وثانياً نقول إذا كان الكتاب والسنة كافيان وإفیان فما الداعي للأخذ بالعقل النظري، هل هو من باب الزائدة الدودية في أصول الفقه؟! والشيء الثالث هو إذا كان السيد رحمه

الله قد اعتمد في كل المسائل على الكتاب والسنة ولم يأخذ بدليل العقل فكيف يرد على الروايات التي ذكرناها في جواز تقليد الميت مع أنه يقول بعدم جواز تقليد الميت!!؟

سؤال: شيخنا، لكم أطروحة في النجف الأشرف منذ عشرين عاماً تقريباً هو كتاب الاجتهاد والتقليد، فما أهمية هذا الكتاب وعلى ماذا يحتوي؟

جواب: هذا الكتاب في الحقيقة كتبته في بداية التحصيل العلمي ولم يكن في ذلك الوقت عمري يزيد على 22 سنة، وكتبته بصورة سريعة مستعجلة، وفي مدة لا تزيد على الخمسة عشر يوماً، وكان ربما يكون رد فعل أكثر منه بحثاً علمياً، بل صرحت في مقدمته بأنني لا أخوض هذه المسألة من أجل البحث فيها وإنما أنا سبقاً وسلفاً ملتزم بأمر ما، وكل هدفي منه هو أن أدافع عما التزم به وأهدم ما يلتزم به غيري. وطبعاً كان يدور هذا الكتاب حول كلمتي الاجتهاد والتقليد.

الشيخ علي المعلم: عوداً على بدء، طلب بعض الأخوة تعريفاً لسماحة الشيخ.

قلنا إن الشيخ من طليعة ومن أبرز تلامذة المرجعين الراحلين الكبيرين السيد محسن الحكيم والسيد أبو القاسم الخوئي، وكذلك من أقرانه في الدراسة في هذه المنطقة هم الشيخ الفضلي وسماحة السيد علي الناصر، ومن أقرانه في الدراسة من الخارج هم السيد عز الدين بحر العلوم وكذلك السيد حسين بحر العلوم وكذلك الشيخ الأصفي وغيرهم من الأعلام والمفكرين.

هناك أسئلة كثيرة ولكن ضاق المجال عن ذكرها، ونشكر سماحة الشيخ على تفضله وعلى حضوره وعلى تحمله أعباء السفر والمجيء إلى هنا لخدمة المؤمنين، وللإجابة عن هذه الأسئلة المحيرة التي لا يزال البعض في حيرة من أمرهم، وكما أوضحنا لكم فإن شيخنا هو رائد الطليعة المؤمنة في البحرين ومن أبرز العلماء والمفكرين الذين يتبعون فكر صاحب الحقائق والشيخ حسين، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يمتعنا بوجوده مع طيلة عمره.

والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

سماحة الشيخ: نشكر الجميع كثيراً على ما صبروا عليه من استماع، وأشكر فضيلة الشيخ علي المعلم على ما قام به من لم الشمل والاجتماع بكم، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً للعمل على رضاه والفوز بقربه، والحشر جميعاً مع زمرة محمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

كلمة في تأبين الشيخ يوسف والشيخ حسين*

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على محمد وآله الشرفاء، والسلام على العلماء الأعلام، والأدباء الكرام والأخوة الأعزاء الكرام جميعاً ورحمة الله وبركاته. ما أريد أن أتكلم عنه من الأصول العامة بمنهج الشيخين العلمين المحققي بهما قد أشبعه الدكتور محمد علي الستري كلاماً، فلا بد لي أن آخذ منحىً آخر في كلامي عنهما. إنه لما يحز في النفس أن يكون الاحتفال، والاحتفاء بذكرى هذين العملاقين في مثل هذا المستوى، وفي البحرين بالذات التي أنتجتهم، والتي تفخر بهما. ولكن لا عجب في ذلك، فنحن نعيش الآن في ظروف مشابهة تماماً للظروف التي عاشها العلمان الشيخ يوسف والشيخ حسين رحمهم الله.

ولدا، وبالأخص صاحب الحقائق في أواخر الدولة الصفوية وهي على أبواب انهيارها وسقوطها، وكان يرأسها في ذلك الوقت الشاه حسين الصفوي، الذي كان قد لهى عن تدبير المملكة باللعب والعريضة، وحتى أنه لولا قيام الشيخ المجلسي رحمه الله بتدبير شؤون الحكم في إيران في ذلك الوقت لكان قُضي على البلاد الإيرانية بسبب ذلك.

وقد كانت البحرين في ذلك الوقت من توابع هذه المملكة، كانت مركزاً للفتن والحروب والأحزاب، فكان الخوارج يهاجمونها من الشرق والجنوب، وكانت الوهابية قد ظهرت في شبه الجزيرة العربية وأخذت تآزراً. المماليك في مصر كانوا يعيشون في المنطقة إشعالاً للفتن. والأساطيل التابعة للدول الأوروبية الناشئة كانت تعج بها مياه الخليج.

يكفي كما يقول صاحب الحقائق في اللؤلؤة - ونادراً ما يتعرض علماء الرجال مع الأسف للظروف التي تمر بهم - [أن بعض القبائل العربية ويعبر عنهم بالبداة قد هاجموا البحرين، ولم يمكن استرجاع البلاد منهم إلا بدفع المال من قبل الدولة]. العمانيون هاجموا البحرين في أيام صغره وعاثوا فيها لعباً وفساداً، وحتى بيت والده لم يسلم من ذلك الهجوم، وأخذ منهم كل ما يملكون من أثاث ومن كتب ومن أدوات، وحتى أن والده - كما يقول هو في اللؤلؤة - أرسله إلى

القطيف والإحساء يتسقط الكتب التي قد أخذها البدو ليشتريها منهم من جديد، فالهجمات كانت مستمرة من الخارج، والفتن كانت تستعر في الداخل، في الوقت الذي كان فيه صاحب الحدائق طالباً في حوزة البحرين، ومات والده وهو صغير، وتنازلت الهجمات من هنا وهناك، فاضطر إلى الرحيل إلى القطيف وهي أقرب منطقة يستطيع ساكن البحرين أن يفر إليها في أوقات الضيق، وبقي هناك فترة ذهب بعدها إلى إيران، إلى شيراز بالذات، لعله يجد فيها مأوى يحط فيه رحاله، وفي شيراز، أصبح صاحب حوزة ينفق عليها أمير شيراز، وأصبح قاضياً، وأصبح إماماً للجمعة هناك، ولكن هل بقي ذلك له أو رضي له الزمان أن يبقى؟

في ذلك الوقت حصل زعيم الأفغان على فتوى من مكة تبيح قتل الفرس وسبي نسائهم، فقام بمهاجمة إيران واحتلالها مدينة بعد مدينة، ومن المدن التي اجتاحتها جحافل الأفغان، كانت شيراز، وهرب منها إلى فسق، ثم إلى إصفهان، وأخيراً وبعد رحلة استمرت ما يقرب من 25 عاماً وصل إلى كربلاء، أي بخروجه من البحرين إلى أن وصل إلى كربلاء، مع بقائه في القطيف وشيراز وسائر المدن الإيرانية استغرقت كل هذه الرحلة 25 عاماً، وحط رحاله الأخير بجوار الحسين بن علي عليهما السلام.

ولم تكن العراق أفضل حالاً من البحرين أو من بلاد الفرس، كانت الفتن تضطرب، والثورات والانتفاضات والتقلبات على قدم وساق، وخرجت هناك نظرية لم تكن خاصة لصاحب الحدائق، ولكنه توسع فيها، وأصلها، وربما كان للظروف الموضوعية التي كان يعيشها أثر كبير في هذا الشكل وفي هذه التوسعة، هذه النظرية هي نظرية التقية، ونظرية التقية عند صاحب الحدائق ليست كحكم التقية عند المشهور من الفقهاء، فالتقية عند المشهور من الفقهاء هي الكذب لدفع الضرر عن النفس، أما التقية عند صاحب الحدائق فهي تقية المجاملة، والمقصود بها دفع الضرر عن المجتمع الإسلامي ككل، أولاً دفع الضرر عن الشيعة أنفسهم، وثانياً لحفظ الوحدة الإسلامية بين الشيعة وغيرهم.

طبعاً هذه النظرية في ذلك الوقت كانت تعد معوقاً لسياسة نادر شاه الذي خرج في تلك الأزمان في إيران كبطل قومي يريد أن يخرج الأفغان ويسيطر على البلاد، واستطاع أن يكبح

جماح الأفغان، ويخرجهم ولكنه غزا بغداد واحتلها، وكان ليس من صالحه أن يكون المجتمع العراقي متفقاً مع الدولة العثمانية في ذلك الوقت، بل من مصلحته السياسية أن يبقى المجتمع العراقي مضطرباً متناحراً، بين شيعة وسنة، وبين شيعة وعثمانيين، وبين سنة، وعثمانيين، وهكذا.

في ذلك الوقت ويسعي من نادر شاه في إثارة ذلك، طالب الدولة العثمانية إذا كانت تريده أن ينسحب من العراق أن تعترف بمذهب الشيعة الجعفرية كما يسميهم نادر شاه مذهباً إسلامياً رسمياً، وعقد مؤتمر يسمى مؤتمر الكوفة عند بعض المؤرخين، ومؤتمر النجف عند بعض آخر، وفي الحقيقة نقول إنه وجدت جلسة مهزلة وليست مؤتمراً، وقد حضره من قبل العثمانيين الشيخ عبد الله السويدي وجماعته، وحضره من قبل نادر شاه الشيخ نصر الله الحائري وأتباعه، ولا شك أن مسألة معقدة مضت عليها مئات السنين لا يمكن أن تحل بمثل هذا المؤتمر، ومن أجل رغبة فردية آنية مؤقتة، وفشل ذلك المؤتمر فشلاً ذريعاً، خرج عبدالله السويدي وهو يقول إن الشيعة ليسوا أتباع جعفر الصادق، وخرج نصر الله متصلباً وأدى ذلك إلى أخته في الأستانة فقتل.

وفي هذه الفترة جاء رجل من إيران والاحتمال الأكبر أن مجيئه له علاقة بسياسة نادر شاه، ذلك هو الوحيد البهبهاني؛ جاء إلى كربلاء، ولا إشكال أنه عندما جاء إلى كربلاء، كانت كربلاء معقلاً لفكر المحدثين، وأخذ هذا الرجل يعمل ويناهض فكر المحدثين، وصاحب الحقائق يرى أنه لا بد من إرخاء الستر وسد الباب في هذا الموضوع حفظاً للشيعة من التفرقة، والتزاماً بالمنهج الذي اختطه لنفسه وهو منهج تقية المجاملة، وأدى الأمر إلى أن يعلن الوحيد البهبهاني أن المحدثين أهل ضلال، وأنه لا يجوز الصلاة خلفهم، ويُسأل صاحب الحقائق فيقول: ولكنني لا أرى بالصلاة خلفه بأساً.

هذا الأمر أدى إلى اضطراب حبل المحدثين في كربلاء والعراق بصورة عامة وربما التصلب الذي أبداه ابن أخيه الشيخ حسين رحمه الله في البحرين هو ناتج من الآثار السلبية التي أدى إليها موقف عمه صاحب الحقائق عليه الرحمة في العراق، فالآثار السلبية التي أدت إليها سياسة صاحب الحقائق المبنية على الملاينة جعلت ابن أخيه في البحرين يخشى أيضاً من اتباع سياسة الملاينة فيؤدي الأمر إلى أن يفلت زمام الأمر من اليد كما حصل في العراق، وإلا فنحن

عندما ننظر إلى منهج الرجلين، وإلى أصولهما وإلى قواعدهما لا نجد ذلك الفرق الشاسع الذي يقتضي أن تختلف بسببه مواقفهما، فصاحب الحدائق رحمه الله وهو يسير على منهج المحدثين المعتدلين وليس المحدثين المتطرفين كالشيخ عبد الله السماهيجي مثلاً، لكنه يلتزم بالخطوط العامة لمدرسة أهل الحديث والتي تكلم عنها الدكتور محمد علي كثيرا، ولا أراني أحتاج إلى أكثر من لمسات بسيطة، ذلك أنه في نظرية المعرفة وهم يرون أن المعرفة بديهية، والبديهي لا يحتاج إلى استدلال.

يأتي إشكال كبير وهو أن الملحدين هم أيضاً من العقلاء فلماذا أنكروا وجود الله إذا كانت قضية المعرفة بديهية، وإذا كانت المعرفة مخلوقة، وإذا كانت المعرفة فطرية، فلا إشكال أن الفطري أو البديهي لا يلزم أن لا ينكره أحد، وربما يكون الذهن هائماً لا يلتفت إلى بدهية البديهي، وربما يكون الذهن قد أشكل عليه بشبه جعلته لا يرى تلك الحقيقة على وجهها، فينكر وجودها، أو يلونها بلون الإطار العقلي الذي ينظر منه، وهذا لا يعني أن ذلك الشيء ليس فطرياً وليس بديهياً، فالحقائق الرياضية وكل العالم يجمع على أنها بديهية، وعلى أنها لا تحتاج إلى الاستدلال لو أردنا أن نقول مثلاً اثنان زائداً اثنان لا تساوي أربعة، ربما يضحك حتى الطفل الصغير الذي يكون في المدرسة الابتدائية، ولكن هناك فلاسفة لهم مذاهب ولهم نظريات ينكرون هذه الحقيقة، ويقولون إنها ليست مطلقة، فإذا كانت تفاحتان وتفاحتان فإنها تساوي 4، ولكن أحياناً جالونين ماء وجالونين من حامض الكبريت = خمسة جالونات ولا تساوي أربعة، وجالونين ماء وجالونين من الكحول تساوي ثلاثة جالونات ولا تساوي أربعة.

طبعا [ماو سي تونج] رئيس الصين صاحب هذه النظرية، وهو فيلسوف كبير وله مذهب في الفلسفة، لماذا قال هذه المقالة؟ لخطأ بسيط. وهو أنك قلت أن التفاحتين زائداً تفاحتين تساوي أربعة، لكن لو قلت تفاحتين زائداً قلمين تساوي أربعة، إذاً وحد المادة، كما وحدت المادة في مثال التفاح، وحد المادة في مثال الجالونات، تجد المسألة لا تختلف، الخطأ والشبهة جداً بسيطة، لكن هذا لا يعني أنها أمر غير فطري، وغير بديهي، ولكن وهو مندفع في حمأة النظرية الماركسية الشيوعية، وهو يريد أن يجد التبرير الفلسفي العقلي في بعض الترتيبات يأتي فينكر حتى هذه

البديهة، إذا كان الرجل لا يستطيع أن يشغل إلا سبعة عمال فهذا ليس رأس مالي، وإذا تمكن من أن يشغل ثمانية عمال يكون رأس مالي! لماذا قال لأن التغيرات الكمية تنتج تغيرات كيفية، طبعاً هذا لا يقبله أحد، التغيرات الكمية لا تنتج تغيرات كيفية، حتى الماء الذي نغليه ويتحول إلى بخار لم تتغير كيميته، لو تغير تركيبه الذري، لا يعود ماءً، ولكن بالغليان يتوسع ويحتاج إلى حيز أوسع بسبب التبخر، ولكن لا يخرج عن كونه ماء متمدداً للأجزاء.

فاذاً البديهي، والفطري، ليس دائماً لا يختلف عليه العقلاء، المعرفة إذاً مخلوقة، وربما يستدل في كتب الكلام بأدلة كثيرة على هذه النظرية أو على ما يخالفها، ولكنني أقول إن هناك دليلاً بسيطاً جداً.

المعتزلة قالوا، بأن المعرفة نظرية ويجب على كل مسلم أن ينظر ويستدل، فإذا استدل ولم يتوصل إلى وجود الله يقول الجاحظ: إن هذا الرجل معذور وأدى ما عليه، وليس لله أن يحاسبه وأن يعاقبه، وهو يلتزم بذلك، وأما أصحابنا الإمامية الذين قالوا بمقولتهم فإنهم لا يلتزمون بها، لماذا إذاً كان الواجب على الإنسان أن ينظر؟ فلا بد أن نقول إنه إذا نظر وإذا استدل أدى ما عليه فليس لله أن يحاسبه وأن يعاقبه، حتى لو أداه النظر إلى عدم وجود الله؛ فإذا كنا لا نريد أن نلتزم بهذه النتيجة، فلا معنى لأن نقول بهذه النظرية، وكذلك إذا كان يجب أن تكون معرفة الله عن دليل، فيجب أن نحكم على غالبية المسلمين بالهلاك، لأن فطاحل العلماء يعجزون عن إيجاد الدليل، ولا فرق أن تقلد العالم في الدليل أو أن تقلده في نتائج الدليل، فلو أتيت للعالم وقلت له أعطني دليلاً على وجود الله، وأعطاك دليلاً على وجود الله، وذهبت تتغنى بذلك الدليل فإنك في الحقيقة أنت لست من وجد الدليل، أنت قلدت العالم في الدليل، فإذا كان يجوز تقليد العالم في الدليل، فلماذا لا يجوز تقليده في نتيجة الدليل؟!

هذا هو الجواب الحقيقي، لأننا لا بد أن نلتزم بمؤداها إذا كنا نقلده فيها، وبالتالي نحكم على كل من لم يستطع أن يقيم دليلاً أنه من الهالكين، وكلا اللازمين لا يلتزم بهما الشيعة. وطبعاً هناك نظرية ثانية كنظرية الشيخ نصير الدين الطوسي وهو أنه يجوز تقليد الآباء والأجداد، وأنه إذا قلد كان ذلك كافياً، لكن نحن لسنا في حاجة للتقليد في المعرفة، كما لسنا في

حاجة إلى الاجتهاد في المعرفة، ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾¹ سؤال استنكاري يوجهه القرآن للمنكرين لله سبحانه، وهو لا يوجهه لأهل القرآن، وإنما يوجهه للمنكرين لله، لو كان الأمر يحتاج إلى استدلال أو إلى تقليد لكان القول لماذا ليس في الله شك، فالشك غير مستنكر مادامت القضية نظرية، فإذاً هذا من حيث نظرية المعرفة، وأما بقية الأصول أيضاً فلا أريد أن أتكلم عنها، خاصة وأن الوقت ضيق، وقد طال الحفل، ولكن نتكلم عن نظرية ثانية يتميز بها صاحب الحدائق، وإن كان يقر بها غيره من المحدثين الذين سبقوه ولكنه أعطاها صبغة خاصة، وهي نظرية الاحتياط. والاحتياط عند صاحب الحدائق يكون تارة لأننا لم نجد الدليل، فالدين كامل وكمال الشريعة فيما اعتقد يقول به كل الشيعة وليس خاصة المحدثين، ولكن لا إشكال أن كثيرا من أدلة الأحكام لم تصل إلينا، ليس تقصيرا من الله، ولا تقصيرا من الرسول صلى الله عليه وآله، ولا تقصيرا من الأئمة عليهم السلام، وإنما بسبب ظلم الأمة وجورها وتقصيرها، فقدنا كثيرا من الأدلة فنحتاج لسد هذا النقص الذي صادفنا بسبب سوء فعلنا، فماذا نفعل؟ هل نقول إن كل موضوع ليس فيه نص نجتهد فيه بآرائنا وعقولنا؟ لا، لأننا لا حجة لنا على حجية العقل إلا من عند العقل فيكون هو الشاهد لنفسه، وتعود المسألة دورية، ولا يمكن أن نقبل أن يشهد العقل لنفسه بالحجية، ولا يوجد عندنا من يشهد له بالحجية غيره، فإذاً نرجع إلى القول بأصل إباحة الأشياء؟ لو كان قبل الشريعة كان ذلك ممكناً، ولكن ونحن بعد الأربعة وعشرين ألف نبي وأربعة وعشرين ألف وصي كيف نقول إن الأشياء تجري فيها أصالة الإباحة! إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾²، وقد جاءت الرسل وقامت النذر وعندئذ لا بد أن نرجع إلى ما قاله هؤلاء الرسل وهؤلاء الأئمة، فنجد أن الأئمة عليهم السلام كلهم يقولون أخوك دينك فاحتط له، من لزم الاحتياط سار على الصراط.

فإن لا بد من لزوم طريقة الاحتياط في المواضع التي يحصل فيها أحد الأمور: أما أن نفقد الدليل، وأما أن لا يتضح معنى النص، فإذا كانت النصوص مختلفة ومتضاربة على وجه لا

¹ إبراهيم: من الآية 10
² الاسراء: من الآية 15

يستطيع الفقيه أن يستخلص من مجموعها الحكم الشرعي الثابت لديه، ماذا يفعل؟، لا بد له في الأمر من الاحتياط، وكذلك أن يكون هذا الموضوع مردداً بين عنوانات مختلفة وكل عنوان له حكم يخالف الحكم الآخر، وهذا ما يسمى اليوم بالثبته المصادقية، طبعاً ليس للفقيه طريق إلا أن يحتاط، هذا من جهة. هذا وقد توسع صاحب الحقائق في شرحه وتفصيله حتى عدّ بحق أنه فيلسوف الاحتياط.

هناك أمر ثالث جاء به صاحب الحقائق لإكمال الفراغ الذي نتج من جور الأمة وظلمها وهو العمل بشرع من قبلنا، أليس الله قد بعث قبلنا أنبياء، وأنزل كتباً، إذا لم نجد للحكم الشرعي الموجود في الكتاب الذي نزل على نبي من الأنبياء نسخاً في كتابنا أو في سنة نبينا نعمل به، وهذا وجدته أنا قد احتج به صاحب الحقائق في مسألة وهي مسألة نبش قبر الميت بغرض نقل جثمانه إلى مكان آخر، احتج صاحب الحقائق بفعل نوح عليه السلام بإخراج جسد آدم عليه السلام من اليمن وحمله له إلى الغري، وبنقل موسى عليه السلام جسد يوسف إلى فلسطين، فقال إن العمل في هذه المسألة هو بشرع من قبلنا، ولا بد أن يكون هذا الحكم قد نقل عن طريق نبينا أو عن طريق أحاديث أئمتنا ولكن بشرط ألا نجد ما يعارضه أو ينسخه في شريعتنا، وإما إذا كان هذا الحكم منقولاً من مصادر أخرى فلا يمكننا الأخذ به لعدم حجبة الطريق التي بيننا وبين أولئك الرسل الذين سبقونا.

فإذاً العلمان - رحمها الله - أثرا في الفقه الشيعي بصورة عامة وأثرا في الفكر الإسلامي بصورة أعم، إثراء جعلهما موضع التقدير والاحترام في البحوث العلمية في الحوزات حتى يومنا الحاضر. ولعله لهذا السبب فإن الفقهاء الكرام الذين صاروا في البحرين بعدهما لم يدعوا لأنفسهم، وأرجعوا الناس إليهما وإلى من شابههما، وكما قلت فإنه يحز في النفس أن يكون الاحتفال بهذه الذكرى على هذا المستوى، وكان ينبغي أن يُعمل لهما مؤتمر تدعى له الشخصيات العلمية من جميع البلاد وأن تُقدم فيه الأبحاث والدراسات عنهما لا أن يتكلم مثلي في حفلٍ ضيقٍ ومحدودٍ مثل هذا الحفل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في تأبين الشيخ محمد الشيخ منصور الستري*

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وشفيع ذنوبنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين، والسلام عليكم أيها الأخوة المؤمنون جميعاً ورحمة الله وبركاته.

لقد اعتذرت كثيراً للأخوة عن هذا الموقف، ولكنهم أبوا إلا أن يقحموني، أو يركبوني المركب الصعب، فالفقيد كان لي صديقاً حميماً منذ عشرات السنين، ومنذ أن كان صبيّاً يافعاً، وكنت أكبره ببعض السنين، ثم عاد وأصبح شريكاً في درب النضال من أجل هذا الدين، أصبح رفيقاً في درب الشوكة التي ألزمتنا أنفسنا أن نسير عليه، عندما رضينا أن نتحمل مسؤولية الظهور أمام الناس بما يعرف في هذا الزمان برجال الدين، هذا المقام الذي يفرض على من يجعل نفسه فيه أن يتحمل كل كراهة، وأن يصبر على كل سوءٍ يصاب به، لأنه موقف الذنارة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾¹.

والذنارة هي من وظائف النبي صلى الله عليه وآله، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾²، وإذا رضي الإنسان أن يتحمل مسؤولية من مسؤوليات الرسول صلى الله عليه وآله، فعليه أن يوطن نفسه بأن يتحمل - لا أقول كما يتحمل الرسول صلى الله عليه وآله، لأنه لم يرزق صبر الرسول صلى الله عليه وآله - أن يموت وهو يقف تحت ظل هذا المنصب، منصب الذنارة والتبليغ عن الله سبحانه وتعالى بقدر ما رزقه الله من العلم.

كان الفقيد شريكاً في هذا الموقف الصعب الذي ألزمتنا أنفسنا به، وأصررنا أن نموت دون أن نعش الناس ونقول لهم إن المطالبة بتطبيق دستور دولة البحرين هو من الدين، ودون أن نعش الناس

* كلمة في الحفل التأبيني في ذكرى أربعينية الشيخ محمد بن الشيخ منصور الستري منتصف ذي القعدة 1419هـ المصادف 3 مارس 1999م بجامعة سترة

¹ التوبة: 122

² الأحزاب: 45

ونقول لهم إن المطالبة بديموقراطية أوروبا هي من صميم الدين، أصررنا ورضينا أن نضحى بكل ما نملك، ونقول لهم إن واجب المسلم أن يدعو إلى تطبيق الإسلام، وإن واجب عالم الدين أن يشرح حقائق الدين للمسلمين، لا أن يطالب بأمور خارجة عن حدِّ كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، هذا الموقف الذي يرفض في القرن العشرين الميلادي، والقرن الخامس عشر الهجري، لأن الدنيا قد تبدّلت، ولأنه لم يبق منها إلا صُبابَةٌ كصُبابَةِ الإناء، ولأن الإسلام عاد في أوطانه غريباً، فلا بد أن يعود المؤمن الحقيقي - لا أقول في مجتمعه ولكن يعود في بيته - أيضاً غريباً، هذا الموقف وقفه هذا الفقيد مع من وقف هذا الموقف من العلماء، ولا أستطيع أن أوّبن الفقيد بأكثر من ذلك، ولا حاجة لي أن أذكر صفاته الخلقية أو نداه أو علمه أو غير ذلك، فكل شيءٍ عن الفقيد رحمه الله معروفٌ للناس، ولكن الفقيد في حد ذاته مجهولٌ من الأكثرية، مجهولٌ من الغالبية الساحقة، لأن الناس أعداء ما جهلوا، ولأن الجهّال دائماً يقفون بالضد من العلماء، فلا يعرفونهم ولا يقدرّونهم، ويجب على العلماء أن يرضوا بجهل الناس لهم، وأن يتحمّلوا مسؤوليتهم، وأن يُعطوا من كرههم المحبة، وأن يمدّوا لمن قطع يده عنهم يد العطاء والتعاون والتآلف، هذا هو واجب العالم، حتى يؤدّي رسالة الله سبحانه وتعالى على خير وجه، أن لا تأخذه في الله لومة لائم، وأن يتحمل كل ما يصيبه بسبب دعوته إلى الله، ولكن أيضاً عليه أن لا ينكص من ميادين الجهاد ومن سوح الكفاح، بل عليه أن يقف وأن يتحمل ما يصيبه، وهو في الأخير - سواءً بقي فرداً أو بقي معه بعض المؤمنين - سيكون منصوراً عند الله في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّا لَنُصِرُّرُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ¹.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة بمناسبة مولد الإمام المنتظر (عج)*

نشكر الله على ما أنعم من الايمان به سبحانه، وهدانا إليه من توحيده، ووفقنا باتباع أنبيائه ورسله، الذين آخرهم وأفضلهم وأشرفهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والانصياع تحت لوائه ولواء أهل بيته، الذين هم في هذه الأمة كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى، السلام عليكم أيها المؤمنون جميعاً ورحمة الله وبركاته.

قضية الإيمان بوجود مُصلحٍ للكون ليست قضيةً خاصةً بالشيعة، ولا هي بقضية من خصوصيات دين الإسلام، فكلُّ الكتب السماوية بشرت بمصلحٍ للكون، والغريب في هذه الكتب أنها اتفقت في صفات هذا المصلح، واتفقت في موضع ظهوره، ولا أدري إذا كانت الأديان الأرضية أيضاً تحمل أملاً أو لا تحمل أملاً، على أي حال إن قضية المهدي عليه السلام ليست قضية خاصة، ولكن الذين يتبنون هذه القضية بجدٍ واعتزازٍ هم خصوص الشيعة من المسلمين، إن تبني قضية المهدي المنتظر عجل الله فرجه ما لم تكن مقرونةً بالعمل الحقيقي والمجاهدة النفسية لا تعني شيئاً مطلقاً.

ففي الرواية عن الصادق سلام الله عليه: "لا يخرج المهدي حتى يكون القائل بإمامته أقل من الكبريت الأحمر، أو أندر من الكبريت الأحمر، أعيانهم موجودة وأشخاصهم مفقودة، وحتى أن الرجل منهم لا يستطيع أن يجهر بعقيدته فيه أمام زوجته وأولاده".

هذه الرواية صحيحة السند ومع ذلك فنحن نرى أن القائلين بإمامة المهدي عليه السلام يبلغون في وقتنا الحاضر أكثر من مائة مليون من البشر، وهم في ازدياد، فيا ترى هل لهذه الكلمة التي أطلقها إمامنا الصادق صلوات الله وسلامه عليه معنىً أعمق مما يتبادر إلى أذهاننا في أول وهلة؟ صحيح أننا كلنا نؤمن بالإمام المهدي عليه السلام، ولكن هل نحن نسير على نهجه ونهج آباءه بحقيقة الحال؟ هل حاربنا الشهوات في أنفسنا؟ هل نتبعنا وبحثنا في يوم من الأيام عمّا يريد

* كلمة ألقاها في مولد الإمام المنتظر (عج) في 15 شعبان 1414 هـ بمناسبة افتتاح مسجد المشرف بجدحفص

منّا أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أن نكون عليه من الخلق الصالح، ومن العمل الخير؟ ففي الحديث النبوي المشهور عن الأزمان المتأخرة من أمته صفات منها انتشار المعازف والمزامير، ومنها الغناء، ومنها خروج النساء كاسيات عاريات، والتعبير دقيق جداً في قوله صلى الله عليه وآله تخرج النساء كاسيات عاريات، هنّ كاسيات يرتدين الثياب ولكنهنّ عاريات، لأن هذه الثياب تبدي كل ما تحتها، إن باللون أو بالحجم.

لا تظنوا أن من صفات آخر الزمان أن الصلاة تقف، لا، أو أن الجماعات تقلّ، أو أن المساجد تُهدم، أو أن المصاحف تُحرق، لم يأت بأخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك حتى يخرج المهدي، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: تطول المنائر، وتكثر الجماعات وتمتد الصفوف، إذن ما هو موطن الفساد؟ أجسامهم مجتمعه وقلوبهم متفرقة، هذا هو الفساد في هذه الصفوف الممتدة، والجماعات المتعددة، تعدد الجماعات وكثرة المصلين في هذه الجماعات مظهر حسن، ولكنه لا يكون مرضياً عند الله سبحانه وتعالى لمجرد أنه مظهر حسن، ما لم تكن النية فيه مخلصاً لله سبحانه وتعالى، وما لم يكن الإقبال على الصلاة بدافع الإخلاص لله لا بدافع المראה والمباهاة.

إن التشاجر الذي يحصل بين كثير من الناس في زماننا هذا على الجماعة يكشف عن عدم الإخلاص في النية، وإلا ما هو الفرق أن يصلي في هذا المسجد زيد أو عمرو؟ مثل هذه الأفكار أو مثل هذه الأعمال والتي تكثر في الوقت الحاضر بين الشباب، يؤسفني أن أقول لهم إنها تبعدهم عن حقيقة الجماعة، وعن أهداف الجماعة، أن يصرّ قوم على إخراج عالم يصلي في مسجد ما لمجرد أنه يختلف معهم في بعض الأفكار أو الآراء أو التقليد أو غير ذلك، هذا لا يرتضيه الإمام المهدي، ومن يفعله في حقيقته ليس قائلاً بإمامة المهدي عليه السلام مائة في المائة وكما ينبغي، أيضاً التسيب في الأخلاق، تجد الشخص أو الشاب من جهة ملتزماً بالدين في صلاته، وربما في لباسه، وربما في نفسه، لكنه لا يمتنع عن سماع المعازف والمزامير بحجج واهية ورخص متداعية، ينطبق عليه أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل آخر الزمان

"يضربون بالدخوف والمزامير"، وفي رواية أخرى "تنتشر بينهم المعازف"، يقول النبي صلى الله عليه وآله في خطبته التي خطبها في حجة الوداع وهو مستندٌ إلى ركن الحجر الأسود وهو يصفُ أواخر رجال أُمته قال: "إن النساء يشاركن أزواجهنَّ في التجارة"، طبعاً البيع والشراء ليس حراماً، فماذا يقصد الرسول صلى الله عليه وآله بمشاركة نساء أُمته في آخر الزمان لأزواجهن في التجارة؟ ألا يعني مشاركتهن في الأعمال في الدواوين والدوائر والشركات؟ لا أقول إن عمل المرأة محرّم، لا أقول ذلك، ولكن كما أن الرجل مملوء بالشحنة الجنسية، فالمرأة أيضاً مملوءة بالشحنة الجنسية، وكما أن الشيطان يستخفُّ الرجل، فهو أيضاً يستخفُّ المرأة، ما قاله الشعراء الذين وقفوا هنا من كثرة تفشي السفور في هذه البلاد أو تفشي الفساد والزنا، ما هو سببه؟ لا تلقوا اللوم على النساء وحدهنَّ، هذه الجريمة دائماً جريمة مشتركة، لا يُعقل أن امرأة تزني من دون رجل، كما لا يُعقل أن رجلاً يزني من دون امرأة، اللوم على الآباء والأزواج، من الذي أخرج المرأة إلى الأسواق وإلى سواحل البحار وإلى الحدائق العامة المختلطة؟ المرأة لعلها شيطان كانت في قُمم سجنها فيه سليمان بن داود عليه السلام فخرجت؟ ولكن من كسر هذا القمقم إذا كانت هي شيطان؟ أليس أبوها أو زوجها؟ جعل الله المسكن لها حرزاً تحترز فيه من الذئاب، فأبى عليها أهلها إلا أن يخرجوها من هذا الحرز . أخرج مالك يا أخي واجعله على قارعة الطريق إن بقي لك منه درهم . ومع ذلك يأتي فينعي على المرأة سلوكها، وتفور المشاكل والاصطدامات ويكثر الطلاق.

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

يُسمح لها أن تسافر بمفردها بحجة طلب العلم أو بحجة زيارة أهل البيت عليهم السلام أو بحجة النزهة أو غير ذلك، ثم تشنَّ عليها الحرب، مازلنا إلى اليوم في البحرين وما من أبٍ إلا ويستطيع أن يمنع ابنته من الخروج من البلد من غير إذن، وما من زوجٍ إلا وهو متمكن أن يمنع زوجته من ذلك، وما من معيل في العائلة يعجز عن القيام بذلك، هل من يرضى بهذه الأفعال يكون قائلاً بإمامة المهدي عليه السلام كما ينبغي أن يقول بها؟ وهل هذا الأمر هو سلوك الشيعة؟ على أي حال نحن نعيش آخر الزمان، وإذا أردنا أن نتمسك بالإمام المهدي عليه السلام وأن نكون فعلاً مِمَّن يؤمنون بقضية الإمام المهدي عليه السلام، فعلينا أن نعدَّ أنفسنا خُلُقياً

وسلوكياً، ولا يكفي مجرد الاعتقاد، صحيح أن النجاة في الآخرة ترتكز على الاعتقاد، ولكن درجات الآخرة تتفاوت بالأعمال، وتتفاوت بالجهد، جهاد النفس.

لكي نكون صادقين مع أنفسنا علينا أن لا نأخذ بهذه الحضارة الغربية، يقول النبي صلى الله عليه وآله في الخطبة التي خطبها في حجة الوداع وهو مستند إلى ركن الحجر: "ثم يؤتى بشيء من المشرق وشيء من المغرب فتلون به أمتي"، ما هو هذا الشيء الذي يؤتى به من المشرق ومن المغرب فتلون به الأمة؟، هو هذا، ما تسمونه حضارة، وتسمونه تقدماً، وتسمون ما خالفه تصحراً وبدعوة، يعترض عليه سلمان رحمه الله فيقول: "أو هذا كائنٌ يا رسول الله؟ قال: إي والذي نفسي بيده، وعندئذ تليهم حُكماً إن سكتوا ظلموهم وإن تكلموا قتلوهم"، هذه هي النتيجة بطبيعة الحال، لأنه صلى الله عليه وآله في حديث آخر يقول: "كيفما تكونوا يُؤلّ عليكم"، معناه أن الذين يتولون عليكم يكونون مثلكم، إن كنتم عدولاً يكونون عدولاً، وإن كنتم ظلمةً يكونون ظلمةً، وإن كنتم صالحين يكونوا صالحين، وإن كنتم فاسقين يكونوا فسقةً، وهذا مقتضى الطبيعة، مقتضى ما يؤكد علم الاجتماع أيضاً، لأن الحاكم في كل مجتمع هو فردٌ من أفراد هذا المجتمع، والحكام في كل بلد هم من أفراد ذلك البلد، فكيفما تكون غالبية الناس يكونون.

انظر في نفسك لو تمكنت ألا تظلم؟ هل أنت عادل في أهل بيتك؟ تساوي بينهم في كل شيء؟ هل أنت عادل في منعهم مما يهلكهم؟ من السماح للبنات بالخروج بهذا المظهر، ومن السماح للزوجة بأن يتصفح وجهها الرجال في الأسواق؟ ويتحدث معها الزملاء في الجامعة والأعمال؟، انظر نفس كل إنسان، هل أن غالبية البلد عادلة؟ . انظر كل بلاد المسلمين ، لماذا نتكلم عن اليهود وعن الصرب وعن غيرهم؟ كلنا نعيش نفس الأخلاق، من منا تمكن من غيره فأخذته الشفقة والرحمة؟ ومن منا عرف حق غيره فأداه إليه؟ ومن منا مكَّنه الله سبحانه وتعالى من رئاسة عائلةٍ، زوجةٍ أو أختٍ أو بنتٍ أو أمٍ فزادها عما يؤدي بها إلى الضرر في الدنيا والآخرة؟ أليس كلنا مسئولين؟ "كلكم راعٍ وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيته".

فإذن لا نفرح لمجرد أننا نعتقد بالإمام المهدي، فأممٌ كثيرةٌ تعتقد بوجود المصلح الآخر، ولو جئت للنصارى وسألتهم . إذا أرادوا أن ينصفوا في الجواب من إنجيلهم . عن المصلح الذي ينتظرون، لأعطوك صفات الإمام المهدي المنتظر، ولوصفوا المكان الذي يظهر فيه بأنه مكان يدخله الرجال بثوبين كاشفي رؤوسهم، وتدخله النساء مغطيات الرؤوس، هذا بلد يذكره الإنجيل، بلد المصلح الأخير، لا ينطبق إلا على مكة، فإذن هم يشاركونك نفس الاعتقاد وإن كانوا لا يعتقدون بنبوة محمد صلى الله عليه وآله، ولا بإمامة علي وبقيّة آباء المهدي عليهم السلام، ما هو الفرق إذن إذا لم أكن خيراً منهم في العمل والسلوك، إذا لم أكن أنا الذي أمهد لظهور المهدي، امتحاناتٍ تمر بنا، هل نجحنا في امتحانٍ من الامتحانات؟ لا تقولوا لأننا سقطنا فقط في الامتحانات السلوكية، حتى في الامتحانات العقائدية سقطنا، ظهر أهل البدعة بيننا، وادعوا السفارة على الإمام المهدي عليه السلام، وأعلن العلماء مقاطعتهم وتشديد النكير عليهم، ما هي إلا فترة وجيزة ثم يبرد هذا الحماس، وكأن هذه القضية لا ترتبط بعقيدتكم وأنتم تدعون الإيمان بقضية المهدي صلوات الله وسلامه عليه، لماذا؟ نجحنا في هذا الامتحان؟ لم ننجح، يعني أننا سقطنا في الاختبارات، ليس فقط في الاختبارات العملية والسلوكية بل حتى في الاختبارات الفكرية والعقائدية.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يجعلنا ممن تنطبق عليه هذه الرواية، رواية النبي صلى الله عليه وآله، وأن يأخذ بأيدينا جميعاً إلى التوبة من كل الذنوب والآثام، وإلى محاربة العدو الأكبر وجهاده، ليس هو الشيطان ولكنه النفس، فمتى ما تغلبنا على أنفسنا، فقد تغلبنا على الشيطان؛ لأنه عدو خارجي.

وأستغفر الله لي ولكم، إنه غفور رحيم، وأشكركم جميعاً على هذا الحضور والمشاركة لنا في افتتاح هذا المسجد، وفي تشریفنا في مولد سيد الكون وإمام الإنس والجان عجل الله تعالى فرجه وجعل أرواحنا فداء.

والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

عمارة المساجد*

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين، السلام عليكم أيها المؤمنون الكرام جميعا ورحمة الله وبركاته.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾¹، ولفظة الاعمار في اللغة لها معنيان، الاعمار بمعنى البناء والتشييد، ولذلك ربما يطلق على البناء معماراً أي أنه يقوم بالعمارة، والاعمار يُؤخذ أيضاً من التواجد والحضور، ولذلك يقال عُمِّرَ الأرض، عُمِّرَ البيت. الله سبحانه وتعالى شَرَّكَ في هذه الآية الذين يبنون المساجد، والذين يتواجدون فيها في صفةٍ واحدة، وهي أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، والتواجد في المساجد لا يعني مجرد الجلوس من أجل لقاء صديقٍ أو الكلام الفارغ في الدنيا، أو ربما في المحرم من غيبةٍ أو مثلها، إعمار المساجد بالحضور فيها إنما يكون من أجل عبادة الله سبحانه وتعالى وطاعته بكل ما للفظ العبادة من معنىٍ واسع، سواء منها ما يعرفه كل إنسان بالعبادة من الصلاة والدعاء وأمثاله، أو من التدريس والدرس ومناقشة العلم والمحادثة في العلم ، أيضاً يدخل في مفهوم العبادة، وكذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو السياج الحقيقي لحفظ العبادة، فالمسجد ليس محصوراً في جهةٍ من جهات عبادة الله، والفرق بين المسجد وبين الكنيسة عند النصارى، هو أن دين المسيحية بشكله الحالي ومنذ أن حرفه [بولس] ابتعد عن الحياة وابتعد عن النشاطات الحياتية، سواء منها الاجتماعية والسياسية، وأعلن المحرّف الأول للإنجيل [متّى] بقوله أو بكذبتة على نبي الله عيسى عليه السلام، [أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله]، فقسّم الوجود قسامين قسم لله وقسم لقيصر، ورضيت هذه المسيحية المحرّفة أن تعترف بأن الله شريكاً يكون له حصة.

* كلمة ألقاها في 1994/3/9 الموافق 20 رمضان 1414هـ بمناسبة افتتاح مسجد الفردان بمدينة حمد
¹ التوبة: من الآية 18

الإسلام يختلف تماماً عن المسيحية، ولذلك يختلف المسجد تماماً عن الكنيسة، فإذا كانت الكنيسة موضعاً لتأدية الطقوس التي يؤديها النصراني غير العربي وهو لا يعرف معناها، بأنها أدعية عربية كتبت له بالحرف اللاتيني ويكتفى في ذلك، فإن المسجد منذ أن أسس في أول يوم لم يكن بناية تُؤدَّى فيها الطقوس، ولذلك لا يمكن قصر المسجد على الصلاة وحدها، القراءة الحسينية عبادة، إذن يجوز إقامتها في المسجد، الاحتفال بذكرى المعصومين عبادة، إذن يجوز إقامتها في المسجد، المسجد هو كل شيءٍ بالنسبة للمسلم، نعم للمسجد حرمة ويجب أن تُصان هذه الحرمة، فلو أراد أحدٌ أن يستغلَّ اسم الدين، ويُدخل أطوار الغناء في المسجد يُرمى به خارج المسجد، لو أراد أحدٌ أن يستغلَّ الدين ويعبث بأفكار المسلمين من المسجد يُرمى به خارج المسجد، لكن لا يمكن قصر المساجد على الصلاة وحدها، وليس من حقِّ أحدٍ أن يحجر على المسلمين أن يقوموا بكل أنشطتهم الدينية في مساجدهم، وإذا كان الشيعة يملكون مؤسستين إحداها المأتم بالإضافة إلى المسجد، فإن غير الشيعة لا يملكون المؤسسة الثانية، فماذا سيفعلون بمناسبةاتهم الدينية؟ ألا تُقام في كل البلاد الإسلامية ذكرى الإسراء والمعراج في المساجد؟ هل هذه صلاة؟ ألا تُقام في طول البلاد الإسلامية وعرضها الاحتفالات بليلة القدر، وليس فيها صلاة عند غير الشيعة وإنما هو قصائد وكلمات في المناسبة، صحيحٌ أننا نملك مؤسسةً أخرى هي الحسينية، وهذه أيضاً تُقام فيها الاحتفالات إذا كانت تلك الاحتفالات تتعلق بأهل البيت عليهم السلام وبمذهبهم. نعم إن أهم ركيزة للمسجد هي الصلاة، ولا يجوز أن يتعارض أي نشاط يُقام في المسجد مع فريضة، لا يصح إقامة تعزية في مسجد ويستطيل الخطيب في قراءته مع دخول وقت الفريضة، الفريضة أحقُّ بالمسجد من التعزية، المسجد أيضاً مدرسةٌ ويصح أن يكون كل مسجدٍ مركزاً للتعليم ومركزاً للتدريس، تعليم القرآن، تعليم العقائد، تعليم الأحكام، تعليم الأخلاق، فالمسجد إذن من أول يوم أسسه النبي صلى الله عليه وآله لم يجعله مقتصراً على أداء الصلاة، وبقية المساجد التي في العالم إنما هي فروع من مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، وإنما هي بدل عنه في بلدانهم، وفي أقطارهم وأمصارهم، ونحن نرجو أن يكون هذا المسجد قائماً برسالته في هذه البلاد، في هذه الدار، بأن يُعلَّم فيه كتاب

الله، وتُعلم فيه العقائد، ويُحفظ فيه هذا النشأ، بالإضافة إلى كونه مركزاً للصلاة وللأدعية وللابتهالات.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق الجميع لعمل الخير، وأن يجنب الجميع السوء، وأن يبارك سبحانه لمن قام وتبرّع بإشادة هذا المسجد، ولقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: "من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة، قال: أبو عبيدة فمر بي أبو عبد الله عليه السلام في طريق مكة وقد سوّيت بأحجار مسجداً فقلت له: جعلت فداك نرجو أن يكون هذا من ذلك، فقال: نعم".

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يأخذ بيد الجميع لما فيه الخير والصلاح، ومنذ الليلة الآتية سوف تُقام الجماعة في هذا المسجد بإمامة فضيلة الشيخ ميرزا سند.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

﴿الباب الخامس﴾

الكلمات السياسية

سيرة طواغيت العراق مع العلماء*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين،
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين.
هذه الليلة سوف لن نتكلم في محاضرة علمية، ولكننا نريد أن نتكلم عن العلماء وطغاة
بغداد.

وتبدأ قائمة الطغاة في بغداد بأبي جعفر المنصور، والمنصور معروفة أفعاله وتكليه
بالإمام الصادق صلوات الله عليه، واستدعاؤه إياه من المدينة إلى بغداد مراراً لمجرد وشاية غير
محقة، أو كلمة غير مثبتة، فكان يتربص به الدوائر لعله يجد مبرراً ما في قتله أو سجنه أو غير
ذلك، ولما لم يجد مبرراً دس إليه السم، وشرّ المنصور لم يقتصر على علماء فئة من فئات
المسلمين، وإنما عمّ كل علماء المسلمين، ويكفي أن أبا حنيفة أحد أئمة المذاهب الأربعة مات
مسموماً في سجن المنصور، وكان خلفاء المنصور أشدّ ظلماً وأشدّ جوراً وأشدّ طغياناً وأشدّ إراقة
لدماء العلماء، ويبلغ القمة فيهم في هذا العمل أو في هذا المجال حفيده الرشيد، وتاريخ الرشيد
حافل بإسالة الدماء، ويكفي أن نعرف في تاريخه أنه كان يبني الاسطوانات على البشر وهم
أحياء، وسوف نذكر بعض من أصابهم شرّ الرشيد من العلماء.

وأول هؤلاء الذين سأذكرهم هو هشام بن الحكم، ومعروف أن هشام بن الحكم رحمه الله
كان أحد متكلمي الإسلام، وله مذهب خاص به في علم الكلام، هذا الرجل تنقل وهو شاب في
مذاهب متعددة، وتغيرت عقيدته من مذهب إلى مذهب بين يوم وآخر، حتى استقرّ أخيراً على
عقيدة الإمامية الاثني عشرية، وتتلذذ فترة من الزمن على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق
صلوات الله وسلامه عليه، وابنه أبي إبراهيم موسى الكاظم صلوات الله وسلامه عليه، طبعاً هذا
الرجل ليس ممن يشتغل في السياسة حتى يعد في المعارضة التي يطاردها الرشيد، والتي لم يتورع

* محاضرة ألقاها بمناسبة اعتقال النظام العراقي لأستاذه آية الله السيد الخوئي في 6 شهر رمضان 1411هـ

عن البناء على أفرادها الأسطوانات وهم أحياء، وإنما كان هشام منشغلاً بتحقيق مسائل علم الكلام، وتحقيق مسأله والمجادلة مع من يخالفه في الرأي أو الاعتقاد، سواء كان ممن يتفق معه في المذهب أو يختلف معه في المذهب أو الاعتقاد، فمناقضاته مع هشام بن سالم الجواليقي، وهو أيضاً من متكلمي الإسلام، ومن الشيعة، لا تختلف عن مجادلاته مع غيره من أرباب الفرق وأرباب المذاهب.

إذاً ما الذي أغرى الرشيد بهذا الرجل؟

الرشيد كما تعلمون له وزير يقال إنه أسلم، كان أصله مجوسياً، اسمه خالد بن يحيى البرمكي، وخالد بن يحيى كان أثيراً جداً عند الرشيد، ويكفي أنه كان عند الرشيد يدعي بأنه لا يستغني عن هذا الرجل، وكان الرشيد أيضاً يريد من أخته العباسة أن تخفف عنه أعباء الحكم بغنائها ورقصها، وهو كان لا يستغني عن وزيره، فعقد له عليها، وقبل أن نتكلم عن طريقة هذا الرجل في خدمة الرشيد، نود أن نتكلم عن شيء في التاريخ، طبعاً هذا الرجل ليس بعربي وإنما هو من الفرس، وكان مجوسياً يدعي أنه أسلم، وصار وزيراً ومقرباً جداً من الرشيد، بل وزيراً كبيراً من وزرائه، وكان يعبث بأموال الأمة، ويلعب بها وينفقها للشهوة تارة، ولأغراض أخرى تارة أخرى، وكان للرشيد وزير آخر من العرب، ربما كان في نظر الناس ينافس البرمكي، وهو الفضل بن الربيع، وعندما غضب الرشيد على الإمام موسى بن جعفر صلوات الله وسلامه عليه، وجلبه من الحجاز إلى العراق في بغداد، أعطاه إلى الفضل بن الربيع ليحبسه، فأفرد الفضل بن الربيع بيتاً للإمام عليه السلام وأجلسه فيه، وسمح للناس وللشيعة في بغداد أن تدخل على الإمام وأن تجالسه وتساله وغير ذلك، واستغل خالد بن يحيى ذلك ضد الفضل بن الربيع، وأخبر الرشيد بأن الفضل موسع على موسى بن جعفر وقد أفرد له بيتاً، والناس تدخل له وتخرج، استدعى الرشيد الفضل وقال له: لم فعلت ذلك؟ فقال: لأنني لا أرى على أمير المؤمنين من هذا العبد الصالح سوءاً، ولا أحتمل منه شراً، ولا أجد في نفسي، أن ألقى الله وأنا مضيق عليه، فغضب الرشيد، وأسقط الفضل بن الربيع من الوزارة، ونقل الإمام عليه السلام إلى سلطة خالد بن يحيى البرمكي، الذي وكل عليه

عبد السندي بن شاهك، وأمره أن يضيق عليه، وجعله في طامورة مظلمة، تصل إلى سبعين درجة تحت الأرض، وأخيرا أوصل سما خاصا من الرشيد إلى عبده ليقدمه للإمام في طعامه، فمات عليه الصلاة والسلام مسموما في حبس السندي بن شاهك، الذي هو مولى خالد بن يحيى البرمكي وأحد أعوانه ورجاله.

وخالد بن يحيى البرمكي له أسلوب خاص في خدمة الرشيد، فهو يحاول أن يتصيد أهل الفكر والعلماء والمتكلمين ويوقع بهم أو بمن لا يعجبه منهم عند الرشيد، فكان يعقد ندوات علمية، ويجمع متكلمين من فرق متعددة، وفقهاء من مذاهب متباينة ليتناقشوا في قصره وفي مجلسه، وكان ممن استدعاهم هذا الرجل أو أغراهم هذا الرجل بالمجيء إلى هذه الندوات هشام بن الحكم، فأخذ هشام بن الحكم يحضر ويتكلم في الإمامة أو في التوحيد أو في غيرها من مجال علم الكلام، فيفوق كل الحاضرين معه في ذلك المنتدى، فأبلغ خالد البرمكي الرشيد عن هشام بن الحكم وكلماته واحتجاجاته، وكيف أنه يتمكن من إقناع أي إنسان بما يريد، أو على الأقل يفحم الخصم اللجوج العنود الذي لا يمكن إقناعه، يرغمه على السكوت والتسليم ولو كذبا، طلب الرشيد أن يوضع له ستر في بيت جعفر بن يحيى البرمكي وأن تقام الندوة هناك وهو يريد أن يسمع كيف يتكلم هشام بن الحكم، وعقدت الندوة في بيت جعفر البرمكي، وجاء الرشيد ودخل من باب آخر خلف الستر، وسمع الكلام في تلك الندوة فخرج وهو يقول لا والله لا يستقيم لي ملك ومثل هذا الإنسان يمشي على الأرض.

ما هي علاقة هذا الكلام باستقامة ملك الرشيد أو عدم استقامته؟ لا يعرف ذلك إلا الرشيد نفسه، أمر الرشيد بالقبض على هشام بن الحكم، وبلغه ذلك ففر وقتها، فما كان من الرشيد - الذي يدعي بأنه أمير المؤمنين، وأنه يعمل بالقرآن، الذي يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ رِجَالِكُمْ وَلَا تَرْسِلُوا فِي الْبِلَادِ الْمُحَرَّمَاتِ حُرُوفِكُمْ بِأَعْيُنِكُمْ وَلَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ الَّذِينَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا لِنَفْسِهِمْ﴾¹،

¹ الأنعام: من الآية 164

ويقول: ﴿لَا تُضَامِرْ وَالِدَةَ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودَهُ بَوْلِدِهِ﴾¹ - إلا أن يلقي القبض على كل عائلة هشام بن الحكم

ويزجهم في السجن، ويقول لا يفرج عنهم حتى يأتي هشام فيسلم نفسه.

واستمر هشام مختفياً حتى وافته المنية في الكوفة، فقال للذي هو في بيته، إذا مت فغسلني وكفني وصل علي، ثم انزع عني الكفن والبسني الثياب واطرحني على قارعة الطريق واكتب علي أن هذا هو هشام بن الحكم الذي كان يطلبه، طبعاً حتى تطلق عائلته من السجن، وهذه المدة استمرت عشرين سنة أو أكثر، فلما وضعه على الطريق فرآه الناس وأخبروا الوالي أبرد إلى بغداد بأننا قد عثرنا على جثة هشام بن الحكم وأشهدنا على عينها، فأمر الرشيد بإطلاق أفراد أسرته.

وأيضاً ممن كان في أيام الرشيد، عالم آخر يعرف بالبهلول، ووصل إليه الخبر أن الرشيد يتحين بك الفرص ليقتلك، فماذا فعل هذا الرجل؟ وهو في أيام شيخوخته؟ تجنب، يعني لم يكن مجنوناً ولكنه تجنب، وأصبح فأخذ له عصا يركبها، ويركض مع الصبيان ويضربها باعتبارها حماراً، وصار يرتكب كثيراً من أفعال الأطفال ليثبت عند الناس أنه مجنون، وأبلغ الرشيد بذلك، فقال: والله ما جن ولكنه فر منا بدينه، يعني إلى هذه الحالة وهو يريد أن يقتله، لكن بعد أن جن، أو بعد أن ظهر أمام الرأي العام بأنه مجنون لا يتمكن الرشيد من قتله فيفتضح أمره، ولهذا فإن الرجل بعد أن أظهر الجنون كانت له نكاتٌ ظريفة مع الرشيد، منها أنه كان للرشيد يوم من الأيام يستعرض فيه الجنود، يعني مثل الأعياد الوطنية المعمولة في زماننا، وكان يسمى ذلك اليوم بيوم المهرجان، توضع للرشيد منصة كبيرة يجلس عليها، ومنصات أسفل منها يجلس عليها أرباب الدولة بمختلف مراتبهم ومناصبهم، وتُستعرض الجيوش والقوات وغير ذلك، فما كان من البهلول إلا أن اختفى خلف سورٍ إلى أن رأى موكب الرشيد يقترب في طريقه إلى المنصة، فأسرع في غفلة من الحراس وصعد وجلس على المنصة مكان الرشيد، فطلب منه الحراس أن يقوم وينزل فأبى، فانهالوا عليه ضرباً وركلاً حتى وصل موكب الرشيد فجروه من يده لينزلوه وهو يبكي، فقال له الرشيد: أتبكي يا بهلول؟ قال: لا أبكي على نفسي ولكني أبكي عليك، فلقد جلست على هذا

¹ البقرة: من الآية 233

المكان دقائق وقد رأيت ما نالني من العذاب، فكيف بك وأنت تجلس عليه من عشرات السنين؟ ثم ركب حماره العصا وانصرف. طبعاً الرشيد يعرف أنه لم يجن ولكنه تجانن، هذا الإنسان نجا بالتجانن.

أما غيره مثل محمد بن أبي عمير رضوان الله عليه وهو من تلاميذ أبي عبد الله الصادق صلوات الله وسلامه عليه، وابنه الكاظم صلوات الله وسلامه عليه، ويشك بعض العلماء في أنه يروي عن الصادق مباشرة، أو يروي بواسطة، على أي حال فإنه عاصر الإمامين الصادق والكاظم، هذا الرجل أُلقي عليه القبض وأدخل السجن، وخافت أخته أن يُفتش المنزل وأن يحصل على كتبه وتتخذ حجةً عليه، فحفرت حفرةً كبيرةً ودفنت كل كتبه، وبقي تحت التعذيب سنين كثيرة، يقول يونس بن عبد الرحمن رضوان الله عليه وكان قائداً لقوات الجيش في ذلك الوقت، ويونس بن عبد الرحمن هو من تلاميذ الكاظم والرضا عليه السلام، كان وجهاً من وجوه أصحاب الرضا، وفقهياً من فقهاء أصحاب الرضا، يقول: مررت على محمد بن أبي عمير وهو تحت التعذيب، فقلت: لا يصبر على مثل هذا بشر، وخشيت أن يضعف وهم يصرخون عليه: أخبرنا بأسماء رؤوس الشيعة في بغداد، وبرؤوس الشيعة في الجيش، ويحاولون بكل تهديد أن يحصلوا عليهم، يقول: خشيت أن يضعف محمد بن أبي عمير فيخبر بكل أسمائنا، فدنوت منه وأسررت في أذنه: يا ابن عمير اذكر إن وراءك لعذاباً أشد من هذا العذاب، ومضيت عنه، فربط الله على قلبه وقال: لو كان أحدهم تحت رجلي ما رفعتها حتى تقطع.

على أي حال خرج ابن أبي عمير من هذا السجن وهذا التعذيب بعد سنين ولكن وجد أن التراب قد أتلّف كل مكتبته ولم يبق له منها شيء، وصار يروي إرسالاً وقليلاً ما يسند الرواية، ولذلك اشتهر عند الفقهاء بمراسيل ابن أبي عمير.

وأيضاً في بغداد في أيام المعتصم أوجد قاضيه المعروف بابن أبي دؤاد بدعةً جديدةً هي بدعة الكلام في خلق القرآن، هل أن القرآن مخلوق أو ليس مخلوقاً؟ وطبعاً ابن أبي دؤاد هو من المعتزلة وهو يقصد بإيجاد هذه البدعة أن يستغل منصبه وطغيان الخليفة الذي يحميه في إيذاء

الأشاعرة وإيذاء أهل الحديث من غير الشيعة لأن الشيعة على أي حال هم تحت الأذى ولا يحتاج أن يوجد لهم بدعاً أو غير ذلك، فكان يرسل على أي عالم ويسأل، ما تقول في القرآن أمخلوق هو أم غير مخلوق؟ فإن قال ذلك العالم القرآن مخلوق تركه، وإن قال ليس بمخلوق، سأله هذا خالق؟ فإن قال لا قال إذن هو مخلوق، فإذا قال لا أو سكت يجلده، أو يسجنه أو يعذبه، أو يقتله، وذهب جراء ذلك كثير من العلماء قتلاً وسجناً وتعذيباً.

وممن نالهم الأذى في هذه الفتنة أحمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي، وابن أبي دواد يعرف أن أحمد بن حنبل يجسم الله سبحانه وتعالى، ويعلم أن أحمد بن حنبل يعتقد بأن كلام الله من الصفات القديمة، وأن كلام الله هو الألفاظ والأصوات والحروف وغير ذلك، فوجه إلى أحمد ابن حنبل، فأرسل عليه وقال ما تقول في القرآن أقديم هو أم حادث؟ فقال قديم، فقال أمخلوق هو؟ قال لا، قال أخالق هو؟ قال لا، فأمر بجلده حتى جلد مائة أو أكثر من مائة جلدة، وكاد أن يموت تحت التعذيب، ومضى الأمر على ذلك حتى جاء زمان المتوكل.

وفي أيام المتوكل، ولحاجة في نفس المتوكل، أعلن أنه يناصر أهل السنة، ويحارب أهل البدعة، وانقلب الأمر، ولكن هل وقع نكال المتوكل بالمعتزلة؟ الظاهر أنه وقع بالشيعة وبأئمة الشيعة، ولم يصب المعتزلة بشيء إلا من تعرض منهم للحكم أو غير ذلك، ومعلوم عن أفعال المتوكل، وأن سجونه كانت مملوءة بالعلماء، سواء من العلماء الموجودين في العراق أو في الشام أو غير ذلك، ولا يستحي المتوكل أن يأتي برجل مخنث، ويأمره أن يمثل علي بن أبي طالب عليه السلام، ويحضر لهم في مجلس الشراب فيقوم هو وحاشيته بالتصفيق والاستهزاء من علي بن أبي طالب عليه السلام، فلو لم يكن إلا أن علي بن أبي طالب هو ابن عمه، وهو سيد أسرته، يعني لم يخجل حتى من هذه، ولم يخجل المتوكل أن يستدعي أبا الحسن علي الهادي عليه السلام، في مجلس شرابه ولهوه وعبثه، وأنه حبس أبا محمد عليه السلام سنين طويلة، حتى دس إليه السم في ذلك الحبس، ومضت الأمور بهذه البلدة التعيسة، ومضى ما يقاسي العلماء من الطغاة التي يكونون فيها، ومضى عهد العباسيين بكل ما فيه.

وجاء عهد التتار، والناس تضرب المثل بقسوة التتار، والناس تضرب المثل باستهتار التتار بالدماء والأعراض والأموال، التتار الذين هم جنكيز خان وهولاكو، وهولاكو هو حفيد جنكيز خان، جنكيز خان كان على أي حال وثنيا، وخرج من الصين باتفاق مع البابا في روما على أن يفني حضارة المسلمين، فكانت همته موجهة إلى هدم المدارس وإحراق الكتب وقتل العلماء، وباد جنكيز خان فآتم حفيده هولاكو ما أراده جده، من حرق المكتبات وحرق المدارس وقتل العلماء إلى أن أسلم كما يقال وتوقف عن هذا الأمر، كل هذا في ذمة التاريخ.

ودارت الأيام والسنون ببغداد فصار فيها أول من صار في عصرنا ممن لم يبالي بسفك دماء العلماء وقتلهم، رجل يقال له عبد الكريم قاسم، عبد الكريم قاسم في الحقيقة ليس رجلاً حزبياً، كان لا يتهم بأنه ذو حزب، ولكن عبد الكريم قاسم جاء إلى الحكم وهو لا يطمح أن يأتي إلى الحكم، كان من بيت متواضع جداً، ولم يكن له أنصار في الجيش، وكان مغرماً بسياسة نوري السعيد مخلصاً لها، وفي تلك الأيام كانت في الجيش جمعية يقال لها جماعة الضباط الأحرار، وجماعة الضباط الأحرار قررت إما بنفسها أو بالتعاون مع بريطانيا - لأن نوري السعيد ترك الخط البريطاني ولجأ إلى الخط الأمريكي - قرروا إزالته والإتيان بأي شخص آخر.

على أي حال أياً كان الأمر الحقيقي في ثورة 58 فقد تقرر إزالة الملكية من العراق، فظلوا يتحينون الفرصة في ذلك، وأصدر نوري السعيد أمره إلى الفرقة التي يتزأسها عبد الكريم قاسم بالخروج من مكنها والذهاب إلى الأردن أو إلى سوريا للحرب في فلسطين، وخرجت الفرقة من مكنها ولكن عندما وصلت بالقرب من الحدود قرروا قلب نظام الحكم، وعندئذ انبرى عبد السلام عارف واعترض على الخطة وقال إذا كان ولا بد فيجب أن يكون عبد الكريم قاسم هو الزعيم وأخذ ينادي: [ماكو زعيم إلا كريم]، وبدون شك فإن الأقسام الذين أرادوا القيام بالثورة لا يمكنهم التراجع الآن وإلا قتلوا جميعاً، فأمضوا هذا القول وكتبوا البيان الأول وذكروا فيه اسم عبد الكريم قاسم، وذهب عبد السلام عارف واحتل بغداد وألقى البيان من الإذاعة، وجاء عبد الكريم قاسم بهذه الصورة المفاجئة التي لم يكن يحلم بها في يوم من الأيام.

هذا الرجل بدا خفيفاً كثير الكلام إلى حد الهذر، كثير الكلام عن نفسه إلى حد الهذر، وكل من أدرك أيامه ولا يزال يحتفظ بشيء من خطبه يتمكن من قراءتها ومعرفة مدى قدرة هذا الرجل وما عنده من أفكار، كان يريد من الناس أن يصفقوا له، فمن يصفق له فهو مخلص ووطني، ومن لم يصفق له فهو خائن وعميل إما للمخابرات الأمريكية أو لأي جهة من الجهات، وتزلف إليه الشيوعيون وصفقوا له، وأصبحوا هم المخلصين ومن عدا من أهل العراق خاصة علماء الإسلام هم الخونة والعملاء والجواسيس، ونال العذاب كل العلماء في ذلك الوقت؛ لكن الأمر أشد ما كان على الشيخ محمد مهدي الخالسي.

والشيخ محمد مهدي الخالسي في الحقيقة كان من أبطال ثورة العشرين الذين كافحوا في إخراج الإنجليز من العراق، وقد ضاق به الإنجليز ذرعاً فنفوه إلى إيران، وفي إيران حصلت له معركتان [يعني يحارب في جبهتين] معركة مع الشاه [رضا شاه في ذلك الوقت] ومعركة مع بعض العلماء، لأن دعوة الخالسي هي سلبية في معظمها، وعندما نقول سلبية لا نقصد العيب فيها، الخالسي دعوته كانت تقوم على نبذ البدع والخرافات والتحريفات من الإسلام، يعني ناحية سلبية، وطبعاً يصطدم بكثير من العلماء بسبب ذلك، وفي نفس الوقت كان يحارب الشاه باعتباره منحرفاً عن الطريق جائراً مستتبداً وظالماً، على أي حال زج به في طهران في السجن أكثر من ست سنوات أو سبع سنوات وخرج من السجن وقد فقد بصره.

في أيام عبد الكريم قاسم كان هذا الرجل كفيف البصر، وكان يبلغ من العمر في ذلك الوقت ما لا يقل عن السبعين أو الثمانين سنة، هذه الشيخوخة وهذا العمى لم يوقف عبد الكريم قاسم عن اعتقاله وزجه في التوقيفات وسجون بغداد، ولم يخرج إلا قبيل سقوط عبد الكريم قاسم بأشهر معدودة.

وكل سيئات عبد الكريم قاسم في حقيقتها لا تعادل من جاء بعده، لأن عبد الكريم قاسم على كل ما فيه تأخذه أحياناً رقة، فيعفو حتى مع من أساء إليه بالفعل، وممن عفا عنهم وقد أطلق عليه الرصاص وأصابه في يده صدام حسين، ولو كان عبد الكريم قاسم حاكمه في ذلك الوقت

لكان لا شك حكمه الإعدام وأراح الأمة منه، ولكن مهما يكن فإن هذا دليل على أن الإنسان يجب أن يتوكل على الله سبحانه وتعالى وأن يتيقن بأن الأعمار والأرزاق ليست بأيدي الناس ولا يتمكن أحد من أن يفعل شيئاً، وأنه ما لم يأت الأجل المحتوم على الإنسان عند الله فإنه لو اجتمع أهل الأرض على أن يميتوه لا يموت، وإلا فكيف تفسر أن رجلاً وقف إلى عبد الكريم قاسم هذا الطاغية في الطريق مع جماعة وأطلق عليه الرصاص وقتل حارساً وأعار يده وبقي في المستشفى أشهراً حتى برئت يده، ما الذي جعل هذا الطاغية القاسي أن يقول عفا الله عما سلف ويطلقه، أليس حتى يصل صدام إلى ما وصل إليه؟

على أي حال فإن الذين جاءوا بعد عبد الكريم قاسم في بغداد وهم ما يعرفون بحزب البعث العربي الاشتراكي، قد ارتكبوا من الأفعال ومن التدمير ومن سفك الدماء وإتلاف الفكر ومنع الكتب وإراقة الدماء وهتك الأعراض ما لم يرتكبه هارون الرشيد ولا جنكيزخان ولا حفيده هولوكو، بل إن خطتهم الخبيثة قامت على التفرقة بين المسلمين، من كل جانب، فهي من جهة تفرق بين العرب وغير العرب، ففي بداية ما جاءوا إلى الحكم طردوا كل الهنود والباكستانيين من العراق، وأمروهم بالخرج، وعندما انتهوا من الهنود والباكستانيين، أخذوا يطردون الإيرانيين والأفغان، بحجة أن شاه إيران يعادي العراق، وحزب البعث لا يستطيع أن يحارب شاه إيران وأمريكا تحميه، لكنه يستطيع أن يحارب الفقراء والعزل اللذين أيضاً يضطهدهم شاه إيران، وأن عليهم أن يحملوا آثام شاه إيران، وهؤلاء في الحقيقة يطلق عليهم إيرانيين ومعظمهم ليسوا بإيرانيين فمنهم من ولد جده في العراق أو جد جده في العراق، وبعضهم مضى على عائلته أكثر من نصف قرن تسكن العراق، أطلق عليهم حزب البعث الاشتراكي الوحدوي لقب الإيرانيين، وعادة لو أن دولة من الدول أرادت أن تخرج أشخاصاً من بلادها فإنها تجمع العائلة برمتها وتخرجهم، وأما حزب البعث فلا يعرف ذلك لأنه لو عمل بهذه الطريقة لسجل التاريخ بأن في سياسية حزب البعث بعض الإنسانية، وهذا ما لا يرضى به بعثي مخلص غيور، فكانوا يعتقلون الرجل من السوق أو في الشارع أو في العمل أو من أي مكان ويجمع مع غيره وينقل في سيارة في أي نقطة من نقاط الحدود وينزلون هناك، وتكون المرأة

عائدة من شراء إدام أو من مدرسة أو لزيارة جارة أو طبيب أو غير ذلك وتعتقل أيضا في الطريق وتجمع مع غيرها في سيارة وتنتقل لأي نقطة من الحدود، أياً كانت هذه النقطة، ويكون الطفل آتياً من المدرسة حاملاً حقيبته فيعتقل في الطريق فينقل في سيارة إلى أي نقطة من نقاط الحدود ويطلق، فلا تتمكن تلك العائلة من اللقاء مع بعضها البعض أبداً، هذا إذا لم يبق في البيت رضيع أو طفل صغير لا يعلم عنه أحد، فيبكي ويبكي حتى يموت جوعاً وعطشاً، وكم من الرضع والأطفال قد مات في القيود في عام السبعين والواحد والسبعين من هذا القرن بسبب هذه الفعلة التي ارتكبتها البعثيون، وبطبيعة الحال من يتكلم، أو ينتقد، أو يقول إن هذا الأمر لا ينبغي أن يكون، يعتبر خائناً وعميلاً فيُحكم عليه بالإعدام أو يُعذب في مجازر البعث، ويكفيك أنهم حولوا القصور التي كانت تُعرف بأسماء جميلة إلى مواضع للتعذيب كقصر الرحاب حُول إلى موضع تعذيب، وكذلك قصر الزهور حُول إلى موضع تعذيب، بالإضافة إلى المخابئ التي أنشأها أمنهم تحت الأرض في بغداد أو في نقرة السلطان أو في غيرها واعتُقل كثير من العلماء ومن طلاب العلوم الدينية ويزجون بالعشرات في تلك الحفر ومنهم من يخرج حياً لا يُنتفع به أو لا يخرج إلا جنازة أو تُعمل له محاكمة صورية ويُحكم عليه بالإعدام، وذلك بعد أن يُعدم بأيام أو بليال.

وكان آخر من أصابته هذه القضية هو المرحوم الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمة الله عليه وأخته الشهيدة بنت الهدى، وطبعاً هذا حصل في أيام صدام، فهذا الرجل - صدام - كان لولياً في حزب البعث حتى قبل أن يكون حاكماً، يعني حتى عندما كان الحاكم أحمد حسن البكر كان في الحقيقة الذي يُمضي الأمور والذي يقرر والذي يرفع والذي يضع هو صدام، وكان لا يبالي أن يفعل بالناس أي شيء، لكنه في الحروب جبان، وأنا أذكر لكم جنبه في الحروب.

في العام سبعين كانت بريطانيا أعلنت أنها ستخرج من شرق البحر المتوسط، وأنه لا يُمكن أن يبقى فراغ في الخليج، ولا بد من وجود دولة قوية تأخذ على عاتقها ملأ الفراغ، وتمثل شرطي الخليج، ورشحت بريطانيا العراق للقيام بهذه المهمة بدلها، وطبعاً من يريد أن يقوم بهذه المهمة عليه أن يكسر قرني إيران، لأن إيران وهي الدولة القوية، الكبيرة، الواسعة الأرجاء، المترامية، التي

يبلغ سكانها عشرات الملايين لن ترضى بذلك؛ فلا بد إذن من كسر قرنيها، وأمرت بريطانيا أو أوحى بريطانيا إلى حزب البعث في ذلك الوقت أن يُثير مشكلة شط العرب وأن يجمع جيوشاً كثيرة على حدود إيران، وفعلاً اجتمعت جيوش كثيرة على حدود إيران، ومن كان في إيران في ذلك الوقت؟ هو محمد رضا بهلوي، ومحمد رضا بهلوي خادم مطيع للبيت الأبيض، وطبعاً لا يوافق حكام البيت الأبيض على أن يُهزم، فأعطوا إشارة حمراء لبريطانيا بالنسبة إلى ذلك، وتعطل مشروع الحرب وعُملت سياسة جديدة بأن تُعطي لإيران طناب الصغرى وطناب الكبرى وتُشارك في أبو موسى وتُحل مشكلة البحرين عن طريق الاستفتاء ويكون على الشاه أن يعترف بأن هناك تغييرات اجتماعية قد وُجدت في البحرين في خلال القرنين الماضيين على حسب تعبيره هو، وتُحل المشكلة وبذلك يُعلن شاه إيران بأنه شرطي الخليج ولا يكون للعراق دور في هذه الناحية، وفعلاً هذا الذي حدث وأثبت شاه إيران أنه شرطي الخليج بأن أرسلت إيران جيوشاً تُحارب في عمان الثوار في ظفار، وبقيت الجيوش العراقية واقفة على الحدود الإيرانية إلى عام 1973م، حيث أبرقت الحكومة العراقية للحكومة الإيرانية بأنها ستسحب جيوشها من حدودها لتُحارب في تحرير فلسطين في حرب رمضان، ووافقت إيران على أن تنسحب الجيوش العراقية من حدودها وذهب قسم من الجيش العراقي إلى الأردن وهناك أغرى الفلسطينيين بالتحرش بالجيش الأردني واضطر الجيش الأردني أن يضرب الفلسطينيين، وكان الفلسطينيون يعتقدون أن الجيش العراقي يفصل بينهم وبين الجيش الأردني وبأنهم لن يسمحوا للجيش الأردني بالعبور، لكن بالعكس، الجيش الأردني ضرب الجيش العراقي وعبر، وضرب الفلسطينيين في معركة قاسية عُرفت بأيلول الأسود، واعتذرت بغداد عن خطأ الجيش الأردني في ضرب الجيش العراقي، وكانت هذه مساهمة جيش البعث في حرب رمضان وتحرير فلسطين، هذا الجيش الذي لم يحارب في فلسطين وكان مُستعداً أن يُحارب إيران إذا وقفت معه مثلاً بريطانيا وروسيا، ولكن لأن أمريكا لم توافق ارتكب بعد ذلك أشد التتكيلات تجاه الشعب العراقي، وضرب القرى الكردية بالقنابل، وأزال قرىً بكاملها ونكل بالأكراد الفقراء المساكين، ونُقل قسم منهم للسكنى في جنوب العراق، ونُقل قسم من العرب على

رغم أنافهم للسكنى في بلاد الأكراد، وبقي الأمر على ذلك، إلى أن قامت الثورة الإسلامية في إيران، وتغيرت الموازين، فأخرجت بريطانيا المشروع القديم من الدرج، بأن يكون العراق هو الذي يملأ الفراغ في الخليج، وأعطى البيت الأبيض إشارة خضراء وحصلت الحرب العراقية الإيرانية، التي كلكم أدركتموها وأدركتم مواقف الجيش العراقي وما فعله في داخل المدن الإيرانية، وما فعله في مدينة الحويزة، ومدينة الحويزة ليس فيها عجمي واحد بل كلهم من العرب، وكيف فجر بالنساء ودفنهن أحياء، وكيف نهب الأموال وهدم المساكن وغير ذلك، وطبعاً كان ذلك بمباركة من الغرب والشرق، ومساندة ومباركة منا نحن أهل الخليج أيضاً، بل كل العرب ولا نتبرأ من أننا كلنا أي كل العرب الذين باركوا ذلك قد تحملوا قسطاً من آثام صدام.

ورجع الجيش العراقي بعد الحرب الإيرانية مهلهلاً وإن كان في ظاهره بصورة نصر أو كما يعبر عنها الدول لا نصر لطرفٍ من الطرفين ليتوجه إلى حلبجة ليقتل أهلها بالغازات السامة ثم يتوجه إلى سائر المدن العراقية من زافو إلى نهاية صفوان ليزيق أهلها الويل والثبور، وينكل بالأبرياء ويعتقل أهل الفكر وأساتذة الجامعات والعلماء وغير ذلك، إلى أن صار اعتدائه على الكويت وما فعله بالكويت كان واضحاً، ورجع الجيش من الكويت وهذا الرجل لم يأمر جيشه بإطلاق رصاصة تجاه جيوش الحلفاء لأنه خار وارتبك حتى أنه لم يتمكن أن يفعل شيئاً، وأمر جيشه بالانسحاب تحت وابل القنابل وأزيز الطائرات مما أدى إلى مقتلة عظيمة في الجيش العراقي من دون حربٍ مطلقاً.

عاد هذا الجيش المهزوم وخاصةً الحرس الجمهوري الذي لم يحرك ساكناً تجاه الحلفاء، عاد ليقصف الآمنين وليبيدهم وليقتلهم وليحاربهم، لا لشيء إلا لأنهم يطالبون بحقهم، وقضية اعتقال السيد أبي القاسم الخوئي [أيده الله] ليست بدعة من كل ما جرى من هذا الطاغية أو لغيره من الطغاة الذين جاؤوا إلى بغداد من أول يوم لتأسيسها، ولكن كما أن تلك الاعتداءات السالفة على العلماء طيلة هذه الأزمان لم يتمكن الطغاة أن يستفيدوا منها شيئاً بل صارت لخرة عارٍ تبقى إلى يوم القيامة فهذه القضية هي أيضاً مثل تلك، وإذا كان صدام إنما اعتقل السيد أبا القاسم الخوئي ليلزمه بالتنديد مثلاً بمعارضة بلاده أو غير ذلك، فالظاهر أن هذه خطة إعلامية فاشلة

لأن كل العالم يعلم بأن هذا الإنسان معتقل، فإذن ما يقوله أو ما يقال عنه سوف يؤول أو يفسر بأنه تحت الإكراه، ولو أنه ترك السيد حفظه الله في بيته وكذب على لسانه في الإذاعة والتلفزيون لكانت الفائدة في تضليل كثير من الملايين السذج أكثر، أما الآن حتى هؤلاء السذج وقد علموا بأن السيد معتقل لن يصدقوا ما يذاع من إعلان النظام العراقي وإعلام صدام بالذات، إضافةً إلى أنه لا يتمكن أن يفعل به سوءاً في الوقت الحاضر إلا أن تبلغ به الحماقة والجنون والهوس إلى غير ذلك، لأنه بعد أن ظهر معه ويتحدث معه في التلفزة وغير ذلك فمعلوم أنه مسؤول عنه، فلو أنه أقدم على فعلة تمس به فلا إشكال أن هذا يكون مسؤولاً عنه، ومسؤول عنه كل أفراد نظامه من وزير إلى مجلس ثورة إلى غير ذلك، فلا إشكال أن هذه الفعلة الشنيعة لا تختص جريمتها بصدام وإنما تحمل مسؤوليتها جميع أعوان صدام وإذا كانوا يتبرؤون أو تمكنوا أن يتبرؤوا من كثير من جرائمهم فإنهم لن يتمكنوا أن يتبرعوا من هذه الجريمة، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعجل بسقوط هذا الطاغية وأن يفرج عن الأمة العربية والإسلامية وعن شعب العراق من هذا الكابوس الجاثم على صدره.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

رسالة*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللجنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين، والسلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته.

كان من المزمع أن تكون هذه الكلمة خاصة ببعض الأمور التي تعيشها هذه البلدة، ولكن رأينا أن نؤجل هذا الموضوع إلى فرصة أخرى، ونتكلم عن بعض ما يدور في الساحة العامة بدلا من تخصيص الكلام عن البلدة بخصوصها.

وربما يفهم من هذه الكلمة التي سنقولها أنها دفاع عن النفس أكثر منها توجيها، وأقول حتى لو فهم منها ذلك فلا ضير فيه، فلو استغنى إنسان عن الدفاع عن نفسه لبراءته لاستغنى أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه عن الدفاع عن نفسه. ومن ينظر في نهج البلاغة وفي كثير من خطبه كالخطبة الشقشقية وأمثالها يجده صلوات الله وسلامه عليه يركز فيها على بيان أمور تتصل به شخصيا. ونحن نعلم أن دعايات المغرضين خاصة من بني أمية ضده صلوات الله وسلامه عليه حاولت أن تشوه عليه كثيرا، ولا يزال كثير من هذه الدعايات سارية عند جمهور المسلمين ضده حتى اليوم، مثال ذلك، نسبة الكفر إلى أبيه رضوان الله عليه أبي طالب؛ فلا تزال غالبية المسلمين تعتقد بأن أبا طالب عليه السلام مات كافرا، لماذا؟ للدعايات المغرضة التي كان يبثها بنو أمية ومن كان معهم. ولأن هذه الدعاية إنما خرجت بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه، ولم تكن هناك فرصة لأولاده بسبب الضغوط الشديدة التي وقعت عليهم للدفاع عنه، مثال ذلك لم يردع بني أمية مقام أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه في الإسلام ولا قربه من رسول الله ولا كونه أول المؤمنين ولا كونه الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وآله "علي مع القرآن والقران مع علي" لم يمنع الألسنة المستأجرة من بني أمية أن تقترى على علي عليه السلام وتتهمه حتى بارتكاب الكبائر والعياذ بالله، فلا يزال مع الأسف جمهور كبير من المسلمين ومنهم مثلا صاحب

* كلمة ألقاها في ليلة الثلاثاء 19/6/1995م بجامع جدحفص

كتاب [في ظلال القرآن] السيد قطب وهو يدعي أنه من العلماء العصريين المتحررين حتى مثل هذا الإنسان تنطلي عليه مثل هذه الدعايات المغرضة فيقول في تفسيره إن قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرُؤُوا الصَّلَاةَ وَآتُّهُ سُكَّارًا حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾¹، نزلت في علي بن أبي طالب لأنه كان يشرب خمرًا كثيرا ويذهب إلى المسجد وهو سكران.

نعم، الدعايات إذا أطلق لها العنان قادرة على أن تشوه أي شخصية. ولولا أن الله سبحانه وتعالى قيض لمحمد صلى الله عليه وآله النصر على قريش لكانت التهمة التي وجهت إليه بالكذب أو بالسحر أو بأنه عميل للروم في تفتيت العرب قد ثبتت عليه. ومن ينظر القرآن يجد هذه التهم موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

فإن الإشاعات المغرضة والدعايات المدروسة التي تستعملها الفئات السياسية قديما وحديثا قابلة لتشويه أي شخصية، ولإسقاط أي إنسان. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد دافع عن نبيه في قرآنه، وإذا كان أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه قد دافع عن نفسه في خطبه وفي حياته فلا ضير إذن على أي مؤمن أيضا أن يدافع عن نفسه وأن يشرح ويبين مصادر أي تهمة توجه إليه، فحتى لو فهمت الكلمة التي ستقال على أنها دفاع عن النفس أيضا فلا ضير في ذلك، فقبلي من الأوصياء والأنبياء من دافع عن نفسه، على أن الكلمة في الحقيقة هي دفاع عن خط، ودفاع عن فكر، ودفاع عن مجموعة، لست أنا المقصود بالتشويه، ولكن علماء البحرين المخلصين هم جميعا مقصودين بالتشويه، وإذا كنت واحدا منهم وأقصد أكثر من غيري فلأنني أكثر منهم صراحة في فضح الدسائس التي تحاك للشيعنة في البحرين، وإذا كنت أقصد أكثر من غيري في هذا الموضوع فلأنني أكثرهم خبرة بما تريد الأحزاب أن تفعله، وأن تصل عن طريق تسخير الأبرياء من الشيعة الذين لا يعرفون شيئا والسير عليهم واتخاذهم جسرا لأغراضهم ومطايا لهم.

أما بالنسبة لي فأنتم والبحرين كلها تعلم أن القوم لم يكن استهدافهم لي جديدا، فقد مضت عشر سنوات أو تزيد لا توجد مناسبة إلا وتكثر عني الافتراءات والإشاعات في كل مكان، هذا

¹ النساء: من الآية 43

أمر ليس بالجديد، مضى عليه عشر سنوات أو تزيد، ولكنني أحمد الله على أن القوم لحماقتهم ولجهلهم لم يعتمدوا في يوم من الأيام على حقيقة، لم ينطقوا بكلمة صدق، كل ما عندهم أمور مخترعة مختلفة؛ ولذلك تنكشف بسرعة، ولم يتمكنوا أن يؤثروا شيئاً، ما تركوا وسيلة إلا ارتكبوها، ما أكثر الأشرطة التي دبلجوها، مرة أنني أفسق الخميني، ومرة أنني ضد الجمهورية الإسلامية، ومرة ومرة... وما شاء الله من الافتراءات التي أصبحت عند الناس لا يكثرث بها، ومع ذلك كنت أنا شخصياً أعف عنهم، وكذلك بالنسبة للعلماء.

لقد مضت أجيال وهم لا يتركون وصمة إلا وصموهم بها، فلان عميل، فلان خائن، فلان كذا وهكذا، ماذا يريد هؤلاء الناس؟ هل يريدون إسقاط القيادات الدينية في هذا البلد ليمكنوا من سوق الناس في الاتجاه الذي يريدون؟ أعتقد أنهم لن يتمكنوا من ذلك، وإن الله سبحانه لن يمكنهم من ذلك، وإن وعي الناس، وإن إدراك الناس في هذا البلد، لهذه الدسائس، لا بد وأن تنكشف.

رسالة واحدة أوجهها إلى القوم، لا يحولوا الحرب إلى حرب شخصية فيضطرونا إلى كشف أسرار لا نريدها أن تنكشف في الوقت الحاضر، ليكونوا عقلاء، وأوجه الكلمة ثانياً لمن استرعاهم الله أمر المؤسسات الدينية كالمآتم والمساجد أن لا يسمحوا لهذه الأحزاب و للفسقة الذين رضوا لأنفسهم أن يكونوا أبواقاً لهذه الأحزاب بالصعود على منابرها، وأن يصرفوا عليها من أوقاف وقفها أصحابها على نشر المبدأ، وعلى تركيز العقيدة لا على السباب والشتم.

كلمة أوجهها إلى كل رئيس مآتم أنه سيكون مسؤولاً عن كل كلمة تقال على منبر هو مسؤول عنه، أوجهها إلى كل إدارة مآتم في البحرين أن هذه الإدارة ستكون مسؤولة عن كل كلمة تقال فوق منبر تكون تلك الإدارة مسؤولة عنه، عندما تتكلم علي، عندما تأتي بالأموال العامة أو بأموالك الخاصة تستأجر بها سبباً يسبني فإن من حقي أن أقاضيك، ومن حقي أن أقاضي هذا الفاسق الذي جعل نفسه شتاماً للناس، مغتاباً لهم، بهاتاً. وأني أندر أصحاب المآتم الذين سمحوا لهؤلاء الفسقة بشتمي وشتم غيري في عشرة محرم أن يسارعوا بالاعتذار إلي وإلى غيري من العلماء اعتذاراً رسمياً مكتوباً وإلا فلي ولبقية العلماء الحق في مقاضاتهم، في أي وقت شئنا، حقا

لا يسقط بمضي الأيام، في أي فرصة، اليوم، بعد شهر، بعد سنة، أي وقت نريد أن نقاضيهم فلنا الحق إذا لم يبادروا ويسارعوا بالاعتذار كتابيا، وننذر من يجري هذا المجرى في المستقبل.

على أي حال لا أريد أن أتجه في هذا الاتجاه كثيرا ولكنني أقول إن هذه الطريق الشائكة التي يريد الفاشلون أن يسلكوها، عليهم أن يتركوها، يكفي عشر سنوات أو تزيد والعلماء في البحرين صابرون على كل ما يقال عنهم، لا يردون بكلمة، لا يجازون مسيئا على إساءته. يعقدون الاجتماعات في قم لتحطيمهم وهم هنا في البحرين يركضون ويعملون من أجل أن تسمح الدولة لهم بالرجوع، هكذا كان العلماء، وفعلا تمكنا من أن يتركوا الدولة تسمح لهم بالرجوع، ماذا كانت النتيجة؟ استغلوا وجودهم في البلد لثلاث أو أربع سنوات لزيادة التشويه على العلماء، أربع سنوات ونحن نسمع كل ما يقال في أي مسجد في البحرين، ونصبر ونقول كما قال الشاعر:

قومي هم قتلوا أميمَ أخي فإذا رميت يصيبني سهمي

ونقول إنهم منا فإذا رميناهم فإن السهم أيضا يكون فينا، ولكن يبدو أن الأمر لن يقف إلى حد، وأن اللحم إذا تجاوز حده ربما انقلب إلى خرق وإلى عجز وإلى خور، لا بد أن يكون للحلم حدود، ولا بد أن يكون للصبر حدود، وإذا كان الفاشلون يرغبون في فتح معركة من هذا النوع فإنهم سيكونون فيها هم الخاسرون، نحن ننذرهم ترك هذا الطريق.

أنت أردت أن تقوم بحركة، أنت لم تتسق معي، لم تشاورني، لماذا يكون عليّ اللوم إذا لم أقف معك، هل تريد أن تجعلني خشبة على لعبة مسرحك؟ أنا نفسي من اللاعبين، بل أنا أشطر منك في اللعبة السياسية، إذا كنت تتجاهلني، تأتي وتصرخ علي: ماذا فعل العلماء؟ ماذا تريد العلماء أن يفعلوا لك؟ هل نسقت معهم؟ هل شاورتهم؟ أنت دبرت الأمر ضد هذا الشعب وضد هذه الطائفة بليل، ولقد أشرتُ ومنذ السنة الماضية في شهور صفر وربيع الأول وربيع الثاني وجمادى الأول في خطب متعددة إلى ما يدبر بليل، ولكن ما كان لي أن أصرح عما يدبر بليل، ولكنني أشرت، وأشرت وقلت إن رؤساء الأحزاب وسائر السياسيين لا يهمهم أن يستغلوا أي شئ للوصول إلى أغراضهم، وقلت إنني آسفُ لبعض طلبة العلم أن يرضوا أن يكونوا مطايا لرؤساء

الأحزاب وأذئابا لهم. راجعوا الخطب، تجدون أن هذا الكلام قد قيل في السنة الماضية، ولكن لا الناس الجالسين فهموا، ولا هم تعقلوا الرسالة، ولا غيرهم فهم، وكانت هذه الأزمة التي لا نزال نعيش فيها.

إذا كانوا يعلمون أو إذا كانوا يظنون أننا لا نعرف المصادر، ولا نعرف كيف دبرت الأمور، فهم غافلون، وخير لهم أن لا يُلجئونا إلى أن نفضح ما لا يرغبون في كشفه، وأن يوقفوا هذه الأعمال الطائشة.

أقول هذا لهم وأنا صادق فيما أقول، أنا لست مثلهم يعتمد على الأكاذيب والأراجيف، أنا لست مثلهم يخلق الحوادث، إذا كانوا يريدون أن أخبر الناس لماذا صدرت نشرة منبر الجمعة، ومن هم الأعضاء الذين دبروها، وما هي الاجتماعات التي عقدت في البحرين أو خارج البحرين لإصدارها، فأنا مستعد أن أخبر الناس إذا كانوا يرون أن ذلك في مصلحتهم، ولكنني تركتها ولم أفصحها لأنها أظهرت للناس الفكر الذي يحمل والذي يراد بثه إنما هو ملء الناس، إنما هو إشعال عواطف الناس، وكانت النتيجة ما حصل.

وعندما حصلت الأزمة مددت يدي لهم، ومد العلماء أيديهم لهم للتعاون، ولتحقيق الخير للناس فأبوا ذلك، أبوا إلا أن يرضى وأن يخضع العلماء فيسيروا في ركاب السادة الذين يسيرونهم، ويأبى العلماء أن يكونوا أخشابا يسيروهم رئيس حزب لا يستحي على وجهه أن يتحد مع الشيوعيين، وأن يتفق مع الشيوعيين، وليعلم ذلك هذا الإنسان الذي لا يزال يدبر ويخطط وهو خارج البحرين. على أي حال، هذه الكلمة هي مجرد رسالة أرجو أن لا أحتاج إلى تكرارها، وإلى توضيح أكثر ما يكون.

أما عن الكلام عن شأن جدحفص، وعن بعض الأمور التي تحتاج إلى علاج في جدحفص فسوف أرجئها إلى كلمة أخرى. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

توضيح*

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نظرا لتقدم بعض محبي الخير للكف عن الأسلوب الذي ابتدأنا به الكلمة الماضية، وإعطاء الفرصة والحلم أكثر كما يقولون فإننا نكتفي في هذه الكلمة، ببيان بعض الأمور التي حاول أتباع الأحزاب هنا في البحرين استغلالها، وترويجها على أذهان البسطاء من الناس، وهي تتلخص في نقاط في الكلمة الماضية:

النقطة الأولى، أن كثيرا من الناس صدق هؤلاء الأحزاب بأنني أفسق العلماء أو كل القائمين بالحركة، وهذا وهم، بل تصريح القول في الكلمة أن التفسيق مساق فيها للذين يغتابون العلماء ويشوهون عليهم و يكرهونهم عند الناس، ولا إشكال أن الغيبة والتشهير محرمان في الشريعة الإسلامية، بل هما من أكبر الكبائر المنصوص عليها في القرآن الكريم، سواء كانت لعالم أو إنسان عادي مسلم، أي مسلم، لا يجوز غيبته ولا التشهير به، ومن يخالف صريح القرآن ونصه لا إشكال في كونه فاسقا، وأن أي خطيب وإن لبس العمة وإن تزيا بزى أهل العلم، لأن الحكم الشرعي لا يفرق فيه بين العالم وغير العالم، فإذا ارتكب الإنسان عملا يوجب التفسيق يكون فاسقا، سواء كان خطيبا، أو كان كاتباً، أو كان مثقفاً أو كان أمياً، إذا اغتاب فهو فاسق، وإذا شهر بالناس فهو فاسق، والتفسيق واضح في الكلمة أنه لأولئك الذين جعلوا أنفسهم أبواقا للشيطان، وأخذوا يشهرون على علماء البحرين ويغتابونهم، وخصصت بالذات الذين تكلموا واستغلوا المنابر الحسينية، وإلا فهذا الحكم الشرعي يشمل من يقوم بهذا العمل حتى إذا كان يقوم به في مجلس، أو في مدرسة، أو في سوق، أو في دكان، أي إنسان يغتتاب مسلماً فهو فاسق، وأي إنسان يشهر بمسلم فهو فاسق. هذا لا إشكال فيه ولا تراجع عنه، وهذه هي النقطة الأولى.

* كلمة ألقاها في ليلة الثلاثاء 1995/6/26م بجامع جدحفص توضيحا للكلمة السابقة (رسالة) كشفاً للشبه التي حاول البعض تلبسها.

النقطة الثانية التي حاول أن يروج لها هؤلاء على البسطاء وعلى الشباب وعلى الناس، مستغلين أن الناس تنسى سريعا، وإلا فما أشرت إليه كان أن ينبغي أن يلتفت إليه الناس ولا يتمكن أحد أن يروج عليهم الأباطيل، فهي لما تكلمت عن محاربة الأحزاب للعلماء وبالخصوص لي ومنذ أكثر من عشر سنوات حملوا هذا الكلام على أشخاص أعزاء وأصدقاء علي مثلا مثل أبي سامي، أو أبي جميل، أو الشيخ علي، أو غيرهم، والغريب أن القرائن في الكلمة واضحة، ففي الكلمة لفظة [وإنني لأستغرب أو وإنني لأتعجب من انصياع بعض طلبة العلم إليهم]، كيف أقول هذا إذا كان هم من العلماء، هل هناك استغراب أن تتصاع بعض طلبة العلم إلى بعض آخر، أو بعض طلبة العلم إلى العلماء ممن هم أكبر منهم، إذن كيف استغرب أنا هذا إذا كنت أقصد بهم قسما من العلماء.

لا إشكال أن هؤلاء الذين اتهمتهم بالحزبية وأنهم يخططون في خارج البحرين، ليسوا من العلماء أبدا، وأنا أرشدكم إلى قرائن خارجية ينبغي أن لا تذهب عن بالكم والمعظم قد قرأها تقريبا. في يوم أحد عشر ديسمبر سنة ألف وتسعمائة وأربع وتسعين أي بعد ثمانية أيام تقريبا من اعتقال الشيخ علي سلمان، وبينما كان الشباب والمشايخ يقفون في مسجد ناصر الدين في بلاد القديم، وزع منشور باسم تجمع حزبي معين، هذا المنشور نسب فيه العلماء إلى العمالة، وإلى الخيانة، وإلى مساعدة الظلم، وإلى مساعدة الجور، وإلى السكوت عن الحق، وحتى أنه ليس فيه على الدولة التي قامت باعتقال الشيخ علي سلمان واحد من عشرة مما فيه على علماء البحرين، ويمكنكم الرجوع إلى هذا المنشور الذي وزع وهو موقع بتوقيع تجمع حزبي معين.

وقد عانتب الشيخين الأجلين في ذلك الوقت، الشيخ حمزة الديري والشيخ خليل سلطان وقلت لهما كيف سمحتما بأن يتوزع هذا المنشور على الشباب، وأنتما تقفان هناك؟ فاعتذر الشيخ خليل سلطان أنه لا يذهب يوميا إلى بلاد القديم ولا يعلم به ولم ير أحدا يوزعه، واعتذر الشيخ حمزة الديري بأن العلماء هناك يقفون داخل المسجد، وربما جاء أحد ووزع هذا المنشور على الشباب الذين يقفون خارج المسجد ولم يلتفت إليه العلماء وانصرف.

ثم استمرت حملة أتباع هذا التجمع على العلماء، في كل يوم يأتي بإشاعة عن عالم، يوما يأتيون ويقولون إن الشيخ أحمد الشيخ خلف قال كذا وكذا، ما هو الدليل؟ قالوا سنأنتيك بالشريط ثم لا يأتيون بالشريط. استأجروا أبوابا وساقوها من الفسقة في شهر رمضان على منابر سترة للتأليب على الشيخ منصور الستري تأليبا كثيرا حتى أدى ذلك كما علمتم إلى الحادثة التي حصلت في جامع سترة في يوم العيد. واستمرت هذه الإشاعات، حتى أن بعض الشباب يخبرني أن من يدافع عن الشيخ منصور أو الشيخ أحمد عند بعض المغفلين من الشباب الذين لا يستمعون إلا إلى أمثال هؤلاء ولا يحضرون مجالس العلماء، يستعجبون منه كيف تدافع عن الشيخ منصور أو عن الشيخ أحمد.

إلى هذا الحد وصل الأمر بسبب عمل هذه الكوادر الحزبية واستغلالها للأحداث التي وقعت مؤخرا في البحرين.

بالنسبة لي، في كل صبيحة يوم وعشيتها أسمع إشاعة تقال عني في البحرين لا علم لي بها ولا خبر، وحتى في الأيام المتأخرة حاولوا أن يأخذوا فقرات مبتورة من الخطب التي ألقيتها ليشوهوا بها علي كما كانوا يفعلون في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من بتر الألفاظ في المحاضرات التي أقولها أو في أجوبة المسائل التي أجيب عنها ويدبلجونها في أشرطة ويدورون بها على الناس، أيضا قاموا بهذه العملية في هذه الأحداث وأخذوا يحاولون بتر فقرات من الخطب والكلمات والمحاضرات التي أقولها ليشوهوا بها علي. ولقد أعلنت فوق منبر الجمعة إن أي جملة أو فقرة أو غير ذلك تبتتر، لا أعترف بها ولا تنسب إلي، وحتى في الخطب المتأخرة، كالخطبة التي ألقيتها في اليوم الرابع من محرم الحالي قطعوا منها بعض الفقرات وأخذوا يدورون بها على الناس ليشوهوا بها علي، بل إن بعض أتباع هذه الأحزاب وفي مساجد قريبة من هذه البلدة، علقوا منشورات بخط أيديهم يدعون فيها أنني قلت كذا وكذا والحال أنني لم أقل، والخطب كلها والله الحمد مسجلة ومكتوبة وغير ذلك وهذه المفتريات لا تزال ماضية.

واستمر الحال في هذا الموضوع إلى أن جاء اليوم العاشر من شهر إبريل من هذا العام أي سنة ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين، اتصل بي شخص مجهول من خارج البحرين، وقال لي عليك أن تستقيل من القضاء لأنه إذا لم تستقل فإنك تتسبب في حرمان الشعب من حقوقه، وأمثال ذلك من الكلام . قلت له يا أخي إنني لا أوّمن بالتصعيد وإنما أوّمن بالتهدئة والحوار، وتحقيق ما يمكن تحقيقه من المطالب عن طريق الحوار، وأخذ يصرخ في الهاتف صراخا شديدا، على أي حال تركته وسددت الهاتف في وجهه، وفي الحقيقة لم أعرف هذا الشخص لأنني لست متأكدا من صوته تماما، وبعد أيام قليلة وفي يوم 16 أبريل بالضبط وصلت إلي رسالة بالفاكس من خارج البحرين فيها من الشتم والافتراء والتقريع والبهتان والزور ما شاء الله، صفحة كاملة من صفحات الفاكس، ومع ذلك يقول في آخرها إنه لا يريد التشهير بي، وإنما يريد أن ينصحي قربة إلى الله تعالى، وظننت أن الكلام من هذه الجماعة سيكون حقا، ولكن عندما سافرت إلى الحج ووصلت إلى مكة، اتصل بي أحد الطلاب الذين يدرسون في إحدى البلاد الأوروبية ليسألني عن بعض المسائل، وبعد أن انتهى من المسائل الشرعية التي كان يود أن يستفسر عنها، قال لي يبلغك السلام فلان وفلان وفلان وهم جماعة من العلماء الذين في الخارج وقال إن هؤلاء العلماء يأسفون للجماعة في الرسالة التي أصدروها ضدك وهم يتبرؤون منها، ولكن ليس بإمكانهم أن يعملوا شيئا، قلت له ما دام إنها أرسلت لي شخصيا ولم تنتشر، سأسامح من كتبوها، قال لا، لقد عممت ووزعت.

وفعلا عندما رجعت إلى البحرين وجدت هذه الرسالة قد عممت على كل من عنده فاكس ووزعت في المساجد، ورميت في المآتم و نشرت في جميع القرى وجميع المدن وربما في خارج البحرين أكثر. والغريب في هذه الرسالة وهي في الشتم تحتج وتقول إن بيوت الشيخ منصور الستري اعتدي عليها وأن هذا لم يحرك منك ولا شعرة، ناسين أنهم لا يرون للشيخ منصور الستري حرمة، بل يرون أن الذي يدافع عنه كأنما يدافع عن كافر، وناسين أيضا أنهم تسببوا له في

إهانات كثيرة، وناسين إن الشيخ منصور الستري نفسه لم يستقل من القضاء بسبب ما وقع على بيوته، ولم يخرج للتصعيد كما يرغب هؤلاء لأنه اعتدي على بيوته.

على أي حال، من يريد أن يشتم ومن يريد أن يعبث، لسان الإنسان شحمة في فكه وقلمه بين يديه ويكتب ما يشاء خاصة إذا كان في مكان يأمن فيه العقاب. فإذن الذين قلت عنهم انهم أحزاب وأنهم اتفقوا مع الشيوعيين لا علاقة له بأحد من أهل العلم أبداً، وعلى الناس أن تتذكر كل ذلك، ولا ينبغي للشباب، ولا ينبغي للناس أن تنسى ما يحصل في الساحة بين ليلة وأخرى.

هناك نقطة ثالثة يشوه بها بعض المغرضين، يقولون كيف يقول إن طالبة قم كانوا يعتقدون اجتماعات لتشويه العلماء، وحاولوا تأويل ذلك بأنني اعني أبا سامي الشيخ عيسى قاسم، وهذا أمر عجيب ففي ذلك الوقت كان الشيخ عيسى في البحرين وليس في قم عندما كان العلماء يتحركون على أن تسمح الدولة للطلبة الذين في قم ممنوعين من النزول إلى البحرين، كان الشيخ عيسى في البحرين، وكان جوازه أيضاً عند الدولة وكان ممنوعاً عن السفر، وقد حصل على جوازه أيضاً بناءً على هذا التحرك الذي قام به العلماء، والشيخ عيسى نفسه يعلم ذلك، وإذا كان بعض الخطباء ممن جاء من قم يقول إننا لم نسمع بأن العلماء تحركوا على قضيتنا فالشيخ عيسى قاسم نفسه يعلم أن العلماء هم الذين تحركوا على قضية الطلاب الذين في قم والسماح لهم بالرجوع إلى البحرين.

على أي حال، القضية أنا سقتها مهملة، يعني فرق بين القضية المسورة بأن أقول "بعض" أو أقول "كل" أو أطلقها وأقول طالبة قم فتكون قضية مهملة، هذا الرجل الذي أخذ يروج لهذه الأمور يدعي لنفسه أنه من أكبر دارسي المنطق والفلسفة حتى سمعت أنه أصدر أو بصدد إصدار كتاب في تفكيك عبارات بعض الكتب الفلسفية. ولا يعرف الفرق بين القضية المهملة التي لا تفيد إلا الإجمال و يكون معناها مجملاً وبين القضية المسورة التي يكون معناها مفصلاً، يقول إن فلاناً عمم، والعموم يشمل الجميع بينما الإهمال يجمل، لا يعرف منه الجميع أو البعض أو شخص واحد أو شخصين أو ثلاثة، لأن المعنى المجمل غير المعنى المفصل بالعموم أو

الخصوص، وهذا إنسان يدعي أنه من طلبة العلم، ولكن لا نعجب أن بعض طلبة العلم لا يعرف حتى شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان هذا يدعي أنه يفكك عبارات كتاب فلسفي وهو لا يعرف الفرق بين القضايا المسورة منها والمهملة.

على أي حال، نعم هناك من طلبة قم من كان يعقد هذه الاجتماعات، وإذا أذن الله سبحانه وتعالى ووفق بأن يفتح الباب من جديد وجاء الاخوة طلبة العلم من قم يمكنكم أن تسألوهم وهم الذين سيخبرونكم بهذه الأسماء، أما أنا فلا أريد أن أتكلم باسم أحد. هذه النقطة الثالثة.

النقطة الرابعة التي أثاروها، قالوا إن الإنسان ينبغي عليه أن يتواضع، وفلان في هذه الكلمة قد تكبر كثيرا وتبجح كثيرا وافتخر كثيرا، وخاطب هؤلاء وقال أنني أقدر منكم على اللعب بالورقة السياسية أو أشطر منكم في اللعبة السياسية. أقول إنه لا إشكال أن العالم لا ينبغي له أن يفتخر بعلمه أو العارف لا ينبغي له أن يفتخر بمعرفته، وأعتقد إن جميع الناس في البحرين كلهم لم يسمعوا في يوم من الأيام مني كلمة تشير إلى فخر، وحتى إذا سئلت عن مركزي العلمي مثلا وما هو درجتي العلمية، أرفض الجواب، و أقول لهم اسألوا أهل الخبرة، وأرفض أن أجيب عن نفسي، ولكن هناك شئ وهو أن الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم في مقام التحدي لخصومهم، إذا وجدوا أن الخصوم يريدون أن يغمطوا حقهم، إذا رأوا أن الخصوم يريدون أن ينزلوا درجتهم عمدا، يفتخرون ويظهرون تلك الدرجة، من هؤلاء أمير المؤمنين وسيد المتقين وقائد المسلمين وهو أشد الناس تواضعا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، من يقرأ في خطبه وكلماته في أيام صفين وفي أيام خلافته، أو في أيام الاحتجاجات في قضية الخلافة، يجده يفتخر، يقول في الشقشقية "لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي ينزل عني السيل ولا يرقى إلى الطير"، ويقول أيضا "إنني أولكم إسلاما"، و"أنا أعلمكم بكتاب الله ناسخه ومنسوخه"، ويقول أيضا "لو ثبتت لي الوسادة لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم" وما أكثر الكلمات التي كان يبين فضله فيها لأنه وجد أن خصومه يريدون أن يحطوا من شأنه.

طبعاً سيرة الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين موضع اقتداء، فأيضاً إذا كان الخصوم يريدون أن يحطوا من منزلة شخص، ويشوهوا عليه، ويفهموا الناس أن عليه أيضاً أن يتبعهم من دون أن يتكلم لأنهم فقط هم الذين يخلصون للشعب وأنهم فقط هم الذين يعملون للشعب، و فقط هم يعرفون كيف يتصرفون، عندئذ يجب على الإنسان أيضاً أن يظهر فضله، أن يتحداهم كما يتحدونه، هذه نقاط أربع وأترك الكلام في هذا الشأن وإعطاء فرصة لترك التشويه علي وعلى غيري من العلماء استجابة لطالبي الخير واستجابة للذين تعرضوا وطلبوا مزيداً من الصبر والحلم، وإن كنت أرى أن الصبر أكثر من عشر سنوات والحلم أكثر من عشر سنوات، ربما يعد خرقاً أو عجزاً أو ضعفاً أو تصحيحاً وتصديقاً لما يقال ويشاع، ولكنني استجابة للمخلصين أكف عنهم ولا أسايرهم في هذه الحرب لعلهم يتركونها من أنفسهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

دعوة إلى التآلف ونبذ البغضاء*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

أعتذر عن المواصلة في المحاضرة السابقة وهي تحريف الكلم بسبب الحمى التي ألمت بي
في اليومين الماضيين وهذا اليوم، وأرجئ الكلام عنها إلى أسبوع آخر، غير أنني أود أن ألفت
نظر الأخوة إلى أنّ بعض الشباب أصبح وكأنه قنبلة موقوتة يريد أن ينفجر لأدنى سبب، وأصبح
كل شخص منهم لا يتحمل من أخيه ولو كلمة بسيطة، لسانه ممدود، و يده مستعدة للضرب،
وغير ذلك.

هذه الأمور ليست في صالح أحد، ليست في صالح المجتمع كله، الذين يحزبون الناس
ويفرقونهم أناس مغرضون، والذين يوغرون قلوب الناس على بعضهم البعض أناس مغرضون لهم
أغراض خاصة. زيد تشاجر مع عمرو، أجيئ أنا واجبي الشرعي أن أتكلم لهما كلمة خير، أهدئ
من ثورتها، أزيح الغضاضة التي بينهما لا أن أدخل طرفا معهما.

بعض الشباب مع الأسف، يرون أن أي كلمة مع واحد منهم فإن عليهم جميعا أن يدخلوا
وكأنهم رجل واحد، عن ماذا يكشف هذا السلوك؟ عن أي شيء تكشف هذه النفسية الموجودة؟
أختلف مع زيد في الرأي أو في الفكرة فلماذا تكون يدي مستعدة للبطش ولساني ممدودا بالكلام
الوسخ والفحش وغير ذلك؟ هل هذا يحل الأمور أو يعقدها؟ يحقق الآمال أم يبعتها؟ عندما يصبح
كل عشرة أفراد مجموعة بمفردها خاصة هذا المجتمع عندئذ ماذا يكون؟ فئات صغيرة متوزعة
ومتناحرة ومتضاربة، مجتمع كهذا تعتقدون أن تقوم له قائمة؟ مجتمع عقليات شبابه بهذا المستوى
من الانحطاط تتصورون في يوم من الأيام أن تعلقوا له راية؟ لمصلحة من هذا السلوك الدنيء؟
لمصلحة فرد يريد أن يظهر نفسه زعيما وهو لا يتمكن أن يعطي خدمة فيذهب إلى أطفال في

* كلمة ألقاها في ليلة الثلاثاء 14/8/1995م بجامع جدحفص

السادسة عشرة وفي السابعة عشرة وفي الثامنة عشرة وأمثال ذلك يحزبهم ويجمعهم ضد أفراد آخرين ربما في سنهم وربما أكبر وربما أصغر، ومع ذلك يصر هؤلاء الشباب أن لا يفضحوا هذا المغرض الخائن للمجتمع الذي يريد أن يكون كالعلقة يمتص الدم، ويكبر وينمو على حساب المجتمع، مع الأسف هو أحقر من العلقة، العلقة أحيانا تستعمل في الطب بدلا من الفصادة، وأما هو ففي أي شيء يستعمل؟ نعم يستعمل لهدم المجتمع، يستعمل للتفريق بين الأخ وأخيه، يستعمل لإفادة المغرضين.

لماذا هذا السلوك العجيب المتقشي في جميع القرى والمدن؟ ولحساب من؟ من يعتقد أنه بهذا السلوك مخلص لقضية من القضايا فهو واهم، ومن كان يعلم بأن سلوكه يضر بالمجتمع ولا يرتدع ولا يتوب فهو خائن لقضية المجتمع التي عاهد الله على خدمتها، هذا سلوك دنيء، لماذا فحش القول؟ لماذا الاتهامات بالمجان؟ إطلاق الكلام على عواهنه؟ لماذا مد اليد؟ لماذا التحزب؟ زيد وعمرو تشاجرا؛ آتي أنا وأدخل وكأني جئت لأظهر رجولتي! أنت لم تظهر رجولتك، أنت أظهرت سقوطك، أنت وقفت موقفا جاهليا لا يختلف في قليل ولا كثير عن مواقف أهل الجاهلية، لو جئت وقلت أيها الأخوة اتركوا هذا النزاع فهذا صحيح، أما أن تأتي نافخا أوداجك وتريد أن تزيد الفتنة ضراما، لماذا؟ لا ادري لمصلحة من هذه الأمور التي تجري في كثير من القرى وكثير من المدن، وإلى متى سيبقى الناشئة منحطي الإدراك إلى هذه الدرجة؟ عذرناكم أيها الناشئة كثيرا ولكن العذر زال، لماذا هكذا أنتم؟ أنتم عماد المستقبل، إذا نشأتم على هذا الخلق الذميم، وإذا نشأتم على هذا التعصب الممقوت، وإذا نشأتم على هذا التحزب البغيض، فماذا ستفيدون في المستقبل، لماذا تسمحون للمغرضين أن يستغلوكم، أن يقضوا بكم أغراضهم؟ أخبروني لماذا؟ لمصلحة من هذا؟ ولمصلحة من عدم فضح من يأتيك ويغتاب أخاك عندك؟ لمصلحة من أن لا تفضح من يأتيك ويوغر صدرك على قوم آخرين من المجتمع؟ لمصلحتك؟ لا، ثق أنه لضررك، لمصلحة بلدك؟ لا، ثق أنه ضرر على بلدك، ضرر على قومك، ضرر على المجتمع بأسره، نعم لمصلحة من يريد أن يضعك في قفصه ويغلق عليك في سجنه فقط.

إلى متى ستبقى هذه السلوكيات الباطلة الماجنة؟ لأتفه الأسباب تأتي الاتهامات المتبادلة، الكلمات النابية، السلوك الجاف، يمر الإنسان على إنسان آخر كل منهما يدعي التشيع لا يسلم عليه لماذا؟ أخلاق الإسلام هذه أم أخلاق الجاهلية؟ أتظن أيها الإنسان الذي تركت سنة رسول الله صلى الله عليه وآله في إفشاء السلام أتظن أنك تدعو إلى الإسلام؟ كذاب أنت، كذاب من أفهمك أن هذا هو الإسلام، إن الله سبحانه وتعالى جعل السلام تحية بين المسلمين، فإذا مررت تقول السلام عليكم، تحب هذا الإنسان أم تبغضه، صديقك أم عدوك، إذا لم تقل له سلام عليكم فمعناه أذنته بالحرب، وأظهرت له العداوة، رجل أظهر لي الشر، مر علي ولم يعطني كلمة الأمان التي أنزلها الله في كتابه، كلمة فيها عهد، أقول له سلام عليكم يعني أنت سالم من لساني ومن يدي هذا معناها، أو يمر عليه رجل يشهد معه الشهادتين ويقول له السلام عليكم فلا يرد وكأنه الحجرة الجالسة، ما أسخف هذا الخلق وما أجفى هذا الإنسان، لم يكن أبو جهل أجفى منه، ولا أشد منه شراسة، ولا أكثر منه حمقا، هل هذه أخلاق محمد صلى الله عليه وآله؟ أخلاق علي؟ أخلاق الحسن؟ أخلاق الحسين؟ أخلاق الأئمة هذه؟ يظهر نفسه بطلا في أنه لم يرد السلام على عمرو، ولا يدري أنه أثم لأنه ترك واجبا شرعيا، مسكين لا يعرف الحقوق، هذا حق واجب لكل من يقول لك السلام عليكم، وأنت ظلمته حقه، وصار له أن يطالبك به، بل إذا سلم عليك ولم ترد عليه السلام فالمعنى أنك رفضت عهده، رفضت معاهدته بالسلامة من يدك ومن لسانك كما لو مر ولم يسلم عليك.

هذه أخلاق المؤمنين؟ أخلاق من يدعي أنه غضب للحق؟ كذب هذا الذي يدعي أنه يغضب للحق وهو ضد الحق لأنه لا يعرف ما هو الحق، الحق هو ما أنزله الله في كتابه، الحق هو ما بينه الرسول في سنته، الحق هو ما بينه الأئمة في كلماتهم، وليس الحق هو ما تصورته بوهمك، يطلب الحق وهو لا يرد السلام، يطلب الحق ويده مستعدة للبطش، يطلب الحق ولسانه كأنه لسان الكلب العقور، لماذا؟ لماذا هذه الأخلاق الجاهلية؟ لماذا تعودون بعد الإيمان إلى أخلاق الجاهلية؟

تأدبوا بآداب الله، تأدبوا بآداب رسول الله، تأدبوا بآداب الأئمة إن كنتم لله وللرسول وللأئمة تتبعون، ودعوا عنكم هذه الجاهلية، ماذا كانت أخلاق الجاهلية؟ ولماذا سميت جاهلية؟ ألا يوجد كفار اليوم؟ ألا يوجد من يعبد الأصنام اليوم؟ لماذا لا تسمونهم جاهلية؟ ألا يوجد النصارى اليوم؟ لماذا لا نسميهم جاهلية؟ إنما سماوا جاهلية لأنهم جفاة، لأنهم جساءة، لأنهم قساءة، وإلا فالوثنيون موجودون لليوم، اذهب للهند تجدها مملوءة بعبدة الأصنام، اذهب إلى الصين تجدها مملوءة بعبدة الأصنام، ترى ألم يعبد الأصنام في الدنيا إلا العرب حتى نسميهم جاهلية لأنهم عبدوا الأصنام، لا، إنما أطلق عليهم أهل الجاهلية من الجهل وهو التكبر والغضب والحمق والقسوة والجفوة وكل من أخذ هذه الأخلاق والصفات له عادة فهو جاهلي، فالجاهلية ضد الحضارة وضد التمدن، ليست ضد التدين، ليست ضد الإيمان بالله، ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾¹، هذه الأحكام التي يأتي بها أبو سفيان وأبو جهل، وإلا فأهل الكتاب كفار، في الهند وثنيون، في كل مكان وثنيون، ما أطلق عليهم أهل الجاهلية، أطلق أهل الجاهلية على خصوص مجموعة معينة في بلاد العرب، لماذا؟ لأنهم لا يريدون أن يسمعوا، عندما يريد إنسان أن يتفاهم معهم، لا يريدون أن يتفاهموا، عندما يريد إنسان أن يتحاور معهم، لا يريدون أن يتحاوروا، سماوا أهل الجاهلية، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا بُدَّ لِي مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾²، يعني لا نبتغي الجاهلين، لماذا؟ الذين يثرون لأنفه الأسباب، والذين يتكبرون في أنفسهم، الذين ينفخون أوداجهم على غيرهم، الذين لا يرون رأيا إلا رأيهم ولا منطقا إلا منطقهم ولا حقا إلا ما تصوره بأذهانهم، هؤلاء أهل الجاهلية. لماذا هذه الأخلاق؟ لماذا هذا السلوك؟ مع الأسف فيهم طلاب جامعيون، ومع الأسف فيهم مدرسون يدرسون الأجيال هذه الأخلاق اللطيفة! مع الأسف فيهم أناس يدعون أنهم متفقون.

يا إخواني لا ينبغي لكم أن تستمروا على هذه الحالة، وإذا بقيتم على هذه الحالة فأبشركم بسقوط ما بعده سقوط، و ذلة ما بعدها ذلة، ضعف ما بعده ضعف، الشعوب الراقية، والمجتمعات الراقية، مجتمعات متعاونة، مجتمعات متفاهمة، مجتمعات تتحمل الاختلاف والخلاف ولا تشق

¹ المائدة: من الآية 50
² القصص: من الآية 55

صفوفها، مجتمعات تحافظ على من يختلف معها في الرأي كما تحافظ على من يتفق معها في الرأي، هذا هو المجتمع الراقي، المجتمع الراقي يتهم أهل القرية كلهم بالنفاق؟ ما أرقى هذا الإنسان! وبشعر هزيل، لا أريد أن أتكلم عن مثل هذا الإنسان التافه فإن في جدحفص السنة هي أشد من أنياب الحيات إذا عضت، وفيها السنة هي أشد من أسنة الرماح إذا طعنت، يستطيع أهل جدحفص أن يدافعوا عن أنفسهم، ولكنني أقول لهم إن من يقول مثل هذا الكلام إنسان تافه ساقط لا يستحق منكم اعتناء ولا التفاتاً، وكذلك في قرى أخرى كثير من هؤلاء التافهين الذين لا يستحقون حتى أن يبصق عليهم.

على أي حال أنصح الشباب أينما كانوا أن يتركوا أخلاق الجاهلية، وأن يكونوا مجتمعاً متحضراً. نحن هنا في البحرين ندعي أننا شعب عريق الحضارة، عريق المدنية، فأين حضارتنا وأين مدنيّتنا، ظهرت هذه الأيام بهذا السلوك الذي لا يختلف عنه سلوك أبي جهل وأبي سفيان. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى طريق الصواب بحق محمد وآله الأطياب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تساؤلات (1)*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما هو أهله وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله، والسلام عليكم أيها الاخوة جميعا ورحمة الله وبركاته.

كم يسرني أن ألتقي من جديد مع هذه الوجوه المؤمنة، كم يسرني أن ألتقي بكم من جديد في هذا المسجد وبعد غياب وإن كان في عمر الزمن قصيرا إلا أنني أحسبه دهرا طويلا.

ألتقي بكم وقد لمستم بأنفسكم ورأيتم بأم أعينكم كيف أن ما طرحناه من مبدأ التهذئة وحل الأمور عن طريق التفاهم والتحاور هو الطريق الصحيح الموصل الذي لا بد وأن ينتهي الأمر بانتهاجه. كم حورينا لأننا طرحنا مبدأ الحوار ونبذ العنف والشدة من أي جهة كانت، كم شوه علينا ونحن نقول للناس جميعا سواء كانوا حكاما أو محكومين إن الشدة لن تولد إلا الشدة وإن العنف لن يولد إلا عنفا، و إن الله سبحانه ما جعل في يوم من الأيام التناحر والتشاجر والتهاتر طريقا طبيعيا للتعامل بين عباده، كم أودينا وكم افتري علينا ونحن ندعو إلى منهج القرآن ومنهج السنة النبوية في التزام الكلمة الحسنة وفي التعامل باللين والرفق ونبذ الشدة والتفرقة. ولكن يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذُوبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْعَثُ النَّاسُ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ﴾¹.

بعد أن لم يكن منبر يدعو إلى الحوار غير هذا المنبر ومنابر أخرى قليلة كلها حوريت وكلها افتري عليها وشوهت، أصبحت كل المنابر وكل الألسنة تصب في مجرى واحد ذلك هو جدول التهذئة والتحاور. بإمكانكم أن ترجعوا إلى كل الخطب التي ألقيت ابتداء من اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر في السنة الماضية وانتهاء بآخر جمعة صليت، ارجعوا إليها، اقرعوها، واسمعوا ما يقال اليوم من محاضرات ومن ندوات ومن كلمات لا أقول إنها تتفق معها في المعنى بل هي تردد نفس عباراتها وتحتج بنفس رواياتها وآياتها.

* كلمة ألقاها في ليلة الخميس 9/13/95م بجامع جدحفص
¹ الرعد: من الآية 17

فإن إن هذا المبدأ القرآني هو الذي أثبت نفسه وهو الذي أيده الله بتأييده ونصره بنصره، وهو الذي رأى الناس بعد كل ما حدث أنهم لابد أن يرجعوا إليه وأن ينتهجه لعلمهم يحققون خيراً لأنفسهم.

كم كنا نرغب، وكم كنا نود أن يلتزم هذا المنهج من البداية، وأن يسار على هذا الدرب من أول الطريق، لكننا قد تفادينا ذهاب أرواح أبرياء قد أزهقت، ولكننا قد تفادينا طاقات في المعتقلات والتوقيفات قد عطلت، ولكننا تفادينا أموالاً عامة وخاصة قد أتلقت، ولكننا تفادينا أن نعود شرانم صغيرة، وفئات لا تزال غير ملتزمة، ولا تزال غير متفقة، ولا تزال القلوب تحقد على بعضها البعض. لو أن صوت العقل وصوت التفكير غلب منذ البداية على صوت المزاجية والعواطف، لكننا قد استرحنا من كثير مما أصابنا.

وعلى أي حال فنحن نحمد الله سبحانه على هذه العودة وعلى هذا الرجوع إلى منهج القرآن والسنة من كل الناس.

ولا أريد أن أطيل في الكلمة فليس عندي موضوع جاهز أطرحه هذه الليلة ولذلك أترك الباب مفتوحاً للأسئلة حتى أوضح ما قد يدور في أذهان كثير من الناس ولا يجدون له جواباً. يقول السائل: هل لديكم معرفة أو مساهمة في إطلاق سراح الأخوة العلماء المسجونين الذين أطلق سراحهم مؤخراً؟

سماحة الشيخ: بعد الجلسة الثانية مع سمو أمير البلاد وتقرير مبدأ إطلاق كافة الموقوفين الذين لم توجه إليهم تهم معينة أو كما يطلق عليهم في مصطلح الأمن المشاركون بدرجة ثانوية، والإصرار على أن يكون إطلاق النساء فوراً وأن لا ينتظر به الهدوء أو غير الهدوء، عمّدت مجموعة الحوار شخصين من أعضائها ليقوما بالاتصال بالجهات الأمنية في هذا الشأن وهذان العضوان هما عبد النبي الشعلة والحاج أحمد منصور العالي فأخذا يترددان على سعادة وزير الداخلية بقية الشهر الثالث وطيلة الشهر الرابع، وبعد مجيئنا من الحج واشتغال أحد الشخصين بالدخول في الوزارة الجديدة ذهبت أنا والسيد مصطفى القصاب لاستكمال مهمة الأخوين السابقين

وللكلام عن المرأتين اللتين بقينا حتى ذلك الوقت لم يطلق سراحهما، وأيضا أضيفت لهما في ذلك الوقت امرأة ثالثة أوقفت مؤخرا، وأيضا عن قضية المواكب العزائية التي كان يزعم أن تقيد حريتها في العام الماضي وعن بعض المعتقلين الآخرين.

وفي أثناء المقابلة فكرنا أن نطرح قضية المشائخ والأساتذة الخمسة الموجودين وطرحناها على سعادة وزير الداخلية الذي رفض أن يتحدث معنا فيها بحجة أنكم لا تأثير لكم عليهم ولا ينبغي أن تفتحوا هذا الباب، وفي نهاية الجلسة طلبنا من سعادته أن يسمح لأهالي المشائخ وأهالي الأساتذة بمقابلتهم فقال هذا لا مانع منه، وطلبت من الأخ السيد مصطفى إذا التقى بقريبه أن يعرف لي إن كان هناك تغير في التوجه، وإن كان هناك تغير في الموقف حتى يمكننا أن نبنى الكلام على أساسه. ورجع إلي السيد يخبرني بوجود تغيير كبير في التوجه وفي الموقف الموجود عند الجماعة، فحاولنا تحصيل مقابلة جديدة مع وزير الداخلية حيث تمت في اليوم السابع من شهر المحرم وهو يوم الثلاثاء وأعدنا عليه طرح الموضوع وعندما احتج بأنكم لا تملكون تأثيرا عليهم قلنا له إن الخلاف الشديد الذي كان بيننا وبينهم في الأساليب والمناهج التي يسعى كل منا إلى تحقيقها في السابق ربما تكون قد حصلت هناك تغيرات فإن الإنسان إذا انتقل من حالة إلى حالة لا بد أن يبدأ في التفكير، وأن يراجع نفسه وحساباته، وحتى نتأكد من أنه لا تأثير لنا أو لنا تأثير نطلب أن يسمح لنا بمقابلة الجماعة. فرفض الوزير رفضا باتا أن يسمح لنا بمقابلة المشائخ والأساتذة، وقال إذا كان ولا بد فإن القوم قد أرسلوا قبل يومين يطلبون مني مقابلة، وإذا كان ولا بد فأنا أقابلهم ثم أنقل لكم إذا كان هناك تغيير في التوجه لديهم، إن كان هناك تغيير في التوجهات أو لا، فقلنا هل تقابلهم غدا؟ قال لا طبعاً وإنما سأقابلهم بعد اليوم العاشر من المحرم أي يوم الأحد لأن يوم السبت أيضا سيكون عطلة.

ولما قابلنا سعادته في المرة الثالثة أخبرنا بأنه قابل الأخوة، وأن هناك فعلا تغيرا كبيرا في الرأي لديهم، وأطلعنا على رسالة كانوا قد كتبوها إلى سمو أمير البلاد وطلبوا منه نقلها إليه ولكنه كان متلكئا وقال إنني لا أعرف فيما إذا كانت هذه مناورة سياسية أو أن هناك إخلاصاً في

الموضوع، وشجعناه وتحديثنا معه كثيرا في شأن رفع هذه الرسالة إلى سمو الأمير والعمل على الإفراج عن الاخوة المشايخ.

وعندما قابلناه في المرة الثالثة أيضا أخبرنا بأنه قابلهم مرة ثانية وأنهم سلموا إليه رسالة مكتوبة وكانت موجهة إليه ذاته وقال إنني أريد ضمانا على ما يقولون وعلى ما سيفعلون. قلت له إنهم لا يتمكنون من تقديم ضمان طالما أنهم في داخل السجن ولكنني أتقدم بكفالتي الشخصية في أنهم يلتزمون بما يتفقون عليه معكم. طبعاً وجد هناك رفض في البداية لهذه الكفالة ثم قال إنني قلت لهم فكروا بضمان وأنا سأنتظر ماذا سيطلعون به وإذا لم يحصل منهم ضمان وأصررت على الكفالة الشخصية وتتحمل مسئوليتها فلا مانع أن نقبلها.

المرة الرابعة أو الجلسة الرابعة التي قابلنا فيها سعادة الوزير حضر معنا عضو آخر من لجنة الحوار وهو الحاج أحمد منصور العالي وأبرز لنا الوزير أيضا رسالة ثالثة مكتوبة وموقعة من الشيخ عبد الأمير الجمري وقال: [إن كل شخص من الإخوة كتب رسالة بمفرده -كما طلبنا-] وسألناه عن قضية الضمان وعن قضية الكفالة فقال إنهم قدموا عدة اقتراحات منها أن يطلق سراح بعضهم ويبقى بعض آخر حتى تتأكد الدولة من أنهم يقومون بما اتفقوا عليه، وغيرها من الاحتمالات، وأن رجال الأمن يبحثون معهم في التفاصيل.

وفي الجلسة الخامسة - وهي الجلسة التي أفرج عنهم بعدها مباشرة - حضر مجموعة من لجنة الحوار منهم الشيخ أحمد الشيخ خلف العصفور وأحمد منصور العالي وعبد النبي الشعلة كما حضر الشيخ منصور الستري وحضر من الاخوة الشيخ عبد الأمير الجمري والأستاذ حسن المشيمع.

سألني أحد الاخوة في الليلة الماضية قال إنهم يقولون إنهم خرجوا نتيجة تفكير عميق ونتيجة عصارة ذهنية حتى المرض أو حتى السأم، قلت له لاشك أنهم صادقون أيضا فيما يقولون في ذلك، فالإنسان عندما تصيبه أي ملامة لا بد أن يفكر في مخرج، والإخوة وهم في السجن لا إشكال فكروا في مخرج من ذلك، وكان الرجوع عن المنهج الذي كانوا يسيرون عليه إلى منهج

الحوار وإلى منهج التفاهم وإلى منهج العمل بالرفق والملاينة هو النتيجة التي توصلوا إليها، وهي التي أقنعت الدولة بذلك، ولا إشكال في أن التفكير في مثل هذا الأمر وخصوصاً أنه تفكير في التحول عن منهج معين وأسلوب معين إلى منهج آخر كان غير مقبول في الساحة بسببهم، أيضاً يحتاج إلى تفكير كبير وإلى جهد كبير من الفكر قد يصل بالإنسان إلى حد المرض أو حد السأم، يعني ليس هناك من خطأ فيما قاله الإخوان، فإنهم فكروا أربعة أشهر حتى وصل بهم التفكير إلى حد السأم أو إلى حد المرض، وهذا لا يتعارض أن يكون هناك عمل من غيرهم ساهم في الوصول إلى خروجهم من التوقيف.

يقول السائل: ونحن نعيش آلام الفرقة التي مزقت الصفوف وشحنت القلوب على بعضها البعض هل هناك حركة توحيد وتقريب النفوس وخاصة بين من يأخذ بمبدأ التصعيد من قبل وبين من يقول بالتهدئة؟

سماحة الشيخ: من بنود الاتفاق بند أو تعهد يقول: ونتعهد بإصلاح ما أفسد ولم الشمل وتصفية القلوب من خلال التعاون مع الدولة ورجال الأمن والرجال المخلصين الذين عملوا على التهدئة والحوار. وهنا تدخل وزير الداخلية وقال لم تذكر العلماء فينبغي أن تقول والعلماء المخلصين الذين عملوا. فقال فضيلة الشيخ عبد الأمير العلماء أيضاً داخلون في الرجال المخلصين. كل هذا موجود في مضابط الجلسة، ولا إشكال أن العمل على توحيد الصفوف وعلى لم القلوب، ينبغي أن يكون هو البداية الأولى في البناء الجديد للمستقبل، فإذا كنا نعجز عن لم شملنا مع بعضنا البعض فنحن أعجز عن التعاون مع غيرنا، إذا لم نقم بلم الشمل وتصفية ما في النفوس وإزالة ما في القلوب فإن جبهتنا ستبقى جبهة ضعيفة متخلخلة لا يعتنى بها، وعندئذ قد يكون هذا عائقاً كبيراً دون تحقيق أمنيات المواطنين وتطلعاتهم وما يرغبون من حقوق وما يصبون إليه من أمنيات وتطلعات وتوجهات، بدون توحيد الصفوف، وبدون توحيد الكلمة يصعب جدا تحقيق شيء، إن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَتَأَنَّزَعُوا عَوَاقِفَ فَنُشَلُّوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾¹.

¹ الأنفال: من الآية 46

ولذلك كنا نرغب لو أن الإخوة ابتدأوا برنامجهم الذي يقومون به بالعمل على لم الشمل وتصفية النفوس، ولا مانع أن يتكلموا عن التهذئة وندب المواطنين للم بعضهم مع بعض، ونبذ هذه التهاترات، وهذه التهجومات من بعضهم على بعض، وتشويه بعضهم على بعض، لأن استمرار ذلك قد يؤدي إلى فشل ذريع في المستقبل فينبغي التنبه له من البداية.

س: بالنسبة إلى لجنة الحوار الرجاء بيان أفرادها وهل ستستمر في تحاورها مع الحكومة؟

سماحة الشيخ: لجنة الحوار هي مجموعة من الأشخاص انبثقت من مجموعة كبيرة أطلق عليها مجموعة الحوار أي المجموعة التي تدعو إلى تحقيق ما يحتاجه المواطنون أو ما يوجد في البلد من ثغرات، ومن تجاوزات وتصحيح ما فيه من أخطاء عن طريق التحاور والتفاهم مع المسؤولين.

هذه اللجنة انبثقت من هذه المجموعة وحضرت في الجلسة الأولى مع سمو أمير البلاد ورئيس الوزراء وسائر أفراد وزراء العائلة الحاكمة ثم عدلت وأخرج منها أفراد وأدخل فيها أفراد وأيضاً حضرت من جديد في الجلسة الثانية مع سمو الأمير وسمو رئيس الوزراء وسائر أفراد وزراء العائلة الحاكمة في هذا الموضوع. ولا إشكال أنه بعد هذه الجلسة الثانية وإقرار بعض المبادئ والتي لم ينته تنفيذها بعد لم يحصل هناك اجتماع رسمي أو اجتماع موسع بتعبير أدق للجنة الحوار لا مع بعضها البعض ولا مع الحكومة وإنما بقي العمل على تحقيق المبادئ التي أقرت من قبل سمو الأمير ورئيس الوزراء في الجلستين المذكورتين، ولا يزال العمل على تنفيذها جارٍ ويكون الحضور لمقابلة الوزراء أو المسؤولين عن تلك تنفيذ تلك المبادئ بمقابلات جانبية وليس عن طريق حوار مع سمو رئيس الدولة أو رئيس الوزراء.

الآن لا إشكال في أن بعض أعضاء هذه اللجنة أصبح وزيراً فلا بد من استبداله بعضو آخر، وكذلك فإن بعض الأعضاء ربما لا يرغبون في البقاء فلا بد أن تجتمع مجموعة الحوار من جديد وتختار من بينها أفراداً يقومون بالتحاور والتفاهم مع سمو الأمير ورئيس الوزراء لإقرار مبادئ تصحيح ما يرونه أو ما يتفق على خطئه، وسد ما يرى من ثغرات وغير ذلك.

س: الآن وبعد التوجه السلمي هل تتفقون مع الإخوة الذين كانوا يعارضونكم في الرأي؟

سماحة الشيخ: عندما انتهت أو كادت الجلسة الأخيرة التي من بعدها أفرج عن المشايخ والأساتذة، في آخرها أعلنت أمام وزير الداخلية وأمام بقية الأشخاص الحاضرين وقلت حيث إن الإخوة قد نبذوا مبدأ العنف وأنهم يتبنون الحوار منهاجاً وهو الأطروحة التي طرحتها منذ أول الأزمة فإنني أؤيد وأدعم هذا التوجه الجديد والموقف الجديد.

يقول السائل: يشاع عنكم أنكم قلتم إن الذين قتلوا ليسوا بشهداء؟

سماحة الشيخ: قلت إنهم في رحمة الله ولم أقل إنهم شهداء ولم أقل إنهم غير شهداء، لأن الذي يعطي لقب الشهادة هو الله. يقول سبحانه: ﴿وَيَخِذْ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾¹. ولست أنا أو غيري هو الذي يعطي لقب الشهادة، وكلُّ متروك إلى رحمة الله سبحانه، والله سبحانه وتعالى أعلم بضمايرهم ونرجو جميعاً أن نكون نحن وهم على خير عند الله سبحانه وتعالى.

يقول السائل: ينقل عنك كثيراً أنك تعارض أو لا تؤيد الحياة البرلمانية هل هذا صحيح؟

سماحة الشيخ: لا بد أن الذي قيل له يكون عمره الآن أقل من 25 سنة حتى يصدق هذا الكلام، لأنه عندما أعلن أو أعلنت الدولة أنها ستدعو لانتخابات المجلس التأسيسي والحياة البرلمانية كان كل العلماء في البحرين متوقفون عن المساهمة في هذه التجربة وأنا الذي قمت بإقناعهم بالدخول في هذه التجربة، وأنا الذي قمت بطرح أسماء بعضهم في الوقت الذي كان هو يرفض الدخول في هذه التجربة، فقد بقي بعضهم أيده الله يرفض الدخول في هذه التجربة ومع ذلك قمت بطرح اسمه في منطقتة وكنيت أذهب وأقيم الندوات عنه وهو لا يزال في النجف وجاء إلى البحرين وعملت عملاً كثيراً لأقنعه بالدخول حتى دخل، ولقد كنت أيضاً من المعارضين لحل المجلس الوطني، والغريب بأن يشاع بأنني لا أؤيد الحياة البرلمانية! أنا لم أدخل الحياة البرلمانية ولن أدخلها هذا صحيح، يعني في السابق ولما رأيت أن الجهات الإسلامية لا وجود لها في الساحة أعلنت ترشيح نفسي وعملت لنفسي دعاية بأنني سوف أدخل إلى أن قويت كفة المتدينين

¹ آل عمران: من الآية 140

ونزلوا بتيار قوي في مقابل التيارات الأخرى، وقبل بضعة أيام من الانتخاب سحبت نفسي ودفعت بالشيخ حسن زين الدين ليكون مرشحا في المجلس التأسيسي. فالذي يعمل بهذا العمل يكون غير مؤيد للحياة البرلمانية أم هو مؤيد للحياة البرلمانية؟

نعم في الوقت الحاضر أعتقد أن الظروف لن تسمح بتأسيس المجلس الوطني في وقت قريب مع وجود أولويات أعتقد أنها بالنسبة إلى الشيعة خاصة وبالنسبة إلى الشعب البحريني عامة أهم بكثير من الحياة البرلمانية.

الحياة البرلمانية هي فاكهة، فاكهة السفر، أنت أوجد السفر، الإنسان الذي لا يجد الخبز يأكله ويقول لأبيه أريد قرصا أو يقول لأبيه أريد برتقالا؟ أخبروني، الجائع الذي لا يدفع له أبوه قرصا يأكله مثلا أو لا يتمكن أبوه أن يدفع له قرصا يأكله يقول لأبيه أريد برتقالة؟! الحياة البرلمانية هي فاكهة المترف، هي مشاركة في القرار السياسي.

في الوقت الحاضر كثير من الموضوعات لا يمكن نشرها في الصحف، وكثير من الأشياء لا تزال تعد غير ممكن القيام بها في البلد، أطالب بالمشاركة في القرار السياسي وأنا لا أتمكن من أن أرفع صوتي بانتقاد وزير مثلا أو انتقاد وزارة؟! من يعجز عن انتقاد وزير يطالب بالمشاركة في الحياة البرلمانية.

يا أخي لا بد من العمل أولا على توفير حرية الرأي، فإذا توفرت حرية الرأي، وإذا سدت الأمور الأخرى، فتوفرت الأعمال للعاطلين، وتوفر غير ذلك عندئذ يكون قولي أريد المشاركة في القرار السياسي معقولا.

يقول السائل: هذه الأمور كلها تتحقق عن طريق المجلس الوطني؟

سماحة الشيخ: عن طريق المجلس الوطني يمكن حل كل هذه الإشكالات؟

معنى ذلك أن نحول المجلس الوطني وزارة عمل أو نقابة عمال، نحول المجلس الوطني نقابة صحفيين إلى غير ذلك؛ فينشغل عن مهماته الأساسية. هذا غلط. هذا تصور باطل للمجالس البرلمانية، المجلس الوطني وظيفته الأساسية تشريع القوانين والوظيفة الثانية مراقبة

السلطة التنفيذية في الإشراف على تطبيق تلك القوانين، والنظر في القضايا الخطيرة التي تلم بالوطن وتحتاج لعلاج كقضية العلاقات الخارجية والمعاهدات الدولية، وليس البحث عن الأعمال وتوفيرها بل هذا وظيفة السلطة التنفيذية.

يقول السائل: عاشت البحرين في الفترة الأخيرة تغيرات وتطورات، ورأينا سماحتكم مختلفين عن بعض العلماء المؤيدين للوضع، نريد أن نعرف هل كان أحد الطرفين على خطأ؟ وإذا كان على خطأ فلماذا؟

سماحة الشيخ: لا إشكال أنه إذا اختلف اثنان في مسألة ما، لا بد أن يكون أحدهما مخطئ والآخر مصيب، ولا يعقل أن يكون الاثنان مصيبين. نعم يمكن أن يكون الجميع مخطئين والحق في طرف ثالث، ممكن لو كانت هناك أطراف ثلاثة أن يكون فلان مخطئ وفلان مخطئ وفلان مصيب، لكن إذا كانا طرفين فقد يكونان جميعاً مخطئين ولا يوجد مصيب، هذا ممكن، ولكن لا يمكن أن يكون كلاهما مصيباً.

أما لماذا يكون أحدهما مخطئ هذا لا إشكال أنه شيء طبيعي أن يكون أحد الطرفين مخطئاً أما إذا كان السائل يقصد من الذي كان على خطأ؟ الذي تراجع عن منهجه وتركه إلى المنهج الآخر هو الذي كان على خطأ.

س: اعتمدت الحركة منذ بدايتها على عدم الاهتمام بالجوانب الشرعية كسرقة السلندرات واتلافها وإحراق سيارات من تختلف معهم وتهديدهم بالقوة، حيث بدا بأن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة هو مبدأ العمل مما جعلهم يسعون إلى إسقاط العلماء الأعلام وقد نجحوا في إسقاط الكثيرين ولم يفلحوا معك ترى ما هو السبب؟

سماحة الشيخ: لا اعتقد أنهم استطاعوا إسقاط العلماء. العلماء لا يستطيع أحد إسقاطهم في الحقيقة، لأن الإسقاط والعزة للعالم ليس بالكثرة أو بالقلّة، عزة العالم بوقوفه مع مبدأ الشريعة، فيكون عزيزاً عند الله والعزة تكون من عند الله، والذلة ليس بسبب قلة من يكون معه. ذلة العالم

بتخليه عن مبدأ الشريعة، والذلة تكون من عند الله. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْغَنَّةُ وَلِكِرْسِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ

وَكَانَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ¹﴾.

فإذن لا يستطيع أحد أن يسقط العلماء، يستطيعون أن يشوهوا ويملؤوا أذهان الأطفال، وينفروا الناس عن الحضور معهم، ويحجبوا النور عنهم، وهذا ليس جديداً على العلماء. علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه في مبدأ الأمر وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله لم يبق معه من الأمة الإسلامية إلا شذمة قليلة، وانفضت الغالبية إلى غيره. لم يتحملوا منهجه عليه السلام ولذلك فروا عنه.

الحسن عليه السلام، الحسين، الأئمة عليهم السلام، لو كنت في أيام الباقر والصادق عليهما السلام، ونظرت جماعة الصادق أو جماعة الباقر وقارنتها بالجماعة الذين انشقوا عليهم وسموا أنفسهم بالزيدية لرأيت جماعة الباقر والصادق بالنسبة إليه كالشعرة البيضاء في الكلب الأسود، ولو قارنت جماعة عبد الله بن الحسن بن الحسن وولديه محمد وإبراهيم بجماعة الصادق لكانت جماعة الصادق لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لهم.

ولكن اليوم من تتبع ألسنت تتبع ذلك الإنسان الذي انفض الناس عنه وتركوه وقالوا: "أغلق بابك وأرخى ستره وهادن الظالمين"، هذه الكلمة قيلت للإمام الصادق. وليس الإمام هو من أغلق بابك وأرخى ستره وهادن الظالمين. ولكن أنظر من الذي بقي، بقي هذا الإنسان الذي وصم بهذه الصفات ها أنت تتبعه وأنا أتبعه. أنا أو غيري من العلماء يستطيع أعداؤهم أن يشوهوا عليهم، يستطيعون ينفرون الناس عنهم لكن لا يستطيعون إسقاطهم.

¹ المنافقون: من الآية 8

تساؤلات (2)*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام الدين، أيها الاخوة الكرام أود أن أنبهكم أن هناك من يسعى جاهدا لإشعال الفتنة وشق الصف بين أبناء المجتمع الواحد، هناك من يريد أن يجعل الشيعة شرادم متحاربة متقاتلة متباغضة حتى لا تتمكن من حفظ مصالحها ولا تستطيع أن تحقق مآربها، هناك كثير ممن يحقد على هذا المجتمع لأنه في حقيقته ينتمي إليه جسما ولا ينتمي إليه روحا وفكرا، هؤلاء الناس لا تزال تراهم لا يظهرون لك؛ فهم يتنقلون من مكان إلى مكان يحاولون ملأ القلوب بالأحقاد والبغضاء، يحاولون أن يدفعوا البسطاء ليقوموا بتمزيق بعضهم بعضا، فينبغي للناس أن تحذر من هؤلاء.

الذي حدث في الليلة الماضية في جدحفص هو نتيجة من نتائج أفعال هؤلاء الخبثاء الذين يندسون بين الشباب، فمثلا في بلاد القديم تثار الكراهية بشدة ضد جدحفص وضد من في جدحفص وحتى ضد من يأتي للصلاة في جدحفص جماعة أو جمعة، في الديه وفي السنايس وفي المنامة وفي كل مكان، وربما هناك من يثير الشحناء أيضا في جدحفص على من يسكن بلاد القديم، أو يسكن الديه، أو يسكن السنايس أو غير ذلك، هناك من ليست مهمته إلا تفريق الصفوف، تجده دائما يريد ضرب شخصيات المجتمع ورموز المجتمع، وأيضا تفكيك عرى هذا المجتمع بجعله مجموعات صغيرة وشلل، المحاولات لاختراق هذه البلدة ليست جديدة، لقد مضى عليه ما يزيد على ثلاث أو أربع سنوات، ونحن نعرف الأشخاص الذين يفعلون ذلك، وأخيرا تمكنوا من إيجاد موطئ قدم خبيث لهم في هذه البلدة، ظنا من أنفسهم أنهم لا يتمكنون أن يعيشوا إلا أن ينفذوا مأرب هؤلاء الخبثاء، وهؤلاء تراهم يتنقلون بين الشباب، أضرب لكم مثلا [ببسطة] من [البسطات] في جدحفص يجلس فيها الشيعوي، ويجلس فيها صاحب المخدرات، ويجلس فيها

* كلمة ألقاها في ليلة الثلاثاء 1995/9/18م بجامع جدحفص

الخمير فلا يقال له شيء ولا يكره بينهم، ولكن الخبثاء يكرهون بقية أبناء البلدة، بل بقية إخوانهم إليهم، لماذا؟ هؤلاء يعرفون أن بعض الشيوعية تجلس معهم في [البسطة] فلماذا لا يطردونهم؟ يعرفون أن بعض أهل المخدرات يجلسون معهم، لماذا لا يطردونهم؟ لماذا يستجيبون لهؤلاء الخبثاء بأن فلان شتم فلانا؟ وفلان يقول عنك كذا، وفلان يزدريك، وفلان يسميك كذا، وهكذا تثبت ويصبح الاخوة أعداء، أخوان اثنان من أب وأم في بيت واحد تجد هذا يحقد على هذا وهذا يحقد على هذا لمصلحة من هذا؟ الذي حدث في الليلة الماضية هو نتيجة من نتائج ذلك فهل سوف نرضى أن نحقق مأرب الخبثاء؟ هل سنوافق فعلا يا أبناء جدحفص يا أبناء بلاد القديم يا أبناء كل القرى ويا أبناء البحرين هل ترضون فعلا؟ هل سترضون فعلا أن تسيروا في ركاب الخبثاء الذين يشردمونكم جماعات صغيرة، ويبثون الأحقاد والبغضاء فيكم وفي هذه الفترة بالذات؟ أم أنكم ستأخذون ما حدث في الليلة الماضية درسا وتستفيقون من هذا السبات العميق؟ أنا أختلف مع فلان، خير! تختلف مع فلان ومن أنت كي تختلف مع فلان؟ وأنا أؤيد فلان ومن أنت حتى تؤيد فلان؟ فلان اليوم رأيه كذا، غدا يغير رأيه لكذا، يرى المصلحة فيغير، وتبقى، على أي حال أنت تابع، يقال لك أنت واع حتى تندفع معه لكنك لست واعيا، ولو كنت واعيا فإنك لن ترضى بالتفرقة، لو كنت واعيا لم تجعل الاختلاف الفكري سببا للعداوة والبغضاء، لو كنت واعيا لم تجعل الاختلاف في المنهج أو في السياسة، أو في أي شيء سببا لقطع العلاقات والأرحام، الواعي يختلف مع غيره ولكن لا يقطع الأرحام، ولا يملأ قلبه بالبغضاء حتى أنا وأخي قد نختلف في الرأي، لكن لماذا أحقد على أخي؟ في يوم من الأيام كنت أنا وأخي عبدا لله رحمه الله مختلفين، كل أهل جدحفص تعرف، كان عبدا لله يسير مع القوميين وكنت أرفض الفكرة القومية بشدة وأصر على الفكرة الإسلامية، وكنا مختلفين ولكن ما تعادينا ولا تباغضنا ولا تخاصمنا؛ لأنه اختلاف فكري سياسي، لا يستدعي هذا الاختلاف هذه البغضاء، بعد ذلك الرجل من نفسه التفت وترك ما كان عليه من فكرة وعاد معي في الفكرة، هل أن هذا الاختلاف يؤدي إلى مثل ذلك؟ أقول لكم من أجل ضرب هذه المؤامرة ارجعوا إلى القرآن الكريم وما يقول إذا حدث مثل ذلك، بِسْمِ

اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾¹، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾²، ﴿وَلَكِنْ صَبْرٌ وَغَفْرٌ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾³، ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁴.

هذا هو منهج القرآن، نعم العفو في مثل هذه الحالة؛ فإنه من عزم الأمور، لماذا من عزم الأمور؟ لأنه يفوت على مريد الفرقة ومريد الفتنة غرضه، من عزم الأمور لأنه يحفظ وحدة الجماعة، من عزم الأمور لأن الكلمة تبقى واحدة ويسقط العدو المندس ويرغم أنفه بالتراب، فإذا منحه القرآن هو هذا، وأنا أدعو جميع الأخوة الذين ضربوا أو ظلموا أن يعفوا عن ضربهم وعن ظلمهم، وأن يزيلوا ما في أنفسهم من الأحقاد، نحن الآن نسعى لإخراج الموقوفين والمسجونين.. فكيف نعمل على إدخال أناس جدد في التوقيف! نركض ليل نهار من أجل تحقيق هذه الغاية، نحاول أن نجعل كل الناس يعيشون في حب، في سرور، ولا يبقى بيت فيه حزين، وإذا بنا نقع في مصيدة العدو المندس، صحيح هناك أناس من خارج جدحفص جاءوا ولكن كان معهم أناس من جدحفص، لو لم يوجد أحد من البلد لم يأت أحد من خارجها، وأنا لا أقول أجنبي، فالذي يأتي من بلاد القديم يأتي إلى جدحفص إنما يأتي ببلاده، والذي يأتي من أي قرية من أي مدينة هي ببلاده، البحرين كلها بلد واحد، لكن أقول لو لم يكن من أهل المحلة أشخاص لا يتجرأ أن يأتي أو يدخل أحد من غير أهل المحلة ليثير فتنة. فإذا لا نريد نحن هذه التفرقة، لا بين أهل المحلة الواحدة ولا بين أهل القرى المتجمعة، ولذلك فأنا أدعوكم جميعاً إلى اتباع منهج القرآن الكريم وهو العفو والصفح والمغفرة، وفي هذا فائدتان، الأولى العفو والمغفرة من الله سبحانه وتعالى، والثانية إسقاط كيد العدو المندس بين صفوف الشيعة، الذي يريد أن يشرذمهم وأن يسقط رموزهم.

أرجو من الأخوة غداً، أن كل من له دعوى أو بلاغ على آخر أن يذهب ويسقطه، وإذا كان موقوفاً يخرجته وأن يتصافحوا ويتصافوا، كما أطلب من أولئك الذين يجلسون على قوارع

¹ الشورى: من الآية 40

² النور: من الآية 22

³ الشورى: 43

⁴ التغابن: من الآية 14

الشوارع إذا كانوا لا يعرفون بعضهم البعض وانتماءاتهم أن لا يجلسوا على هذه الشوارع، أناس كثيرة تأتي من الخارج لا تعرفهم يندسون بينك، أناس حتى من القرية ضللهم الشيطان، ضللهم العدو فاتبعوا آراءه وصاروا يحقدون على آخرين، وكلما صارت هذه التجمعات كلما استغلها هذا الإنسان المضلل أو العدو الحقيقي، لماذا لا نجلس في مجالس، هناك مجالس كثيرة في البلد، هناك في كل بيت مجلس، نجلس في بيت ولا نجلس على قارعة الطريق ونسمح لكل من هب ودب أن يلتحق بنا ويشوه بعضنا عند بعض، هذا بالنسبة لموضوع حادثة الليلة الماضية.

أما بالنسبة لموضوع الأسئلة، فقد درست الأوراق المتبقية فوجدت أن الأسئلة في معظمها متشابهة، وفي غالبيتها بمعنى واحد، ولكن هناك بعض الأسئلة لا بأس بالجواب عنها.

السؤال الأول : هل أن لجنة الحوار لا تزال باقية وهل هي مستمرة في عملها ؟

سماحة الشيخ : أقول نعم لجنة الحوار التي اجتمعت مع سمو الأمير ورئيس الوزراء، وتقرر بناءً على جلساتها إطلاق هذه الكميات من الموقوفين والمعتقلين لا تزال باقية ولا تزال جارية في أعمالها، ولا أدل على ذلك من أنها ستجتمع في الأسبوع المقبل إن شاء الله مع سمو الأمير ورئيس الوزراء لتقديم طلب بالإفراج عن دفعات أخرى من المعتقلين لأنه في الأيام الأولى بعد تقرير الإفراج عن المعتقلين صار بسبب تكرار الحوادث، تطلق مائة ويعتقل مائتان، يطلق خمسون ويعتقل مائة، فالكميات أو المجموعات التي شملها العفو هي المجموعات السابقة على تلك الاعتقالات، والاعتقالات المتأخرة تحتاج أيضا إلى تقرير أو طلب عفو لإطلاقها وربما تقدر بستمائة أو يزيدون. طبعا المجموعات الأولى سوف يطلق بقيتها عند نهاية هذا الشهر أو في أوائل شهر أكتوبر إن شاء الله وإلى أن ينتهي، ولكن المجموعات الأخرى أيضا تحتاج إلى عمل لإطلاقها ولذلك قررنا أن يذهب بعض العلماء والمفكرين وربما بعض الوجهاء للاجتماع بسمو الأمير وسمو رئيس الوزراء في الأسبوع الآتي والتمني عليه أن يصدر أمرا جديدا لإطلاق هؤلاء الذين أخذوا في الأحداث المتأخرة ، وأما عن قضية منجزات هذه اللجنة وأعمالها كأمر التقريرين فأرجو أن يقوم به فضيلة الشيخ منصور حمادة في كلمته التي سيلقيها ليلة الخميس.

السؤال الثاني: ما رأيك في الحرس؟

سماحة الشيخ: هذا السؤال تكرر في أوراق كثيرة بعضها يقول ما رأيك في الحرس وبعضها يقول هل أنت راض عن الحرس وبعضها يقول لماذا وجد الحرس؟ لا بأس كنت أود أن هذا السؤال يقدم قبل ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر.

عندما صارت الأحداث الأخيرة في البحرين وضعت بعض المجموعات والفئات والأحزاب منهاجاً بأن تحول جدحفص إلى أحد شيئين، أما أن تحولها ثورية بالقوة و العنوة ، وأما أن تملأ السجون من أبنائها ثم تأتي ألسنتهم المضللة في القرية لنقول إن فلانا الذي سجنه فلان هو الذي رمى أبنائكم في السجون وهكذا حتى تتمزق القرية، ومن بداية الأيام اقترح بعض الشباب تكوين الحرس، ورفضت ذلك خوفاً من التصادم لأن الحركة كانت في قوتها والذين يندفعون من جهات مختلفة إلى هذه البلدة يأتون بالمئات فربما حصل التصادم بينهم؛ ولذلك كنت أرفض هذه الفكرة كلما عرضت، وإن كنت أعتقد بجدواها، لكن خوفاً من التصادم كنت أرفضها، وبعد ذلك حصل أن مجموعات من شباب جدحفص أخذوا واتهموا بتهم صعبة جداً، ونشرت لهم صور في الجرائد، والحال أنهم أبرياء، وأن الذي ارتكب هذه الأفعال غيرهم ممن يدفعون لتمزيق القرية، حتى صار تقريباً أن الذين نشرت صورهم وأسمائهم في الجرائد من جدحفص أكثر من أي مكان آخر، فقرر الشباب أن يوقفوا هذا الأمر، وأن يمنعوا تكرر ذلك. وكيف يستطيعون إذا كان يتسلل أناس من الخارج في الظلام أو في غفلة ويحرق بنكا أو يحرق دكاناً أو يفعل شيئاً ثم يتسلل راجعاً، وتقع المصيبة على أهل المحلة، لا بد إذن من إيجاد حراسة للبلدة بأسرها، ولم أستشر في تكوينه وتشكيله لأنهم خافوا أن لا أوافق، وشكلوا عملية الحرس، طبعاً كنت راضياً عنها لأنني أعتقد جدواها، وفعلاً بعد تشكيل قضية الحرس والحراسة في البلد لم تقع أحداث مؤسفة في جدحفص أبداً، بل الذي حصل أن هذا الحرس ساهم في التهدئة في المنطقة ككل، والهدوء في هذه المنطقة

التي هي في وسط البحرين وتقع على شارعين رئيسيين يوصلان البحرين من شرقها إلى غربها. الهدوء فيها هو الذي أدى إلى هذه النتائج التي تعيشونها الآن، هذه هي فكرة الحرس، وهذا هدفه وهذه نتائجه، ولكن الذين لا يريدون للناس الأمن، الذين لا يريدون للناس الاستقرار لم يشجّبوا خفافيش الليل الذين أخرجوا البحرين خمسين سنة إلى الوراء، كسروا المصاييح وجعلوا الناس تعيش في ظلام، أخذوا يربعون الناس بالتفجيرات وأمثال ذلك، هؤلاء لم ينتقدوا. إذا وجدوا شخصا مارا اتهموه بأنه جاسوس يتجسس عليهم وضربوه، هذا لا ينتقد على ذلك.. أما من يعمل لمنع حدوث هذه الأشياء لتبقى الأنوار مشعة في الطرقات، ليبقى الأمن والاستقرار للكبير والصغير والبعيد والقريب، من يسهر ليله لتتأم أنت في المكيف آمنة مطمئنا، هذا يسبب فتنة، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾¹، أنت الذي تشعل الفتنة لا الذي يريد أن يمنعك من ارتكاب الأعمال التخريبية.. تقول يسبب فتنة! استنزاز! أنت تأتي إليه وتستفزه وهو ساكت، أجهض الانتفاضة، يعني منع التخريب، هذا ما حدث، نحتاج إلى شيء من الوعي، ولكن بعض من يقدر على التوعية لا يريد أن يعني نفسه بالقيام بذلك.

بقيت هناك بعض الأسئلة سوف تعرض للإجابة عليها مستقبلا إن شاء الله تعالى. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

¹ التوبة: من الآية 49

تساؤلات (3)*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

أولا أبارك لكم وقبلكم أزف التبريكات والتهنئات إلى إمام العصر عجل الله فرجه وجعل
أرواحنا فداءه وإلى كافة المؤمنين والعلماء بالأخص بمولد السيدة البتول الصديقة الكبرى فاطمة
صلوات الله وسلامه عليها سائلين المولى عز وجل أن يعيد علينا هذه الذكرى الغالية ونحن في
حال أحسن من هذا الحال، في حال أمن وأمان واستقرار واطمئنان، في حال تأخ لا في حال
تشاتم وعدوان إنه هو الحليم الكريم المنان.

في هذه الليلة أو في هذا الأسبوع وردت عدة تساؤلات، وقد كثر السؤال عنها مما يضطرنا
للإجابة عنها.

السؤال الأول يقول إن كثيرا من الناس يروجون بأن المعني في بيان أصحاب المبادرة
بالذي روج ورقة الرسالة هو أنت، وأن بعضهم يدعي أن الشيخ عبد الأمير الجمري في بعض
أجوبته الفردية قد أشار إليك بالاسم فما هو علاقتك بهذا الموضوع وما هو رأيك في الرسالة؟
أولا أنا أجل وأكبر وأنزه فضيلة الشيخ عبد الأمير الجمري وهو العالم الفاضل والقاضي
المحترم أن يقع في مثل هذه السقطة أو يتورط في مثل هذه الغلطة فيسوق الاتهام لشخص معين
بدون دليل مادي، ولست مستعدا أن أصدق عليه هذا الادعاء إلا أن أسمع من لسانه بأذني ذلك
أن جميع الآيات القرآنية وجميع القواعد الشرعية تحرم تحريما قاطعا توجيه الاتهام إلى إنسان بدون
بينة مادية معروفة باليد، أو قرائن قطعية لا يمكن أن تتخلف أو تؤول، ولا أعتقد أن فضيلته يغفل
عن مثل ذلك حتى يقع في مثل هذا الموضوع؛ ومن أجل ذلك أنا لست مستعدا لتصديق صدور
هذا الأمر عنه.

* كلمة ألقاها في ليلة الثلاثاء 13/11/1995م بجامع جدحفص

وأما ما يروجه دعاة الأحزاب وبعض من يحمل عداوة شخصية أو حقد شخصي في أوساط الناس بأن لي علاقة بهذا الموضوع فقد كفيت الرد عليه أيضا فانتشار هذه الرسالة في الصحف شبه الرسمية في داخل البحرين وفي الصحف الخليجية وفي وكالات الأنباء يكشف أنه لا علاقة لي بالموضوع، ولا أحتاج إلى الرد خاصة التصريح الذي صدر من سعادة وزير الإعلام يوم السبت المنصرم أي يوم 95/11/11 لوكالة الأنباء الفرنسية فرانس بريس والذي نشرته السياسة الكويتية في عددها الصادر يوم السبت وأن هذه الرسالة نشرت لتوضيح أن نفي الحكومة بعدم وجود اتفاق بينها وبين معتقلين أطلقوا من السجن وعدم وجود محاوره، فهذا يكشف أنني لا علاقة لي بالموضوع ولا أحتاج إلى رد أو توضيح أكثر من ذلك، فإن من كان خالي الغرض يكتفي بمثل ذلك، وصاحب الغرض لا يفيد النفي معه أي شيء، ولكن نظرا لأن المغرضين إنما يعتمدون على بعض ألفاظ في البيان الذي صدر من الجماعة التي عرفت بأصحاب المبادرة ويقولون للناس إنها لا تنطبق إلا علي لذلك حتى لا يقع ضعاف الناس في محرم يعتقدونه في أخ مسلم لهم أبين بعض هذه الألفاظ وهل تنطبق علي أو لا. فهم يقولون إن هذا شخص اطلع على الرسالة وأشار إليها قبل خروجنا من السجن، أنا فعلا اطلعت على الرسالة ولكن لم أشر إليها أمام الناس قبل خروجهم من السجن، وأيضا اطلع عليها أناس كثيرون منهم على سبيل المثال لا الحصر السيد مصطفى القصاب، ومنهم على سبيل المثال الحاج أحمد منصور العالي، بل كل من ذهب يعمل لتخليص الجماعة من السجن ويعمل على فكاهم اطلع عليها وعلى غيرها، والذين ذهبوا يعملون من أجل هذه الغاية أشخاص كثيرون ولست وحدي. وإن كان قد نفي أن أي أحد لم يعمل على إخراجهم من السجن ولكن بعضهم كان يعلم وهو في السجن أن هناك من يتحرك على إخراجهم من السجن، فقد كان السيد مصطفى مثلا يقابل الأستاذ حسن بعد كل جلسة نجلسها مع وزير الداخلية ويخبره بأننا جلسنا مع وزير الداخلية ويخبره بأننا اطلعنا على كذا وكذا ويسأله عن رأيه ورأي الجماعة فيه.

فالذين اطلعوا على الورقة أناس كثيرون ولست أنا وحدي، أما من أشار إليها قبل خروجهم من السجن فلا أعلم أو لا يلزمني أن أذكر، على أنني أقول إنني لم أذكر محتويات الرسالة للناس بصورة علنية لا قبل خروجهم من السجن ولا بعد خروجهم من السجن، هذا جواب على ما يثار، بأي وصف اطلع عليها أنا أو غيري ممن أطلع عليها وهم كثيرون بكونهم يذهبون ليعملوا على إنقاذهم من السجن.

وأما من مكن منها؟ لا أعلم من مكن منها، أنا شخصياً لم أتمكن منها وكيفيك أنه في يوم من الأيام وفي كلمة أشرت إلى وجود ثلاث رسائل ولم أتطرق إلى مضمونها وموضوعها فنثار بعض أصحاب المبادرة ثورة شعواء وادعى أنني قلت إنهم اعتذروا وهدد بمقاضاتي إذا لم أتب عن ذلك ولو كنت متمكناً من الرسالة مثلاً وأريد أن أنشرها لنشرتها ذلك الوقت عندما كنت أهدد بالمقاضاة بحجة أنني قلت إنهم اعتذروا، والحال لو رجع هو أو غيره إلى تلك الكلمة لوجد أنني لم أشر إلى موضوع أي رسالة من تلك الرسائل.

هناك أيضاً ما يمكن أن يتعلل به بعض الكوادر الحزبية، بعض الحزبيين الذين يعادونني وأعاديتهم فأنا أمقت الحزبية وأمقت الفئوية لأنها تمزق صفوف الأمة، أعلنها صريحة أنا أمقت الحزبية وأمقت الفئوية لأنها تمزق صفوف الأمة من جهة، وتسلب الإنسان الحزبي استقلاله الفكري والعقلي وتجعله أداة طيعة لتنفيذ ماأرب زعماء ذلك الحزب، وتحد من نظرتة إلى الكون والحياة والأشياء تحديداً شديداً بحيث لا ينظر إلى شيء إلا من بؤرة ضيقة جداً، ولذلك فأنا أعادي الحزبية، ونظراً لأنني أعادي الحزبية فالحزبيون على اختلاف توجهاتهم ليس فقط الأحزاب الكافرة بل حتى الأحزاب التي تسمى أنفسها أحزاباً إسلامية تعاديني، وربما ارتكبت ما حرم الله بالنسبة لي لأنها تعاديني وأنا أعاديها.

على أي حال فإن من بعض ما يتمسك به المروجون الحزبيون ويتعللون به في بيان أصحاب المبادرة بأن هذا الذي روج الورقة معروف المواقف وأنه رفض التعاون مع الحركة بحجة العنف والآن ما هي مبرراته في عدم التعاون مع الحركة وهي تدعو إلى الحوار؟

أولاً: أنا لم أرفض التعاون مع أحد بالأسلوب الصحيح، وثانياً عندما شجبت العنف فما شجبت العنف من طرف واحد ولا من جهة واحدة بل كنت أشجب العنف والعنف المضاد، وأنبذ الشدة المتقابلة وأدعو إلى الأخذ بمبدأ الرفق بالأمر، وإلى مبدأ التحاور، وإلى مبدأ التفاهم، وإلى مبدأ الوحدة والتراحم، وكل الخطب التي قلتها من بداية قيام هذه الأزمة حتى خروج جميع الإخوان من السجن كلها ناطقة واضحة بهذا المفاد. ولقد أعطيت نسخة كاملة منها باستثناء ما قيل من الخطب في شهر سبتمبر أعطيت نسخة كاملة منها للأستاذ حسن ونسخة كاملة منها للأستاذ عبد الوهاب عندما أرسلوا يقولان إن الناس يقولون إنك وقفت ضدهم ولم تشجب الشدة التي حصلت من الدولة، لم أجبهم ولكن أرسلت لكل واحد منهما نسخة كاملة من هذه الخطب، ولا اعتقد أنهما أيضاً بعد الإطلاع على هذه الخطب يوقعان على أنفسهما أن يقصداني بهذا اللفظ في البيان لأنهما إذا كانا يقصداني بهذا اللفظ في البيان فهما يسجلان على أنفسهما أحد شيئين إما أنهما لم يقرأ لي شيئاً مما أرسلت لهما أو أنهما يحملان في نفسيهما ضغناً علي دون أن أسيء إليهما. فأنا لا أعتقد أنهما يقصداني أو يشيران لأنني لا أظن بهما أحد هذين الأمرين.

على أي حال فإن بعض الشباب جزاهم الله خيراً قد قاموا بعمل نسخ متعددة من هذه الخطب مضافاً إليها الخطب التي ألقيت طيلة شهر سبتمبر، وكل من أراد الإطلاع عليها ومعرفة موقفي من قضية العنف وهل عبت به على جهة دون أخرى أو نبذته من جميع الجهات يستطيع أن يدفع ثمن صورة من هذه الصور ويأخذ النسخة كاملة من الشباب ويقرأ هذه الخطب، ويكون هو الحكم المنصف بيني وبين الحزبيين المروجين، وبين الأعداء الشخصيين الحاقدين. على أنني أشكر الطبقات والفئات الواعية من الشعب على عدم تصديقهم مثل هذه التلفيقات وعلى رأسهم العلماء والخطباء والأساتذة والمدرسون والجامعيون والمحامون والكتاب والمتفقون بل كل المؤمنين الخيرين الذين يتقون الله فيما يقولون ويفعلون، ولكنني أيضاً أحملهم المسؤولية، لا يكفي للإنسان أن يرفض الإيمان بالباطل ولكن على الإنسان أن يقوم بعملية التوعية والتنبيه لمن يراه من إخوانه المؤمنين والمواطنين بأنه سيقع فريسة للمغرضين، أحملهم مسؤولية الكلمة، أحملهم

مسؤولية التوعية فهم طلائع هذا الشعب وهم أبنائهم وعليهم أن يقوموا بدورهم في التوعية خاصة فيما يتعلق بمثل هذه الأمور التي تفرق بين الصفوف، ومن لم يقم منهم بذلك فسيسجل عليه التاريخ أنه أهمل دوره وسوف يسأل عند ربه يوم غد أنه أيضا أهمل واجبه.

هذا كله من حيث ما أشير به أو ما يروجه دعاة الحزبية وذوو الأحقاد الشخصية.

يبقى هناك شيئان: الأول أنني أستغرب من البيان في نقطة واحدة وهي أن البيان ابتداءً بأن هذه الرسالة هي مصدر قوة لنا، وإذا كانت الرسالة مصدر قوة فلماذا كل هذه الحملة على من أخرجها ونشرها وروجها سواء كنت أنا أو كان غيري؟ ينبغي أن يشكر لأنه كان لك دليل ضائع فأخرجه، وكان لك برهان مختلف فأظهره، فمثل هذا الإنسان سواء أخرج هذا البرهان وهذا الدليل بنية حسنة أو بنية سيئة، ينبغي أن يشكر لا أن يحمل عليه، هذه نقطة أستغربها في البيان. أن تكون الرسالة مصدر قوة ومع ذلك يهاجم ويؤلب ويعمل على من أخرجها ونشرها، فإن هذا الشخص إذا كانت مصدر قوة لا إشكال يشكر، فلو كانت عندي دعوى في أرض مثلاً، وتقدم أعدى الأعداء لي وأخرج ورقة قديمة تثبت ملكية هذه الأرض لكنت أتقدم إليه بالشكر الجزيل لا أن أقول هذا أخرجها بسوء نية، لأنها مصدر قوة، فمادام أن هذه الرسالة مصدر قوة لا أجد معنى لكل هذا التحامل الذي ورد في البيان على من نشر هذه الورقة.

الشيء الثاني أن هذه الرسالة وهي تتعلق بمصير شعب وبمصير أمة ينبغي أن ينظر إليها مع غض النظر عن أخرجها وعن نيته، وأن تدرس بغض النظر عن أخرجها سواء كانت الدولة أو كان شخصاً أو كانت فئة سياسية تناقض الفئة السياسية التي كتبتها أو تكون هي نفس الفئة السياسية التي كتبتها وأخرجتها باعتبارها مصدر قوة تريد أن تروجها، بغض النظر عن كل ذلك ينبغي أن تنظر الرسالة مستقلة عن المصدر الذي أخرجها وروجها، هذا هو رأيي في الرسالة، أما في محتوياتها فأرجئ الكلام عن ذلك هذه الليلة وأتوجه للجواب على سؤال آخر.

السؤال الثاني يقول إن أصحاب المبادرة طالما ردوا أنك وبعض العلماء وبعض الشخصيات شهود ومع ذلك لم نسمع منكم شيئاً. أو ليس كتمان الشهادة محرّم وأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾¹ ؟

أقول إن أداء الشهادة تارة يكون واجبا وتارة لا يكون واجبا ويكون مندوبا إليه أو مباحا وتارة ربما يتصف بالكراهة أو الحرمة.

إذا كانت هناك دعوى قضائية أمام حاكم شرعي ودعا الحاكم الشرعي ذلك الشاهد إلى الحضور أمامه وأداء ما عنده من شهادة على الموضوع فإن أداء الشهادة يكون واجبا وينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾. وكذلك لو توقف إثبات حق امرئ مسلم أو إنقاذ امرئ مسلم حتى لو كان القاضي غير شرعي كما لو كان قاضيا مدنيا ولكن إثبات الحق للمسلم أو إنقاذ الشخص المسلم لا يتم إلا بحضورك أمام القاضي وأداء الشهادة يجب عليك حينئذ الحضور وأداء الشهادة، وأما إذا كان لا يتوقف إثبات الحق أو إنقاذ المسلم فلا يجب عليك الحضور أمام القاضي غير الشرعي.

وتارة يكون مباحا أو مندوبا كما لو كانت هناك خصومة بين اثنين من الأصدقاء وعندك شهادة على أحدهما أو في صالح أحدهما، وجلسوا مع بعض إخوانهم ليحلوا هذا الإشكال وطلب منك الإدلاء بشهادتك، وأنت تعرف أن الشهادة تؤدي إلى حل الإشكال وإعادة الصفاء والأخوة والمحبة بينهم فعندئذ يستحب لك الحضور وأداء الشهادة حتى تنتهي الخصومة بين المؤمنين.

وتارة يكون مباحا فيما لو كان لا تترتب عليه مثل هذه الآثار ولا يترتب عليها ضرر أيضا، ودعاك صاحب الحق إلى الشهادة في مكان ما أو أمام شخص ما فإنه يجوز لك الحضور والشهادة، ولكن لا يجب عليك الحضور والشهادة وإنما يجب فقط إذا كانت هناك دعوى قضائية.

إضافة إلى أن الشاهد الذي يدعى أو يطلب منه الشهادة ينبغي أن يكون متصفا بصفة الشاهد في نظر من يدعوه إلى الشهادة على الأقل، أما لو كان الشاهد في نظر من يريد أن يدعوه

¹ البقرة: من الآية 283

إلى الشهادة لا يتصف بالصفات الشرعية للشاهد فكيف يحضر بوصفه شاهداً، مثال ذلك رجل أقرض إنساناً عشرة دنانير أمام شخصين من شاربى الخمر، وبعد ذلك أنكر هذا الشخص العشرة الدنانير، هل يتمكن الدائن أن يطلب شهادة هذين الشخصين وهو يعلم عنهما ويعلن عنهما ويقول للناس عنهما انهما شاربا خمر، طبعاً لا، يقول له المدعى عليه أنت طعنت في شهودك وأرحتني من الطعن، أنت أيها الإنسان أرحتني من أن أظعن في شهودك أو أقذفهما.

إذن فالشاهد على الأقل ينبغي أن يكون في نظر من يدعوه إلى الشهادة حائزاً على الصفات الشرعية للشاهد.

بعد سماع أصحاب المبادرة الشتم والقذف والمطالبة بالوضع تحت النعال لهؤلاء الشهود ولم يحصل منهم ردع ولا شجب ولا استتكار؛ بعد ذلك هل لهم أن يدعوا هؤلاء الشهود للشهادة؟! أنتم أرحتم الطرف الآخر من الطعن، أنتم قذفتهم في شهودكم أيها الناس، وبعد كل هذا القذف لا يبقى ذكر هؤلاء الأشخاص وتكرار ذكرهم إلا للتمويه على الناس ولتأليب الناس عليهم أنهم يكتمون الشهادة، لو كنت تريد شهادتهم لدافعت عن عدالتهم ولكن ينكشف أو يظهر من الرضى بما يقال عن شهودك أمامك ولا تستتكر ولا تشجب ولا تكذب أنك مستغن عن شهادته ولا تريدها، وإنما تريد تأليب الناس عليه بذكره شاهداً، لا يوجد أكثر من هذا.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

موقفنا من الحياة النيابية*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

سؤال طالما طرح وكنت أتهرب من الإجابة عليه، ولكن في خلال هذا الأسبوع طرح متكررا فلا بد من الإجابة عن هذا السؤال وإن كنت لا أرغب في الإجابة عنه خوفا من أن يساء فهم الجواب.

السؤال يقول إن ما يشاع بين الناس عنك أنك لا تؤيد الحياة النيابية لأنك رفضت التوقيع على العريضة التي قدمت للمطالبة بإعادة المجلس الوطني وتفعيل المواد المتعلقة بذلك في الدستور؛ فهل صحيح أنك رفضت التوقيع على العريضة؟ وما هو موقفك أو توجهك من الحياة النيابية؟

الحقيقة هناك عريضتان وليست عريضة واحدة، عريضة كتبت في سنة 1992 وعريضة كتبت في سنة 1994. العريضة الأولى نعم عرضت علي، وقد جاءني بها فضيلة الشيخ عبد الأمير الجمري وكان في صحبته على ما أتذكر الأستاذ عبد الوهاب حسين وأناس آخرون، وقال إن هذه العريضة كتبت ولم أكن أحب أن أتقدم عليك بالتوقيع فيها فجئتك بها، ولم يكن قد وقع على العريضة إلا توقيع واحد هو توقيع الشيخ عبد اللطيف المحمود، وقلت له: من وجهة نظري أن الأحسن أن هذه العريضة يوقعها أعضاء المجلس الوطني المنحل وأن بقية الجهات الشعبية تدعمها؛ لأن هذا يجعل لها وزنا في المحافل الدولية من جهة، ولأنهم أصحاب الشأن من جهة ثانية، إضافة إلى أن الدولة تزمع أن تنشئ مجلسا استشاريا فربما لو سبقتهم إليهم وأعطيتهم الفكرة لا يدخلون في هذا المجلس إذا ما دعوا إليه، طبعا فضيلة الشيخ رفض الفكرة، قلت له إذن هل شاورت بقية العلماء في الفكرة؟ قال لا، قلت له إن أمرا خطيرا مثل هذا الأمر وربما تترتب

* كلمة ألقاها في ليلة الثلاثاء 16/10/1995م بجامع جدحفص

عليه أمور خطيرة وربما تنشأ منه أمور خطيرة ينبغي أن لا ينفرد به مثلي أو مثلك، وإنما يعرض على العلماء ليناقشوه ويدرسوه، ويدرسوا الآثار التي ربما تنشأ عنه، وما هي الصيغة الصحيحة للمطالبة بذلك، فإذا اتفقوا على صيغة معينة واتفقوا على أن الوقت والظرف ملائم لتقديم هذا الأمر فلا مانع أن يطالب به، قال: إنني قد اتفقت مع اليساريين وبعض أبناء السنة وليس عندي مجال للانتظار للتشاور، قلت له إنك تعرف أن علماء الشيعة لا يرضون بأن يساسوا من خارج الطائفة، وإنك محسوب على علماء الشيعة ولا بد من أن تعرض الأمر عليهم، وإذا كنت مستعجلاً فأعطني مهلة يوم واحد وأنا مستعد أن أجمعهم لتعرض عليهم هذا الأمر، ولكن إذا عرضت عليهم عريضة جاهزة مثل هذه العريضة فلا إشكال أنهم لن يوافقوا وإنما اطرح عليهم الموضوع ودعمهم يتدارسونه ويبحثونه، ويكون الأمر صادراً منهم وليس مفروضاً عليهم، وعندئذ يمكن أن يتم ما تريد. فغضب الشيخ من هذا الكلام وقام مسرعاً للخروج. هذا بالنسبة للعريضة الأولى.

بالنسبة للعريضة الثانية لم أسمع عنها مطلقاً إلا بعد أن وضعت في المجالس والمحافل والمساجد للتوقيع عليها، وبعد أربعة أسابيع من طرحها على الناس للتوقيع جاءني فضيلة الشيخ علي سلمان البلادي وكنت في ذلك الوقت ألقى بحثاً فقهيًا، وانتظر حتى انتهى البحث وطلب أن يكلمني فذهبت معه إلى غرفة أخرى وقد صحبنا الشيخ منصور حمادة، وقال: كان من المفروض أن يؤخذ رأيك قبل كتابة العريضة ولكنني مرضت والأخوة تعجلوا وقد جئت الآن لأعرف رأيك في الموضوع. فقلت له إن التشاور أو أخذ الرأي قد انتهى أوانه وأمه بعد طرح الأمر للناس، فسألني إن كان عندي ملاحظات على نفس صيغة الرسالة فقلت له فيها ملاحظات كثيرة ومن أبرزها التي أمام عيني حالياً فيها هاتان الملاحظتان وبينتهما له، ولم يطلب مني هو ولا غيره التوقيع فيها، ولم أتكلم أيضاً ضد العريضة، أو أنهى أحداً عن التوقيع عليها أو عدم التوقيع عليها، بل حتى المحيطين بي والذين بإمكانني أن أقول لهم ألا يوقعوا فيها لم أتكلم معهم في الموضوع، ولم أجبهم بشيء لما سألوني في الموضوع؛ فمنهم من وقع ومنهم من لم يوقع، وممن وقع مثلاً الشيخ

منصور حمادة والشيخ حسن زين الدين وغيرهما من المشائخ ومن الشباب الذين يتقون بي لأنني رفضت أن أجيب، وقلت كل شخص يعرف تكليفه الشخصي، هذا بالنسبة للعريضة.

وأما بالنسبة إلى موقفي من الحياة النيابية أو توجهي من الحياة النيابية وأنتي لماذا لم أطلب بإعادة البرلمان فأولا: ينبغي أن يفهم أنني ما وقفت في يوم من الأيام ضد الحياة النيابية، ولن أقف في يوم من الأيام ضد الحياة النيابية، وقد بينت في وقت سابق أنه في التجربة الماضية التي كانت في البحرين كان كثير من المشائخ العلماء متخرجين من الدخول في التجربة نظرا للإشكالات الشرعية التي تحيط بها، وأنها تقتضي تسليط من ليس بأهل، ومن ليس بعدل أن يشرع القوانين والنظم للأمة، فقامت بإقناعهم بالدخول ولو للحد من المفساد التي قد تنجم منها، وفعلا دخل منهم جماعة لا يزيدون على ستة إذ لم يتمكنوا في ذلك الوقت من أن يفوزوا بأكثر من ستة، وبذلوا كل جهدهم مشكورين في تعديل مواد كثيرة في الدستور في المجلس التأسيسي، ولكنهم أيضا عجزوا عن تعديل مواد أخرى خطيرة لا تزال باقية في الدستور؛ منها على سبيل المثال لا الحصر المادة الثانية من دستور دولة البحرين والتي تقول إن الشريعة الإسلامية من أهم مصادر التشريع ولا يحصر التشريع كله في الشريعة الإسلامية، ومواد أخرى كثيرة متفرقة هنا وهناك بقيت أبوابا مفتوحة في الدستور يتمكن كل من يريد أن يبعد بعض جوانب من الحياة عن الشريعة الإسلامية و أن ينفذ من خلالها، وعندما جاء المجلس الوطني أيضا دخل هؤلاء الجماعة، وفي المجلس الوطني أيضا، قاموا مشكورين بتلافي ما يتمكنون من تلافيه.

فإذن توجهي ليس ضد الحياة النيابية لا سابقا ولا لاحقا، ولكنني لست مستعدا أن أطلب بالحياة النيابية على وفق النسخة الأوروبية الخالصة والتي منها الصيغة الدستورية في البحرين للحياة النيابية، والذي يمنعني من ذلك سببان: أحدهما ديني والثاني سياسي، السبب الديني بطبيعة الحال أن يأتي شخص لا علاقة لي به ولم أكن أنا الذي مكنت له ولم أكن أنا الذي أعنته فيصدر نظاما أو قانونا يتنافى مع الشريعة الإسلامية في قليل أو في كثير، ولن أكون مسئولا أمام الله عن مثل هذا الشخص، ولا عن مثل هذا القانون، ولكن عندما أكون أنا الذي أعنت، وأنا الذي

ساعدت وأنا الذي دعوت ومكنت مثل هذا الشخص أو هذه المجموعة من الأشخاص أن تصدر قانونا أو تصدر نظاما يبعد الناس عن الشريعة الإسلامية في ناحية من نواحي حياتهم فلا إشكال في أنني سأكون غدا مسؤولاً أمام الله سبحانه وتعالى عن مثل هذا القانون، وعن مثل هذا الشخص، أو مثل هؤلاء الأشخاص، والمطالبة الحالية الموجودة إنما تطالب بتفعيل الدستور؛ أي بإعادة ما كان موجوداً أو إيجاد الصيغة السالفة الذكر. فإذن هي هذه نفسها النسخة الأوروبية من الديمقراطية الغربية، ولا إشكال أنه في أثناء الدور الأول الذي لم يتم في المجلس الوطني صدرت عدة قوانين تخالف ضروريات في الشريعة الإسلامية. أضرب مثلاً على ذلك وهو مثال وليس حصراً قانون التقاعد، قانون التقاعد أعطى الزوجة خمسة أثمان الإرث، خمسة أثمان ما يتركه المتوفى، وأعطى الأبوين والأولاد ثلاثة أثمان، هذا في حد ذاته مخالف مخالفة صريحة للأمر المنصوص في القرآن في ما فرضه الله للأبوين والزوجة والأولاد، إضافة إلى ذلك في الحقيقة فإن هذا يؤدي إلى حرمان ورثة المتوفى من التركة، فالقانون يعطي بنات المتوفى إلى أن يتزوجن، ويعطي أولاد المتوفى إلى أن يتمكنوا من تحصيل العمل أو يبلغوا سناً معينة يفترض فيهم أنهم يتمكنوا من تحصيل العمل، ويعطي الزوجة إلى أن تتزوج، وبعد ذلك تكون إدارة التأمينات الاجتماعية هي الوريث الحقيقي لما تركه الميت، ولو فرضنا أيضاً أن الميت ليست له زوجة ولا أولاد ولا أبوين فإنه لا يعطى أهله إلا ما يشيع جنازته ويقيم الفاتحة، وكل أتعاب ذلك العامل يرثها صندوق التأمينات الاجتماعية. هذا قانون واحد والمشائخ والمؤمنون الذين كانوا في المجلس حاولوا تعديل كثير من مواده ولكنهم لما لم يتمكنوا من جعله مطابقاً للشريعة الإسلامية رفضوا التصويت عليه، ولكن لم يتمكنوا من تعديله أو توقيفه، وممن رفض التصويت عليه أيضاً فضيلة الشيخ عبد الأمير الجمري الذي كان في ذلك الوقت عضواً في المجلس الوطني، وهناك قوانين كثيرة، بل إن بعض أعضاء المجلس تقدم بمشروع قانون يطالب فيه بتنظيم البغاء واعتباره مهنة شريفة ليس عليها غبار بحجة أن البلد مقدمة على أن تكون بلد خدمات، ولو قيض للمجلس أن يستمر في عمره لكان ربما يفوز مثل هذا القانون ويصبح للبغاء اعتراف قانوني رسمي تمارسه البغايا بكل

حرية. فإذن النسخة الغربية التي ورثتها الدساتير العربية تمنع أي إنسان يريد أو ينظر إلى الحياة الأخرى أن يعرض نفسه للمطالبة بها، ولكن لو وجدت سواء بمطالبة غيري أو بطرح من الدولة فسوف أقول للمؤمنين ادخلوا، واعملوا ما استطعتم في منع المفساد، لكنني لن أطلب بها، نعم لو كان يمكن إيجاد الصيغة الإسلامية الصحيحة للحياة النيابية لكنت أتبنى ذلك وأعمل على تحقيقه بالطرق الصحيحة.

فمثلا دستور الجمهورية الإسلامية الذي صدر في سنة 1980 قد جاء مفاجئاً للعالم بأنه لم يتأثر بالطريقة الغربية الأوروبية في الحياة النيابية، لقد كان رائداً بين دساتير البلدان الإسلامية في الصيغة التي طرحها وأصبحت التجربة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية تجربة إسلامية حقيقية ورائدة؛ وذلك لأن هذا الدستور لم يجعل من شئون مجلس الشورى حق إصدار القوانين، وأكثر ما يستطيعه مجلس الشورى المنتخب في إيران هو أن يتقدم بطلب برغبة بقانون، ولكنه لا يستطيع أن يصدر القانون، الدستور في الجمهورية الإسلامية الإيرانية نص على مجلس آخر أناط به إصدار القوانين، وهذا المجلس هو مجلس صيانة الدستور، ومجلس صيانة الدستور بموجب الدستور الإسلامي يشترط أن يكون أعضاؤه فقهاء عدول، وحتى لا يتمكن أحد أن يعمل لنفسه دعاية ويفوز لهذا المجلس عن طريق الدعايات الانتخابية الرخيصة فإن الدستور احتاط لهذا الأمر وجعل أعضاء مجلس الخبراء لا يصلون إليه عن طريق الترشيح والانتخاب، وإنما عن طريق التعيين من قبل مرشد الثورة، وهذه فعلاً نسخة جديدة من الحياة النيابية تمنع من لا يلتزم بالشريعة الإسلامية لو صل أحد منهم إلى مجلس الشورى أن يتمكن من إصدار أنظمة وقوانين تنافي الشريعة الإسلامية. وهذا طبعاً هو السبب الديني الذي منعي أن أطلب بذلك، لا أنني أرفضه، يعني لو أن غيري طالب واستجابت الدولة فسوف أقول للمؤمنين ادخلوا فيه، ادخلوا فيه لتحذوا ما تستطيعون أن تحذوا من الفساد، لتوقفوا ما تستطيعون أن توقفوه من الأشياء المخالفة للشريعة، ولن أكون إذن مسئولاً أمام الله سبحانه وتعالى لأنني لم أمكن لأحد، ولم أعن أحداً على أن يشرع للمسلمين ما يخالف أحكام الله .

أما من الناحية السياسية فسأتكلم على الموضوع في الأسبوع القادم إن شاء الله وأرجو أن لا يساء فهم الكلام الذي جرى هذه الليلة أو الذي سيجري الأسبوع القادم وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

موقفنا من الحياة النيابية (2)*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين،
واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

أعود إلى ما كنا نتكلم فيه من الأسباب التي منعتني من السير مع العريضة التي طرحت
والتي تطالب بإعادة تفعيل بعض المواد المعلقة من الدستور والمجلس الوطني وقد قلت أساسا إنه
لم يطلب مني التوقيع على العريضة الثانية وهي العريضة التي أنزلت لكافة الناس، لم يطلب مني
التوقيع عليها، وإضافة إلى ذلك فإن هناك أسبابا دينية ذكرت بعضها وأسبابا سياسية سأذكر
بعضها هذه الليلة هي التي منعتني من السير مع هذه العريضة.

ومن الأسباب السياسية التي منعتني من السير مع هذه العريضة هو أن الذين كتبوا
العريضة لم يقوموا بدراسة إمكانية المطلب، وما معنى إمكانيةه؟ تعرف السياسة عادة بأنها فن
تحقيق الممكن، فهل يقصدون بقولهم [فن الممكن]، الممكن عقلا في مقابل المستحيل عقلا؟ طبعا
لا، لا يقصد من لفظ الممكن في هذا المجال هو الممكن عقلا مقابل المستحيل عقلا، وإنما يقصد
بالممكن أي الموضوع الذي يمكن التغلب على العقبات والعراقيل التي تقع في طريق تحقيقه بأقل
خسارة ممكنة، هذا يسمى في مصطلح السياسيين بالممكن، وأي موضوع يطرح لابد أن تعرف
إمكانيته في الطرف الذي يطرح فيه، وأن تدرس هذه الإمكانية، وهل أن العقبات المانعة من
تحقيقه يمكن التغلب عليها في الطرف الحالي، ويمكن تذليلها في هذا الطرف؟ أو أنه لا يمكن
تذليلها ولا يمكن تجاوزها إلا بتضحيات كبيرة، وخسائر كثيرة، بحيث يكون الموضوع لو تحقق لا
يكون الربح والعائد منه مساويا للخسارة والتضحيات التي بذلت في سبيله.

طبعا موضوع مثل موضوع إعادة المجلس الوطني ليس من الموضوعات السهلة التي
تكون العقبات في طريق تحقيقها أمرا سهلا. فلا بد إذن من دراسة هذه العقبات، ومن دراسة

* كلمة ألقاها في ليلة الثلاثاء 1995/10/23م بجامع جدحفص

المشاكل التي تنشأ من محاولة مس الثوابت التي تتسبب في وجود هذه العقبات. وبأي أسلوب يمكن أن يعمل، ولا بد أن يحسب الحساب للنتائج التي ستننتج عن ذلك، طبعاً أنا لا أعرف عن القائمين بهذه العريضة إلا أن جماعة من الإسلاميين الموثوقين اتفقوا مع جماعة من اليساريين وأصدروا العريضة، ولا شك أن الإسلاميين منهم هم موضع ثقة وموضع اعتبار ولكن اليساريين وهم الأعداء التقليديون للإسلاميين لا يمكننا أن نأمن جانبهم بحال من الأحوال، ولا نعلم ماذا يقصدون من هذا الطرح في هذه اللحظة.

إذا أردنا أن ندرس تلك الظروف نجد أن الدولة قد أعلنت عن مجلس استشاري قبل عام واحد من العريضة الثانية، وعليه فلا توجد إمكانية أن تتراجع الدولة عن مشروعها في ذلك الظرف، ويكون طرح الموضوع في ذلك الظرف كأنما هو مجابهة صريحة مع الدولة، لا توجد إمكانيةً وخصوصاً بعد طرح الدولة لمجلس الشورى في ذلك الوقت.

الشيء الثاني أن الظروف التي تعيشها البحرين إن على المستوى الشعبي أو على المستوى الرسمي غير مهيأة لطرح الفكرة دفعة واحدة بهذا الشكل؛ فلا بد إذن من العمل، على التوعية الشعبية التدريجية على الحياة النيابية من جهة، ومطالبة الدولة بمزيد من الحريات من جهة ثانية، حتى يمكن أن تحصل إمكانية ذهنية عامة سواء على الصعيد الرسمي أو على الصعيد الشعبي، وألا يكون هذا الطرح بمثابة نقلة أو بمثابة قفزة إلى الموضوع؛ لأنه في هذه الحالة لن تحصل استجابة، وربما تحصل خسائر كثيرة وفادحة.

ثانياً إن قرار أي دولة في ظاهره مستقل، ولكن قد لا يكون في حقيقته مستقلاً تماماً الاستقلال، هذا يرجع إلى مدى قوتها وقدرتها الاقتصادية، وإلى مدى قدرتها وقوتها العسكرية، فما لم تكن الدولة لها القدرة الاقتصادية التامة التي تمكنها من اتخاذ قراراتها الخاص بكل استقلال فعندئذ لا تستطيع أن تستقل في قرارها - حتى لو كان يتعلق بالشؤون الداخلية - عن هي مضطرة إلى الاستفادة منهم في المقام الاقتصادي أو المقام العسكري.

وإذا جئنا إلى البحرين وخاصة في هذه الظروف نجد أن الدولة - وليس لي رجال الدولة أن أقول ذلك- أنهم لا يستطيعون أن يتخطوا عقبة مجلس التعاون الخليجي بكل ما فيه من ثقل وبكل ما تحتاجه البحرين من دعم لبعض القضايا الحدودية والخارجية من بعض دول هذا المجلس، وأيضا من تأثير بعض هذه الدول على الاقتصاد في البحرين تأثيرا كبيرا؛ مما يجعل إمكانية تحقيق المطلب في ظرف الحاضر وما لم نعمل على تلافي هذه العقبة الكأداء وتنمية الاقتصاد وتهيئة سبل العيش الذي يمكننا من اتخاذ القرار بحرية أمرا ممكنا.

لذلك فإن طرح هذا المطلب من دون دراسة هذه الأمور على أقل تقدير يكون مشغلة للوقت وتضييعا للفرصة بدل المطالبة بتحسين الأوضاع المعيشية للشعب، وبدل المطالبة بمزيد من الحريات للشعب، وبدل المطالبة بمزيد من المساواة للشعب. وهذه الأولويات كلها ستنعطل إذا نحن بقينا مصرين أو طرحنا هذا المطلب الذي نعلم عن وجود العقبات الكأداء الشديدة في طريق تحقيقه.

وإن تدليل هذه العقبات يحتاج إلى وقت طويل وإلى جهد كبير، وإذا لم نعمل على تذليلها فلن نذلل، وطريق تدليل هذه العقبات إنما هو العمل على توفير الظروف المعيشية الصحيحة للناس.

مثلا لو جئت إلى ظروف العمل اليوم، كثير من الناس تتكلم عن البطالة، ولكن إذا أخذنا البطالة بمعناها الضيق وهو أن هناك أناسا بدون عمل فسيكون الأمر بسيطا، كم عدد عاطلين عن العمل؟ لو قلنا من باب المبالغة أنهم يصلون إلى عشرين ألف عاطل، نستطيع أن نخرج عشرين ألفا من الأجانب ونوظف بدلهم عشرين ألفا من أهل البلد، هل تعتقدون أن المسألة العمالية في هذا الحال تتحل؟ لا تتحل، لماذا؟ لأن العامل الأجنبي العادي يقبض خمسة وأربعين دينارا، وحتى لو أردنا أن نضاعف هذا الأجر ونعطي العامل تسعين دينارا ماذا ستفعل له بالنسبة إلى غلاء المعيشة؟

فإن العلة الحقيقية تكمن ليس فقط في مجال عدم وجود وظائف، وإنما أيضا مستوى الدخل الذي يجب أن يعدل، فعلينا أن نجعل مفهوم البطالة يشمل أيضا مستوى الدخل وليس فقط عدم توفر العمل.

طبعا العمل على هذا المستوى يذلل عقبة من هذه العقبات، فنحن إذا لم نعمل على معالجة المستوى المعيشي لا نذلل عقبة من العقبات التي تحول دون طرح هذا المطلب.

بالإضافة إلى أن هذا المطلب يعيقنا عن العمل على تحقيق الحرية الشخصية إن في إبداء الرأي أو في التنقل -الخروج والمجيء- فهناك حَجْر كبير و قيود كبيرة على هاتين الحريتين، فمثلا لا يستطيع الإنسان أن يبدي رأيه في الصحيفة، فلا بد أن تكون هناك قنوات معترف بها، قنوات شرعية يعبر الإنسان فيها عن رأيه؛ سواء كان هذا الرأي خطأ أو صوابا. فإذا سمحنا للإنسان أن يمارس النقد ويتعود عليه فسي تعود على النقد المهذب للآخرين، يتهدب أسلوبه في انتقاد المخالفين، بالإضافة إلى أننا حللنا مشكلة كبيرة من مشاكل الحرية، وأهلنا الناس للمعايشة [الديمقراطية] القائمة على التفاهم والتحاور في حل الخلافات والمشكلات، وهو بدوره يعود المسؤولين على استماع النقد بروح رياضية فيما يتعلق باختصاصه، وبذلك نكون قد أوجدنا أو دللنا عقبة من العقبات التي تعرقل قيام الحياة النيابية؛ لأن كثيرا من المسؤولين يتصور أنه عندما تكون هناك حياة نيابية سيضيق عليهم، لا يتمكنون أن يعملوا، سيحاسبون عن كل صغيرة وكبيرة إلى غير ذلك، وهذا طبعا يجعلهم لا يوافقون عن قيام الحياة النيابية، وهذه أيضا عقبة من العقبات.

فالمطالبة بمزيد من الحرية في التعبير عن الرأي عبر القنوات الموجودة بالفعل بالإضافة إلى أنه يحل مشكلة نفسية متأزمة؛ هو بالتالي أيضا يذلل عقبة من عقبات تحقيق الحياة النيابية وهو تعويد الناس على تهذيب الأساليب النقدية وتعويد المسؤولين على سماع النقد المؤدب أيضا والإجابة عليه، سواء كان صحيحا أو كان خطأ، وأما إذا طرحنا المطلب رأسا فإنما نضيع الوقت في أمر لا نتوصل إلى حل له، ولا نستطيع أن نحقق ما يمكن تحقيقه، وكذلك حرية التنقل هذه

أيضا مشكلة من المشاكل التي تحتاج إلى حل، ففي أحيان كثيرة لا يتمكن بعض المواطنين من الرجوع إلى البلاد في الوقت الذي يرغبون، أو يخرجون في الوقت الذي يريدون.

ربما كان سبب ذلك هو قانون الطوارئ الذي أعلن لظروف خاصة عام 1981م فهل يمكن أن ننظر المجلس الوطني ليرفع هذه الحالة؟ أليس هذا مضيعة للوقت في الحقيقة؟ أليس الأحسن أن نعمل ونقنع الدولة بأننا مواطنون صالحون وأنه لا داعي مطلقا لقانون الطوارئ؟ ويرتفع قانون الطوارئ ويستفيد من ذلك الجميع، ويكون أيضا في نفس الوقت تذكيرا لبعض العقبات المانعة من الوصول إلى الحياة النيابية.

إن الطرح المفاجئ بهذا الشكل لم يكن يسمح لكثير من الناس بالسير مع هذا الطريق، إضافة إلى أنه لم يستشر أحد من السياسيين في البلد، أو من الوجهاء والأعيان، أما العلماء فأنا أستطيع أن أقول عنهم إنهم لم يسمعوا بالعريضة إلا بعد أن طرحت للناس.

طبعاً ما هي النتائج التي ستترتب على هذا؟ لم تدرس، ولا يعرفون عنها شيئاً، أنا لا أعرف عنها شيئاً. نحن رأينا النتائج بعد فترة طويلة من طرح العريضة، وهي كما ترون بعداً عن مفهوم الديمقراطية والحوار بين الأخوة وتفرقا في الرأي وتمزقا في الصف بالإضافة إلى الضعف الاقتصادي الذي عم البحرين عامة والشعبة خاصة، بالإضافة إلى ازدياد الشك في الشيعة بحيث إنه حتى شرف الدفاع عن وطنهم صار ليس لهم حق فيه، إلى غير ذلك من الأمور والنتائج التي ظهرت لأن هذا الشيء لم يدرس دراسة كافية، ولم تعرف الأساليب التي وضعت له.

وهناك أيضا اعتراض على طريقة طرح العريضة، ولا أريد أن أتعرض له في الوقت الحاضر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المفلسون*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كثير من الأخوة وطيلة الأيام الماضية وهو يرى الحملة المسعورة الظالمة، يقرأها ويسمعها يتصل بي ويسأل لماذا أنت ساكت عن ذلك؟ في الحقيقة لا أريد ولا حتى الآن لا أريد أن أجيب على هؤلاء الناس لعدة أسباب:

السبب الأول: أن هذه الحملة المسعورة ضدي إنما تكشف إفلاس أصحابها، تكشف عن خلاء حقائبهم من أي دعوى يدعونها من أنهم يحملون قضية، كانوا في السابق يدعون أنهم يحملون قضية، ولكن هذه الحملة كشفت أنهم لا يحملون قضية؛ لأن من يحمل قضية يريد أن يعمل لها، ومن يحمل هدفا يسعى إلى تحقيقه لا يفتح لنفسه معارك جانبية تبدد قوته وتشغل وقته وفكره، صاحب أي قضية يكون همه إنما هو العمل من أجل قضيته التي يحملها، ومن أجل هدفه الذي يريد تحقيقه، زيد من الناس لم يتعاون معي في تحقيق هدفي، ما لي وله؟ على الأقل أحيده؛ لا أن أفتح لي معركة معه، صاحب القضية تراه لا يلتفت يمينا أو شمالا إلا إذا كانت تلك الالتفاتة تزيد قوته وتدعم موقفه الذي يؤيد هدفه وقضيته، أما أن يفتح لنفسه المعارك الجانبية ويبدد ما يكون معه من قوة، ويشغل نفسه في حرب جهات لا تملك أن تحول بينه وبين تحقيق هدفه؛ هذا إذا كان صاحب القضية فهو لا يصلح لقيادتها؛ لأنه يكشف عن خرقه وحمقه وعدم قدرته على إدارة الموقف، وإن كان في الأعم الأغلب أن من يفعل ذلك لا يكون صاحب قضية، ليس صاحب قضية، فإذن كانت الحملة المسعورة إنما تكشف عن أن أصحابها ليسوا أصحاب قضية، ربما يكونون أصحاب قضية شخصية، يعني مثلا أنا أريد أن أجمع الناس حولي، أنظر في المجتمع ربما هناك شخصية تنافسني ماذا أفعل؟ أعمل على تحطيمها، على حربها، هذا

* كلمة ألقاها في ليلة الثلاثاء 11/12/1995م بجامع جدحفص

صحيح؛ لأن في هذه الحالة تكون هذه الحرب حرباً من أجل تحقيق القضية، لكن إذا كان الهم هو هم الأمة، وإذا كانت القضية هي قضية أمة مالي ولزيد ولعمرو ولبكر ولخالد، أفتح لنفسي معارك جانبية وأبدد ما أملك من قدرات ومن أوقات فيها، طبعاً هذا يكشف أحد أمرين، أما أن أكون أخرج لا أصلح للقيادة، وأما أن أكون لست صاحب قضية إلا قضية شخصية. فإن هذا هو السبب الأول الذي جعلني لا أكرث لهذه الحملة ولا أرد عليها؛ لأنها تكشف للناس حقيقة القائمين بها، تكشف للناس أن ما يدعونه من قضية ومن هم أمة ليس إلا غطاء لشيء آخر، وإلا مالهم ولسليمان المدني؟! يعني أصبحت المعارضة بدل أن تكون معارضة للدولة معارضة لسليمان المدني؟ وكأن الذي يملك أن يحقق الأهداف هو سليمان المدني، الذي يملك أن يمنع من تحقيق الأهداف هو سليمان المدني، أينما تذهب أموال كثيرة تبذل، طاقات من الشباب والشابات تهدر، يدفعونهم للتجوال من قرية إلى قرية، ومن بلد إلى بلد، ومن بيت إلى بيت لماذا؟ ليقولوا لشعب البحرين إن سليمان المدني يقف ضدك، سليمان المدني لا يملك شيئاً، سليمان المدني ليس بيده أن يعطيك المجلس الوطني، وليس بيده أن يحول بينك وبين أن تعطيك الدولة المجلس الوطني، فتحك معركة معه بهذه الطريقة إنما يدل على إفلاسك، وعلى أنك كذاب في ادعائك أنك تحمل هم الأمة أو أنك تحمل قضية، لو كنت تحمل قضية ما كنت تفتح لنفسك معركة جانبية مع سليمان المدني أو غير سليمان المدني، ما شاء الله، حتى لو معك سليمان المدني، فأنت إن الغالبية العظمى من الشعب معك؛ فلماذا لا تحيّد سليمان المدني مثلاً حتى تكون البقية الباقية من الأمة معك؟! على الأقل الأقلية ربما تخسرهم في فتحك معركة مع سليمان المدني، فإن كنت صاحب قضية حقاً فيجب على أهل القضية أن يسحبوها من يدك وينظروا لها شخصاً آخر قادراً على إدارة المعركة، وعلى معرفة الواقع، وأن لا يتركوها في يدك؛ لأنك بفتح المعارك الجانبية مع زيد وبكر وعمرو وخالد تبدد القوى وتهدر الطاقات، بدلاً من أن ترسل في كل قرية وفي كل بيت دعاة يكرهون سليمان المدني أو يكرهون زيد أو شيخ منصور الستري أو غيرهم في نفوس الناس، ادفعهم ليدعوا إلى قضيتك، فهذا أعود عليك بالنع، لماذا تهدر هذه الطاقات لو كنت صاحب

قضية؟! ولكن يتراءى لي أنه أمام كل الشعب أن من ينادي بالقضية قد تخلى عن القضية وأثبت على نفسه عدم المطالبة بأي مطلب أو شروط، ولذلك صار همه مجرد قضية شخصية، ثق يا صاحب القضية الشخصية أنني لن أنافسك في التفاف الناس حولك، ثق يا صاحب القضية ويا صاحب همّ الأمة أنني لن أنافسك في الدعوة الشخصية، ولا يهمني أن يلتف الناس كلهم حولك، فأنا قد شبتت من كل هذا، ولا أحتاج للبروز والظهور حتى أنافسك، وهذا أحد الأسباب التي جعلني ألا أرد على هذه الحملة المسعورة.

السبب الثاني هو أن هذه الحملة ليست أكثر من الشتائم، ليست أكثر من السباب، أنا عشت في بيت إذا شتم الطفل فيه دجاجة أو قطة يلطم على فمه، تربيت في بيت لو سمع أهله طفلا لهم يشتم كلبا أو فأرا للطموه على فمه، هذه التربية التي عشتها تجعلني لا أستطيع أن أجاري صاحب الحملة في الشتم والسب، ليقول من السباب ومن الشتم ما شاء الله، وليكن واثقا أنني أعجز الناس عن الرد عليه، ذلك أنني قد رببت على عدم الشتم وعلى عدم السباب، وبعد كل هذا العمر لا أستطيع أن أتخلى عن ما غرسته فيّ هذه التربية، لعلها تربية في نظر صاحب الحملة غير صحيحة، ولكن على أي حال هي التي رببت عليها، فكيف أستطيع أن أجاريه في حملة سباب، طبعا لو تشاتم المسلمان لو تسابا فكل منهما مخطئ والبادئ هو الأظلم كما يقول علي عليه السلام، وكما يقول النبي صلى الله عليه وآله، فإنّ حيث إن هذه الحملة ليس فيها مناقشة فكرية، وليس فيها مناقشة علمية، وليس فيها إلا الاتهامات والتهويشات والسباب فأنا أعجز العاجزين عن الرد عليها.

السبب الثالث ما هي النهاية الخاتمة لهذه الحملة؟ منشور يقول إنني خرجت من حظيرة الدين ولم أعد إليه، وأي دين هذا؟ الدين الذي يقول للعالم أو يبيح للعالم وهو يسمع الشتائم والكلام البذيء أمامه فلا يأمر بالمعروف ولا ينهى ذلك المتكلم عن السباب؟ يشتم باسمه فلا يشجب الشتم ولا يتبرأ منه؟ هذا الدين أنا لم أدخله في يوم من الأيام حتى أكون قد خرجت منه، خرج من الدين ولم يعد، أي دين؟ الدين الذي يبيح استغفال الناس وادعاء بطولات لم تكن موجودة عندي،

أدعي إنني أرغمت زيدا وأرغمت الدولة وتغلّبت على كذا وفي كل يوم أذكر مستجدات ليس لها واقع لأستغفل الناس، هذا الدين الذي يبيح هكذا لصاحبه أنا لم أدخله في يوم من الأيام حتى أكون قد خرجت من حظيرته. خرج من الإسلام ولم يعد، أو خرج من حظيرة الدين ولم يعد، أي دين هذا؟ وأي إسلام هذا؟ الإسلام الذي لا يستدعي من سمع بتهديد المصلين عن الصلاة مع زيد أو بكر أو عمرو ولم يستتكر ولم يشجب هذا الدين وهذا الإسلام لم أدخله في يوم من الأيام حتى أكثرث أن يقال إنني خرجت من حظيرته، خرج من حظيرة الدين أو الإسلام ولم يعد، أي دين هذا وأي إسلام هذا الذي يدعي بأنني خرجت من حظيرته ولم أعد، الإسلام أو الدين الذي يعلم صاحبه بأن ذلك الإمام - إمام ذلك المسجد - قد منع من الصلاة جماعة وأن بعضهم يصصر على أن يأتي بإمام آخر حسب هواه ويذهب إليه ويطلب منه أن يستتكر أو أن يشجب فيرفض أن يستتكر أو أن يشجب، بل ربما يؤيد ويعطي من الفتاوى الباطلة العاطلة ما يبرر ذلك؟! هذا الإسلام أو هذا الدين لم أدخله في يوم من الأيام حتى يقال إنني خرجت من حظيرته، أي دين هذا؟ أما الإسلام أو الدين المبني على ما أنزل الله من كتاب لا على وحي الأحزاب فإنني منذ أن نطقت به وأنا صغير لم أخرج منه، على أي حال هناك أسباب كثيرة هي التي دعت أن لا أرد على هذه الحملة المسعورة وأكتفي أن أقول: ﴿مَرْبَاً اقْتَحَبْنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾¹.

بقي هناك شيء واحد أود أن أنبه عليه من ربما يتعظ أو يستمع، طبعا هناك حملة موجودة في الوقت الحاضر ضد بعض الخطباء الذين أبت لهم كرامتهم أن يكونوا سبابين أو شتامين، أبت لهم عزتهم أن يكونوا مداحين ومصفقين، أبت لهم دينهم أن يكونوا كذابين ودجالين، وهذه النوعية من الخطباء يركز عليها هذه الأيام ويهدد ويضغط على كثير من إدارات المآتم بتركهم أو بعدم دعوة فرد منهم للقراءة في ذلك المآتم. أولا أوجه كلامي للخطباء فأذكرهم بأن الرزق ليس بيد الناس، الرزق بيد الله سبحانه وتعالى وهو الذي خلق الإنسان وقدر له رزقه، لكن أحيانا يبتلي الله الإنسان برزق واسع وأحيانا يبتليه بالضيق عليه في الرزق أيضا حتى يختبره، يختبر مدى إيمانه،

¹ الأعراف: من الآية 89

ومدى ثقته في الله . هل ثقته في الله حقيقية فيصبر على الأذى في جنب الله؟ أو أن عنده اهتزازا في الثقة بالله فتهدن إرادته ويستجيب، وإلا لو ركض الإنسان ليله ونهاره فلن يحصل إلا على ما كتبه الله له، ولو عمل براحته سوف يحصل ما كتبه الله له، كونه في هذا العام كثيرا، أو كونه في هذا العام قليلا؛ هذا على حسب تقدير الله طبعاً، هذا بالنسبة إلى الخطباء.

ثم أخاطب فئتين من الناس : الفئة الأولى التي تضغط على أصحاب المآتم أو تهددهم أقول لهم: إن الله سبحانه وتعالى ذكر قوما في كتابه المجيد بهذه الصفة فإن رضيتم أن تكونوا من هؤلاء القوم الذين وصفهم الله بهذه الصفة فهنيئاً لكم بها، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ

يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾¹، أنتم

الآن تقومون بالضبط بنفس العملية التي كان يقوم بها عبد الله بن أبي سلول وزمرته لعنهم الله، أنتم تقومون بنفس العملية التي كان يقوم بها المنافقون في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فإن رضيتم أن تكونوا من نفس هذه الجماعة فهنيئاً لكم بهذا الانتماء الجميل، وإن أردتم أن لا تكونوا من هذه الجماعة فاستغفروا ربكم وتوبوا إلى بارتكم واذهبوا إلى أصحاب المآتم الذين ضغطتم عليهم أو هددتموهم وأخبروهم بحقيقة الحال، واسألوا الله أن يتوب عليكم تجدوا الله تواباً رحيماً، هذا بالنسبة إلى هذه الفئة.

الفئة الثانية أقول لأصحاب المآتم وأصحاب القراءات إن الله سبحانه وتعالى شرفك وكرمك وجعلك مسؤولاً عن مؤسسة صغيرة من مؤسسات أمة محمد صلى الله عليه وآله لينظر هل تصلح أو تفسد، لينظر هل تلتزم بشرعه أو تحيد عن أحكامه، لا إشكال لو جاء إليك شخص وتكلم لك عن حاكم من الحكام أفسد في بلده أو في رعيته لقلت وتكلمت عليه وشتمته، ولكن هل تنظر إلى عمالك هذا هل هو صلاح أو فساد؟ أنت الذي استرعت هذه المؤسسة الصغيرة هل بقيت مصراً على أن تديرها على وفق المنهج الشرعي؟ أو أنك لم تلتزم بذلك، أسأل نفسك أولاً: هل أن الذي بنى المآتم بناه لتأتي بسبب الناس ويخالف أحكام الشرع؟ إنسان مفلس ليس لديه موضوع

¹ المنافقون:7

فكري ولا عقائدي ولا تاريخي وليس لديه سلعة يطرحها للناس فيلجأ للشتم والتهميش؟ هذا الذي بنى المآتم بناه لتأتي بمثل هذا الشخص وتترك أصحاب الموضوعات التاريخية التي تتكلم عن الإسلام وعن أهل البيت؟ إذا خالفت ذلك فهل أنت أفسدت في المؤسسة التي استرعاك الله أمرها أم أصلحت؟ سؤال وجهه إلى نفسك، المآتم إذا كان يعتمد على أوقاف الذين وقفوا الأوقاف من المؤمنين واسترعاك الله شأنها لتتفقها على تلاوة مدائح أهل البيت وذكر مصائبهم والدعوة لهم والدعوة إلى الالتزام بالشريعة الإسلامية التي من أجلها قتلوا ومن أجلها أبيدوا؟ أو من أجل أن يشتم زيد على ذلك المنبر أو عمرو، أو يؤلب الناس على بعضهم البعض؟ انظر نفسك؛ أنت في هذه العملية مصلح أم مفسد؟ حتى لو كان المآتم يعيش على التبرعات من المؤمنين، فالمؤمنون الذين تبرعوا لمؤسستك وأعطوك المال وشرفك الله بأن استرعاك التصرف في هذا المال هل تبرعوا به من أجل الأعمال الخيرية والدينية أو من أجل مفلس لا يملك إلا أن يشتم أو يسب؟ يجب عليك أيضا أن تسأل نفسك هل أفسدت في هذه المؤسسة أم أصلحت؟ بينك وبين الخطيب اتفاق، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾¹، تأتي إليه وتقول له ألغينا اتفاقنا معك، أهذا مطابق لكتاب الله أو مخالف لكتاب الله؟ أسأل نفسك يا أخي هل أنت مفسد في هذه المؤسسة عندما تخالف كتاب الله وتلغي اتفاقك مع خطيب كنت قد اتفقت معه؟ هل أنت مفسد أو مصلح؟ أسأل نفسك، وإذا لم تسأل نفسك اليوم فسوف تسأل غدا، والذين يضغطون عليك اليوم وتستجيب لهم ربما يريدون منك غدا أمرا تخاف منه، وعندئذ يعملون على مضايقتك وطردك من المؤسسة، اسأل نفسك وحاسب نفسك.

وأعود إلى الجميع من المحرضين ومن أصحاب المآتم فأقول لهم أنتم تعيينون على الدولة أنها إذا اختلفت مع شخص فإنها تتصح بعدم توظيفه، وتقولون إن المعارض لا ينبغي أن يحرم من عمله لأنه مواطن، وأنتم والله الحمد بعد لم يحصل في أيديكم شيء وهذا ظلمكم لإخوانكم، إذن لو استرعاكم الله أمر خلقه ماذا ستفعلون؟! ألسنتم تفعلون ما تعيينون عليه الدولة من الأفعال؟ ألسنتم

¹ المائدة: من الآية 1

لمجرد أن اختلف معك هذا الخطيب ذهبت تحرض الناس على عدم استتجاره، وتحرض الناس على عدم الحضور عنده والاستماع إليه، كيف بك لو مكنك الله سبحانه من شيء، كيف بك لو أعطاك قوة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾¹

سؤال استتكري، انظر نفسك يا أخي، أنت إلى الآن ما توليت شيئاً ومع ذلك أخذت تهدد الناس بحرق سياراتهم، بحرق بيوتهم، بقتل أبنائهم، بالتعرض لأرزاقهم، أصبحت ترتكب المناكر والكبائر والعظائم، فكيف لو أعطاك الله السلطة فماذا تفعل في عباد الله؟ وماذا تفعل في بلاده؟

على أي حال أوصي نفسي وأوصي كل من يثق بي بأن يتقي الله سبحانه وتعالى وأن يلتزم أحكام شريعته، وأن لا يعتمد على هواه ولا على أفكاره، وأن لا يغتر بكثرة أو بقلته، وأن لا يغتر برعاع الناس، ولا يغتر بالموضات الفكرية، والدعاوى الفارغة، والشعارات الزائفة، أوصيه بأن يلتزم بنهج رسول الله صلى الله عليه وآله، أوصيه أن يلتزم نهج أمير المؤمنين ونهج الأئمة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، سواء في القول أو في الفكر أو في العمل، وأن يعامل الناس برّهم وفاجرهم بالخلق الإسلامي الرفيع. وأستغفر الله لي ولكم وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الفهرس

3	المقدمة
---	---------

الباب الأول: الثقافة الإسلامية العامة:	
8	الاجتهاد في الأحوال الشخصية
28	علاقة الديمقراطية بالإسلام
44	الإسلام والقومية
62	سلطة الحكم في الإسلام (1)
70	سلطة الحكم في الإسلام (2)
74	سلطة الحكم في الإسلام (3)
77	معالم التحريف في الثقافة الإسلامية (1)
93	معالم التحريف في الثقافة الإسلامية (2)
111	الفتنة (1)
124	الفتنة (2)
140	الفتنة (3)
151	الحق
163	الحرب العقائدية
174	الحرية
177	الإشاعة (1)
183	الإشاعة (2)
192	تحريف الكلم (1)

199	تحريف الكلم (2)
207	دعوة الحق
216	مفهوم الوحدة
221	بين منطقيين
227	التوغل في الدين بالرفق والدين

الباب الثاني: الأخلاق:	
236	التوكل
244	التوبة
266	إصلاح ذات البين
274	حول آداب ومجالسة العلماء
282	فضل العلماء ودرجاتهم

الباب الثالث: الفقه:	
290	مناصب الفقيه
298	حرمة الغناء في الإسلام
306	حرمة الغناء في الإسلام (2)
312	حرمة الغناء في الإسلام (3)
321	اختلاف العلماء في إثبات الهلال
333	طرق إثبات الهلال وزكاة الفطرة
340	حجية قول الفلكي
349	معنى العدالة عند صاحب الحدائق
356	بعض أحكام وآداب صلاة الجماعة

الباب الرابع: كلمات المناسبات:	
<u>أولاً: المواليد والوفيات:</u>	
361	العزاء
370	ظلامه الإمام الحسن
377	غربة الإسلام
383	الشعائر الحسينية
391	التهيئة لظهور الإمام المنتظر
397	الصبر على المبدأ والرفق في الأمور عند النبي صلى الله عليه وآله
<u>ثانياً: تأييد العلماء:</u>	
402	تأييد الشيخ عبد الحسن
409	فكر العلامة الشيخ حسين العصفور
436	تأييد الشيخ يوسف والشيخ حسين
443	تأييد الشيخ محمد الشيخ منصور الستري
<u>ثالثاً: المناسبات العامة:</u>	
445	مولد الإمام المنتظر - افتتاح مسجد المُشَرَّف
450	عمارة المساجد - افتتاح مسجد الفردان

الباب الخامس: الكلمات السياسية:	
454	سيرة طواغيت العراق مع العلماء
467	رسالة
472	توضيح
479	دعوة للتألف ونبذ البغضاء
486	تساؤلات (1)

494	تساؤلات (2)
500	تساؤلات (3)
507	موقفنا من الحياة النيابية (1)
513	موقفنا من الحياة النيابية (2)
518	المفلسون